محمد إقبال

فيلسوف الذاتية



د. حسن حنفي

المدار الإسلامي



د. حسن حنفي

المؤهلات العلميّة:

دكتوراه الدولة في الفلسفة، جامعة باريس، السوربون، 1966.

يتقن العربية، الإنكليزية، الفرنسية، الألمانية.

التدرُّج الوظيفي:

عمل أستاذاً للفلسفة في جامعة القاهرة منذ 1967.

رئيس قسم الفلسفة،كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1988 - 1994.

أستاذ متفرغ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1995 حتى اليوم.

المهمات العلمية:

أستاذ زائر، جامعة تمبل فيلادلفيا، أميركا، 1971 - 1975.

أستاذ زائر، جامعة فاس، المغرب، 1982 - 1984.

أستاذ زائر، جامعة طوكيو، 1984 - 1985.

مستشار علمي للبرامج، جامعة الأمم المتحدة، طوكيو، 1985 - 1987.

أستاذ زائر، جامعة UCLA، ربيع 1995.

أستاذ زائر، جامعة بريمن، ربيع 1998.

عضو في العديد من الجمعيّات العلميّة.

الأعمال العلميّة، بالعربية:

- المعتمد في أصول الفقه لأبي الحُسين البَصْري، (جزءان)، دمشق، 1964. (تحقيق).
- نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، الإسكندرية، 1968. (ترجمة).
- رسالة في اللاهوت والسياسة لاسبينوزا، القاهرة، 1973. (ترجمة).
- لسنج: تربية الجنس البشري، القاهرة، 1977. (ترجمة).
- سارتر: تعالي الأنا موجود، القاهرة، 1977. (ترجمة).
- التراث والتجديد، القاهرة، 1980.
- دراسات إسلامية، القاهرة، 1982.
- دراسات فلسفية، القاهرة، 1987.
- من العقيدة إلى الثورة، (خمسة أجزاء)، القاهرة، 1988.
- الدين والثورة في مصر، (ثمانية أجزاء)، القاهرة، 1989.

محمد إقبال

فيلســوف الذاتيــة

محمد إقبال

فيلسوف الذاتية

الدكتور حسن حنفي

دار المدار الإسلامي

محمد إقبال فيلسوف الذاتية
الدكتور حسن حنفي

الطبعة الأولى
حزيران/يونيو/الصيف 2009 إفرنجي

موضوع الكتاب فلسفة
تصميم الغلاف دار المدار الإسلامي
الحجم 17 × 24 سم
التجليد فنّي مع جاكيت

ردمك ISBN 9959-29-415-9
(دار الكتب الوطنية/بنغازي ـ ليبيا)

رقم الإيداع المحلي 2007/183

دار المدار الإسلامي
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس،
هاتف 04 03 75 1 961 + **خليوي** 39 39 93 3 961 +
05 03 75 1 961 + **فاكس** 07 03 75 1 961 +
ص.ب. 14/6703 بيروت ـ لبنان
بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية
زاوية الدهماني، شارع أبي داود، بجانب سوق المهاري، طرابلس ـ الجماهيرية العظمى
هاتف وفاكس: 013 07 34 21 218 + **نقال** 463 45 21 91 218 +
بريد إلكتروني: **oeabooks@yahoo.com**

الإهداء

بروحي للحياة مع الفناء

صراع، لا أرى غير البقاء

(محمد إقبال)

حسن حنفي

مدينة نصر، يناير 2006

مقدمة

1 ـ تصدير

سمعت عن محمد إقبال لأول مرة ونحن طلّاب في الثانوية 1947-1952، منشئ باكستان عام 1948، عيد استقلال الهند، ونشأة دولة باكستان «الأرض المقدسة». هو المفكر، ومحمد علي جناح القائد. كان هذا هو الحل الوحيد للتخلص من الاقتتال الدائر بين المسلمين والهندوس الذي لم تشفع معه سياسة غاندي وإضرابه عن الطعام. كنا إسلاميين بالطبيعة، مع باكستان أكثر مما كنا مع الهند. ولم نكن نعرف بعد «حزب المؤتمر» بزعامة نهرو ونضاله ضد الاستعمار البريطاني بالرغم من تأييد الهند لثورة 1919، ومراسلات غاندي مع سعد زغلول، وبالرغم من تأييده لقضية فلسطين. فعام 1948 هو عام النكبة، تقسيم الهند، وتقسيم فلسطين، وإقامة النظام العنصري في جنوب أفريقيا.

وفي أواخر الثانوية العامة بدأ النضال الداخلي المصري ممثلاً في أربعة اتجاهات: أولاً، الوفد خاصة جناحه اليساري، الطليعة الوفدية أثناء انتخابات 1951 التي اكتسح فيها الوفد معظم مقاعد البرلمان. ثانياً، الإخوان المسلمون الذين لم يشتركوا في اللجنة الوطنية للطلبة والعمال في 1946 لخطأ في التحليل السياسي. ثالثاً، مصر الفتاة لأحمد حسين وقد كان غامضاً بالنسبة لنا ونحن طلاب. فيه وطنية مثل الجميع وبه اشتراكية ولكن به قوة وعنف. رابعاً وأخيراً الماركسيون. وكانوا على أنواع أهمها الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو). وكانوا أقلية أيضاً. وكنا بتوجهاتنا الوطنية الإسلامية التقليدية ننأى منها خاصة وأن سلوكهم كبشر كان مما لا تألفه العادات المصرية. كانت قلوبنا أقرب إلى الوفد ممثلاً للحركة الوطنية الرئيسية في الشارع المصري.

وفي صيف 1952 عام الثورة، انضممت إلى جماعة «الإخوان المسلمين» رسمياً، عضواً في شعبة «باب الشعرية». ودخلت الجامعة وأنا إخواني. وبالرغم من انفعالنا بثورة 23 يوليو مثل كل المصريين خاصة بعد طرد الملك في 26 يوليو، وتحويل مصر من ملكية إلى جمهورية، والقضاء على الإقطاع ومجتمع النصف في المائة إلا أن الصراع كان مع القوى الوطنية ممثلة في الوفد أولاً في 1953 ثم في الإخوان والشيوعيين فيما يعرف بأزمة مارس 1954 قبل أن يتحول عبد الناصر إلى بطل قومي بعد تأميم القناة في يوليو 1956، والعدوان الثلاثي على مصر في أكتوبر، ثم انسحاب القوات البريطانية والفرنسية والصهيونية في ديسمبر من نفس العام.

عرفنا إقبال ومحمد خان، والأفغاني ومحمد عبده والكواكبي وعلال الفاسي في ذلك الوقت كمصلحين كبار. وهو التيار الإصلاحي الثوري الذي فجر ثورة عرابي في مصر. وأقام دولة باكستان. وكان وراء الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، وفي السودان في الثورة المهدية، وفي ليبيا في الحركة السنوسية، وفي حركة الأئمة الأحرار في اليمن. وامتدت الحركة الإصلاحية في وعينا السياسي إلى الألوسيين في العراق، والشوكاني في اليمن، ومحمد بن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية، ومصطفى السباعي في سوريا، وسيد قطب في مصر، والمودودي في باكستان الوليدة، وحركة «فدائيان إسلام» في إيران.

استمعنا إلى إقبال على نحو علمي في درس الفلسفة المعاصرة في السنة الرابعة من أستاذنا «عثمان أمين»، بالرغم من اعتراضنا أن ذلك لا يدخل في الفلسفة الغربية المعاصرة، ولم يكن الفكر العربي المعاصر قد دخل بعد ضمن المقررات. ورب ضارة نافعة. تعلمنا منه الكثير فيما يتعلق بالحركة الإصلاحية خاصة محمد عبده. وكان يقرأ فيهم منهج المثالية الترنسندنتالية التي سماها «الجوانية». وأصدر فيها كتاباً بهذا العنوان عام 1964 «الجوانية أصول عقيدة وفلسفة ثورة»[1]. وكان لا فرق عنده بين ديكارت وكانط وبرجسون وإقبال والأفغاني ومحمد عبده ومصطفى عبد الرازق والعقاد «رواد الوعي الإنساني». كان يشرح لنا

(1) «من الوعي الفردي إلى الوعي الاجتماعي»، دراسات إسلامية، الأنجلو المصرية، 1982، ص 347 - 392.

«ضرب الكليم». ولأول مرة سمعت عن الذاتية والحرية والجمال والتخلق والآمال والإيمان والإلحاد ونقد الغرب المادي. وكما استمعت إلى فشته في الفصل الدراسي الأول، استمعت أيضاً إلى إقبال وانفعلت به وكأنني أسمع نفس الشيئ، ونفس الفلسفة. وعزمت حينها أن أكتب عن فشته وعن إقبال، منذ ما يقرب من نصف قرن، وكان ذلك عام 1956[1]. وكان إقبال يثيرنا أكثر من محمد عبده بسبب موقفه من الثورة العرابية وتنصله منها، وحسن معاملة الإنجليز واللورد كرومر له، ونفيه مجرد ثلاث سنوات، أستاذاً بكلية المقاصد الإسلامية ببيروت.

قرأت «تجديد التفكير الديني في الإسلام» في صيف 1956. وقرأت «ضرب الكليم» وأنا أستاذ في 1966 أدّرس الفكر العربي الحديث كموضوع خاص. وظللت أجمع أعماله على مدى أربعين عاماً، نثراً وشعراً. وآخر مرة أثناء زيارتي للاهور وأنا أزور مسجد لاهور، ومقبرة إقبال بجواره؛ صورت مجموعة أشعاره التسع من أكاديمية إقبال. ثم حصلت أخيراً على «رسالة الخلود نثراً»[2]. وكان السؤال عن مبدأ الحركة في الإسلام هل هو التصوف أم الأصول، الكشف أم الاجتهاد؟.

الظروف متشابهة لظروف المسلمين في الهند، الخمول والكسل واللامبالاة. لذلك صاغ لهم إقبال فلسفة الذاتية. وظروف الأمة بعد ذلك بستين عاماً لم تتغير بالرغم من الثورات العربية في منتصف الخمسينيات. فبالرغم من استمرار العدوان الصهيوني على الأمة في فلسطين، والأمريكي في العراق وأفغانستان، والروسي في الشيشان، والهندي في كشمير، والأسباني في سبته ومليليه في المغرب، وبالرغم من قيام حركات التحرر الوطني بواجبها في الخمسينيات والستينيات إلا أن المسلمين مازالوا مصابين باللامبالاة والفتور كما وصف الكواكبي في «أم القرى». لذلك أتى «محمد إقبال» فيلسوف الذاتية، تلبية لعهد قديم، وفي وقته وزمانه.

---

(1) فشته فيلسوف المقاومة، ط2 المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003، ط1 الجمعية الفلسفية المصرية (4)، القاهرة 2002.

(2) وقد قام بمساعدتي في إسلام أباد ولاهور الصديق الدكتور / خالد مسعود، رئيس «مجلس الإيديولوجيا الإسلامية». وقد تفضل مشكوراً الصديق محمد سعد جمال الدين بتصوير «رسالة الخلود» نثرا. والشكر أيضاً للصديق أ.د/ حسن الشافعي الذي ترجم «تطور الميتافيزيقا في فارس» والذي أيضاً أخذ على عاتقه تقديم كل المساعدة الممكنة.

كتاب «إقبال، فيلسوف الذاتية» وكتاب «برجسون فيلسوف الحياة» كلاهما تمهيد للمحاولة الرابعة لإعادة بناء العلوم الإسلامية القديمة بعد، «من العقيدة إلى الثورة» لبناء علم أصول الدين، و«من النقل إلى الإبداع» لإعادة بناء علوم الحكمة، و«من النص إلى الواقع» لإعادة بناء علم أصول الفقه وهي «من الفناء إلى البقاء» لإعادة بناء علوم التصوف. فلا يوجد فيلسوفان نظّرا للتجربة الصوفية قدر إقبال وبرجسون. الأول من الموروث، والثاني من الوافد.

2 ـ الموضوع والمنهج

«إقبال فيلسوف الذاتية» دراسة فلسفية محضة وليست أدبية في الشعر الأوربي أو الفارسي. فمؤلفات إقبال شعرية أو نثرية أعمال فلسفية مثل باقي أعمال الفلاسفة. فلا حاجة إلى نظرة أدبية على المنظومة[1]. والبحث في اللغات والأشكال الأدبية كل ذلك أدخل في الدراسات الأدبية وليس في الدراسات الفلسفية. المهم هو المضمون الفلسفي وليس الشكل الأدبي للدواوين الشعرية. فالدراسة عن إقبال الفيلسوف وليس إقبال الشاعر، يقوم بها مفكر وليس ناقداً أدبياً.

استُعمل منهج العرض وكأن إقبال يتحدث عن نفسه. وذُكرت الشواهد الشعرية، على الرغم من طولها، في الهوامش حتي يشارك القارئ في فهم التحليلات الفلسفية وتجاربها الشعرية. فالعبارة الشارحة للشعر أقل تأثيراً في القارئ من الشعر نفسه. والفصل بين الشرح والشعر، الشرح في أعلى الصفحة والشعر في أسفلها يحافظ على اتساق الخطاب الشارح، وأصالة الشعر وفطريته. والآية القرآنية أبلغ في فهمها وأصدق في الإحساس بها من كل كتب التفسير مهما زادت المجلدات، وعظمت العبقريات اللغوية والفقهية والتاريخية.

ليس العرض نقداً لأفكار إقبال بل هو في نفس الوقت عرض لأفكار المؤلف على لسان إقبال. وما اختلف معه فيه يكون بعد العرض وداخلاً فيه كنوع من التعليق أو الاستدراك أو التأويل أو الإكمال أو إعادة البناء طبقاً لظروف هذا العصر وتغيراته منذ النصف الأول من القرن الماضي الذي عاش فيه إقبال. في حين أن المؤلف يعيش في النصف الثاني منه.

(1) الأسرار والرموز، المقدمة ص 44 ـ 47.

وبالإضافة إلى منهج العرض يتم استخدام منهج القراءة والتأويل الذي يتمثل في انتقاء أكثر القصائد دلالة على الوضع الراهن وأكثرها مباشرة في التعبير عن الأوضاع. فبعض القصائد أكثر دلالة من القصائد الأخرى. وهي التي تعبر عن حرقة القلب وأزمة الواقع أكثر مما تعبر عن الأفكار الفلسفية والنظرات الميتافيزيقية. فالقصائد كلها ليست على نفس المستوى من حيث الدلالة. بعضها يؤثر في القلب مباشرة، والبعض الآخر في حاجة إلى تأمل وفهم وتدبر. اخترنا الأولى في الهوامش وليس الثانية. فالشاهد الشعري هو الذي يشعر قرّاؤه بمضمونه، ويشارك في نفس التجربة. كلاهما يعبر عن الواقع المعاصر وأزمة العصر بالرغم من انقضاء ثلاثة أرباع القرن تقريباً منذ وفاة إقبال. والمسافة بين جيل إقبال وجيل المؤلف ليست كبيرة. إذ ينتسب كلاهما إلى جيلين متعاقبين[1]. كما يعني منهج القراءة والتأويل دفع إقبال خطوة إلى الأمام من أجل توضيح الاشتباه فيه. إذ يمكن تأويله محافظاً أو متحرراً، رجعياً أم تقدمياً، يميناً أو يساراً، وذلك من أجل مزيد من التأصيل للإسلام الثوري أو لليسار الإسلامي في الموروث بعد تأصيله في الوافد «فشته، فيلسوف المقاومة»، عن طريق اختيار الشخصيات وإعادة رسم صور لهم مثل «الأفغاني» وعبد الله النديم[2]. فالبداية إقبال، والنهاية الإسلام الثوري.

لم يتم الاستشهاد بالقصائد كلها كاملة حفاظاً على وحدتها بل تم انتقاء أبيات منها تتعلق بالموضوع المدروس، وتجميع كل الأبيات من قصائد أخرى في نفس الموضوع. فالدراسة ليست أدبية تحافظ على وحدة القصيدة بل فلسفية تحافظ على وحدة الموضوع. وهما نفس المنهجين في تفسير القرآن: المنهج الطولي الذي يحافظ على وحدة السورة ويضحي بوحدة الموضوع، والمنهج العرضي الذي يحافظ على وحدة الموضوع ويضحي بوحدة السورة.

وتقوم هذه الدراسة على المصادر الأصلية لإقبال الشعرية أولاً ثم النثرية ثانياً دون الاعتماد على الدراسات الثانوية. وما أكثرها في التراجم والدراسات بالأردية

(1) توفي إقبال عام 1938 وولد المؤلف عام 1935.

(2) جمال الدين الأفغاني، المائوية الأولى (1897 - 1997)، دار قباء، القاهرة 1998.

والفارسية والإنجليزية والعربية، بالإضافة إلى الرسائل الجامعية التي لم تطبع حتى الآن[1].

وبالرغم من بعض الفوائد من الدراسات الثانوية مثل إعطاء بعض المعلومات التاريخية إلا أنها مجرد تاريخ ورصد، دون تأويل وتطوير. هي أقرب إلى أن تكون موضوع دراسة لمعرفة موقف الباحث ورؤيته لإقبال منها أن تكون دراسة موضوع[2].

صحيح أن عدم العلم بالفارسية والأردية نقص كبير، ولكن الترجمة النثرية والشعرية العربية والأصول الإنجليزية سدت هذا النقص. فقد استطاعت الترجمات خاصة الشعرية نقل روح إقبال من لغته الأصلية إلى اللغة العربية حتى إن البعض منها تم تلحينه وغناؤه من سيدة الغناء العربي وكما حدث في رباعيات الخيام. وهو عيب ما زال كبيراً في أقسام الفلسفة في جامعاتنا العربية، وعدم الانتباه إلى اللغات الشرقية الفارسية والأردية والتركية قدر اهتمامنا باللغات الأوربية القديمة أو الحديثة[3].

3 ـ الترجمات الحالية

أحياناً يفرض النظم العربي منطقه. فتحذف بعض الأبيات الفارسية. فالترجمة نظماً ليست ترجمة حرفية بل ترجمة فنية. التطابق بين النصين المترجم منه والمترجم إليه يجوز في النثر، من النثر إلى النثر، من شكل فني إلى شكل فني مشابه أو على أقصى تقدير، من الشعر إلى النثر ولكن ليس من النثر إلى الشعر أو من الشعر إلى الشعر.

قد يكون المحذوف غير دال وغير شعري، مجرد أبيات للربط. فليست كل

(1) الأسرار والرموز، المقدمة ص52 ـ 56.

(2) من العقيدة إلى الثورة جـ1، المقدمات النظرية ص 230 ـ 231.
من النقل إلى الإبداع، المجلد (1)، الجزء (1)، المقدمة ص 71 ـ 76.
من النص إلى الواقع جـ1، تكوين النص ص 36 ـ 37.

(3) لذلك أدخلت اللغة الفارسية ضمن مقررات الدراسة، مرحلة الليسانس ثم مرحلة الدراسات العليا في قسم الفلسفة بكلية الآداب، جامعة القاهرة، أثناء رئاستي له 1988 ـ 1994.

الأبيات على نفس المستوي من الشعرية في الشعر الفلسفي أو في الفلسفة الشعرية. وذلك واضح أيضاً في محاولات القدماء مثل «القصيدة العينية» لابن سينا، وخاصة في الشعر التعليمي المتأخر في عصر الشروح والملخصات مثل «السلم المرونق» في المنطق[1].

التفصيلات والدقيقات الكثيرة في عدم التطابق بين الشعر المترجم منه والشعر المترجم إليه يقوم على أن الترجمة نظرية في المطابقة. في حين أن الترجمة هي إعادة تأليف طبقاً لمعايير اللغة المترجم إليها ومقاييسها الجمالية. الترجمة الشعرية من الكل إلى الكل، وليس من الجزء إلى الجزء، حرفاً بحرف، ولفظاً بلفظ، وعبارة بعبارة[2]. ترجمة الشعر الفلسفي من أجل المحافظة على دعواه للأمل والعمل والرقي بالإنسان.

قد يكون السبب في حذف بعض الأبيات سبباً يتعلق بالمضمون العقائدي أو الأخلاقي أو السياسي[3]. فالشعر ينتقل من بيئة إلى بيئة، من بيئة شيعية إلى بيئة سنية أو من منظومة قيم حرة إلى منظومة قيم محافظة أو من نظام سياسي حر إلى نظام سياسي تسلطي. وقد تصرف القدماء في ترجماتهم عن اليونان بنفس الطريقة،

(1) لذلك فإن الجهد العلمي الدقيق الذي بذله د. سمير عبد المجيد إبراهيم لإكمال ترجمة الأبيات الناقصة (150 بيتا) «الأسرار والرموز» جهد علمي نصي من حيث الحرف وإن لم يضف جديداً من حيث المضمون خاصة وأن الترجمة للأبيات الناقصة ترجمة نثرية. ديوان الأسرار والرموز للشاعر الفيلسوف محمد إقبال. ترجمه نظماً الدكتور عبد الوهاب عزام، درسه وحققه وأكمل ترجمته نثراً الدكتور عبد الحميد إبراهيم، قسم الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، دار الأنصار، القاهرة ط2، 1401هـ/ 1981م ص 57 ـ 118. وكان المترجم الأول سفيراً لمصر في باكستان نموذجاً للسفير العالم. وقد ترجم المثنوي في بحر الرمل في الشعر العربي. وكان الشاعر على علم بطبيعة الشعرين الفارسي والعربي. وساعده أن معظم المصطلحات الفلسفية العربية هي نفسها بالعربية في الفارسية، الأسرار والرموز ص2 ـ 4.

(2) الأسرار والرموز، المقدمة ص108 ـ 118، وأيضاً من النقل إلى الإبداع المجلد (1)، النقل جـ2 النص النص 1 ـ الترجمة وأيضاً شكري عياد، حوار الأجيال، ص393 ـ 408.

(3) وضع إقبال للطبعة الأولى لديوان «الأسرار والرموز» مقدمة. ثم أهدى بعض الأشعار إلى السيد علي إمام ثم التمهيد. وفي الطبعة الثانية حذف المقدمة ووضع بدلاً منها ثلاثة أشعار لحافظ. وحذف بعض أشعار الإهداء، وضم الباقي إلى التمهيد. وحذف الأشعار التي ينقد فيها حافظ ووضع مكانها عنواناً جديداً هو «حقيقة الشعر وإصلاح الآداب»، الأسرار والرموز، المقدمة ص47.

الحذف والإضافة، ولنفس الأسباب، الانتقال من الثقافة الوثنية إلى ثقافة التوحيد[1].

قد لا ينفعل الشاعر المترجم بقصيدة للشاعر المؤلف بالرغم من انفعال مترجم آخر للشعر إلى النثر أو حتى القارئ مثل قصيدة «في معني الحرية الإسلامية» وسر حادثة «كربلاء»[2]. وليس المقصود هو الحسين وكربلاء بل الفرق بين العقل العشق. وهو موضوع شائع في أشعار إقبال، خاصة في «ضرب الكليم». يمثل الحسين العشق، ويمثل أعداؤه الهوس بمعنى عقل السلطة أو عقل الحكم أو عقل المصلحة أو عقل الدولة. يتطلب العشق الاتحاد بالله، وقوة الإيمان، والشجاعة، والجهر بالقول، والمقاومة، والمغامرة. في حين أن العقل مصلحة وسفك للدماء. العشق ينال الهدف تلقائياً بالفطرة، والعقل خوف وشك. العشق يعمّر، والعقل يخرب. العشق ينجح، والعقل يفشل. العشق تلقائي، والعقل يحسب. العشق تضحية، والعقل أنانية. العشق نعمة وفضل، والعقل كسب ومران. العشق تحرر، والعقل عبودية. العشق راكب، والعقل مركوب. من العشق تتولد النماذج والمثل العليا، ومن العقل تتولد الأرض. العشق غيور للحق، والعقل مساوم مع الباطل. العشق توحيد، والعقل فرقة.

الحسين نموذج سورة الإخلاص وهي تعادل ثلث القرآن. هو موسى في مقابل فرعون، والخلافة في مواجهة الخروج، والشرعية ضد اللاشرعية، والعدل في مواجهة الظلم، والتضحية ضد الأنانية، واليقين ضد الشك، والعزيمة ضد التردد، والحر ضد العبد، ويقظة الضمير الحي في مواجهة قلق الضمير الميت.

والبعض شائع ومكرر. وهو نقص في البلاغة في الشعر والنثر خاصة الشعر لقدرته على التركيز مثل «الأركان التي لا توصف بالأساسية لأن معنى الأساس متضمن في الركن»[3].

قد يُقال أن من حق الجيل الجديد أن يراجع الجيل القديم مع احترام كامل

(1) من النقل إلى الإبداع المجلد الأول النقل ج3 الشرح.

(2) وهي حوالي 39 بيتاً، الأسرار والرموز، المقدمة ص97 ـ 107.

(3) الأسرار والرموز، المقدمة ص94.

دون تطاول أو تعالم عليه، ولكن من حق الجيل القديم أن يكون أكثر شاعرية من الجيل الجديد، وأن يفرق بين ترجمة الشعر وترجمة النثر، بين الترجمة المعنوية والترجمة الحرفية، بين ترجمة الصورة الفنية وترجمة اللفظ أو العبارة، بين ترجمة المتذوق وترجمة القاموس. الشعر عند الشاعر صورة ومضمون وتجربة. والترجمة عند المترجم قد تكون عبارة ومعنى دون تجربة شعرية بل ودون تجربة حياتية تتعلق بأحوال المسلمين وحمل همومهم ومعاناة مآسيهم[1].

الأخطر أن يُظن أن المترجم الشاعر أهمل عن قصد أو عن غير قصد الترجمة الكاملة وبالتالي نشأ الحذف نتيجة لهذا الإهمال لأنه يذكر المحذوف تنبيهاً للقارئ[2]. وإن لم يشر فلمقتضيات الشعر وحموة تجاوز الحرف إلى الصورة الشعرية.

صعوبة الأمر في أن يعوض الجيل الجديد نقصه الشعري بالتعالم العلمي والزيادة في المعلومات. وقد تكون بديهية وشائعة لدى كل الأجيال[3]. والبعض منها أخطاء مطبعية شائعة في المطابع العربية[4].

قد يكون ترجمة التشيع في بيئة سنية مانعاً من نشر شعر إقبال خاصة وقد سادت السلفية عند ابن تيمية شبه الجزيرة العربية موطن الإسلام، مع أن التشيع دين شعبي حتى عند السنة. وحب آل البيت، وفضائل علي وعلمه، واستشهاد الحسين تراث إسلامي مشترك، لا فرق بين شيعة وسنة.

اختيار علي لمدح فضائله خاصة بعد حديث الرسول «أنا مدينة العلم وعلي بابها»، ووصفه بأنه «المسلم الأول». وحذف الوصف والصفة قد يكون اعترافاً بفضل باقي الصحابة خاصة الشيخين، وتجنباً لنقاش قديم قد يحدثه الشعر الجديد حول الأفضلية بين الصحابة. فيوقظ فتنة نائمة تتجاوزها محاولات التقريب بين المذاهب. وكثير منها صور فنية من الشاعر مثل البستان وزمزم واللحن[5]. والبعض

---

(1) حوار الأجيال ص9.

(2) الأسرار والرموز، المقدمة ص68 ـ 70.

(3) السابق ص 74 ـ 87.

(4) السابق ص 86.

(5) وهذه الأوصاف هي: المسلم الأول، ملك الرجال، العشق أساس إيمانه، حب أهله، التفاؤل =

مغالي فيه مثل المغالاة في وصف الذاتية بانبثاق نظام العالم منها وقدرة شروق الشمس من الغرب!

4 ـ أعمال إقبال

تقع أعمال إقبال في شكلين أدبيين: الشعر والنثر. والشعر بلغتين، الأردية والفارسية[1]. والنثر عدة أنواع: الرسائل العلمية، والمحاضرات، والأفكار، والرسائل المتبادلة[2].

استطاع إقبال إخضاع الفلسفة للشعر، والفكر للنظم. كما استطاع إخضاع

= برؤية وجهه، قوة الدين، توقف نظام الكائنات عليه، أبو تراب، ثورة الحق في سيفه، هزيمة النفس الأمارة بالسوء، ملك العالم بالجهاد، عظيم خيبر، باب العلم، قوة الرجولة الحقة، الأسرار والرموز، المقدمة ص81 ـ 85.

(1) الأعمال الشعرية تسعة دواوين هي:
1 ـ صلصلة الجرس (بانكادرا).
2 ـ الأسرار والرموز (أسرار إثبات الذات ورموز نفي الذات)، (أسرار خودي ورموز بنجودي).
3 ـ رسالة الشرق (بيام مشرق).
4 ـ زبور العجم.
5 ـ جناح جبريل (بال جبريل).
6 ـ ضرب الكليم.
7 ـ رسالة الخلود (جاويد نامه).
8 ـ والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق...؟
9 ـ هدية الحجاز (أرمغان حجاز).

(2) الرسائل مثل: 1 ـ رسالته «تطور الميتافيزيقا في فارس» التي حصل بها على درجة الماجستير 1908.

والمحاضرات مثل «تجديد التفكير الديني في الإسلام» 1930. والأفكار مثل «أفكار هائمة» Stray Reflections، وآراء وأفكار .Thoughts and Reflections، والرسائل مثل «رسائل وكتابات إقبال» Letters and Writings of Iqbal. «رسائل إقبال إلى علي جناح» Letters of Iqbal to Jinnah. ولإقبال «علم الاقتصاد» بالأردية عام 1902. ويقسم البعض أعماله إلى فلسفية، وأدبية، وسياسية، ودينية. Thought, p. XI - XII! وقد كتب إقبال عدة كتب أخرى غير متوفرة وهي:

- Islam and Khilafat, Sociological Review of London, 1908.
- Islam as a Social and Political Ideal, address delivered in Aligrah, 1910.
- Inner Synthesis of Life, Indian Review of Madras, 1926.
- Note on 'Qurratul Ain'.

الشعر للفلسفة، والنظم للفكر كما فعل أبو العلاء المعري وابن الفارض وابن عربي.

عظمة عبد الوهاب عزام أنه استطاع ترجمة الشعر شعراً من الفارسية إلى العربية، فشاعرية المترجم على قد شاعرية الشاعر.

لا فرق بين أعمال إقبال وحياته وعصره. أعماله تجربة عمره. وحياته مرآة عصره. ومن ثم كان عرض الأعمال هو في نفس الوقت عرض للحياة والعصر دون ما حاجة إلى عرض مسبق للحياة والعصر قبل عرض الأعمال.

تم عرض الأعمال طبقاً لترتيبها الزماني قدر الإمكان كما تم في عرض «فشته، فيلسوف المقاومة» من قبل. وفائدة ذلك التعرف على التطور الفكري للشاعر، وتتبع نشأة أعماله، وتكوين فكره. ولحسن الحظ يكون هذا العرض الزماني مطابقاً لعرض الموضوعات وبنيتها الداخلية كما حدث أيضاً في «فشته، فيلسوف المقاومة». فلا فرق بين التوالي الزماني (الدياكرونيك) والمعية الزمانية (السنكرونيك) وكما هو الحال في الوحي، لا فرق بين تطوره وبنيته خاصة في العقائد.

لم يكن هناك تبويب مسبق يفرض نفسه على الموضوع بل نتج التبويب من طبيعة الموضوع وتطوره الزماني. وهي طريقة برجسون في رؤية الأشياء حدسياً، وطريقة هوسرل في العود إلى الأشياء ذاتها. فالمضمون يفرض نفسه على الشكل.

5 ـ التبويب

كان يمكن تبويب أعمال إقبال ومحاور فكره طبقاً للجبهات الثلاث في مشروع «التراث والتجديد»: الموقف من التراث القديم، الموقف من التراث الغربي، الموقف من الواقع أو نظرية التفسير. وبلغة إقبال، الأنا أو الذاتية، والآخر أو الذاتية المضادة، والواقع الذي يتم فيه التفاعل بين الذاتية والذاتية المضادة. وصعوبة ذلك هو تداخل الجبهات الثلاث، وصعوبة الفصل بينها، بالإضافة إلى تضخم الجبهة الأولى على حساب الجبهتين الثانية والثالثة نظراً لأن الذاتية هي المحور الرئيسي في فكر إقبال الساري في الجبهات الثلاث[1].

(1) تضم الجبهة الأولى أعمالاً مثل: الأسرار والرموز، رسالة المشرق، والآن ماذا نصنع يا أمم =

استقر التبويب الموضوعي على سبعة أبواب وفي كل باب فصلان. الأول «الذات وإثباتها»، وتشمل الذات الفرد، والذات المشتركة أي الأمة. والثاني جدل الذات. ويشمل التأويل، ونفي الذات (التصوف). والثالث الشكوى والأنين. ويضم الشكوى والجواب، والأنين والحنين. والرابع السقوط والنهوض. ويضم مظاهر السقوط، وعوامل النهوض. والخامس الذات المضادة. وتشمل التغريب، والغرب والشرق. والسادس التراث والتجديد. ويضم الاستشراق، والإصلاح. والسابع الدولة والأمة. ويحتوي على نظام الدولة، وحال الأمة. والتبويب على هذا النحو يشمل الفلسفة النظرية إثبات الذات دون نفيها، وتجلياتها في الأخلاق والاجتماع والسياسة والتاريخ.

تأتي عناوين الأبواب والفصول أحياناً من عناوين الدواوين مثل «الشكوى والجواب». وأحياناً تشير إلى بعض الدواوين مثل الذات إشارة إلى «أسرار خودي». وأحياناً ثالثة يعبر العنوان عن المضمون وليس الاسم مثل السقوط والنهوض وهو الموضوع الرئيسي في «ضرب الكليم»، والاستشراق وهو موضوع «تطور الميتافيزيقا في فارس»، والإصلاح وهو موضوع «تجديد التفكير الديني في الإسلام». وأحياناً رابعة يشير العنوان إلى عدة موضوعات متناثرة في ثنايا الدواوين والكتابات النثرية مثل «نظام الدولة» و«حال الأمة».

= الشرق؟، صلصلة الجرس، كتاب العبيد، هدية الحجاز، رسالة الخلود، جناح جبريل. ومن الأعمال النثرية: تطور الميتافيزيقا في فارس، تجديد التفكير الديني في الإسلام. وتضم الجبهة الثانية ضرب الكليم. وتضم الجبهة الثالثة شكوى وجواب شكوى وبعض الكتابات والرسائل مثل: أفكار هائمة، أفكار وتأملات، خطابات وكتابات، رسائل إلى جناح.

الباب الأول

الـذاتيــة

الفصل الأول

الـذات

1 ـ مقدمة: «أسرار النفس»

عرض إقبال فلسفة الذات في «أسرار النفس». وقد نشر لأول مرة في 1915. واستشار إقبال بعض أصدقائه في أفضل عنوان. وأشاروا «أسرار الحياة». إلا أن إقبال فضل «أسرار الذات» لأن لفظ «الذات» يعبر عن مقصوده، بالرغم من أنه مجهول بين الناس على عكس «شكوى وجواب وشكوى» الذي يعبر عن أوجاع المسلمين وهمومهم[1].

عرف ديوان «أسرار النفس» بأنه ديوان واحد[2]. وهو في الحقيقة ديوانان أو قسمان: الأول «أسرار النفس» لإثبات الذات، والثاني «رموز النفس» لنفي الذات. والتقابل دال. إثبات الذات في مقابل نفي الذات وهو ما يعادل التقابل بين «من الفناء إلى البقاء». وهو ما يعادل أيضاً المصطلحين في اللغات الأجنبية[3]. أما من حيث مضمون النص فإن «فناء الذات» ليس نقيض «إثبات الذات» بل التحول من الفرد إلى الجماعة، من الذاتية الفردية إلى الذاتية الجماعية أي الأمة أو بتعبير

---

(1) الأسرار والرموز، مقدمة المترجم (د. سمير عبد الحميد إبراهيم) ص1 ـ 1.

(2) ترجم نيكلسون القسم الأول فقط

Dr. Sir Muhammad Iqbal: The Secrets of the Self; translated from the original Persian with introduction and notes by Reynold A. Nicholson, Litt. D. LL. D. SH. Muhammad Ashraf, Kashmiri Bazar, Lahore, 1 Ed. Macmillan. 1920, 7th E. 1969.

(3) إثبات الذات Self-Affirmation. نفي الذات Self-Negation. البقاء أيضاً Self-Affirmation! أما الفناء فهو Self-Annihilation.

هوسرل الذاتية المشتركة أو العلاقات بين الذوات[1]. وقد نقل الشاعر المعنى الشائع «خودي» من المعني السلبي وهو الأثرة أو الإعجاب بالنفس إلى الذات بالمعنى الإيجابي، وهو تعرف الإنسان على نفسه وتقويتها، وإخراج ما أودع فيها من إمكانيات[2].

أضاف إقبال في الطبعة الأولي للديوان مقدمة عن نفي الذات أو إهمالها وأسباب انتشارها عند المسلمين، وسبب تخلي المسلمين عن أهدافهم. كما بين فيها معنى لفظ الذات. ثم حذفها في الطبعة الثانية لأن النثر لا يعبر عن إحساس الشاعر. ويخلو من الصورة الفنية، جوهر الشعر. يتحكم فيها العقل بأحكامه المحتملة للصواب والخطأ على عكس صدق الشعر.

ولفظ «خودي» غير لفظ «شعور». «خودي» هي الوحدة الوجدانية، نقطة استنارة في الشعور الإنساني. أما الوجدان فيوجد حتى عند الطفل قبل أن يبلغ درجة النضج. وإثبات الذات «خودي» نقطة التنوير. وفي ترابها يكمن سر الحياة. هي أقرب إلى الفطرة الإنسانية، أحوالها وحالاتها مثل الكتاب مجمع صفحاته. لا تعني المعنى العادي في الأردية وهو الأثرة بل تعني الإحساس بالنفس أو تعين الذات. الذات استعداد عقلي، أقرب إلى الطبيعة والجبلة. وجهتها الحق، صامدة كالجبل. وهو أهم ديوان فلسفي عرض فيه إقبال فلسفته في الذات في فصول مرتبة وكأنه عمل فلسفي وليس منظومة شعرية[3].

في خلاصة المقدمة التي كتبها إقبال لـ«أسرار خودي» يتساءل: ما هذا الشيئ الذي نسميه «أنا» أو «خودي» أو «مين» (الأردية) الذي يتجلي في أعماله ويختفي في حقيقته؟ يخلق كل المشاهدات ولكنه لا يُرى. هي حقيقة في الحياة وليست خداعاً أو وهماً. تتجلى بمقاصدها، وتبدو بأهدافها. وهي أساس وجود الفرد والجماعة بالرغم من ميل أمم الشرق إلى اعتبارها مجرد خداع خيال، تريد التخلص منها. في حين تميل أمم الغرب إلى إثباتها. لذلك تكاسل الشرق ونشط

(1) الذاتية المشتركة والعلاقات بين الذوات Intersubjectivité.

(2) الأسرار والرموز ص10 ـ 11.

(3) السابق، المقدمة ص10 ـ 13/ 19.

الغرب لأن الذات هي مصدر العمل. ينشط الأفراد والجماعات بإثباتها، وتخمل بنفيها.

لقد تسرب نفي الأنا إلى المسلمين من الفلسفة الهندوسية التي ترى أن الأنا هو أساس البلاء وأصل المصائب والآلام لأنها تعمل، وأن الذاتية نتيجة للعمل. والعمل والضرورة تعبير عن الأهواء والانفعالات والرغبة التي يجب إماتتها. هذا هو الطريق. وبالتالي تموت الذات. والإسلام على العكس من ذلك دعوة للعمل. ويُنال الخلود بالعمل إلى الخلود. فلا خلود إلا بالعمل. والعمل هو طريق الخلود. ولا فرق بين «الجيتا» الهندية ووحدة الوجود عند ابن عربي بعد أوحد الدين الكرماني وفخر الدين العراقي. إنما الفرق في المنهج. فقد اتبع فلاسفة الهند طريق العقل. واتبع الشعراء طريقة القلب أو الذوق وهو الأخطر لأنهم أكثر تأثيراً في العامة، في حين لا يخاطب العقل إلا الخاصة. فتكاسل الناس، وتخلّوا عن العمل. وقد جمع إقبال بين البرهان الفلسفي والخيال الشعري لإثبات الذات والشعر وسيلة للاتصال بالناس والتأثير فيهم[1].

واضح أن جلال الدين الرومي هو الشاعر النموذج. فهو الأكثر ذكراً في «أسرار الذات». وبعده يأتي من الأنبياء موسى والمصطفى. ثم يظهر باقي الصوفية المسلمين مثل جامي والعطار والتبريزي. ومن الفقهاء يظهر الشافعي في مقالته الشهيرة «الوقت سيف»[2]. ويتداخل أبطال فارس مع أبطال الإسلام، رستم وحيدر (علي بن أبي طالب). كما يظهر أبطال فارس وحدهم مثل شيرين وفرهاد. وتظهر الثقافة الفارسية قبل الإسلام بأساطيرها وأبطالها. فما زالت حية في الوجدان. وتداخلت مع الثقافة الجديدة، الثقافة الإسلامية[3]. ومع فارس تتداخل الهند. فإقبال هندي يكتب بالفارسية. وتُذكر مدن الهند مثل لاهور، ومدن فارس مثل

---

(1) السابق، مقدمة إقبال ص13 ـ 15.

(2) جلال الدين الرومي (8)، موسى، المصطفي (3)، نظيري النيسابوري، جامي، العطار، التبريزي، الشافعي، حيدر(1). شيرين، فرهاد، رستم (1). أفلاطون (2)، المشاء، الروم (1). هذي، فارس (2)، فهلوي، لاهور، الهند، تبريز(1).

(3) طـينـتـي مـن جـام جـم أنـور   مـن غـيـوب الـكـون عـنـدي خـبـر

جام أي كأس جمشيد. وفي أساطير الفرس كان عند الملك جمشيد كأس يرى فيه الأقاليم السبعة. استعمله إقبال كصورة على رؤية الغيب. الأسرار والرموز، ص5.

تبريز. ومن اليونان يظهر أفلاطون. والمشاء وهو أرسطو هو الروم.

2 ـ الذاتية الحقيقة الوجودية الأولى

هي حقيقة بديهية، شعور الإنسان بذاته، وأنه غير العالم وغير الآخرين. هو قانون الهوية الذي طالما تحدث عنه الفلاسفة، الأنا تساوي الأنا، قبل أن تكون الأنا لا تساوي غيرها. وفي صيغة رياضية أ = أ قبل أن تكون أ # ب. قانون الهوية يسبق قانون الاختلاف. وهو نفس القانون عند فشته[1].

ومع ذلك تحتاج إلى إثبات، ليس للنفس بل للآخر، لمن لا يجدها. لذلك يصدّر إقبال «أسرار الذات» بمقطع من جلال الدين الرومي يذكّر بديوجين الفيلسوف اليوناني الذي كان يمسك بمصباح في وضح النهار يبحث عن الإنسان. فالشيخ بالمصباح يسعى في كل ناصية بعد أن ضاق بالأحياء يفتش عن الإنسان، باحثاً عنه حتى ولو كان محالاً[2].

الذات تثبت ذاتها ليس ببرهان عقلي ولكن بدمع العين في السَّحَر[3]. ومن خلال الخوف من البحر دون أمان، وفي أمان الصوفي تكمن الذات، محافظة على نفسها[4]. وعار على البحر ألا تخرج منه درة ذات شان. ومعرفة النفس تجعل العتيق كالصوان[5]. ليست الذات قشة أو شوكة في مرعى. بل هي قلب العالم وجوهره. فلا ينظر إليها باحتقار[6]. تقوم الذات من ذاتها. لا تثبت بفلسفة غربية ولا

---

(1) فشته فيلسوف المقاومة، الباب الثاني: نظرية العلم، الفصل الثاني، ص183 ـ 187.

(2) رأيت الشيخ بالمصباح يسعى ... له في كل ناحية مجال
يقول مللت أنعاما وبَهْما ... وإنسانا أريد فهل يُنال
فقلنا ذا محال قد بحثنا ... فقال ومنيتي هذا محال
الأسرار والرموز ص3.

(3) قيوم ذاته سحرا ... بدمع العين أواه
ضرب الكليم ص121.

(4) Persian Psalms, p. 47.

(5) إن عارا معيشة البحر إن لم ... تطلعي منه درة ذات شان
يا جهولا بقدر نفسك لولا ... أنت كان العتيق كالصوان
رسالة الشرق ص311.

(6) Persian Psalms, p. 53.

بفلسفة شرقية، ولا ببيت عبادة وتشييد أصنام. تستطيع الذات أن تعبر الصحراء بلا خوف بالتركيز على ذاتها. والعالم كله منها وفيها[1]. فإذا كانت الذات مع آخرين فإنها لا تذوب فيهم. هي معهم وليست منهم. أليفة معهم وغريبة عنهم[2].

معرفة الذات بديهية. والتبعية للغير في حاجة إلى تساؤل واستغراب. البداهة الذاتية واضحة بالرغم من ماضيها من قلق وحيرة. من البداهة أن الذات من طين. تعرف قدر ذاتها. ليس لديها إلا الذاتية وملكيتها لها وليس لغيرها. وامتلاك الذات يمنع من انتهاك عرضها. فلماذا لا تعبر الذات عن نفسها؟ إن كان خطأ في تصميمها فيمكن تصحيحه. قيمة الإنسان خروجه من الفخار[3]. والغوص في الذات قدر المستطاع. فحياة الإنسان في بحره. والانتساب هو الانتساب إلى الذات[4]. وهي معرفة يغبطها جبريل لأنه لم يأت بها من اللوح المحفوظ بل هي نابعة من القلب[5].

الفرق بين الإيمان والكفر إثبات الذات[6]. ومن أثبت الذات فإنه يستحق

---

(1) Ibid., p. 108 - 9.

(2) Ibid., p. 112.

(3)
واضح قولي وفكري نير رغم أني حافل بالحير
طينتي هذي التي أملكها كل ما أعرفه عن قدري
ليس عندي غير شيء واحد أنا أم أنت الذي يملكه؟
أنت لو مكّنتني من صونه عن زماني لم أكن أهتكه
كيف لا تُعرب عني صرختي كيف لا تملأ أرجاء السماء
أنا غنيت كما علمتني أنا أم أنت الذي صاغ الغناء؟!
خطأ إن كان في تصحيحنا ما الذي يدعو إلى تكراره؟
ذلك الإنسان ما قيمته ومتى يخرج من فخّاره؟

جناح جبريل ص419.

(4)
اغرق بذاتك ما استطعت فشط بحرك في حياتك
إن كان يزعجك انتسابي فانتسب لجمال ذاتك

السابق ص429.

(5)
ذاتك، فالذات التي تدعمُها معرفة يغبطها جبريل

السابق ص454.

(6)
مؤمنون يشبهون الكافرينا مسلمون ولذات منكرونا

السابق، ص457.

الفداء والهوى[1]. رؤية الذات بهجة الإنسان. وتثبت بالإرادة والعصيان. ونقدها وبال[2].

لا يستطيع علم النفس أن يسبر غور الذات. فنظرياته قاصرة عن إدراك أعاصير البحار المملوء بالجزر التي لم يصل إليها حتى الآن بحَّار. ولا يتناولها إلا إعصار موسى القادر على الدخول في لجتها وإلا فالصمت والعجز أمام أي إعصار[3].

أ ـ يقظة الذات

يقظة الذات ليست في الدير ولا المحراب. وسبب نوم شعوب الشرق هو هذا السم. وهو غياب الذات أو سجنها في دور العبادة. إنما الذات هو كفاح في العالم. ومسراها فوق السحاب. لا تهاب الموت لأن الذات خالدة بعد أن يتحول البدن إلى تراب. قد يخفي الدهر أسراره لكن القلب قادر على اختراق الحجب، وكشف الأشياء. تستطيع الذات أن تحيل هشيم آسيا إلى نار، وأن تتحرر من الخشخاش والأفيون وكل أنواع المخدرات من أجل طلب المعالي. وبدلاً من كسر الجناح والذل يمكن للذات أن تطير إلى رحاب الفضاء[4].

في «وصية السلطان تيبو» الذي جعله إقبال تجلياً للذات يعبر من جديد عن

---

(1) من رأي ذاتا له إنني فديته — وازن العصر بحذق من هويته
السابق، ص308.

(2) لذة العصيان كانت متعته — رؤية الذات رآها بهجته
هذه الذات بعصيان تنال — وانعدام الذات معناه الوبال
السابق، ص309.

(3) دع عنك فكرك فالإعصار جرار — وليس تجدي ببحر الذات أفكار
وأين أنت بهذا البحر من جزر — صغيرة ما أتاها قط بحَّار
إن لم تشقَّ كموسى ثوب لجتها — فحظك الصمت إن وافاك إعصار
السابق ص549.

(4) يقظة «الموت» لا أراها بديْر — لا ولا تُجتلى لدى المحراب
إن روح الشعوب في الشرق غاف — من سموم الترياق، رهن غياب
إن تضِق بالجهاد في الأرض ذرعا — فحرام مسراك فوق السحاب
ليس من خيفة الممات نجاة — إن تر «الذات» هيكلا من تراب
ليس يُخفي صروفه الدهر لكن — لك قلب وناظر في حجاب =

فلسفته في الذات ككفاح وتضحية حتى ولو ضحى قيس بالمحمل في صحبة ليلى[1]. فطارق البيداء يستمر في السير دون أن يعرّج على نزل. وجدول الماء يتقدم حتى يصبح نهرا. ولا داعي للحيرة في السير دون اختيار طريق. ونور الحقل لا يحرق بل يضيء. والحق حق، والباطل باطل، ولا خلط بينهما[2].

الذات أعلى شيء في الوجود. ويضرب إقبال المثل على ذلك بغني كشميري له من ممتلكات الدنيا الأراضي والقصور. يتركها بلا حراس. فلما استدركه الأصدقاء قال: وأنا في البيت، البيت غني بمن فيه وهو الذات. وعندما أغادره يصبح البيت فقيراً. ومن ثم لا يحتاج إلى حراسة[3].

الذات يقظة الوعي. والوعي كالحسام البراق. تشرق كالذرات. تدرك الآفاق. تجوب أعماق البحار. ولا تقعد على البر[4]. الذات تضيء الوجود. وبها كفاح الحياة وسرورها. مقامها فوق الثريا. بها تتجلى الصفات. لا تعتمد في وجودها إلا

= قد مُنحتُ الهشيم في آسيا إذ ... أن ناري حديدة في التهاب
هاج أنغامه عكوفا على الخشخاش ... موتي، إلى طلاب المعالي
فمهيض الجناح آلف دار ... قد رنا اليوم للفضاء العالي
ضرب الكليم ص5 ـ 6.

(1) السلطان تيبو قاد كفاح المسلمين ضد الإنجليز في جنوب الهند، وألب عليهم دولاً إسلامية أخرى، محاولاً التنسيق مع نابليون. فحشد الإنجليز ما حشدوا. ولما يئس من النصر ألقى بنفسه من القلعة ومات عام 1213هـ.

(2) طاوي البيداء شوقا أقبلنْ ... لا تعرّج منزلا، لا تقبلن
لا، وإن سار بليلي محمل ... فامض شوقا، محملا لا تقبلن
جدول الماء، تقدم مسرعا ... واغد نهرا، ساحلا لا تقبلن
لا تَحَرْ في صنم الكون وسر ... في البرايا، ضلالا لا تقبلن
يا مذيب الحفل، لا تقبل له ... حرق، كن مشعلا، لا تقبلن
كل قلب ذل للعقل فقد ... قال ربي أزلا، لا تقبلن
وحّد الحق وثنِّي باطل ... شوب حق باطلا لا تقبلن
ضرب الكليم ص51.

(3) A Message from the East, pp. 95 - 6.

(4) خِذْنُ حق تنبّهت فيه ذات ... كالحسام المصمّم البراق
نظرات لديه تشرق فيها ... ما انطوى في الذرات من إشراق
إيه عبدَ الآفاق! كيف تداني ... رجل الله صاحب الآفاق
أنت في البر قاعد عن طلاب ... وهو في البحر محرَم الأعماق
ضرب الكليم ص52.

=

على ذاتها، وليس على غيرها. فإذا ماتت تحولت إلى وثن مثل اللات والعزى، صنم لا حياة فيه. لا تقلد أحدًا ولا تحاكيه يكفي هم الإنسان الموت بعد الحياة، وليس الموت مرتين[(1)].

نار الذات ونورها للإسلام، روح مستنير. الاقتباس منها في حياة الناس نور وسفور. هي أساس الوجود وأصله للتجلي من وراء الأستار[(2)].

لا تضرب في غيرها. ولا تعيش على ذات أخرى حتى ولو كانت الحياة في القبر تحت الأرض. ومن يعيش على غيره لديه نفس، ولكن ليس لديه روح[(3)]. تقلب الذات النظرة من الخارج إلى الداخل كما هو الحال في الظاهريات عند هوسرل. وبالرغم من هذا الظاهر العاري، في الداخل قمر يشرق[(4)]. وفي قصيدة «سفر الساقي»، من الذات ينطلق الدافع الحيوي، مفهوم برجسون الأثير. والفقير الكشميري غير مدرك لقدراته الذاتية، ولا يثق بنفسه، خجلاً منها[(5)]

ب ـ إمكانية الذات

الذات تتفتح كالوردة، حجاباً وراء حجاب[(6)]. هي إمكانية للتحقق، وطاقة

---

(1) تضيء حريم وجودك ذاتك — كفاح بها وسرور حياتك
لها فوق أوج الثريا مقام — جليت بها وتجلت صفاتك
أمن «ذات» غيرك تعمر قلبا — معاذ الإله! ترى أين ذاتك؟
فلا تبعثنْ وُثنها بعد موت — فتحيا مناتك فيها ولاتُك
كمال المحاكاة أنك تفنى — فيكفيك همّ الحياة مماتك
السابق، ص76.

(2) إن نار «الذات»، والنور لديها — هي للإسلام روح مستنير
إن نار «الذات» فاقبس من لظاها — في حياة الخلق نور وسفور
هي تقويم وجود وهي أصل — للتجلي أخفيت خلف ستور
السابق، ص19.

(3) أهاب بمسمعيَّ تراب قبر — وتحت الأرض يُمكن أن يعاشا
له نفس وليس لديه روح — ذليل في مراد سواه عاشا
رسالة الشرق ص273.

(4) A Message from the East, p. 40.

(5) Ibid., pp. 75 - 9.

(6) أعن ذات تحجّب بالحجاب — إليها حبذا يوم الإياب
أرمغان حجاز ص483.

للتحرك، وليست شيئاً يُعطى أو يؤخذ. الغوص في الذات مثل الغوص في البحار، فقد ووجد دون شاطئ أمان. وسياحتها في الفضاء بصرف النظر عن جنسها. جاءت من الأرض وتخلقت منها وتعيش في الكون إلى ما لا نهاية. تتعثر في متاهة نفسها وكأنها دخيلة عليها. تخاصم ذاتها، وتسهر ليالي طوال[1]. تتجلي الذات في ظلال النبوة عندما تأخذ الكتاب بقوة وتصل إلى مقام ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: 9] دون العرش والكرسي. كل ذلك تشعر به الذات في قرارة النفس[2].

الذات الحية بحر لا شاطئ له يصب فيه النيل والفرات. والذات الميتة عود قش أمام النسيم. الذات الحية سلطان الموجودات. ومقام المؤمن حرم الذات وليس القبر المظلم أو مكان تجلي الصفات. معرفة الذات تحطم طلسم الشمس والفلك والنجوم. فكيف يضيع جوهر الإدراك؟ لماذا لا تصل الذات إلى أكباد النجوم؟ إنها خليفة الظاهر والباطن وليست عشباً جافاً أو شعلة منطفئة. تخضع لها الشمس والقمر، وترتجف لها الأفلاك. الدم يجري في العروق ولكنه خال من حمية الأفكار والجرأة. العين لا ترى العالم إذا خلت من النظر الطاهر. وإذا غاب صفاء الضمير يصبح من قبيل السلطنة والملاّ والمشيخة[3]. لماذا لا يجتاح الطوفان عبر الذات وتكون الذات مسلمة؟ أحياناً ترتفع الذات من البحر كالموج، وأحياناً تنزل إلى صدر البحر، وأحياناً تمر على الساحل فما هو مقام الذات؟[4].

الذات بحر ليس له ساحل كي يغوص الجبان فيه. وليست جدول أنس

---

(1) أضع النفس في البحار وغامر ثم غص في البحار واعثر عليها
وأقِمْ بين ضجة وتَلَوّ ليس من شاطئ يقود إليها
هل لمثلي من الفضاء نصيب من تراني أنا وما هو جنسي
جئت للأرض؟ أم تخلّقت منها ففصي الكون أم نهاية نفسي؟
كم تعثرتُ في متاهات ذاتي وكأني في أرض ذاتي دخيل
بين نفسي من الخصام وبيني سهر دائم وليل طويل
جناح جبريل ص465.

(2) إنها الذات عندما تتجلى تنعم الناس في ظلال النبوة
إنها نفسها حجاب إله عندما تأخذ الكتاب بقوة
تصل الذات قاب قوسين لكن لا ترى نفسها بعرش وكرسي
السابق ص466.

(3) أرمغان حجاز ص526 ـ 527.

(4) السابق ص533 ـ 534.

ومكاناً يجتمع فيه أهل الذل والهوان. قد يستطيع الإنسان كسر السماء بفأس. فالسماء من زجاج. إلا أن البحار تمور بالهيجان. لذلك لا يطيق الجبان هياج ذات، في حين أن الشجاع يغوص فيها ويطفو. ولا تقوم الشجاعة على العلم بل على اللطف أي على قوة الإرادة، وتحقق الإمكانية. وهو ما لا يستطيعه المنجم الناظر دائماً إلى النجوم. العلوم العلوية بهذا المعني زيف. في حين أن الإنسان من طين. جوهرها سر. وهي فردوس على الأرض التي يأتي إليها جبريل. والإنسان عينه الثاقبة، حجرها به ماء ونور[1]. وإن قعد الطير عن الطيران فإنه يموت. وإن انكسر جناحه لا يطير[2].

الذات كأمواج البحر، يعلوها الإنسان إذا علت أو هي جوهر تحت صخرة. فالذات لا تعطي جاهرة بل تُكتشف[3]. وشرف الإنسان بالذات وبلوغها الكمال وإلا تحول إلى عبد. وهي ليست متاعاً يباع ويشترى. هي جوهر في البحر راقد إذا غربت يهلك الإنسان[4]. والخطورة على تركيا أنها فتحت ما أوصدته، وعلى مصر

---

(1) إنها الذات إن تمعَّنت بحر ... ماله ساحل لخوض جبان
ومحال تكون جدول أنس ... ومحلا لجمع أهل الهوان
ربما تكسر السماء بفأس ... فبناء السماء سبك زجاج
والذي يجعل البحار بحارا ... تتقي أنها محل الهياج
لا يطيق الجبان لجة ذات ... ويغوص الشجاع فيها ويطفو
وقوام الشجاع ليس علوما ... تَربَ العلم فالشجاعة لطف
كيف يستوعب المنجّم هذا ... بطريق مكبل بالنجوم
أنت من طينة يحكّ عليها ... سرك الحي زيف كل العلوم
إن فردوسنا على الأرض ... هذي فيه جبريل لا يغيب وحور
حبذا أن تكون ثاقب عين ... حجر العين فيه ماء ونور
جناح جبريل ص441.

(2) إياك يا قُبرتي من التلف ... فالموت خير لك من هذا العلف
يعرقل الجناح أن يطيرَ ... وربما يتركه كسيرا
السابق ص449.

(3) علوت كموجة من بحر ذاتي ... كمنتُ كجوهر تحت الصفاة
أرمغان حجاز، ص459.

(4) بتلك الذات شارفت الكمالا ... وإلا كنت للعبد المثالا
إذا ما قلت ذاتي لي متاع ... فنسيان لها ليس الحلالا
وأنت الذات يوما إن تشاهد ... تقر كجوهر في البحر راقد
وتلك الذات إن غَرَبت عنها ... فأنت لأجل هلكك من تجاهد
لترك فتّحوا ما أوصدوه ... وفي مصر أساس وطدوه =

أنها أسست بنياناً مع احتمال نسيان الذات. فالتمسك بالذات هو طريق النجاة. وإذا تولى الربيع طار العطر. وإذا نبت الزهر سرعان ما يذبل. تقوم الذات بفعل لا إله كي تُبعث من التراب. طريق الذات ينضج بالماء في بحر لا يرى إلا العباب[1]. ولا تباع الذات بالفضة أو الذهب ولا يباع ببريقهما اللهيب[2].

تشتعل الذاتية بنور الكبرياء. ومن نقصها يبدو الكمال. مقامات وصالها فراق. وفراقها وصال. وتبدو الذاتية سيفاً حساماً له حد ولون وريح وسط الجدال. هي جوهر في جوف بحر. وهي طين وروح، جسم وقلب، نوم ويقظة[3]. الذات نور ونار، تضيء وتحرق[4]. وبالرغم من عظمة الذات إلا أنها في غاية التواضع ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسـراء: 37] ففي قصيدة «الغرور»، ادعى الجليد أنه أفضل من نهر الجبل. فهو أعلى مكاناً، وأثبت وجوداً، وأنصع بياضا. وهو أصل نهر الجبل، ومصدر وجوده. ورد نهر الجبل بأنه حياة وحركة وتغير. فإذا تجمد ونقصت حرارته تحول إلى جليد. وفي النهاية يذوب الجليد ويصب في النهر[5].

= تـمـسـك إن ظـفـرت بـذيـل ذات ... بـغـيـر الـذات ذا لـم يـعـهـدوه
إذا قـوم ربـيـعـهـم تـولـى ... فـعـطـرهـم الـتـوهـم لـيـس إلا
وتـنـبـت أرضـهـم زهـرا ولـكـن ... تـشـاهـد لـلـذبـول عـلـيـه ظـلا
السابق، ص460.

(1) لـذاتـك لا إلـه فـضـم مـرة ... لـتـخـرج مـن تـراب مـات نـظـره
طـريـق الـذات فـانـضـحـهـا بـمـاء ... لـبـحـر لا يـري فـيـه الـعـبـاب
السابق، ص461.

(2) لا تـرضَـيـنْ فضةً بـالـذات أو ذهـبـا ... ولا تـبـع بـشـرار ذلـك الـلـهـبـا
جناح جبريل، ص543.

(3) بـنـور الـكـبـريـاء لـهـا اشـتـعـال ... ومـن نـقـص لـهـا كـل الـكـمـال
مـقـامـات الـوصـال لـهـا فـراق ... كـمـا أن الـفـراق لـهـا وصـال
ومـن جـدل لـقـوم أن يـريـحـوا ... لـيـزهـر عـنـدهـم أمـل نـجـيـح
بـدت ذاتـيـة سـيـفـا حـسـامـا ... ويـعـرف حـده لـون وريـح
أراهـا جـوهـرا مـن جـوف بـحـر ... سـواه بـمـثـلـه مـن لـن يـجـودا
وطـيـن حـيـنـمـا يـرضـاه قـلـب ... يـفـطـره لـطـيـب الـنـوم حـب
ومـن نـوم بـخـلـق «أنـا» سـيـصـحـو ... بـجـسـم حـيـن يـحـكـمـهـا سـيـخـبـو
أرمغان حجاز، ص489.

(4) وتـمـنـح ذاتـه نـوراً ونـارا ... لـيـصـبـح لـيـلـه الـداجـي نـهـارا
السابق، ص469.

(5) A Message from the East, p. 64.

جـ ـ وحدانية الذات

الذات عالم بمفرده، عالم الشعور والوجدان. خشوعها عذاب، ووثبها طموح. فكرها بستان، ونفسها مرآة. معاركها في القلب. ودروشتها من معاناتها. تمتزج بالآهات. وتسير من جيل إلى جيل(1).

الطواف حول الذات طواف حر، وليس حول السرير والإيوان طوافاً مجبراً. ولا تتباعد الذات عن مقامها حتى لا تقع في ذل الأسر العاني والانجذاب نحو مركز آخر. لا تسير الذات واهنة الخطى كذليل الطير بين الجدران. تطير كالشاهين في القمم، وليس في مسارب الوديان. تنافس الطيور في الطير دون عش. تغير العالم القديم وتجدده. تنشد الجهاد في رضا الرحمن. وهي القادرة على تحقيق الحق، وتحويل الإمكان إلى واقع(2). تظهر الجوهر الكريم من الأصداف حتى يبدو للعيان. وتتحرر من هيكل الماء والطين ومن ظلمة الهوى والهوان. ترشدها الفطرة.

---

(1) خشوعي في عذاباتي ... ووثبي في طموحاتي
ونوع طرقتي هذي ... التي أمحو بها ذاتي
وفكري وهو بستان ... ونفسي وهي مرآتي
وحصن يقينها المضني ... وجيش ظنونها العاتي
وقلبي وهو ميدان ... تضج به عراكاتي
ودروشتي التي تبدو ... نصيبي من معاناتي
سألتك أن تعتقها ... وتمزجها بآهاتي
وتسقيها لقافلتي ... بموكب جيلنا الآتي

جناح جبريل، ص514.

(2) طف إذا شئت حول ذات: حرا ... لا تطف بالسرير والإيوان
قد تباعدت عن مقامك حتى ... صرت في ذلة الأسير العاني
لا تسر واهن الخطى كبغاث ... الطير بين الطلول والجدران
كن نظير الشاهين في القمـ ... ـم الشماء لا في مسارب الوديان
تتحرى الطيور عند بناء العـ ... ـش أعلى الفروع في البستان
لست دون النسور بأسا فحاول ... دارة النجم أو ذرى كيوان
من مهاد الثرى إلى التسعة الأفـ ... ـلاك فوق الزمان فوق المكان
غيّر العالم القديم وعمر ... فيه دنيا جديدة البنيان
والذي ينشد الجهاد فناء ... في رضا الحق وهو ماضي الجنان
هو سر الأقدار، هو قضاء ... الحق في الممكنات والإمكان

يا أمم الشرق، ص350.

قصد من الثرى إلى الأفلاك. وتتجاوز المكان والزمان[1].

3 ـ الوعي الذاتي

الذات المستقلة وعي ذاتي. ترى نفسها في مرآة ذاتها. وتهرب الصورة في الغير[2]. والقرآن هو هذه المرآة التي ترى الذات فيها نفسها كوعي ذاتي مستقل. والذات فردة لا نموذج لها ولا مقياس. وهي أعظم ما يلوح للناظرين. هي المعروف عنها أنها عمق ذاتها، تعرف في العمق لا في السطح[3].الذات مع الجمع ومنفردة، أليف وغريب. يبقي في القصر مع الرعية. ويعيش في الصحراء كالنبي بلا قوم[4].

أ ـ استقلال الوعي الذاتي

تعتمد الذات على ذاتها. لا تحتاج إلى عصي يتكأ عليها الخطيب ليدعو الناس إلى الحق أو خشب لصليب يُحمل عليه الشهيد[5]. تقوى الذات، وقوتها مقصد الحياة. والقوة حسية ومعنوية، مادية وأخلاقية[6]. والإنسان تحت الشمس كشرار لا يدري ما مقامات الوجود لأنه لا يدري فن بناء الذات أو تصورها أو

(1) أظهر الجوهر الكريم من الأصـ ـداف واجعله باديا للعيان
وتحرر من هيكل الماء والطين ومن ظلمة الهوى والهوان
واجعل الفطرة النقية نبراسا لعينيك بين قاص ودان
السابق، ص350.

(2) لك القرآن كالمرآة فانصب ونفسك دع إذا غُيّرت واهرب
أرمغان حجاز، ص464.

(3) هنا يا أنت كل الناس يعرف بعضهم بعضا
هنا إلا أنا فيهم غريب ينكر الأرضا
وكنت بقصر أوربَّة من الممكن أن أبقى
شريطة تحمل الصحراء حين أجن ما تلقى
زبور العجم، ص390 ـ 392.

(4) ولك الوجود جميعه أم لي أنا والكون سحرك أم تموج ذاتي.

(5) ليس في أعواد غابي سقَط هي للمنبر أو أعواد صلب
الأسرار والرموز، ص5.

(6) ضرب الكليم، ص ط.

غناءها أو نشيدها. إنما خفاء الذات في المكتب أي المهنة والحانة أي اللهو، وحياة الذات دوام وخلود[1].

وفي «نصيحة صقر لفرخه»، يعبر إقبال عن استقلال الذات وقوتها واعتمادها على النفس. فالذات كالصقر. جسم صغير، ولكن قلب ليث. المهم أن يكون الإنسان محكم الرأي شهماً صبوراً، أبياً غيوراً على القيم والسجايا. تصاحب الذات مثلها في قوتها لا الضعاف. تطعم من عل لقطاً، وليس زحفاً على الأرض. المخلب أولى من الزحف. والطير في السماء أشرف من الزحف على الأرض. والحياة نشوة وجذل، جرأة وقوة. الحياة جهاد وصبر، محنة واجتهاد. وتجنب القطيع والغنم من أجل التفرد والجهد الفردي وعدم الركون إلى ظل الآخرين. والجبال أولى من الرياض. تتجلى قواه ساعة الخطر. والجناحان بروق وشهب. الاعتماد على الذات وليس على الغير هو طريق النمو[2].

---

(1) أنت تحت الشمس تمضي كشرار — لست تدري ما مقامات الوجود
ليس في فنك للذات بناء — ويل تصوير وشدو وقصيد
ليس في المكتب والحانة إلا — درس إفناء به الذات تبيد
ليت شعري هل تعلمت وجودا — للحياة ودوام وخلود
السابق ص81.

(2) تعلم بُنَيّ بأن الصقور — لها قلب ليث وجسم صغير
فكن محكم الرأي شهما جسورا — عليّ السجايا أبيًّا غيورا
بُغاث الطيور اهجرنها بعيدا — ودعها إذا لم ترد أن تصيدا
فتلك الرعاديد نسل اللئام — تدس مناقيرها في الرغام
أرى الباز صيدا لما اصطاده — إذا قلد الصيد ما اعتاده
فكم باسق قد أتاه النوى — بصحبة لقاط حب هوى
فنفسك فاحفظ وعش في جذل — جريئا متينا قوي العضل
ودع للدراريج لين الجسد — وكن مخلبا كالمدى أو أحد
متاع الحياة، تعلم، جهاد — وصبر على محنة واجتهاد
نقول لفرخ عقاب عتيق: — «بريق الدماء يفوق العقيق»
ولا تبغ سربا كسرب الغنم — توحد كقومك منذ القدم
سمعت وصاة الصقور العتاق — بألا نقيم بظل وساق
فليس لنا في رياض مجال — فسيح الفيافي لنا والجبال
ولقطك حبا بأرض خطاء — حبانا الإله عنان السماء
فإما خطى في التراب النحيب — فأشرف منه حمام قريب
فإن بساط البزاة الحجر — يحد مخالبهن الصخر
نماك الأوابد زرق العيون — كأنك عنقاء جو متين

لم يكن طيران الأنبياء اعتماداً على الغير ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾. وطيران المسلمين اليوم لا يعتمد على طيران الآباء والأجداد. فهو اغتراب في الزمان، وإرجاع الحاضر إلى الماضي. لا يوجد المسلم اليوم قاعداً أو طائراً لأنه لا سلطان له، وبالتالي لا وجود له[1]. الذات للقيادة وليس لركوب الهودج. ترشد الركب إلى الطريق[2]. والمسلم نسيج حياته، وثوب تقواه. هو واحد متوحد مثل الله. هو الموج الذي يحط على الشاطئ كما يشاء ثم يعود إلى ذاته، إلى عمق البحر دون الاستقرار عليه[3].

السفر من الذات إلى الذات، من الذات ـ الإنسان إلى الذات ـ الإله، من «خودي» إلى «خودا». الإنسان الكامل ليس حقيقة معطاة سلفاً بل هو قصد الإنسان المتعين وغايته[4]. فالإنسان يحصل على الكمال بتجاوز ذاته الدنيا إلى ذاته العليا، والتحول من الشك إلى اليقين[5]. وفي العلاقة المتبادلة بين الذوات تتم الرؤية

= أصيل أبي بيوم الخطر ... كفيل بإنسان عين النمر
جناحك من سطوات البروق ... من الشهب فيك كريم العروق
فطر في السموات ولا تخش خطبا ... وكل ما أصبت يبسا ورطبا
ولا تقبلن طعمة من أحد ... وكن راشدا واستمع للرشد
رسالة الشرق، ص286.

(1) طيران الأنبياء ليس كهذا ... مالك اليوم في السماء اجتياز
ليس يعني إن كان جدك باز ... أنك اليوم بالوراثة باز
آه للمسلم الذي بات رسما ... شغلته عن الحياة جدوده
سألوني فقلت: يوجد، قالوا: ... أين سلطانه وأين وجوده
جناح جبريل ص466.

(2) أنا لا أركب الهوادج هذي ... أنا لا أمتطي الركاب دليلا
أرشد الركب للطريق وأمضي ... لست عما يفتشون بديلا
السابق، ص467.

(3) أيها المسلم المثابر يرجو ... ثوب تقواه كن نسيج حياتك
كن وحيدا ووحد الله واكشف ... سحر ألواننا بقوة ذاتك
كن كما الموج كل حين تراه ... يدرس الشاطئ الذي يبتغيه
انتزع من يديه ثوبك وارجع ... لا تغرنك الإقامة فيه
السابق ص467.

(4) وفي حضر بذلك تلك سفره ... ومن ذات إلى ذات، بخطره
زبور العجم، ص393. وأيضا: من العقيدة إلى الثورة، ج2، التوحيد، ص600 ـ 664.

(5) ودوما كن لذاتك في الكمين ... ومن شك ففر إلى اليقين =

بينهما دون أن تفقد الذات الإنسانية حضورها أمام الذات الإلهية، ودون أن تفنى فيها بل تبقى بها. وبنور العشق المتبادل تضيء الذات. الذات مركب هادئ في عباب النهر والبحر بلا سواحل أو ضفاف. فأين ربانها ودليلها بدلاً من الحيرة والسير بلا هدف؟ أين الربان الموهوب، صاحب الرؤية والكلام أو الروح الملتهبة وهي متطلبات الربان الماهر؟[1].

وللذات جلوة وخلوة. تذوب في الجلوة. وتجتمع في الخلوة. تجلو الذات في نور الصفات، وتخلو من نور الذات. العقل يدفع نحو الجلوة. والعشق يدفع نحو الخلوة[2]. ليست الذات غريبة على نفسها. وليست غريبة في ديارها. كل شيئ يمتثل لها، ويعمل بأمرها. وخارج الذات لا يوجد خير أو شر. وداخل الذات لا يوجد أمن زائف بل مغامرة ومخاطرة وإلا فالقبر أكثر أمناً. وتموت الروح من طول المقام. وتحيا إذا ما تحركت وتقدمت وسعت إلى الأمام حتى تصل إلى النجم دون توقف. وكلما علت إلى السماء رأت الأرض واتساع الفضاء[3]. النظر هو الطريق

= كمالا نظرة كانت بذات — وذلك بالخروج عن الجهات
بذات الحق تخلو آنذاكا — ترى مولاك والمولى يراكا
بذاتك كن قويا في حضوره — حذار من الضياع ببحر نوره
تحرّق حيث يبدو في جلاء — وأظهر منك ذاتك في ضياء

السابق، ص393.

(1) حتى متى مركب هذي الذات — يمخر في النيل وفي الفرات
قُدِّر أن يركب بحرا ماله — من ساحل في هذه الحياة
فكيف عند هؤلاء رغبة — بأن يدلها المدار الحائر
ركابهم بالرغم من نشاطها — ينقصها اليوم دليل ماهر
ألحاظ موهوب وعين ثاقبة — وسحر ألفاظ وروح لاهبة
كل الذي يملكه من عدة — قائد هذه القافلات الذاهبة

جناح جبريل، ص445.

(2) وللذات ذوبها في جلوة — وتراها جمعت في خلوة
جلوة للذات في نور الصفات — لكن الخلوة من نور لذات
عقلها الدافع نحو الجلوة — عشقها الماضي بها للخلوة

جاويد نامة، ص149.

(3) لا تسر مثل الغريب في ديارك — لا تخف من غربة مرت ببالك
إن منك القول كل يمتثل — وبأمر أو بنهي قد عمل
خارج الذات بشط الكوثر — لا ترى خيرا وشرا ينبري
لو بكف الذات عن بحث أمان — كان هذا القبر خيرا من جنان =

إلى عالم الروح. ونور الذات هو نور البصر[1]. ومعرفة الذات هو الطريق لمعرفة الخير والشر، الضار والنافع[2].

ب ـ الذات الكونية

الذات أول الكائنات وأصل الحياة. تغفو وتصحو. تتكثر وتتوحد. تضمحل وتنمو، تنقص وتكثر، تفرق، وتجمع وهي عميقة كالبحر، متلاطمة الأمواج، في حركة دائبة. تتستر وتظهر، تخفى وتتجلى. هي شرار نار. تقبض وتبسط. الذوات الأخرى أشعة لها. ترابها حجاب. وروحها كشف. تشرق من الصدور. وتنير العالم من أجل أن تسير في الطريق. وتكمل السفر، من الزمان على الخلود. توجل وتأمل. مقرها القلب، وموطنها الوجدان. مع الغير تفرق وتجمع، تفصل وتتوحد. تخضع لضرورة العالم. وتتحرر بقدرتها على الاستقلال[3].

الذات لا تضيع في الكون لأن الكون جزء منها. تجذب الدارين إليها. ولا تنجذب هي إليهما، شرقاً أو غرباً[4]. وعندما انبثقت الذات عن الكون ظهر الضياء

= وتموت الروح من طول المقام — أيها الراحل، فامض للأمام
ومع النجم تطيب سفرتك — حبذا من غير وقف رحلتك
حين كانت في الفضاء وطأتي — ما علا ألقيت تحت نظرتي
السابق، ص159.

(1) عالم للروح خص بالنظر — فبنور الذات نور للبصر
السابق، ص284.

(2) كل من يدري عن الذات الخبر — يخلق النفع لديه من ضرر
السابق، ص289.

(3) بذات عودة للكائنات — ونورها أصل الحياة
وتصحو من رؤاها في كراها — بكثرٍ بعد واحدها تراها
كنار، والذات لها شرار — نجوم، سائر وله القرار
ذوات أطلعتها من شعاع — جواهر أخرجت كانت بقاع
تراب الجسم للذات الحجاب — وتبدو الشمس أطلعها السحاب
وتلك الذات تشرق من صدور — بجوهرها التراب لنا كنور
ومعنى للأنا كم قلت بين — بذاتك فلتسافر فلتعيّن
عليها أنت قد كنت الأمينا — بإدراك لذاتك كن قمينا
زبور العجم، ص387 ـ 390.

(4) وفي دنياك فاحذر من ضياع — بذاتك خذ، دع الدنيا لمحق =

فيه. وتحول من واقع إلى إمكانية، ومن ضرورية إلى حرية. وخجلت الأرض قبل نزول آدم إليها. وتحولت الظلمة إلى ضياء. ومن فوق القمم يجيء النداء. وتتجلى الذات في الصفات. وبعشقها تصبح كل الكائنات[1]. ثم ينبثق الكون من الذات، ويخرج من الصلصال، ويصبح الأرض نجماً من أقدارها. وبعد تطويع وخلق، تُصبح الذات الإنسان الكامل. ويتحول من لا شيء إلى شيء، ومن شئ إلى كل شئ، ويكون عند الله مرضيا[2]. وإذا حقق شعب ذاته من طينه فقد خفقت روحه، وخلق من جديد. ويفرح الخلق الأول بالخلق الثاني[3].

الذات خالقة ومبدعة، تبدع الشعر والفن[4]. وتتجدد الذات باستمرار كالأمواج في نهر الحياة، ليتحدد جوهر الكائنات. تتجدد باستمرار في شوق إلى كل تجديد. الذهاب والمجيء قانونها[5].

= إلى ذات لك الدارين فاجذب — أعن ذات تشرّق أو تغرّب

أرمغان حجاز، ص484.

(1) فلتعيشي مثلما عاش الجميل — أو فموتي من شنار للذليل
فاعتري الأرض من اللوم الخجل — بعد حزن وضياع للأمل
ومن الظلمة أضواها الألم — ونداء جاء من فوق القمم
يا أمينا لست تدري ما الخبر — أي بأس؟ ذاتك امنحها النظر
تستنير عينه بالكائنات — لترى الذات تجلت في الصفات
من تلظي عشقه من حسن ذات — سيدا أضحي لكل الكائنات

جاويد نامه، ص143 ـ 144.

(2) ويوما تبهر الصلصال نوريا بأنوار
ويوما تصبح الأرض سما من نجم أقدار
ويوما بعد تطويع سيمسي ذلك الأكمل
ويعلو منه شأن لم يكن في أمسه شيا
ويوما أنت لا تلقاه عند الله مرضيا

السابق، ص145.

(3) حبذا شعب بروح قد خفق — ذاته من طينه هذا خلق
حامل العرش بأعياد فرح — إن رأى للشعب عينا تنفتح

السابق، ص164.

(4) قل، لهذا الشعر من أين اللهب؟ — أضرمته الذات أو رب وهب؟

السابق، ص297.

(5) إننا الأمواج في نهر الحياة — إنما التبديل شأن الكائنات
ما الحياة غير تجديد تجدد — عالما تطلب في شوق تمهد =

السكون موت[1]. والدين أيضاً كذلك، موج مسرع لا يهدأ، بل يبحث عن المجرى العميق الواسع[2]. الذات شوق، والشوق حرية، والحرية إبداع[3].

جـ ـ الذات الإلهية:

الإله ذات الكون، وذات الكون الإله[4].وإذا كان الله خالق الوجود فإن الإنسان خالق ذاته. بل إن الكون كله تجل لهذه الذات. وعشق الذات يهبها الحياة، ويحميها من الموت، ويبعث فيها الحياة من جديد. وإذا كان للذات لحن فلماذا صوت الضفدع؟ وإذا كانت قادرة على الوثوب فوق الزمان والمكان فلماذا الرضى بوضع الراهب ورجل الدين؟ وإذا كان الآذان نداء يُسمع فلماذا لا يُسأل؟ وإذا كانت النظرة تسأل فلماذا نظرة الأسير؟ ولماذا تخاف الذات السماء ووسعة الدنيا، والروح قادرة على السباحة في الزمان والمكان؟ ومصير الحية في جوف الطين الانبثاق إلى الفضاء الأنظم دون أن تدري عن قريب أنها ستمر غصنها إلى السماء. القرب والبعد شعوري وليس مكانيا. وما منع الجسم مرة الروح من أن يطير[5].

= الـذهـاب والـمـجـيء مـا هـمـا ... الـكـيـان لـلـوجـود مـنـهـمـا
السابق، ص311.
خـفـقـت كـمـوجـة في مـوج ذاتي ... إلـى الـطـوفـان أدت سـاقـيـاتـي
أرمغان حجاز، ص471

(1) الـسـكـون فـي الـحـيـاة لـلـثـبـات ... مـا أسلـتـه الـلـه طـولا في حياتي
السابق، ص312.

(2) ديـنـنـا يـشـبـه مـوجـا أسـرع ... مـا أقـام بـل أراد الـمـهـيـعـا
السابق، 314.

(3) أنـت حـي؟ حـن شـوقـا واخـلـق ... كـل أفـق مـثـلـنـا فـلـتـطـرق
مـا تـراه لا يـواتـي فـلـتـحـطـم ... عـالـمـا مـنـك إلـيـك فـلـتـقـدم
كـل حـر كـان مـكـروبـا حـزيـنـا ... أن حـواه عـالـم لـلآخـريـنـا
أعـلـى الإبـداع أنـت غـيـر قـادر؟ ... لـست في رأي لـديـنـا غـيـر كـافـر
وعـدمـت حـسـنـنـا حـتـى الأثـر ... من نـخـيـل العيش مـا ذقت الثمر
السابق، ص318.

(4) مـن إلـه الـكـون ذاتـا يـطـلـب ... ولـه الـكـون جـوادا يـركـب
عاشق أنت؟ على اللاصوب أقدم ... وعـلـى ذاتـك مـوتـا فـلـتـحـرم
جاويد نامه، ص150.

(5) أنت يا من أنت ميت في الحفير ... الـقـيـام مـمـكـن مـن غـيـر صـور
لـك لـحـن مـطـرب في الـمـسـمـع ... فـإلام مـنـك صـوت الـضـفـدع؟ =

ليس الوقت أياماً تمر والزمان ليس منفعة أو ضرراً بل الزمان إحساس داخلي خالص، توتر وخلق وإبداع[1].

لا يخفي العالم ذات الإله بل يكشف عنه[2]. رجل الله يرى بالله ذاته في الكون فيستشهد في سبيله[3]. التجلي يُري غير أن الذات تطويه[4]. وأمر الصوفية كالرومي هو لزوم الذات[5]. ولا يوجد ضمان أنه بالعود إلى الذات تتم رؤية الحبيب. والإمكان قد يتحول إلى واقع وقد يظل إمكانا[6]. سر الذات هو سر العظيم[7]. وجود الله يكسب الوجود. فهي مظهر من تجلياته[8].

= المكان والزمان اركبن   ذلك الزنار عنك اطرحن
اشحذ الأذن واشحذ عينكا   ما تراه عنه فاسأل عقلكا
تخرق النظرة لي كل الستور   في عيون ما لها ذل الأسير
من سموات تخاف! لا تخف   وسعة الدنيا تخاف! لا تخف
الزمان والمكان فلتشاهد   فيهما حالا لروح أنت واجد
حبة في جوف طين مظلم   لا ترى علو الفضاء الأعظم
وهي لا تدري قريبا أنها   قد تمد في السماء غصنها
القريب والبعيد في الضمير   إنما المعراج تغيير الشعور
في الشعور ذاك من جذب وشوق   خلّصنْ الذات من تحت وفوق
ليس هذا الجسم للروح النظيرا   والتراب مانعا من أن نطيرا
السابق، ص150 ـ 152.

(1) لا يُعد الوقت أياما تمر   والزمان لا يفيد أو يضر
السابق، ص162.

(2) ليس يُخفي عالمُ ذات الإله   غائصا ما رد رسم في المياه
السابق، ص165.

(3) رجل الله رأى بالله ذاته   في دماه خر كي ينهي حياته
السابق، ص175.

(4) التجلي كان هذا من رآه   غير أن ذاك في ذات طواه
السابق، ص250.

(5) «الزم الذات» بها الرومي حباني   «عش بأنفاس لمن غنى الأغاني»
السابق، ص250.

(6) نظرتي أمعنت في ذاتي طويلا   فتن الدنيا حبيبي ما شهدته!
السابق، ص251.

(7) ذاتك انظر إن هذا رؤيته   سره السر العظيم سنته
السابق، ص263.

(8) وجود الله اكسبها الوجودا   فكانت مظهراً جاز الحدودا
أرمغان حجاز، ص489.

والذات واحدة، وهي انعكاس للوحدانية الإلهية[1]. والذات الإلهية بعيد قريب يمكن مد اليد إليه[2]. ومن حرر الوجدان بالتوحيد ومعرفة الله تدين له الملوك.

وتستطيع الذات أن ترى عالم الأرواح، وتدرك العوالم العلوية فهي متعالية مثلها. وهنا يوحد إقبال بين الذات والكون والإله كما هو الحال في وحدة الوجود[3].

4 ـ العقل والقلب

أ ـ حدود العقل

الذات عقل وقلب. العقل محدود، والقلب بلا حدود. العقل يفرّق ويحتار بين طرفيه، والقلب يجمع بينهما. يحط العقل مرة على أرسطو، ومرة أخرى على بيكون حكماً بالظاهر. وثالثة مع الطوسي[4].والقلب قادر على الولوج إلى بواطن الأمور. لا يستطيع العقل التعامل مع وعر الطريق ومع الدنيا التي بها وهج الشروق[5]. العقل لا يفيد في السعي للتحول من الزمان إلى الخلود. لا يتحول إلى

---

(1) تبقى على الدهر واحدا بطلا إن كان في القلب «لا شريك له»
ضرب الكليم، ص116.

(2) وعن ذات إلهي وهو نار تمد الكف في طلب العطاء
أرمغان حجاز، ص466.

(3) وللأرواح أسرار دراها بعين الذات من دنيا رآها
السابق، ص469.

(4) إلى أبد لعقل ما السبيل؟ فواحده كثير، والقليل
وأعرج كان، بغيته السكون على القشر اللباب له يكون
ومزقنا الحقيقة في يدينا مظاهر للفوارق ما رأينا
وقلبك ثم عقلك فاصحبن إلى الأتراك فارحل، وانظرن
فمن كل جزيء كان أكثر جنون قولة الطوسي وآخر
أرسطو مرة إياه فاعرف وبيكون لحنه يوما لتعزف
بعقلك وهو يدرك كل كم وباطن معدن أو قاع يم
السابق ص382 ـ 384.

(5) يغاير عقلَنا وعر الطريق ودنيا كان في وهج الشروق
السابق، ص387.

نور إلا بفعل العشق. قد ييأس العقل فيساعده العشق بالأمل[1]. فإذا رفع العقل النقاب عن الأشياء يظل خطابه عارياً من الصدق. الصدق يأتي من القلب. يشاهد العقل الكثرة، وبالقلب الوحدة[2]. داء البصر، البصيرة دواؤه.

العقل مجرد جدل وظنون. أما المعرفة الحقة فهي المعرفة الذوقية. وهي نظر وعمل، إدراك ومصير. ومصير الإنسان حركة نحو المستقبل، وليس وقوفاً في المكان. وسر اللآلئ خلود بريقها وإلا كانت مجرد حجر. وما قيمة دم في العروق إذا كانت مهمته إطفاء نار الفكر؟[3]. ويتم صقل العقل ليصبح كالسيف. أما الحب فله طريق واحد. لا يتوقف حجاجه. وهو على سفر دائم وإن بدا واقفاً. والسير مشروط بالتخفف من الزاد والمطية. ولو تخفف الإنسان من أحماله لكان كالنسيم عابراً الجبل[4].

---

(1) لك الأيام فاجعلها خلودا ونح في الفجر، عقلك لن يفيدا
لهذا العقل من حس صدور ومن عشق نحيب الفجر نور
لعقل جزؤه، للنوح كل ونوح دام، ما إن دام عقل
وذاك العقل ما وسع الخلودا من الأنفاس ما يحصي عديدا
قصارنا نواح العشق كانا وتحوي برهة منه زمانا
السابق، ص391 ـ 392.

(2) بدا بالعقل مرفوع النقاب ولكن قد تعرى بالخطاب
طريق القلب سري إليها ويُثني كل مخلوق عليها
ومنظور وناظر غور سر تضرع قلب ذرات لأمر
وعالَمُ كثرة بالعقل شاهد لتدري مظهرا يبديه واحد
زبور العجم، ص379.

(3) دواء البصيرة هذا الدواء رجاؤك في كشف داء البصر
وما العقل إلا جدال العلوم وحرب الظنون ورجم النظر
مصيرك أرفع من وقفة وأول معناه ذوق السفر
وسر اللآلئ خلد البريق وإلا فمعدنها من حجر
وما هي جدوى دم في العروق إذا كان يطفئ نار الفكر
جناح جبريل، ص443.

(4) ذو العقل مثل نصل سيف عقله بألف أسلوب يتم صقله
والحب مسكن شريد زاهد وماله إلا طريق واحد
حجاجه تظل في تلهف لا يعرفون ترف التوقف
مسافرون دائما وإن هم بدوا مقيمين لم يراهم
ليس بسيراها هنا انتقالك بالزاد والمطية انشغالك

العقل أسير. كلما زاد في التحليق زاد في الأسر. يتحدى البرق. ومنه فر. يسحر العقل، والعشق أدرى بحرقة الأكباد. يسهل تجميع العلم. ويصعب قبول القلب. يسهل نقد العقل من العقلاء والسفهاء. العقل له بداية ونهاية. والعشق له بداية وليس له نهاية. يبدأ العقل السؤال، ولدى العشق الجواب. والسجود للعشق وليس للعقل. والعقل الفسيح الذي يحيط بالعالمين في حاجة إلى نور يضيء، ونار تصهر[1]. للعشق عيون، تدرك الحسن. العقل أقل اتساعاً من الطبيعة، والطبيعة أقوى من العقل. مع ذلك تطيع الطبيعة العقل. الطبيعة طيّعة، والعقل آمر[2]. وبالرغم من أن العقل طليق. لا يمنعه قرب أو بعد عن النظر إلا أنه غير مؤهل لمواجهة «الحضور» لأن «عين العقل» تنقصه. وهي أثمن ما يوهب الإنسان. صحيح أن العلم زينة الإنسان، ولكنه فارغ ليس به مجال. والناس في حاجة إلى رحمة من هذا العصر السفيه، من عالم يخلو من القلب. العقل سكر، والقلب صحو. العقل منطق، والقلب جنون، العقل راحة كما هو الحال في «راحة العقل» للكرماني، والقلب قلق وعطاء حيوي. والقلب بلا قلق هو عين الشقاء. العقل يواجه

---

(1)
إنما العقل أسير ... زاده التحليق أسرا
يتحدى العشق برقا ... منه هذا العقل فرا
سحر العقل، وكان العشق ... بالأكباد أدرى
تجمع العلم وتلقي الـ ... قلب لا ترغب فيه
آه ذا نقد ثمين ... ضاع في كف سفيه
إنما الحكمة أمر ... ليس فيه من نهاية
ليس في كتابها للحـ ... ب والعشق بداية
فهلموا نسأل العشق ... سدادا ورشادا
واقصدوا العشق سجودا ... وابلغوا منه مرادا
سلك العقل طريقا ... ذا شعاب حين سارا
ملأ العالم هرجا ... وأصار السماء نارا
في يديه كيمياء ... ردت الرمل نضارا
لم يضع إكسير حب ... في قلوب أو أنارا
حبذا عقل فسيح ... قد أحاط العالمين
نور أملاك ونا ... ر الأنس فيه دون مين
شعلة كنا جميعا ... وانتثرنا كالشرر
أهل شوق وحنين ... ورجاء ونظر

رسالة الشرق، ص325 ـ 327.

(2)
العقل هذا ليس يقهر ... وسعه وسع الطبيعة
وجها لوجه صنعهما ... وانظر لقوتها المطيعة

الموضوع، والقلب الحضور أو «الحضرة» بلغة الصوفية. والحضور سر كما أن القلب سر. سران يتناجيان. القلب والحضور تجليان للحياة. إذا حضر الأول حضر الثاني. لقد طلب موسى الحضرة بقوله ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾[1].

العقل بمفرده ذو وهن. وليس حرياً بالإمامة. حياته ظن وتخمين، ضعف وسقامة. هو خال من نور الفكر، واستقامة السعي. لا يستطيع تبديد الظلام، ولا أن يدرك الحسن والقبح، ولا أن يستجلي الأسرار. وهو أيضاً حكم برجسون على العقل لصالح الحدس، وعند إقبال لصالح الوحي[2]. يستطيع العقل أن يكون أمير الكون، يطوي الأرض والأفلاك، ولكنه لا يستطيع أن يخضع الكون له إلا إذا كان بالقلب جسورا. وما سماه إقبال الوحي أو القلب أو العشق هو ما سماه برجسون

(1) رغم أن العقل لا يمنعه قرب وبعد
إنه والحق: ما أهل للحضرة بعد
اسأل الله تعالى والتمس عينا لقلبك
إنها أثمن ما تكسبه من فضل ربك
أنا لا انكر أن العالم للنفس حبور
هو فردوس ولكن فارغ ما فيه حور
ما أحقَّ الناس بالرأفة من عصر سفيه
ليس في العالم قلب يجد الغبطة فيه
إنه صحو بآن واحد هذا الجنون
ذلك النوع جنون ما له صحو يكون
قلق القلب غذاء وعطاء حيوي
إن قلبا ليس فيه قلق، قلب شقي
أنت للحضرة سر ما لها سر سواك
إنها إن كنت حيا حيثما كنت هناك
أوَلاَ يزعجك قولي أرني أنظر إليك
جناح جبريل، ص440 ـ 441.

(2) ليس هذا القول ذو الوهن حريًّا بالإمامة
فحياة الظن والتخمين ضعف وسقامة
ليس في فكر كنور أو إلى السعي استقامة
كيف يجلو في حياة ذلك الليل ظلامه؟
إن لغز الحسن والقبح ليُعيي ذا الفهامة
حين لا تجلو الحياة السر منها مستهامة
ضرب الكليم، ص24.

الحدس[1]. والعقل في حاجة إلى نار القلب كي تشعله وإلا فهو الموت[2]. والقلب لا يذل للعقل[3].

العقل حبيس المكان والزمان. لا ينطلق إلا عن طريق «لا إله إلا الله»[4]. العقل وسيلة للمعرفة، بعيد عن الحياة[5]. والأفكار دون صوت كالنظر دون العمي. إن لم يسر العقل بالوجد فإنه لا نفع منه. وإن نطق العقل بالتوحيد دون التسليم بالقلب فإنه لا نفع فيه[6]. إن لم يكن في الصدر قلب حر لم تنضج الحياة في شجاعة وهمة. وإن لم ينشط الغزال في فراره ما استطاع الصياد صيده. ماء الحياة قريب. طريقه حرارة الإقدام[7]. العقل يقيم الأصنام في الذهن، والعشق يحطمها[8]. العقل يشيد الأصنام، والقلب يحطمها. العقل يكفر بالإله الحق،

(1) سيطر العقل على الكون أميرا — وطوى الأفلاك والأرض مسيرا
ذا جلال يخضع الكون له — غير قلب ثار بالعقل جسورا
السابق، ص25.

(2) فلست أرى في بيدك اليوم جنة — تشبّ بهذا العقل نار التقدم
إذا حاد عن نار الحياة منغِّم — فموت شعوب لحن هذا المنغِّم
السابق، ص52.

(3) كل قلب ذلّ للعقل فقد — قال ربي أزلا: لا تقبلن
السابق، ص51.

(4) حبس العقلَ في مكان ووقت — كفرُه، لا إله إلا الله
لا زمان ولا مكان فحطم — غله، لا إله إلا الله
السابق، ص8.

(5) عاقبة العقل إلى شتات — فلسفة بُعدٌ من الحياة
ونغْمة الأفكار دون صوت — للذة الأعمال حادي الموت
السابق، ص10.

(6) ذلك العقل صاعدا للثريا — ليس بالوجد ساريا، ليس شيئا
ينطق العقل «لا إله» ولكن — ليس بالقلب مسلما، ليس شيئا
السابق، ص22.

(7) إن لم يكن في الصدر حر قلب — لم تنضج الحياة في همام
إن ينشط الغزال في ذكاء — لم يظفر الصياد بالمرام
ماء الحياة هاهنا قريب — طريقه حرارة الإقدام
السابق، ص62.

(8) أقام العقل أصناما برأسي — خليل العشق بادرها بهدم
رسالة الشرق، ص266.

والقلب موصول إليه[1]. وإذا فضل الآخرون العقل فالأكثر حكمة إيثار القلب[2]. وهو قادر على خلق الإنسان من الطين كما حدث لآدم[3]. ونغمة القلب هي التي تعم كل الفضاءات، وشراره لا تحدده حدود. وإذا أضاء القلب من العقل فإن معيار العقل هو الفؤاد[4]. وإذا كان للفنون عقل فإن عشق الشجون يدمي القلب. وفتوى الحكيم أقرب إلى الجنون[5]. العقل الكسول فيه زرع لا يستطيع الرقص[6].

لا يفهم الآي بتفسير القدماء، الرازي أو غيره بل بالضمير والتجربة الباطنية. لا يأتي التفسير من الكتاب بل من أم الكتاب في التجربة الأولى التي منها خرج الكتاب[7]. مصدر التفسير الخليل وليس كتب المفسرين. فالإسلام سر في الضمير. يضيء من ضوء جبريل ليقاوم الآزري نسبة لآزر أبي إبراهيم. وهذا هو سر الخليل[8].

---

(1) دماغي يعشق الأصنام كفرا — برتبها ويعبد كل حين
فأبصر في فؤادي نار عشق — بعيد أنت من سنني وديني
السابق، ص273.

(2) وهب للآخرين متاع عقل — ونار العشق فاحفظها بديلا
السابق، ص268.

(3) ألا يا عشق! يا رمز الفؤاد! — ويا زرعي النضير! ويا حصادي!
تقادم أهل هذا الترب فاخرج — بآدم محدث من ذا الرماد
السابق، ص268.

(4) أثرت بنغمتي كل النوادي — ومن شرر الحياة جعلت زادي
أضاء القلب من عقلي ولكن — جعلت عيار عقلي في فؤادي
السابق، ص271.

(5) تولي بعدُ عن عقل الفنون — وأدمى قلبه عشق الشجون
فلا تستفت إقبالا لشيئ — فإن حكيمنا رهن الجنون
السابق، ص273.

(6) St. Ref., p. 114.

(7) دع الرازي في تفسير آي — فإن ضميرنا نعم الدليل
يضرِّم عقلنا والقلب يصلى — بذا نمرود فسر والخليل
السابق، ص266.

(8) بني الإسلام! سر في ضميري — يضيء كروح جبريل الرسول
أخادع آزريَّ الطبع عنه — فهذا السر من سر الخليل
السابق، ص265.

العقل تردد وشك وحيرة، والعشق يقين وإثبات وعزم[1]. العقل يسالم، والعشق يصارع[2]. في العقل محبة، وفي العشق غيرة[3]. العقل يحشر الجند، والعشق ينتصر[4]. وإبراهيم نموذج حياة السكر والهيام. فجعل النار برداً وسلاماً عليه. وكسر الأصنام القديمة. واندلعت الثورة من ضمير الشعب ومن إيمانه في وجدانه. هو النور الذي يقتفي أثره الصالحون. ويسميه قاصر العقل الجنون. أما الهوى بمعنى الأهواء فإنه ليس جنوناً ولا فنوناً. ولا يقيم نهضة تمحو الهوان. ولا يؤدي إلى ساحة المجد. وكل إنسان لم يجاهد تحت القبة الزرقاء فإنه لم يخلق بعد. فالجهاد هو خلق الذات بالذات، والروح بالروح، بعد الخلق الجسدي الأول[5].

إن لذعات نار العجم ليست كفؤاً لنار الذات الحامية. والتوحيد محيط بها من كل جانب. والعقل محصور في عقد متتالية هي قواعد الاستدلال. ونظرات العين هي التي تحل الطلاسم. ولا تقوى حيل العقول الآلية على الصمود أمام خفقات القلب الدامية. فكنيسة التفلسف لا تصمد أمام النار الحامية[6]. وإذا كان

---

(1) يحير عقلي نهار وليل — وما قيل عن مولد أو ممات
السابق، ص277.

(2) خدع العقل وموّج — العشق صارع لا تقر
السابق، ص315.

(3) غيرة العشق فانظرن — أينا شوقه احتدم
السابق، ص316.

(4) ساحر العقل يعبّي جنده — لا تُرع للعشق جند ينصر
السابق، ص316.

(5) كن كإبراهيم سُكْرا وهياما — لتصير النار بردا وسلاما
اجعل الأصنام في الأرض هشيما — لا تغادر هيكلا منها قديما
من ضمير الشعب من إيمانه — تنبت الثورة في وجدانه
هي نور يجتليه المصلحونا — قاصر العقل يسميها جنونا
إن قوما للهوى يستسلمون — لم يقم فيهم جنون ذو فنون
لن يقيموا نهضة تمحو الهوان — ما لهم في ساحة المجد مكان
كل من تحت الفضاء الأزرق — لم يجاهد فكأن لم يخلق
يا أمم الشرق، ص343 ـ 344.

(6) لذعات حان العجم ليست — كفء ناري الحامية
ذا أحمد العربي نظر — ته تحيط جهاتيه =

العقل قادراً على الطير في السماء فإن العشق زهرة في نسيم تقدم ناراً بكد الحياة[1].

العقل قادر على إدراك العالم بنوره ويحرقه به، ولكنه بالعشق ينير الدنيا. العقل يدرك، والعشق يخلق. العقل ثابت، والعشق يدور كالراقص في الحلبة من نشوة المعرفة. العقل يُشقي بالحيرة، وبالعشق ترتاح القلوب. وليس كل معنى في اللفظ يستنبطه من العقل قادراً على إحداث ثورة. والإنصات للقلب ساعة قد يساعد على إحضار البعيد[2]. يتحدث العقل رباً كل حين. ويشيد وثناً حتى تكاثرت الأرباب، وتعددت الأوثان. والأفضل نزع البرقع جهراً ليرى وجه الحبيب والحنين والشوق إليه. فلغة الحب لغة الدمع والعهد، بلا كعبة أو معبد. فالإله يتحدد كل حين في القلب[3]. العقل محرقة بنار الراح العتيق[4].

= ما حيلتي والعقل في ... عقد له متوالية
نظرات عينك، فانظرن ... حلت طلسم مجازية
حيلُ العقول تفوقها ... خفقات قلبي الدامية
فاهجر كنيس تفلسف ... لحريم ناري الحامية

رسالة الشرق، ص318.

(1) قل لأهل السماء إن ترابا ... نال بالعقل في السماء مطارا
نحن في العشق زهرة في نسيم ... وبكد الحياة تقدح نارا

السابق، ص319.

(2) العقل يحرق عالما ... في جلوة منه تغير
لكنه بالعشق يعرف ... كيف في الدنيا ينير
العشق في الأرواح يخلق ... كل لون أو يشير
إني لأذكر راقصا ... ذا الحرف أو هو بي يدور
بالعشق ترتاح القلوب ... وإنه فيها سعير
ما كل معنى ينطوي ... في اللفظ، كم معنى يثور
أنصت لقلبك ساعة ... فلعلما يدنو العسير

رسالة الشرق، ص300.

(3) عقلنا ينحت ربا كل حين ... فهو من قيد إلى قيد رهين
ارفع البرقع جهرا لا تُبل ... ليس في حيّك غيري ذو حنين
بسمة خلس ودمع ورنا ... ليس في الحب سواها من يمين
حبذا العشق ففي يوم النوى ... زاد بالـلوعة عهد لا يمين
سادن الكعبة لا تأذن له ... فلإقبال إله كل حين

السابق، ص308.

(4) طوبى لمحرق عقل ... بنار راح عتيق

السابق، ص311.

ومن يجمع بين الوجد والعقل يجعلهما درباً تحيط به المواجد حتى تتركه في ساحة الحب نهبا. فالوجد أقوى من العقل[1]. ولا تتم الأفعال مصادفة عن طريق النرد، ولا عن طريق البحث، ولا عن طريق الوهم، بل عن طريق الوجد. فقد نجح الرومي وأخفق الرازي. ومملكة جمشيد مجرد صورة منعكسة في كأس طبقاً لأساطير السحر والشعوذة والخرافات. إنه طريق القلب في الصدر[2]. علم الرازي تهور وانحدار. أما علم القلوب فهو علم القلندر. وقمة السكر والمحبة في سلوك حيدر، وهو علي[3]. يلحق الفيلسوف العار عندما يعلم أن غيره يطوف بالسر دونه[4].

وفي حوار بين العقل والقلب يقول القلب: قطعاً الله موجود. فيرد العقل: ولكن يا صغيري الوجود من مقولاتي، وليس لك الحق في استعماله. فيجيب القلب: هذا أفضل يا عزيزي أرسطو. فالصفات مشتركة بين الذات الإنسانية والذات الإلهية[5].

التزمت والشكلية والنصية دون إيمان بعقيدة ضد التسامح ولا يمكن للعقل البسيط أن يقبله[6]. ومع ذلك العقل الإنساني هو محاولة للطبيعة للنقد الذاتي.

---

(1) عجبا من مغامرات ذكي — جعل الوجد والتعقل دربا
لم تزل حوله المواجد حتى — تركته في ساحة الحب نهبا
جناح جبريل، ص465.

(2) لعبة النرد لم تكن دون نرد — أرني مظهرا لتلك المغازي
خمرة القوم لا تُنال ببحث — فاز رومي بها وأخفق رازي
كأس جمشيد لمعها في دوام — أي ملكية بلا شعوذات
السابق، ص460.

(3) علم رازي تهور وانحدار — وحياة القلوب علم القلندر
قمة السكر والمحبة تبدو — في السلوك الذي يحث لحيدر
السابق، ص467.

(4) ما هو العار الذي يلحق الفيلسوف
وهو بالسر الذي خبأته أنت تطوف
السابق، ص476.

(5) St. Ref., p. 4.

(6) Ibid., p. 130.

وظيفة العقل النقد. والنقد حركة طبيعية. فالإنسان يتجاوز نفسه باستمرار، ويتعالى على ذاته[1].

ب ـ رحابة القلب

إثبات الذات مفتاحه القلب[2]. وطريقه النظر إلى الداخل[3]. الذات أليفة لذاتها. لا تنظر إلى غيرها. فالذات هي الذات، وليست الغير. وقانون الهوية يسبق قانون الاختلاف. بل إن الشكوى لا تكون إلا للذات أيضاً[4]. العكوف على الذات هو دخول إلى الدير الحقيقي. وهو حياة القلب. وهو أحد المقامات[5]. يستطيع القلب أن يرى في عمق الذات حب الذرى[6]. والذات عمقها[7]، وانطواؤها على ذاتها. وبالظفر حفر الصدر[8]. وأهم ما يميز القلب هو الصدق مع النفس ومع الآخرين. وبلا صدق يكون القلب زيفاً بلا قيمة. ويكون عبده عبد موت ولا حظ له إلا في الوليمة ومغانم الدنيا[9].

---

(1) Ibid., p. 3.

(2) له بالقلب بابا ما فتحنا وذاتا في ثراه ما رأينا

أرمغان حجاز، ص440.

بقلبك أمسكن وعد لنفسك وصدرك فليكن داراً لحبسك

السابق، ص480

(3) وإن نظروا فقد ظهروا بذات لهم في الخفق أشبهت الوثينا

السابق، ص441.

(4) منحت الذات من ذاتي غريبا وزمزم بين صلصال قليبا

لمن أشكو غموما في فؤادي علي من غير ذاتك ما طواه

السابق، ص446.

(5) وفي يوم جذبت إليّ ذاتي بأنوار مقامي مشرقات

بهذا الدير عن نغمات فجر خلقت وفي القلوب الوالهات

السابق، ص450.

(6) لنا دينا بعمق الذات شاهد بهذا القلب حبا من ذُرانا

(7) وسر مثلي بصحراء الحمى سر لأنك عمق ذاتك قد تقدر

أرمغان حجاز، ص469.

(8) على الذات انطواء، فلتعلم بظفرك حفر صدرك، فلتعلم

ترجّي رؤية المولى عيانا فرؤية عمق ذاتك، فلتعلم

السابق، ص482.

(9) فلا تفخر بقلبك دون زيف وجرب مثلما جربت قلبي =

الجهاد بالقلب هو الجهاد الحر. وللصعلوك جهاد البطون. للأول الخلود، وللثاني الفناء. والقلب هو خير مرشد وليس الشيخ والفقيه. وإذا كان الحرم قد خلا من الأوفياء فالمسلم الحر يملؤه مكانه[1]. والآن ينقص قلب المسلم الهوى. وتنقص عينه الصفا. والمغامرة تكمل ما ينقصه وإلا اندهش من كل شيئ. هذا هو سر إقبال الذي يتجلى ذوقه. وكيف يضيع في وهم الحياة وقلبه على عرشها؟[2].

كل ما في السموات مدارات للقلوب. ومصير القلوب أعظم من الغبار المتناثر بين الكواكب وفي السموات والأرضين[3]. القلب هو الذي يطلق عقال العقل وإلا باد الحصاد واندثر. القلب في الفؤاد. والسؤال المبدئي: أين الفؤاد؟[4]. شعلة العقل عون للمسافر. ومراده يلهب الطريق. ليس العقل إلا مصباحاً ينير. أما

= فإن هو كان زيفك مثل زيفي ولم يك لي ولا لك أي قيمة
فعيدك مثل عيدي عيد موت وحظك مثل حظي في الوليمة
جناح جبريل، ص477.

(1) إذا المرء لم يدر ما ربه — تحول عبدا لسلطانه
ومن طلب الله لا من سواه — وأدرك قيمة عرفانه
تحول دارا له طالبا — وجمشيد من بعض ندمانه
يجاهد للقلب حر الجهاد — وللبطن صعلوك أوطانه
وذاك يحصل سر الخلود — وهذا يموت بميدانه
تمعَّن بقلبك واستفته — ولا تسأل الشيخ عن شانه
خلا حرم الله من أهله — فكن أنت جذوة أركانه
السابق، ص430.

(2) القلب ينقصه الهوى — والعين ينقصها الصفاء
من لم يغامر مثلما غامرت تدهشه السماء
ما سر طينتك التي — ذوق التجلي نقشها
أتضيع في وهم الحياة وأنت قلبك عرشها؟
السابق، ص431 ـ 432.

(3) كل ما في سمائنا من مدار — لا يساوي مدار هذي القلوب
ومصير القلوب أبعد شأوا — من غبار مشرد في الدروب
السابق، ص458.

(4) أين من أطلق الحياة بعقلي؟ — أين ذاك الذي أباد حصادي
هو في عزلة الفؤاد مقيم — وسؤالي الوحيد أين فؤادي؟
السابق، ص467.

ضجيج الطريق فلا يشعر به إلا القلب. لا يدرك العقل إلا بريقه[1].

التقابل بين النفس والبدن هو التقابل بين القلب والجسد. عالم القلب هو عالم المحبة والمروءة والحماسة. وعالم الجسد هو عالم التجارة والتملق والسياسة. والغنى هو غنى الفؤاد أي القلب. أما غنى الجسد فضائع. والقلب هو ما يتمسك به من حق. ومن أضاع الحق فلا قلب له. والإنسان ضائع الخطوات إذا ما توهم أن ظنونه حق[2]. القلب نار للاحتراق. حطب الموقد الغليظ ممل. إنما حرق الدقيقات أمتع. مهمة الذات ليس جمع الحصاد بل الاحتراق. والنفس البارد يهيج الرماد ولا يحرق. وشعلة الفكر تضيء الطريق، دليل وليس غاية[3].

5 ـ العلم والعشق

في حوار بين «العلم والعشق» يدلي كل طرف بمميزاته وعيوب الطرف الآخر. ويدرأ عن نفسه اتهام الطرف الآخر له. ينقد العلم العشق مغروراً بنفسه بأن العشق جنون. ويرد الجنون بأن العلم ظنون. العشق شهود، والعلم حجاب. العشق

---

(1) شعلة العقل للمسافر عون — والذي يُلهب الطريق مراده
ما هو العقل؟ إنه ليس إلا — نار مصباحنا بهذا الطريق
وضجيج الطريق من فعل قلب — ليس للعقل منه غير بريق
السابق، ص468.

(2) ما عالمُ القلب؟ المحبة والمروءة والحماسة
ما عالم الجسد؟ التجارة والتملق والسياسة
يا أنت أنت إذا وجدت غنى الفؤاد فلن تُراع
أما غنى الأجساد فهو وكل ما فيه ضياع
وإذا وجدت القلب ثم أضعته فالحق أنك ما وجدته
والحق: أنك ضائع الخطوات من وهم تصدق ما ظننته
السابق، ص429.

(3) حطب الموقد الغليظ ممل — وأنا رغبتي بحرق الدقاق
أنا لا أمنح الحصاد لحقل — عملي الفرد والوحيد احتراقي
قد تنفست ليس من نار قلب — نفسا باردا أهاج رمادا
شعلة الفكر للطريق ضياء — ودليل له وليس مرادا
السابق، ص467.

رؤية، والعلم كتاب. العشق لهيب في الكائنات وثورة فيها، شهود للذات، في حين أن العلم يكتفي بالصفات. بالعشق تحيا الكائنات وتموت. العشق خافي الجواب، والعلم مجرد تساؤل. العشق يجري المعجزات، مثل الفقر والدين. وأدنى العشاق له أرفع العروش. العشق تمكين ويقين، وبه تفتح الأبواب. العشق حلال، والرتابة حرام. العشق لهيب، والألفة حرام. خطر البحر حلال، وراحة السرب حرام. خفقة البرق حلال، وتواصل الضوء حرام. العلم نسك الكتاب، والعشق أم الكتاب[1].

وفي حوار آخر يزهو العلم بأنه استطاع معرفة أسرار الكون وقوانينه. وأمكنه السيطرة على ظواهره. اعتمد على النظر والتجربة على الاستدلال والملاحظة. وعرض نتائجه لكل من يبغي الاستفادة منه. ويعرف العشق بفضل العلم ولكنه

---

(1)
قال لي العلم غرورا إنما العشق جنون
قال لي العشق مجيبا إنما العلم ظنين
لا تكن سوى كتاب يا أسيرا للظنون
فمن العشق شهود
ومن العلم حجاب
من لهيب العشق ثارت ثورة في الكائنات
وشهود «الذات» للعشق، وللعلم صفات
ومن العشق ثبات وحياة وممات
علمنا سؤل جلي
عشقنا خافي الجواب
معجزات العشق مُلك زانه فقر ودين
وعبيد العشق أدنا هم، له عرش مكين
ومن العشق زمان ومكان ومكين
إنما العشق يقين
وبه يُفتح باب
ألفة المنزل في شرع من الحب حرام
خطر البحر حلال راحة السرب حرام
خفقة البرق حلال وفرة الحب حرام
علمنا نسل كتاب
عشقنا أم الكتاب

ضرب الكليم، ص12 ـ 13.

مجرد عامل مساعد لمعرفة حقيقية أعظم، يتم اكتشافها بنور القلب. فالعلم دون العشق سجين في الرحم الذي خرج منه. ويقيد بالقانون الذي اكتشفه. ودور العلم الآن تحويل الصحراء إلى روض، والشيب إلى شباب، والأرض إلى فردوس. وهذا لا يتم إلا بالتعاون مع العشق. كلاهما لحنان لا تغني الحياة دونهما[(1)].

أ ـ العلم الحي والعلم المدوّن

تحصل الذات على علمها بالرؤية والمشاهدة وليس بالخبر. وإذا سمع الخبر فإن تصديقه في العيان. وليس من سمع كمن شاهد. يشير الكلام إلى العالم، ويحيل القول إلى الأشياء. والأشياء تخضع لقانون الهوية. الأرض أرض، والسماء سماء، والماء ماء، والهواء هواء، بدلاً من أن يدخل العقل بين طرفي الهوية فيعقد الأمور بالمفاهيم والتصورات وعالم المعاني المتوسط بين الألفاظ والأشياء كما حذّر برجسون. ومن ثم تكتشف الذات وجودها، والعالم منبثق عنها كما هو الحال عند فشته. الذات ليست موضوعاً يُرى بالبصر بل هي وجود. والوجود هو وعي بالذات، إحساس باطني، تجربة ذاتية. يشعر بها الإنسان ولا يراها[(2)].

العلم موهبة من الخلاّق اكتساباً من التراث، بداهة الذكر على الزمان وليس

---

(1) العلم: أنا سر الكواكب والجهات ... وفي قيدي ثوى ماض وآت
وعيني حدقت فيما أمامي ... وما نظري وراء السابحات
وكم حدّقت فيما أمامي ... وأسراري عرضتُ بكل سوق
العشق: بسحرك سُجرت هذي البحار ... وملء الجو سمك والشرار
ولدت الأمس في حرم الرحيم ... وصرت اليوم في قيد الرجيم
هلُم فُردّ روضا ذا اليبابا ... ورُد مشيب دنيانا شبابا
هلم بذرة من نار قلبي ... أقم في الأرض فردوسا عجابا
كلانا الدهر خِل لا يجور ... للحن واحد بم وزير

رسالة الشرق، ص283.

(2) وعين البصيرة أعملتها ... فأوحت إليّ صحيح الخبر
فهذا تراب، وتلك سماء ... وذلك طود، وهذا نهر
ولا أكتم الحق: أنت وجود ... ولا شيء ما ساح فيه البصر

ضرب الكليم، ص24.

تحصيل المعارف عبر السنين[1]. ضوء العقل مصدر العلم وليس كتاب ابن سينا أو الرازي[2]. ولا يمكن استبدال قوة حيدر (علي بن أبي طالب) بعقل الرازي[3]. العشق هو قدرة على الرؤية أي البصيرة. فضمير الكائنات يتوق للتجلي والظهور. البصيرة جنون ثائر عرفت به ذراتها فضاءها. إن لم تتوافر يتحول الإنسان إلى جسد أصم[4].

العلم في كتاب، والعشق أم الكتاب. العلم بواسطة، والعشق بلا واسطة. لا يأتي العلم من الرازي بل من الخليل عندما قذف به نمرود إلى النار[5]. للعشق تعريف مجيب. يقلب القلوب كما يشاء. يرمي بالأدمع، ويسبك النفس ويجعلها قريبة لنفسها[6]. ولو كان لدى الإنسان مكتبة كبيرة ويعلم كل الكتب فيها فإن هذا يدل فقط على أنه غني وليس بالضرورة مفكرا. تعني المكتبة الكبيرة فقط أن المحفظة منتفخة من أجل تعيين كثير من الناس للتفكير بدلاً عنه[7].

العلم من الحياة وليس من الكتاب. السوس يأكل الكتاب، كتب ابن سينا والفارابي. وما زال في ظلمة وحجاب. أما الفراسة فترى الحقيقة في النور الذي يجذبها وليس في كتاب. الحياة كفاح ومخاطرة كما تخاطر الفراشة بالاحتراق في

---

(1) موهبة الخلاق لا تراث ... نباهة الذكر على الأيام
السابق، ص63.

(2) تضيء عيني العقل من سناه ... ما ابن سينا كحلت والرازي
السابق، ص63.

(3) Persian Psalms, p. 95.

(4) لم تُخف هذي الكائنات ضميرها ... شوق الظهور يثور في ذرّاتها
إن صاحب النظرات شوق بصيرة ... تتبدل الأيام في جلواتها
من ذي البصيرة لي جنون ثائر ... عرفت به الذرات طيّ فلاتها
من ذي البصيرة في الليالي قد غدا ... آناء من خضعوا لها ساداتها
هذي البصيرة لا تيسر لامرئ ... تخزي القلوبُ بنفسه وسماتها
ضرب الكليم، ص79.

(5) دع الرازي في تفسير آي ... فإن ضميرنا نعم الدليل
يضرم عقلنا والقلب يصلي ... بذا نمرود نسر والخليل

(6) أرى للعشق تصريفا عجيبا ... يقلّب كيف ما يهوى القلوبا
رماك بأدمع وسباك نفسا ... وصيرني إلى نفسي قريبا
رسالة الشرق، ص273.

(7) St. Ref., p. 117.

الضياء[1]. وكيف يُغتر بعلوم الكأس فيها خمر شهيد. والفقه مريب، فكيف يكون مريداً؟ في كل دهر خليل، والنار خير خليل. واللحن لا يخرج من الدير لأن العشق عنيد. والأوثان ليست في الدير بل في القلب. تنساب الحياة من أيدي الهنود. والميت لا حياة له حتى بنفخ نار نمرود[2]. يرثي القلب للفقيه المجاور بالبيت العتيق. وأتباعه ليس الجالسين حوله بل حاملي كأس الرحيق[3].

والذوق مصدر للعلم اليقيني، وليس الكبت. والقلب مهبط الوحي الأبدي، وليس سفن كتب التصوف واللاهوت والأدب التي تغرق في البحار. الرؤية والمشاهدة تتطلب العين الثاقبة[4]. قد يتأمل فيلسوف ويعطي كل ما لديه من فكر ولكن دون حب لا يضمن السكر والنشوة، ولا تشع نظرته كالشرر الصادر من القلب الذي يكتشف الأشياء ويبدد الحجب[5].

(1) سمعت: بمكتبتي ليلة يُنادي الفراشةَ سوسُ الكتاب
يقول مررت بكتب ابن سينا ونقّبت في كتب للفارابي
ولم أدر حكمة هذي الحياة وما زلت من ظلمتي في حجاب
تجيب الفراشة في حرقة: أرى نكتة لا ترى في كتاب
رأيتُ الكفاح يُعدّ الحياة رأيت الكفاح يُمدّ الحياة
السابق، ص287.

(2) ... لا تغتر بعلوم الكأس خير شهيد
إن الفقيه مريب فلا تكن بمريد...
في كل دهر خليل ولا نار عن نمرود
لا تلحين أهل دير فالعشق جد عنيد
أقام أوثان حب في القلب من محمود
يضيع شدو حياة ينساب بين الهنود
فالميت ليس بحي بالنفخ من داود
السابق، ص307.

(3) قلبي رثى لفقيه مجاور بالعتيق
ما أتباعه شيخ خان فنوي بكأس رحيق
السابق، ص311.

(4) نسيب جبريل معصوم من الريب وحكمة الذوق تعلو حكمة الكتب
كم كان من سفن للقوم أغرقها سلم التصوف واللاهوت والأدب
كن ثاقب العين في قلب الأسود لها جرح فما لثُغاء الشاة من عتب
جناح جبريل، ص428.

(5) تأمل فيلسوف كل ما أعطاني الفكر =

العلم مشاهدة وحضور وتجربة ذاتية[1]. ليس من كتب الرازي والغزالي أو من صحائف الرومي والعطار بل من معاناتهم وصراخهم وتجاربهم[2].

العلم من الكليم أي من الواجهة المباشرة مع الحق. وهو علم قلبي في الصدر. سماه الصوفية العلم اللدني. هو العلم الفطري الذي لا يحتاج إلى تعلم عن طريق الكتب والمدارس[3]. صحيح أن العلم يحرك الحياة الراكدة، شعوذات العصور القديمة. فالعصر عصر السحر، وليس عصر الكليم[4]. العلم هو العرفان ضد الجهل الذي يحول الإنسان إلى قطعة من الفخار معرضة للكسر، مجرد فراغ أو إناء يملؤه هواء[5]. ولولا الذات لما تم الإدراك والعرفان[6].

= ولـولا الـحـب مـا أدركـت مـا يـضَّـمَّـن الـسَّـكـر
ونـظـرتـه هـي الـشـرر الـمـشـع بـمـحـفـل الـقـلـب
بـلا دن ولا خـمـر تـدور كـؤوسـهـا جـنـبـي
تـظـن تـنـافـر الـكـلـمـات مـن شـعـري ومـن أدبـي
فـحـانـتـا عـلـى عـلـم بـمـا مـزقـت مـن حـجـبـي

السابق، ص446.

(1) غـيـاب أم حـضـور لـسـت أدري مـا أكـابـده
فـهـل مـن بـيـنـهـم أحـد يـشـاهـد مـا أشـاهـده

السابق، ص446.

(2) مـا كـان لـلـرازي والـغـزالـي والـرومـي والـعـطـار مـن نـوال
لـو لـم يـعـانـوا رغـبـة الـصـيـاح وصـرخـة الـحـيـرة فـي الـصـبـاح

السابق، ص449.

(3) أيـن ذاك الـكـلـيـم الـطـيـب والـطـبـع الـمـسـيـطـر
كـم قـلـوب فـي صـدور ذُعـرت مـن نـظـرتـك
درس الـعـلـم الـلـدنـي وذوى فـي فـطـرتـك

السابق، ص449.

(4) الـعـلـم أطـلـق الـحـيـاة الـراكـدة في شـعـوذات مـن عـصـور بـائـدة
مـن كـل سـحـر عـصـرنـا مـحـاش بـلا عـصـا الـكـلـيـم لا يُـعـاش

السابق، ص452.

(5) جـهـلـك هـذا مـا بـه مـن عـار قـد صـيّـر الـجـهـل مـن الـفـخـار
كـم عـالـم فـاضـل مـمـاري مـتـاجـر بـالـديـن والإيـمـان

ضرب الكليم، ص119.

(6) وعـرفـان وإدراك لـمـسـلـم وعـيـنـيـه بـلـولا الـذات يـفـعـم

أرمغان حجاز، ص499.

تدرك الذات بالعرفان أي بالوعي المباشر[1]. وتذكر لازمة «ذاتك بالعرفان يا غافل الأفغان» في قصيدة «أفكار محراب جبل الأفغاني» التي عبر فيها إقبال عن إعجابه بالشعب الأفغاني وقوته وبسالته واعتزازه بجباله وإسلامه. ووضع إقبال أفكاره على لسان الشاعر الأفغاني المتخيل.

الذات هو الإنسان الكامل عند الصوفية أو ما يسميه إقبال «الرجل العظيم». هو في الحب والبغض صادق وعميق، قاهر وشفيق. خرج ضد التقليد المسيطر على الناس، ولكن الطبع خليق بالإبداع. وهو متفرد في الجمع، وطليق من الحشد، مثل شمع الحفل قائم بمفرده، وينير مع باقي الشموع. وهو مثل شمس الصبح فيه نور وبريق. لغته يسيرة ومعناها دقيق. ونظره للعصر سديد. وهي ذات فريدة لا شأن لها بأحوال الصوفية[2].

ب ـ العشق والشوق

أحياناً يستعمل إقبال العشق والشوق والطاقة والحياة كتعبيرات حديثة عن لفظ الإيمان التقليدي طبقاً لظاهرة التشكل الكاذب مع الفلسفة الغربية الحديثة. فالمؤمن في الدينا ليّن مع الصحاب كمس الحرير، بعيد عن المحك أي الضوضاء

(1) تبدل الأقوام في البلدان في الروم والشام وهندستان
يا ابن الجبال هب للزمان وأدركْن ذاتك بالعرفان
ذاتك بالعرفان
يا غافل الأفغان
ص 118 ـ 119.

(2) هو في الحب عميق وهو في البغض عميق
قهره فروق عباد بر وشفيق
نشَّأته ظلمة التقليد بالناس تحيق
غير أن الطبع بالإ بداع والخلق خليق
هو في المجمع خال ومن الحشد طليق
مثل شمع الحفل؛ في الحفل وحيد ورفيق
مثل شمس الصبح فكر فيه نور وبريق
لفظه حر يسير لكن المعنى دقيق
نظر فيه سديد عن بني العصر سحيق
ليس يدري أي حال فيه أشياخ الطريق
ضرب الكليم، ص93 ـ 94.

والصخب والعراك الذي لا يفيد ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159]. وهو كالحديد إذا ما طغى الباطل، جريء إذا ما دخل المعركة. مخلوق من الطين ولكنه يسمو على الأفلاك. لا يصيد الطيور بل يرقى إلى مصاف الملائكة. وفي الجنة تستقبله الملائكة حبيباً لها. وتشكو الحور العين منه أنه سريع الهجران لهن[1].

الشوق إلى دار الحبيب في القلب. يذيبه الوجد[2]. والعاشق ليس من هذا التراب ما دام القلب لا يشقى بأسر. القلب ينير الطريق، وهاج السعير، أشد نوراً من مصباح العقل. زيته العشق[3]. وحال القلب بيّن في كلامه. يجلو للتجلي والشكوى[4].

عين العشق تضيء دون بيان. ووظيفة العقول إظهار سحر العيان. والعشق غوص فيها وتفاعل معها فالعشق جوهر العرفان[5]. العشق يحطم الأصنام، سيل

---

(1) مع الصَّحب ليْن كمس الحرير   بعيد من المحك، المؤمن
حديد إذا ما طغى باطل   جرئ لدي المعترك، المؤمن
من الطين، لكن على الطين يسمو   ويأبي على الفلك، المؤمن
وما همّه صيد طير ولكن   بعيد من الملك، المؤمن
تقول الملائك في غبطة   حبيب إلى قلبنا المؤمن
وللحور شكوى إلى ربها   سريع إلى هجرنا، المؤمن
السابق، ص29 ـ 30.

(2) فما أشتاق دارا للحبيب   وما في القلب من وجد مذيب
ترابي ليس من هذا الممر   وفيه القلب لا يشقى بأسر
زبور العجم، ص374.

(3) ولي في القلب وهاج السعير   دجاك أنر بمصباحي المنير
وذاك القلب حب في ثراه   كلوح خطه ما في سواه
السابق، ص375.

(4) لربي ظل يشكو من مقامه   وحال القلب بيّن في كلامه
جلاء للتجلي لا أريد   ولكن ما حوى القلب العميد
كففت عن الوصال السرمدي   لذذت شكاة قلب لي شجي
السابق، ص375.

(5) فتأمل بعين عشق وأبصر   منه آيا تضيء دون بيان
فعيون العقول تظهر فيها   هذه الكائنات سحر العيان
وعن عشق خذ دروس جهاد   وافعلن ما تشاء في كل آن
إنما العشق جوهر لشعور   وهو روح الإدراك والعرفان
السابق، ص310.

يهدم كل السدود. وإذا بين العقل الوجود فإن العشق يُجلي الكيان. وصلاة العشق بكعبة التوحيد. والسبحة باليمين إشارة إلى الذكر. والدمع على الخد علامة على لوعة القلب[1]. العشق يكشف البدر التمام. يد على الصدر، وعين على الاقتحام. والحسن لا يغشاه ظلام. والعشق ليس يخبو في الهيام[2].

المؤمن تتجدد حياته كل حين وآن. وواضح في أقواله وأفعاله أنه يجمع بين القدسية والجبروت، بين القهر والغفران. في السماء يجاور جبريل، ولا يحل في الأركان. يعشق الفضاء الرحب، ويضيق بالمكان المحصور. سره قراءة القرآن. عزمه يحتوي القضاء. وهو في العالمين ميزان. هو شفوق كالندى، غضوب يقلب البحار طوفانا. حياته ليلاً ونهاراً في تآلف مثل سورة الرحمن[3].

العقل قادر على إدراك العالم بنور العقل ويحرقه به، ولكنه بالعشق ينير الدنيا. العقل يدرك والعشق يخلق. العقل ثابت، والعشق يدور كالراقص في الحلبة

---

(1) قد هدمت الأصنام لم أرض شكلا — أنا سيل هدمت كل سدودي
ومن العشق قد رأيت كياني — كان عقلي يريني وجودي
وبدير ضراعتي وهو أني — وصلاتي بكعبة التوحيد
ومن الذكر سبحتي بيميني — فاعجبن من زناري المعقود
منبع الحزن فيك غير نضوب — دمع قلبي حبسته عن خدودي
راق قولي، وسيرتي لجنون: — خمر شوق لسكرتي وشهودي

السابق، ص311.

(2) منيتي أن يتجلى — ذلك البدر التمام
فيدي تمسك صدري — وبعينيّ اقتحام
ويقول الحسن: صبحي — ليس يغشاه ظلام
فيقول العشق: وجدي — ليس يخبو والهيام

السابق، ص312.

(3) إن للمؤمن الشان — كل حين جديد شان وآن
هو في قوله السديد وفي الفعل — على الله واضح البرهان
فيه قدسية إلى جبروت — ومن القهر فيه والغفران
إن تؤلف هذي العناصر كان — المسلم المستعلي على الحدثان
هو ترب سما يجاور جبريل — ويأبى الحلول في الأوطان
لست تدري بسره فتراه — قارئا وهو صورة القرآن
فيه عزم على القضاء دليل — وهو في العالمين كالميزان
هو برد الندى بقلب شقيق — وبقلب البحار كالطوفان
ليله والنهار لحن حياة — في انسجام كسورة الرحمن

السابق، ص41.

من نشوة المعرفة. العقل يُشقي بالحيرة، وبالعشق ترتاح القلوب. وليس لكل معنى في اللفظ يستنبطه من العقل قادر على إحداث ثورة. وبالإنصات للقلب ساعة قد يساعد على إحضار البعيد(1). ينحت العقل ربا كل حين، ويشيد وثناً حتى تكاثرت الأرباب وتعددت الأوثان. والأفضل نزع البرقع جهراً ليرى وجه الحبيب والحنين والشوق إليه. فلغة الحب لغة الدمع والعهد، بلا كعبة أو معبد. فالإله متجدد كل حين في القلب(2). العقل محرقة بنار الراح العتيق(3).

قوة الذات بالمحبة والعشق، وبالتالي يصبح لها القدرة على تسخير الكائنات. ويتطلب ذلك تسخير النفس أولاً، ثم تسخير قوى العالم الظاهرة والباطنة. تستحكم الذات بالعشق. وهو إرادة الجذب والتسخير. وأعلى أشكاله خلق مقاصده والجد في نيلها. والعشق إفراد العاشق والمعشوق أي الفردية والاستقلال، توحد الأنا في الأنا. ومن مجموع نقاط النور يتكون الضياء. ومن مجموع الشرر تندلع النار في الطين. العشق كالسيف الناصع، دون هواء وتراب وماء. يشق العشق الصخر. وهو عشق الحق. سيفه آمين على الظالمين. فيجلب الحق المبين(4). هو سر في القلب، يصدح به الحق، ويسطع من الكتاب، وتملئ آياته به. العشق يخلو إلى غار حراء

(1) العقل يُحرق عالما — في جلوة منه تغير
لكنه بالعشق يعرف — كيف في الدنيا ينير
العشق في الأرواح يخلق — كل لون أو يشير
إني لأذكر راقصا — ذا الحرف أو هو بي يدور
بالعشق ترتاح القلوب — وإنه فيها سعير
ما كل معنى ينطوي — في اللفظ، كم معنى يثور
أنصت لقلبك ساعة — فعلما يدنو العسير
السابق، ص41.

(2) عقلنا ينحت ربا كل حين — فهو من قبر إلى قبر رهين
ارفع البرقع جهرا لا تُبل — ليس في حيك غيري ذو حنين
بسمة خَلِّي ودمع دنا — ليس في الحب سواها من يحين
حبذا العشق ففي يوم النوى — زاد باللغوة عهد لا يمين
سادن الكعبة لا تأذن له — فلإقبال إله كل حين
السابق، ص308.

(3) طوبى لمحرق عقل — بنار راح عتيق
السابق، ص311.

(4) نقط النور التي تدعى الذوات — شرر في طيننا للحيوات =

حتى ينطلق بعد ذلك إلى الحق. فيحطم اللات والعزى والأوثان[1]. تقوى الذات بعشق ما تؤمل. وهي بالمحبة أقوى وأحيا وأضوأ[2].

العشق ليس تقليداً بل إبداعاً. وهنا يبدو جانب التقليد والمحافظة في فكر إقبال. فالتقليد ليس من أسماء العشق، بل العشق إبداع. لذلك عشق كبار الشعراء. وكان كبار الشعراء والأدباء من العاشقين. لا يكون العشق بتقليد الحبيب، بل بإبداعه كل يوم في ثوب جديد. التقليد موت للعشق[3]. وإذا استحكمت الذات بالمحبة والعشق فإنها تقدر على تسخير قوى العالم الظاهرة والباطنة[4]. العشق يسمو ولا يهبط، يعلو ولا يسف[5]. العشق تقدم. وكل عشق دون إقدام يسقط. العشق مخاطرة ومغامرة تحرسه «يد الله». ومع ذلك تظل النفس كالطود. فالعشق توتر ورغبة دفينة في الانتصاب دون الخروج من المكان[6]. والعشق روح يسري

= قطرة بالعشق توعي ضَرما — وهي بالعشق تنير العالما
لا يهاب العشق في السيف المضاء — ليس من ماء وترب وهواء...
نظرة العشق بها شق الصخور — هو عشق الحق، والحق بصير
سيفه آمين تمحو الظالمين — حين يدعو الحقُّ بالنصر المبين
نحن كنا سره في قلبه — فأذاعت صيحة الحق به
هو عنوان كتاب العالمين — سيد الكونين، مولى الثقلين
الأسرار والرموز، ص18 ـ 22.

(1) في حراء القلب فاقعد خاليا — وإلى الحق فهاجر راضيا
أقْوِينْ بالحق ثم ارجع إليك — واحطمن اللات والعزى لديك
السابق، ص22.

(2) السابق، ص18 ـ 23، المقدمة ص48، خلاصة مقال الشاعر إلى الأستاذ نكلسون ص18 ـ 19. ضرب الكليم، المدخل، ص ط.

(3) كم يُريك العشق من صهبائه — فترى التقليد من أسمائه
أحكِم العشق بتقليد الحبيب — لتنال القرب من رب مجيب
السابق، ص22.

(4) أمرها في الكونُ طرًا يحكم — حينما الذات بعشق تُحكم
يدها من قوة الحق أثر — فإذا ما أوقات شق القمر

(5) لا يسف العشق دأب الهوس — بذباب بازيا لا تقس
ضرب الكليم، ص120.

(6) كل عشق دون إقدام هوى — ويد الله بعشق مخطر
ويلتا من ترف! أين فتى — تخذ الأهوال زاد السفر
خلوة الأطواد ليست وحشة — يعرف النفس بها ذو البصر
السابق، ص122.

في الحياة. نسيم في الجنة، ينمي الأزهار البرية، ويخترق البحار ليهدي الحيتان[1]. له رموزه في الحياة في الأزهار والورد، وهمه في روح الخلائق. وفي دم كل عاشق[2].

لا يخفي العالم ذات الإله بل يكتشف عنه[3]. رجل الله يرى بالله ذاته في الكون فيستشهد في سبيله[4]. التجلي يُري غير أن الذات تطويه[5]. وأمر الصوفية كالرومي هو لزوم الذات[6]. ولا يوجد ضمان أنه بالعود إلى الذات تتم رؤية الحبيب. قد يتحول الإمكان إلى واقع وقد يظل إمكاناً[7]. سر الذات هو السر العظيم[8]. وجود الله يكسبها الوجود فهي مظهر من تجلياته[9].

ومحرك العشق هو الفراق من أجل الوفاق[10]. قفزة واحدة من عاشق تبدد

---

(1) نسيم العشق في الجنات جار ... وينمي العشقُ أزهار البراري
ويخترق البحار له شعاع ... فيهدي العشق حيتان البحار
رسالة الشرق، ص263.

(2) رموز العشق في ورق الشقائق ... وغم العشق في روح الخلائق
وإن تصدع طباق الأرض تبصر ... نصيب العشق من دم كل عاشق
السابق، ص263.

(3) ليس يُخفي عالمُ ذات الإله ... غاصئا مارد رسم في الحياة
السابق، ص165.

(4) رجل الله رأى بالله ذاته ... في دماء خرَّكي يُنهي حياته
السابق، ص175.

(5) التجلي كان هذا من رآه ... غير أن ذلك في ذات طواه
السابق، ص250.

(6) «إلزم الذات» بها الرومي حياته ... عش بأنفاس لمن غنى الأغاني
السابق، ص250.

(7) نظرتي أمعنت في ذاتي طويلا ... فتنَ الدنيا، حبيبي، ما رأيته
السابق، ص251.

(8) ذاتك وانظر إن هذا رؤيته ... سره السر العظيم سنته
السابق، ص263.

(9) وجود الله أكسبها الوجودا ... فكانت مظهرا جاز الحدودا
السابق، ص489.

(10) وهذا العشق يزكو بالفراق ... مع العشاق كان على وفاق
زبور العجم، ص385.

الأسرار. ولا يمكن كتمان الهوى الذي تفضحه الصرخات. فلا سر في الحب. الحب طريق يعلن عن قرب الوصال[1]. وعيون الذات دافقة من خلال الدر والصدف دون تصنع أو تكلف. لها أسلوبها في البحر والشوق، في الفراق والوصال. وذلك من تواضعها وحسن سجيتها[2].

جـ ـ الجنون

والجنون درجة من درجات العشق في مقابل العقل. هو الحماس والإقدام والحزم دون حساب المكسب والخسارة. وما يعده الناس جنوناً هو عين العقل. وما يعدونه عقلاً هو عين الجنون[3]. القلب من تحرّقه ضياء. والعين تكشف عن البكاء في انعكاس النور عليها. ثم زاد صوت الحياة. يعتبر العشق مساً أو جنوناً[4]. ليس الجنون سداً في البيداء. فالهيام في الطبيعة طريق إلى إصلاح المجتمع كما هو

---

(1) قفزة واحدة من عاشق — تجعل الأسرار في جبة كان
أنت إن حاولت كتمان الهوى — فضحته صرختي عند الصباح
صرخة الحب التي تملكني — لم تدع للحب سرا لا يباح
رغم ما تطلقه من حيرة — صرخة التائه من غير دليل
هي عندي وكما أعرفها — دعوة تعرب عن قرب الرحيل

جناح جبريل، ص418.

(2) عيون الذات دافقة — خلال الدر والصدف
بغير تصنُّع منها — ولا وجل ولا صلف
إذا كانت لها أسلوبها في البحر والشوق
فذلك من تواضعها — وذلك منتهى الذوق

السابق، ص435.

(3) فلست أرى في بيدك اليوم جنة — تشب بهذا العقل نار التقدم
ومزّقتُ الجيوب وأنت خال — جنوني لا ألومك في قصور
في جنوني لك أسرار بدت — فاجزني يا شيخ عن هذا اللمم
أبعدَ الدرس عن حماك جنونا — قال للعقل: لا تلُذ بنقاش
إن في حلقة المجانين عقلا — في شرار يرى لهيبا مُضيًا

ضرب الكليم، المدخل ص ع ـ ف.

(4) بقلبي من تحرّقه ضياء — ويجلو النور في عيني البكاء
فزاد من الحياة نوى غبي — يقول: العشق مس أو هراء

رسالة الشرق، ص263.

الحال عند الفارابي في «المدينة الفاضلة»، وابن باجه في «تدبير المتوحد»، وروسو في «نزهة متوحد»[1].

لا يفهم العصر ولا يتحمل حوادثه إلا الجنون. والجنون عطاء مثل الطبيعة سخاء. الجنون درع وليس ثوباً مرقعاً. والعقل شح، والطبيعة لا تشح[2]. وهناك آلاف من الطرق يحزن الإنسان على حيرته في اختيار أحدها. وسكرة القرب وصراخ الوجد تجعله في دهشة. حالة الحب والسكر تجاوز إدراك الحقيقة. فالقلب يدرك كل جمال إذا وصل هواه إلى درجة الجنون[3]. وهذا هو الفرق بين بني تيمور الذين ضاعوا في تراب السند وآل عثمان الذي ارتفعت هاماتهم فوق الصخور. بل لا يليق الجنون. فالعصر لم يعد يتحمل عصر الوجد والجنون[4].

وقد لا يبلغ العلماء درجة تأسيس العلم على الإيمان. يتذوقون حلاوته وعمق تأمله. فأسرار الإيمان تتجاوز حدود العلم. وجماله وراء تجمله[5]. فلا يجدون أمامهم إلا الجنون. العقل حجة على الجميع، مصباح منير للكل. ثم يصيب العقل الجنون. فيتحول الإنسان العاقل إلى الإنسان المجنون، وبتعبير نيشته

---

(1) ما جنون العشق في البيداء سدى ... في قرى الحسن تعالوا نجأر
السابق، ص317.

(2) بجنوني فهمت عصري تماما ... وتحملتُ وقعة بعد وقعة
ألبس الدرع من نسيج جنوني ... لبس ثوبا مرقعا ألف رقعة
إن شح الطبيعة يوم هذا ... وهي من طبعها السخاء

(3) أنا حزني على هجري تبدى ... بآلاف من الطرق الدقيقة
بسكرة قربه، بصراخ وجد ... رجعت به، بدهشته السحيقة
ومن يك شأنه حبا وسكرا ... تجاوز حد إدراك الحقيقة
جرى قدر الجمال بكل قلب ... إذا كان الهوى كان الجنون
أما كانت بنو تيمور تركا ... بنو عثمان أتراك كذاكا
أولئك في تراب السند ضاعوا ... وصخر أولاء مرتفع هناك
جناح جبريل، ص452.

(4) في ردائي الذي تمزق سر ... من بقايا الأسرار يكشف بعدي
لا يليق الجنون فالعصر هذا ... ليس عصرا لدي جنون ووجد
السابق، ص465.

(5) لا تبلغ العلماء باطن مؤمن ... ومذاق رغبته ولطف تأمله
أسراره فيما وراء حدودهم ... وجماله فيما وراء تجمله
السابق، ص455.

يتحول أبولو إلى ديونيزيوس. ثم يتحول الجنون إلى إيمان. والمؤمن الحق ميراثه الكون[1]. فالجنون نهاية مطاف العلم والعقل والشوق.

د ـ الحب

الحب جوهر الحياة. يغني نشيد ألحانه. يحيي بها التراب. ويعطيها بعض ألوانه. يعزف على أوتار الأرض. ويملأ جوهر الإنسان[2]. تطلع العقل ووجد القلب شرارتان من الحب[3]. وإذا قام السلوك الإنساني على الحب فإنه يكشف للعبيد أسرار الملوك[4]. الحب هو الذي يروي العطش للجميع[5]. هو الذي يجعل الذات تتجلى، وتعلن عن نفسها كإسرافيل[6].

الحب هو الذي يعطي اليقين، يقين إبراهيم وهو في نار نمرود. سره الشكر. وقصاراه اللوذ بالنفس والعكوف عليها[7]. الحب لغة الناس أجمعين، وليس لغة

---

(1) العقل حجَّتنا طرا فما أحد إلا وللعقل مصباح بمذهبه
هذا الجنون؟ ومن يدري حقيقته؟ لعله هو أيضا أن يُصاب به
العقلُ عند جميع الناس منهجُه ولم يكن من خصوصيات إنسان
والمؤمنُ الحق هذا الكون أجمعه ميراثه وأنا لولاك برهاني
السابق، ص457.

(2) هو الحب يمضي حِيال الحياة يغني نشيدة ألحانه
ويرسلها في وجوه التراب ويمنحها بعض ألوانه
يغلغل في الأرض أوتاره ويملأ هيكل إنسانه
كما يتغلغل لين النسيم بسيقان زهر وقفطانه
السابق، ص430.

(3) تطلع العقل ووجد القلب شرارتان من لهب الحب
السابق، ص445.

(4) تدخّل الحب بأطوار السلوك يكشف للعبيد أسرار الملوك
السابق، ص449.

(5) أنا لم أزل عطشا ما ارتويت كمثلك عطشان لم ترتو
هو الحب أسمى صعود لنا ولكننا فيه لم ننضو
السابق، ص454.

(6) وإن أضاف الحب عونا أطلقت في الناس ما يطلق إسرافيل
السابق، ص454.

(7) اليقين اليقين جلسة حب من خليل بنار نمرود يمسك

الترك والعرب المملوءة بالطرب. بل إن الابتعاد عن لغة الحب الخاصة تكشف لغة الحب الدفين[1].

الموت لا يمحو رجال «الله» من الوجود. فقد تلون الحب في دمهم بالثبات والخلود. ومهما كان عنف العصر وجبروته فالحب أقوى منه، بالرغم من لطف سبله، وقوة ما يجرفه. لا يستقر الحب في الأمس والغد بل في كل الزمان. ومع ذلك الحب وثبات في أوقات الصفا، لحظات الإلهام والوحي على القلب، قلب الشاعر وقلب النبي. وكان الفيلسوف قد ادعى ذلك من قبل. الحب يخلع إزار الجمال والنسيم بفك أزراره. هو قائد الجيش في ساحة الوغى. هو المشرع والفقيه في المسجد. ليس متسكعاً خلف الهوادج والقوافل، بين المنازل والمراحل. الحب ليس مغنياً بل هو مبدع الأغاني. أوتاره نور الحياة. وقوسه نار المعاني[2].

= سـره أن تـقـوم لـلـه شـكـرا وقـصـاراه أن تـلـوذ بـنـفـسـك
السابق، ص466.

(1) لـغـة الـتـرك والـعـرب عـذبـة مـلـؤهـا الـطـرب
لـكـن الـحـب لـم يـكـن مـلـك تـرك ولا عـرب
حـبـه الـبـعـد عـنـهـمـا حـبـه كـنـزه الـدفـيـن
حـبـه الـحـب إنـه لـهـجـة الـنـاس أجـمـعـيـن
السابق، ص461.

(2) الـمـوت لا يـمـحـو رجـال الـلـه مـن هـذا الـوجـود
الـحـب فـي دمـهـم تـلـون بـالـثـبـات وبـالـخـلـود
مـهـمـا يـكـن جـريـان هـذا الـعـصـر جـبـارا عـنـيـفـا
فـالـحـب يـجـرفـه ولـكـن سـيـلـه يـبـدو لـطـيـفـا
الأمـس والـغـد لـيـس وجـهـتـنـا الـتـي نـسـعـى إلـيـهـا
الـحـب أزمـنـة بـلا أسـمـاء نـطـلـقـه عـلـيـهـا
مـا الـحـب؟ مـا هـو؟ إنـه وثـبـات أوقـات الـصـفـا
لـعـب الـنـسـيـم بـهـا عـلـيـه فـقـطـعـت أزرارهـا
الـحـب فـي سـاح الـجـيـوش هـو الـمـقـدم والـنـبـيـه
والـحـب فـي الـحـرم الـشـريـف هـو الـمـشـرع والـفـقـيـه
أسـأل بـه مـتـسـكـعـا خـلـف الـهـوادج والـقـوافـل
بـيـن الألـوف مـن الـمـنـازل والألـوف مـن الـمـراحـل
الـحـب لـيـس مـغـنـيـا الـحـب إبـداع الأغـانـي
أوتـاره نـور الـحـيـاة وقـوسـه نـار الـمـعـانـي
السابق، ص478.

الحب طفل لعوب. يصفع الشخصية بهمس في الآذان ابتعد[1]. أما حب الأعداء فأكثر من إكسير. مهمته تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب، في حين أن الحب يحيل الانفعالات الدنيا إلى نفسها. وقد أصاب المسيح وبوذا في إدراكهما طبيعة الحب، ولكن في حرصهما على المثالية الأخلاقية نسوا حقائق الحياة. فمن الصعب على أحد حب أعدائه باستثناء الصفوة، بعض الأفراد المتميزين، ولكنه ليس مبدءاً للأخلاق القومية. وإلا كان يمكن أن تتغير نتائج الحرب اليابانية الروسية لو سلك اليابانيون طبقاً للمبادئ الأخلاقية المستمدة من دينهم[2].

6 ـ حرية الاختيار

أ ـ الإنسان حر

الإنسان حر غير مجبر، ومخير وليس مسيرا. لذلك ينقد إقبال مثل الأفغاني من قبل عقيدة القضاء والقدر التي عمت الكلام والفلسفة والتصوف. المؤمن الحر هو مقياس الصلاح والفساد، والبقاء والفناء في الدنيا والآخرة[3]. الثبات والجماد يخضعان لقوانين الطبيعة، ولكن المؤمن الحر لا يقيده إلا الالتزام بالشريعة أي بالفطرة[4].

ويقدم إقبال «ضرب الكليم» ببيتين عن الحرية. فالحرية هي فطرة الحر التي لا تطيق القيد. هي مثل العَين التي تشق الصخر بعد غوص في الذات كما فعل موسى الكليم عندما ضرب الصخر فانشقت منه العيون[5].

---

(1) St. Ref., p. 153.

(2) Ibid., pp. 67 - 8.

(3) فيه عزم على القضاء مشير ... وهو في العالمين كالميزان

ضرب الكليم، المدخل ص ك.

(4) إن النبات وإن الجامدات لها ... من القضاء قيود ذات إحكام

والمؤمن الحر لا شيئ يقيده ... لكن لخالقه في قيد أحكام

السابق، ص ك.

(5) فطرة الحر لا تطيقُ مقاما ... فآلف السير دائما كالنسيم

ألف عين تشق صخرك فاضرب ... بعد غوص في الذات ضرب الكليم

السابق، ص2.

شرط الحرية عدم ربط القلب وفك علاقته حتى تتحرر الذات من كل القيود. فتصبح كريح الصبح تطوف وتمضي وتلقح الزهور[1]. وإذا كانت رجل في الأرض فالأخرى طليقة للحركة في الدنيا. فالإنسان على الأرض ويرنو إلى السماء في آن واحد[2]. الإنسان نحات يصنع الوجود بيده، بأزميله في صخر، وبإلهام وبمصادفة ليست من صنعه. الإنسان حر في عالم ضروري[3]. وفي حوار بين النسر والسمكة، تشكو السمكة من حبسها في الماء وعدم قدرتها على الطيران حتى ولو كان الماء مملوءاً بالجواهر. الماء في كل مكان، ولا يوجد إلا الماء تسبح فيه. وهي مضطرة. ولا يمكنها الهرب حتى في أوقات المد. ويزهو النسر بوضعه في السماء وبأنه ينظر إلى الأرض من عل، ولكن للأرض سحرها وجمالها وتنوعها. فكل منهما يبحث عما يفقده عند الآخر[4].

ويسأل إقبال معلمه ومرشده الأكثر علماً بأنه ضاع من قلة علمه لأنه لا يعرف هل هو مجبر أم مختار. ويجيب الرومي بأن الشاهين يبدو كالغراب، ولكن ريشه يصبح تاجا. في حين يتحول ريش الغراب إلى تراب. يبحث الغراب عن المعنى لأن ظفره يدفعه إلى ذلك، في حين أن الشاهين لا يأكل الجيفة. لا يطعم إلا مما تصنعه يداه. فالإنسان مخير لا مسير[5]. يدأب الحر نهاراً وليلاً. ويبني ذاته صرحاً علياً. فالذاتية تساهم في بناء الحرية. كما أن الحرية تساهم في خلق

---

(1) بـهـذا الـمـرج مـا عـلـقـتُ قـلـبـي ... مـضـيـتُ ولـم تـعـوّقـنـي الـقـيـود
كـريـح الـصـبـح طـفـتُ بـه قـلـيـلا ... مـضـيـتُ ونـضّـرت مـنـي الـورود
رسالة الشرق، ص266.

(2) بـسـلـسـلـة الـقـضـاء ربطت رجـلا ... وفـي سـعـة الـعـوالـم ضـقـت حـالا
فـقـم إن كـنـت فـي ريـب وحـاول ... تـجـد لـلـرِّجـل فـي الـدنـيـا مـجـالا
السابق، ص268.

(3) لـنـا كـون لأزمـيـل ونـحـت ... يـقـلِّـبـه صـبـاحُـك والـمـسـاء
مـثـال مـن تُـراب لـم يـكـمَّـل ... يـسـويـه بـمـبـرده الـقـضـاء
السابق، ص269.

(4) A mesage from the East, pp. 79 - 80.

(5) قـال: يـا هـذا الـذي يـسـهـم فـي وجـد الـكـبـار
ضـعـتُ مـن قـلـة عـلـمـي ... بـيـن جـبـر واخـتـيـار
قـال: يـا إقـبـال! مـا الـشـاهـيـن؟ يـبـدو كـالـغـراب
ريـشـه يـصـبـح تـاجـا ... ريـش هـذا لـلـتـراب
=

الذاتية[1]. وتجربة المصطفى شاهدة على ذلك[2].

الطين والروح رمزان للجبر والحرية، لفرعون وموسى. والتحرر ورمزه رستم أو علي بن أبي طالب تحول من الجبر إلى الحرية[3]. وتستطيع الذات أن تولد بعيداً عن القيود. لا تولد من ماء وطين بل من الفؤاد. الأول جبر، والثاني اختيار. هذا ظاهر وذلك باطن. أحدهما بكاء، والآخر ابتسام. الأول وسيلة، والثاني غاية. الأول سكون في المكان، والثاني حركة في الكون في كل الجهات. الأول باللسان. والثاني بالروح[4]. والجبر بمعنى قوة العزيمة وحسن التقدير والهمة والقوة التي تهد العالم وتبنيه من جديد. يدفع إلى البطولة والخلود، وليس إلى الموت والفناء. وهذا هو معنى الحرية، وكما قال الأفغاني من قبل في رسالة «القضاء والقدر»[5]. ويعتذر

= يطلب الموتى غراب ظفره عبء عليه
وترى الشاهين يمضي أكله صنع يديه

جناح جبريل، ص526.

(1) يدأب الحر غدوا وعشيا ثم يبني ذاته صرحا عليا
وجهاد المصطفى برهانه وسجايا المصطفى ميزانه

يا أمم الشرق، ص361.

(2) قالت النحلة للنسر الذي مر يوما ما على وادي النحل
أنت ترعى في بساتين النجوم وأنا في شقوة العيش المذل
قال: لكن أنا لا أبحث عن قوتي مثلك في هذا التراب
لست ألقي نظرة حتى ولا للسموات التي فوق السحاب

السابق، ص550.

(3) ذاك فرعون أرمض النفس جورا نور موسى بليلة البرد اطلب
ورفاق كرهت منهم خصالا رستما لي وسيد الأسد أطلب

جاويد نامه، ص146.

(4) بولادٍ أنت قد تمضي بعيدا وتفك عنك هاتيك القيودا
ليس من ماء وطين ذا الولاد ما دراه قط إلا ذو فؤاد
ذاك من جبر وذا بالاختيار طاهر هذا وذا خلف الستار
بالبكا ذاك وذا بالابتسام باحث هذا وللثاني المرام
ذا سكون، سيره في الكائنات ذاك قط لا يسير في الجهات
ودليل العالمين في الآذان ذاك بالروح وهذا باللسان

السابق، ص149.

(5) من له التقدير سهم سددا يفزع الشيطان منه والردى
كان جبرا دين أصحاب الهمم والقوي عند رجال في القمم
الحصيف زاد في عقل بجبر والغرير منه في أعماق قبر =

الحلاج عن المعني السلبي للقضاء والقدر. وهو أنه قيد. قد يؤدي العلم إلى الجبر، ولكن العشق يقود إلى الحرية. ولو صبر العلم وتحول من الظاهر إلى الباطن لأدرك الحرية. فالضرورة والحرية بيد الذات وقواها الإدراكية، العقل أم القلب(1).

وبعنوان «عبودية» يرى إقبال أن العبودية قصر نظر. هي تخلٍّ عن شئ دفين في الإنسان وتسليمها إلى الملوك. وبسبب هذه العبودية والتخلي عن الحرية أصبح أسوء من الكلب. ولن يدعو كلب بوله كلباً آخر باسم يا إلهي أو يا سيدي(2). الإنسان عبد مقيد بسلاسل. ينال حريته. وهذه القيود الحديدية حول عنقه ليست قيوداً أبدية. فالإنسان في عالم الضرورة الاجتماعية، وقادر على أن يعيش في عالم الحرية(3). الإنسان آلة في يد القدر ولكنه يقابل ذلك بالحرية الباطنية. ويكونا للحنان نغم الوجود(4). يستطيع الإنسان أن يكون حراً في الحياة وشعابها المتثنية. يستطيع داخل الرضا أن يكون حرا. فالحرية في القبول والرفض(5). وانفعالات العبد لا تخطئ. فالحياة لا تسمع صوت القش بل صوت النار الذي تحرقه. الحرية نار في قلب العبد، تحرق عبوديته(6). والعبد الذي يطلق سراحه مازال في حاجة إلى العشق كي ينير له الطريق وحتى يطيع العقل الإرادة(7).

كل ما في العالم من كائنات حية عبيد أسرى أو أسرى عبيد. وطالما أن الإنسان كائن في هذا العالم فكيف يتحرر؟ وقد تقرر من الأول أن تطيع الشمس

=
خالد بالجبر هد عالما — أسنا جبر لنا قد هدما
الرضا من شأن ذيّاك البطل — وهو ثوب فيه فسل ما رفل
السابق، ص256.

(1) مذهب للعلم كان وهو جبر — ما لديه كل جبر وصبر
كان مجبورا وحرا قلبنا — ليس من أحضان حور سهمنا
السابق، ص255.

(2) A Message from the East, p. 95.

(3) Persian Psalms, p. 4.

(4) Ibid., p. 11.

(5) Ibid., p. 13.

(6) Ibid., p. 38.

(7) Ibid., p. 123.

والقمر الإنسان، ولكن الإنسان لا يعرف ماذا يفعل؟ يستطيع أن يأخذ قنينة خمر من الحان يعطيه فقيراً بارداً فينشأ العالم من جديد(1). رسالة الإنسان الاجتماعية طريق التحرر. هناك عبودية في الظاهر، العبودية للملوك وللإقطاعيين والأسياد، ولكن هناك حرية في الباطن، العبودية لله وحده. فالعبودية لله تعني التحرر من عبودية البشر(2). وعندما يأتي الإنسان ليحرر العبيد من القيود فإنه يرى من نافذة حائط السجن العالم كله. فحرية الفردية رؤية للعالم(3). كل إنسان ينير مصباحه من ذاته بعد أن أخفاها أتباع موسى تحت الجماعة الإثنية المغلقة(4).

المستعبد ليس حيا. ولا يدين إلا لمن بيده رزقه. لا يوجد إنسان سيد لإنسان، بل الكل عبيد الإله. في ضمير الحر تكبير الإله، وفي جبينه تقدير الأمم. موته أعلي مقام ترفع الدنيا لذكراه العلم. في نهضته مسالم، وفي إصلاحه يبني العصر. يذيع الخير في الأمة كما ينشر الروض عطره. ويوم الحرب في الساحة يحفر قبره بسيفه. يتحدى الموت في وثبته. ويتم له النصر بعزيمته. غرس الحق في القلوب غير الغرس في ماء وطين. في الغرس الأول المجد لأحرار الشعوب. وهم في الدهر أعلام اليقين(5).

شريان الحر صلب كشريان الحجر. وشريان العبد رقيق كشريان الكرم. قلب

---

(1) Ibid, p. 56.

(2) Ibid., p. 82.

(3) Ibid., p. 114.

(4) Ibid., p. 115.

(5)

ليس حيا من يُرى مستعبدا	لسوى من في يديه رزقه
سيد من ليس يرضى سيدا	ما خلا ربي فكلٌ عبده
في ضمير الحر تكبير الإله	في جبين الحر تقدير الأمم
موته أعلى مقامات الحياة	ترفع الدنيا لذكراه العلم
هو يوم السِّلم في نهضته	بيد الإصلاح يبني عصره
ويذيع الخير في أمته	مثلما ينشر روض عطره
وهو يوم الحرب في ساحته	سيفه يحفر فيها قبره
يتحدى الموت في وثبته	أو يتم العزم فيها نصره
إن غرس الحق في نور القلوب	غير شأن الزرع في ماء وطين
فالتمس للمجد أحرار الشعوب	إنهم في الدهر أعلام اليقين

يا أمم الشرق، ص366.

الحر مملوء بالحرارة، ويبعث على الطرب. وقلب العبد ميت بائس. ثروة الحر قلب مضيء، وهي حامية. وثروة العبد عين دامية. الحر شهم وصاحب مروءة. والعبد غريب عنهما حتى ولو كان بارعاً في البراهين المنطقية. فالعبد ليس نداً للحر. هو عبد للأفلاك، والحر سيدها[1]. يجعل الحر الحق مصيره. ولا يبيع ضميره لمخلوق. ومن جعل الروح وفياً لله صان قومه من القيد، ويده من الأغلال[2].

للأمة متعة الدنيا كل المرام. وتنتهي إلى اليأس والموت والظلام. أما الحر فهو جهاد وثبات في الحق. والموت أحد المقامات. تبني الأمة قصوراً في الخيال. وترى الممكن مستحيلاً. أما الحر فهو يعمل في كل مكان. ولا يضيع العمر في وهم الخيال. يحول الصخر بحاراً جارية[3]. والخير في صحبته. والشر في صحبة أهل البور. صحبة الحر خير من ألف كتاب. تنير العالم. منه تخلّق آدم. هو البحر الذي يغني عن الجدول. سلام في أوطانه، يغير في عمرانه. يحيي عصره بجديد الفكر كما ينشر الروض العطر. وهو بركان في ساعة الوغى. يحفر قبره بسيفه حتي ينصره الله. زرع القلب في ماء وطين لأصحاب اليقين. والحر هو هادي الأحرار[4].

---

(1) أرمغان حجاز، ص539.

(2) فاز حر جعل الحق مصيره ... لم يبع يوما لمخلوق ضميره
من وفى لله روحا ودما ... صان عن قيد سواه القدما
يا أمم الشرق، ص345.

(3) متعة الدنيا لنا كل المرام ... ثم يأس ثم قبر وظلام
هو في الحق جهاد وثبات ... موته إحدى مقامات الحياة
إننا نبني قصورا في الخيال ... ونرى الممكن في حكم المحال
وهو بالأعمال في كل مجال ... لا يضيع العمر في زيف الخيال
لو رمى شُمّ الجبال العاتية ... حوَّل الصخر بحارا جارية
اجتنب صحبتنا واسعد به ... إن ترد خيرا فكن من صحبه
السابق، ص364.

(4) الزم الحر ودع أهل البوار ... اهدم الدار وكن صاحب دار
صحبة الحر إلى العلياء باب ... هي خير لك من ألف كتاب
صحبة الحر تنير العالم ... ولقد تخلق منه آدم
قربه للعز أصفى منهل ... لك في البحر غني عن جدول
هو يوم السلم في أوطانه ... آية التغيير في عمرانه
بجديد الفكر يحيي عصره ... مثلما ينشر روض عطره

=

والاختيار هو مقياس الحساب، وليس الجبر. فالاختيار مسؤولية، والجبر إعفاء للمسؤولية. والاعتذار بالقدر غير مقبول يوم الحساب. أما المشايخ فهم الذين يروجون للقدر لأنهم عاجزون عن الفعل، وتبرير الكسل[1].

ب ـ وهم القضاء والقدر

الوقوع في أسر القدر يؤدي إلى الموت. ولا يعتذر بالقدر إلا الجاهل. ولقد ثار الروس والألمان بحرية الإسلام. وتحرر الشرق من استعمار الغرب. ولم يكن كلاهما مقدر[2]. أصبح المسلم غريباً عن كل دار. يعافي الدنيا من الغبار. ويحيل عجزه على الأقدار[3]. أصبح المسلم خالياً من العمل بعد أن اختلق القدر واعتذر به[4]. التقدير اسم للاعتذار عن الأعمال. والذات هي التي تحدد أقدارها[5]. ولا تنسب أفعالها إلى الأقدار[6]. الذات خارج التقدير وإلا تحولت

= وهو يوم الحرب في ميدانها ثورة البركان في نيرانها
ليس زرع القلب في ماء وطين هينا إلا لأصحاب اليقين
إن أردت العيش حرا صافيا فالتزم في الدهر حرا هاديا
السابق، ص364.

(1) سيوزن كل شيئ يوم حشر لدى الإنسان من جحر وقصر
فماذا في غد يا ليت شعري أيرضى الله عما سوف يجري
ولي شيخ من الرهبان قالا كلامي ذاك ألق إليه بالا
بتقدير لكم عمر سيفنى سنُقتل نحن بالتدبير طالا
أرمغان حجاز، ص490.

(2) قل لماذا كنت في أسر القدر لا تموت وأموت ما الخبر؟
أعذر الجاهل بالجهل اعتذر والنقاب ارفعه عن وجه القدر
ثورة للروس والألمان كانت خفقة الأرواح في الإسلام بانت
دبر الشرق وهذا الغرب دبر قل أجنبي ما الذي كان المقدر
جاويد نامه، ص320 ـ 321.

(3) غريب، مسلم، عن كل دار ولي دنيا أعاف، من الغبار
وهذي لوعتي من فرط عجزي لغير الله أبديت اقتداري
أرمغان حجاز، ص444.

(4) السابق، ص542 ـ 543.

(5) وذاتك فاملكنَّ تعش سعيدا لنفسك هذه الأقدار حدّ
السابق، ص459.

(6) إلى الأقدار لا تنسب أمورا وكان الله وهابا غفورا
السابق، ص486.

إلى عدم[1]. ولماذا تكون الشكوى من تقدير الله ولا تكون الذات نفسها قدر الله؟[2].

وفي حوار بين الخالق وإبليس حول القدر، يرد الخالق على إبليس. ويفند احتجاجه بالقدر لتبرير فعله في عصيان الخالق ورفض السجود لآدم. علم الله المسبق بعصيان إبليس وإرادة الله الشاملة لإرادات البشر يجعله غير مسؤول عن أفعاله. ويرد الخالق بأنه حر مختار مسؤول، أن يسجد أو لا يسجد. فهو مختار لا مجبر، مخير لا مسير. اعتبر الحجر والشعلة فيه مجرد رماد[3]. وفي قصيدة «قهر الطبيعة»، يصور إقبال قصة خلق آدم ورفض إبليس السجود له. فقد خلق آدم. ورفض الشيطان السجود له. فلم يسجد طاعة العبيد الذين يصلون دائما. ويحكم العالم دون تخويف بنار أو بيوم آخر. وكان لآدم بعض العلامات وقت خروجه من الجنة، وهي أن الحياة لهيب، ورد محاط بالأشواك، وضرورة فتح النوافذ والأبواب حتى تخرج الطيور إلى الحدائق والرياض. وتمرح في السماء بين السحب. فزهرة واحدة في الحديقة خارج القصر تساوي القصر كله. وفي اليوم الآخر، يقف آدم أمام الله مطيعاً كظواهر الطبيعة. أما الإنسان فإنه لا يطيع إلا بفعل المحبة كما قال الشاعر «إن المحب لمن يحبّ يطيع». فالإنسان طين وروح، بدن

---

(1) وفي عدم تعلم كيف تحيا وزد ذاتا من التقدير هيا
السابق، ص495.

(2) السابق، ص533.

(3) إبليس: يا إلها أمره كن ليس عنه من محيد
لم يُصب آدم مني بعدو أو حسود
ويل غر، من زمان ومكان في حدود
كيف أستكبر عن أمرك أو كيف أحيد
كان في علمك أني حائد عن ذا السجود
الخالق: هل عرفت السر هذا قبل أو بعد الجحود؟
إبليس: بعدُ! يا من من تجليه كمالات الوجود
الخالق(ناظرا إلى الملائكة)
خسة الفطرة فيه علمته ذاك عذرا
قال: ما شئت سجودي أنا لا أملك أمرا
ذلك الظالم سمى اختيارا فيه جبرا
إنه سمى رمادا شُعلة فيه وجمرا
ضرب الكليم، ص31.

ونفس، جسم وقلب[1]. وإذا كان القضاء والقدر سيحولان الإنسان إلى مجرد بكاء شاكي للقمر فعليه أن يترك ما هو فيه، ويضع جبيرة في عظمه حتى يقوى عودها وتشتد[2].

لقد قام إبليس بعمله، وهو أنه نصب شباكه كصياد. ولم يقم الإنسان بعمله في الهروب من شبكة الصياد[3]. فلماذا لم يصعد الإنسان إلى السماء حتى لا يصطاده الصياد في الأرض؟. فمن المخطئ ومن المصيب، إبليس أم آدم؟ كانت صحبة آدم لإبليس وبالاً عليه. وكانت صحبة إبليس لآدم وبالاً عليه أيضاً. طين آدم لم يعطه الكبرياء أو الإباء. فأضاع نفسه وانتهى إلى الفناء[4]. أثبت ذاته، ونفاها آدم. كان إبليس صاحب العزيمة، وآدم خارت قواه. أنكر الإنسان ذاته فأفنى نفسه. وفي النهاية، إبليس هو الذي مارس حريته. وآدم هو الذي اعتذر بقضائه وقدره[5].

كان إبليس مختاراً لا مجبراً في اعتراضه على السجود لآدم[6]. لقد استعمل إبليس حريته وفقدها ابن آدم لأنه طاوع غواية إبليس. فإبليس أعظم من آدم[7]. من القضاء

---

(1) A message from the East, pp. 41 - 8.

(2) Persian Psalms, p. 105.

(3) يرصد الصياد ما يرميه حتما ... إن بدوت في مصادي نِلتَ سهما
ما هوى من طار في أوج السماء ... يغلب الصياد صيد في الذكاء
جاويد نامه، ص269.

(4) ربَّ من أخطا وربَّ من أصابا ... صحبةُ الإنسان لي كانت مصابا
ذلك الإنسان حكمي لم يخالف ... أغمض العين وذاتا لم يُصادف
طينه لم يدْر ذوق للإباء ... لا ولا معنى لنار الكبرياء
وضعيف العزم فج الفطرة ... ويخر إن ضربت ضربتي
ما هو الإنسان؟ ضغث من غثاء ... حسبه مني الشرار للفناء
منكر الذات أريد منك فامنح ... رجل الله الطريق نحوه افتح
السابق، ص270.

(5) يا إلهي فلتهب حُرا أبيا ... في انهزامي متعة كانت لديا
السابق، ص270.

(6) من مروجي نبتتْ نار ونار ... بعد جبر قد هداه الاختيار
السابق، ص268.

(7) إنني أظهرت قبحي، قم بشأنك ... ثم قلتُ: أنت فلتختر لنفسك
تلك ناري صَدَّ عني حرَّها ... عقدتي حُلّ ودبِّر أمرها
أنت يا إنسان في أسري دفعت ... أنت عصيانا لشيطان أبحت =

والقدر تنشأ الحرية[1]. ومن عالم التقدير يتحقق المرام. ورجل الله هو الحسام[2].

ويعطي الله والشيطان الإنسان الفرص من أجل الاستفادة منها بأي طريقة يشاء. والتفكير في الشيطان يؤدي إلى ظهوره. وهذا أيضاً يصدق على الله. وهذا هو معنى المثل الشعبي «اللي يخاف من عفريت يطلع له»[3].

واعتماداً على الشخصية والخيال الخصب الخلاق، يمكن إعادة بناء عالم الخطيئة والشقاء كجنة فعلية. من وجهة نظر الخطيئة، الخطيئة أفضل من التقوى. ففي الأولى عنصر خيالي أكثر من الثانية. والألم هبة من الآلهة حتى يدرك الإنسان الحياة في كليتها. ولا يوجد نسق ديني ينكر القيمة الخلقية للألم. وخطأ مؤسسي المسيحية أنهم أسسوا دينهم على واقعة الألم بمفردها. وجهلوا القيم الأخلاقية للعوامل الأخرى. ومع ذلك كان هذا النسق الديني ضرورياً للعقل الأوربي من أجل إكمال المثل الأعلى اليوناني كما قال جوته، ولكنه كان يكشف عن الجانب المنهجي في الألم الذي قدمته المسيحية[4].

وفي فلك المريخ في «جاويد نامه» موضوعان رئيسيان: القضاء والقدر، والمرأة. الأول خاص بالشرق والثاني بالغرب. ويبدأ زندرود بالدفاع عن القضاء والقدر الذي يرفضه حكيم المريخ[5]. فإن كان القضاء شراً فليطلب الإنسان خيره من غيره. والذات قادرة على أن تستعيد قدرتها بنفسها. هي تراب يطير في الهواء

= وهماما كن ولا تخش الخطوبا — ولتعش يا مسعدي عني غريبا
السابق، ص268.

(1) أنت قلت: كل شئ بالقدر — وهو قيد، يا ترى أين المفر؟
قد أسأت الفهم يا هذا كثيرا — ما رأيت الذات والله القديرا
وقضاء الله كان عزمه — سهمه في الحرب كان سهمه
السابق، ص257.

(2) من رجال الله، كن سيفا حساما — عالم التقدير فاخلق، والمراما
السابق، ص318.

(3) St. Ref., pp. 134 - 45.

(4) Ibid., pp. 102 - 3/108/115 - 6.

(5) القضاء إن عدمت خيره — من إله الكون فاطلب غيره
بسؤال الله كن أنت الجديرا — يملك الله الكثير والكثيرا
كل مال الذات في قوم هدر — إنهم لم يدركوا معنى القدر
رمزه حرفان، هل أدركته — «إن تغيرت فقد غيرته» =

أو حجر يكسر الإناء. هو طل فوق زهر، وبحر دائم الخلود. هي ذات ـ إله. تجمع بين العقل والإيمان. قد ينال المال بالجهد وبدونه. والفقير لا يحتاج لكليهما. الجبر والصبر قرينان. الجبر يجعل الإنسان يصبر على ما يصيبه من شرور. وهو سم قد بدر. يجعله يقبل الظلم(1).

لذلك يرفض إقبال عقيدة القضاء والقدر باستمرار كما فعل الأفغاني من قبل. يستنبطها القاعدون من القرآن فتخلفوا. والأحرار استنبطوا الحرية أيضاً من القرآن فسادوا العالم. ورضي القدريون بما يكرهونه استسلاماً لها(2).

وحرية الفكر أمر إلهي وليست فقط من مكتسبات الحضارة الغربية. وإذا كان القرآن يحتمل الوجهين فالأولى أخذ الوجه الذي يؤكد حرية الفكر. فهي أحد مطالب العصر(3). وحرية الذات نتيجة تحررها بفعل التوحيد. وآنعتاق العبد من الدنيا تحرر له بالآخرة(4).

= كن ترابا لتطير في الهواء   حجرا كن بك تحطيم الإناء!
أنت طل، فالسقوط فوق زهر   أنت بحر، فالخلود كل دهر
قد صنعت لك دوما أنت لاتا   ما ثبت، فلتعلمك الثباتا
أنت مالم ترفض الإيمان نفسك   عالم الأفكار فيه كان حبسك
قد ينال المال من يلقى التعب   وعديم الأين موفور النشب
كان هذا أصل دين يا غرير   فيزد في فقره هذا الفقير
السابق، ص241.

(1) دعك من فقر به عري وجب   حبذا الفقر إذا ملكا وهب
إن هذا من يديم صبره   ذاك من يرضى ويهوى جبره
يألفان الظلم مرا في التحسي   ليت قومي يعلمون، ويح نفسي
السابق، ص276.

(2) من القرآن قد تركوا المساعي   وبالقرآن قد ملكوا الثريا
إلى التقدير ردوا كل سعي   وكان زمامهم قدرا خفيا
تبدلت الضمائر في إسار   فما كرهوه صار لهم رضيا
ضرب الكليم، ص9.

(3) ألا من يطيق اليوم نصحا لمسلم   وحرية الأفكار من ربه أمر
وإن شئت فالقرآن تأويل لاعب   فجدد لنا شرعا يلائمه العصر
رأيت بأرض الهند أي عجيبة   فإسلامها عبد ومسلمها حر
السابق، ص42.

(4) وإن العبد من الدنيا انعتق   رحمة الرحمن بالعبد استحق
جاويد نامه، ص163.

لا تقتل الذات ذاتها بذاتها. بل هي حرة في أفعالها بالرغم من خلقها من طين. وإثبات الذات أرضى الجميع لأن فيه إثبات للآخر. وقيمة أشعار إقبال أنها تعبر أيضاً عما في قلوب الأمم من خاطرات وهواجس[1]. هل الإنسان في رحاب الفضاء سجيناً، دمعه على وجنتيه؟ إنه إنسان حر يشهد بسر التجلي لطينته[2]. الذات حرة بالرغم من إطلاق «عبد الله» عليها. فالعبودية لله حرية من عبودية البشر[3]. الحر ينمو بذاته، ويختار أمره، ويقرر مصيره[4].

كل إنسان يصنع مستقبله، ويخطه بيده. ولم يخط الله شيئاً على جبين كل إنسان. نفخ الله فقط النار في البشر، شباباً وشيوخاً. وقد يخرج من الصحراء فقير يحول الحصى إلى در. والفضاء فوق الرؤوس يسمى سماء، ولكنه تحت أجنحة العقاب أرض[5].

والقدر يقضي على مساعي الأمم حتى ولو كان له منطق خفي[6]. بل إن

---

(1) أنــا مــن أجــل هــذا كــلــه ... باعتزال القصر محكوم عليّ
أنــا لا أجــهــل مــا تــقــصــده ... ومصير الكل معلوم لدي
السابق، ص444.

(2) لست يا أنت في الفضاء سجينا ... لست دمعا على منازل رسمه
يشهد الحر أن سر التجلي ... بين صلصاله وهيكل جسمه
السابق، ص445.

(3) أنــت عــبــد الــلــه فــالــزم ... لــيــس لــلــحــر تــحــول
مــا عــدا عــز الــعــبــوديــة لــلــه تــســول
ســيــد الأحــرار عــبــد ... حــرم الــلــه بــذاتــه
فــاحــفــظ الــذات وصــنــهــا ... إنــهــا مــن عــتــبــاتــه
السابق، ص448.

(4) الحر يسمو في الحياة بذاته ... ويصوغ ما يختاره من أمره
بلهيب أنفاسي التي أطلقتها ... شاهدت ما تخفيه أعماق القدر
السابق، ص449.

(5) إن يكن في الألوف رب يقين ... نفخ النار في شباب وشيب
ربما تنشئ الصحاري فقيرا ... يخلق الدر من حصى في الجيوب
بيراع لك اكتبن لك حظا ... لم يخط الجبين رب الغيوب
ذا الفضاء الذي يسمى سماء ... ليس شيئا لدى العقاب النجيب
هو فوق الرؤوس يدعى سماء ... وهو أرض تحت الجناح الهبوب
السابق، ص124.

(6) ربــمــا يــبــلــغ الــلــئــيــم مــنــاه ... ويــنــال الــكــريــم ضــيــم الــزمــان =

الفرض في الذات يكشف عن الحرية وراء القضاء الذي قد يفسر تنافر الناس. الغوص في الذات هو الذي يعطي الأمل[1]. ولا تتبدل الذات بدعوى أن القضاء يبدل. الذات هي نفسها، والقضاء يتبدل. الشراب باق، وتتبدل الأواني والسقاة. والغناء باق، ويتبدل المغنون والقيان. والرجاء باق، والمرجو يتبدل[2].

وتفرد الحدوث من القدم على رأي الفلاسفة يتجلى في صفاء الشعور. والأفلاك لا حَظ في دورانها. إذ يظهر السر في قوة الصرخة. وشرارة الذات تنبعث من الروح وإلا كان العشب ما زال ندياً لم يجف بعد. والقلب وهو في صلصاله ليل ونهار. ولن يخمد نار اللهيب حتي يتحرر كل شئ فيها بالرغم مما يقوله مشايخ السكر أي الصوفية عن تدخل القدر وإرباكه خطط الإنسان. عظمة الإنسان أنه يحول الطين والصلصال الذي خُلق منه إلى ذات حرة[3].

= علٌ في منطق القضاء خفاء ويرى دون منطق في العيان
علم الناس ذي الحقيقة طرا وجلاها التاريخ كل أوان
نحو مسعي الأقوام يرنو القضاء نظرة كالحسام فيها مضاء
السابق، ص15.

(1) تنافر الناس دائم أبدا لست ولا أنت القضاء فصله
في الذات غُصْن، للزمان ذا أمل دواؤه في الجروح أرسله
السابق، ص116.

(2) يجوز أن تبدل أنت، لا تخل بدعوة أن القضاء يبدل
إذا سرى في ذاتك انقلابها فجائز أن القضاء يُبْدَل
يبغي الشراب والغناء إذ ترى رسم السُقاة والإناء يبدل
تدعو بتحقيق الرجاء جاهدا ودعوتي أن الرجاء يبدل
السابق، ص116.

(3) الحادث المحجوب قبل ظهوره للناس تعلنه نقاوة مهجتي
لا حظَّ للأفلاك من دورانها فالسر مظهره جسارة صرختي
أترى بلا روح شرارة أنتي أم أن عشبك ما يزال نديا
صرخات هذا القلب في صلصاله تُذكي لهيبك بكرة وعشيا
لن يخمد اللهب الذي في طينتي حتى يحرر كل شيئ فيها
بالرغم من قدر قد ارتبكت به فُضحت شيوخ السكر في ناديها
جناح جبريل، ص456.

جـ ـ الحرية الذاتية

والأقدار في يد الذات وبمحض أمرها. الأقدار قوة مستورة خلف الذات الظاهرة. فإذا ما خلت الذات إلى نفسها تصل إلى الخلود[1]. الجبر وهم وظن. فلا روح بلا إرادة. مسار الذات من الجبر إلى الاختيار، ومن الأرض إلى السماء، ومن الطين إلى الروح. بهذا التحول تمتلك الدنيا كما يمتلك البطل النوق[2]. لا يسيطر القضاء على أفعال البشر. وأين قضاء الإنسان الذي تحت سيطرته؟[3]. كيف لا يستطيع المسلم وهو نور السماء أن يشرق في الأرض وهو سلطان الليالي متعذراً بالقضاء؟[4].

الحكمة كلها في أن يعيش الإنسان حرا[5]. والحرية هي الحرية الذاتية، التخفف من علائق الدنيا وليس حمل همومها، وتحويل الحياة إلى تجارة، رأس مال وضرائب. يحقق الحر وجوده بكفاحه. ويعتبر تدخل الناس عاراً. فالذات ليست أجيرة في قصر غريب. وليست في واقع الحياة غبارا[6].

---

(1) هي الأقدار تكمن خلف ستري   قيامات أقمتُ بمحض أمري
بذاتي برهة ها قد خلوتُ   بدنيا الخلد أخلقها بدوت
زبور العجم، ص374.

(2) وهذا الجبر وهم أو ظنون   بغير إرادة روح تكون
تصول بعالم للكيف والكم   وعن جبر إلى المختار تقدم
وذاك الجبر منه إن أفاقت   لها الدنيا كتلك النوق ساقت
السابق، ص391.

(3) رباه أين أنا وأنت وإن يكن   هذا قضاؤك أنت أين قضائي؟
جناح جبريل، ص417.

(4) أيها المسلم يا نور السماء   كيف لا تشرق في أرض البشر؟
أنت سلطان الليالي لا كما   قالت الحمقى أسير للقدر
السابق، ص419.

(5) يا أنت! ثروة الحكيم طرًا   في أن يعيش ويموت حُرا
والآخرون جهدهم منتهب   نفوسهم كما يريد الذهب
أرواحهم ترزح في المصائب   ورأسمالهم من الضرائب
السابق، ص453.

(6) يصنع الحر كونه بجهاد   ويرى في تدخل الناس عارا
لست آجرة لقصر غريب   لست في وقعة الحياة غبارا
السابق، ص458.

ولا تعتمد الذات إلا على ذاتها. ولا تسأل غيرها. بل تجتهد، تخطئ أو تصيب[1]. وكل نور يُؤخذ من غريب يخبو تدريجياً. الذات شمس تستمد نورها من ذاتها، وليست قمراً يعكس نور غيره. كل شئ سوى الذات سراب[2].

ويسمي إقبال «الجبر الذاتي» المعروف عن برجسون التسليم والرضا. ويعني الحرية الداخلية، الضرورة الباطنية[3]. فالإنسان حر بضرورة داخلية كشوق النبات لرحب الفضاء، وخروج الحب من ظلمة التربة كأن به جنون النشوء والنماء. حرية الإنسان من ضرورة فطرته. ومن ثم لا يترك السعي بحجة القضاء والقدر. لأهل النماء فضاء فسيح، في عالم واسع[4]. فالقضاء ليس قيداً بل الأحكام التي يضعها البشر. فالتقدير يوضع في غير محله لتبرير الكسل والعجز والإحباط والهزيمة. الكائنات الطبيعية تخضع لقوانين الطبيعة. والمؤمن الحر لا شئ يقيده ولا يخضع إلا لذاته وفطرته[5]. حرية الذات تحطم القيود[6]. والذات قادرة على مواجهة

---

(1) لا تقل للدليل دعني لوحدي — إن أمرا كمثل هذا بديهي
لا يطيق الكريم ذل سؤال — فاجتهد وحدك اجتهاد فقيه
السابق، ص446.

(2) كل نور أخذته من غريب — سوف تخبو به رويدا رويدا
قلبك الشمس فاْقبس النور منه — كل ما ترتجيه نفسك عندك
كل شئ سواك أنت سراب — شهد الله أنك الحق وحدك
السابق، ص448.

(3) وهي أيضاً رسالة زكي نجيب محمود للدكتوراه بعنوان «الجبر الذاتي».

(4) على كل غصن تبين أن النبات مشوق لرحب الفضاء
فما قر في ظلمة الترب حب — جنون النشوء به والنماء
فلا تبغ في فطرة ترك سعي — فما ذاك معنى الرضا بالقضاء
لأهل النماء فضاء فسيح — وما ضاق ملك الإله، فسيحوا
ضرب الكليم، ص35.

(5) قيد القضاء ترى أم قيد أحكام — ما أعجزت هذه أرباب أفهام
في كل حين ترى التقدير في غير — رهينها بين لذات وآلام
السابق، ص44.

(6) قوى للذات يوما ما بلونا — وقيدا بعد قيدي حطمنا
أرمغان حجاز، ص487.

الفرعونية، والالتفاف حول نفسها كأفعى ترقص بانتظار من يواجه. وتصبر وهي تعمل[1].

وحرية الذات نتيجة تحررها بفعل التوحيد. انعتاق العبد من الدنيا تحرر له بالآخرة[2].

ولا تعني حرية الفكر الفوضى بل تدبر العالم. فلو كانت في رأس جاهل لرد الناس بهائم[3].

والحرية تنتهي بالشهادة لأن العبد هو الذي يعيش خائفاً من الحرام. والحر وحده هو الذي يقدم روحه ويموت بغتة دون أن يحمل هم الموت. موت العبد موت القبور، موت التراب. وموت الحر حياة في السماء، تبعثه من تربه. يخشاه العبد، ويتوق إليه الحر. يموت العبد وهو يرتعد ويستشهد الحر وهو يكبر في معاركه. موت المؤمن هو موت النبي وليس كموت الملوك من أجل السلب والنهب. يموت الشهيد من أجل الحبيب للوصال القريب. راهب الإسلام هو المجاهد. وهو ما عرفه الشهيد وحققه بدمه[4]. وحرام على من علمته معرفة الذات

---

(1) لشط قال موج وهو يهدر ... بفرعونية ذاتي أقدر
على ذاتي التفافي مثل أفعى ... وأرقص بانتظار فيه أصبر
السابق، ص498.

(2) وإن العبد من الدنيا انعتق ... رحمة الرحمن بالعبد استحق
جاويد نامه، ص163.

(3) بحرية الأفكار هُلك جماعة ... إذا لم يكن فيها تدبر عالم
فحرية الأفكار في رأس جاهل ... طريق لرد الناس مثل البهائم
ضرب الكليم، ص53.

(4) ويموت العبد خوفا من حِمام ... لم يكن يعش له غير الحرام
لكن الحر هذا شأنه ... روحه الأخرى لديه حينه
ليس يُجري ذكر موت بغتة ... ويموت الحر لكن بغتة
دعك من موت القبور والتراب ... إنه الموت ولكن في التراب
ما يُرجّي مؤمن من ربه ... موت إطلاق له من تُربه
لطريق الشوق هذا الموت غاية ... وهو للتكبير في حرب نهاية
ليس للمؤمن غير الأطيب ... أي موت مثل موت النبي
الملوك حاربوا من أجل سلب ... كالنبي مؤمن في خوض حرب
وبها يمضي إلى دار الحبيب ... يهجر الدنيا لوصل من قريب =

نسيان الجسد أن يلبس الدرع[1].

7 ـ الإبداع

والحرية شرط الإبداع وهو ما يسميه إقبال الإلهام. فللحر إلهام يُحفّزه إلى القول والفعل. نفس الحر يشيع في الروض فيزدهر من شراره[2]. والذات خالقة ومبدعة، تبدع الشعر والفن[3]. وتتجدد الذات باستمرار كالأمواج في نهر الحياة. فالتجدد جوهر الكائنات. تتجدد باستمرار في شوق إلى كل تجديد. الذهاب والمجيء قانونها[4]. والسكون موت[5]. والدين أيضاً كذلك موج مسرع لا يهدأ بل يبحث عن المجرى العميق الواسع[6]. الذات شوق، والشوق حرية، والحرية إبداع[7].

= قال قوم للنبي ذو المحامد ... راهب الإسلام من كان المجاهد
الشهيد وحده هذا دراه ... بدم أجراه في الحرب اشتراه
جاويد نامه، ص212 ـ 213.

(1) أرمغان حجاز، ص543.

(2) إن للحر ملهما نظرات ... تحفز القول والفعال بنار
حر أنفاسه يشيع بروض ... فترى الروض مزهرا من شرار
السابق، ص36.

(3) قل، لهذا الشعر من أين اللهب؟ ... أضرمته الذات أو رب وهب
السابق، ص297.

(4) إنما الأمواج في نهر الحياة ... إنما التبديل شأن الكائنات
ما الحياة غير تجديد تجدد ... طالما تطلبُ في شوق تمهد
الذهاب والمجيء ما هما ... الكيان للوجود منهما
السابق، ص311.
خفقت كموجة في موج ذاتي ... إلى الطوفان أدّت سافياتي
أرمغان حجاز، ص471

(5) السكون في الحياة للثبات ... ما سألت الله طولا في حياتي
السابق، ص312.

(6) ديننا يشبه موجا أسرعا ... ما أقام بل أراد المهيعا
السابق، ص314.

(7) أنت حي؟ من شوقا وخلق ... كل أفق مثلنا فلتطرقْ
ما تراه لا يواتي فلتحطم ... عالما منك إليك فلتقدم
كل حر كان مكروبا حزينا ... أن حواه عالم للآخرينا =

الإبداع هو جوهر الذات في القول والعمل. فلا توجد أوامر مسبقة للذات، تدفعها آلياً نحو التفكير أو الفعل. بل تعبر الذات عن نفسها تلقائياً كما يفعل الشاعر. وتفعل كما يفعل البطل[1]. ويصدر كلاهما من حرقة الوجود المشتق من الوجد، من الدموع والضحكات، من الأفراح والأحزان. يستخرج الإنسان كل ما في فطرته من مواهب، ويعتمد على ذاته. فتظهر قوته وفعله. ويرفض التقليد والاعتماد على الغير[2].

الإبداع تخليق وجِدَّة إذ تتجدد الدنيا بتجديد الفكر. فالدنيا ليست صخراً أو حجارة. الغوص في الذات مثل الغوص في غدير الماء أو في البحر المتلاطم الأمواج أو هبوب آفاق الصحراء الممتدة إلى ما لا نهاية[3]. والنظر في الأشياء يكشف عن عالم ما بين السطور. ويكتشف أشياء جديدة تسري بينها مثل الذات[4]. بل إن الضحية تلتذ بالنظر إلى انعكاس النور في حد السيف قبل أن يقطع الرأس[5].

والرجل العظيم يرى في خياله عالماً جديداً يحققه في الواقع بالفعل. ومن

= أعلى الإبداع أنت غير قادر؟ لست في رأي لدينا غير كافر
وعدمت حسنا حتى الأثر من نخيل العيش ما ذقت التمر
السابق، ص317 ـ 318.

(1) معليا قدر الكلام المبدع مازجا فيه غزير الأدمع
الأسرار والرموز، ص9.

(2) ضرب الكليم، المدخل ص ط.

(3) جدة الدنيا بتجديد الفكر ليست الدنيا بصخر ومدر
همة الغائص في الذات لها من غدير الماء بحر قد زخر
ريح أصحاب من البيد أتت لا عجيب إن بدا خِدْن سفر
السابق، ص72 ـ 73.

(4) إن صدقتْ نفسك في الدهر النظر تنور الأفلاك منك في البُكر
وتستضيء الشمس منك بالشرر وينجلي قدرك في سيما القمر
والبحر يلقي منك ذا درر وتستحي إعجَاز صنعك الفطر
تخذت أفكار الورى مرآتك فكيف لا تبلغ حتى ذاتك؟
السابق، ص88.

(5) أي ذات حوى فتي الصين من قا ل لجلاده أمام الحمام
منظر رائق، تمهل، تمهل لأري لحظة وميض الحسام
ضرب الكليم، ص95.

كان قلبه حياً في الدنيا لا يخفى عليه القضاء. إن كان محدود البدن فروحه لا نهائية[1]. خلق المعاني موهبة من الله واجتهاداً في الفن. يخلق الفنان بحرقة الدم. فلا يتجلى جوهر دون جهد[2]. والذات تدرك الجمال كما يدرك الضحية وميض السيف قبل أن يقطع الرأس.

والذات فياضة بطبعها، كريمة وهابة. ليس من عادتها تخبئة الكؤوس. الطريق متعرج وعسير. لا يخشاها الشجاع. ولا يزهو بها المغرور. ولا يسير فيها من هانت عليه نفسه. والذات خبيرة بقواها. لا تحتاج إلى ما تستند عليه. تعرف أن حمرة الشفق في الأفق حمرة دماء الشهادة. وتعرف أن حمرة الغسق هي نور الصباح[3].

والفكرة التي تنبعث من الذات في نفس جرأتها تقف في مواجهة استبداد الطبيعة. هي كالصاعقة المتحركة التي تهدم العش الثابت. هي الريح في الفضاء والبحر القادر على ابتلاع السفينة. ويستطيع الجند مواجهة القضاء. كما يستطيع الطفل مسك السيف. العالم القديم يذهب، والعالم الجديد يأتي، بفضل المقاتل الذي لا يستسلم[4].

---

(1) من كان حي القلب في الدنيا فما — يخفى عليه من القضاء ضميره
تجلو له رؤياه كونا محدثا — بدع المثال يروقه تصويره
فإذا جلا صوت الأذان منامه — شاد الذي في حلمه تعبيره
ولهيكل الدنيا الجديدة طينه — هذا الضئيل وروحها تكبيره
السابق، ص94.

(2) خلق المعاني من الخلاّق موهبة — لكن للفن في الفنان إجهادا
من حرقة في دم الباني، مشيدة — حانت حافظ آوزونات بهزادا
ما جوهر يتجلى دون مجهدة — من ومضة الفأس نارت دار فرهادا
السابق، ص94.

(3) ليس من عادتي أخبئ كأسا — لنديم على كرامة حاني
بدء هذي التعرجات عسير — وهي ليست تعرجات جبان
وهي ليست لراصد في غرور — وهي ليست لمقتف في هوان
إن عينا خبيرة بقواها — غير محتاجة لحمل سنان
شفق الأفق ذاك نهر دماء — فتحمّل نهر الدماء وعان
وانتظر مطلع الصباح وقهقه — حاكت اللغز ذاك أسطورتان
جناح جبريل، ص520.

(4) هذه الفكرة الجريئة عزّت — سلطات الطبيعة المستبدة =

والتجديد أيضاً هو جوهر الذات ضد التقليد. هو علامة من علامات الحرية. التجديد ضد الذين ما زالوا عاكفين على الأمس. الخطورة أن ينتهي تقليد القدماء إلى تقليد الغرب، تقليداً بتقليد، وإن تغير المقلّد[1].

والجهر بالحق طريق الذات دون تستر أو مواراة أو مواربة أو مداهنة أو خوف. «الساكت عن الحق شيطان أخرس». ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173]. لذلك أمر النبي ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: 94]. والدين النصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دور العالم. وأعظم شهادة قولة حق في وجه إمام جائر[2]. لذلك لا مجال للباطنية ولا للتقية. الذات لا أسرار لها. ليلها كنهارها. وهذا سر إعجابها[3]. الذات ملك متوج. تعبر عن رأيها بحرية دون خوف أو وجل. وهي جوهر الحياة. والحياة بلا ذات لا معنى ولا قيمة لها[4]. وكل بناء يبنيه الإنسان له

= إن عشا هي الصواعق فيه ... ليس صعبا لمثلها أن تهده
إنها الريح والفضاء جميعا ... إنها البحر والسفينة عنده
كان جند القضاء للموت ذعرا ... فإذا بالقضاء يقتل جنده
وإذا أنت جئت بالسيف طفلا ... أمسك الطفل للجمال فرنده
ذهب العالم القديم قتيلا ... أترى يسلم المقاتل بعده؟

السابق، ص520.

(1) عالم التجديد إن يظفر بحر ... موجد من حوله طاف الزمان
لا تدع ذاتك بالتقليد لغوا ... جوهر فرد فحطه بصوان
بارك التجديدُ قوما ليس فيهم ... غير حفل الأمس، ذكرى وعيان
خشيتي أن وغي التجديد في الشرق ... على التقليد للغرب رهان

ضرب الكليم، ص118.

(2) وكن الفهر لمرآة الفِكَر ... واصدعنْ جهرا وأعلن ما استتر

الأسرار والرموز، ص10.

(3) فرفعت الستر عن سر خودي
فبدا الإعجاز من أمر خودي

السابق، ص11.

(4) جاء من نسمة الصباح كتاب ... وأنا جالس على عرش ذاتي
فإذا فيه: مبصر الذات أقبل ... صرت في رتبة الملوك الكماة
شرف الرأي ذاك جاءك منها ... والحياة الكريمة المستقيمة
وحياة تكون من غير ذات ... أي معني لها وأية قيمة؟

جناح جبريل، ص441.

ذات تعطيه الحياة وتجلياتها بالصوت إلى الكلام والضوء أي البريق[1].

8 ـ المقاصد والآمال

حياة الذات بتخليق المقاصد وتحقيق الأهداف[2]. والإنسان هو الوحيد صاحب الهدف المقصود، وليس الحيوان أو الجماد. ويكون ذلك بالعلم[3]. تحقيق القصد هو الذي يجعل الذات في نشوة السكر من العمل والإبداع. القصد هو النور الذي يضيء، والنار التي تحرق كل ما سواه. هو الذي يجعل الذات ترتاد السماء، ويشد القلب إلى غايته. هو الذي يفجر الذات ثورة ضد الباطل والسكون والعشوائية. تحيا الذاتية من تخليق المقاصد وتوليد الآمال[4]. فنحن أحياء بتخليق المقاصد. ونحن منيرون من شعاع الأمل[5]. وتتولد المقاصد. بالآمال كما تتولد الآمال بالمقاصد[6]. والأمل يقهر الموت. ويوصل إلى الخلود. وهو الباعث على الحياة. ولا يموت إلا من لا أمل له. الأمل هو الذي يبعث في الإنسان الحرارة

(1) عندما أنهيت عشي — قيل هب للعش ذاتا
صرخات العش برق — تملأ العش حياة
السابق، ص448.

(2) ضرب الكليم، المدخل ص ح.

(3) الأسرار والرموز، ص16 ـ 18، المقدمة، ص47 ـ 48.
نحن أحياء بتخليق القاصد، ونحن منيرون من شعاع الأمل، ضرب الكليم، المدخل.

(4) إنما العلم وقار للحياة — إن للذات تقويم النجاة
الأسرار والرموز، ص18.

(5) جاهلا سر الحياة! اجتهد — وامض نشوان بخمر المقصد
مقصد كالصبح في أنواره — محرق كل «سوى» في ناره
مقصد يجتاز آفاق السماء — يأخذ القلب بحسن وبهاء
ثورة فيه وفيه محشر — وعلى الباطل حربا يُسعر
السابق، ص18.

(6) أحْيِ في قلبك هذا الأملا — لا يُحل طينك قبرا مهملا
إنما يحيا الفؤاد الأمل — وإذا حيّ يموت الباطل
أمل الذات لهيب يستمر — أو هو الموج الذي لا يستقر
وهو المقصود حبل الأمل — إنه خيط كتاب العمل
وممات الحي فقدان الرجاء — يطفئ العلة فقدان الهواء
إنما أصل الحياة الأمل — فكذاك العقل منه يُنسل =

والحركة. وهو الذي نص عليه الكتاب ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يُوسُف: 87]. غياب الأمل يدفع للموت. الأمل هو سبب الحياة والبقاء.

الأمل مبعثه القلب، وليس العقل. بل إن العقل تعبير عنه وصور له. إن عقل موسى كان له خضر يرشده[1]. الأمل هو الذي يعطي العمل. فبلا أمل لا يكون عمل. وبلا عمل لا يكون أمل[2]. والدعاء الذي ينهي به إقبال «أسرار الذات» أقرب إلى السؤال. الدعاء نقيض العمل. الدعاء قول، والعمل فعل. الدعاء عجز، والعمل قوة. الدعاء عود إلى التصوف التقليدي والانعراج إلى السماء، والعمل العودة إلى الأرض. ومع ذلك يتضمن الدعاء دعوة للعمل والأمل دون العجز واليأس. والاحتجاج بالقضاء ذريعة لأن الأيادي خاوية، والثمن غال[3]. العمل فردي وجماعي، ذاتي وذاتي مشترك. الأمة حبل واحد ولكن مملوء بالعقد. والنجوم في السماء تتكاتف في الضياء ولا ينفر بعضها من بعض. الفرد للجماعة، ينير لها الطريق ويحترق. وحيد في الجماعة لإثبات الذات. لا يفنى فيها لأن سره ما زال في الضمير. وهو ما سماه القدماء «تدبير المتوحد». هو مثل الكليم في سيناء. يناجي ويقود. ينظر إلى السماء كما يعود إلى الأرض. لا تسير الموجة وحدها إلا بصحبة موجة، ولا السحابة وحدها إلا بصحبة سحابة، ولا كوكباً إلا مع كوكب، ولا ليلاً دون نهار، ولا نهراً دون نهر. وحدة الذات مثل أحادية الله. كلاهما ذات أوحد. والذات غزال مع باقي الغزلان، فرد وجماعة[4]. ومع ذلك تحتاج الذات

= أمل من قوة فيه ظهر ... برح القلب فغشته صور
نحن أحياء بخلق الأمل
نحن في نور بهذي الشعل

السابق، ص16 ـ 18.

(1) يهبُ التربَ جناحا يصعد ... ولموسى العقل خضرا يرشد

السابق، ص16.

(2) رائيا وجه جديد الأمل ... ساعيا إثر جديد العمل

السابق، ص9.

(3) عُد فسكّن ذي القلوب البائسة ... عُد فعمّر ذي الصدور اليائسة
إننا نشكو تصاريف القضاء ... أنت تُغلي السعر والأيدي خلاء
أظهر البركان من أعوادنا ... وامح غير الله في نيراننا

السابق، ص68.

(4) كفنا ألقت بخيط الوحدة ... كم ترى في أمرنا من عقدة =

إلى أنيس. ويحتاج الأنا إلى رفيق كما احتاج آدم إلى حواء، وكما يناجي الإنسان. فلكل ذات نَجِيْ، شقيق روح. يدرك ما في الفطرة، وحيداً مثل الذات، مرآة مزدوجة تكشف صورة كل ذات في ذات أخرى. الذات طين محكم، وليست صنماً يُعبد[1].

بكى سحاب الربيع ليلة واشتكى لأن الحياة بكاء مستمر. فقال له البرق في ومضة والضحك أيضاً لحظة لا تزيد. وهو حوار بين الندى والورود. بدون الندى لا تنمو ورود. وإذا كان السحاب بكاء فالورود ضحك[2]. الحياة تفاؤل وأمل. وقد سئل حكيم يوماً عن الحياة فقال: خمر يطيب فيها الأمر. قيل: بل دودة نمت في تراب. قال: لا بل سمندر (حيوان خرافي يعيش في النار لا يهدأ له بال). قيل: والشر فيها. قال: بل فيها الخير. والشر جهل ذلك. قيل شوقها لا يسير إلى نزل. قال: الشوق نزل مستمر قبل خلقها في الطين. قيل: شقت الطين حبة فهي زهر[3].

= قد مضينا كنجوم حائرة — إخوة لكن وجوه نافرة
أنا كالشمع لغيري أحرق — وبدمعي كل حفل يشرق
أمس في قلبي، وعيناي الغد — أنا في الجمع فريد موحد
ظن كُلٌ أنني نعم السمير — ليس يدري أي سر في الضمير

السابق، ص68 ـ 69.

(1) أين يا رباه في الدنيا النديم — نخل سيناء أنا، أين الكليم
يا من الأنجم منه تستنير — أرجعن نارك من روحي الكسير
اسلُبن نفسي ما أودعتها — عطلن من نورها مرآتها
أو فهب لي وجه خِل لبق — هو مرآة لعشق محرق
هب نجيا يا وليّ النعمة — محترما يدرك ما في فطرتي
هب نجيا لقِنا ذا جنة — ليس بالدنيا له من حيلة
روحه أودع من أَنَّاتيه — وأري في قلبه مرآتيه
وأسويه بطيني محكما — وأرى آزره والصنما

السابق، ص69 ـ 70.

(2) بكى في الظلام سحاب الربيع — فقال: الحياة بكاء مديد
فقال له البرق في ومضه — هل الضحك في لحمة لا تزيد؟
فمن أبلغ الروض هذا الحديث — فصار حوار الندى والورود

رسالة الشرق، ص282.

(3) قد سألنا عن الحياة حكيما — قال: خمر يطيب فيها الأمر
قلتُ: بل دودة نمت في تراب — قال: لا! بل سمندر لا يقر
قلتُ: والشر طبعها. قال: لا بل — خيرها قد جهلت والجهل شر =

خمر الذات لهيب يشعلها دائماً[1]. ومن شعلة الحياة تخرج الذوات متفردة كالشرر[2].

لا تحتاج الذات إلى تاج تزهو به، ولا إلى بريق الزينات. تعيش فقيرة في الحي، ولكنها ملك أبي في الكون. تعيد إلى الشيب الشباب. وتوقظ الشباب من السبات. وتصدر الآهات في الأسحار. تسعى في الفضاء الواسع في هذا العصر التائه الذي لا يشعر أهله بزمنهم خارج السنين والحساب، بل زمنهم الشعوري ووعيهم التاريخي. فالذات حاضرة عند القدماء. لم تغفل عن سر العيش ولا عن حياة الجهاد، دون تدوين للهفوات لأصحاب الهمم. فالحياة رؤية. وإقبال مفكر ومصلح وقائد. يرى الحياة رباطاً عندما ينظر إلى بائع الخرقات[3].

والأمل في المستقبل، وإمكانيات التحقق والفعل. يمنع من اليأس والقنوط.

= قلتُ: ما شوقها يسير لنزل — قال: في الشوق منزل مستسر
قلتُ: في الطين خلقها قال فانظر: — شقت الطين حبة فهي زهر
السابق، ص296.

(1) فيا إقبال خذ كأسا — بخمر «الذات» لهّاب
السابق، ص317.

(2) نحن من شعلة الحياة جميعا — لذة «الذات» فرقتنا شرارا
السابق، ص319.

(3) لا التاج يزهو عليه — ولا سنا الزينات
فقير حيك، لكن — من الملوك الأباة
في الشيب ماتت قلوب — وفتية في سبات
فما لصدر نصيب — في الفجر من آهات
لا تقعدن عن طلاب — في واسع الفلوات
فما بعصرك هذا — هاد إلى الطرقات
غفلت عن سر وقت — أضعته في شتات
وقت عداه حساب — بالشهر والسنوات
هذا الرباط قديم — ما فيه عيش مواتي
غفلت عن سر عيش — وعن جهاد الحياة
ماذا يخط من الذنب — كاتبا الهفوات
دنياك ما قد أصبنا — فيها سوى نظرات
إقبالا الحرَّ أمسك — بذيله في ثبات
فما يرى في رباط — من بائعي الخرقات
السابق، ص320.

وكيف الأمل في أصنام العصر، واليأس من روح الله؟ إن اليأس كفر، وإنكار للرحمة الإلهية ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: 87][1]. ولا ييأس قائد الركب وإلا قتله. وإن نقصت شجاعة الرسول فلا تنقص رغبة الوصول[2]. وشريعة الشجعان الجهر بالحق بلا رياء. ولا يُغلبون لأنهم أسد الله[3]. وكل الألقاب التي تُعطى للإنسان مثل الغني أو العبد أو الأمير لا يمكن الوصول إليها دون الشجاعة. فالشجاعة هي الطريق لجلب صفات الذات[4]. ولقد عبّر الشاعر سلمان من قبل عن أن هذا العالم بالرغم من صعابه سيظل مفتوحاً على العالمين لصاحب الشجاعة والإقدام مما يتطلب موهبة عالية وفؤاداً لا يهاب الجروح. والشجاعة غير مرتبطة بمحو الأمية لأنها مرتبطة بالعزيمة وليس بالعقل، بالإرادة وليست بالذهن. ليس السر في الطاووس الذي يتيه غروراً ولا في البلبل الذي يتيه إنشادا. بل السر في السمع ورقة العين، في السمع والبصر، في الإدراك والرؤية، في المعرفة الطبيعية[5].

وأهم ما يميز الذات الطموح وطلب المعالي. ففي قصيدة بعنوان «نصيحة».

---

(1) كيف لا تيأس ترجو صنما ومن الله تعالى تيأس؟
أنت هل تعرف كفرا آخرا غير هذا أيها المنتكس؟
جناح جبريل، ص444.

(2) فيا رئيس الرتل كن حليما لا يقتل اليأس فتى حكيما
تنقصنا شجاعة الرسول لا تنقص الرغبة في الوصول
السابق، ص449.

(3) شريعة الشجعان هؤلاء الجهر بالحق بلا رياء
وما لهؤلاء قط غالب هذه أسود الله لا تغالب
السابق، ص450.

(4) كن غنيا وكن إذا شئت عبدا أو أميرا ما بين سمع وطاعة
كل هذي الألقاب وهم لا يكون الوصول دون شجاعة
السابق، ص458.

(5) سيظل عالمنا برغم صعابه سيظل مفتوحا أمام العاملين
البحث يلزمه مواهب باشق وفؤاد ليث لا يخاف جروحا
من غير معرفة وغير قراءة يجد الشجاع طريقه مفتوحا
دع عنك طاووسا يتيه وبلبلا يشدو فليس السر في الاثنين
السر ليس بنغمة وبصورة السر في سمع ورقة عين
السابق، ص463 ـ 464.

قال الفتى للباز يوماً إنه نسر عجوز. يطير في الجو كما شاء. وهو رمز للشباب. والحقيقة أن القيمة ليست في الأصل والفصل بل في الأخلاق، أخلاق الشاهين الذي يرتفع إلى أعلى دائماً، لا يرضى بعش. يطلب القليل، ويتجرد عن مطالب الدنيا. يتدرب على الطيران دون كلام. تعرف قيمته حين الانقضاض على فرخ الحمام. وما أعظمها من فرحة مثل الانقضاض من أعلى السماء. وهي فرحة أعلى من سفك الدماء[1]. وهي نفس العلاقة بين الزوبعة والموجة. الزوبعة أعلى من الموجة وأكثر قرباً من السماء في حين أن الموجة تتكسر على حبات الرمال على الشاطئ[2]. والطموح أهم ما يميز الذات. فهي برهان الأرض، تهفو إليها. القلب مطمئن، والعين تهفو إلى السماء. تتجه إليها بالفطرة كالشاهين يصطاد الحور والملائكة، حقيقة وليس خيالاً[3].

تطلب الذات العلا باستمرار. وترنو إلى المثل الأعلى. وأفضل أن يأكل الذئب يوسف من أن يُباع في سوق النخاسة، فالشهادة مثل أعلى وليس العبودية

---

(1) قال للباز الفتى نسر عجوز … أنت في الجو كما شئت تجوز
لي رموز كنت قد حصلتها … من شبابي فاغتنم هذي الرموز
لا تقل أصلي وفصلي أبدا … قيمة الشاهين في أخلاقه
إنما الشاهين من يخرقُه … دمه الشخصي في أعماقه
قسوة التدريب روح السؤدد … لا تضيعه سدى هذا الكلام
سترى قيمته يا ولدي … حين تنقض على فرخ الحمام
ما أرينا فرحة أمتع من … فرحة المنقض من أفق السماء
فرح والله لا يعدله … فرح، حتى ولا سفك الدماء

السابق، ص508,1

(2) شاهدت زوبعة تئن لموجة … فسألتها فاستغربت لسؤالي
قالت: ألا تبكي لثورة موجة … لم تلطم الشط الغبي السالي؟
أتعيقها تلك الرمال أمامها … وأنا أجر إلى السماء رمالي؟

السابق، ص509.

(3) أرضنا هذه لطهرك تهفو … أنت برهانها وأنت هداها
قلبك المطمئن قبضة نور … منحت أعين السماء مداها
عن يد الله طرت لا عن غباء … أنت شاهينه وأنت رسوله
ولك الحور والملائك صيد … ذاك دين وليس شعرا أقوله

السابق، ص467.

(4) والذئب يأكل يوسفا خير له … من أن يباع لتاجر العبدان
مرشد الأرواح مولانا جلال … شيخنا الرومي علوي المثال
مشرق الإيمان قدسي الضمير … وهو في قافلة العشق أمير

=

والذل[1]. وهذا أيضاً ما يريده الرومي، مرشد الأرواح، العلوي المثال، مشرق الإيمان، قدسي الضمير، الأمير في القافلة. وصل مقامه إلى الشمس، وضرب خيامه في النجوم. صفا قلبه بالذكر، وأصبح مصحفاً. رأيه مفعم بالعشق. لذلك يشعل القلوب ثورة. تسمعه الفطرة، وينير الفكرة[2]. ويتوق ابن آدم بطبعه إلى العلى والطموح، والبحث عن الأفضل. وشرط ذلك التخلق بالقرآن حتى تصبح نفس الناس قرآنا[3].

موجة الأنفاس جعلت الذات حدا. وإذا طلبت الذات شيئاً فإنها تسعى إليه عن قصد. لا تشرد ولا تسكن. يقظتها وعزلتها واستقلالها يثبت وجودها لمن شاء السؤال أو الاستدلال. هي قطرة ماء تحمل بحراً، تغمر في بحر الحياة. وُلدت من ذاتها وأضاعها الإنسان نفسه[4]. الأزل وراءها، والأبد أمامها. والإنسان طامح إلى الاثنين، إلى القدم والبقاء. تدفع الشباب إلى الأمل. وتتخفى تحت النقاب. ترى

= قد علا منزلة الشمس مقاما ضاربا في مسبح النجم خياما
قلبه في محكم الذكر صفا بهدى القرآن أضحى مصحفا
رأيه المرسل بالعشق نداءه أشعل الثورة في قلبي صداه
قال شيئا سمعته فطرتي وتجلى نغما في فكرتي
يا أمم الشرق، ص343.

(1) لو غدا يوسفنا يوما طعاما في فم الذئب وأفناه التهاما
فهو خير من خسيس يحتويه ويبخس المال ويوما يشتريه
السابق، ص345.

(2) على ابن آدم أن يرعى العلى أنفا
ومن تخلق بالقرآن مجّده وأصبحت نفسه للناس قرآنا
جناح جبريل، ص535.

(3) موجة الأنفاس سيف جعلته الذات حدا
طلبتْ ذاتك شيئا نيله يصعب جدا
هذه ذات شريد هذه ذات مقيم
إنها اليقظة والعزلة والسر الحميم
إنها الذات سؤال في طريق المستدل
مثلما الشوق إلى العزلة في وقت التجلي
إنه البحر الذي تحمله قطرة ماء
وهي في الظلمة والنور على حد سواء
ولدت منك ومني فأضعناها كلانا
السابق، ص516.

(4) أزلياتي ورائي أبدياتي أمام =

الصخر تراباً، والعالم وحيدا[1]. ترى الذات الصخر تراباً، صعقاً من إرادتها. وترى العالم وجداً تتمنى أن يطير. هي البداية والنهاية. هي في البدر نور، وفي الصخر شرار. وهي في الظلمة ضوء، ليس لها حدود في المكان أو الجهة. جوهرها الكفاح والثورة والنصر[2]. والإنسان الناجح هو الذي يعترف بالحدود، ويقدر القدرات. فهذا هو ضمان النجاح في الحياة[3].

9 ـ ضعف الذات ونفيها

أ ـ ضعف الذات

تضعف الذات بالسؤال[4]، ومن يعتمد في حياته على حياة الآخرين يضعف ذاته. وكما تستحكم الذات بالعشق فإنها تضعف بالسؤال. وكل ما يتم الحصول عليه بغير جهد هو سؤال. والميراث سؤال. والناقل من غيره سؤال. ولأجل إحكام الذات يخلق في أنفسنا العشق، ويُجنب كل أشكال الاستجداء[5].

= وأنــا رغــم غــبــائــي طــامــح نــحــو الــتــمــام
إنــهــا الــذات الــتــي تــمــخــر فــي بــحــر الــحــيــاة
فــتــنــاغــي لــطــمــات وتــقــاســي لــطــمــات
عــنــدمــا تــطــمــح أن تــقــلــب آمــال الــشــبــاب
تــتــخــفــي وتــديــر الــلــحــظ مــن تــحــت الــنــقــاب

السابق، ص517.

(1) فــتــرى الــصــخــر تــرابــا صــعــقــا مــمــا تــديــر
وتــرى الــعــالــم وجــدا يــتــمــنــي لــو يــطــيــر
إنــهــا الــبــدء جــمــيــعــا إنــهــا ذاك الــغــبــار
إنــهــا مــن الــبــدر أضــواء وفــي الــصــخــر شــرار
إنــهــا فــي ظــلــمــة الــنــور إذا شــع الــنــهــار
مــا لــهــا أعــلــى وأدنــى مــا لــهــا جــار ودار
مــن قــابــيــل وكــثــيــر ويــمــيــن ويــســار
لــم تــزل جِــلــف كــفــاح وانــقــلاب وانــتــصــار

السابق، ص517.

(2) St. Ref., pp. 97.

(3) الأسرار والرموز، ص23 ـ 24، المقدمة ص48، خلاصة مقالة الشاعر إلى الأستاذ نكلسون، ص19.

(4) أفــمــن غــيــر ذاتــك تــعــمــر قــلــبــا مــعــاذ الــلــه تــرى أيــن ذاتــك؟

وقد تم التحذير من قبل من «كثرة السؤال». فالسؤال خزي وإقلال من النفس. يطفئ نور الذات كسيناء جرداء بلا نار. والرزق بالرغم ما به من عناء أفضل من السؤال وإذلال النفس. الرزق عن طريق البكاء إذلال. والأكثر احتراماً للنفس عدم استجداء الماء حتى ولو كان من عين الشمس. وما الفائدة من حل نعمة مع خفض الرأس وكسر العين[1].

ومحال أن يعيق الظلام شعلة الذات. الذات كالنجم، مسافر ذو لهيب. ينير ليل الحياة[2]. ويستفسر إقبال عن أن الذات تتجه نحو السماء. تحمل الظلمة والنور على حد سواء. ومع ذلك غاب عنها ما يظهره الفراق. وهي في جحيم لا يطاق لأنها فقدت تجليها. وهي في نهوض وسقوط مثل أرباب الوصول، في جراح لا تزول. ويجيب الرومي أنه الحب وحده الجدير بالعراك، ولكن السؤال هو من يوقعه في الشباك؟ الحب يجيب على كل سؤال. ويبدد كل حيرة[3]. ونموذج الذات الشاهين الذي يطير إلى أعالي السماء ولا يبني عشا.

(1) تجد الإفلاس بالسؤل أذل ... وترى السائل أخزى وأقل
فرّق الذات سؤال واجتداء ... فبدت سيناؤها دون ضياء
إن يكن في الرزق والجد عناء ... وطغى حولك سيل من بلاء
لا ترُم في الأرض رزقا بالبكاء ... لا ترجّ الماء من عين ذُكاء
ويح من يحمل ذل النعمة ... خافض الرأس لثقل المنة
الأسرار والرموز، ص23 ـ 24.

(2) بعث النجم لي يقول: محال ... أن يعيق الظلام شعلة ذاتي
أنت مثلي مسافر ذو لهيب ... فأنر باللهيب ليل الحياة
جناح جبريل، ص533.

(3) قال: يا أستاذ! ما الحرب التي تملأ جنبك؟
تحمل الظلمة والنور على حد سواء
مع هذا غاب عنها ... ما يجلّيه الفراق
هي من فقد التجلي ... في جحيم لا يطاق
في ازدهار وانهيار ... شأن أرباب الوصول
هي مما افترسته ... في جراح لا تزول
قال رومي ليس إلا الحب أهلا للعراك
لكن الموضوع من يوقعه بين الشباك
السابق، ص527.

يرضى بالقليل. ولا يأكل جيفة[1].

الذات كالنسر يطير في السماء، وليس كالنملة تزحف فوق التراب. الشاهين لا يبقى في الأرض، بل يطير إلى عنان السماء. لا ينتابه اليأس. ولا يقص جناحه. ولا يخشى الوثب في الريح. إنما يخشى النسر مخلبه، ويهابه الطير في الفلا. يصل إلى قمم الجبال. ويجوب الآفاق. ولا يهرب من أوج الفلك. يطير إلى النجم. ويحلق في فضائه البعيد[2]. نزل الشاهين في أوج السحاب. لا يسكن في وكر الغراب. عشه في أعلى الشجر. المسلم كحدّ السيف في المضاء. وروحه سيل كالعباب. ينسف القمم، ويهوي بالهضاب[3].

الذات إمكانية وتحقق من اللاوجود إلى الوجود إثباتاً أو من الوجود إلى اللاوجود نفياً. وهو التعارض بين الأصيل والأجنبي، بين الأليف والغريب، بين العودة إلى الذات والاغتراب في الآخر. الإنية إذن جوهر الوجود وزينته، شهود على النفس منذ عهد ﴿ألست﴾. وهو الفرق بين الحياة والموت، بين المادة والروح. وهي شهادة على الذات قبل أن تكون شهادة على الآخر أو شهادة الآخر عليها. والإله شاهد باعتباره ذاتاً كلياً. الحياة ذات الكل، والذات كل الحياة. ولا

---

(1) أنا نجل الصحراء والزهد ديني ... وهما في سجيتي ودمائي
أين مجدي إذا شقيت لجوع ... وأذلّت حمامة كبريائي
بافتراسي أصون عزة وجهي ... وأروي حماستي وإبائي
كل طير له من الأرض عش ... وأنا هاهنا حليف مضائي
كيف يبني قلندر الطير عشا ... وهو الفرد في رحاب السماء
السابق، ص547.

(2) أيها الشاهين ما هذا الجمود ... أين منك البأس أو أين الصعود
يائس أم أنت مقصوص الجناح ... أم خشيت الوثب في هوج الرياح
ما شكا مخلبك النسر ولا ... فر من عزمك طير في الفلا
الجبال الشم والآفاق لك ... أيها الهارب من أوج الفلك
طر إلى النجم وحلّق من جديد ... في الفضاء اللازوردي البعيد
يا أمم الشرق، ص360.

(3) منزل الشاهين في أوج السحاب ... ماله يسكن في وكر الغراب
لم يزل في الروض ظل وثمر ... فالتمس عشك في أعلى الشجر
كن كحد السيف في صدق المضاء ... واحتسب نفسك في كف القضاء
إن في روحك سيلا كالعباب ... ينسف الشُّم ويهوي بالهضاب
السابق، ص362.

تكفي الصفات لأن الصفات هي عين الذات[1]. الذات تُذكر كي تمضي وتعبر. والعالم، وهو من صنعها ليس شيئاً[2]. الذات تتسع للعالم كله كما اتسع القلب لفعل النفي «لا إله»[3]. الذات إمكانية، تحضر وتغيب، تقرب وتبعد[4]. الذات اختبار. تخلق السماء من الغبار[5]. وتعلو إليه كالشاهين[6].

الذات سر الحياة، والحياة سرها. ومعرفة الذات معرفة الحياة[7]. تُشعل الحياة من نار الذات، وتبعث من الموت الحياة. فماذا يصنع الأحياء بذواتهم وهم يمزجون الرقة بالعنف. الذات بين حضور واختفاء، بين تجلٍ وانطواء. نورها يكشف عنها. هي شعور خالص في القلب. من تخلى عنها مات[8]. إن فقدت

---

(1) غير موجود وموجود؟ أجبني ... غير محمود ومحمود؟ أجبني
قال لي الموجود ما يبغي الظهور ... فالوجود يقتضي هذا الظهور
للوجود زينة تُدعى «أنا» ... رغبة في الذات برهان لنا
ألفوا يوم «ألست» مجمعا ... «أين من يشهد؟» قالوها معا
إن تكن حيا أو الميت الدفين ... أو تجد بالروح سل عن ذا الأمين
شاهدا فلتتخذه من شعور ... أو عيون ما لها إلاك نور
واجعل الثاني شعور الآخرين ... شاهد الذات بعين الآخرين
ولتكن ذات الإله خير شاهد ... ولها نور به ذاتا فشاهد
الحياة هي للذات الوصول ... وهي ذات ليس يخفيها سدول
لم تلائم مؤمنا قط الصفات ... ما اختيار المصطفى إلا لذات
جاويد نامه، ص147 ـ 148.

(2) ذاتك اذكر وامض واعبر ... أنت هذا؟ العالمان ليس شيئا
السابق، ص172.

(3) لا إله ولها القلب اتسع ... عالما في الذات إنسان جمع
السابق، ص206.

(4) تحت هذا الماء عيني أطبقت ... ثم عنّي الذات عني أبعدت؟
السابق، ص235.

(5) وإذا عرضت ذلك للاختبار ... خلقت لك السماء من الغبار
أرمغان حجاز، ص468.

(6) وشاهينا أراك تصيد ذاتا ... ولكن في شباكك بارتماء
لك البشرى فذاتك تسترد ... ومن فقر غنى ما تستمد
السابق، ص483.

(7) الحياة هكذا، تقدير ذاتك ... وهو تعمير لها، سر في حياتك
السابق، ص255، ص525.

(8) الحياة أشعلت من نار ذاتي ... ميتا بصرت أسرار الحياة =

الذات تحقق الفناء، وإن وجدت الذات تحقق البقاء. ومن لم ير ذاته فقد أفرغ السجن من محتواه[1]. والمسلم الذي ينعزل عن ذاته فإنه يغرق في المحيط. ولا ينجده إلا مدد من السماء[2].

وفي قصيدة «أبو العلاء المعري» يدافع إقبال عن موقفه النباتي ضد من أراد إحراجه بالشواء. وقد وعظت الأديان والطبيعة بأن البقاء للأصلح، حياة الأقوى وموت الأضعف[3].

ب ـ نفي الذات

نفي الذات من الغالب لإضعاف المغلوب[4]. ومهما استطاعت حكمة العقل

= عالم من ذاتهم ما يصنعوها رقة بالعنف كانوا يمزجوها
أين تبدو الذات أو أين اختفت العيون قط هذا ما رأت
يستر النيران سترا نورها بالتجلي الكون يبدي طورها
قلبنا بالذات كم كان الحفيا ما ونى عن ذكرها ذكرا خفيا
من لظاها كل معدوم النصيب مات عن نفس له مثل الغريب

السابق، ص258.

(1) إن فقدت الذات حققت الفناء والوجود كان للذات العطاء
من رأى الذات، وشيئا ما رآه سجنه أخلاه مما قد حواه

السابق، ص291.

(2) مسلم عن ذاته تلك انفرد قد طغى الماء فيا خضر مدد

السابق، ص327.

(3) لم تُلق بالك للأديان إذا وعظتْ وللطبيعة إذ قالت لطالبها
الله سخر للأقوى خلائقه وقدّر الموت للمستضعفين بها

جناح جبريل، ص541.

(4) باحتيال العقل يحمي نفسه كل رخو ليس يرجو بأسه
قوة التدبير في دفع الضرر في زمان الضعف أقوى وأمر
فإذا ما ثار للثأر الجنون صار عقل العبد خلاق الفتون
ويح جَلْد أحكمت فيه قواه «نفي الذات» هو إحكام الحياة
قل لمن يزهي بذبح الغنم اذبح النفس بحق تغنم
أغفلن نفسك إما تعقل إنما المجنون من لم يغفل
هذه الدنيا فناء في فناء إنها وهم فما فيها رجاء
كل داء في سقوط الهمم يجعل الأحياء مثل الرمم
نامت الأسد بسحر الغنم سمت العجز ارتقاء الأمم

الأسرار والرموز، ص27 ـ 30، المقدمة، ص48.

الاحتيال فإنه لا يغني عن انتفاضة الجنون. قد يغفل العقل، ولكن الجنون لا يغفل. ونفي الذات قضاء على الحياة. ومن يقضي على الآخرين فقد قضى على ذاته أولا. نفي الآخر هو نفي للذات. إثبات الذات هو إثبات الهمة. ونفي الذات يجعل الحي كالرمة. إثبات الذات رقي الأمم. ونفي الذات تأخر الأمم.

وفي حكاية رمزية بين «الفراشة واليراعة» أيهما أقرب إلى إثبات الذات، وأيهما أقرب إلى نفيها، قالت الفراشة لما رأت رقص اليراعة على المداد الأسود أنها لم تذق تصلية النار الموقدة. وردت اليراعة بأنها لا تقتدي بمثل الفراشة التي على جناحها وسَم العبيد، تستجدي تسولاً من ضوء خارجي، في حين أن اليراعة تعتمد على جذوتها وتوقدها الذاتي[1].

ووصية إقبال لولده «جاويد» عن إثبات الذات. فلحن الذات في أعماق النفس باق. يدل على خلود الحياة. ولا يضيء ليل الشعب إلا شعلة ذاته. وامتلك آدم هذه الأرض بفعل الذات. ولم يصل الغراب لعش الذات مهما بلغت قواه. فالذات كالشاهين تصعد إلى السماء صافية، وتعود إلى الأرض من جديد. الذات صون الحياء الذي نور في هذا الزمان. ولا يريد إقبال أن يأتي زائر قمر يتسول ماء. فلم يتسول إقبال ولم يترهب. ومصير فلسفته أن تعم أرجاء البلاد[2].

---

(1) قال الفراش لنفسه لما رأى — رقص اليراع على المداد الأسود
كم في حياتك من غبي أحمق — ما ذاق تصلية بنار الموْقد
سمع اليراع كلامه فأجابه — حاشا لأمثالي بمثلك تقتدي
حمدا لربي ما خُلقت فراشة — بجناحها وسم العبيد الرقد
أنا لست استجدي سواي تسولا — أنا في فؤادي جُذوتي وتوقدي

جناح جبريل، ص503.

(2) أبنيَّ! لحن الذات في أعماقنا — باق يدل على خلود حياته
أبنيَّ! ليل الشعب ليس يضيئه — إلا تصلّيه بشعلة ذاته
أبنيَّ! قولك: كان آدم جدنا — ملكا لهذي الأرض قول نبيه
أبنيَّ! لن يصل الغراب لعشنا — مهما استطالت في السماء قواه
هذي الشواهين التي يلهو بها — أبناء سيده الذي رباه
أبنيَّ! صان الله وجهك عاليا — ما في زمانك من يصون حياءه
إياك أن يأتي لقبري زائر — ويقول لي جاويد يبذل ماءه
إقبال ما رضي الترهب سيرة — لنقاء فكرته وخصب فؤاده
أبنيَّ! ليس بُنيَّ إلا من روي — بوصيتي هذي جميع بلاده

السابق، ص504.

10 ـ مراحل تربية الذات

مراحل تربية الذات ثلاث: الطاعة، وضبط النفس، والنيابة الإلهية[1].

أ ـ الطاعة

رمز الطاعة والتحمل والرضا والصبر جمل الصحراء. والإنسان كذلك يعمل الفرض ولا يخاف، راجياً من الله حسن المآب. والطاعة تبدو جبرا. ومنها يتخلق الاختيار. امتثال الأمر يعلي، وعصيانه يهوي. ويصل إلى الأفلاك من كبل نفسه بالقيد. النجم يسير في فلكه طبقاً لقانون. والعشب ينمو طبقاً لقانون. واللهيب الدائم يسري في العروق. ويربط الذرات قانون. والشدة في الشرع ليست ستار شكوى لأنها الحدود التي لا يمكن تعديها[2].

والحقيقة أن إقبال يصف الطاعة من حيث المبدأ ولكنها من حيث الواقع تجربة مؤلمة في العصر الحاضر. فما أكثر ما يطيع الناس، لا فرق بين الله والسلطان، والأب والشيخ، والرئيس والشرطي. أصبحت الطاعة تجربة سلبية في الحياة اليومية. تعادل القهر والكتب ومحو الإرادة والقضاء على الحرية. لذلك يعصي الناس القانون، ويخترعون فنوناً لخرقه والتحايل عليه.

---

(1)
ألفة الكد شعار الجمل ... شيمة الصبر وقار الجمل
فاحمل الفرض قويا لا تهاب ... وارجون من عنده حسن المآب
اجهدن في طاعة يا ذا الخسار ... فمن الجبر سيبدو الاختيار
بامتثال الأمر يعلو من رسب ... وهوى الطاغي ولو كان اللهب
سخر الأفلاك في همته ... من ثوى في القيد من شرعته
قد سرى النجم يؤم المنزلا ... طوع قانون له قد ذللا
وإنما العشب بقانون النماء ... فإذا ما حاد يجفي بالعراء
ولهيب دائم دين الشقيق ... دمه من ذاك يسري في العروق
يربط الذرات قانون الوصال ... فهي بحر وهي بر باتصال
كل شئ فيه قانون سري ... كيف في هذي المعاني يمتري؟
ارجعن يا حر دستور قديم ... زَيّنَنْ رجلك بالقيد الوسيم
شدة في شرعنا لا تشكون ... وحدود المصطفي لا تعدون

الأسرار والرموز، ص37 ـ 46، المقدمة، ص48، خلاصة مقال الشاعر إلى الأستاذ نكلسون، ص19 ـ 20.

(2) السابق، ص37 ـ 38.

ولماذا يكون الجمل هو النموذج وليس النمر أو الأسد أو الطائر مما يستحيل وضعه في قفص وإلا مات. لقد تحمل الفرد وصبرت الجماعة أكثر مما يجب. وكيف يظهر الاختيار من الجبر إن كان صحيحاً فلسفياً؟ إلا أن الشعب سئم الجبر ويريد الاختيار. ويمكن القول أن كثرة القهر والكبت والجبر يولد في الإنسان الحاجة إلى الحرية. وإذا كانت الشريعة شريعة الفطرة، فالفطرة حرة من كل قيد. ويستطيع الإنسان العيش على الفكرة حرا. ويكون بذلك ممارساً للشريعة. الشريعة ازدهار وكمال، وليست قيداً وقهراً. والحرية قانون مثل القانون. القانون يحرر. وفي الحرية نظامه. والمقيد بالقيد في الرجلين والمعصمين كيف ينطلق؟ كيف يكون القيد زينة ولو كان خلخال النساء أو عقد الرقبة أو إسوارة اليد؟ إن الطبيعة تنحو نحو الكمال. والحد انحراف بها وليس قهراً لها.

الناس الآن يعيشون تجربة العصيان والتمرد والغضب، ويريدون التحرر من كل قيد. الناس في حاجة إلى عصيان الأمر، وليس إلى امتثاله، في حاجة إلى الرفض والغضب والتمرد والاعتراض والثورة.

ب ـ ضبط النفس

أما ضبط النفس فهو أفضل من ضبط الآخرين لها. والجبر الذاتي أفضل من الجبر الخارجي. ويعني التطهر من أطماع الدنيا وغرورها ومباهجها من زوج أو ولد، من مال أو جاه، تمسكاً بشعار التوحيد «لا إله» الذي يبدأ بالنفي قبل «إلا الله» وهو الإثبات. ويعني أيضاً إيثار الخير للآخرين عن طريق الزكاة، مقاومة حب المال. والصلاة مقاومة الكسل. والصيام ضبط لحاجات النفس. والحج تجمع للناس، ومقاومة للعزلة والانطواء[1]. ضبط النفس شيمة الحر. وكظم النواح شيمة

(1) فكن الحر وقدها بزمام ... تبلغن من ضبطها أعلى مقام
كل من في نفسه لا يحكم ... هو في حكم سواه مرغم
من يمسك بعصا من «لا إله» ... فلتحطم طلسم الخوف يداه
كل من بالحق أحيا نفسه ... لا ترى الباطل يحني رأسه
ليس يدنو الخوف منه أبدا ... ليس، غير الله، يخشى أحدا
كل من موطنه إقليم «لا» ... من قيود الزوج والولد خلا
درة التوحيد، فاحفظها الصلاة ... حجك الأصغر، فاعرفها الصلاة
=

الليث. في حين أن النوح شيمة الثعلبان[1].

والحقيقة أن ضبط النفس فضيلة هندوسية، السيطرة على الأهواء والانفعالات من أجل إماتة النفس وغرائزها وحاجاتها حتى تتحرر الروح. وهو ما يرفضه إقبال. ويسميه نفي الذات أو الفناء. الحرية أقرب إلى إطلاق قوى النفس، وازدهار طبيعتها. والطبيعة خيّرة. وقد كانت التربية تقوم باستمرار على ازدهار الفطرة وإذكاء الطبيعة عند بستالوتزي وتولستوي. ومن لا يحكم نفسه لا يقع في حكم غيره لأن الذات حرة تحميه من القيد الداخلي والقيد الخارجي. وفعل النفي في «لا إله» يساعد على تحرر النفس، وليس ضبط النفس. أما أركان الإسلام الخمس فإنها لا تقوم على ضبط النفس بل على تحرر النفس. فعل النفي في التوحيد يحرر الوجدان الإنساني من كل قيود الزيف والجاه، والمال والسلطة حتي يأتي فعل الإثبات «إلا الله» للمبدأ الواحد العام الشامل الذي ينعكس على الضمير الإنساني في الحرية والمساواة والإخاء الاجتماعي كما عبر عن ذلك سيد قطب في مقدمة «العدالة الاجتماعية في الإسلام»[2]. والصلاة تمرين على أداء الأفعال في أوقاتها، فالوقت سيف، بتعبير الشافعي وإقبال، على الفور وليس على التراخي، أداء وليس قضاء، بتعبير الأصوليين. والصيام إحساس بجوع الفقراء وتربية للنفس، وتقوية للإرادة. والزكاة حق الفقراء في أموال الأغنياء تحقيقاً لمبدأ العدالة الاجتماعية. والحج

= في يد المسلم هذا الخنجر / يُقتل الفحش به والمنكرُ
يفتك الصوم بجوع وصدى / ضابطا بالقسط هذا الجسدا
وينيرُ الحج قلب المؤمن / هجرة الأهل به والوطن
إنما الطاعة أس الأمة / إنها خيط كتاب الملة
بالزكاة العابد المال اذكر / علّمت حبَّ المساواة البشر
تُكثر المال، وشحا تمحق / لن تنالوا البر حتى تنفقوا
تلك أسباب بها تستحكم / إن يكن في القلب دين محكم
أقو يا مؤمنُ بالله القوي / تحكُمن في ذلك البَكر الأبي

السابق، ص39 ـ 40.

(1) دأب أهل الزمان شكوى الزمان / ليس للحرّ آهة في طعان
قد أسر النجوى إليّ عليم / من شيوخ القلوب والعرفان
إن كظم النواح شيمة ليث / ومن النوح شيمة الثعلبان

ضرب الكليم، ص96.

(2) سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ص33 ـ 71.

مؤتمر سنوي للأمة لبحث مشاكلها والدخول في تحدياتها ولتحديد أصدقائها وأعدائها طبقاً للبراءة ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 1].

ضبط النفس هو استحكام النفس لذاتها، وسيطرتها على قواها. فلا تنظر إلا لذاتها، ولا تنظر إلى غيرها[1]. وبعد إثبات الذات يأتي استحكام الذات. ويعني تقويتها وإحكامها ثم بعد ذلك الطير على ما تشاء من أغصان. الذات بحر في كل قطرة منها طوفان. من حبة يخرج منها الألوف[2]. قوة الذات من ذاتها وليست من نسبها. تعتمد على ذاتها في الرقي وطلب المعالي[3]. واستحكام الذات قادر على قهر الموت. ويجعلها قادرة على نيل الخلود[4]. وضبط النفس، تربية الذات بالرعاية، تجعلها أكثر قدرة على الإبصار، وناراً أكثر إشعاعاً[5].

السيطرة على الذات في الأفراد تبني عائلات، وفي الجماعات تبني إمبراطوريات[6].

جـ ـ النيابة الإلهية

النيابة الإلهية أعلي درجات الرقي الإنساني. وهي خلافة الله في الأرض. هي

---

(1) نظري في النفس أحكمت فلم ... يتوجه لسواها النظر
فتجلى الحب في كل الدُّنى ... وأنا في شُغُل لا أنظر
رسالة الشرق، ص316.

(2) عشك فوق الذات أحكمنه ... ثم اطرَبْن ما شاءت الأغصان
الآدمي يا بنيَّ بحر ... في كل قطرة به طوفان
من حبة ترى ألوف حب ... إما جفا راحته الدِهقان
ضرب الكليم، ص61.

(3) أبوتي ليست بذات بال ... في حلبة السبق إلى المعالي
السابق، ص63.

(4) لخوفِ الموت قلْبك في ارتعاد ... ولونُك حالَ من خوف الشتات
فنفسك أحكمن وازدد نضوجا ... فإن تفعل تعش بعد الممات
رسالة الشرق، ص266.

(5) ربّبِ «الذات» بالرعاية تُبصر ... كفَّ تُرب يشيع في الكون نارا
إن سر الكليم في الدهر بيد ... وشُعيب والرعيُ ليل نهار
ضرب الكليم، ص53.

(6) St. Ref., p. 98.

كل ما يطمح إليه الإنسان، معراج الروح. الرقي الروحي شرطها حتى تتحقق الأمة المثالية، ويتوحد فيها الأفراد. فيظهر فيها نائب الحق، سلطان الله على الأرض. تحققه جماعة ثورية يتوحد فيها الأفراد ويظهر فيها الإنسان الكامل. النيابة الإلهية هو الخلافة في الأرض. يسعد بها الإنسان لأنها طريق الخلود، تحقيق كلمة الله في الأرض كنظام مثالي للعالم. هي معرفة حقائق الحياة ثم تحقيقها على الأرض. هي بشارة ونذير. والنائب جندي وراع وأمير. ذاته تتبع ذات العالم للسيطرة عليه بالعمل. ليس مجرد آلة بل هو مبدع في الفهم والتحقيق، في الفعل والتفنيذ. والفطرة تمده بطاقات لا حدود لها للإبداع. النيابة كامنة في الوجود. هي الرسالة التي حملها الإنسان طوعاً واختياراً بعد أن خشيت من حملها السماوات والأرض والجبال وأشفقن منها. النيابة إعلان وخروج، وإصلاح بالحق بأن الأرض ستملأ عدلاً كما ملئت جوراً كما يقول الشيعة في دور الإمام. هي رسالة عدل وسلام وأمل. هو الري بعد الجفاف، والربيع بعد الخريف[1]. المسلم خليفة الله في الأرض. يبدو تكبيره صغيراً وهو يضم كل الفضاء. يدعو إلى الإسلام ويوقظ الصدق بالوفاء. يرتفع قدره فوق الأقدار، وتهب الأقدار لمساعدته. لا يحتكم فقط في الدنيا ولكنه يرنو أيضاً إلى الخلود[2].

---

(1) نائب الحق على الأرض سعيد — حكمه في الكون خلد لا يُبيد
هو بالجزء وبالكل خبير — وبأمر الله في الأرض أمير
هو في الناس بشير ونذير — وهو جندي وراع وأمير
ذاته تتبع ذات العالم — سطوة فيه نجاة العالم
يبعث الميت بإعجاز العمل — قيم الأعمال منه في بدل
جدد الدنيا بتفسير جديد — عبر الرؤيا بتعبير جديد
شاعر الفطرة غني طبعه — ليقيم الوزن إذ أبدعه
في رماد اليوم منا ترقد — شعلة يرمي به الكون الغدُ
قم فكن من ضجيج الأمم — واملأ الآذان زهر النغم
جددن في الناس قانون الإخاء — وأدرها كأس حب وصفاء
أبلغ الناس رسالات السلام — وأعد في الأرض أيام الوئام
من بني الإنسان أنت الأمل — أنت من ركب الحياة المنزل
أذبلت كف الخريف الشجرا — فاغد في الروض ربيعا نضرا
نحن من فيضك نسمو للقلل — في جهاد الكون نمضي كالشعل

الأسرار والرموز، ص41 ـ 43.

(2) خلافة هذه الأرض استقرت — بمجدك وهو للدنيا سماء

=

لا مكان إذن للنوح والبكاء والمآتم والآلام واليأس والندم. ففي الحياة نشوة وأمل وفرح وتحقق وسرور. فلم الشكاية من غدر الزمان وجور الدهر، والزجاج لا يشتكي من جور الحجر وهو أكرم منه وأنقى وأشف؟. السعي جوهر الحياة، والتعمير أداته. وركوب المخاطر وسيلته كما وضع إبراهيم في النار. الحياة نضال، هجوم ودفاع. بل يستطيع الإنسان أن يجاهد الزمن وأن يعيد تشكيل ذرات الوجود، ويقاوم الزمان ودوران الأفلاك. وبقوة القلب يستطيع أن يواجه تحديات العصر. وما أعظمها من شهادة إذا ما سقط المجاهد في حومة الوغى. إنها شهادة البطل التي تحيا بها الأمم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169]. وإمكانيات البطل في الحياة وفي الممات لا حدود لها[1].

ويعلن إقبال أن «الأرض لله» وهو مبدأ الحاكمية في «الحاكمية لله». وهو موجه ضد السلاطين والملوك ليعيد إليهم وعيهم بأنه من طين البشر. والفرق بين الملك والمسكين هو الضجيج الذي يحوط بالملك عندما يوارى التراب. والأرض

= وفي تكبيرك القدسي يبدو — صغيرا كلُ ما ضم القضاء
فيا من هبَّ للإسلام يدعو — وأيقظ صدق غيرته الوفاء
سترفع قدرك الأقدار حتى — تشاهد أن ساعدك الفضاء
وقيل لك احتكم دنيا وأخرى — وشأنك والخلود كما تشاء

السابق، ص109 ـ 110.

(1) أيها الصارخ من جور الدهر — يا زجاجا يشتكي جور الحجر
فيم هذا النوح؟ ماذا المآتم؟ — وإلام الصدر حزنا تلدم؟
مضمر في السعي مضمون الحياة — لذة التخليق قانون الحياة
قم فشيد عالما دون مثيل — وخض النار واقدم كالخليل
إنما السير على حكم الزمان — هو رمي الترس في وقت الطعان
إنما الحر الشجاع الفطن — من قفا الآثار منه الزمن
وإذا الدنيا عتت عن أمره — حارب الدهر، ولم يعبأ به
يهدم الموجود فيما آثرا — يمنح الذرات شكلا آخرا
يصرف الأيام عن كرّاتها — يمنع الأفلاك من دوراتها
خالقا من قوة في قلبه — ذلك العصر الذي يرضي به
فإذا أعوز عيش الرجل — فالحياة الموت موت البطل
حبذا عشق بغى الأمر الجليل — وجنى في النار وردا كالخليل
تتجلى في مراس المعضل — قوة كامنة في البطل

السابق، ص43 ـ 44.

يورثها الله لمن يشاء من عباده الصالحين[1]. والحكم الإلهي أحد مكونات الذات المشتركة. فالحكم لله. وهو مبدأ «الحاكمية» الشهير الذي صاغه المودودي بعد ذلك واستقر عند سيد قطب[2].

الأرض ملك لله. فالله وحده هو المالك والوارث. والناس يقتتلون عليها كعروس يقتتل عليها الرجال. ولا يعني ذلك تركها بل العمل فيها، والسعي والكد والكدح داخلها، ورفع التراب عن جوهرها، والتقاط حب النجوم منها، والطيران فوقها كالعقاب. يُضرب الفأس في صخرها، وبشرارة الذات تُوقد نارها، والابتعاد عن طريق آزر وبناء الأصنام بل تحطيمها، وإعادة بنائها كما تريد الذات وإعطائها، القلب السليم حتى يتم الخلود فيها مع الأهل والأصحاب[3].

والخلافة بين ضمن محكمات العالم القرآني ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30][4]. فالإنسان سيف الإله، خليفته على الأرض، أداته وعدته. والكون ما هو إلا المسن لحد الذات وسن سيفها. رؤية الذات رؤية للإله، ورؤية الإله رؤية للذات[5]. الذات هو الإنسان، الإنسان من حيث هو إنسان، آدم قبل أن يصبح

---

(1) فقل لصاحب تاج يدعيه له ... أفِق فإنك مسكين المساكين
مالي ومالك من هذا التراب سوى ... ضجيج حين نومي عنه في حين
الأرض لله يعطيها أحبته ... والحب عاقبة الغر الميامين
جناح جبريل، ص507.

(2) ومن القهر صدور أي أمر ... ولغير الله أمر محض كفر
آمر بالأمر زكى عقله ... من قوانين بني حصنا له
جاويد نامه، ص203.

(3) إنما الإنسان في شرق وغرب ... لامتلاك الأرض في حرب وضرب
كعروس ولها كنا الرجالا ... سحرتْنا، قط ما نلنا الوصالا
إنما الأرض لربي، ذاك ظاهر ... كل من أنكر هذا فهو كافر
لم أقل دع عنك هاتيك الديارا ... عالما تملك من حسن أنارا
ارفعن عن جوهر الأرض الترابا ... التقط حب النجوم، طر عقابا
في الجبال اضرب بفاس صخرها ... وبنور منك أوقد نارها
وطريق آزر فلتجتنبها ... وكما تهوى لك الدنيا أقمها
بالجمال لا تصل قلبا سقيما ... أعطها قلبا لها كان الحريما
أنموت؟ ما لنا مال وقبر ... أنضيع؟ ولنا أهل ووفر
السابق، ص205 ـ 206.

(4) قول إني جاعل تقديره ... بين أرض وسما تفسيره.

(5) إنما الإنسان سيف للإله ... ذلك الكون من قد تراه =

هندياً أو فارسياً أو عربياً[1]. والذات لا تعبر عن نفسها بالكلام بل بالسكر والشراب والعشق[2]. تظهر الذات في الحياة بما تقدم بالفعل[3]. وتنضج بقدر ما تغامر وتواجه المحن. لها مقامان «لا» و«إلا». وهما فعلاً النفي والإثبات في التوحيد[4]. المسلم حنيف ينسب إلى الإله في الصفات. ويحتوي قلبه أسرار الذات[5]. الذات كمدار الفرجار. وكما يكفّر الشيخ من ينكر الإله كذلك يكفّر إقبال من ينكر الذات[6].

وعلى النقيض من ذلك عيشة الأنذال الذين يساومون على الحق، ويرضون بالدنية في الدين وفي الدنيا. دافعهم على ذلك الحقد وأهواء البشر، وليس الدخول في صراع الحياة من أجل السيطرة عليها. ولا يكون النكوص عنها بذريعة العفو عندما يوضع في غير موضعه. فالعفو عند المقدرة، وليس حين الضعف. ولا تكون الذريعة القنوع. ففرق بين القنوع والخنوع. إنما السبب الحقيقي للقعود هو الخور الحال في القلب، والخوف والكذب، وغياب الخير، وحضور الخبث. بل يتحول القعود إلى خبث ودعوة للنكوص. يحذر منها صاحب العقل السليم. يتزين كالحرباء. ويلبس الحق بالباطل عند أهل النظر. يبدو ليناً في الظاهر. وهو يلدغ

= أن ترى الله بعينك التُّقاه — أن ترى الذات ولا سِتْر الحياة

جاويد نامه، ص163.

(1) «عبده» فهما لديك تبهر — إنه الإنسان وهو الجوهر
ليس من عُرب وليس الأعجما — آدم بل كان منه الأقدما

السابق، ص262.

(2) أوصد العارف بابا للكلام — أسكرته الذات لا تلك المدام
إنه بالشوق والذوق انجذب — في وجود من شهود قد وقب

السابق، ص167.

(3) أظهر الذات فهاتيك الحياة — واختبار المرء ما أدت يداه
ينضج الذات التردي في البلاء — عن قضاء الله قد تمحو الخفاء

السابق، ص175.

(4) إن تلك الذات شرح للحياة — «لا» و«إلا» من مقامات الذات

السابق، ص283.

(5) حنيف شبه ربي في الصفات — ويحوي قلبه أسرار ذات

أرمغان حجاز، ص469.

(6) لا تطل في القول واقنع بالغرار — حول ذاتي كن كفرجار مدار
منكر الله لدي شيخ كفر — منكر الذات لدي منه شر

جاويد نامه، ص329.

كالعقرب في الباطن. يحتج بالقدر على أفعاله ليبرهن ويزهو في الدنيا بالجاه والمال والصحة والنعمة التي وُهب إياها[1].

أما البطل فهو الذي لا يرى إلا في القوة حلاً، قوة الصدق. هو تعبير عن الحياة، تستعمل أحياناً دفاعاً عن الحق أو إقراراً للباطل. وهي قادرة على أن تلبس الباطل ثوب الحق، وأن تجعل المر حلواً، والشر خيراً. أما الحصيف الفطن فإنه قادر على أن تستحكم ذاته. فهو أعلى من في الكون. بشرط الوعي والصدق، تُفتح الأعين والأذن والأفواه حتى يصبح الحق نبراسه وطريقه[2].

وتسمي النيابة الإلهية أحياناً «الملك لله». أحرق طارق السفينة واحتار الناس، كيف العودة؟ فأمسك طارق بالسيف مبتسماً قائلاً في عزمه الشديد الملك اليوم لله الواحد القهار[3].

---

(1) عدة الأنذال حقد لا سواه   استمع يا صاح، ذا شرع الحياة
الحياة الحق بأس يظهر   حب الاستيلاء فيه مضمر
رب عفو كان من آفاتها   يكسر الموزون من أبياتها
يحسب العجز قنوعا، خانع   لصروف الدهر ذلا طائع
فاقطع سبل الحياة الخور   قلبه خوفا وكذبا يضمر
قلبه من كل خير فارغ   ليثه في كل خبث والغ
في كمين راصد هذا اللئيم   فاحذرن يا صاحب العقل السليم
احذرن يا صاح من تزيينه   إنه الحرباء في تلوينه
إنه يخفى على أهل النظر   لبس الحق عليهم واستتر
في ثياب اللين حينا يظهر   وهو حينا في اتضاع يُستتر
وهو طورا في ثياب المجبر   وهو طورا في حجاب القدر
وهو حينا في لباس الترف   يلبس الصحة ثوب الدنف
الأسرار والرموز، ص44 ـ 45.

(2) ما سوى القوة للصدق دعم   اعرفن نفسك، هذا جام جم
هي من حقل الحياة الحاصل   فُسّر الحق بها والباطل
مدّعاة في غني عن حدة   إن تحدي المدّعِي بالقوة
تجل الباطل حقا ماثلا   وَهَنُ الحق يُحق الباطلا
سطوة القوة تحيّي ما أمر   إن تقل للخير شر فهو شر
أيها الغافل عما حُمّلا   أنت في الكونين أعلى منزلا
افتحن عينا وأذنا وفما   تُبصر الحق طريقا معلما
السابق، ص45 ـ 46.

(3) طارق أحرق السفين فقالوا: ليس هذا من فعله برشيد =

11 ـ الذات بين المثال والواقع

الذات بين المثال والواقع[1]. وهو ما يسمي «إعلاء كلمة الله»، ونشر الحق بالعمل، والكد والكدح والسعي في الأرض دون عدوان على أحد. وهو عمل يقوم على الحب. وينتج عن تأكيد الذات لا فنائها. يتجاوز القيل والقال إلى الفعل والفعال. لا يهم زي الدراويش بل فعل الأمراء ويقظة الضمير. والفعل مبادرة وتدبير، وليس قضاء وقدراً وتقديراً. الحياة ركوب المخاطر. فبحار العجم ليس لها قرار. وفي أحشائها درر مكنونة. وعظمة ركوب البحر في الصراع مع أمواجه، وليس فقط الإبحار على سطحه[2].

ولا فرق بين أن يكون الباعث لإعلاء كلمة الله الجهاد في سبيل الله أو ضد جوع الأرض دفاعاً عن الفقراء. فللفقراء حق في أموال الأغنياء. والجوع مانع من تطبيق حد السرقة. ومن مقاصد الشريعة الخمس الضرورية الحفاظ على المال. والعدالة الاجتماعية ركن من أركان الشريعة. فلماذا يكون الجهاد في سبيل جوع الأرض حراماً في الشريعة؟[3].

= غرباء ومن لنا برجوع ... ذا خطار في الشرع غير سديد
أمسك السيف طارق في ابتسام ... قائلا واثقا بعزم شديد
ملكنا اليوم خالصا كل ملك ... إنه ملك ربنا المعبود

رسالة الشرق، ص298.

(1) إنما المسلم بالحب قهر ... مسلم لا حب فيه قد كفر
في رضاه الحق فناء ... كيف يرضي الناس هذا الادعاء؟
فدع القال إلى الحال الجلي ... وأضئ بالحق ليل العمل
وكن الدرويش في زي الأمير ... ذاكرا لله يقظان الضمير
خير الحرب إذا رمت الإله ... شر السلم إذا رمت سواه
نحن إن لم يُعلِ حقا سيفنا ... اكتسى في الحرب عارا صفُّنا
قصد الشيخ العليّ القدر ... راجيا منه دعاء الظفر
من لغير الله سل المغمدا ... سيفه في صدره قد أغمدا

الأسرار والرموز، ص55 ـ 57، المقدمة، ص49.

(2) بحار العجم ليس لها قرار ... وفي أحشائها درر كبار
ولكن لا أحب ركوب بحر ... إذا لم يخش في موج خطار

رسالة الشرق، ص272.

(3) عسكر الملك وما قد أسروا ... بسيوف الجوع منه شذر
غصة السائل جوع السائل ... وخراب الملك جوع الدائل

الأسرار والرموز، ص57.

ويرمز إقبال للمثال والواقع بالسماء والأرض. فما قد يُرى خريفاً قد يكون ربيعا. وما يُظن أنه ربح وخسران هو دافع حيوي طبيعي تلقائي. وما قد يُظن أنه ذروة في الأرض قد يكون مؤشراً لعالم آخر(1). تحقق المثال في الواقع عملية فرح وسرور، وأمل وصبور. فالمؤمن جزل فرح(2).

أ ـ الحياة كفاح

شكى يوماً كوكب لأخيه أنه في بحر دون ساحل. يسير بلا توقف. وليس له منازل. فإذا كانت النجوم تسير وفقاً لقانون فما جدوى العناء والحياة والزمان والكفاح؟ ويجيب الشاعر أن النجوم ملت زرقة السماء. وحنت إلى سماء الأرض. وللإنسان ميزة على النجوم لأنه يعيش فيما تشكو منه. يعيش في طعان وصراع كل لحظة. فحياة الأرض أولى من حياة السماء(3). لذلك تبدو الحياة في الجنة حياة هدوء وسلام وصفاء. تخلو من المعارك والصراعات والهموم. ليس بها هم يوسف وزليخة. ليس بها من يصلى بنار، ولا من يصارع شرا. ليس فيها ريح يهب. فزورقها في آمان. ويقينها خال من الاحتمال. وليس بها ضلال عقل أو تردد شعور. فالنقص كماله في عالم مخلوق. إنما الشر هو الغرور له(4). والحياة مخاطر.

---

(1) صاح عَلَّ الذي رأيت ربيعا ... هو في أعين خريف الزمان
سالك النهج! كلَّ حين شؤون ... لا تفكر في الربح والخسران
رُبَّ ما خلته بدنياك أوْجا ... هو أرض لعالم غاب ثان
ضرب الكليم، ص11.

(2) وكم في الوجود من الحبور ... أرى اللذات في شوق الظهور
ويصدع غصنه برعوم زهر ... فيبسم للحياة من السرور
رسالة الشرق، ص264.

(3) سمعت بكوكب لأخيه يشكو ... لنا بحر وليس يلوح ساحل
خُلقنا للمسير بلا وقوف ... فليس لركبنا أبدا منازل
فإن تمض النجوم كما نراها ... فما جدوى العناء؟ وما نفيد؟
بأشراك الزمان لنا إسار ... سعيد من يجانبه الوجود
لهذا العبء محمله شديد ... فليت وجودنا عدم أبيد
كرهتُ القبة الزرقاء أوجا ... حضيض الترب خير لو نريد
فطوبى لابن آدم في طعان ... قد استولى على طرف الزمان
خليق بالحياة له قوام ... يُجدد أو يُخلق كلَّ آن
السابق، ص282.

(4) وأين بجنة لعب الليالي ... وليس هناك من فلك يدور =

والسعي فيها مجابهة لها. فقد شكى غزال لغزال آخر أنه بعد العيش في البلد الحرام نظراً لأن الصياد حوله في كل مكان ولا يطيب له المقام. ويريد تبديل خوفه أمنا. ويزيل هم الموت عن كاهله. فأجابه رفيقه بأن الحياة في الخطر الجليل. عليه أن يشحذ النفس. ويعيش أمضى من السيف اليماني[1].

يحمل المسلم على كتفيه عبء الدين والدنيا. ويكدح في نشوى، معتمداً على ذاته[2]. لم يبرّز المؤمن اليوم لأنه لم يعد مجاهداً، لأنه لم يعد يدرك لذة الجهاد، ولا حرارة الجمر. الإيمان هو الذي يجعل الجبال تشرق عليها الشمس وتكسوها اللون القرمزي[3]. وفي منظومة باسم «الإنسانية» يصور إقبال أنه في جماعة شرب. وفي نشوة السكر، سأل أحدهم عن الله فقيل له: سبحانه وتعالى، ولكن أقول لكم

= ولا فيها ليوسف غم سجن ... ولا فيها زليخا تستجير
وليس خليلها يصلى بنار ... ولا بكليمها شرر يثور
وليس لصرصر فيها هبوب ... فزورقها على أمن يسير
ولا ليقينها «هل» أو «عسى أن» ... ولا لوصالها هجر مرير
وكيف يلذ عقل ذو ضلال ... إذا وضحت طريق لا تجور
فلا تحفل بكون فيه نقص ... به المولى وليس به الغرور

السابق، ص299.

(1) غزال بث شكواه غزالا ... فقال سأقصد البلد الحراما
أري الصياد حولي كل حين ... فلا أستطيع في أرض مقاما
أبدّل خيفة الصياد أمنا ... وأنفي الغم عن قلبي المعنى
أجاب رفيقه أن يا خليلي ... حياتك فابغ في الخطر الجليل
ونفسك فاشحذن في كل آن ... وعش أمضى من السيف اليماني
ففي الأخطار للهمم اختبار ... لأرواح وأجساد عيار

السابق، ص295.

(2) عبء على المؤمن ذي الليالي ... الدين والدولة فعل هازي
ولا أرى نشوان في كفاح ... فليس إلا كلم نوازي
الآدمي منه في صفات ... كالله مستغن بلا إعواز

ضرب الكليم، ص63.

(3) فأين يا مؤمن أنت ... اليوم لم تُبَّرز
ما في جهاد لذة ... جَمْرُك فيه معوزي
يا شمس من سرادق المشرق هيا فابرزي
واكسي جبالي حلة ... تُزهي بلون القرمز

السابق، ص123 ـ 124.

بأننا صحيح من تراب إلا أن الكفاح هو ما يميزنا ولا أبادله مع قصد الله[1].

هذه هي النظرة الثاقبة إلى الحياة والتي يكافئ فيها زجاج الذات الحجر الصلب. وهي النظرة إلى الحياة. كفاح الحرب له وقته. والغناء له وقته. الطعان في حينه، وعزف الوتر حين يحين[2]. تقوي الذات بالجهاد الدائم والكفاح المتصل. ويؤدي التردد والسكون إلى الدعة والخضوع والخوف. فمعين الحياة دماء القلوب وليس المياه. هذا هو الإهداء «إلى القارئين» الذي يقدمه إقبال في بداية «ضرب الكليم»[3]. الحياة كالنهر المتدفق تقذف أمامها الصخور. فالسيلان أقوى من الثبات. والحياة أعتى من الحجر. الأقدام كالنهر. يتخطى كل العقبات[4]. الحجر للأقدام والاصطدام والحوادث. والنهر يشتاقه البر والبحر. والحجر يختلط على الناس وهو ثابت في الجدار، زجاجاً أم حجر. والنهر صاف واضح لا لبس فيه. الحياة فورة بورودها وأشواكها، بأفراحها وأحزانها، بنجاحاتها وإخفاقاتها. تمضي الذات كالنهر في الجبل. تعرف الأغوار والنجود. وتسير مثل السيل. تجرف كل شيئ. لا تبالي هبوطاً أو صعوداً. لا تهتم بالمظهر والشكل، بل بالمضمون والجوهر. لن يعود الكهل شاباً بصباغ شعره. الحياة تنطلق مع الصقر. والصقر يأبى أكل الجيف. ويعبر الشعر عن الحياة. ولا يباع نقداً في الأسواق[5].

---

(1) A Message from the East., pp. 94 - 5.

(2) إذا لم تصب في الحياة النظر — فليس زجاجك كفؤ الحجر
كفاح شديد وضرب سديد — فلا تبغ في الحرب عزف الوتر
فعين الحياة دماء القلوب — ولحن الدما لا المياه الفِطَر
ضرب الكليم، ص ز/ط.

(3) السابق، ص3.

(4) قال نهر الطود يوما للحجر — بسقوط وانتكاس تفتخر
أنت للأقدام والغم لقى — وأنا يشتاقني بحر وبر
لم تُدَهبِدَه من جدار مرة — كيف تدري أزجاج أم حجر؟
السابق، ص58.

(5) امض في الدنيا كنهر في جبال — واعرف الأغوار فيها والنجودا
أو مثال السيل فاجرُف كل شيئ — لا تباليه هبوطا أو صعودا
قطوف الورد! لا تجزع لشوك — كذاك الشوكُ من نفس الربيع
لا تبتغ الخضاب والتكوينا — لبس الشباب سرقة السنينا
رأيت العشق يأبى كل وغد — كميت الطير تأباه الصقور

حياة الذات كفاح وجهاد عن طريق تصوير الطبيعة والإسقاط عليها. فلا فرق بين حياة الذات وحياة الطبيعة النباتية أو الحيوانية. فالجدول الصغير محزون يسقط في الوهاد. لا يشتكي ضيق الحياة، ولا يمل من الجهاد. ينساب ويتوقف، ويهيج ويسكن، يستقيم ويتلوى. يروي ساكني الضفاف بينما يرتوي هو بالتمزق، كما تنير الشمعة وتحترق. وإذا تجمعت الصخور عليه تشتت وحزن من وجد الفراق. ثم يختار من ثغراتها درباً. ويمزق قلبها من أجل الجمع والوصال[1].

كل شئ ينمو. وهذا هو سر التجسد، حلول الروح في المادة. ويحدث النمو نتيجة للجهد والكد، وليس طبقاً لقوانين آلية. فالحياة حياة الوعي والتذوق وإلا كانت موتاً. قوة الذات تهب النصر. وخور الذات يرى في اليد التي تحمل السيف عبثا. والجبل حبة خردل. لقد تناثرت النجوم، واندثرت الكواكب دون أن يعني ذلك العبث والفوضى. وينتهي الوجود كله إلى فراق. وأخيراً يظهر البدر آخر الليل وحيدا[2]. البحر دائم الحركات، موجة بعد موجة، وثبة في الحياة. هو تجل من تجليات الذات. واللهيب الذي منه يصعد الدخان هو لهيب الذات. يرفض السكون بين الماء والشطين كما ترفض الذات. ينطلق من الأرض إلى السماء كالذات. من الوحدة يخرج التعدد، ومن التعدد تعود الوحدة، لا فرق بين الذات والكون[3].

---

(1) آه لهذا الجدول المحزون يقفز في الوهاد
لا يشتكي ضيق الحياة ولا يمل من الجهاد
ينساب، يرقد، يستقر، يهيج، يصخب، يتلوي
يروي الجلوس على الضفاف وبالتمزق يرتوي
وإذا تجمعت الصخور عليه شتت حزبها
واختار من ثغراتها دربا ومزق قلبها

جناح جبريل، ص510.

(2) كل شئ إلى التجسد يسعى — رغبة في النمو يهلك نفسه
وحياة بغير ذوق ظهور — يحتويها، يسومها الموت بؤسه
قوة الذات قوة الذات سر — يهب النصر في الحياة لأعزل
خور الذات يجعل السيف عبثا — ويرى في الجبال حبة خردل
شرّدتْ نفسها النجوم ولكن — ليس يعني ضلالة واختلاطا
لفراق يؤول كل وجود — ليس عن صدفة وليس اعتباطا
يظهر البدر آخر الليل فردا — أصفر الوجه في السماء وحيدا

السابق، ص448.

(3) إنه البحر دائم الحرقات — وثبة بعد وثبة في الحياة =

وقد خلقت الحادثات من لهيب الذات، وإشعاعات الكون من حرارتها. كل ما فاض منها فاض عنها. وكل زهر يتفتح من تجليها. الراحة والسكينة في القلب خدعتان. فالكون ذرات يهيجها الزمان. والقوافل تضرب بالدفوف. ولا تفكر بالوقوف. وتتجدد باستمرار. في السير تصول وتجول. والمهم السير وليس الوصول، السعي وليس النجاح. التوق إلى الطيران يفجر سرها وراحتها في وثبتها. تحل وتعقد، تعقد وتحل. جوهرها الاستمرار في السير ومواصلة الكفاح. وتمضي في الثبات إلى الموت، طمعاً في الخلود[1].

تحتاج الدنيا إلى شهر الحسام. ولا يطيب المقام وهو في الغمد[2]. وللإنسان قدرة على رفع النقاب، والوصول إلى الشمس والبدر والسحاب. والخوف ليس حالاً للذات ولا مقاماً لها. وكيف يخاف البستان شهر الخريف؟ يرقص عش الطير

= ذاك بحر من الحياة تجلي ... واحدا في تموجات الذوات
اللهيب الذي تأجج فينا ... والذي يحتوي جنون الدخان
يرفض المكث بين ماء وطين ... وهو راض عن كل ما يصنعان
إنها الوحدة التي كبَّلتها ... حلقات التعددية هذي
رُغم كل التعددية تبقى ... وحدة ما لها نظير محاذي
واللهيب الذي تأجج فينا ... خلق الحادثات منك ومني

السابق، ص514 ـ 515.

(1) الراحة الكبرى بقلبك والسكينة خدعتان
فالكون ذرات يهيجها برقصته الزمان
وقوافل الأشياء في الآفاق تضرب الدفوف
وتروح تمعن في التجدد لا تفكر بالدفوف
السير معناها العميق به تجول به تصول
فدع الوصول لمن يريد فليس مطلبنا الوصول
توق إلى الطيران يترك سرها يتفطر
وتحس راحة صدرها في وثبة لا تفتر
وتحل، تعقد ما تحل، تقيم تهدم ما تقيم
فردوسها أن تستمر وروحها السير المقيم
وإذا ابتداها الموت وهو الند في وجه الحياة
ومن العسير كفاحه تمضي إليه في ثبات

السابق، ص516.

(2) ليشهر منك ذيّاك الحسام ... بغمدك لا يطيب لك المقام
وتملك قدرة فارفع نقابا ... تنل شمسا وبدرا والسحابا

زبور العجم، ص401.

من الصواعق فما الخوف إذا ما أحرقت عش الإنسان؟ الحياة سر تملأ حياة الإنسان طيباً، وسهم يُقذف بعيداً كلما كان القوس شديداً. ولا يعيق ارتفاع النجوم من الوصول إليها. وزرقة السماء مختلطة بالماء الذي يشربه الإنسان[1]. تتوق النفس إلى أن تتحكم في الآفاق إذا ما اتصفت الأبصار بالمضاء. واتسمت الإرادة بقوة العزيمة[2].

ويعترف إقبال بأن إجابة الرومي على سؤال شرحتْ نظرته، ووسّعت أفقه. وعاد وسأل عن الجهاد. ويجيب الرومي بأن من سوى الأصنام سوّى الفأس؟ وأحجار الحبيب تستطيع كسر الكأس. ولا يُزرع بلو وليت فإن ذلك يكشف عن ضعف الهمة. والإنسان قادر على أن يجرح الدهر ويأسو به[3]. لقد تفتحت عين المسلم على الجهاد. وكُشفت له أسرار الروح. ليس له جيش عرمرم، ولكن له ذات أكرم من ملوك الأرض. ولو استردت الذات حقها لكان جلالها أكرم[4].

---

(1) لا يخاف البستان شهر خريف ... فلماذا ملأت بالخوف عشك
يرقص العش في السماء لهيبا ... عندما تحرق الصواعق قشك
الحياة الحياة لفظة سر ... ملأت عالم القلندر طيبا
إنها السهم منذ كانت رمته ... ومن القوس لا يزال قريبا
لا تعيقُ النجوم سرك هذا ... فسماء النجوم غير سمائك
أخطُ في الموقع الذي أنت فيه ... لترى زرقة السماء بمائك
جناح جبريل، ص445 ـ 446.

(2) لا تتوق النفس أن تحكم آفاق الفضاء
حين لا تتصف الأبصار حقا بالمضاء
السابق، ص451.

(3) قال يا من شَرحتْ نظرته ضيق فؤادي
أملي أفهم ما تفهم من أمر الجهاد
قال: من سوّى لك الأصنام سوّى لك فأسه
وبأحجار الحبيب ... يضرب الحاذقُ كأسه
لا تقل ليت ولولا ... ما على همِّك بأس
أنت يا هذا الذي يجرح في الدهر ويأسو
السابق، ص524.

(4) لعينيه الحياة أنا فتحت ... وما في الأمس والغد كم شرحت
كشفت الروح أسرارا فهلا ... بلاغة يعرُب يوما منحت
وليس للمسلم جيش عرمرم ... بذات من ملوك الأرض أكرم
فلو ردوا إلينا اليوم حقا ... لكان جلاله لا ريب أعظم
أرمغان حجاز، ص442.

يأذن إقبال جهاراً بحمل السيف. ويصرح علناً بضرورة الجهاد. فتجربة الشاعر أن السيف أصدق أنباء من الكتب ضد فتوى الشيخ، إن العصر هو عصر القلم. والسيف ليس حاكماً بين الأمم وإلا تحول الإسلام إلى مجرد وعظ داخل مسجد، مجرد لغو كلام. السلاح دائماً في كف المسلم، وروحه في الكف الآخر. لا يحرم لذة الشهادة. لا يخاف الموت بل يعشق الشهادة. تعليم المسلمين الجهاد اليوم لمواجهة الطغاة، خاصة وأن الغرب مدجج بالسلاح، يعتدي على المسلمين. يغزو بلادهم، ويحتل أراضيهم[1]. الجهاد مستمر اليوم وغداً كما بدأ في الماضي كنور مستمر، وشعلة متقدة. فالحق يضاده الباطل على مدى التاريخ. ومن ثم لزم الجهاد دائما. ومن لم يبدؤه اليوم لن يقوم به في الغد[2].

ويدعو إقبال بوضوح إلى الثورة في مقطع يتكرر تسع مرات «أصيح، ثر. أتحدى، ثر. ثر أو مت». ويوجه النداء أولاً إلى المأجورين المرتزقة الذين يبيعون دماءهم بحقنة من الروبيات، وخدم الطغاة الذين يساعدون على زيادة ثرواتهم، والفلاحين والعمال والمحيطين. وثانياً، إلى مشايخ المدن الذين يقبضون على مسابحهم ويضلون كثيرين عن الطريق، والبراهمة الذي يضل الناس بخيوطهم وإلى موتاهم. وثالثاً، إلى الأمراء والسلاطين المقامرين الذين يلعبون بالنرد، وأرواح رعاياهم تخرج من أجسادهم وهم نيام. ورابعاً إلى الوعاظ في المساجد والأطفال في رياض الأطفال حتى يقولوا الحق الذي يعرفه الناس بفطرتهم، ويكتشفون كذب الوعاظ ورجال الدين. وخامساً، إلى الأخوة المسلمين الذين جهلوا العلوم مع أن الدعوة إلى الله لا تكلف شيئاً. وسادساً، إلى كل من يحول الحق إلى باطل

(1) الشيخ أفتى أنه عصر القلم ... ما السيف فيه حاكم بين الأمم
أما درى الشيخ بأن وعظه ... في مسجد قد صار من لغو الكلم
فما ترى السلاح كف مسلم ... بل قلبه من لذة الموت حُرم
من قلبه يهاب موت كافر ... فكيف ميتة الشهيد يغتنم
فعلِّمَنْ ترك الجهاد طاغيا ... من كفه يسيل في العالم دم

ضرب الكليم، ص17.

(2) من عداه ليومه في جهاد ... نور نفس وشُعلة في الكبود
ماله الحق في متاع وهم ... يستسران في الغد الموعود
ليس أهلا لمعرك الغد من في ... سيره (اليومُ) ليس بالمعدود

السابق، ص102.

والصواب إلى خطأ، إلى من يحاول منع الشمس عن الشروق وهو مغمض العينين. وسابعاً، إلى الكنائس بعد صلب يسوع المسيح وأيضاً إلى المسلمين الذين يحملون القرآن ويهربون من الكعبة. وثامناً، إلى كل من يتقن سموم الحيات في الأوعية وإلى كل من يتلوى بسببها. وتاسعاً، إلى كل المستضعفين الذين مازالت لديهم قلوب الأسود وقوة النمور والذين ما زال في مصابيحهم بقايا ضوء[1].

ويخص إقبال «الإنسان الأسيوي» بالنداء. فقد خلق فضاءً جديداً ليس الهدف منه الحج إلى الأصنام بل تحطيم كل الأصنام[2]. فالإسلام الأسيوي قادم. والإنسان الأسيوي هو الذي سيكمل الرسالة التي حملها الإنسان العربي.

ب ـ الذات عمل

والذات كوعي مقدمة للذات كفعل، في الحاضر والمستقبل[3]. وتسعد الأمة بالعمل. لم يطلب الدين من الإنسان أن ينام ويطيل النوم دون حراك. فالدين ليس سحراً ولا أفيوناً. ولا يعتذر الإنسان عن نومه بأنه لا يملك شيئاً لأن الإله هو المالك لكل شيئ، والإنسان عامل فيها، مصلح دون مفسد. التأمل دون فعل موت[4].

إذا سلم قياده لإبليس فإنه يفسد في الأرض. فإن لم يكن الإنسان أميناً ينجز أعماله فليرد إلى الإله ماله وإلا أخذ ما لا يملك. العمل مصدر الملكية. فإذا فعل فإنه يشكو الفقر وهو سببه[5]. والسعي في الرزق أحد تحققات الذات. ويكون

---

(1) Persian Psalms, p. 86 - 8.

(2) Ibid, p. 99.

(3)
وتلك الذات يوما من يشاهد — يقم في الغد للدنيا القواعد
وها قد طاف في خلق كثير — بخلوته بذات، وهو قاعد
وتسعد أمة للذات عادت — وفي عمل وفي نصب تمادت
سيلمع نورها في الأفق شرقا — إذا بسيوفها ضربا أرادت

أرمغان حجاز، ص467.

(4) St. Ref., p. 110.

(5)
أي دين! وإلى نوم دعاكا — فأطلت النوم لا تبدي حراكا
أفسحر ذاك أم دين لكا — نشوة الأفيون تمحو وعيكا؟
أتقول ما لدينا ملكنا؟! — يملك الملك جميعا ربنا

=

السعي في أقصي الأرض دون الاكتفاء بالسعي القريب. ويكون بالاعتماد على الذات، والنظر في كل أمر من أجل العلو المستمر. والتمساح لا يلزم الشط بل يغوص في عمق البحر. يحمله بصدره، ويغلبه في طوفانه. ولئن غفل لحظة اصطاده الصياد[1].

تسير الذات في صحراء مملوءة بالأشواك حتى تدمي قدميها فتتقرح. ومع ذلك تسير في جنون وحزم. وهو ما لا يفهمه العلم. شوك الصحراء قادر على حل الأمر بنفسه[2]. الحياة تمزق صدر الفضاء، معارك مستمرة، واحدة تلو الأخرى. كذلك الحب لا ينتهي ولا يستقر، تجربة وراء أخرى. لو قضي على عش يُبنى ألف عش. فلا مكان لليأس، بل الأمل متجدد باستمرار. ولا بكاء على بستان، فالبساتين كثيرة. الإنسان كالنسر دائماً في الهواء. لا يستريح دون بكاء على عش رماه القضاء. فهناك آلاف الجرحى، وآلاف المناسبات للبكاء. السماوات فسيحة،

= كل أرض أرض ربي فاشهدوا ... في الكتاب قوله لا تفسدوا
سلّم المرء لإبليس القيادا ... إنما إبليس من يسعى فسادا
مَن أمين منجز أعماله؟ ... ليته لله رد ماله
قد أخذت أنت شيئا غير ملكك ... يا لعمري ليس هذا شأن مثلك!
املكنَّ الشئ فيه راغبا ... أو فخاطب منك نفسا عاتبا
إن ملك الله هذا فترده ... كي تحُل أنت في الأعمال عقده
ولماذا اليوم نشكو فقرنا؟ ... ما لرب الكون قلتم: ذا لنا!

جاويد نامه، ص242 ـ 243.

(1) إذا ما كان صيدك بعض ريش ... فخير منه موت في الوكوز
لذاتك نظرة في كل أمر ... لنا من نظرة سوط لنجري
وما نسعي وراء الذكر إلا ... لكي نعلو ونعلو مثل طير
وللتمساح هذاك الكلام ... لزوم الشط في ديني حرام
عن الشط ابتعد موجا تسلق ... فعش بحرنا وبه ننام
وهذا البحر في صدر حملته ... وذا الطوفان في حرب غلبته
ولو في برهة أعيا وأعفى ... لكان مقاتلا ما إن قتلته

أرمغان حجاز، ص479 ـ 480.

(2) شوك صحرائنا يحلُّ بلطف ... عقد السالكين من حيث يُدمي
فامض في الشوك حافيا وتقرح ... لست تنجو بلا جنون وحزم
لغز هذي التداخلات وإن لم ... يستطع أن يفكّه العلم كله
شوك صحرائنا يغور برفق ... وبأسلوبه اللطيف يحلُّه

جناح جبريل، ص448.

والطير لا نهاية له دون أغلال(1).

الذات من طين، ولكنه نفخ فيه من روح الحياة، فاشتعلت ناراً، وأضاءت الكون. وإذا لم تهب الطبيعة الشاعر فكراً ثاقباً فإنه لا يبالي لأن من طينته يستطيع أن يطير. فهي طينة معجونة بالجنون. تصقل الحس. وتجعل الغبي ذكيا. وهو ما تجلى في عهد ﴿ألست﴾، واختبار الإنسان خليفة الله في الأرض بالرغم من اعتراض الملائكة على الخلافة مع سفك الدماء والإفساد في الأرض. لا يهمها صنع عش من أغصان الشجر في البستان بل الارتفاع إلى السماء، والسباحة في الفضاء. والنجوم تأسى على الدموع في الأجفان(2).

تودع الملائكة آدم وهو يغادر جنة عدن آسفين على تغلب الطين على الروح. ويخبرونه أن الدنيا كذلك بكاء وغناء(3). وتستقبل الأرض روح آدم وتنصحه بكيفية التعامل مع الأرض. فهو من طين وماء مثلها. فهو في مكان أليف وسط العالم. الصبر على الشقاء فضيلة. والعالم ضجة حرب، خوف ورجاء. وهما حالتان

---

(1) حياة تمزق صدر الفضاء يصاحبها ركبها المستمر
مغامرة خلف أخرى تخوض وقافلة خلف أخرى تمر
كذلك حبك لا ينتهي ولا تستقر معاناته
هناك تجارب أخرى له إذا هي زالت سمواته
إذا ضاع عش فلا تكتئب ففي روضنا ألف عش لك
ولولا بساتين أخرى هناك لكنت بكيت له مثلك
فطر ليس للباز أن يستريح ولا تبك عشا رماه القضاء
ففي دربنا ألف قلب جريح وألف مناسبة للبكاء
سمواتنا تلك لا تنتهي وأنت قصارك في أن تطير
فإياك أغلالهم إنها تضيِّع نكهة هذا المسير

السابق، ص453.

(2) لم تهب لي الطبيعة اليوم فكرا ثاقبا، غير أنني لا أبالي
عدتي طينتي التي وهبتني طيراني المخف عبر الليالي
طينة بالجنون تصْقُل حسي طينة تجعل الغبي نبيها
ربما مزقتْ لجبريل سرا ورأى قوله: أتجعل فيها
طينتي لا يهمها صنع عش من دقاق الأغصان في البُستان
وجبين النجوم يرشح عارا لبريق الدموع في أجفاني

السابق، ص458 ـ 459.

(3) إنما الدنيا بكاء وغناء ليس إلا

السابق، ص521.

صوفيتان. كل ما في الكون من بحار وفضاء وسحب وبيد ملك الإنسان[1]. كان آدم ملاكاً ولكن غلبت عليه الدهشة والفناء. وإذا نظر في مرآة ذاته عرف القضاء. وإذ حدّق عرف سر البقاء، وصراخ كشررات تتعالى إلى السماء[2]. لقد أضاء ضوء الشمس من شرارة آدم. يعيش في عالم جديد. فردوسه ذاته، ليس لها نهاية، جوهرة الروح وليس الجسد المتناهي. هو كالزهرة في العطاء[3]. ومع ذلك كل أوتار آدم تبكي كالعود الشريد. مع أن كل ميراثه حب يتخير منه ما يريد. وهو سيد الأسرار في المعبد منذ وقت طويل. تبلى الذات فيه ثم تستيقظ من جديد. وتمتطي كل جديد بسهولة ويسر[4]. واشتكى إبليس لله يوماً لماذا يتعالى ابن الطين عليه

---

(1) فأتي الأرض فقالت ... إنه آدم جاء
أنت يا آدم فاعلم ... كنت من طين وماء
حولك العالم فانظر ... وتمعّن في السماء
ووراء الحجب حسن ... فتأمل ما وراء
لا تكن نافذ صبر ... واحتمل وهم الشقاء
ضجة العالم هذا ... حربُ خوف ورجاء
لك ما في الكون مُلك ... من بحار وفضاء
هذه السحب جميعا ... هذه البيد العراء
السابق، ص521.

(2) كنتَ من وجه ملاك ... في اندهاش وفناء
فخذ المرآة وانظر ... فيك أسرار القضاء
نظرات ذات مغزي ... أطلقت سر البقاء
وشرارات صراخ ... يتعالى في السماء
السابق، ص522.

(3) إن ضوء الشمس هذا ... من شراراتك ضاء
عالم أنت جديد ... أنت والكون سواء
أنت فردوسك ذات ... ما لها قط انتهاء
جسد؟ لا ليس هذا ... جسدا هذا جزاء
أيها الزهرة فانظر ... كيف تمضي في العطاء
السابق، ص522.

(4) كل أوتارك تبكي ... أيها العود الشريد
كل ميراثك حب ... فتخيّر ما تريد
سيد الأسرار في المعبد من وقت بعيد
تنفق الذات وتبلي ... ثم تبدي وتعيد
ثم في غير كثير ... تمتطي كل جديد
السابق، ص522.

وهو من نار وابن آدم يتحول إلى تراب؟ روحه واهنة، وكرشه كبير، وثيابه موفورة. عقله في الذروة وقلبه يلفظ روحه. ويطلب إبليس من الله أن يداوي جروحه[1].

وفي حوار بين جبريل والشيطان أي بين الخير والشر سأله جبريل عما شاهد في عالم الألوان والعطر الجديد، عالم الغواية والجدة والإغراء؟ فرد الشيطان بأنه شاهد الشوق والطموح. وسمع البكاء والنشيد. ثم سأل إقبال من جديد أن حديث الناس في الحضرة الإلهية من صنعه، وأن جلاليب الناس مرقعة من خرقه. ويدافع الشيطان عن نفسه بأن كلامه في الظاهر يشقي. وفي الباطن يسر. تكسر قدح سره. ولم يعد قادراً على الصعود إلى الملأ الأعلى. بل إنه لا يطيق العيش فيه. والفرق بين جبريل وبينه هو الفرق بين اللعنة والرحمة، بين الموت والحياة، بين اللاعودة والعودة، بين القنوط والأمل[2].

واستدرك جبريل قائلاً للشيطان إنه عندما استنكف طاعة لله للسجود لآدم ناله

---

(1) قال إبليس الرجيم يشتكي الله تعالى
ما لنجل الطين هذا فوق ناري يتعالى
هو ذا آدم بعدي هو ذا كوم التراب
واهن الروح كبير الكـ ـرش موفور الثياب
عقله في الأوج لكن قلبه يلفظ روحه
ما لقلبي غيرك اللهم لو تأسو جروحه
السابق، ص544.

(2) التقي سيدنا جبريل إبليس الرجيم
قال: ما شاهدت قل لي أيها الخل القديم؟!
ما جرى في عالم الألوان والعطر الجديد
قال: شوق وطموح وبكاء ونشيد
قال: ما زال حديث القوم في الحضرة خلقك
أولا يمكن أن يرقع في الجلباب خرقك
قال: هيهات ولكن لست تدري ما أسر
هو في الظاهر يشقي وهو في الحق يسر
قدح السر الذي أسكرني منه تكسر
ورجوعي للأعالي بعد سكري يتعسر
أنا حتى لا أطيق العيش في تلك الأعالي
أنت للرحمة حال وأنا اللعنة حالي
ذلك العالم ما معناه من غير أوابد؟
إنه الموت الذي تعرف لولا ما أكابد

=

العار، ونال الوجود كله. وارتعد الملأ الأعلى من عصيان الشيطان. ملأه الذعر، وتملكته الرجفة. فأجاب الشيطان بأن جرأته هذه سر البقاء، وأن النار سر النماء، وليه الجديد. جبريل على الشاطئ ينظر إلى صراعات المواقف. أما الشيطان فإنه يواجه العواصف. وعندما تعصف ريحه أمواج البحر لا يرى إلياس والخضر أي حيلة. فإذا أمكن يوماً سؤال الله: من الذي خضّب تاريخ ابن آدم بالدما؟ دم الشيطان أم دم ابن آدم؟ لأجاب إنه جعل الشيطان شوكة تجرح قلب بني آدم ولكنه لم يجعله سفاحا. وليس أمام ابن آدم إلا إثبات الذات أو نفيها قربة إلى الله[1].

جـ ـ العالم ميدان للفعل

خلق الله العالم لصالح الإنسان. خلق الأنام من طين وماء. وخلق الشعوب والأقوام. وخلق الحديد من الترب. أما الإنسان فصنع الفاس للجذع والغصن. وصنع القفص لطير طليق يغنّي. ويجيب الإنسان بأن الله خلق الظلام فصنع

= فـإذا كـنـت حـيـاة بـقـنـوطـي لـلـوجـود
أتـرى الـواجـب أبـقـى فـي قـنـوطـي أم أعـود؟

السابق، ص529.

(1) قـال: لـكـن عـنـدمـا استـنـكـفـت كـبـرا أن تـطـيـعـه
نـالـك الـعـار ونـال الـمـلأ الأعـلـى جـمـيـعـه
صـار شـغـل الـمـلأ الأعـلـى أمـام الـلـه خـوفـه
يـهـدر الـذعـر عـلـيـه تـمـلأ الـرعـدة جـوفـه
قـال: يـا جـبـريـل لـكـن جـرأتـي سـر الـبـقـاء
وهـبـتْ لـلـحـمـأ الـمـسـنـون شـوقـا لـلـنـمـاء
أنـت فـي الـشـاطـئ تـرنـو لـصـراعـات الـمـواقـف
أنـا أم أنـت الـذي تـصـفـعـه تـلـك الـعـواصـف؟
عـنـدمـا تـعـصـف ريـحـي لـجـج الـبـحـر الـجـلـيـلـة
لا يـرى إلـيـاس والـخـضـر مـن الـواقـع حـيـلـة
فـإذا أمـكـن يـومـا تـسـأل الـلـه تـعـالـي
فـأنـا أرجـوك أن تـسـألـه هـذا الـسـؤالا
دم مـن ذاك الـذي خـضّـب تـاريـخ ابـن آدم
دم مـن هـذا (دمـي أم دمـه أم دم آدم)
صـاغـنـي الـلـه تـعـالـي شـوكـة تـجـرح قـلـبـه
أنـت لا تـتـقـن إلاّ الـنـفـي والإثـبـات قـربـة

السابق، ص530.

الإنسان السراج. وخلق الماء فصنع الكؤوس. وخلق الصحراء فزرعها خضراء. وخلق الحجارة فصنع المرايا، وخلق الداء فصنع الدواء(1). هناك إذن تبادل في الخلق والصنع بين الإنسان والله. واليراعة بالرغم مما يبدو عليها من ضعف فهي قوية. هي ليست كالنمل تدب على الأرض ويدهسها الناس كما دهسها سليمان بجنوده. ولا تنجذب إلى نيران غيرها كالفراشة. إذا حلك الظلام أنارت بنور أضلاعها طريقها كعين ظبي(2).

العالم مبسوط أمام الذات لتكد فيه كالهلال الذي يكد ويفر في السماء. ولو لم تتغير وجوهه وتتبدل لما كان إماماً في السماء. والنسيم لا يفتح برعم وردة بلهاء عن شمس الصباح. المهم ظهر العيون، والقلب في حضنها(3). درب الإنسان في السماء فعليه اليقظة. مكانها ليس خلق الزمان صباحاً أم مساء بل أمامه. فالدرب في الزمان، لا نهاية له ولا بداية حتى لا يأسف الركب. ولا يعلم أحد أين تنشب الحربة، ويسد الرمح؟ المعروف فقط أنه لا سر في التسكع والتردد والخنوع والقعود في المساجد والكنائس. واللؤلؤ البازخ من المحارة يتجلي في دمع الصباح وليس في خدع الحضارة. والقرمزي الخد لا يحتاج إلى مسحوق من السوق.

---

(1) الله: خلقت الأنام لطين وماء — خلقت تتارا وزنجا وفرسا
خلقت من الترب هذا الحديد — وسهما خلقت وسيفا وترسا
وفأسا خلقت لجذع وغصن — وسجنا صنعت لطير مغني
الإنسان: خلقت الظلام فصغت السراج — وطينا خلقت فصغت الكؤوسا
خلقت جبالا وبيدا ومرجا — خلقت حدائقها والغروسا
أنا من حجار صنعت مرايا — أنا من سموم صنعت دوايا
رسالة الشرق، ص291.

(2) تقول يراعة: لا تحسبني — كنمل السوء يألمني رفيقي
ولا أعشو إلى نيران غيري — كما يهفو الفراش على الحريق
إذا حلك الظلام كعين ظبي — أنرت بنور أضلاعي طريقي
السابق، ص291.

(3) هذا الهلال بصدقه يتسامي — أبدا يريد الكر والإقداما
لولا تجاوزه لكل وجوهه — ما كان في فلك السماء إماما
لا تفتح الأنسام برعم وردة — بلهاء عن شمس الصباح تحيد
طهر العيون هو الحقيقة كلها — والقلب في حضن العيون مريد
جناح جبريل، ص462.

والعازف الموهوب لا يرضى بألحان السوقة مثل ألحان هذا العصر طالما أن الصوت الذي في القلب يخطئ في الغناء[1].

12 ـ الزمان والخلود[2]

أ ـ الزمان الشعوري

الوقت سيف، حاد قاطع. لذلك كانت الأفعال في الأوقات أداء على الفور وإلا كانت قضاء أو على التراخي. وهي تسمية الشافعي واضع علم الأصول. الزمن يشق الصخر ويشق البحر كما فعل موسي بعزيمته. وينادي إقبال على أسير اليوم والأمس للتأمل في الكون الكامن في القلب وإلى النظر في حقيقة الزمان. فهو ليس خطاً مستقيماً يرفضه برجسون، يذرعه ذهاباً وإياباً، صباحاً ومساءً، ليشقى عليه أو يلف به رجل الدين وشاحه. بل هو شمعة تقطع الزنار بنارها. الزمان هو الخلود وليس المكان. الزمان هو الله. لذلك جاء في الحديث «لا تسبّوا الدهر فإن الله هو

(1) يا أيها الإنسان كن يقظا فدربك في السماء
لا ترم نفسك خلف هذا الصبح أو ذاك المساء
الدرب ذلك ماله زمن ليأسف ركبه
ومن الذي يدري ويعرف أين تنشب حربه
لا سر ينبض في التسكع والتمهل واليقين
فوق المواخر والمساجد والكنائس أجمعين
اللؤلؤ الفرد الذي قد ند عن صدر المحارة
مجلاه في دمع الصباح وليس في خدع الحضارة
القرمزي الخد لا يحتاج مسحوقا يباع
والعازف الموهوب لا يرضى بألحان الرعاع
ألحان هذا العصر يلزمها الكثير من الذكاء
إذ طالما الصوت الذي في السر يخطئ في الغناء
السابق، ص467.

(2) تغدق الصخرة من ضربته ... ويفيض البحر من صولته
كان هذا السيف في كف الكليم ... فشأى التدبير بالعزم الصميم
يا أسير اليوم والأمس انظرا ... انظرن في القلب كونا سترا
أنت في النفس بذرت الباطلا ... وحسبت الوقت خطا طائلا
حيرة العبد مسيرُ الزمن ... حيرةُ الأزمان قلبُ المؤمن
الأسرار والرموز، ص63 ـ 65، المقدمة ص49.

الدهر». وهو ما حوله نجيب محفوظ على لسان أحد أبطاله «لا تسبّوا الله فإن الله هو الدولة» نظراً لتسلط الدولة القاهرة على رقاب الناس. يحتار العبد في مسار الزمن، وتحار الأزمان في قلب المؤمن[1].

العبد ينسج على الزمان كفناً ويذعن له، والحر تنسج منه الأيام والليالي. العبد يضع نفسه في قفص الزمان، والحر يطلق نفسه في سماء الزمان. العبد تتكرر أيامه ولياليه، والحر كل يوم جديد الخلقة. ويعتذر العبد بالقضاء. والحر تصور يداه كف القدر، ويسيطر على أحداث الدهر. العبد يغلبه القدر، والحر يمسك بالقدر. إن كل ما في الكون من آثار الذات، وكل ما في الأرض من ريها. العبد يحمل التاج ويطيع الأمر، والحر يلبس التاج وبيده الخاتم الذي به ينقش الأمر. إن الذات هي مرآة الحق، ووجود المسلم آية الحق.

الزمان شعوري، زمان الضمير، توتر باطني. لا يقسم بالشهور والسنين كما هو الحال في أهل الكهف، وإحساسهم بأنهم كانوا نياماً يوماً أو بعض يوم وقد تجاوزوا ثلاثمائة وتسعة أعوام[2]. الزمان ليس قيداً على القلب. ولا يقيد الزمان قلب الهمام[3].

---

(1) ومن الحر جديد الخلقة … كلّ حين، وحديث النغمة
قيّد العبد صباح ومساء … وثوى في فمه لفظ القضاء
وأرى الحر مشيرا للقدر … صورت كفاه أحداث الدهر
سر غيب وحضور في القلوب … رمز وقت ومرور في القلوب
إن للوقت للحنا صامتا … وله في القلب سرا خافتا
أين أيام بها سيف الدهر … صرّفته في أيادينا القدر
إن هذا العصر من آثارنا … من عجاج ثار في تسيارنا
روضة الحق ارتوت من دمنا … عز أهل الحق في الدنيا بنا
لا تهون قدر حر أعدما … أن ترى التاج مضى والخاتما
ذاتنا المرآة للحق، اعلمِ … آية الحق وجود المسلم

السابق، ص66 ـ 67.

(2) وفي غير المكان رأى مكانا … وكالزُّناد يتخذ الزمانا
زمان ما بدا لي في الضمير … خلقت الوقت يمضي بالشهور

زبور العجم، ص382.

(3) رُغم أن الزمان للقلب غِلّ … لا يذل الزمان قلب همام

جناح جبريل، ص466.

ب ـ خلود الزمان

الزمان متصل من الأمس إلى اليوم إلى الغد، من الحياة الدنيا إلى حياة أخرى ما بعد الممات من خلال الأثر في الدنيا عن طريق العمل والسنة التي يقتدي بها الناس. الأمس خبرة واسترجاع، واليوم توتر وشحذ همة، والغد استباق وأمل[1]. وصحبة الذات مدة طويلة تؤدي إلى الخلود. وهو ما عناه الفلاسفة بالاستمرار بين الأمس واليوم والغد[2]. تستطيع الذات أن تحول أيامها إلى خلود[3]. وتخليد الذات بالوصال[4].

الزمن لحظات متعددة كما أن العمر من لهيب الثواني يشعلها الزمان، وكما يسقط الجديد بالكأس قطرة قطرة، وكما يسبّح العابد في حبات سبحته، يسبّح إقبال بزمانه الأيام والليالي. حباتها كلها معروفة لكنها لا تتساوى. فلحظات الزمان كل منها فريدة. كل منها طريقة وسلوك. الزمان وحدة واحدة ولحظاته مرتبة أو مجمعة. مرة تكون سوطاً ومرة تكون عناناً[5]. لا تكترث الذات للسنين، وتسير إلى الأمام وقيمة الأيام والشهور والسنوات وما فيها من تجارب وقد تكون لحظة واحدة

---

(1) أمسي قلبي، وعبرة اليوم عيني، وغدي منيتي وكل بديع
السابق، ص277.

(2) وذاتك أن تعانقها طويلا تجد في الخلد من موت بديلا
ذكرنا الأمس والغد في دوام «فكان» و«سوف» أمس الكلام
وفطرتنا انقطاع عنه كانا سبيلا قد ضللنا في سرانا
زبور العجم، ص386.

(3) لك الأيام فاجعلها خلودا ونُح في الفجر عقلك لن يفيدا
السابق، ص391.

(4) وفي الإمكان تخليد لذات وجعل الوصل من هذا الشتات
السابق، ص399.

(5) شعلة العمر من لهيب الثواني أشعلتها تغيرات الزمان
يسقط العالم الجديد بكأس قطرة قطرة كرشح الدنان
سُبح القوم لعبة في يديهم أن سُبحتي ليالي زماني
كل حباتها عرفتُ ولكن لا أسوّي بين الجميع بشاني
ولكل طريقة وسلوك بعضها فارسي، وأخرى حصاني
مرة أجعل الأعنة سوطا مرة أجعل السياط عناني
جناح جبريل، ص419 ـ 420.

أقيم من عام بأكمله[1]. ولا تصغي لأقوال القائلين من هنا أو هناك. فجهاد الذات يتعالى على الغيرة والتحطيم. وجائزة الحر ليس من الخمور أو الغواني أو الخيام. والطعام لا يأتي إلا لمن يطير فوق الغمام[2].

الذات ليست الفرد بل الكون، وليس الشخص بل العالم وهو ما يسميه إقبال توسيع الذات. الذات زمان متجه نحو الخلود، أنفاس أيام تصب في الدهر[3]. فلماذا يقضي على الدنيا بالهوان وستر المغيب؟ لماذا عدم البدء بالحاضر فالغد في ضمير الزمان؟[4]. هذا يتطلب طموحاً ورفض الحاضر. وإذا كان الإنسان قادراً على أن يحلق كالصقر فلماذا السير في الصحراء أو كالنمل في التراب؟[5]. الذات من الطين وينسب إلى قوم. والإنسان إنسان بلا لون ولا ريح ولا قوم. الإنسان إنسان[6].

الذات باقية بعد أن يرحل كل شيء. الذات جوهر ومظاهرها أعراض. الذات مركز الكون، وقائد الميدان. سيدة الجبال والصحراء. جندها في الأرض وفي السماء. لذلك لا يمكن إهدارها وإلا أهدر الفرد وعمت البصيرة، وقصر النظر. ولا

---

(1) St. Ref., p. 145.

(2)
كما أنت لا تكترث للسنين ... وسر في طريقك نحو الأمام
كما أنت لا تصغ للقائلين ... فلست لنجد ومصر وشام
تعالى جهاد النزيه الغيور ... تعالى يكون لنيل الحطام
وجائزة الحر غير الخمور ... وغير الغواني وغير الخيام
على الطعم يسقط من لا يطير ... ومن لا يحلق فوق الغمام

السابق، ص427.

(3)
قاهرُ الأيام من أنفاسه ... هي أعمار خلود في الدهر

ضرب الكليم، ص73.

(4)
على دنياك تقضي بالهوان ... وستر للمغيب كل آن
فاحكم يومك المشهود واعلم ... بأن غدا ضمير في الزمان

رسالة الشرق، ص272.

(5)
إلام تعيش في رث الإهاب؟ ... إلام تعيش نملاً في تراب؟
فَطِرْ كالصقر معتزما وحلق ... إلام أسير حبٌ في اليباب؟

السابق، ص272.

(6)
رأيتك لا تزال أسير طين ... إلى ترك وأفغان تُرد
أنا بشر بلا لون وريح ... وللتوران أو للهند بعدُ

السابق، ص273.

يمكن عبادة الأرض لأنها للذات. فالذات إما راهب يمتلك نفسه أو ملكٌ يمتلك الغير[1]. والذات تتوالى عبر الأجيال وتتحول إلى وعي تاريخي مستمر. وتتصل ذات المحدثين بذات القدماء[2]. تتمثل نضال الأجداد نحو العلا، وتتأسى ببذل الروح من أجل رضا الرحمن[3].

ويسأل إقبال عن البعث والمصير. وهل السؤال ناشئ عن ضعف اليقين أو من جهله بأسرار الدين؟ ويجيب الرومي بأن السؤال مغلوط. فليس المقصود السؤال الفلسفي الخالص، ماذا يحدث بعد الموت؟ بل سؤال البعث في الدنيا ويقظة الذات، وأنها درب الحياة[4]. ويوصي هارون الرشيد ابنه وهو يحتضر أنه سيمر من نفس الطريق. الموت نور في عيون المؤمنين. لا تشاهده عيون الكافرين[5].

---

(1) يرحل كل كائن ويذهب — حوت وطير، لُجّة وكوكب
وأنت أنت فارس الميدان — وقائد الجيوش في الزمان
يا سيد الجبال والصحراء — جُندك في الأرض وفي السماء
أهكذا قيمتك الذاتية — هدرتُها وروحك الفتية
فيالها بصيرة في كدر — ويالـه من قِصَر في البصر
لا تعبد الأرض فإنها لكا — كن راهبا إن شئت أو كن ملكا

السابق، ص447.

(2) تهب الذات لهيبًا آخر — وبريقا ثانيا من مُقلتك
أنا حطمت بهذين الجيوش — لِمَ لا تخلفني في أمتك؟

السابق، ص540.

(3) فتمثل نضال أسلافك الأمجاد نحو العُلي بغير توانـي
وتدبر كيف استهانوا ببذل الروح والمال في رضا الرحمن

(4) قال: يا أستاذ! أين البعث من ضعف يقيني
وأنا أجهل ما أجهل من أسرار ديني
قال: ما أنت وهذا — ابعث النفس بذاتك
ثم سل نفسك ماذا — إنها درب حياتك

السابق، ص526.

(5) قال الرشيد لابنه يوصيه: ها أنذا احتضرت
ستمر بعدي أنت من هذا الطريق كما مررت
ابنيّ إن الموت نور في عيون المؤمنين
والنور هذا لا تشاهده عيون الكافرين

السابق، ص448 ـ 449.

وتتحقق الذاتية في البطولة، والبطولة في الشهادة. وإن تعود الصدر على جرح الصدر فإن الذات تعيش كالصقر أو تموت كالصقر. والدين والعرف يقضيان أن تكون الذات كالليث وليس كالشاة[1]. ويموت العبد خوفاً من الحياة التي وضعها كلها في إطار الحرام. للمسلم جناح يطير به وألحان يشعل بها السعير، ولكنه لا يخشى الموت[2].

والخلود الشخصي ليس حالة بل عملية. وقد انتهى كل النقاش حول النفس والبدن إلى طريق مسدود. وكانت له عواقب وخيمة. وقامت مذاهب فلسفية عديدة على هذا التمييز الخاطئ. فالإنسان طاقة أو قوة أو علاقات قوى تخضع لنظم معينة. والشخصية أحد هذه العلاقات بصرف النظر عن كونها مقصودة أو مصادفة. هي واقعة ضمن وقائع طبيعية أخرى، باقية أم غير باقية. ويبدو أنها مستمرة وفعالة كشخصية إنسانية ناجحة. هي أشبه بدائرة تتقاطع فيها خطوط أخرى تضمن استمرار هذه الدائرة بتحويلها إلى طاقة، وتجنب ما يقضي عليها مثل: التواضع، الرضا، الطاعة العمياء، وأنماط سلوك أخرى تسمي الفضائل. في حين أن الطموح الكبير والكرم والإحسان والاعتزاز بالتراث والقوة تحافظ على الشخصية. والشخصية هي الخير الأقصى. وهي معيار السلوك. وهو الذي يحافظ على الشخصية. وللحفاظ عليها تصارع ضد الموت الذي يقضي عليها كلية. الخلود الشخصي إذن بين أيدينا. هو جهد للحفاظ على الشخصية. ولذلك نتائج خطيرة إذا ما تمت مقارنة الإسلام بالبوذية والمسيحية[3].

---

(1) وإن عودتَ جرح السهم صدرا — فلتعش صقرا وكن في الموت صقرا
دينـنا والعـرق في تلك الحياة — برهة كالليث لا عاما كشاة
ويموت العبد خوفا من حِمام — لم يكن عيش له غير الحرام

(2) وتمنحني جناحا كي أطيرا — وألحاني خفقت بها سعيرا
فهل من مسلم يخشاه موت؟ — أطلت، وما وجدت، أنا المسيرا
أرمغان حجاز، ص444.

(3) St. Ref., pp. 17 - 9.

الفصل الثاني

الذات المشتركة (الأمة)

1 ـ انبثاق العالم من الذاتية

ينبثق العالم من الذاتية، ويرتبط بنسقها. فالعالم ينشأ في الذات حين الشعور به. العالم الأكبر انبثاق من العالم الأصغر، ولا يتطابق معه فقط كما هو الحال عند إخوان الصفا. كل ما في الكون، وكل ما تبصر من آثارها. إذا استيقظت تجلي عالم الأفكار. اختفت الأكوان فيها. وهي شرط وجودها. تثبت الأكوان بثبوت الذات. الأضداد منها لقوتها على السيطرة عليها. تُبلي الذات في قوتها لتعرف قدرتها. إذا أسرفت أو قست فإنها تبني جمال الخلقة. فلا ولادة بلا مخاض[1].

هي الفاعل والعلة والمؤثر. تثور وتكمن، تقوم وتحجم، تظهر وتختفي. عمرها التاريخ كله. وميدانها الأرض والسماء. تعمل بيد في الأرض، والأخرى في عنان السماء. العقل من شعلتها. إذا ضاقت الأرض فبضيقها. وإذا انتشرت الصحراء فبانتشارها[2]. شيمتها التجلي والانطلاق. وإذا صمتت فلجهر قريب كالأسد قبل أن

(1) الأسرار والرموز ص 13 ـ 16، المقدمة ص 47.

(2)
هيكل الأكوان من آثارها ... كل ما تبصر من أسرارها
ألف كون مختف في ذاتها ... غيرها يثبت من إثباتها
خلقت أصفادها من نفسها ... لترى لذتها في بأسها
تبتلي في نفسها قوتها ... لترى من نفسها قوتها
عذرها في شرف أو قسوة ... أنها تبغي جمال الخلقة
همها الأعمال فهي الفاعل ... وهي العلة وهي القابل
ثورة فيها وإجفال ونور ... واحتراق واختفاء وظهور =

يقفز، خطوة إلى الوراء. أفعالها قطرات تتراكم في محيط. وكل ما قاله الصوفية في الحقيقة المحمدية هو في الحقيقة للذات الإنسانية قبل تشخيصها وتمجيدها وتكليسها في نموذج خارج الزمان والمكان(1).

فإذا ما جمعت الذات أسر الحياة، واستطاعت السيطرة عليها فمن غديرها تمتلأ البحار. فالذات البداية، والعالم النهاية(2).

الذاتية جوهر الكون، وأساس نظامه، وسر الحياة فيه(3). الذات كاليراعة تضيء الوجود، وكدودة القز تنسج حولها الحرير كالشرنقة، كرة مضيئة أو ملتهبة، قمر مضيء في الليل البهيم. تعبر عن نفسها من بين الضلوع(4). الذات قطرة منها تموج البحار(5).

الذات بها كل شئ في الطبيعة. وما يقوله الصوفية عن الحقيقة المحمدية خاصة عممه إقبال على الذات. هي أيضاً فرد. الشمس في حجرها. والنجوم في صدرها. وروح الذات تسري فيها. الذات في دار فقير وفي قصر ملك في آن واحد، فقر الدنيا وملك الآخرة. هي داء ودواء. هي أعمال الأبطال مثل جنكيز وتيمور. وهي ثورة الغرب لوضع أسس حضارة جديدة. الدنيا من نقوشها

= سعة الأيام ميدان لها — والسماء النقع يعلو سيلها
يدها في الطين للكون ازدهار — نومها الليل، وفي الصحو النهار
تخلق الأجزاء إما تنقطر — تنشئ الصحراء إما تنتشر

السابق، ص13 ـ 14. الذاتية جوهر الكون وأساس نظامه وسر الحياة فيه، ضرب الكليم، المدخل ص ح.

(1) شيمة الذات التجلي لا الخفاء — وهي في الذرات بأس وضياء
قوة صامتة خلف عمل — عمل اليوم لآتيها علل
قوة الذات من الكون النواء — فعلى قدر القوى قدر الحياة
كِلْمة الذات تعيها قطرة — فإذا القطرة يوما درة

السابق، ص15.

(2) إن ذاتا جمعت أسر الحياة
من غدير أزخرت بحر الحياة

السابق، ص16.

(3) قرب الكلمة المدخل ص ح.

(4) A Message from the East, pp. 68 - 9.

(5) Ibid., pp. 72 - 4.

وابتكارها. هي لفح النيران وروض الرضوان. آلاف الأكوان فيها. هي ثوب الإنسان وسر الرحمن[1]. التقدير والتدبير من سحر فنونها. هي الصحراء التي يهيم فيها قيس متيماً في حب ليلى. هي السر في أسرار الناس. هي الحادي في النزل والحقل حين الحصاد. هي نار في المحافل عندما تشدو الألحان. الذات من طين ولكن يغفل الناس عما وراء الطين. يظنها الناس كأساً وهي بحر دون ساحل. يظنونها موجاً وهي الطوفان[2].

العالم حبة فيها[3]. عالم الماء بين التراب والهواء تجل للذات. والليل

(1) قـد أحـاط الـشـمـس حـجـري — وحـــوى الأنـــجـــم صـــدري
أنــــا لا شــــيء ولــــكــــن — فــيــكــم روحــي تــســري
أنــــا فــــي در وفــــقــــر — أنــا فــي كــوخ وقــصــر
أنــــــــــــــا داء ودواء — وأنــا عــيــشــة يُــســر
أنــا ســيــف الــدوران — أنــا عــيــن الــحــيــوان
إن جــنــكــيــز وتــيــمــور — قــلــيــل مــن غــبــاري
ثــورة الإفــرنــج فــيــهــا — نــفــثــات مــن شــراري
إنــمــا الإنــســان والــدنــيــا — نــقــوشــي وابــتــكــاري
ودمـــاء مـــن قـــلـــوب — فــي ربــيــعــي كــالــبــهــار
أنــا لــفــح الــنــيــران — أنــا روض الــرضــوان
أنــا ســيــار مــقــيــم — إن هــذا الأمــر أمــر
إن فــي خــمــرة يــومــي — مــن غــد يــظــهــر يــســر
ألــف كــون، فــانــظــرنــهــا — فــي ضــمــيــر تــســتــتــر
ونــجــوم فــي حــبــاك — وقــبــاب فــي خُــضــر
أنــا ثــوب الإنــســان — أنــا ســر الــرحــمــن

رسالة الشرق ص278.

(2) ســر الــتــقــديــر والــتــد — بــيــر مــن ســحــر فــنــونــك
أنــت مــجــنــون لــيــلــى — أنــا صــحــراء جــنــونــك
أنــا كــالــروح بــرّي — مــن خــيــالات ظــنــونــك
أنــت فــي جــوفــي ســر — وأنــا ســر شــؤونــك
أنــا حــاد، أنــت نــزل — أنــا حــقــل، أنــت حــاصــل
أنــت فــيــاض بــلــحــن — أنــت نــار فــي الــمــحــافــل
يــا أســيــر الــطــيــن فــكّــر — أنــت عــن قــلــبــك غــافــل
انــظــرنّــه مــلأ كــأس — وهــو بــحــر دون ســاحــل
إن مــوجــا فــيــك يــعــلــو — مــنــه يــبــدو طــوفــانــي

السابق ص279.

(3) وأنــشــر حــبــة فــي الأرض ذاتــي — لــه قــد صُــنــت لا لــســواه ذاتــي

السابق ص40.

والنهار هي التي تعطيهما. والدهر والتاريخ من تحققاتها. والمسؤولية والواجب من عبء الذات. الذات ليست مجرد غبار بل هي التي تروي حقل الكون(1).

الذات تأمر العالم فهو جزء منها. لا يند عنها. وبمزيد من الوعي تدرك الذات أن العالم يصدر عنها. تعرف الذات طريقها. ولا تربط نفسها بمن يتجلى منها. تلهث من سرعة ما تبصر حولها(2). ظاهر العالم سحر، ولكن الذات ثابتة بعصى موسى. أسد الله الذي يقتنص العالم هو الذات. وإذا كان جوهر الكون قديماً فالفكر هو الكشف الجديد. وإذا كان العالم من الذات فإن الذات مسؤولة عن العالم كمسؤولية الأم عن طفلها. فالذات تترقب نظرة العالم إليها. تعقد العزم عليها. ويضع رجاءه فيها. وبعد الكشف عن الذات، تدعى للسجود تقديراً لعظمتها. قدرها في العالم لا يحتاج إلى شرح. عليها فقط فتح صدرها. تفهم معاني الوجود. زفرتها تخمد النار فيها وهي بين السيوف. ويتوقف القول ويخشى. ومن كثرة القول ألهبت الجوانح. ولو زاد لأحرقها النور(3).

---

(1) ألا يا عالما في الماء بين الترب والأهواء
ظاهر ذلك السر أنا أبديه أم أنت؟
وهذا الليل في حزن وصرخته وحيرته
ولحن مؤذن الفجر أنا أعطيه أم أنت؟
نشاط الدهر يطلبه أنا أم أنت يثقله؟
ويحمل عبئه يجري أنا أغريه أم أنت؟
غبار غني يا أعمى ولكني أعمي ذاتي
فحقل الكون لا أدري أنا أسقيه أم أنت؟

جناح جبريل ص427.

(2) عبدُك العالمُ فأمر فهو لا يهرب منك
غيّر الموقف وانظر إنه يصدر عنك
أمض لا تركن لشيء وانضُ عن كونك هوله
لهفة الراكن من سرعة ما يبصر حوله
ظاهر العالم سحر وعصا موسى ثباتك
أسد الله الذي يقتنص العالم ذاتك
جوهر الكون قديم فكرك الكشف الجديد
أين كف تنظم الجوهر في سلك فريد؟

السابق ص 518 ـ 519.

(3) أيها المسلم فارقب نظرة الدنيا إليك
في ملاء من رجاء يعقد العزم عليك
=

العالم مخلوق من أجل الذات بعد خلق الذات أولا. فالعالم خلق للنظر. والدنيا خلقت للنفس[1]. وتعتمد الذات على الذوق. وكل ما فيها واردات لها[2]. والبحث لا يكون في الخواء بل بالدخول في العالم. ويأخذ من الذات القوة ليكمل ضعفه. والذات تدفع نحو قصدها ويتقرب إليها. ويؤدي استحكام الذات إلى فتح آفاق الدنيا[3]. الذات تعلّم وتعين مثل جبريل الأمين. وهي النار التي تضرم الباطل وتحطمه[4]. والعود إلى الذات شعار إقبال وعلي شريعتي للتخلص من هدير الموج والاجتماع بقاع الضمير[5]. فالحقيقة، رياضية أو طبيعية، في الداخل وليست في

= إن للآماد شغلا   حول أقطار الوجود
عندما تكشف عن ذاتك   تدعى للسجود
لست فيما قلته أشرح للعالم قدرك
فأنا حاولت حتى الآن أن تفتح صدرك
مزّق الكلمة ضيف   عن معاني نقتفيها
نحن مرآة معان   كدر الكلمة فيها
زفرتي تضرم صدري   وأنا بين السيوف
غير أن القول من خشيته يرجو الوقوف
أنا من كثرة ما حلّقت ألهبت النواحي
فلو اجتزت قليلا   أحرق النور جناحي

السابق، ص519.

(1) لك عين، نظر فيها خلقت   لك نفس ولها دنيا خلقت

زبور العجم، ص373.

آلام آدم شمس كل حقيقة   والشمس تشهد لي بصدق مقالي
هذا الوجود بصمته وحماسه   لك يا ابن آدم يا كبير الآل

السابق، ص509.

(2) وذوق الذات شهد في لهاتي   وهذا كله من وارداتي

السابق، ص375.

(3) وهذا البحث في القفر أحذرنّه   عليك بعالم فيك أدخلنه
ضعيف، خذ من الذات قوى   تريد الله؟ قرّبها لذاكا
بغزو الذات إن يوما ظفرتا   لك الآفاق في ملك وجدنا

السابق، ص377.

(4) تعينك، أنت تلك الذات فاعرف   كجبريل الأمين إذاً فرفرف
وتلك الذات في دنياك أضرم   بغزوك ما ترى أو غاب حُطم

السابق ص380 ـ 381.

(5) لذاتك عد، تخلص من هدير   ونفسك ألق في قاع الضمير =

الخارج. والمعرفة، الرياضية أو الطبيعية، تأتي بالتأمل في الذات، وقلب النظرة من الخارج إلى الداخل، ومن الموضوعي إلى الذاتي، ومن المجرد إلى المعيش، ومن العقلي إلى القلبي[1]. الذات محلها القلب[2].

وعيد الشكر هو شكر الله على أن الإنسان ولد في هذا العالم في الفجر المزهر وفي الغروب. الشفق والغابات السوداء التي تمر فيها الليالي في سلام أبدي. فالعالم صورة، والذات شاعر يعبر عنها[3]. لقد خلق الله الأشياء، وأعطاها الإنسان قيمتها. ويتوقف خلود شعب على خلقه المستمر للقيم كما لاحظ نيتشه. تحمل الأشياء حتماً طابع الصناعة الإلهية ولكن الإنسان هو الذي يعطيها معناها[4].

إن حَيَتْ الذات يصبح الفقير ملكاً لا يعادله ملك من الملوك الأقدمين طغرل أو سنجر. وتصبح البحار بالنسبة لها ضحلة الأعماق. وتضحي الوحوش، وإن ماتت تقيد أمواج السراب[5]. وما أضيع الإنسان إن أضاع ذاته! ولم يستطع السيطرة على العالم، عالم الطبيعة والألوان. ومقام القبة الزرقاء أي السماء ليس له حدود. ومقام الذات مثلها في العلوم. وإذا لم تستطع الطبيعة أن تؤكد وسعها فإن الذات تقدر على صنعه[6].

= دع الأعداد واطرحها، لتهمل — وبعض الوقت في ذات تأمل
ولكن حكمة أخرى تعلم — وذاتك نح عن يوم لتسلم
السابق ص383 ـ 384.

(1) دع الأعداد واطرحها، لتهمل — وبعض الوقت في ذات تأمل
زبور العجم ص383.

(2) شغاف القلب فاضغط فيه ذاتا — وكوكبها سراج للمساء
السابق ص399.

(3) St. Ref., p. 136.

(4) Ibid., p. 88.

(5) إن الذاتُ فالفقير مملك — ترى طغرلا أو سنجرا لا يشاكل
إن الذات حيّت فالبحار ضحاضح — إن الذاتُ حيّت فالحزون مخامل
ترى في الحياة وحش قاهر لجه — وفي موته موج السراب سلاسل
ضرب الكليم ص53.

(6) الحق أنك قد أضعت الذات فاطلب ما أضعتا
وعلى العطور وعالم الألوان سيطر ما استطعتا
وانظر مقام القبة الزرقاء ليس له حدود =

2 ـ إثبات الذات سابق على إثبات الآخر

ينبثق الآخر من الذات تلقائيا. ولا يحتاج إلى إثبات. فالآخر داخل الذات ومضمونها. وبلغة الظاهريات كل شعور هو شعور بشيئ. ولا توجد ذات بلا موضوع، ولا يوجد موضوع إلا في ذات. وكما قال الصوفية، التركيز على الذات يخلق موضوعها. فقبل أن تجول الذات في سر الأفلاك تجول في ذاتها. تكتشف الأفلاك داخلها[1]. ليس السؤال إذن من أين جاءت الذات بل من أين جاء العالم. الذات موجودة لا تحتاج إلى إثبات. في حين أن وجود غير الذات هو موضوع السؤال[2]. الذات جثمان وروح. لا تنزعج إذا ما أتاها الأجل. فإن غاب كون عنها فإن ألف كون فيها[3].

الذات قصد أي انطلاق نحو الخارج. الذات حياة، والحياة قصد. قصد الذات وقصد الحياة قصد واحد. الأول قصد فردي، والثاني قصد جماعي. وتحقيق القصد الفردي تحقيق جزئي للقصد الجماعي. تحقيق القصد الفردي كالسيف. يخرج من غمده. ثم يضيع الغمد في وسط المعارك. ويبقى القصد كالسيف المشهور فيخرجه الكسول أو الغيور[4]. وهذه المقاصد إمكانيات للتحقق وليست

= واختر مقاما مثله يسمو بذاتك في الوجود
لم يستطع ذوق الطبيعة أن يؤكد وسعه
اصنع بذوقك أنت مالم تستطع هي صنعه

جناح جبريل ص451.

(1) أراك بسر أفلاك تجول — وتجهل سر نفسك يا جهول
فوجّه كالنواة إليك عينا — لينبت من قرارتك النخيل

رسال الشرق ص268.

ألا يا زهر واطلب العزاء — بذاتك فالتزم خل الوفاء

أرمغان حجاز ص498

(2) أتسأل من أنا من أين جيت — حبيتُ بما على نفسي طويت
بهذا البحر مثل الموج سري — إذا لم أطو في نفسي فنيت

رسالة الشرق ص268.

(3) بقلبي سر جثمان وروح — فلا فزع إذ أجلي أتاني
فإما غاب عن عينيّ كون — خاف ألف كون في جناني

السابق ص270.

(4) غُص طويلا فأنت أيضا عميق — وافهم القصد فالحياة قصيرة =

أوهاما[1]. لدى الذات القدرة على اختيار نمط حياتها. وفي كل فجر تبدع كوناً جديداً تعبر عن صرخة الوجود في عالم الذات[2]. وذاكرة الإنسان رديئة عادة باستثناء الإهانات التي يتلقاها من الآخرين[3]. فالقيمة هي الرباط المتبادل بين الأنا والآخر.

الحياة رغبة، والرغبة قصد. الحياة مجموعة من الرغبات والإمكانيات للتحقق. وتعبر الرغبة عن أعماق الذات. الرغبة وجود. ومن ثم، تنطلق الذات في عالم المقاصد والرغبات والمواجد. والوجد ممتد كالنار إلى الآخرين. ويمكن للنار أن تحرق العش. وهو أمر طبيعي. فتعطش الذات من اللهب[4].

وحياة الذات إيجاد للغير. والبعد بينهما مصدر الحركة والنماء. وهي في تجل دائم للتحول من الفرق إلى الجمع، ومن الفراق إلى الوصال. الذات فردية، لا توجد في ذات غيرها. ومع ذلك نتوق إليها ونتواعد معها في النسق. والتوحد كمال. ليست الذات للأرض والسماء بل الأرض والسماء للذات، ثورة كوبرنيقس مشابهة لثورة كانط. ليست الأرض المركز والذات تدور حولها بل الذات هو

= أنا سيف خرجت من غير غمد ضاع في غمرة المعارك غمدي
يجرح الناس منظري من بعيد ويخوضون في مرامي وقصدي
جناح جبريل ص450.

(1) عن قريب تقلب النيات أقدار الخلائق
ليس أوهام غبي إنها جد حقائق
السابق ص451.

(2) قف قليلا فأنت أيضا قدير ولك الحق في اختيار الحياة
كل فجر يطل تبدع كونا صرخة الوجد في عوالم ذاتي
السابق ص458.

(3) St. Ref., p. 76.

(4) أنا لولا موجة الرغبة لم توجد حياتي
فحياتي موجة الرغبة في أعماق ذاتي
كل حين عالمي يضطرني أطلق وجدي
عل إنسانا جديدا يحمل اللوعة بعدي
ممكن للنار أن تحرقه عشك هذا
تسأل الساقي إذا لم تك ظمآنا لماذا
السابق ص450 ـ 451.

المركز والأرض تدور حولها[1]. وهما ليسا موضوعين مستقلين عن الذات بل هما تصوران فيها وموضوعان بها[2].

الذات فرد وأمة، في عزلة وصحبة، في الداخل والخارج، تنزل القصر وتملكه. ومعرفة الناس تسبق معرفة الآخر كما أن وجود الذات يسبق وجود الآخر[3]. الذات المشتركة هي ذات الشعب. والشعب الذي لا يبقي على ذاته يهوي إلى القاع[4]. وحياة الشعب من حياة الجندي، ذاته من ذاته. إلا أنه غفل عن قلبه. وفصل بين قلبه وجسده[5]. والوطن الذي لا يرى ذاته ينسى رستم وعلي، ويقطع جذوره من التاريخ[6].

3 ـ الفرد والأمة[7]

تنشأ الأمة من اجتماع الأفراد. وإنه من مظاهر الرحمة أن ينتمي الفرد إلى أمة. فيتألق جوهره في الجماعة. وكل شعاع من نور يكون طاقة من ضياء. كل

(1) حياة الذات إيجاد لغير ... وللمعروف بعد كل خير
يدوم له التجلي نور ذات ... وبين الجمع معنى للحياة
وجود الذات في ذات محال ... لتصبح نفسها، هذا كمال
زبور العجم ص384 ـ 387.

(2) لست لهذي الأرض والسماء ... وإنما السماء والأرض لك
ولست موضوعهما وإنما ... هذان جانبان من موضوعك
جناح جبريل ص445.

(3) وأنا من أجل هذا كله ... باعتزال القصر محكوم علي
أنا لا أجهل ما تقصده ... ومصير الكل معلوم لدي
السابق ص444.

(4) نظرت إيران في ذات مليا ... وهوت في قاع أشراك هويا
جاويد نامه ص301.

(5) وطنا رامت وذاتا لا ترى ... وتناست رستما بل حيدرا
السابق ص302.

(6) وحياة الشرق كانت من حياته ... ابنه الجندي أمسي من حُماته!
ذاته من ذاته جهلا سُلب ... ماله من ممكنات ما حُسب
وله قلب وعنه غافل ... للجسوم والقلوب من فراق فاصل
السابق ص304.

(7) رحمة للفرد حجر الأمة ... كامل جوهره في الملة
فالزَمَنّ الجمع جهد المستطاع ... في ذرا الأحرار كن مثل الشعاع

=

منهما يعكس مرآة الآخر. قيمة الفرد في أمته، وقيمة الأمة في أفرادها. ينمو الفرد في الجماعة، وتنمو الجماعة من خلال الأفراد. الفرد ليس فقط هو الحاضر بل يصب فيه الماضي، وينطلق منه المستقبل. وكذلك الأمة تعيش في التاريخ، وتتطور في الزمان، من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل[1]. وتظل الذات مركز الأمة. وتموت الشعوب لبعدها عن المركز. ومركز الذات المعالي[2].

انتماء الفرد إلى الأمة قدرة أعظم على الفعل وعلى الطموح. فتصبح أهدافه أهداف أمته. وتتحد روحه بروح أمته، وبدنه ببدن أمته. قوله وفعله، سره وعلنه من أمته. لغته لغة أمته. صحبته صحبة أمته. يمثل الوحدة، وأمته الكثرة. ولا وحدة دون كثرة، ولا كثرة دون وحدة. لا يمكن فصل الفرد عن الأمة كما لا يفصل اللفظ عن بيت الشعر، ولا الورقة عن غصنها وإلا جف ومات وذرّه الريح. مقاصد الفرد دون أن تتحدد مع مقاصد الأمة تتبدد. فالأمة هي مجموع المقاصد لهمم الأفراد. يلتزم الفرد بالأمة، ولا يفقد حريته. فحرية الفرد في التزام الجماعة[3]. وتتفرد الذات في الأمة كما تتفرد الأزهار في الروضة.

= واحفظن ما قاله خير البشر ... كل شيطان من الجمع فقر
فردُنا مرآته أمته ... وكذا مرآتها صورته
قيمة الأفراد جدوى الملة ... ومن الأفراد نظم الأمة
وإذا الواحد في الجمع نما ... كان كالقطرة صارت خِضرما
جُمع الماضي له في لبه ... والتقى الغابر والآتي به
صلة الأمس تراه والغد ... وقته لا ينتهي كالأبد

(1) الأسرار والرموز ص81 ـ 82، المقدمة ص49.

(2) موت الشعوب بعدها ... عن جذبات المركز
والذات إما رُكزت ... فللمعالي تُركز

ضرب الكليم ص123.

(3) هو بالأمة قلب طامح ... وهو بالأمة سعي رابح
روحه من قومه، والبدن ... سره من قومه والعلن
بلسان القوم يشدو منطقا ... ومن الأسلاف يقفو طرقا
تُنضجُ الفطرة فيه الصحبةُ ... فتراه الفرد وهو الأمة
تُحكمُ الوحدة فيه الكثرة ... وهي، بالوحدة فيه، وحدة
أفرد اللفظ من البيت ترى ... جوهر المعنى لديه انكسرا
تسقُط الأوراق من غصن ينيع ... فترى محرومة وصل الربيع
يُحرم الفرد الوحيد المقصدا ... فترى نظم قواه بددا
تجمع الأمة شمل المنة ... فيه تحبوه عظيم الهمة =

وتعود الحياة إلى العضو الحي المائت. ففي العضو الحي الاجتماعي المريض توجد بعض القوى للحفاظ على صحته مثل ظهور شخصية عظيمة تحييه بإبداع مثل أعلى جديد[1].

إن إثبات الذات لا يُعرف من نفي الذات بل نفي الذات يُعرف بعد إثبات الذات. فقانون الهوية يسبق قانون الاختلاف كما هو الحال في نظرية العلم عند فشته. فيقين إثبات الذات لا يثبت من شك نفي الذات. بالذات نور يساعد على الإبصار. الذات كفاح وحياة[2].

وتتأكد ذاتية المؤمن في أمته. يدرك المعالي وهو يسعى إليها. ويهدي سراجه في الليل البهيم[3]. والذات القوية عضو في جماعة دون أن تفنى فيها[4]. والرجل العظيم مع الناس، ولكن لا يفقد فرديته مثل شمع الحفل ينير الجمع، ومع ذلك له فرديته[5].

وتنشأ الملة من اختلاط الأفراد. وهو تكرار لنفس المعنى، الفرد للأمة، والأمة للفرد. الفرد من الأمة، والأمة من الفرد. الفرد بالأمة، والأمة بالفرد. الفرد زهرة في بستان. وحيدة تزدهر وسط الروضة. ومع ذلك، يألف الفرد فرداً آخر في

= نشأت بالقيد حرا مطلقا — أثبتت في الأرض سروا بسقا
تتشظى الذات في أمتها — لترى الروضة من زهرتها
الأسرار والرموز ص82.

(1) St. Ref., p. 97.

(2) أنت لم تعرف «خودي» من بيخودي» — أنت لا ريب من الشك رَدِي
الكفاح دائم تنزو قواه — هو يسمي «الذات» أو يسمي الحياة
السابق ص83.

(3) وترى المؤمن في أمته — ينشد الحق بذاتيته
نحو إدراك المعالي ساعيا — وسراجا في الليالي هاديا
يا أمم الشرق ص361.

(4) يا من في القافلة سر رفيقا وكن وحيدا
ضرب الكليم، المدخل ص ي.

(5) هو في المجمع خال — ومن الحشد طليق
مثل شمع الحفل في الحفل وحيد ورفيق
السابق ص ي.

معركة جماعية. ينجذب كل منهما للآخر كما تنجذب الكواكب[1]. وحياة الأمة أن تشعر بنفسها كالأفراد، وأن تولد الشعور بالأمة وتكمله من الاحتفاظ بسننها ورواياتها[2]. الأمة كالفرد، يولد وينمو. ولا يعرف من العالم سوى أمه التي يرتبط وجوده بها. فهي مصدره في الضحك والبكاء، في الجوع والعطش، في النوم واليقظة. هي مصدر العلم والمعرفة. هي وجوده وتاريخه، ماضيه وحاضره ومستقبله. الأمة تاريخها، ماضيها وحاضرها ومستقبلها. والتاريخ تدوين، ذاكرة تُحفظ. وأمة تنسى تاريخها يمحو الدهر آياتها. تاريخ الفرد وتاريخ الأمة شئ واحد. والوعي التاريخي يتجلى عند الفرد وفي الأمة. الفرد سفر تكتبه السيرة. وحفظ التاريخ هو حفظ للأمة. فتاريخ الأمة ليس قصة أو أسطورة، لهواً أو سمراً. هو العصب في جسم الأمة، والشعلة في روحها. حياة الأفراد وحياة الجماعات وحياة الأمم ينتظمها قانون واحد هو قانون الحياة، النهضة والسقوط، القيام والقعود، الحياة والموت، إثبات الذات ونفي الذات[3].

---

(1) إننا نبصر فردا في الجميع — زهرة نقطف في هذا الربيع
فطرة تنهج نهج الوحدة — إنما تزهر وسط الروضة
كل فرد بأخيه ائتلفا — مثل در في سموط أُلِّفا
لفّهم في عيشهم معترك — كل فرد بأخيه ممسك
من جذاب تتوالى الأنجم — كوكب من كوكب مستحكم
الأسرار والرموز ص84.

(2) ما سوى الأمم يرى منه الجفاء — همه أكل ونوم وبكاء
ومن الذكرى ينمي نفسه — غده يربط فيه أمسه
مثل الأمة حين النشأة — مثل الطفل ضعيف المنة
أسطرا، تمحو، وأخرى تسطر — صفحات بيديها تزبر
أمة قد نسيت سيرتها — ينسخ الدهر غدا آيتها
أنت سفر كتبته السيرة — خيطه أيامُك الموصولة
ثوبنا أيامنا في الزمن — وخياط الثوب حفظ السنن
ما ترى يا غر تاريخ البشر؟ — قصة، أسطورة، لهو سمر؟
صاح! من ماضيك يبدو حالكا — ومن الحال بدا استقبالكا
إن تُرد خلد حياة فِصل — ما مضى بالحال والمستقبل
السابق ص132 ـ 135، المقدمة ص51.

(3) وبكيت الناس جنح الظُلَم — فبدا سر حياة الأمم
السابق ص11.

4 ـ تربية الأمة بالنبوة

بعد تكوين الأمة يظهر فيها نبي. اهتدى قلبه. وكتب الأسفار بحروف يسيرة. وعزف الألحان في كل نفس ميتة فأحياها[1]. طاقة الذرات من نوره. يعطي جديد النظر. ويستعمل قلب الأمة. ويحرر الناس من الأغلال، والقن من الأقيال. ويوجه الإنسان نحو مقاصده، مسلحاً إياه بالشرع. يوحي إليه بالتوحيد. ويتطلب طاعة الناس له. وهو تصور تقليدي للنبوة. تقلب الناس من الظلمات إلى النور. تهدي الضال، وتنير الظلام كما هو الحال في الخطابة المدرسية والبرامج الإعلامية. ويقترب أحياناً من «الحقيقة المحمدية» عند الصوفية، محمد الخالد الذي منه انبثق الكون. وهو ما يقال أيضاً في المسيح القديم[2]. النبي هو مجرد شاعر عملي[3].

ليست القضية لإثبات النبوة المعجزات، إثباتها أو نفيها. إذ يمكن تفسير الأدلة بطرق عدة. إنما القضية هي إذا كان الإيمان بالمعجزات مقيداً للجماعة. وهي كذلك. إذ إن مثل هذا الاعتقاد يقوي الإحساس بالخارق للعادة الذي يقوى من التضامن الاجتماعي لدى بعض الجماعات خاصة أصحاب الهويات الفعلية وليست الجغرافية مثل الإسلام. ومن وجهة نظر التطور الاجتماعي، يبدو الإيمان بالمعجزات ضروريا[4].

ولكي يصبح الإنسان قائداً عاماً عليه أن يعرف كيفية التعامل مع الجمهور

---

(1)
ثم يهدي الله ذا قلب بصير يكتب الأسفار من حرف يسير
عازف في كل نفس ينفث وحياة في موات يبعث
تقبس الذرة من أنواره كل قدر حال في معياره
يهب الناس جديد النظر يجعل البيد كروض نضر
فترى الأمة منه سائره بلهيب منه حرّى ثائره
شررا في قلبها قد أشعلا فأحال الطين فيها شُعلا
ويفك العبد من أغلاله ويجير القن من أقياله
قائلا أن لست عبدا فاعلم أترى قدرك دون الصنم
يجذب الإنسان شطر المقصد جاعل الشرع زماما في اليد
نكتة التوحيد يوحيها إليه أدب الطاعة يمليه عليه

(2) السابق ص85 ـ 86.

(3) St. Ref., p. 124.

(4) Ibid., pp. 118 - 9.

الملعون، التعامل معه بسذاجة أحياناً وحين الضرورة بأكاذيب[1].

وتأتي الناس الداعية لينالوا الخلود. والخلود يمر عن طريق السيطرة على العالم والملك فيه[2]. إذا قويت الذات، مقصد الحياة، واستحكمت لم تمت، ونالت الخلود. فالذات كالفطرة في صدف الحياة. تتحول إلى درة أو لؤلؤة فتخلد[3]. والقلب الحي لا يموت قبل الموت بل بعده. حياة الذات مستمرة إلى الأبد. والموت يسري على الجسم، وليس على الذات[4].

5 ـ أركان الأمة: التوحيد والرسالة

أ ـ التوحيد: التوحيد يبثه العقل بعد أن يطوف بأرجاء العالم[5]. وهو قادر على خلق الفرد من جديد، وتحويله من حال إلى حال. يجعله باحثاً عن الحق،

---

(1) Ibid., p. 112.

(2)
أقبلن إن تبغ عيش الخالدين
أقبلن إن تبغ ملك العالمين

السابق ص8.

(3)
صدَف لنا هذه الحياة وذاتنا ... كالقطر من نيسان في الصدفات
ما قيمة الصدف الذي لا يستطيع ... يحيل قطرات إلى درات
إن صانت الذات المتينة نفسها ... أعيت على الأيام كل ممات

ضرب الكليم ص20.

(4)
في اللحد أيضا يبقي ... الغياب والحضور
إن يك قلب حيا ... فالقلب لا صبور
هذي النجوم تمضي ... كشرر يطير
والذات فيها راح ... في أبد سرور
إن مس جسما موت ... واحتجب الظهور
فالوجود قطب ... منه العسير

السابق ص45.

(5)
طوّف العقل بدنيا العلل ... قاده التوحيد شطر المنزل
يجتبي التوحيد عبدا ثابرا ... فيرد العبد خلقا آخرا
ريبه يفنى ويحيا العمل ... عينه في الكون يقظى تعمل
وحدة القلب قرب وابتعاد ... وهذه الكأس بها هاج الفؤاد
قد هدى الأمة سبل العمل ... هذه الفكر بها والأمل
نزعة واحدة في قلبها ... فعيار الحسن والقبح بها
لا يجيد الفكر في قيثاره ... دون نار الحق في أوتاره
وُحِّدَ الرأي لنا والفكرة ... كسهام جمعتها جعبة

=

ويدفعه إلى العمل. ينعكس في وحدة الفرد وطاقته، قوله وعمله، فكره ووجدانه، وفي وحدة الأمة. وبوحدة الأفكار تحيا الأمة. وهي وحدة الإلهام. وبدونها لا يتحقق[1].

التوحيد قوة في الحياة على الأرض قبل أن يتحول إلى علم مثل علم الكلام. لم يعد ينعكس في أفعال الناس ظناً أنه مجرد عقائد. التوحيد كالسيف في غمده. التوحيد النظري دون التوحيد العملي مجرد لغو. والإمامة ليست في المسجد بل في العالم. ليست في الداخل بل في الخارج. ليست للمصلين بل للعالمين[2]. وإن علم الكلام إن لم يصلح للدين فلا نفع منه. والتوحيد الذي لا يحفظ الذات مجرد قول[3]. والقول إن لم يتجل منه الكون، فالكلمة هي العالم، مجرد لغو.

لا تُحفظ الوحدة إلا بالقوة وليس بالعقل[4]. والقوة بلا دين قوة غاشمة، عدوان مطلق. تنتهي كما تبدأ مثل قوة الإسكندر الأكبر وجنكيز خان. والدين بلا قوة عجز وكلام وخنوع مثل حياة الرهبنة والعزلة عن العالم. وأفضل قوة ما قامت على الدين. وأكمل دين ما اعتمد على القوة. أقصى ما تستطيع القوة من إبداع هو الفن والعلم. وهي سم بغير دين. والدين دواء لكل سم زعاف[5].

= نحن فكر وخيال واحد ... ورجال ومآل واحد
نحن من نعمائه حلف إخاء ... قلبنا والروح واللفظ سواء

الأسرار والرموز ص87 ـ 89، المقدمة ص49.

(1) بوحدة الأفكار تحيا أمة ... ودونها الإلهام يُلْفَى ملحدا

ضرب الكليم ص22.

(2) قوة كان في الحياة على الأرض ... فصار التوحيد علم الكلام
رده في الفعال غير مضيء ... جهلنا اليوم ما لنا من مقام
قائد الجيش! قد رأيت غمودا ... من «هو الله» ما بها من حسام
ما درى الشيخ أن توحيد فكر ... دون فعل، يعد لغو كلام
يا إماما لركعة كيف تدري ... في الورى ما إمامة الأقوام؟

السابق ص15.

(3) إن علم اللاهوت في ملكوت ... ليس للدين آسيا ـ ليس شيئا
كلماتي خوافق وسنا الإصباح ... لم يبد خافقا ـ ليس شيئا

السابق ص22.

(4) لا تُحفظ الوحدة إلا بالقُوى ... لم يُفلح العقلُ هنا ولا اهتدى

السابق ص22.

(5) كما أصاب الإنسان في هذه الأر ... ض من اسكندر ومن جنكيز =

وقوة الدين في اليقين بالنصر القريب. والقوة مسعى إلى الآجلة وليس في العاجلة التي تقطع عمداً المسار الطويل. ولا يستطيع الشيطان ولا اللص إيقافه لأن المال يضيع في حين يبقى الدين منيراً للطريق[1]. ويقوي الدين حدة البصر. ويقضي على قصر النظر. ويوضح ما يعرض للزمن من مشكلات[2].

والاعتقاد قوة كبيرة. وعندما يؤمن آخر بنفس القضية يكون لها يقين أكثر[3]. وهي التجربة المشتركة في الظاهريات. في المسيحية الله محبة. وفي الإسلام الله قوة. فكيف الاختيار؟ هل يساعد تاريخ الإنسانية وتاريخ العالم في الاختيار؟ الواقع أن الله يكشف عن نفسه في التاريخ كقوة وليس كمحبة. وهذا لا يعني إنكار محبة الله[4]. الله قوة. والقوة الإلهية أكثر من الحقيقة. فليكن الإنسان إذن مثل أبيه الذي في السموات[5]. القوة لها أثر. تلمس الخطأ فتحوله إلى حقيقة[6]. لذلك إذا سأل أحد الأصدقاء: هل تؤمن بالله؟ فمن حق المجيب أن يسأل عن معني ألفاظ السؤال: الإيمان، الله. والحقيقة أنه من الصعب تحديد معنييهما عند المسؤول وعند السائل على حد سواء لأن الله ليس مفهوماً نظرياً بل هو عملية تحقق[7].

= ويقول التاريخ في كل عصر ... خطر فُرْط قوة لعزيز
هي سيل غثاؤه الفن والعلم ... وما أثل الورى من كنوز
وهي سم بغير دين. وبالدين ... دواء لكل سم نجيز
السابق ص18.

(1) قوة الدين في النصر القريب ... فكأن القوم في شك مريب
أين مسعاهم وهم في العاجلة ... قطعوا عمدا طريق القافلة
ليس للشيطان فينا مأرب ... لا ولا للص منا مطلب
فتراث الدين قد طار شعاعا ... وتراث المال قد ولى ضياعا
يا أمم الشرق، ص361.

(2) كنتُ في الدين حديد البصر ... رغم ما بي من قصور النظر
وانجلت واحدة بين مئات ... بعد لأي من ألوف المشكلات
السابق، ص362.

(3) St. Ref., p. 9.

(4) Ibid., p. 10.

(5) Ibid., p. 90.

(6) Ibid., p. 92.

(7) Ibid., p. 5.

وشعار التوحيد «لا إله إلا الله». وهو معنى حال في الذات، وسبب سرورها[1]. وسيف الذات قاطع بشحذ «لا إله إلا الله». وهما فعلان نفي «لا إله»، وإثبات «إلا الله»، هدم وبناء، محو وإثبات، موت وحياة[2]. «لا» ضد الكفر. و«إلا» للإيمان. التوحيد هو الذي يعيد حياة الأمس انطلاقاً إلى الغد. هو نور سيناء ونارها الذي تجلى الله من خلالها إلى الجبل. فإذا كان الله وراء حجاب فإن صوت منطق العقل جهير، والرسول في ظهور[3]. «لا» و«إلا» في الشهادة. الأولى للنفي، والثانية للإثبات. هما حالان من أحوال الشعور، وليسا مجرد تمتمة بالشفتين. فالقلوب تدرك هداها بالأحوال والأقوال. «لا» فعل تطهير، يهدد الجور بالزوال. وبعد نفي الظلم يشرق حال «إلا» في الصباح. «لا» و«إلا» حالان يفتحان باب الحياة لتدخل الذات في عالم الوجد والكائنات. يكشفان عن المهانة والضيم، وما يحدث في العالم من ظلم وعدوان. عندما يقوى الرجاء مع اليقين تستطيع الذات أن تقول ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 117]. يدفع النفي إلى التحرك، والإثبات ينتهي إلى سكون[4].

---

(1) مُستَسِرٌّ في الذات معني بعيد ... سره لا إله إلا الله
سيف الذات قاطع غير ناب ... شحذه لا إله إلا الله

(2) لو لم تسر في الظلام الترب نابتة ... ما نشّرت في فضاء النور أغصانا
تقضي الحياة بـ«لا» في البدء نافية ... وفي النهاية «إلا» تكمل الشانا
إن لم تجئ بعدها «إلا» مثبتة ... كانت على الموت «لا» في الدهر عنوانا
إن أمة روحها لم يمض معتزما ... عن «لا» فقد آذنت بالهلك إيذانا

ضرب الكليم، ص43.

(3) هب سيفك «لا» لكافري وأبصر ... «إلا» ي في كيف في الدنى تثور
لابد من دور يعيد أمسي ... في جلوات من غدي يسير
نورك فيه للدنى نصيب ... «سينا» ي كيف فاتها تنوير
أحدّث الرحمن في حجاب ... وفي حماك منطقي جهير
أيا رسول الله! إن ربي ... محجّب وأنت لي ظهور

رسالة الشرق، ص321.

(4) في مقام التوحيد يشدو خيالي ... بصدى الحق من رجال الحال
إنما تدرك القلوب هداها ... بصفاء الأحوال لا الأقوال
حرف «لا» مظهر لسر الجلال ... وهو للجور منذر بالزوال
بعد نفي الظلام والظلم يبدو ... عند «إلا» إشراق صبح الجمال
«لا» و«إلا» فتح لباب الحياة ... واحتساب الوجود والكائنات

وكل من آمن بالله الأحد لا تُذل نفسه يوماً لأحد. ولقد استطاع حتى النمل أن يحمي نفسه من جند سيلمان[1]. كل شعب يرمي إلى الدفاع عن نفسه بنور التوحيد. فلا يحمي البلاد غير حر سيفه «لا إله إلا الله». حرف النفي «لا» بداية السير في طريق الجهاد نحو المصير. وهو أول المقامات نحو العلي القدير. كل شعب يسير إلى العلا بحرارة التوحيد. يبني من ترابه صرح دنياه. ويحيا فيه بخلق جديد. «لا» ثورة ضد الطغاة دفاعاً عن الحياة عند الأحرار، ثورة منها يصنع المجدد وتتجدد الكائنات[2]. ولا يتخلى المسلم عن سيف «لا». ولا يخلو منه غمده. ولا يضعف إيمانه في دنيا المحن بسبب الفتن[3]. ويناشد إقبال شباب المسلمين، وهم شباب الحق، بتحرير الوجدان من كل شئ سوى الله. وهو استحقاق فعل النفي «إلا». وإذا كانت الدنيا اليوم قد أبلاها القديم فهم قادرون على خلق دنيا سواها في الاسم. ماضيهم يجعلهم غيورين على الدين القويم. وحياة النوع هو الموت[4]. ومن نسي الحق ضاع حظه. ولم ينل غير الإبعاد

= بهما تقهر المهانة والضيم / وتمضي الأمور في الحادثات
حين يقوى مع الرجاء اليقين / فجواب الأقدار كن فيكون
يدفع النفي للتحرك والجد / وعند الإثبات يأتي السكون

يا أمم الشرق، ص355.

(1) كل من آمن بالله الأحد / لا يُذل النفس يوما لأحد
إن يكن في صورة النمل خفاء / ليس يرجو من سليمان عطاء

السابق، ص359.

(2) كل شعب يروم عز حماه / فبنور التوحيد لا بسواه
ليس يحمي بلاده غير حر / سيفه «لا إله إلا الله»
حرف «لا» آية لبدء المسير / في طريق الجهاد نحو المصير
إنها أول المنازل طرا / لرجال الله العلي القدير
كل شعب يمضي بخطو سديد / للعلى في حرارة التوحيد
يبتني من ترابه صرح دنياه / ويحيا فيها بخلق جديد
قول «لا» ثورة أمام الطغاة / هو عند الأحرار معنى الحياة
ثورة من نضالها يصنع المجد / ويبدو تجدد الكائنات

السابق، ص355.

(3) آسفا لم يبق عندي سيف «لا» / وأرى غمدك منه قد خلا
آسفا، إني أري دنيا الفتن / زلزلت إيمانه فيها المحن

السابق، ص361.

(4) يا شباب الحق يا ذخر الشعوب / حرروا ممّا سوى الله القلوب
إن دنيا اليوم أبلاها القدم / فاخلقوا دنيا سواهم في الأمم =

والحرمان[1]. الوجود الأسمى هو وجود المؤمن الحر الأبي الوفي في كل آن. وكل ما سواه مظهر حائر وفعل فان. وحين يشهد أنه لا إله إلا الله يذعن الكون كله ويشرق القمران[2].

لو يمس التوحيد فكراً نقياً وضميراً حياً وقلباً أبياً لأحال الخمول والضعف إلى إيمان وعزم. يغزو النجوم والكواكب. صيحة «لا» صرخة يطلقها العبيد لكسر القيود، ولإقامة عصر جديد خال من السيد والمسود. لو سرى التوحيد في الصدور ومشى في الضمير لأقدم الأحرار على الهول الذي يتحدى هول أيام النشور. صوت «لا» رعد ليس شكوى أو لحناً. ولو ضاق الفضاء يوماً على الحر لتخطاه إلى الوجود كله[3]. وما يُبصر حول الفضاء لا يساوي قدره وزن التراب إن لم يصعد إليه الإنسان الحر وفي يده سيف «إلا». لا يحيد عنه، ويحوله إلى أمر نافذ[4].

= أين منكم يا ذوي الماضي الكريم — غيرةُ الأحرار للدين القويم
طال هذا النوم عن صدق حماه — ما أرى الموت سوى هذه الحياة

(1) كل من ضاع حظه من جلال الحق بين الجحود والنسيان
لم ينل طول عمره من جمال الحق غير الإبعاد والحرمان
السابق، ص351.

(2) الوجود الأسمى هو المؤمن الحر الأبي الوفي في كل آن
وبقايا الوجود فيما سواه مظهر حائل وظل فان
حين يدعو أن لا إله سوى الله القدير المهيمن الديان
يذعن الكون والمكان ولا يشرق إلا بفوزه القمران
السابق، ص351.

(3) لو يمس التوحيد فكرا نقيا — وضميرا حيا وقلبا أبيا
لأحال الخمول والضعف إيمانا — وعزما يغزو نجوم الثريا
حرف «لا» صيحة تثير العبيد — ليزولوا ما لم يزيلوا القيودا
ويقيموا في الدهر عصرا مجيدا — لا ترى فيه سيدا ومسودا
لو سرت شعلة الهدى في الصدور — وتمشى وميضها في الضمير
لأقام الأحرار للهول يوما — يتحدى أهوال يوم النشور
صوت «لا» من دوي صوت الرعود — ليس شكوى ناي ولا لحن عود
لو يضيق الفضاء يوما على الحر — تخطى به نطاق الوجود
السابق، ص356.

(4) والذي تبصره حول الفضاء — لا يساوي قدره وزن الهباء
كل حر في يديه سيف «لا» — ثم لا يقبل عنه حولا
فهو للعلياء دوما في صعود — أمره النافذ في كل الوجود
السابق، ص358.

وتتأكد الذات بضياء التوحيد. وتثبت بفعل النفس في شهادة «لا إله». فإذا ما تركت طريق الخليل فإنها تقع في وهم عبادة الأصنام(1). ويوم الفداء يرمي الحر على النجم الهدف. ويناديه الوحي من السماء: أقدم لا تخف. أشرق التوحيد فيه. فسرى التحرير في الضمير. فمن لم يخف إلا الإله لا يرهب السلطان أو يخشى الأسر. تكشف روحه أسرار الخلود عن حياة لا تموت. يرسل التكبير من قلب الوجود، غناء يحيي الروح. ينعم ملوك الأرض في دنيا الغرور، في الملاهي خلف أستار الحرير. ويستطيع العريان الفقير بضربة من سهم أن يزلزل أبراج القصور. يضرب البحر كموسى بعصاه. ويحول الصخر حطاماً كالزجاج. وقد ألزم هذا الفقير في ثوب الفقراء التيجان بالطاعة وتقديم الخراج. الأنهار من بحره. والنار من خمره. وشذا الورد من عطره. وشعلة المجد من فكره(2).

التوحيد قادر على شفاء الأمة من الخوف والحزن والبأس، أمهات الرذائل وموانع الحياة. فالوحي يدعو إلى عدم القنوط من الرحمة، وعدم الخوف، وعدم الحزن. والقنوط يؤدي إلى الإحباط والموت. والحياة أمل وعمل. والغم والهم يقتلان. والفرح والمرح يبعثان. المسلم يبتسم، منير مثل الكوكب، وليس عبوساً متجهما. لذلك يبشر الوحي المؤمنين بأنهم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البَقَرَة: 38]. لم

(1) لم تحصّل من «لا إله» ضياء / هذه الذات للطريق الطويل
أصبحت معبدا لأصنام وهم / عندما ضيّعت حواء الخليل
جناح جبريل، ص458.

(2) أقبل الحر على يوم الفداء / ومضى يرمي على النجم الهدف
وكأن الوحي لقّاه النداء / من سماء الله أقدم لا تخف
أشرق التوحيد نورا في هداه / وسرى التحرير منه في الضمير
أتُرى من لم يخف غير الإله / يرهب السلطان أو يخشى الأمير؟
روحه تكشف أسرار الخلود / عن حياة ما لها في الدهر موت
يرسل التكبير من قلب الوجود / لغة تغنيه عن حرف وصوت
سل ملوك الأرض عن دنيا الغرور / في الملاهي خلف أستار الحرير
زلزلتهم بين أبراج القصور / ضربة من سهم عريان فقير
ضرب البحر كموسى بعصاه / ورمى الصخر حطاما من زجاج
ذلك الأوّاب في ثوب تقاه / ألزم التيجان تقديم الخراج
قد جرت أنهارنا من بحره / وأضاءت نارنا من خمره
بسمة الورد شذا من عطره / شعلة المجد سنا من فكره
يا أمم الشرق، ص364 ـ 365.

يخف موسى أمام فرعون ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173]. الخوف يقتل العمل، ويقطع السبل. وإن تكشف للعدو الخوف فإنه يسهل عليه قطع الخائف، ويزداد فتكه. الخوف قيد. وهو أصل كل شر، حليف الذل؟ والمؤمن لا يخاف[1].

لا يوجد مسلم يسأل التوحيد أن يصقل فأسه ليحطم الأصنام كلها ويترك نفسه التي أقام من أجلها الأصنام. ويجعل نفسه طريقاً إلى إسلامه. وأهم صنم الذي شيطانه العقل العليم. خُدامه أهل الطريقة، وكتابه العلم الأليم[2]. لقد ترك الحق الطاغوت ليشيد صروحه. ويكاد الفقير في خضم الجهل يلفظ روحه. وكلمات المبشر تجذب القلب الغرير. ينقصها ذوق الحب. وينقصها الصدق. في حين أن الموعظة تخضع لمنطق دقيق. سرعان ما تخفي رونقه بالعقد والعقائد.

(1)
عدة الموت قنوط مُحبط — والحياة الحق ألا تقنطوا
إنما العيش رجاء يُوصل — فقنوط الحي سم يقتل
يا سجين الغم أبصر واسمع — من رسول الله «لا تحزن» وعي
إنما المسلم مثل الكوكب — باسم في سعيه والدأب
حرّر النفس من الغم ودع — إن عرفت الله، أغلال الطمع
قوة الإيمان تحيي فاعلمن — ورد «لا خوف عليهم» فاقرأن
قلبه من «لا تخف» قلب سليم — حين يمضي نحو فرعون كليم
خوف غير الله قتل العمل — وهو للأحياء قطع السبل
إن تجلى لعدو خوفكا — هان كالورد، عليه قطفكا
سيفه يزداد فتكا في اليد — عينه فيك حسام لا يدي
غلّنا الخوف، وكم في بحرنا — من عباب مائج في دهرنا
كل شر في فؤاد يضمر — أصله الخوف، إذا ما تبصر
حُرم الخوف طموح الهمة — فهو خدن لحليف الذلة
كل من يفقد سر المصطفى — يحد الإشراك في الخوف اختفى

الأسرار والرموز، ص89 ـ 92، المقدمة، ص49.

(2)
يا مسلما من يسأل التوحيد يصقل فأسه
ليحطم الأصنام أجمعها، ويترك نفسه 1
نفس أقام لأجلها — ما شاء من أصنامه
ويريدها صنما يرافقه إلى إسلامه
هذا هو الصنم الذي — شيطانه عقل العليم
خدامه أهل الطريق كتابه العلم الأليم

جناح جبريل، ص512.

والمريد بسبحته أسير. وقع في حبات فخها[1]. المسلم مسافر لا يعرف معنى الارتقاء. خمدت حقيقته. وتاهت نار الحب في فؤاده. وتحول المتحرق المجنون إلى رماد[2].

ويؤوِّل إقبال حكمة «الكليم» أو سياسة الأنبياء في العصر الحاضر على أنها مناهضة الاستعمار، والدفاع عن الاستقلال. فالتوحيد والاستعمار لا يجتمعان. الأول تحرر، والثاني عبودية. فالنبي يصدع بالأمر جهراً على مسمع العالمين. يتحدى بالوحي كل أمير أو سلطان تكبر وتجبر على رؤوس الناس. يرى قصره خليفة دير يعبد الأوثان. فلا فرق بين القصر ودار العبادة، بين السلطان والإله، بين السلطة السياسية والسلطة الدينية. والدين ثورة على السلطتين معا. إذ إن كلاً منهما يغذي الآخر ويدعمه. فالتوحيد نفي في شعاره الأول «لا إله» قبل أن يكون إثباتاً في شعاره الثاني «إلا الله». يرفض استعباد عبد لعبد أو إذلال إنسان لإنسان[3].

التوحيد يشعل الفطرة ناراً. ويجلي الروح. ويحررها من أسر التراث. وتشمل

---

(1) أسفا لحق يترك الطاغوت يودعه صروحه
ويري الفقير يكاد يلفظ في خضم الجهل روحه
كلماته هذا المبشر تجذب القلب الغرير
لكن ذوق الحب ينقصها، وينقصه الكثير
وله مواعظه ينظمها بدقة منطقه
لكنها سرعان ما تخفي بعقدة رونقه
حتى المريد فؤاده بقيود سبحته أسير
حبات فخ أوقعته وكان شاهينا يطير

السابق، ص512.

(2) هذا المسافر كيف يرجع من ظنون الارتقاء؟
خمدت حقيقته ونار الحب تاهت في فؤاده
فإذا هو المتحرق المجنون يشحط في رماده

السابق، ص512.

(3) عندما يصدع النبي بأمر الله جهرا في مسمع الأكوان
يتحدي بوحيه كل حكم لأمير في الأرض أو سلطان
لا يرى قصره سوى رسم دير من بقايا هياكل الأوثان
لا يسيغ المقام في موطن الذل ولا يرتضي بعيش الهوان
معلنا في الوجود لا رب غير الله، يُخشى ويُرتجى كل آن
كيف يرضى إذلال عبد لعبد وامتهان الإنسان للإنسان

يا أمم الشرق، ص348.

هذه الفطرة العقل والموهبة. ترتبط بالفرد وقدراته دون ما حاجة إلى الجمع والحشد والعروش والتيجان. توقظ ابتهالات الصباح الوسنان. ويعلن الحق الذي به ينقلب الزمن. لا تخاف شيئاً. الوحي يعمر الصدور الخوالي بالإيمان. ويعطي العزم والإرادة في السر والعلن. يملأ فراغ النفس. ويقهر المستحيل بالإمكان. ويوقظ العبد المصفد بالأغلال. فلا تحاك القيود للإنسان وإلا فني مع الفانين. ومن يحارب والإيمان في قلبه يحطم قواعد الأوثان[1].

العمل تحقق للتوحيد في عالم يتحقق فيه العدل. لذلك سمي المعتزلة أهل التوحيد والعدل. والتوحيد دون عدل ظلم. والعدل دون توحيد قد يتغير ويتبدل ويتعارض[2]. التوحيد إذن تحقيق العدل. هو فعل وليس صنماً للعبادة من صنع النحات أو من وهم العابد، الصنم الحسي أو الصنم المعنوي. التوحيد ليس الصنمية التي يذبح عليها الإنسان تضحية للإله. وباسمها تراق الدماء في النزاعات بين الشعوب. هذا التوحيد ينتشر بالطبيعة. ويبلغ للناس كحركة تحرر في العالم، وتحرير البشر من الجاه والسلطة والمال والقوة، أصنام البشر[3].

---

(1) قطرة من نداه تُشعل نارا في عروق الكروم والأغصان
ويُجلّي في قبضة من تراث بعث روح اليقين والإيمان
حارس الفطرة التي فطر الله عليها الأرواح في الأبدان
لا يسامي جلال حكمته العقل ولا عبقرية الفنان
حكمة في غنى عن الحشد والجمع زهور العروش والتيجان
ابتهالات صبحه توقظ الكون فيصحو من ليله الوسنان
وله نظرة من الحق فيها نبأ يعلن انقلاب الزمان
وحيه يعمر الصدور الخوالي بقلوب جديدة الإيمان
درسُه العزم والرضا المحض والتسليم منه في السر والإعلان
يتولى ملء الفراغ بحزم يقهر المستحيل بالإمكان
وينادي العبد المصفد هيا لا تحاك القيود للإنسان
فإلى المحو والبلى كل معبود قديم مع الحطام الفاني
من يحارب وسيفه ربي الأعلى يدمر قواعد الأوثان

السابق، ص349.

(2) من العقيدة إلى الثورة، ج3، العدل، ص5 ـ 17.

(3) أنت لا تدري بآيات الكتاب — أمة العدل يسمّينا الخطاب
أنت في الأيام نور وبصر — شاهد أنت على كل البشر
أيها التالي الكتاب المنزل — شمّرن، لا تقعدن عن عمل
يعشق الأصنام عقل الأمم — ناحت أو عابد للصنم

=

مقصد الأمة والداعي إلى الاجتماع حفظ التوحيد ونشره[1]. والموضوع يعود ويتكرر من جديد في بداية الركن الأول للرسالة وفي آخره. التوحيد هو الذي يعطي الحياة قصدها. تؤكده مقاصد الشريعة. التوحيد قصد، اتجاه من الله إلى الإنسان، ومن الإنسان إلى العالم. القصد هو الذي يجمع شتات القوى. ويوجه الطاقة نحو غاية واحدة. وعندما يتحدد القصد يكون الكون كله سبباً لتحقيقه، ووسيلة له. والقصد الأكبر هو العمل. فالتوحيد نظر وعمل، طاقة وحركة. وهو عهد التزم به الإنسان منذ عهد النور الأول[2].

وينعكس التوحيد في الإنسان ذي الفكرة الواحدة. لو أراد الإنسان أن يسمعه العالم فليترك فكرة واحدة تسود روحه. إنه الإنسان ذو الفكرة الواحدة الذي يقوم بالثورات السياسية والاجتماعية. ويقيم الإمبراطوريات، ويسن قوانين العالم[3].

ب ـ الرسالة: الرسالة جوهر الدين، وأساس التكوين. والرحمة تجمع الأمة، موجة فوق موجة لا تنفصل. والنبي روح الأمة وعصبها. هو قلب الجسد، ووريد القلب. إذا قطع ذبلت الأوراق. تصحو الأمة بصحوه، وتموت بموته. الرسالة هي

= هو أحيا سنة من آزرا ... محدثا فيها إلٰها للورى
اسمه لون ودار، ونسب ... هو من سفك دماء في طرب
وعلى أقدام هذا الصنم ... ذبح الإنسان ذبح الغنم
قد أخذت الحق عني ما دهاك ... لم تبلغه بحق لسواك

الأسرار والرموز، ص128 ـ 129.

(1) من العقيدة إلى الثورة، ج2، التوحيد، ص604 ـ 614.

(2) ينظم المقصد أشتات الحياة ... فتراها مطلعا راع الرواه
إنما يبقى الحياة المقصد ... هو أشتات قواها ينضد
حينما تدري الحياة المطلبا ... تجعل الكون إليه سببا
إنما المقصود روح العمل ... كيفه والكمّ منه تجتلي
دوران الدم في أعراقنا ... مسرعٌ بالجد في أغراضنا
ثم في طينك إيمانا بذر ... كلمة التوحيد من فيك نشر
نقطة دار عليها العالم ... كلمة صار إليها العالم
قوة فيها تدير الفلكا ... وبها الشمس تنير الحلكا
كلمة التوحيد منك المقصد ... أنت للتكبير فيها توجد
الجهاد المر حلف المسلم ... أو يدوّي الحق بين الأمم

الأسرار والرموز، ص125 ـ 127، المقدمة، ص50.

(3) St. Ref., p. 155.

التي توحد الأمة. ومن الوحدة تنشأ الكثرة. والوحدة وحدة القصد والهدف، وحدة الفطرة والطبيعة. وواضح أن إقبال يتعامل مع الرسالة بمعني الرسول، والرسول بمعني الرسالة، دون تمييز بين الشخص والقضية، بين الوسيلة والهدف[1].

وفي إطار اللغو والكلام، والجدل غير المفيد بين الكائنات، بين النهار والليل، والنور والكلام، وأي الكواكب أكبر وأنور، وأيهما يصارع الأقدار، صدح صوت الآذان صرخة وعظ تصدعت لها الجبال[2]. وهو إعلان للرسالة والأداء والمبادرة والعمل: حي على الكفاح، حي على العمل.

قصد الرسالة تمكين الحرية والمساواة والأخوة بين البشر. والرسالة لا تنسب لمبلغها وهو الرسول فتكون الرسالة المحمدية بل لمضمونها وغايتها وهو الإسلام. ولا يشتق اسم الإسلام من اسم مؤسسه كما هو الحال في المسيحية المشتقة من المسيح أو الموسوية المشتقة من موسى أو الكونفوشيوسية المشتقة من كونفوشيوس. وتذكّر الحرية والإخاء والمساواة بالمبادئ الثلاثة للثورة الفرنسية،

---

(1) بالرسالات بدا تكويننا ... شرعنا منها ومنها ديننا
نحن مما جمّعتنا أمة ... أرسلت للناس فيها الرحمة
موجنا في بحرها متصل ... موجة من موجة لا تُفصل
فالنبي الروح فينا والعصب ... وإلى القلب من الرب أحب
سِفْرُه في القلب نبع القوة ... شرعه حبل وريد الأمة
قطع حبل منه للموت رديف ... كذبول الورد في ريح الخريف
حيَّت الأمة من ترياقه ... صُبحها نوّر من إشراقه
وحد المرسل فينا النغما ... والطوايا والمنى والألما
كثرة الألاّف عين الوحدة ... ومن الوحدة نشء الأمة
وحدة القصد حياة الكثرة ... مقصد المسلم دين الفطرة
علم الفطرة خير الرسل ... فمضينا للهدي كالشعل
بحره أخرج هذا الجوهرا ... نحن روح واحد منه سرى
هذه الوحدة مالم تفقد ... تحفظ المسلم حتى الأبد
ختم الله علينا شرعته ... وعلى المرسل فينا بعثته
محفل الأيام منا يبسم ... خُتم الرسل بنا والأمم
إنه قوة هذه الملة ... إنه سر اتحاد الأمة

السابق، ص95 - 97، المقدمة، ص49.

(2) فعلا صوت آذان ... بينما هم في جدال
يا لها من صرخة وعظ ... صدّعت قلبَ الجبال

جناح جبريل، ص531.

وهي مضمون الرسالة الإسلامية. أما الديانات الأخرى فقد قامت على عكسها، القهر والغلبة ونظام الطوائف. وهو موقف دفاعي وعظي يقوم به أنصار كل دين. فقد عبدت الإنسانية الأصنام. وعبد الناس قيصر وكسرى. ونهب القساوسة والملوك الحقول وأرزاق الناس. وباعوا الجنة بصكوك الغفران. ومارسوا الرق باسم الدين[1]. أما الرسالة الإسلامية فهي رسالة حق وتحرير للبشر، والرقابة على الحكام. وهي رسالة الفتح، وتبليغ الرسالة. تصدق الرسالات السابقة. وتوحد بين البشر في أخوة الإيمان. وتساوي بين الناس. فالمساواة أمر فطري[2].

لقد حول التوحيد العرب إلى أمة مبدعة، ذات حضارة ومجد، آية كبرى في التاريخ. حرروا أقدامهم بالعزيمة والإرادة في كل أرجاء الكون. وتحطمت الأصنام، اللات والعزى. وبفعل «الله أكبر»، زالت أعلام كسرى وقيصر. وحدوا الخلقة في أمة واحدة، ينعكس فيها التوحيد. من تحدى نارها فني. وقضت على كل جبار عنيد. أعادوا بناء الدنيا، وأعادوا خلقها من جديد، وأيقظوا الناس بالآذان، فجرى الحق على كل لسان. أزال العرب من كل القلوب نقش غير «الله». فأقاموا ثورة الإيمان في كل الأرض، شرقاً وغرباً. فحطم العبيد القيود. وثاروا على ساداتهم. واستردوا حرياتهم[3].

---

(1) عبد الإنسان أصنام البشر — فهو في عُدم وذل محتقر
قيصر العسف وكسرى قيّدا — منه جيدا ثم رجلا ويدا
ومن القسيس والمَلْك طِلاب — بخراج الحقل، والحقل خراب
نصب الأشراك للصيد الضرع — بائع الجنة أسقف الخدع
حقله قد عاث فيه البرهمن — ومجوس أحرقت ما قد خزن
أضعف الرق لديه الهمما — لحنه في عوده سال دما

الأسرار والرموز، ص97 ـ 98، المقدمة، ص50.

(2) خط في العالم سطرا مبدعا — أمة فاتحة قد أبدعا
إخوة فيها جميع المؤمنين — طينها حرية في العالمين
المساواة لديها فطرة — ومن التمييز فيها نفرة

السابق، ص99.

(3) يا لها ذكرى لأمجاد العرب — آية كبرى وتاريخ عجب
حرروا أقدارهم بالعزمات — في جميع الكون من كل الجهات
لم تَدُمْ عُزَّى ولم تبق مناة — هوت الأصنام تحت الضربات
حين نادى المؤمنين «الله أكبر» — زال كسرى وانطوت أعلام قيصر
هؤلاء العرب الصّيد الأباه — وحدوا الخلق بتوحيد الإله =

6 ـ انتظام الأمة بالشريعة

شريعة الأمة القرآن. الأمة دون شريعة مثل كثيب من الرمال، لا قوام لها. بسرعة تنهار. لذلك وُضعت الشريعة للحفاظ على وجود الأمة وشريعتها القرآن، مع أن الشريعة وضعية تقوم على أحكام الوضع أي على وجود الفعل في ظروفه مثل السبب والشرط والمانع كما حدده الأصوليون القدماء خاصة الشاطبي. والقرآن كتاب مسطور لا ينطق. إنما ينطق به الرجال. له تأويلات طبقاً لظروف كل عصر. به حقيقة ومجاز، وظاهر مؤول، ومحكم ومتشابه، ومجمل ومبين، وخاص وعام، وأمر ونهي. زجاجه يكسر الحجر. يصدع منه الجبل. تخشى منه الأفلاك، ويُسترق إلى سمعه. قراءة القرآن تحرر. والكفر يقيد، مما يستدعي تحديداً دقيقاً، لو كان ممكناً، للإيمان والكفر بمفاهيم جديدة من شاعر مصلح. والكتاب به كل شيء «الكتاب هو الحل». وهو إحدى المقولات الحالية للحركة الإسلامية المحافظة[1]. ويقترب فهم القرآن من الطريقة الصوفية، الفهم بالقلب في حالة الفقر[2].

= شعلة من نورها الحق أضاء ... من تحدى نارها أضحى هباء
قد أبادوا كل شيطان مريد ... وأزالوا كل جبار عنيد
انشؤوا دنياه في خلق جديد ... وأقاموها على النهج الرشيد
أيقظوا الدنيا بتكبير الأذان ... فجرى الحق على كل لسان
قد أزال العُرْبُ من لوح القلوب ... نقش غير «الله» علام الغيوب
فأقاموا في شمال وجنوب ... ثورة الإيمان في كل الشعوب
فترى في أمم الغرب العبيد ... حطّموا القيد بعزم من حديد
أعلنوا الحرب على ساداتهم ... واستردوا أمن حرياتهم

يا أمم الشرق، ص357.

(1) أمة خلت يداها السننا ... ككثيب من رمال وهنا
سيرة المسلم شرع وكفى ... ذلكم باطن دين المصطفى
الكتاب الحي والذكر الحكيم ... حكمة في الدهر تبقى لا تريم
إن فيه سر تكوين الحياة ... يستمد النكس أيْدا من قواه
لفظه لا ريب أو تبديل فيه ... آية لا لبس أو تأويل فيه
قوة فيه تشد الخورا ... وبها يرمي الزجاجُ الحجرا
الذي يصدع منه الجبل ... وعلى الأفلاك منه وجل
قرأ الدرس من الآي المبين ... فغدا بالحق حرا لا يمين
إن إيمانك في قيد الرسوم ... سنن الكفر لك السجنُ المقيم

الأسرار والرموز، ص111 ـ 113، المقدمة، ص50.

(2) سكر الصوفي من أحواله ... وانتشي باللحن من قوّاله =

وكمال سيرة الأمة إتباع الشرع الإلهي. والشرع الإلهي ليس به ظاهر وباطن بل هو على الواضحة، ليلها كنهارها. فإقبال ضد الباطنية. الشريعة هو العلم الحق، وهي السنة. وهي نظام الأمة، وقوام الإسلام. وضعها الشارع، وكتبها في اللوح، لوح القدرة. وهو أقرب إلى صورة موسى حامل الألواح. وهو التصور الشيئي للشريعة. هدف الشريعة شحذ العزم، والحث على العمل، ورقي البشر. تتأسس في الحياة لأن الإسلام دين الحياة[1]. تُفهم طبقاً للسان العرب وليس لسان العجم. ثم ينتقل إقبال من اللغة إلى الفكر ثم من الفكر إلى القوم. فمهما ارتقى العجم فإن رقيهم يهوى دون الشرع. ونصيحة الإمام المرشد، وهو تصور أقرب إلى الشيعة، تقوية القلب بالشرع وإتباع فهم العرب له[2].

الشريعة الحقة تنبع من الفطرة، من القلب، من الضمير. إذ يشرق الدين بالهداية والرشد كما يشرق الضحى بالنور. فلو تبدل الحلال حراماً والحرام حلالاً لغاب الضمير. والعدل شامل، يعم كل الدنيا ليوم النشور. حكمة الدين الالتزام بالشرع أي بالضمير. والعيش بها هو عيش الصفو والرخاء والنضرة والنعيم. طاعتها

= قلبه شعر العراقي تلا ... ومن القرآن أقوى وخلا
تاجه والعرش صوف وحصير ... فقره يجبي رباطا للفقير
لكتاب الله حق فاقرأن ... كل ما تبغيه منه فاطلبن

السابق، ص112 ـ 113.

(1) لا تقل في الشرع معنى مُضمر ... ليس إلا النور تحوي الدرر
جوهر أبدع فيه القادر ... جوهر باطنه والظاهر
ليس علم الحق غير الشرعة ... ليس غير الحب أصل السنة
شرعنا للفرد مرقاة اليقين ... ترتقي منه مقامات اليقين
شرعة الحق نظام الأمم ... ومن النظم دوام الأمم
قام للإسلام بالشرع قوام ... بدؤه الشرع وبالشرع الختام
كتب الشارع رب الحكمة ... لك هذا اللوح، لوح القدرة
يشحذ العزم بنار العمل ... ويرقيك لأعلى منزل
إن دين المصطفي دين الحياة ... شرعه للناس قانون الحياة

السابق، ص115 ـ 118، المقدمة، ص50.

(2) قال يوما لمريد فهم ... احذرن يا صاح فكر العجم
فكرهم إن كان للنجم ارتقى ... فهو من سنتنا قد مرقا
يا أخي فاسمع لهذا الرشد ... استمع نصح الإمام المرشد
وبهذا الحق فاشدد قلبكا ... واتبع العرب تُصب شِرعتنا

السابق، ص117 ـ 118.

تجعل الكون مطيعاً والأمن عاماً، والحياة كريمة. لا تأتي أوامر الدين غصباً وقهراً بل من رغبة وشوق ورضا. فالإيمان حرية ونشوة، وليس قهراً وحزناً. حكمة الدين في العدل والحب، وليس في الطغيان والبغض، وألا يحتاج على الأرض إنسان الرزق من إنسان[1].

حسن سيرة الأمة التخلق بالآداب المحمدية. ويعرض إقبال القضية عن طريق حوار بين والد وولده، واعتراف الابن بأن العقل أيام الشباب لا يبالي بضلال أو صواب. وعرض الوالد لإقناع ابنه بضرورة التخلق بالآداب الإسلامية التي يسميها إقبال «المحمدية» على عادة المستشرقين بتخيل يوم الحشر، ووضع الغزاة في سبيل الله والشهداء والعلماء. فماذا يقول الأب تجاه الطفل المسلم الذي لم يتربَّ بآداب الكتاب؟ التربية على الفطرة هي التربية على الكتاب من أجل خلق ذات كاملة أو بطل كالصقر يغشى البحار دون القبوع في خلوة الصحراء. هذه هي أخلاق النبوة[2].

---

(1) من صميم الحياة. من فطرة الله، من القلب، من لقاء الضمير
يشرق الدين بالهداية والرشد كما يشرق الضحى بالنور
فلو أن الحرام يبدو حراماً يحجز الناس عنه وعي الضمير
يصبح العدل شاملا كل أرض في الحياة الدنيا ليوم النشور
من ضمير الرسول أينع هذا الدين في غرسه وطاب جناه
عش بأحكامه تر العيش صفوا ورخاء أو نضرةً ونعيما
وأطع أمره تطعك البرايا وترى الأمن حيث كنت مقيما
قد حباك الإله أحسن تقويم لتحيا خلقا سويا كريما
وتقبل أوامر الدين بالرغبة والشوق والرضا كل وقت وآن
كل فرض تقضيه جبرا وقهرا لا ترى فيه نشوة الإيمان
حكمة الدين في العدالة والحب ليست في البغض والطغيان
وبأن لا يحتاج في الأرض إنسان ليحظى بالرزق من إنسان
يا أمم الشرق، ص368 ـ 369.

(2) إن هذا العقل في شرخ الشباب لا يبالي بضلال وصواب
قال لي الوالد: يوم المحشر تلتقي أمة خير البشر
الغزاة الغر من أمته وأولو الميراث من حكمته
والنجوم الزهر أرباب الصفاء حجة الدين فريق الشهداء
وأولو العلم وأرباب القلوب وأولو الزهد وأصحاب الذنوب
قد حباك الحق طفلا مسلما لم تنله من كتابي مغنما =

وفي قصيدة بعنوان «في أسرار الشريعة» يعبر إقبال عن مقاصد الشريعة أي المصالح العامة بداية بالأموال. فحفظ الأموال حفاظ على الدين. وعدة النضال. إذ يزكو صلاح الرجال بصلاح الأموال. والغنى في ذاته عبودية للمال، وليس عبودية للإله. وكثيراً ما أتى الإصلاح على يد المعدمين. وكثيراً ما عم الكساد خزائن مال المترفين وأهل الأهواء. يضحون بالعدالة في الأرض ليقضوا حياتهم ناعمين. لا يخافون حساباً من المصير بل من غضبة الثائرين. يأكلون التراث نهباً، ويجمعونه بخلا. يأكلون خبز الأجير، ويسرقون حق الفقير. ينهبون حق العامل المسن الخاشع الطرف الخافض الجناح والذي يواصل الليل والنهار أنينا وفي بؤس وشقاء. ليس في بيئته رغيف ولا تستر جسده إلا أسمال. يلتمس الأكواخ بين الربوع والأطلال. والغني يبني القصور. أما من يجعل المال سبيلاً إلى كريم الفعال فإنه يربح الدارين. أما الأغنياء فإنهم حيارى. لا ينظرون إلى الإله بل إلى رأس المال[1].

= هين الأشياء قد شق عليك لم يصر ذا الطين إنسانا لديك
فطرة المسلم طُرًا رأفة قوله والفعل كل رحمة
إن تكن صقرا فلا تغش البحار ليس إلا خلوة الصحراء دار
طينة المسلم در يا بني ماؤها والنور بحر للنبي
صاح! من شمس الضحى كن أنورا كن ضياء ليس يخبو الدهرا

الأسرار والرموز، ص118 ـ 121، المقدمة، ص50.

(1) إنَّ حفظ الأموال من أجل حفظ الدين زاد وعدة للنضال
قد أبان الرسول أن صلاح المال يزكو به صلاح الرجال
إن يكن همك الغنى لم تكن له عبدا بل أنت عبد المال
كم شهدنا الإصلاح من فارغي الأيدي وأهل الخصاصة المعدمين
كم وجدنا الكساد من خازن المال وأهل الأهواء والمترفين
هم يضيقون بالعدالة في الأرض ليقضوا حياتهم ناعمين
لا يخافون في المصير حسابا بل يخافون غضبة الثائرين
يأكلون التراث جمعا وبخلا ثم هم يأكلون خبز الأجير
وتزيد المأساة رعبا وهولا عندما يسرقون حق الفقير
يقف العامل المسن لديهم خاشع الطرف خافض التعبير
يصل الليل بالنهار أنينا دون جدوى في بؤس عيش مرير
ليس في بيته الرغيف ولا يستر من عريه سوى الأسمال
يبتني القصر وهو يلتمس الأكواخ بين الربوع والأطلال
نال ربح الدارين من جعل المال سبيلا إلى كريم الفعال
هم حيارى لا ينظرون بنور الله بل ينظرون رأس المال

يا أمم الشرق، ص367 ـ 368.

ويتحول رأس المال إلى دافع للعدوان كما قيل من قبل «الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية». إذ يستوي عند الرأسماليين الحلال والحرام. يتبعون أساليب الخداع. ويخربون الديار باسم التعمير. تعتدي دولة على دولة أخرى ظلما. ويبغي قطر على قطر عدوانا. يزرع الكادح الحقول. ويأتي غيره لجني الثمار[1].

7 ـ التقليد والاجتهاد

التقليد في زمن الانحطاط أولى من الاجتهاد. وهي قضية متشابهة. إذ يرى إقبال التقليد أولى من الاجتهاد في زمن الانحطاط، حفاظاً على التقاليد، وتمسكاً بالسنن مثل عصره المملوء بالفتن والشرور. فاللجوء إلى الماضي خير سبيل لمقاومة الحاضر. والتقليد هو سبيل النجاة، وجمع الأمة، والحفاظ على السنن. هكذا فعل بنو إسرائيل زمن الأسر البابلي بالتمسك بالتراث والتقاليد. فجمعوا التوراة. وظهرت لديهم الطقوس كمؤشرات على التماسك الاجتماعي. كما ظهرت لأول مرة أمور المعاد كنوع من الأمل في المستقبل وكما لاحظ إسبينوزا من قبل[2]. وحال المسلمين اليوم يقتضي التقليد تمسكاً بالتوحيد. والاجتهاد قد يؤدي إلى الفرقة. والاقتداء برسوم الأولين خير من اجتهاد الفاضلين. فقد أجاد الآباء. وتمسكوا بالشرع، على عكس جهل اليوم، والانحراف عن الدين. فالتمسك بحل الله طريق النجاة، خوفاً من الاندثار من هبوب الرياح[3].

قد يتناقض القول بالتقليد والقول بالاجتهاد في نفس الوقت وفي نفس

(1) يستوي الحل والحرام لدي القوم وأين الدجي من الأنوار
فأساليبهم مخادعة الخلق وتعميرهم خراب الديار
دولة تعتدي على دولة ظلما وقطر يبغي على أقطار
كادح يزرع الحقول فيأتي غيره عاجلا لجني الثمار
السابق، ص368.

(2) اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ط3، الأنجلو المصرية، القاهرة، 1991، ص205 ـ 206.

(3) عصرنا هذا مليء بالفتن طبعه خلق شرور ومحن
محفل الماضين فيه مقفر صوحت فيه حياة تنضُر
شعلة التوحيد فينا سَلَبا ناره والنور منا سلبا
وإذا ما اعتل تقويم الحياة فمن التقليد للقوم نجاة
سنن الآباء حبل الملة ومن التقليد جمع الأمة
حال إسرائيل فيها تبصرة إن تكن روحك روحا مبصرة

=

العصر. وإلا ففيم «تجديد التفكير الديني في الإسلام» وفيم الدعوة إلى الاجتهاد في العصر الحاضر؟ إن الاجتهاد ساعة الخطر قد يكون أقل ضرراً وأكثر نفعاً من التقليد. وقد لا يكون في تقليد القدماء حل لقضايا العصر التي تتطلب اجتهاداً جديداً. وقد تكون مآسي العصر مدعاة إلى الاجتهاد وأكثر التحاماً بالواقع من الهروب إلى تقليد القدماء. وتعدد الاجتهاد ليس اختلافاً بل هو تعدد في الرؤى، وكلها صحيحة. فالصواب متعدد، وليس واحدا. هنا يبدو الجانب المحافظ لدى إقبال. وقد دعا كل المصلحين قبل إقبال مثل الشوكاني والأفغاني ومحمد عبده للاجتهاد في نفس الظروف، ظروف الاحتلال والقهر والتخلف والتجزأة[1].

وفي نفس الوقت، ينقد إقبال الفلسفة الهندية التي تقوم على التقليد. ويدافع عن الإسلام الذي يقوم على الاجتهاد. فكيف تكون الهند مصدر حكمة وفلسفتها تقوم على التقليد؟ تخلو من لذة السعي والبحث عن الحقيقة. لا تعرف جرأة العقل ولا الشوق إلى الفكر. التقليد أسر، والاجتهاد تحرر. بل إن الإسلام الهندي وقع في التقليد الأثير في الفلسفة الهندية. فطبع الفقه في الهند بطابع التقليد. إن عظمة القرآن أنه ترك للناس حرية الإبداع، وليس منهج العبيد[2].

= انظرن كيف ابتلاها الزمن وعزتها في الخطوب المحن
عصرت عنقودها كف الخطوب ذكر هارون وموسى في القلوب
الأسرار والرموز، ص113 ـ 114، المقدمة، ص50.

(1) يا من انفض له جمع وجاه وخبا في صدره شمع الحياة
آية التوحيد في القلب اسطرا ومن التقليد أمسك بالعرى
اجتهاد في زمان القهقرى يذهب الأقوام منه شذرا
اقتداء برسوم الأولين هو أولى، لا اجتهاد الغافلين
لم يُصب آباؤنا بالهوس طهرُتْ أعمالهم كالأنفس
فكرهم كان رقيقا مرهفا فعلهم أوفى بشرع المصطفى
فكر الرازي ونجوى جعفر أين؟ والعرب هداة البشر
ضيّق الدين علينا يسره وادعى كل لئيم سره
قد جهلت الدين عنه حائدا إلزمن يا حر نهجا واحدا
باح لي بالسر نبّاضُ الحياة إنما في الخلف مقراض الحياة
وحدة الشرع حياة الأمة فمن القرآن روح الملة
نحن طين وهو قلب لا جرم هو «حبل الله» من شاء اعتصم
فانتظم في سلكه كالدرر أو غبارا في الرياح انتثر
السابق، ص114 ـ 115.

(2) حكمة الدين كما قد زعموا عُلِّمتْ في الهند من أي طريق؟ =

8 ـ حاجة الأمة إلى مركز محسوس (البيت الحرام)

وقد يتناقض ذلك مع رفض ربط الأمة بالمكان. فالبيت الحرام مكانه في مدينة وعلى أرض وفي خطر. إنما هو رمز الوحدة. والوحدة قد لا تكون في المكان بل في الزمان. قد تكون وحدة النضال ووحدة الشعوب المقهورة كما حدث في عصرنا من وحدة شعوب باندونج، آسيا وأفريقيا والعالم الثالث. فالمركز ليس مكاناً بالضرورة بل قد يكون الإقليم القاعدة أو البؤرة الثورية. الخوف من المركز المكاني التسلط على الأطراف. ويلجأ إقبال كالعادة إلى تجربة بني إسرائيل في عدم الاحتفاظ بالمركز. فتشتتوا في البرية. وقد يعطي ذلك حجة لإسرائيل حالياً لشرعية تأسيس الدولة، واحتلال القدس، وهدم المسجد الأقصى، وإقامة هيكل سليمان باعتباره مركز اليهود في العالم[1]. ووحدة المركز في المؤتمر السنوي العام أثناء الحج للمسلمين لدراسة حال الأمة وإعلان البراءة. وتنتهي المنظومة بشكوى للرسول، وتمنيه أن يموت بالحجاز[2]. انطلقت جميع الألحان من بلاد العرب.

= ما بها لذةُ سعي دائب | لا ولا فيها من الفكر العميق
أين منهم جرأةُ العقل لدى | محفَل يهفو إلى الفكر مشوق
آه للتقليد والأسر بما | ألفوه وزوال التحقيق
بدَّلوا القرآن لا أنفسهم | كم فقيه مُبعد من توفيق
وكفى القرآن نقصا أنه | ما هدي المؤمن منهاج الرقيق

ضرب الكليم، ص132.

(1) هكذا سنة ميلاد الأمم | مركز فيه حياة تنتظم
إنما المركز روح الدائرة | نقطة، فيها محيط، ضامرة
ومن المركز للقوم نظام | ومن المركز للقوم دوام
نقطة المركز منا الحرم | لحننا والوجد فينا الحرم
نفس في صدرنا يتقد | روحنا الغالي، ونحن الجسد
صوتنا يندى به في الأمم | واصلا محدثنا بالقدم
وحد الملة طوف حوله | فهي صبح قد حوى صدر له
وحدت في حسبه كثرتنا | أحكمت من وحدة قوتنا
إن في الجمع حياة الأمم | إن هذا الجمع سر الحرم
أيها المسلم يا ذا البصر! | قوم موسى عبرة فاعتبر
زهدوا في مركز قد جمعا | فتراهم في البرايا قطعا
من خشوع المسلمين الأولين | سيطروا بالحق بين العالمين

الأسرار والرموز، ص122 ـ 125، المقدمة، ص50.

(2) السابق، ص المقدمة، ص51.

وسمعته الفرس والمغول. وتسمو الحضارة إذا كان لها مركز يجمعها كالحرم. وقيثارة إقبال أعجمية لكن لحنها حجازي[1].

9 ـ بقاء النوع الإنساني بالأمومة

المرأة أصل النغمات ومع ذلك عزف الرجل من محنتها. ربته في حجرها على العشق والجمال من ألحان صدرها. قرنها الرسول بالطيب والصلاة في حديثه المشهور: «حبب إليّ من دنياكم ثلاث: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة». فمن الجهل عدم تعظيم الأم. فهي رحمة للعالمين. ينتسب إليها الرسول. تصل الرحم. والجنة تحت أقدامها. تعليمها واجب كما قال شوقي:

الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعبا طيب الأعراق[2]

وتضل الأمة عندما تضل الأم، وتنبهر بالغرب، وتثور على الأوضاع. حريتها أصل البلاء، وفقدان الحياء. علمها ينسيها واجباتها، تربية الأولاد والحفاظ على الأمة والملة. وهنا يبدو إقبال المحافظ مرة أخرى في تصوره التقليدي لدورها حماية لها من الانبهار بالغرب[3]. وهو ما يحدث لفتاة القرية الغرة الخالية من التعليم.

---

(1) كعبة الغُرب أطلقت كل لحن ... طافت الفرس والمغول عليه
كيف تسمو حضارة ليس فيها ... حرم يجمع القلوب إليه
صوت قيثارتي التي سمعوها ... أعجمي لكن لحني حجازي
جناح جبريل، ص466.

(2) نغمات المرء عزف المرأة ... هو من محنتها في عزة
عَشَقَ الحق رباه حجرُها ... إن ثوب العشق من نسج الجمال
الذي قد بهر الكون سناه ... قرن الطيب إليها والصلاة
إنما الأم علينا رحمة ... وإلى الرسل لديها نسبة
رأفة المرسل في رأفتها ... سير الأقوام من صنعتها
ومن الأم علت أقدارُنا ... بسماها قد بدا مقدارنا
إنما الأمة من وصل الرحم ... دونه أمر حياة لا يتم
قال خير الخلق، وهو الحجة ... تحت رجل الأمهات الجنة
الأسرار والرموز، ص135 ـ 136، المقدمة، ص51.

(3) هذه الغرة بنت القرية ... عبلة الجسم وغفل السّحنة
حية العين، كهام المِقْوَل ... دون تعليم وصقل الصيقل
ألم الأم عليها يثقل ... وجهها يعرب عما تحمل =

ونموذج السيدات فاطمة الزهراء وكأن عند إقبال بقايا تشيع. ويسترسل إقبال في مدح فاطمة. فهي أفضل من أم عيسى ذات النسبة الواحدة. وفاطمة لها ثلاثة أنساب: بنت الرسول، وزوج علي، وأم الحسين. ويصل الأمر بإقبال إلى حد التعظيم والتبجيل أنه يطوف حول قبرها إجلالاً لها، وينثر سجداته حولها[1]. الأولاد من صنع الأمهات. وما فيهم من خير من طبعهن وغرزهن. تطيعها الأرض والسماء إذا أطاعت بعلها.

بل إن التعلم عن طريق تلقين الأم وبكل ما لديها من عواطف الأمومة هو بداية الوعي الذاتي، والتربية الوطنية، وحمل الرسالة، وفعلاً النفي «لا إله» والإثبات «إلا الله»[2].

= أمرنا يحكم من آلامها | صبحنا يشرق من إظلامها
إن تهب من حجرها للأمة | مسلما حقا عظيم النجدة
والتي رقت وخفت حملا | باطن المرأة فيه عطلا
شع نور الغرب في فكرتها | وترى الثورة في مقلتها
قطعت أوصال هذي الأمة | حين طاشت عينها بالنظرة
إن حريتها أصل البلاء | إن حريتها فقد الحياة
ليلها ما ضاء فيه نجمها | لم يطق أعباء أم علمها
ليتها لم تنم في روضتنا | ليتها تغسل من حلتنا
إنه أولادها ملء الأمل | في ذكاء ونشاط وعمل
تحفظ الأم إخاء الأمة | وقوى قرآننا والملة

السابق، ص136 ـ 137.

(1) أم عيسى نسبة واحدة | بثلاث تزدهي فاطمة
قرة العين لخير الأولين | خاتم الرسل وخير الآخرين
وهي زوج المرتضى ذا البطل | أسد الله الحكيم الفيصلَ
وهي أم السيدين الأكرمين | حسن خير حليم وحسين
نُشئت ما بين صبر ورضى | في الفم القرآن، والكف الرحى
معها من خشية الله جرى | في مصلاها يفوق الجوهرا
أنا لولا الشرع عن هذا نهى | وإلى شرع الرسول المنتهي
طفت حول القبر إجلالا لها | ناثراً من سجداتي حولها

السابق، ص138 ـ 139.

(2) درسك الأول أمّ لقّنت | بالنسيم بُرعما قد فتّحت
ونسيم الأم هذا عطّرك | فعَزَزت وبحسن صوّرك
دولة للخلد منها نِلتها | علمتك «لا إله» في الشرر
«لا إله» قل ومن روح عميق | ليكون الجسم كالمسك الفتيق
إنها شمسا وبدرا قد أدارت | شعلة في القش والأطواد صارت =

يخاطب إقبال المرأة المسلمة أينما كانت. فالنور من نارها، والحصون من أستارها. في طهارتها الدين، وفي دينها الرحمة. تعلم الأطفال التوحيد. ومن حبها تنشأ الأقوال والأفعال. بها تتوحد الأمة. وينصحها إقبال بالتمسك بنهج السلف. ويحذرها من فتنة العصر. ويطالبها بضم ولدها إلى صدرها حماية له من غوائل الزمن. تكون في خطر إذا ابتعدت عن عشها، فتطير فراخها. نموذجها فاطمة. فقد تنجب الحسين[1].

10 ـ توسيع حياة الأمة لتسخير قوى العالم

كل شئ سوى الله من أجل تسخير العمل، وتعريض الصدر للرمي دون خوف. والتسخير لعالم الحس للسمو به. وكل ما في الكون للتأمل فيه ثم لتسخيره. فالنائم الذي طالت غفلته وارتبط بالحس فجفته همته عليه النهوض وفتح البصر والنظر إلى العالم دون احتقاره[2]. فالذات بطبيعتها في العالم، يصارع الزمن بسيفه

= يا لها حرفين ليسا في الكلام — بل هما في كف مضراب حسام
نارها نصر مبين عشى بها — إنها ضرب أفذ من ضربها
جاويد نامه، ص326.

(1) مُشعل مصباحنا من نارك — عِرضُنا في الصون من أستارك
خلقُك الطاهر فينا رحمة — قوي الدين به والأمة
طفلنا علّمتِه حين الفطام — كلمة التوحيد من قبل الكلام
صيغَ من حبك أطوار لنا — فِعلنا، أقوالنا، أفكارنا
ضاء دين الحق من أنفاسك — ونما التوحيد في أحجارك
بك يخضر غراس الوحدة — بك ينمو رأس مال الملة
لا تسيري غير نهج السلف — لا تبالي بجديد أو تلف
احذري فتنة عصر مهلك — وإلى صدرك ضمي ولدك
بعدت عن عشها في خطر — هذه الأفراخ، لما تطر
فيك تسمو للمعالي فطرة — فاتبعي الزهراء، نعم الأسوة
علِّ غصنا منك يأتي بحسين — فترى النضرة روضات ذوين
الأسرار والرموز، ص139 ـ 140.

(2) ما سوى الله لتسخير العمل — صدره للرمي، فاقذف لا تبل
ما سوى الله تراه يخلق — لترى سهمك فيه يمرق
من يسخر عالم الحس سما — ومن الذرة يخرج عالما
كل ما في الكون من بحر وبر — لوح تعليم لأرباب النظر
أيها النائم طالت غفلته — عالم الحس جفته همته =

لاختبار قوته وعظمته. فالحق في متناول الخيرين المؤمنين. والدنيا ميدان للطعان، ومحك للمؤمنين. إن لم يأسرها الإنسان تأسره. وإن لم يسيطر عليها تسيطر عليه. وإن كان الإنسان يسير على الأرض بقدميه فخطاه تصل إلى أعالي السماء. والإنسان خليفة الله في الأرض ونائبه. يحقق كلمته في الأرض كنظام مثالي للعالم. يحوّل الضيق إلى سعة. وقد علمه الله الأسماء وانحنت له الملائكة[1]. هو أعظم الكائنات. كل شئ في العالم مسخر له[2].

= قم وفتّح بصرا قد سُكِرا ... لا تُحقّر عالما قد حُقّرا

السابق، ص129 ـ 130، المقدمة، ص51.

(1) إنه توسيع ذات المسلم ... وامتحان لصفات المسلم
هو يبلوك بسيف الزمن ... لترى أن دما في البدن
اضرب الصدر بقهر القوة ... اختبر عظمك في ذي الصدمة
جعل الحق الدُّنَى للخيرين ... وجلاهَا لعيون المؤمنين
هذه الدنيا طريق الظَّعَن ... هذه الدنيا محك المؤمن
فأسِرَنْها قبل أن تأسركا ... لا تضع في جوفها جوهركا
أدهم الفكر الذي يطوي الفضاء ... والذي يجتاز آفاق السماء
ساقه في الكون حاجات الحياة ... فهو في الأرض وفي النجم خطاه
يبتغي في الكون تسخير القوى ... لترى فيه بأعلى مستوى
نائب الحق، بحق آدم ... حكمه في الأرض ماض حاكم
لك من ضيقك، منها سعة ... ولأعمالك فيها فسحة
افتح العين وأنعم نظرا ... ابصرن في الراح معنى مضمرا
كم ضعيف في قوي أمرا ... حين في الكون أجال البصرا
أيها المقصود من أمر انظروا ... كيف في آفاقها لا تنظر؟
علم الأسماء فخر الآدمي ... حكمة الأشياء نصر الآدمي

السابق، ص130 ـ 131.

(2) ضرب الكليم، المدخل، ص ك.

الباب الثاني

جـــدل الذات

الفصل الأول

إثبات الذات (التأويل)

1 ـ التجربة والنص

يعني جدل الذات، إثباتها ونفيها. إثباتها عن طريق التجربة الحية وقراءة النص القرآني استنباطاً منه أو استقراء من الحياة، ونفيها في التصوف. إثبات الذات تأويل، ونفي الذات فناء. فالقرآن والتصوف نقيضان.

كان إقبال يعيش التجربة أولاً ويفكر فيها. ثم يحاول التعرف على أسبابها إما برؤية الأنا في مرآة الغرب إجابة على سؤال لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ أو في أصلها ومنبعها الفكري وهو القرآن الكريم. لم يبدأ التفسير عنده من النص استنباطاً لمعانيه طبقاً لقواعد اللغة العربية بل بالواقع الذي يصوره الناس، سبب النزول، الواقع الحالي، وليس سبب النزول الأول كواقعة مثالية أولى تتكرر في كل زمان ومكان[1].

التأويل هو الذي يحيل الواقعة إلى تجربة ذاتية. فالمعراج لا هو واقعة حسية مادية ولا هو محض خيال، بل هي تجربة ذاتية للشوق والصعود وطلب المعالي، والذهاب إلى ما وراء الحجب، والرغبة في كشف الأسرار ورفع الأشياء والطموح[2].

---

(1) كان يقرأ القرآن بعد صلاة التهجد، ويتدبر في آياته، ويتفكر فيها، وتنهال دموعه على المصحف فتبله. ويأخذه الخادم لتجفيفه في الشمس. وهي نفس الحكايات حول الحسن البصري الذي كان يترك وراءه بركة من الدموع وهو ساجد من خشية الله. سمير عبد المجيد: مقدمة الأسرار والرموز، ص6 ـ 7.

(2) وذَرّة طار فيها الشوق صاعدة تغير في عَرَصات الشمس والقمر =

واستشهاد إقبال بالآيات القرآنية استشهاد بعدي وليس استشهاداً قبلياً. وكل استشهاد هو بعدي بالضرورة كنوع من البرهان الخارجي عن طريق سلطة النص. يعرف المفكر أولاً شيئاً بالعقل والمشاهدة ثم ينتقي النصوص المؤيدة له. وقد اعترف شهاب الدين السهروردي صاحب «حكمة الإشراق» بذلك. فقد عرف ما عرف عن طريق الحدس أو الكشف أو الإلهام ثم وجد البرهان عليه بعد ذلك. هذا هو طريق الحكيم المتأله، الموغل في التأله والموغل في البحث. وتدعيماً لإنسانية الإسلام وكليته الجامعة وعدم تفرقته بين الطوائف والأقوام يستعمل إقبال «النص»[1].

ويصرح إقبال بأن منظومة «الأسرار والرموز» لها أسس قرآنية. فقد جاءه الكشف وهو يقرأ آية بعد أن عاش تجربة المسلمين في الهند، تجربة الضياع[2]. وتدخل بعض التعبيرات القرآنية من بعض الآيات في النسيج الشعري. وهو أكثر من الحديث لشعرية القرآن[3]. يستعمل الحديث بطريقة أقل مثل «من رآني فقد رأى

= يا رفقة المرج تلقي الصقر مُقدمة دُرّاجة تملأ الأنفاس من شرر
المسلم السهم، والأفلاك غايته سرائر الروح في المعراج فادكر
جهلت والنجم أسرارا فلا عجب ما زال مدك محتاجا إلى القمر

ضرب الكليم، ص9.

(1) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: 64]، الأسرار والرموز، المقدمة، ص26.

(2) هي آية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: 105] السابق، المقدمة ص48 ـ 43.

(3) القرآن (5)، الحديث (1).

وبيوم الفتح هذا الغافر قال: «لا تثريب» وهو القادر.

حديث الرسول يوم فتح مكة ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: 92] السابق، ص21.

مقصد من «علم الأسماء» هو سر «سبحان الذي أسرى» هو

من آيتي و ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: 1]، السابق، ص41.

بالهوي أضرم نارا قلبه مقرئا «هل من مزيد» عضبه

استدعاء لآية ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: 30] مع تغيير المجال الدلالي من طلب النار مزيداً من الكفار لتحرقهم والبطل الذي يقتل بسيفه الذي يقول هل من مزيد، السابق، ص56.

الحياة الدهر يا من عرفا «لا تسبوا الدهر» قول المصطفى

حديث الرسول «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» والذي نسج نجيب محفوظ على منواله على لسان أحد أبطاله «لا تسبوا الدولة فإن الله هو الدولة». انظر الدين والرواية في أدب نجيب محفوظ، هموم الفكر والوطن، جـ1 التراث والعصر والحداثة، ص559 ـ 588.

الله»[1]، وبصيرة المؤمن خالية من نور الفراسة إشارة إلى حديث «اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله»[2]. ومع ذلك، يدخل الحديث أيضاً جزءاً من النسيج الشعري[3]. فقد نقل الحديث الصوفي الشهير «حُبب إليّ من دنياكم ثلاث: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة»، و«الجنة تحت أقدام الأمهات»[4].

قد يكون استعمال الحديث بنبرته وليس بمعناه، بصوته وليس بمضمونه مثل «لا قوم بعدي» منسوج على حديث «لا نبي بعدي»[5].

2 ـ الذات والنص

بتتبع دواوين إقبال من أولها إلى آخرها، من «الأسرار والرموز» إلى «أرمغان حجاز» يمكن إجمال منظومة الذاتية في ستة عناصر، كلها مستمدة من النص[6].

وقد يكون علم النفس قاسياً في تحليل السلوك الإنساني. فإذا ما أراد الإنسان أن يترك مكاناً لآخر فقد لا يكون الدافع هو الطموح بل ربما هو الاختفاء من هؤلاء الذين رأوا الفشل الأول. فالسلوك الإنساني مثل النص، له ظاهر وباطن. السلوك نص، والنص سلوك[7].

أ ـ إثبات الذات: هو شعور الإنسان بوجوده. وهو شرط الإحساس بها.

---

(1) وفجرا فلتهب من «من رآني» ... قلبي منك ذو البدر المنير
أرمغان حجاز، ص450.

(2) السابق، ص534.

(3) لي في دنياكم قد حُببا ... بعض ما فيها حلالا طيبا
إن تكن سر المعاني تعلم ... فافهم النكتة «في دنياكم»
الأسرار والرموز، ص103.
الذي قد بهر الكون سناه ... قرن الطيب إليها والصلاة
السابق، ص135.

(4) قال خير الحق وهو الحجة ... تحت رجل الأمهات الجنة
السابق، ص136.

(5) ما سوى الحق قلاه المسلم ... قائلا «لا قوم بعدي» فاعلموا
الأسرار والرموز، ص97.

(6) السابق، المقدمة ص28 ـ 42.

(7) St. Ref., p. 8.

وهو يشبه «الكوجيتو» الديكارتي. وهو غامض، مليء بالأسرار. تحمل الذات إمكانيات مضمرة فيها. وهي مخلوقة، لكنها لا تفنى بل تبقى عن طريق العمل. ففي الذات قدرات خلاقة لا نهائية[1].

ب ـ الإحساس بالذات: هي المرحلة الثانية بعد إثبات الذات. فالإنسان يشعر بأنه أشرف المخلوقات. خلقت الكائنات من أجله وذاته أغلى ما لديه. خلق الإنسان على الفطرة. وهو صانع مستقبله، ومسؤول عنه. وهو قادر على التمييز بين الخير والشر[2].

جـ ـ تربية الذات: حينما يعرف الإنسان أنه قادر على السيطرة على العالم حوله بالجهد والاجتهاد، تتولد لديه رغبة في تربية الذات للاستعداد للوصول إلى الهدف. وتقوم التربية على مستويين، فردي وجماعي. الأول في «أسرار النفس»، والثاني في «رموز النفس». وتقوم تربية الذات على ثلاث مراحل: الطاعة، وضبط النفس، والإنابة الإلهية طبقاً للاستخلاف في الأرض لتعميرها[3].

د ـ تكميل الذات: ويكون بالوصول إلى حالة الفقر. وهو لا يعني الفقر

---

(1) الذات مخلوقة في ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾، ومعرفتها تند عن العقل ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، والعمل الصالح يخلد الذات ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، السابق، ص29 ـ 31

(2) الإنسان أشرف المخلوقات ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾، تسخير الكائنات له ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. كمال الذات ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾. الفطرة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾. المسئولية الفردية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾، السابق، المقدمة، ص31 ـ 32.

(3) أولوية الذات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾. الطاعة ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. شرط الطاعة المحبة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾. ضبط النفس ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾. ترويض النفس ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾. النبوة تزكية للنفس ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾، ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾، السابق، المقدمة، ص32 ـ 35.

المادي كما هو الحال في مقامات الصوفية بل الفقر الروحي، والاستغناء عن العالم، والسيادة عليه في نفس الوقت. ويسمى أحياناً استحكام الذات. الفقر مرادف للتوحيد أي جعل الذات واحدة في مقصدها. الذات سيف، ولا إله إلا الله أي التوحيد هي «المسن» الحجر الذي يسن عليه السلاح كي يكون حاداً قاطعاً. وإذا كانت الذات سيفاً فإن الفقر هو المسن. فالتوحيد والفقر متشابهان. يقومان بنفس الوظيفة. الفقر معجزة، تاج وعرش وجند، أمير الأمراء، وملك الملوك. والتذكر والتدبر يؤديان إلى حالة الفقر. الفقر فخر وزهو وعزة، وليس ذلاً واستكانة وعجزاً وسؤلاً. فقر الكافر نقص، وفقر المؤمن زيادة. الأول صحراء جرداء، والثاني فيض ونماء في البر والبحر[1].

ويقص إقبال حكاية دفاعاً عن الفقير بين الدرويش والسلطان. وشيخ الطريق يشكو فقيراً مطالباً بعقابه. والأعدل هو عزل العامل الذي أفقر الناس[2].

هـ ـ ثمرة تكميل الذات: تتولد طاقة لا حدود لها. تستطيع بها الذات النفاذ إلى أي مكان. تسخر الآخرين، وتجبرهم على الطاعة. وتدفع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. تملأ الدنيا عدلاً وإنصافاً دون ملل أو عجز أو يأس. ترحم الناس ولا تقسو عليهم، جمعاً بين العدل والرحمة. تنصر الحق وينصرها الحق. وتقوم بأفعال يظنها الآخرون لعظمتها خارقة مثل معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء[3].

---

(1) التوحيد كرأسمال الأسرار وبؤرة الأفكار ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾، الفقر فخر من حديث «الفقر فخري». السابق، المقدمة ص35 ـ 40.

(2)
ثم أملى الشيخ سطرا من لهب — قال للكاتب في نار الغضب
أمسك المِزْبَر واكتب ذا النذير — أبلغ السلطان عن هذا الفقير
«عامل عندك غر قد عصا — وعلا رأس غلامي بالعصا
اعزل العامل، هذا الفاجرا — أو فهب ملكك ملكا آخرا
عبد حق فيه لله احتساب — أرعد السلطان منه ذا الكتاب
قد العامل بالقيد الثقيل — واستغاث الشيخ للصفح الجميل
احذرن لا تجرحن قلب فقير — لا تزج النفس في نار السعير

السابق، ص25 ـ 26.

(3) الخلافة الإلهية ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ =

و ـ **التمييز بين الأسرار والرموز**: هو التمييز بين إثبات الذات ونفي الذات من القرآن، في التمييز بين الحق والباطل، بين الإسلام وغيره، بين الإيمان والكفر، بين الهدى والضلال، وصورها الثنائية مثل النور والظلمة[1].

3 ـ اللفظ والصورة

وكثيراً ما يظهر لفظ قرآن ككتاب مقدس، وموضوع شعري وجداني. وهو عربي اللغة ولا يقرأ بلغة فارسية أو أردية أو تركية أو فهلوية[2].

ويستعمل إقبال لفظ «ما زاغ» من آية ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: 17] لبيان تقليد المسلمين للغرب، واستبدال إمام بإمام بعد أن زاغ البصر[3]. يكفي اللفظ القرآني لاستدعاء الآية. فاللفظ القرآني روح القرآن.

وتكثر الصورة القرآنية من خلال الألفاظ وفي مقدمتها الكليم وسيناء وعصا موسى، رمز ثقيل بالعصا، ورؤية النار المقدسة، وسماع الصوت، وضرب الحجر

= وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. جماعة المؤمنين ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ﴾. وهم حزب الله ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾. لهم العزة والنصر ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. الإيمان جهاد ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ﴾. الرضا المتبادل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، السابق، ص40 ـ 42.

(1) و﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، الأسرار والرموز، المقدمة، ص42 ـ 43.

(2) لاح شيخ الحق ذك الألمعي ... من حكى قرآننا بالفهلوي

السابق، ص10.

(3) قد أزاغ العين في الغرب سَناً ... لك من صاحب ما زاغ إمام

ضرب الكليم، ص60.

بالعصا فانفجر منه الماء وكما جاء في «ضرب الكليم»، وإجراء المعجزات. كل ذلك رموز للذات القادرة على المعرفة، المملوءة بالطاقة الحيوية، والقادرة على سماع الهاتف الباطني، وإجراء أفعال البطولة، وتفجير الصخر ماء[(1)]. فالكلمة صورة. كما تدخل بعض الصور مثل تصدع الجبل خشية من القرآن[(2)]. وبين الحين والآخر تظهر صورة ماء زمزم المشتعلة بالنار، وليس الماء البارد. وهي تعلو هامة قيصر. وقيصر يقف أمامها كالخادم[(3)]. وقد تستعمل الصور القرآنية استعمالاً حراً دون اقتباس آية في الصياغات الشعرية مثل اليد البيضاء، وسيناء، والخليل، ونوح والمصطفى، والكليم. . . إلخ[(4)]. وقد تطول الصورة مثل ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقّة: 7] وقد تقصر مثل «صرْصراً»[(5)]. والحكمة خير كثير ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ [البقرة: 269][(6)]. وكل شئ غير وجه الله هالك. وإذا دخل الملوك قرية أفسدوها. وخلق الله الناس من نفس واحدة[(7)]. واليد البيضاء، يد موسى التي أخرجها للناظرين أصل

---

(1) أنا في يأس من الصحب القديم ... مُشعل طوري ليغشاه كليم
السابق، ص7
إن تكن صحراء فاطلب لجَّتي ... أو تكن سيناء فاقبس شُعلتي
السابق، ص8.

(2) الذي يُصدَع منه الجبلُ ... وعلى الأفلاك منه وجل
الأسرار والرموز، ص112.

(3) شعلة الماء التي من زمزم ... قيصر يعنو لها كالخدم

(4) إنّ من سيناك للحق الحياة ... واليد البيضاء لي منها الممات
جاويد نامه، ص174
أمراء الشعر زانوا جمعهم ... واليد البيضاء ليست عندهم
السابق، ص261

(5) صرصرا واجعل هواء البادية ... إنهم أعجاز نخل خاوية
السابق، ص183.

(6) قال ربي إنها الخير الكثير ... إن تجده فاغتنمه يا بصير
السابق، ص207.

(7) الأمين العبد والرحمن مالك ... كل شئ غير وجه الله هالك
الملوك نكّسوا لله راية ... والقرى من ظلمهم في الذل غاية
خبزنا والماء تحوي مائدة ... إنما الناس كنفس واحدة
السابق، ص215.

الضياء[1]. وتوضع آية ﴿لَا تَخَفْ﴾ [هُود: 70] في النسيج الشعري[2].

قد يتغير منطوق الآية طبقاً لقواعد النظم مثل «لا غلاّب إلا هو» تطويراً الآية (لا غالب إلا الله)[3] التي تستعمل في الحياة اليومية إخفاء للعجز الذاتي، وطلباً للنصر من قوة خارجية. فالآية ليست بحروفها بل بظلالها من خلال اللفظ. وهو ما فعله ابن طفيل من قبل والسهروردي في «حي بن يقظان».

4 ـ البيت والآية

تظهر الآيات القرآنية في «رموز نفي الذات» داخل النسيج الشعري. فالتوحيد يعني أن يأتي الفرد الرحمن عبدا[4]. وإبراهيم أبو الجميع[5]. وعلاج التوحيد لعلل الخوف والحزن واليأس[6]. ودور الرسالة تطهير النفس والجماعة، وقبول توبة التائبين وهدى المهتدين[7]. . . . .

---

(1) الخفي منها وضاح الجلاء — واليد البيضاء أصل للضياء
إن نور الروح للحكم الفلاح — واليد البيضا بها الملك المباح
السابق، ص229 ـ 231.

(2) بلحن ليس من شرق وغرب — لتعزف «لا تخف» تطرب صحابا
أرمغان حجاز، ص459.

(3) بلا دين ولا تين — هوت في الفخ رجلاه
دواء العاجز المغلوب — لا غلاب إلا هو
ضرب الكليم، ص121.

(4) حوالي (18) مرة وهي:
في أتى الرحمن عبدا مُضمر — رمز التوحيد للقلب ببصر
الرموز والأسرار، ص87.

(5) نحن في الإسلام أبناء الخليل — من أبيكم خذ إذا شئت الدليل
السابق، ص88.

(6) عدة الموت قنوط محبط — والحياة الحق أن لا تقنطوا
قوة الإيمان تُحيي فاعلمن — ورد لا خوف عليهم فاقرأن
قلبه من لا تخف قلب سليم — حين يمضي نحو فرعون كليم
يا سجين الغم أبصر واسمع — من رسول الله لا تحزن وعِ
السابق، ص89 ـ 90.

(7) طهرا بيتي إليه أنزلا — بعد سيل من دموع سُيّلا
تب علينا نضرت زهرتها — فنمت في أرضنا روضتها
=

والحياة قصاص[1]. والوطن ليس أساس الأمة وإلا أصبحت خاسرة. بئس قرارها، وضل قومها إلى دار البوار[2]. والأمة المحمدية لا زمان لها بل هي منذ عهد النور الأول عهد «ألست» عند الصوفية وهو عهد ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأنعام: 30] عند إقبال. وهي محفوظة حفظ القرآن لا تموت إلا بموته. وهذا هو معنى التنزيل. ومن يُطفأ مصباحه؟[3] لقد نزلت الشريعة رحمة للعالمين[4]. إن توسيع حياة الأمة بتسخير موسى العالم. لذلك أمرت «انظروا» أي النظر في آثار الأمم للعظة والعبرة. ولقد علم آدم الأسماء. والنظر تعرف على ما تعلم الإنسان من قبل[5]. ولا يحزن المسلمون لأنهم الأعلون، تفاؤل مطلق بالنصر.

وينهي إقبال منظومة الأسرار بتفسير سورة الإخلاص، ودعوة المسلمين إلى فهمها وتمثلها والعمل بها. وهي بقايا محافظة عند إقبال أشبه بالحجاب والتعاويذ حتي ولو كان لها أصل في الحديث. كتابتها في حجاب، وتعليقها في الرقاب أو في المركبات أو بيعها في المواصلات العامة. فهي كالدواء للداء بدلاً من الطبيب. تستقي ما في الصدور. تفرز الوحدة في القلوب، وتوحد بين الأمم والأقوام والشعوب، أفغان وترك وعجم. وهي وحدة فعالة، تحول الإيمان إلى عمل.

= ذلك من يهدي إليه ما يريد ... حلقة منها حوالينا يشيد
السابق، ص95 ـ 96.

(1) وتلا القاضي حياة في القصاص» ... ذاك قانون حياة، لا مناص
السابق، ص102.

(2) طلبوا الجنة في بئس القرار ... فأحلوا قولهم دار البوار
السابق، ص105.

(3) أمة الإسلام تأبي أجلا ... أصلها الميثاق في قالوا بلى
لا تخاف الموت هذه الأمة ... نحن نزلنا لديها حجة
ذلك المصباح أنى يُطفأ؟ ... قال ربي عالما: أن يطفئوا
السابق، ص108 ـ 109.

(4) ذا بلاغ آخر للمرسلين ... قد تلاه رحمة للعالمين
السابق، ص111.

(5) أيها المقصود من أمر انظروا ... كيف في آفاقيا لا تنظر؟
علم الأسماء فخر الآدمي ... حكمة الأشياء نصر الآدمي
السابق، ص131.

ويموت الإيمان إذا لم يعمل[1].

ويشرح إقبال «الله الصمد» بإرجاع الآية إلى تجربة ذاتية، وإحساس داخلي، وعلم قبلي ذوقي، ومشاهدة عيانية على طريقة الصوفية. فمن تناقضات إقبال التي جعلت الفكر الإسلامي بعده ينقسم قسمين، محافظ ومحدد، موقفه من التصوف. فهو ضد التصوف الذي يؤدي إلى نفي الذات أي إلى الكسل والخمول والخوف والحزن، ومع التصوف الذي يقوم على إثبات الذات، والعشق، والحياة، والمشاهدة، والتجربة الذاتية والعيان. ويمدح الرسول لدرجة الوصول إلى الحقيقة المحمدية وكأن «حب المصطفى» هو الحل. «الله الصمد» يشعر بها بالقلب، وتخلص من القيد، وتحرر الإنسان من عالم الأسباب. فالحياة ليست لولباً من العلل. يكفي الإيمان بالله وعدم الشكوى لأحد، ولا مد اليد لأحد. يكفي أقل القليل حتى يتحرر الإنسان من مغريات الدنيا بما في ذلك تخت قابوس. هكذا انتصر المسلمون في عصرهم الذهبي، عصر هارون الرشيد، وبغداد والعراق[2].

(1) قلت: يا صفوة أصحاب الصفاء مطلع الديوان من أهل الوفاء!
بك قر الأس في بنياننا فانظرن ما الطب من أدوائنا
قال: خَتَام أسير الوهم سورة الإخلاص برء السقم
نفس في كل صدر جائل وهي للتوحيد سر هائل
فاجلُ هذا السر في كل الفعال ولتكن منه مثالا للجمال
الذي سماك عبدا مسلما بك للوحدة في الدنيا سما
قلت: أفغان، وترك وعجم لم تزل عما تعودت القدم
طهرّن الحق من هذي السمات اقصد البحر وخل القنوات
يا أسيرا لسمات ويحكا! قد بعدت اليوم عن دوحتكا
أبدل الوحدة بالتثنية لا تقطع صاح! حبل الوحدة
عابد الواحد! وحد واهجرن كل تفريق وللحق ارجعن
أمة قطعتها في أمم وهدمت الحصن فيه تحتمي
قوة الإيمان زد بالعمل مات إيمان إذا لم يعمل
السابق، ص140 ـ 149، المقدمة، ص51.

(2) أُشِعَرَّن القلب الله الصمد تخلصن من قيد أسباب وحد
لا تَبُثَنَّ شكاةً أحدا لا تمدن إلى الخلق يدا
خفف الزاد، طريق وعر عش ومت حرا. عداك الغرر
اجعلن أقلل من الدنيا الشعار وتعش حرا بها كلَّ الفخار
تخت قابوس اركلن بالأرجل ابذل الرأس وبالعرض ابخل
لم يخف هذا العقيق اليمنُ اقصدن بغداد، نعم الوطن
حبذا زهرة أيام العراق حبذا حسن به، الأعين راق =

ويستأنف إقبال تفسير سورة الإخلاص آية آية، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: 3]. ويحول المعنى من الله إلى الرسول، ومن التوحيد إلى النبوة. النسبة إليه ليست بالدم بل بالرسالة. ليست نسبة إلى العُرب أو الروم أو الترك أو العجم. تقليده طريق النجاة[(1)].

وينهي إقبال تفسير سورة الإخلاص بآخر آية ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: 4]، مطالباً بالعودة إلى العالم، وعدم احتقاره، والدخول في معاركه وأهمها: الكسل أم العمل؟ اليأس أم الأمل؟ العبودية أم التحرر؟ وسبيل ذلك هو التوحيد والأحدية، والتفرد والفردية. لا فرق في ذلك بين الله والإنسان. فكلاهما من أصل لغوي واحد «خود»، «خودى». الله بالفتح، و«خودي» الذات بالكسر. والمسلم لا يرضى إلا بالسمو. وكان الفاتح العربي يبني قصره بعد فتح المدينة أعلى الجبل. وكما قال أبو فراس:

ونحن أناسٌ لا توسط بيننا   لنا الصدر العالمين أو القبر

لماذا يحزن المسلمون وهم الأعلون؟ مهمة المسلم ليست التاج، وليست

= قال: إني خادم للمصطفى   وبحسبي حبه، لي شرفا
أنا، من قيدت في حبي له   كيف أنأى عن مكان حله
لي في يثرب حب واشتياق   أين من ليلي بها صبح العراق؟
عن طريق المصطفى لا تذهبن   واترك الأرباب، والله اعبدن
السابق، ص142 ـ 145.

(1) آه للسرو الذي قد ورقا   وشريكي في ولاء المصطفى
عينه تحرم إبصار النبي   وأنا أشهد أنوار النبي
ما من الأنساب يقوى وصلنا   ليس من روم وعرب أصلنا
إنما حب الحجازي الحبيب   قد حبانا ذاكم الوصل القريب
حسبنا آصرة من حبه   حب عين نشوة في قربه
جدد الدهر بنا سيرته   مذ حوت أعراقنا نشوته
عشقه سر اجتماع الأمة   نبضت منه عروق الملة
صلة العشق لنا أقوى سبب   هو في الروح، وفي الجسم النسب
أيها العاشق خلّ النسبا   خل إيران، وخل القربا
نور حق مثله أمته   قد نمت أغصاننا دوحته
نور حق ما حواه نسب   ثوب حق، لا سدى أو لُحمةُ
من ثوى في نسب أو بلد   قد غفا عن لم يلد لم يولدِ
السابق، ص146 ـ 147.

السير حافي القدمين. يحمل العالم كله على كتفيه وفي صدره، بره وبحره، أرضه وسماءه، هواءه وماءه. يسمع الرعد، يرى البرق، ولا يخاف. لا يسمع من ضوضاء العالم إلا الأذان. يعفو ويبذل، لين في السلم، قوي في الحرب. ومن لا يطير بجناحيه ليس له إلا أن يزحف على بطنه كالدود. ومن يشكي ذلك الزمان هو الذليل الذي هجر القرآن. فلماذا يرضى المسلم الزحف على الأرض ولديه إمكانية الصعود إلى السماء؟[1].

يستمر إقبال في «ضرب الكليم» في استخدام الآيات القرآنية داخل الأبيات الشعرية كنسيج أدبي وفكري واحد. فالشعر والوحي صنوان. السالك طامع إلى مقام ﴿علم الأسماء﴾. وذكر ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ يقيس الزمان والمكان[2]. وتدخل في البيت الشعري آية طويلة مثل ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾[3]. ويستعمل إقبال آية ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ لبيان الزمان النفسي، ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ في مقابل الزمان الجغرافي ﴿ثَلَٰثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾[4]. ورسالة الذات تعبير عن آية الأمانة

(1) صاح! ما المسلم للدنيا احتقر … عامرا بالحق قلبا قد عمر؟
لم يكن أمسك بها واشدد يدا … لترى في الناس حرا أوحدا
ذلك الواحد لا شرك له … عبده يأبى شريكا مثله
قد سما المسلم أعلى من سما … ليس يرضى بمُسام في السما
ورده لا تحزنوا في المأزق … أنتم الأعلون تاج المفرق
حمل الكونين طرا ظهره … وحوى برا وبحرا صدره
أذنه للرعد إما جلجلا … صدره للبرق إما نزلا
ليس في ضوضاء هذي الأمم … نغمة إلا أذان المسلم
هو في العفو وفي البذل عظيم … وهو حين القهر ذو طبع كريم
لطفه في الحفل جبر المنكسر … قهره في الحرب صهر للحجر
أنت يا من لم يطر منك جناح … دودة في ظلمة الترب تراح
مستكين تشتكي جور الزمان … قد أصبت الذل من هجر القران
قد هبطت الأرض طهرا كالندى … بالكتاب الحي أمسكت يدا
فإلام العيش في الترب؟ ارحلا … اصعدن فوق السماوات العلى

السابق، ص148 - 149.

(2) ذان للسالك الطموح مقام … نزلت فيه علم الأسماء
ولذكر سبحان ربي … والفكر يقيس الزمان والأرجاء

ضرب الكليم، ص14.

(3) السابق، ص38.

(4) يمر العام، ما ساوى الشعيرا … بآية كم لبثتم كن بصيرا

زبور العجم، ص382.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا﴾ التي تدخل في النسيج الشعري[1]. وبالرغم من العشق المتبادل بين الذات الإنسانية والذات الإلهية فإن الذات الإنسانية لا ترى الذات الإلهية إلا بعين البصيرة مستشهداً بآية ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [2]. والخلود منذ القديم منذ عهد ﴿أَلَسْتُ﴾، ورد البشر بالإيجاب ﴿بَلَىٰ﴾ [3]. وتدخل الآية مع تغيير بسيط مثل دخول آية ﴿وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ مع تبديل لفظ «القوم» بلفظ ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾[4]. ويستعمل الشاعر أمر ﴿لَا تَخَفْ﴾ ليشجع الأمة على الاقتراب من النار دون أن تحرق كما أمر الله موسى[5]. هي سيف يأخذها الإنسان بيده من الوحي. وأحياناً يلجأ الشاعر إلى الآية داخل نسيج شعره إن لم يستطع إعادة صياغتها مثل جعل القلب إمام الحضور. وهو نفس سؤال موسى ﴿أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾[6]. وفي وصف الطين الذي خلق منه آدم واعترافه بالألوهية واعتراض إبليس يستعمل إقبال جزءاً من آية ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾[7]. ويستعمل إقبال آية ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ داخل بيت شعر يعبر به عن ثقة الإيمان[8]. وفي ظلمة الليل يزوغ البصر. وهو تعبير قرآني في المعراج[9].

---

(1) أما قولي «أنا» وهو الضياء — وفي إنا عرضنا ما نشاء
السابق، ص389.

(2) بنور فلتنر من لن تراني — وإن أغمضت عينك أنت فان
السابق، ص394.

(3) ألست لخلوة قد صعّدتها — بلى أي المعارف ردّدتها
السابق، ص400.

(4) والعصر إن القوم لفي الخسر — وسل الطبيعة عن مفاصلها
السابق، ص433.

(5) فمن لا تخف شعلة لم تزل — تصاعد في الأجمة اللاهبة
جناح جبريل، ص437.
لا تخف كل سيف فخذها وهي وحي دون ريب
السابق، ص477

(6) أو لا يزعج قولي — أرني أنظر إليك؟
السابق، ص441.

(7) ربما مزقتْ لجبريل سرا — ورأى قوله أتجعل فيها
السابق، ص458.

(8) وليه وثيقة الأمن لا خوف عليهم في محكم القرآن
يا أمم الشرق، ص349.

(9) مساؤه ران على صباحه — بظلمة في ليلها زاغ البصر
السابق، ص353.

تعليم الله آدم الأسماء ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ سر لا يُعرف أو خمر يسكر. وهل يكشف الدعاء في ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾ هذا السر؟[1]. وما تصف به الآية السلوك الإنساني عندما قالت امرأة العزيز ليوسف ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ يأولها إقبال على الكون عندما سرى الضوء في الدنيا[2]. والذات لا تقوى ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي إلا باستقلالها وتفردها[3]. ويأمر الأفغاني المسلم ﴿قم﴾ كما أمر جبريل الرسول ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾[4]. والتجلي الإلهي لا يُري بالعين المجردة كما طلب موسى وكما أجيب ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾[5].

والاستخلاف في الأرض نص قرآني دخل في الصياغة الشعرية[6]. وقد تطول الآية دون أن تخرج عن النسيج الشعري مثل ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟...﴾[7]. وفي ليلة الإسراء والمعراج ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾. ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[8]. وقد يمتد

---

(1) علم الأسماء سر من دراه ... أسكرت من خمرها أو من سقاه
قد رشقْت الصدر منا بالسهام ... حرف ادعوني عن هذا الكلام
جاويد نامه، ص140.

(2) لام تلك الأرضَ مزروقُ الفلك ... ما رأت عين كهذا هيت لك
السابق، ص143.

(3) قوله إلا بسلطان تذكر ... أو فمت في الوحل والذر المبعثر
السابق، ص149.

(4) عالم في صدرنا هذا اختفى ... في انتظار قم لإنسان غفا
السابق، ص199.

(5) لن تراني إنها المعنى الدقيق ... ولْتضِعْ فيه فذا البحر العميق
السابق، ص 202.
حكيم دائما أخي كليما ... لسان ساكت عن لن تراني
أرمغان حجاز، ص439
ليس جد وجهد هذا الزمان لائقا بحديث لن تراني
السابق، ص520.

(6) قول إني جاعل تقديره ... بين أرض وسما تفسيره
جاويد نامه، ص200.

(7) أهل حرص أي خير حققوا ... لن تناولوا البر حتى تنفقوا
السابق، ص215.

(8) ثم ما زاغ البصر يضحي النصيبا ... لمقام عبده تمسي الرقيبا
السابق، ص220.

لفظ السورة إلى مصطلح وفترة زمانية مثل عهد ﴿أَلَسْتُ﴾ الذي أشهد الله به البشر على ألوهيته[1]. ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ في حاجة إلى فهم، بعيداً عن القضاء والقدر[2]. ومما يسهل استعمال الآيات في الشعر الصوفي تشابه المصطلحات مثل القرب والبعد[3]. وقد ترك المسلمون الأندلس وما زالت ﴿سِيمَاهُمْ﴾ من أثر السجود[4].

وأحياناً تبدأ الآية القرآنية مثل ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾[5]. وأحياناً تأوّل الآية في الشعر مثل تفسير ﴿أُوْلِي الْأَمْرِ﴾ بأن من يحق لهم أخذ الخراج، وليس من بيدهم السلطة السياسية أي التأويل الاقتصادي وليس السياسي[6]. وتوضع الآية في صورة مركبة مثل (ربي الأعلى) الذي تشير إلى العلو والرفعة[7].

5 ـ القصة الدينية

يكون التأويل للحكايات والقصص الواقعية أو الخيالية. فلكل فكرة حكاية أو قصة أي تجسد واقعي في التاريخ.

---

(1) قف تأمل وحدة قد شتتت ... و ألست عند قوم أُبطلت
السابق، ص226.
من ألست هزها فرط اضطراب ... سَكِرت من لحنها رشف الشراب
السابق، ص252

(2) ولهذا الشعر ما فهمت ... قبل فهم ربي ما رميت
السابق، ص263.

(3) إن قرب الروح من إني قريب ... من حياة الخلد للمرء النصيب
السابق، ص318.

(4) سيماك من أثر السجود على الثرى ... طرب يفوح ونضرة تتجدد
جناح جبريل، ص485.

(5) الحب ذو العصف والريحان ينبته ... من ظلمة الطين رب الحب والطين
السابق، ص506.

(6) وأقول لك يا عالي المقام ... لسوى اثنين الخراج كالحرام
لأولي الأمر و«منكم» شأنهم ... في الكتاب قوله برهانهم
السابق، ص327.

(7) ربي الأعلى أكانت عندنا ... ذنبه هذا أو ذنب لنا
السابق، ص327.

فقد نظم إقبال بعد مقدمة «الأسرار والرموز» بعض الأشعار في مدح سر سيد علي إمام حذفها في الطبعة الثانية[1]. وهي شخصية واقعية ولد عام 1869 وأصبح محامياً ثم وكيلاً لكلية عليكره ورئيساً فخرياً للجلسة التي عقدها حزب الرابطة أو الجامعة الإسلامية. ثم أصبح قاضيا. وعهد إليه بتشكيل الوزارة في حيدر أباد. وتوفي في 1932. وقد حذفت الحكاية من الطبعة الثانية. ومثل هؤلاء هم النجباء الفضلاء الذين يرجى منهم الخير. فالإصلاح ليس مجرد أمنيات بل يمكن تحقيقه.

وتصويراً للنيابة الإلهية يروي إقبال قصة فتى من مرو جاء إلى السيد المعظم علي الهجويري شاكياً بغي أعدائه. فالنيابة الإلهية تعني الخلافة في الأرض والكفاح والسعي والشهادة للبطل كما هو الحال في سمفونية البطولة عند بتهوفن التي كان أهداها إلى نابليون قبل أن يتوج نفسه ملكاً على فرنسا، ومثل «نداء البطل» عند برجسون في وصفه للدين الحركي عند الصوفية، وسماع الهاتف الباطني مثل جان دارك. وعلي الهجويري صاحب «كشف المحجوب» هو راعي مدينة لاهور وحاميها وواليها. يأتيه الفقراء للطعام المجاني من كل أنحاء باكستان والهند وآسيا أسفل المسجد. ويذكرون الله في حلقات الذكر في فناء المسجد المكشوف[2]. والقصة أن فتى أتي الشيخ شاكياً له بغي الأعداء. فأعطاه الشيخ درساً في إثبات الذات، وأن من تحلى بالجمال فإنه يتجلى في الجلال. ولو اختلط الخير بالشر في الحياة فإن الذات قادرة على أن تحرر نفسها من هذا الخلط. وتنتقل من الغم إلى الهم، ومن اليأس إلى الرجاء، ومن السكر إلى الصحو، ومن الغيبة إلى الحضور، ومن الفقد إلى الوجد، ومن رموز نفي الذات إلى أسرار إثبات الذات. الذات هشة كالزجاج، ولكنها صلبة كالحجر. وإن ضعفها يجعل الآخرين يطمعون فيها. وبالرغم من أنها من الطين إلا أنها شعلة نار. والشكوى للنساء. وقد يكون العدو صديقاً، والصديق عدوا. فالعدو تقوية للذات. نفي الذات إثبات لها. النقيض يحيي النقيض كما هو الحال في الجدل الهيجلي. قوة العزم تذيب الحجر، كالسيل لا يوقفه المانع. والشدائد تشحذ العزائم. إثبات الذات لا يقضي فقط على العدو بل يزلزل العالم. إثبات الذات بقاؤها، ونفيها فناؤها. الموت نوم الذات، والحياة

(1) سمير عبد الحميد، الأسرار والرموز، المقدمة، ص16.

(2) الأسرار والرموز، ص46 ـ 48.

يقظتها. وقد سُجن يوسف ولكن لم يُقض على ذاته، بل انتقل من السجن إلى الملك. وينتهي الشيخ بنصيحة الفتى باستحكام الذات، والنهوض، ونصرة الحق، وحمل الأمانة[1].

وتصويراً للنيابة الإلهية أيضاً يحكي إقبال قصة ثانية للطائر الذي أجهده العطش. فقد خدع الطائر بماسة، وظنها ماء. وبضربها بمنقاره دون أن يعرف «ضرب الكليم» تفجرت المياه من الصخر[2]. ثم رأى نقطة ماء مثل دمع البلبل

---

(1) علّمني أيها الشيخ الكبير ... كيف عيشي بين أعداء كثير
فأجاب الشيخ، من فيه الجمال ... قد تجلى في إطار من جلال
أيها الغافل عن سر الحياة ... لا يميز الخير من شر الحياة
حررن نفسك من يأس وغم ... أنت بأس نائم، قم لا تنم
إن رأى النفس زجاجا حجر ... فهو في الحق، زجاج يكسر
وإذا خارت قواه السائر ... قطع السبل عليه الفاجر
كم ترى نفسك طينا قد حقر ... شعلة الطور من الطين أثِرْ
فيم شكواك الرفيق النافعا ... فيم شكواك العدو الخادعا
كم عدو لك، في الحق صديق ... أنت بالأعداء ذو غصن وريق
قوة الأعداء فضلا يعلم ... من مقام «الذات» حقا يفهم
يوقظ الخصم قواك الهاجدة ... مثل ما تحيي الموات الراعدة
قوة العزم تذيب الحجرا ... لا يبالي السيل صخرا إن جرى
تشحذُ العزم عقاب السبل ... امتحان العزم بُعدُ المنزل
ما الحياة دون عزم مُحكِم ... ما غناء العيش مثل النعم
زلزل العالم وافعل ما ترى ... إن حبست «الذات» عزما مسعرا
اهجرن «الذات» إن تبغ الفناء ... واعمرن «الذات» إن شئت البقاء
ما الردى؟ إن يدرك «الذات» الوسن ... أتراه بعد روح وبدن؟
يا أخا يوسف في «الذات» أقم ... ومن السجن إلى الملك استقم
احكمن الذات وانهض عاملا ... ناصرا للحق، سِرًّا حاملا
السابق، ص47 ـ 48.

(2) طائر من ظمأ قد جهدا ... كدخان نَفَسا قد صعدا
قد رأى الماسة في مثل الندى ... صاغها ماء لعينيه الصدى
خدعته ذرة مثل الشرر ... فرأى الجاهل ماء في الصخر
لم يجد ريا بضرب المنقر ... لم يُصب ماء بنقر الجوهر
قالت الشذرة: جُنِّبت الهدى ... تضرب المنقار في جسمي سدى
لست ماء، لا تراني ساقية ... ما أنا من أجل غيري باقية
جاهل يقصد هضمي ما اهتدى ... لحياة نورها منها بدا
كل منقار بمائي ينكسر ... وترى الإنسان منه ينبهر
حسرة في صدره تتقد ... زفرات لحنه يصَّعِد
السابق، ص48 ـ 49.

على غصن أخضر انعكست فيها نور الشمس. فنقرها دون أن يعلم أن من هذه القطرة تجري الأنهار[1]. والنتيجة من المحاولتين أن قوة الذات قادرة على أن تفجر من الماس ماء، وتجعل القطرة نهراً، وأن قوة الذات هو نضج القطرة، وأن الذات فضة تحولت من زئبق. الذات سر ينكشف لمن يسبر غورها، وأوتار تصدر ألحاناً لمن يحسن تحريكها[2].

ويعطي إقبال قصة ثالثة «قصة الألماس والفحم». وهو حوار أيهما أفضل الألماس أم الفحم؟ وهو شكل أدبي في المفاضلة بين الشعراء مثل جرير والفرزدق، وفي الفلسفة بين المنطق والنحو، والنثر والشعر، والحساب والهندسة. وتحول إلى مفاضلات شعبية حتى العصر الحاضر بين عبد الوهاب وأم كلثوم، والطربوش والعمة، والمقرئ والمذياع. تباهى الماس على الفحم بأنه أبيض ساطع، والفحم أسود داكن. ومع ذلك كلاهما من أصل واحد في الكون. الماس على التاج زينة، والفحم في التراب مذلة. ينعكس الماس في المرآة، والفحم سبب سواد اليد. ويدافع الفحم عن نفسه ضد أفضلية الماس عليه بأن سواده يضيء الجمر وإن تحول بعدها إلى رماد تسير الأقدام عليه. ومع ذلك يصعد منه اللهب والشرار والدخان. ويقر بأن الماس كالنجم يشرق، وفضي يزين الخنجر[3]. ثم

---

(1)
وأضاءت مثل دمع البلبل ... قطرة في غُصن ورد خَضِل
لضياء الشمس فيها مِنّة ... ولخوف الشمس فيها رعدة
كوكب يرعد من نسل السماء ... شاقه الجلوة في هذا الفضاء
غره الأكمام والزهر الخصيب ... لم يزود من حياة بنصيب
قطرة من دمع صب تبهر ... زانت الهدب وكادت تقطر
فمضى الطائر فيها راغبا ... بلّ بالقطرة حلقا لاهبا

السابق، ص49.

(2)
أيها الباغي عدوا تقهر ... قطرة أنت، تُرى، أم جوهر؟
حينما الطائر أضناه صداه ... حيَّ نفسا بحياة من سواه
كانت الشذرة عضبا يرهب ... لم يكن قطرة طلّ يشرب
قوة «الذات» احفظنها أبدا ... وكن الألماس لا قطر الندى
أنضج القطرة كالطود تُرى ... حاملا غيما مفيضا أنهرا
أثبت «الذات» وفيها حقق ... فضة كن بالتئام الزئبق
ومن «الذات» أبِنْ أسرارها ... حرّكن عن لحنها أوتارها

السابق، ص49 ـ 50.

(3)
قصة أخرى بها أدلي إليك ... يفتح الحقُّ بها بابا عليك =

يتباهى الفحم على الماس ولا يكتفي بالدفاع. فأصل الماس الحجر. والحجر صلب مقاوم في الحرب. إذا نضج يشع فيصبح ماساً ينير الصدور. الماس يعيش على أصل الحجر، ويستمد ذاته من ذات غيره:

أمن غير ذاتك تعمر قلبا ... معاذَ الإله، ترى أين ذاتك؟

والدرس المستفاد هو أن يتطور الحجر فيصبح ماسا. وتهجر الذات ما ينتابها من فساد وغم، وتتحول من حجر إلى ماس. ويتم ذلك عن طريق الجهد والسعي والكد والكفاح ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾. والكعبة من حجر. وبها الحجر الأسود وليس الماس الأسود. يقبله الناس عن اقتناع إلا عمر عن تقليد. القوة الكامنة في الأشياء، وأصلها والماس، قوة كامنة في الحجر. فالحجر أفضل من الماس في الباطن، وليس الماس أفضل من الحجر على ما يبدو في الظاهر. هذا هو تأويل الطبيعة[1].

= قال للألماس فحم المعدن ... يا حليف النور طول الزمن!
نحن صنوان نمانا والدُ ... أصلنا في الكون أصل واحد
وعلى التيجان أنت الزينة ... وأنا في التُرب حظي الذلة
لك حسن في المرايا يسطعُ ... وأنا من كف ترب أضيع
من ظلامي قد أضاء المجمرُ ... ورمادا آض في الجوهر
موطئ الأقدام بين البشر ... قد رموا في مهجتي بالشرر
إن حالي ببكاء لحَرى ... هل ترى أصلي وفصلي هل ترى؟
إنني موج دُخان يُعقد ... كل ما فيّ شرار يصعَدُ
ومن الأنجم فيك الرونقُ ... كل جنب فيك نور يُشرق
تارة نور بعيني قيصرا ... تارة فصٌّ يزين الخنجرا

السابق، ص50 ـ 51.

(1) قال: فاسمع يا رفيقي وافهما ... ينضج التربُ فيغدو خاتما
شنّ فيما حوله حربا ومرّ ... وغدا بالحرب صلبا كالحجر
هيكلي من نضجه قد نوّرا ... وبصدري كم شعاع أسفرا
أنت من ضعف كيان تنفق ... وبلين في قوام تُحرق
اهجُرن خوفا وغمّا لا تُهن ... وانضجن كالصخر والألماس كن
من أجاد السعي والأخذ معا ... فهو في الدارين بدر طلعا
وبِحجْر الكعبة انظر حجرا ... كان من قبل ترابا حُقِرا
جاوز الطور علاء لا جرم ... ورجت تقبيله كل الأمم
قوة الأحياء عز ونجاة ... والونى والذل من ضعف الحياة

السابق، ص51.

ويحكي إقبال قصة رابعة، قصة الشيخ والبرهمي ومحاورة نهر الجنج وجبل هملايا أيهما أفضل كما فعل من قبل في محاورة الماس والفحم. ويعرج على طابع تقليدي فيه أصيل، في معنى دوام الحياة. فدعوة الأمة بالتمسك بسنتها دعوة للأصالة وحدها خاصة وأنه يري عدم جواز الاجتهاد في عصر الانحطاط(1). في القصة يدعو الشيخ البرهمي إلى الاستمساك بدينه البرهمي. والكمال فيه خير من النقص في غيره. فلا الموحدون يسيرون على نهج إبراهيم في تكسير أصنام قومه. ولا الوثنيون يعبدون التماثيل التي صنعها آزر وقومه. فالكمال أهم من الشيء الكامل. ومن هنا تأتي ضرورة التمسك بتراث الأولين، وعدم ترك نهج الأقدمين، حرصاً على الوحدة حتى ولو كانت في الكفر. وشمع الذات المميزة هو شرط الطير في السماء.

وفي المفاضلة بين النهر والجبل. النهر أفضل من الجبل لأنه يتحرك، والجبل ثابت. الجبل ثابت ثبات الذات. ولا يفنى كما قد يجف النهر. وإثبات الذات أفضل من نفيها. النهر أفضل لأن الجبل مقيد إلى الأرض. والنهر جريان وفيضان على الأرض. والحياة سير وسعي. والجبل الأفضل لأنه يحوي مياهاً كالنهر. والتغير فناء. ولا يفخر أحد بالموت. الثبات أفضل. والنماء في المكان مثل إثبات الذات. والزمان لم يؤثر على ثبات الجبل ولا براكينه. وقد تصل قمته إلى الفلك. والبركان في قلب الحجر. لا تصل إليه مياه النهر. النهر مجموع قطرات تغلبها الأمواج. مياهه من السحاب. يشكو من الجفاف أو من علو الموج. وفي كلتا الحالتين يبقى ضعيفاً عاجزاً(2).

---

(1) يا أمينا لتراث الأولين — لا تدع نهج الجدود الأقدمين
باجتماع الشمل تحيا الأمة — وكذلك الكفر فيه وحدة
إن إبراهيم فينا هُجرا — وبعدتم أنتم عن آزرا
قيسنا ما هام خلف المحمل — في جنون العشق لما يكمل
إن شمع الذات فينا لانطفاء — كيف يجدينا طواف في السماء؟
السابق، ص52 ـ 53.

(2) قيدت رجلك عن سير فما — هيبة فيك ورأس قد سما؟
إنما العيش مسير وصلا — وحياة الموج في أن يجفلا
إن هذا السير فيه الحين لك — من يزل عن نفسه يوما هلك
بمقام لك هلاّ تأبه! — أفخار بالردى يا أبله
إنما العيش نماء في المكان — وبروض الذات قطف الأقحوان =

6 ـ القصة الخيالية

يصور إقبال الصلة بين العلم والعشق كنصيحة ميرنجاه النقشبندي المعروف بباي صحرائي (الأب الصحراوي) التي كتبها لمسلمي الهند. فالحكيم يولد من الذات كما ينبت الورد من الأرض. الذات موطن الخلد، قطرة وكأنها بحر يروي. ولماذا تخشى الذات العدم والوهم وهي الوجود والحقيقة؟ هي شرارة من رماد يشعل البصر وهجا. هي الكعبة التي يطوف حولها المؤمنون وكما هو الحال في الثورة الكوبرنيقية عند كانط عندما يدور العالم حول الذات، ولا تدور الذات حول العالم[1]. يؤخذ العلم من الشيخ وليس من الحكيم، من القلب وليس من الجسم، من الرومي وليس من المشائي، من موسى وليس من الفيلسوف، من الذوق وليس من النظر، من التجربة وليس من الاستدلال، من أم الكتاب وليس من الكتاب[2]. العلم لا يأتي إلا من القلب، وليس من القديم أو من الفقهاء أو من التجارة بالدين. لا يذهب أبعد من الحس. والظاهر توقف عن السير، ووضع السيف في

= في دهور لم تزحزح أرجلي … أتراني زائلا عن منزلي؟
وإلى الأفلاك قدّي يصعد … فعلى سفحي الثريا ترقد
صخر قلبي وناري في الصخَر … ليس للماء إلى ناري ممر
فهو في فيضك دون الموجة … وهو في جدواك بادي الذلة

السابق، ص53 ـ 54.

(1) أنت كالورد من الأرض بدا … من ضمير الذات نلت المولدا
لا تعد الذات واخلُد أبدا … قطرة كن واشرب من البحر صدى
أنت موجود وفي خوف العدم … يا أسير الوهم أخطأت الفهم
هي جمع من رماد شررا … واشتعال بعدُ يعشي البصرا
هي حول الذات طوف فاعلم … واجعلن نفسك بيتَ الحرم

(2) أيها الجاهد في كسب العلوم … عن إمام الروم خذ نصح الحكيم
إنما العلم لدى الجسم شقاء … وهو في القلب دواء وشفاء
قصة الرومي تقضي بالعجب … كان فيضا من علوم في حلب
وعلى رجليه للعقل قيود … في ظلام العقل بالفلك يرود
هو موسى دون طور يشرق … ما درى ما العشق أو من يعشق
قال: ماذا القال والقيل وما … من قياس ودليل أوهما
فإذا الإدراك من نار القلوب … محرق والكتب منها في لهيب
قال: هذي النار ما قصتها؟ … أحرقت أسفارنا وقدتها
قال شمس الدين يا ذا المسلم! … ذوقنا والحال أنّى تعلم؟
حالنا أرفع مما نفكر … ولظانا الكيمياء الأحمر

السابق، ص58 ـ 60.

حلقه. فطرته خالية من العشق. لا يطلب الحق. لا يذهب أبعد من علل العقل. والعشق لها دواء. العشق هو المعبود. تعبد له أصنام العقول[1]. ثم ينادي إقبال على أمين السر لأم الكتاب كيف يمكن العودة إلى الوحدة الأولى بعد أن عم الكفر، وانتشرت الأصنام، وتحول العلماء إلى مشايخ، والكتب باليد إلى سبح. سادتهم الأهواء بعيداً عن التوحيد. يلبسون الخرقة، ويتاجرون بالدين. يذكر في حلقة مع مريدين، وينسى الأمة. يعبدون المناصب دون مراعاة لحرمة الأمة. يبتهل إلى الأوثان، ويقبض ثمناً للفتاوى[2].

وفي محاورة السهم والسيف مباراة بينهما أيهما أكثر إصابة؟. السيف ثابت لا يقذف، والسهم متحرك ويقتل عن بعد كلما اشتد القوس. السهم شعلة مصوبة إلى الصدر، في حين أن السيف يقطع بالنحاس. فالسهم أقوى. وهو إلى اندفاعة الحياة أقرب[3].

ويضرب إقبال المثل للخوف كقيمة سلبية بقصة السلطان عالمكير والأسد.

---

(1) من لهيب القلب علم الكامل — مقصد الإسلام ترك الآفل
قد نبذت الدين ظهريا وما — تبتغي بالدين إلا الدرهما
من حدود الحس لا ينطلق — وله الظاهر سجن مغلق
من لهيب العشق تخلو فطرته — في طلاب الحق تبدو خيبته
علل العقل لها العشق دواء — مبضع العشق لدى العقل شفاء
سجد العالم للعشق الجليل — هو محمود لأصنام العقول
السابق، ص60 ـ 61.

(2) يا أمين السر من أم الكتاب — هل إلى وحدة ماضينا إياب؟
نحن حراس حصون الأمة — كُفرنا ترك شعار الملة
تعمُر الكعبة من أصنامنا — يضحك الكفر على إسلامنا
شيخنا باع الدُمَى ملته — جاعلا زناره سُبحته
قلبه بيت لأصنام هواه — فهو صفر مقفر من «لا إله»
بمريديه أدام السفرا — في هدى أمته ما فكرا
يلبس الخرقة من يرخي الشعر — آه! للتاجر بالدين اتجر
عبّد الأشياخ فينا المنصب — حرمة الأمة منهم تذهب
واعظ عيناه شطر الوثن — وفتاوى تشتري بالثمن
عن طريق المصطفى لا تذهبن — واترك الأرباب، والله اعبدن
السابق، ص62 ـ 63.

(3) إنني في الجو أو في جعبتي — حيثما كنت، بجسمي شعلتي
وإذا القوس رمتني للثبور — بصرت عيني بأحناء الصدور
إن خلا الصدر من القلب السليم — ما به يأس ولا خوف مقيم =

عالمكير أحد ملوك المغول في الهند. نشر الإسلام. والتزم بحدود الشرع عكس السلطان أكبر الذي أراد توحيد الأديان، والتقريب بين الإسلام والهند وجمعهما في دين سماوي واحد مع احترام كامل للشعائر. وهو موقف إسلامي أصيل. ليس به كفر ولا خروج على الدين كما يرى إقبال. و«تاج محل» شاهد على ذلك. وهنا تبدو تقليدية إقبال ومحافظته التي تفجرت بعد وفاته. والمثل خارج عن موضوع الخوف. إلا أن العشق يظهر في نهاية المثل في مقابل الخوف. ما يدمره الخوف يبنيه العشق[1].

ويضرب إقبال المثل على معنى الأخوة الإسلامية بقصة أبي عبيد وجابان. أبو عبيد أمير عربي، وجابان أسير أعجمي أُعطي الأمان. ثم اتضح أن الأسير أمير وجب قتله لأنه محارب، عدو المسلمين، ولكن الأمير العربي رفض لأنه أعطاه الأمان[2].

= نفذ النصل خلال الأعظم فكسوت الجسم درعا من دم
السابق، ص92.

(1) إن عالمكير عالي المنزل من بني تيمور فخر الدول
كان للإسلام منه عزةٌ ولحكم الشرع فيه حرمة
آخر الأسهم في جعبتنا في ذياد الكفر عن ملتنا
غرس الإلحاد فينا أكبر فنما في طبع دارا يزهر
وخبا في الصدر مصباح الفؤاد وبدت أمتنا رهن فساد
إنما العبد أمام الحق «لا» وهو للزور «نعم» لن يبطلا
أيها الغافل قلبا حصّلا هيّئن للحبّ هذا المحملا
ابذل النفس تنلها لا مفر ذل للحق تنل عز الدهر
أحرقن بالعشق خوفا وانهدا حملا في الحق ليثا للعدى
إن خوف الله إيمان جلي ثم تقوى غيره شرك خفي
السابق، ص93 ـ 95.

(2) مسلم في حومة الحرب أسر قائدا من جيش كسرى ذا خطر
قال للآسر: يا ذا الكرم آمنني، ذاك شأن المسلم
فإذا المأسور جابان الكبير قائد في جند إيران أمير
بوعبيد قائد العُرب الأبي عزمُه في الحرب عن جيش غني
قال يا قوم: ألسنا المسلمين نغمة واحدة في العالمين؟
كل جندي أمينُ الملة صلحه والحرب عهدُ الأمة
إن جابان عدو غشيم لكن الأمن حباه مسلم
دمه اليوم عليكم حرما أمة المختار، أوفوا الذمما
السابق، ص99 ـ 100.

ويحكي إقبال قصة السلطان والعمار في معنى المساواة الإسلامية. كان عمار شهيراً في تشييد المساجد. غضب السلطان عليه لنقص في الاتقان. فقطع يده. فهرع إلى القاضي يشكو، والدم يسيل من يده. فاستُدعي السلطان وهو خائف من تطبيق الحد عليه. وندم السلطان وأصدر القاضي الحكم ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾. فعفا العمار عن السلطان لما رأى عدل الملك. فقد عزت نملة سليمان القوي. لقد ساوى القرآن بين الناس، بين المولى وفتاه، بين الملك والمملوك[1].

---

(1) صانعا فرهاد حقا ولدا ... لمراد مسجدا قد شيدا
غضب السلطان من تقصيره ... لم ير الإتقان في تعميره
قدحت عينُ المليك الشررا ... ويد المسكين فورا بترا
سار للقاضي حزينا يجأر ... دمه من يده ينهمر
قال: يا من قوله الحق المبين ... يا حفيظا شرع خير المرسلين
لست للسلطان عبدا فاسمع ... حكِّم القرآن فينا واقطع
فأتى السلطان يخشي ذنبه ... هيبة القرآن تدمي قلبه
وقف الخصمان: خصم يشتكي ... وخصيم في ثياب الملك
جهر السلطان: إني نادم ... لا أرد الحق إني جارم
وتلا القاضي: «حياة في القصاص» ... ذلك قانون حياة، لا مناص
ليس دون الحر عبد مسلم ... وحد المعمار والملك دم
سمع القرآن يملي حكمه ... فنضا السلطان فورا كمه
إذ رأى الخصم الذي قد فعلا ... آية الإحسان والعدل تلا
قائلا: لله أعفو وكفى ... إنني أعفو لأجل المصطفى
نملة عزت سليمان القوي ... انظرن سطوة قانون النبي
جمع القرآن مولى وفتاة ... وذوي التيجان سوى بالرعاة

السابق، ص101 ـ 102.

الفصل الثاني

نفي الذات

1 ـ التصوف السلبي

نقد التصوف موضوع شائع في كل الدواوين والكتابات النثرية لإقبال. وهو الرمز الأول لنفي الذات. ويصدر إقبال «رموز نفي الذات» ببيت من جلال الدين الرومي كما صدّر «أسرار إثبات الذات» بأربعة أبيات منه[1]. فنفي الذات لا يتم إلا بإثبات الذات. ولا يتم إثبات الذات إلا بالاجتهاد كمبادرة من الذات دون توقع، كبداية وليس كنهاية. وفي إهداء المنظومة إلى الأمة الإسلامية يعبر إقبال عن تصوره لدور العشق كوسيلة للمعرفة والسلوك، مستعملاً لغة النور والنار والاحتراق.

«زبور العجم» ديوان غنائي. في معظمه غزل مع الطبيعة كرمز للألوهية كما هو الحال في «التأليه الطبيعي»[2]. وهو أكثر شعرية وأقل فلسفية باستثناء القسم الثالث. يتكون الديوان من أربعة أقسام. الأول، يبدأ بدعاء ثم ست وستين قطعة أغلبها بلا عنوان. والثاني خمس وسبعون قطعة أيضاً أغلبها أيضاً بلا عنوان[3]. والثالث بعنوان «حديقة السر الجديد» صدر عام 1929، مساجلة مع «روضة السر»

---

(1) جِدْ بنفي الذات ذاتا، لا تهاب   اجتهد؟ والله يَهديك الصواب
الأسرار والرموز، ص77 ـ 80.

(2) التأليه الطبيعي Deism.

(3) قام بترجمة القسمين الأول والثاني أربري تحت عنوان Persian Psalms (Zaburi Ajam), Parts I, II, Translated into English Version from the Persian of the Late Arthur J. Arberry, Muhammed Ashraf, Labore, 1948..

لمحمود الشبستري أحد أعلام التصوف في القرنين السابع والثامن، إجابة على بعض الأسئلة لبعض الصوفية. يجيب إقبال عن تسعة أسئلة في التصوف كفلسفة إلهية[1]. والقسم الرابع «كتاب العبودية»، يبين فيه الشاعر آثار العبودية في الحياة والفنون. ميزة التصوف الوحيدة هو الشعر. فالصوفي شاعر، والشاعر صوفي[2].

ونفي الذات على قسمين: الأول نتيجة العشق. والثاني وصول الذات إلى مرحلة الفناء في ذات الحق كما يصف مجموعة من الدراويش الهندوس. قد يكون الأول مفيداً، في حين أن الثاني ضار للغاية. يقضي على الهمة ويبعث على الكسل. يرفض إقبال كليهما. والحقيقة أن نفي الذات هو التحكم في الأهواء والرغبات والميول، والتمسك بأحكام الشرع. وهو نفي الفناء في التصوف الإسلامي الحقيقي، وليس في التصوف العجمي الدخيل[3].

يرفض إقبال التصوف من أساسه. يرى المعجزات في كل شئ مع أنها من الممكنات. يرى العالم بعين الخيال. والعالم حياة وموت. يغيب عنه الوعي، والوعي بالذات هو وعي بالعالم[4].

وكان لأفلاطون أثر سلبي على تصوف المسلمين وآدابهم. لذلك وجب الاحتراز منه. لقد دفع التصوف المسلمين إلى الرضوخ والخنوع والاستكانة ثم العبودية. واعتراض إقبال على أفلاطون هو اعتراضه على كل المذاهب الفلسفية التي تقوم على الفناء وليس على البقاء والتي تغفل المادة لصالح الصورة. تنكر الحياة. وتجعل جوهرها الموت. وتدعو إلى أن العالم مجرد ظاهر، وأن الحقيقة خارج هذا العالم. وبدلاً من السيطرة على العالم وتسخيره تدعو إلى الانعزال عنه،

(1) وقد نقله إلى العربية شعراً د. حسين مجيب المصري، ص 371 ـ 372.

(2) Persian Psalms, p. 107.

(3) الأسرار والرموز، المقدمة، ص19 ـ 20.

(4) ترى عيناك دنيا المعجزات وفي عينيَّ دنيا الحادثات
ومن دنيا الخيال عجبتَ فاعجب لدنيا للحياة وللممات
تبدِّلها بنظرة غير واع وكم تدعوك دنيا الممكنات
ضرب الكليم، ص21.

والفرار منه[1]. أفلاطون من فريق الضأن أي بلا عقل، شاة في لباس الآدمي. أعياه الدهر فكل. لم ير الواقع المحسوس. صمتت آذانه وأطبقت عيونه. الحياة لديه في الموت. والفلسفة تعلم الموت. أنكر عالم الأشياء. وجعل حقيقتها في المثل في السماء. ومن ثم فالعمل ليس للدنيا بل للآخرة. فتواكل الناس[2].

عيب أفلاطون أنه آثر الحياة على الموت. وتصور أن الحقيقة لا تكتشف إلا بعد الموت لأن هذه الدنيا التي نعيشها عالم الظاهر. ومن ثم كانت الفلسفة تعلم الموت. الحقيقة هي هذه الحياة، كشرار بجنح الليل يشب. ومقصد رؤية الذات والوعي بالذات في هذه الحياة وليس فيما وراءها. إثبات الذات في الحياة هو الطريق إلى إثباتها بعد الممات[3]. إن وصف أفلاطون للعالم لا يدعو للثقة لأن القلب قادر على إدراك اللانهائي دون تدخل الخيال، وقسمة العالم إلى ظاهر باطل وباطن حقيقي[4]. والأفضل قطار اللصوص من العقل السماوي الملاحق. الأفضل هم القلب من كل فن العالم لأفلاطون[5].

للأسف دنس العقل الغربي ينابيع المعرفة اللانهاية. كما أضل أفلاطون

---

(1)
واهب الماضين أفلاط الحكيم — من فريق الضأن في الدهر القديم
طِرفُه في ظلمة العقول ضل — في حزون الكون قد أعيا وكل
فكره في غير محسوس فُتن — صد عن كف وعين وأذن
قال: في الموت بدا سر الحياة — في خمود الشمع يزداد سناه
هو شاة في لباس الآدمي — وهو في الصوفي ذو بأس قوي
عالم الأشياء سماه الهراء — وعلت أفكاره فوق السماء
هلك أقوام بهذا الثمل — حرموا بالنوم ذوق العمل

الأسرار والرموز، ص30 ـ 31، المقدمة، ص16/ 48، خلاصة مقال الشاعر إلى الأستاذ نكلسون، ص18.

(2)
حياة بالحقائق في قرار — وليس بما يطلسم أفلطون

ضرب الكليم، ص33.

(3)
يبصر الموت عاقل، فحياة — كشرار بجنح ليل يشب
ما إلى الموت والحياة التفات — مقصد الذات رؤية الذات حَسْبُ

السابق، ص48.

(4) Persian Psalms, p. 11.

(5) Ibid., p. 17.

والرواقية العالم كله. ووضعوه في الوحل[1].

لقد ظهر التصوف في التاريخ الإسلامي كحركة مقاومة سلبية في الصدر الأول ابتداء من الفتنة الكبري لدى الزهاد والعباد والبكائين بعد أن عزت المقاومة الفعلية للحكم الأموي، وصعب استرداد الشرعية لعلي والحسين. استشهد أئمة آل البيت وأوائل الصحابة. فآثر الصوفية انقاذ النفس بعد أن استعصى عليهم انقاذ العالم. وخلقوا عالماً وهمياً بديلاً من الأقطاب والأبدال والمشايخ والمريدين من صنع الخيال[2].

الصراع بين الفقهاء والصوفية إذن صراع حقيقي، أهل الظاهر وأهل الباطن، أفعال الجوارح وأفعال القلوب. وكان الحلاج ضحية هذا الصراع بين الجهر بالقول والصلب، بين التسامح والتعصب[3]. ومع ذلك يتشابه الصوفي واللاهوتي. إذ يريد كلاهما استبدال البخور بالحجر، والإيمان الحي بالوهم أو بالمعتقدات. وقد خلا المنبر والمحراب من صيحة الحق أو من صرخة السحر. وقد كان الآذان من قبل تميل له الجبال[4]. والصوفي واللاهوتي والمجتهد، كل منهم في سكرة الوجد أو العقل أو النظر. ومع ذلك عز الثلاثة روح الطموح. كل منهم في زاوية أو مدرسة أو مسجد، في قفص صغير يتيه فيه. وهو سجن بلا قضبان إلا أن القيد الخفي غير مرئي، قيد القلب أو الذهن. ويتحرر كل منهم بالتجربة، تجربة الحياة. وتقضي على حيرته[5].

---

(1) Ibid., p. 21.

(2) «وكل شعر التصوف ظهر في زمان ضعف المسلمين السياسي. وكل أمة يصيبها ضعف كالذي أصاب المسلمين بعد غارات التتار تتبدل أنظارها، وتجعل الاستكانة في أعينها، وتركن إلى ترك الدنيا. وفي هذا الترك تخفي ضعفها»، الأسرار والرموز، مقدمة عبد الوهاب عزام، ص12.

(3) بين المحقق والفقيه خصومة ... عصفت بمنبر ذلك المسكين
لما رئي الحلاج فوق صليبه ... كسر الصليب تعصبا للدين
ما بين منبر ذا وبين صليب ذا ... لم ألق غير خصومة من طين
جناح جبريل، ص422.

(4) صوفينا خلف لاهوتي أديرة ... يريد يستبدلُ البخُور بالحجر
والمنبر اليوم والمحراب قد فرغا ... من صيحة الحق أو من صرخة السحر
أين الأذان الذي كانت تميد له ... روح الجبال وأين الصعق في الصور؟
السابق، ص434.

(5) أفيلسوف وصوفي ومجتهد ... في سكرة من كؤوس السمع والبصر =

ثم انهار التصوف. كان لدى الصوفي دِن لم يرتو منه. أغلق مكتبه. وهجر طريقه. وغادر مجلس الشعراء. ومات اللحن في نايه[1]. خمر الصوفية خالية من الحرقة[2]. وجميع العارفين والعامة غرباء عن الذات. ولا يستطيع أي منهم التمييز بين المسجد والخمارة[3].

ويسأل إقبال ماذا يأمل الإسلام من سلوك الصوفي، الرضا بالفقر أم أن طيش الملوك أفضل؟ ويجيب الرومي بأن جنة الإسلام في ظل السيف، وأن الجهاد سنامه، وليس ما يطلبه الرهبان والصوفية من أمن الكهوف[4].

الصوفي الحق من رجال الله. يجيد الضراب والطعان، وليس الذي يضرب رمحه في الهواء. والحر هو الذي يضع على رأسه تاج الأحرار، لا خرقة الصوفي أو قلنسوة الفقيه. ومن ترابه يصنع الدهر الشرار. فطرته الحرة تجعله يعاف الدنايا، ولا يطوف حول الأصنام، بعيداً عن التدين على طريقة الوثني الذي يقدس أهواء النفس، وهي الأصنام الجديدة[5].

وبالرغم من النقد اللاذع للتصوف إلا أنه تجربة فردية كشفية تهتك الأسرار،

= ما في الثلاثة من أبدى فوا أسفا ... من روح ذي طمح في عين منبهر
كانت بزاوية الأقفاص بغيتهم ... لو أمعنوا قبل هذا التيه بالنظر
سجن التفلت لا قضبان تمسكه ... ورب غل خفي بالغ الأثر
تغنيك إن حرت فيما قلت تجربة ... فما التجارب إلا مرهم الحير

السابق، ص439 - 440.

(1) لدي الصوفي دن ما رواه ... ويطوي مكتبا نهجا طواه
أغادر مجلس الشعراء كرها ... ومات اللحن في ناي حواه

أرمغان حجاز، ص444.

(2) السابق، ص534.

(3) السابق، ص539.

(4) قال: ماذا يأمل الإسلام من هذا السلوك؟
ألكي نرضى بفقر ... أم إلى طيش الملوك؟
قال رومي: جنة الإسلام في ظل السيوف
ليس ما تطلبه الرهبان من أمن الكهوف

جناح جبريل، ص526.

(5) إنما الحر من يجيد ضرابا ... لا الذي حربه تدور هُراء
وسجايا الأحرار تجمع تاجا ... ذا سناء، وخرقة وقباء
من خفايا ترابهم أخذ الدهر ... شرارا فصاغ منه ذُكاء =

وطريق خاص لا يسلكه إلا من هو قادر عليه وأهل له[1].

وأخذ علماء الهند طبقاً لطوائفه من إقبال أربعة مواقف:

أ ـ علماء ديوباند وقفوا موقف المحايدين دون موافقة أو اعتراض.

ب ـ المثقفون المتغربون والمتشبعون بالثقافة الإنجليزية وهم الأكثرية لم يفهموا «الأسرار والرموز» لأنها تعتمد على القرآن وعلى مثنوي الرومي باستثناء القلة.

جـ ـ عامة المسلمين لم يفهموا شعر إقبال لأنه بالفارسية.

د ـ الصوفية عادوا إقبال لهجومه على التصوف خاصة حافظ لعدم تفرقتهم بين التصوف الإسلامي والتصوف غير الإسلامي. الأول يدفع إلى الثورة، والثاني يدعو إلى الخمول. الأول أمل، والثاني يأس. وفي رسالة إلى أكبر إله أبادي يبين إقبال أنه يدافع عن التصوف الذي يقوم على إثبات الذات، وليس نفيها[2].

حياة الإنسان هي حياة الوجدان. فلا شرب من كأس إلا مع صدق الوجدان. والنشوة مع القدماء الأوفياء، وليس مع قيصر الرومان[3]. والقدماء يحفظون الأسرار. لا تفشي الأنعام أسرار الأسود. ولا يفشي الصقر حديثه للغربان. كل على ما تعود. ومن شاب على نسج الحصير عجزت يداه عن نسج الحرير[4]. يكشف

= فطرة حرة تعاف الدنايا ... من طواف الأصنام عاشت براء
أنت في الكفر والتدين جمعا ... وثني تقدس الأهواء
ضرب الكليم، ص27.

(1) وبالرغم من أن أهل القلوب ... تهتك أسرارها في البلاد
فإن الطرائق هذه الجريئة ... يصعب إطلاقها للعباد
جناح جبريل، ص454.

(2) الأسرار والرموز، المقدمة، ص17 ـ 18.

(3) لا تصحبن في شرب كاسات المنى ... إلا وفيًّا صادق الوجدان
لا ترج في ندماء غدر نشوة ... ولو أن فيهم قيصر الرومان
لا تفش للأنعام أسرار الأسو ... د ولا حديث الصقر للغربان
من شاب في نسج الحصير فما له ... يوما إلى نسج الحرير يدان
يا أمم الشرق، ص343.

(4) إن سر الأسد في حصن الأجم ... لا تعيه في مراعيها النعم
ليس كل الخلق أهلا للعهود ... لا تبح بالسر إلا للأسود =

القدماء لبعضهم أسرارهم بشرط أن يكونوا أهلاً لذلك. فلا تسر الأسد للنعام أسرارها. وليس كل الخلق أهلاً للعهود. الندماء للأصدقاء وليس للأذلاء أو للقياصرة أو الأباطرة.

ومع ذلك، يرفض إقبال تفرقة الصوفية بين العوام والخواص. فقد حلل الخواص على أنفسهم ما حرموه على العوام. لا يوجد الصدق إلا في العوام. والغويّ غير التقي. الخواص يلوحون كالبرق. ينير ظلام العوام ولا يتعالون عليهم[1]. العوام أفضل من الخواص لأن الخواص ثملوا ومروا[2].

= عن تعاطيت مع الصحب المداما   أبعد السفلة عن حقل الندامى
هبْه كسرى هَبه أيضا قيصرا   لن ترى فيه النديم الخيّرا

السابق، ص345.

(1) كل خير للخواص كالحرام   ما رأيت الصدق إلا في العوام
التقي من غَوِي ميِّزنْ   مع أهل الفضل والحق اجلسنْ
رجل الله يلوح مثل برق   حطبا يجعل من غرب وشرق
نحن كنا في ظلام الكائنات   وهو ذو حذق بحل العضلات

جاويد نامه، ص333.

(2) عوام القوم عايشهم رويدا   فإن خواصهم ثملوا ومروا

أرمغان حجاز، ص423.

2 ـ وحدة الوجود

العقيدة الأولى في التصوف غير الإسلامي هي عقيدة «وحدة الوجود» التي تنفي أي فرق بين الإنسان والله والعالم. هناك حقيقة واحدة متحققة، لا مكان فيها للعمل والفعل، ولا للمسافة بين المثال والواقع حتى يستطيع الإنسان أن يحقق بعمله وجهده المثال في الواقع. الإنسان خليفة الله في الأرض. والعالم فسيح لجهده وكده. ليس الإنسان هو الله ولا العالم. وليس الله هو الإنسان ولا العالم. وليس العالم هو الإنسان ولا الله. الإنسان موجود بالفعل. والله مثل أعلى. العالم ميدان للنشاط والكد والكدح. والإنسان حر مختار مسؤول عن أفعاله. والعبادة هو الاستخلاف في الأرض، وحمل الرسالة والأمانة. ومن هنا أتت ضرورة إثبات الذات في «أسرار النفس»، داعياً إلى تحمل المسؤولية من أجل بناء عالم جديد. يكون فيه الإنسان حرا. وتمحي فيه عبودية الإنسان للإنسان[1]. هذا هو موقف التصوف العجمي مثل تصوف حافظ الذي ينكر الذاتية. ويريد إماتتها باسم الفناء في الله. وهو تصوف ابن عربي خاصة وحدة الوجود والغريبة على الإسلام. وهو تصوف القرامطة الذين أرادوا إسقاط الشرائع[2]. خلود الذات أمل. والأمل تحقق بالعمل والجد والاجتهاد. ولا يمكن ذلك عن طريق بوذا والتصوف العجمي[3].

وفي عرض إقبال نظرية الوحدة المطلقة عند عبد الكريم الجيلاني والأصح الجيلي، يستعمل الفلسفة الغربية كأداة للتعبير في نظرية الإنسان الكامل، تطويراً لنفس النظرية عند محيي الدين بن عربي[4]. ويعطي إقبال تأويلاً إنسانياً لها. فالإنسان الكامل يصف الله والإنسان في آن واحد. يفسرها الصوفية إلهياً، ويؤولها إقبال إنسانياً[5].

وفي مقطوعة «إلى سيد مصاب بالفلسفة»، وحدة الوجود ليست فقط عند

---

(1) الأسرار والرموز، المقدمة، ص7 ـ 8.

(2) السابق، ص11.

(3) السابق، خلاصة مقالة الشاعر إلى الأستاذ نكلسون، ص18.

(4) Iqbal: Thoughts and Reflections, the doctrine of Absolute Unity as expounded by Abdul Karim al - Jilani, pp. 3 - 27.

(5) من العقيدة إلى الثورة، ج2، التوحيد. إلهيات أم إنسانيات؟ ص600 ـ 664.

الصوفية بل أيضاً عند الفلاسفة الرومانسيين من أمثال هيجل وشلنج. وفيها تُسقط الذات من المذهب لحساب الكل. ويصبح العالم من نسج الخيال. إنما هو برجسون الأقرب للحقيقة، إثبات الذات. الذات هو الطريق لإثبات الوجود، وتحويل الظلام إلى إشراق عن طريق الأذان أي الإعلان عن الإيمان. الفلسفات الهندية تذيب الذات في بحر الوجود. والفلسفات الوثنية تجسم الذات في الصنم، وتثبتها في الوثن. في حين أن الوحي عن طريق الأنبياء إثبات للذات من إبراهيم حتى محمد مروراً بموسى وعيسى. الفلسفات العقلية تبخير للذات، بعيدة عن الحياة، أفكار بلا أعمال، أصداء بلا أصوات، عقل بلا قلب، حرف وتدوين دون صوت وقراءة. ولا يغني ابن سينا عن علي بن أبي طالب، ولا يغني البخاري عن القرشي[1].

المسيح وإسبينوزا كلاهما تجليان لوحدة الوجود. فقد أخرج العرق اليهودي هذين الرجلين العظيمين. المسيح هو الله المتجسد في الابن. وعند اسبينوزا المتجسد في العالم. فاسبينوزا هو الذي أكمل تعاليم قومه بالرغم من معارضتهم له[2]. ولا يمكن إنكار مساهمة اليهودية في الحضارة الإنسانية. ربما كان اليهود أول من نظّر لأخلاق رجال الأعمال وتلخيصها في مفهوم الاستقامة لمقاومة الربا والمصلحة والغدر[3]. فوحدة الوجود قد يكون لها أثار على السلوك الإنساني.

---

(1) لو لم تُوَلِّ ذاتك النسيانا … لم تحملن زُنّار برجسانا
أصداف هيجل من الخوالي … طِلْسمه جميعه خيالي
فكيف صاح تُحكم الحياة … وكيف تجتاز الزمان الذات؟
وطلب الإنسان للثبات … وقصده دستور ذي الحياة
يُحوّل الدجى إلى الاشراق … أذانُ مؤمن نِدا الآفاق
عاقبة العقل إلى شتات … فلسفة بُعدٌ من الحياة
ونغمة الأفكار دون صوت … للذة الأعمال حادي الموت
الدين في حياتنا تقويم … الدين أحمد وإبراهيم
قلبك فاربط بالهدى المحمدي … «أبا علي» ارتكنْ يا ابن علي
إن تك بالطريق غيرَ داري … فالقرشي اتبعه لا البخاري

ضرب الكليم، ص10.

(2) St. Ref., p. 39.

(3) Ibid., p. 56.

إقبال صوفي أبا عن جد، ولكنه يرفض وحدة الوجود لنتائجها السلبية على حياة المسلمين. ومنها ظهور الرهبانية، ولا رهبانية في الإسلام. إنما الرهبانية في المسيحية وفي التصوف الإيراني[1].

3 ـ الفناء

كان يريد إقبال كتابة «من الفناء إلى البقاء» أي من «رموز النفس» إلى «أسرار النفس» أو «من السكر إلى الصحو» أو «من الخوف إلى الرجاء» أو «من الغيبة إلى الحضور» أو «من الفقد إلى الوجد» أي الانتقال من الحالة السلبية إلى الحالة الإيجابية. الذات تبقى ولا تفنى. والصراع مع الفناء يؤدي إلى البقاء. تصوف الفناء غريب عن الروح. وتصوف البقاء دبيب في الأرض[2]. والعشق يبقى ولا يفنى[3]. أما عند الصوفية وفي الدين الشعبي، الدنيا دار الفناء، والآخرة دار البقاء. وإذا كانت غاية الإنسان الآخرة فإنه يتحول من دار الفناء إلى دار البقاء[4]. وهو أحد أسباب ضعف المسلمين وقوة الغرب. المسلم مسافر لا يعرف معنى الارتقاء والتحول من الفناء على البقاء[5]. وسكون الليل معناه الفناء. واندفاع السيل إثبات للبقاء[6]. إذا استحكمت الذات فإنها تنتقل من الفناء إلى البقاء[7]. والروح لا تفنى

(1) الأسرار والرموز، المقدمة، ص20 ـ 23.

(2) بروحي للحياة مع الفناء — صراع، لا أرى غير البقاء
رأيت ثراك عن روح غريبا — ففيه نفخت من روحي دبيبا
زبور العجم، ص375.

(3) وما لأجيج عشق من فناء — ونظرة ذي اليقين بلا انتهاء
السابق، ص393.

(4) لنا الكاسات دارت بالفناء — وقد ذقناه من وان ونائي
السابق، ص398.

(5) هذا المسافر كيف يرجع من ظنون الارتقاء؟
هو نفسه ما عاد يعرف ما الفناء وما البقاء؟
جناح جبريل، ص512.

(6) اندفاع السيل إثبات البقاء — وسكون الليل معناه الفناء

(7) فكيف تخاف من ريب الفناء؟ — إذا نضجتْ، فعنها الموت نائي
زبور العجم، ص392.

إذا فني الحب[1]. ونهضة الأمة مشروطة بذهاب درب الفناء، وقدوم عاصفة البقاء[2].

قد يتساءل الملحد أو صاحب النزعة الإنسانية: هل الإنسان فان والله باق أم أن الإنسان باق والله فان؟ وإن تحقق الوحي كنظام مثالي للعالم، هل الإنسان في الأرض ويسكن السماء أم أن الله في السماء ويتحقق في الأرض؟[3]. الإحساس بالفناء هو الذي يعطي الذات الرغبة في البقاء[4]. وتتحقق هذه الرغبة بإشعاع الذات ونورها، وتجديد الجسم البالي وصقله لإطالة العمر[5]. والشوق هو الذي يحول الذات من الفناء إلى البقاء[6].

يقود الزهد الشائع عند الصوفية إلى الفناء. وهو في حقيقته طوفان توارى في حباب[7]. وكل ما في الأرض يفنى[8]. يتحدث الحكماء عن لحظتين. الوجد والفناء. فالوجود هو البقاء[9]. الفناء والبقاء معترك لا يدري الإنسان نهايته. الحياة

---

(1) حقا أبو الحسن المحقق قال لي ... الروح لا تفنى إذا فني الجسد
جناح جبريل، ص417.

(2) ولي زمان الوحدة المطروح في دروب الفناء
خرجت أخيرا من صدور الغيم عاصفة البقاء
السابق، ص447.

(3) إنني الفاني فهب أنت البقاء ... وأنا الأرض فسكني السماء
جاويد نامه، ص142.

(4) إنني الفاني ومالي من خلود ... وأنا حي ومثلي في اللحود
السابق، ص142.

(5) أنت إن واجهت ذياك الضياء ... نلت طولا سرمديا للبقاء
جسمك البالي جدد بالصقال ... واختبر ذاتك عش فالعمر طال
السابق، ص148.

(6) إن يكن للشوق في الدنيا الهجوم ... يمنح الخلد لفان لا يدوم
السابق، ص255.

(7) ما أنت إلا للفناء يا زاهدا ... أنسيت طوفانا توارى في الحباب؟
السابق، ص169.

(8) كل ما أنت تراه سوف يفنى ... الفلا والشاطئان، ليس شيئا
السابق، ص171 ـ 172.

(9) وحديث الحكماء برهتان ... الوجود والفناء تصنعان
السابق، ص266.

موت وخلود في نفس الوقت[1]. الفناء والبقاء في الحياة، بعد أو قرب في اللقاء[2]. إن الصلاة نفسها تقوم على الفناء والبقاء، في الدلال والدعاء[3]

نفي الذات فناؤها، وإثبات الذات بقاؤها[4]. وإذا انتهى الإنسان بالفناء فهو يسعد بالبقاء. الفناء سكر وعدم[5]. وتبقى الروح في الشعب. فإذا تشتت يفنى[6].

الحج أيضاً أصبح مجرد شكل وصورة كالصلاة إن لم ينضو تحت الجهاد. شعائر بلا روح هو شعب مختل النظام. إن السجدة الحقة تزلزل الأرض، وتجري الشموس، مثل سجدات الأوائل وليس سجدات الأواخر التي دب فيها الوهن[7]. الفؤاد خال من الحبور والنور. والصلاة ليس لها حضور. ولا تؤدي إلى أي ثواب. هذا كلام في الدين والوطن وليس بناء الدير الذي يبدو كالحطام[8]. يذهب

---

(1) للفناء والبقاء معترك ليس يدري المرء سرا للفلك
للحياة يحمل الموت الرسالة والسعيد من وعى للموت حالة
الرياح أشبهت هذي الحياة ما استقرت، كل ما تبغي الثبات
السابق، ص281.

(2) الفناء للحياة والبقاء إنها خلق وشوق للقاء
السابق، ص317.

(3) في صلاة البقاء والفناء وهي كانا دلالا في الدعاء
السابق، ص326.

(4) إن فقدت الذات حققت الفناء والوجود كان للذات عطاء
السابق، ص291.

(5) إن عرفت فانتهاء بالفناء من سعيد في الفناء بالبقاء
تسكر الكأس خلت بعد امتلاء وعن العلم اغتراب كالفناء
في الفناء لك شوق واحتدم ذلك الموجود لا يلقى العدم
السابق، ص265.

(6) باجتماع القوم للروح البقاء والشتات فيه للروح الفناء
جاويد نامه، ص320.

(7) من بلاد الفرس هذا، ذاك هندي حكم حج وجهاد ليس عندي
إن حجا وجهادا واجبان لصلاة أو لصوم كالجنان
إن روحا في الصلاة والصيام إن نأت فالشعب مختل النظام
سجدة، والأرض منها زلزلت وأرادت، فالشموس أجريت
ذاك عصر كان فيه خفض هام دب ضعف الشيخ منه في الحطام
السابق، ص327.

(8) فؤادي ليس فيه من حبور ومن لهب خلا من تربي ونور =

المسلمون للحج كل عام يزورون أضرحة الأولياء. ينثرون عليها الزهور كل خميس. ينشدون المواويل الدينية. يختمون القرآن في أول كل شهر عربي للتقرب إلى الله. وفي نفس الوقت يعيشون حياة العبيد. والسبب في ذلك افتقارهم إلى ذوق العمل. لذلك كتب إقبال أول ديوان له بالأوردية والذي لاقى رواجاً كبيراً وهو «بانك درا» أي «صلصلة الجرس»، نظم قصائده في 1910 وأخرى في 1912 ـ 1913.

تجربة «أنا الحق» للحلاج ليست وهما ولا خداعاً بل هي تجربة الذات وهي تضع ذاتها بتعبير فشته[1]. فهي تجربة بقاء لا فناء. بدونها لا تثبت الكائنات. إثبات الذات مثل إثبات العالم. والعالم تجل من تجلياتها. لها حرمتها. تشاهد بلا نظر، بل بقلب النظرة من الخارج إلى الداخل. تبقى كالطود بعد أن تفنى الدنيا. لا يستطيع الجدل العقلي نفيها. ومن ثم تكون تجربة الحلاج حق. هي تجربة الذاتية، تجربة العقل والقلب معاً، التفكير والتصديق والريب، تجربة العشق والوصال[2]. تعبر عن مقام الكبرياء. فكان جزاؤها الصليب أي الموت في رأي القضاة، والاستشهاد والكبرياء في رأي أهل الإباء. وهي تعبير عن حق شعب يجود بدمائه. تجمع بين الجمال والجلال. وتتجلى في سماء القلب. سما مقامه في العالمين فأصبح الإمام. لم يمسه أحد في الدنيا بشيء بعد أن حرم النوم عليه. «أنا الحق»

= صلاتي تلك خذ منها ثوابا — صلاتي ليس فيها من حضور
أعن دين وعن وطن كلامي — وهذا السر يطوى بالتمام؟
فلا تغضب، جفوت ومن جفاء — بنيت الدير يبدو كالحطام
أرمغان حجاز، ص426.

(1) بحلقته مجوسي أشاعا — وعند القوم سر ما أقول
فما ذات لنا في الكائنات — بذات حسنا قطع الصلات
حريم الذات ما بلغته نظرة — تشاهدها بلا نظر، بخطره
إذا سميت تلك الذات وهما — كمظهر أي شيئ قلت حتما
وما للطود والوادي البقاء — ستبقى الذات، للدنيا الفناء
بذاتك ضع، ودع عنك الجدالا — وحققها بما الحلاج قالا
زبور العجم، ص395 ـ 397.

(2) هو العقل المميز بل هو القلب — هو التفكير والتصديق والريب
إذا نَضِجَتْ، لها امتنع الزوال — فراق العاشقين هو الوصال
زبور العجم، ص396 ـ 397.

بمثابة ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البَقَرَة: 117][1]. ويعـرف السكيـرون كمالات الصوفية مع أن كراماتهم غير معروفة أو مشهورة. مقام الصوفي الحر «أنا الحق»[2].

أرواح الصوفية مثل الحلاج وغالب وقرة العين الطاهرة لم تجد لها مستقر في الجنة. فصارت تطوف على الدوام وإلى الأبد. فالصوفي يريد الحراك وليس الثبات. أمره مشتبه. فلا حكم يصدق عليه. ويظل في دائرة الاشتباه[3]. الحراك في البقاء، والثبات في الفناء.

4 ـ عبادة الأصنام

دور العبادة أصبحت مثل دور الأصنام أو مثل الصوامع للانقطاع والعزلة. والمشتاق إلى الأصحاب لا يحتاج إلى مكان مغلق بل يحتاج إلى الفضاء الفسيح وفي أرواح الأحباب. من يعبد الأصنام في دور العبادة مرتاب. ومن يدخل على ذوي التسبيح يدخل بأسلاب. وقد يكون صاحب المسوح بالنهار نهاباً بالليل، والمتعبد بالنهار سفاك دماء بالليل. وقد يرقص في جماعات بكاسات وأكواب يطلبون اللهيب من نار موسى. ويأتي كالفراش إلى الرسول اليتيم[4].

---

(1) «أنا الحق» ذي مقام الكبرياء — أكان لها الصليب من الجزاء
فهذا جائز في رأي فرد — ويبطل عند قوم بالإباء
أليست قولة لاقت بشعب — يجود وما لغصن فيه رطب
جلال فيه قد أخفى جمالا — تجلي فى سموات لقلب
وبين العالمين سما مقاما — فللدارين قد كان الإماما
ولم يمسسه في خلق لغوب — عليه النوم يجعله حراما
يبين بهمة معنى أنا الحق — وتأتي بعد كن دوما يكون

أرمغان حجاز، ص537.

(2) السابق، ص537.

(3) جاويد نامه، ص249.

(4) تضيق بدار أصنام — لا ترضي بمحراب
ولكن نحو مشتاق — تسير بشوق أصحاب
فاقدم واتخذ مغنا — ك في أرواح أحباب
وكيف وأنت رب الدار — تدخل خطو مرتاب؟
تغير على ذوي التسبيح — تحمل كل أسلاب
وتطرق أهل زنار — بليل فعل نهاب
وذو جحفل لجب — لسفك دماء أصحاب

وفي رسالة المغير إلى أحد أبنائه الذي كان يصلي باستمرار لموت أبيه، يبين إقبال أن الثواب والعقاب من الله. وقد استمع إلى عديد من مراثي سكان الأرض. فقد سالت أنهار من دماء أثناء استشهاد الحسين. وصدرت صرخة من بين شفتيه. وبكى يعقوب ولم يتأثر. وعويل أيوب لم يؤثر فيه. ولا يستطيع العابد أن يؤثر في صياد الوسم بصلاته الغبية[1].

وينطبق ذلك على كل الأديان، الإسلام والمسيحية والهندوكية. وهي الديانات الثلاث الكبري السائدة في الهند. ففي المساجد الإسلامية والكنائس المسيحية وفي المعابد الهندوكية التي تفوح منها رائحة البخور والأطعمة الحريفة، بالرغم مما فيها من مئات المغريات إلا أن القلب غير راض[2]. ويدعو إقبال الصوفي إلى التنازل عن عرشه، هذه الحجارة المتربة المظلمة. تقدم الطبيعة تجارة رائجة ولكن بثمن غال[3]. والركوع للذات وحدها دون ما حاجة إلى معبد أو كنيسة أو صومعة أو بيعة لا في فارس ولا في بلاد العرب[4].

بل إن الصلاة قد تكون لصنم. فالصلاة فعل من أفعال الشعور يقابله موضوع قصدي. وتتلون الوثنية طبقاً للعصور والأزمان. ما يهم في الصلاة هو فعل الشعور وليس مضمون الشعور[5].

وإطالة الإمام الصلاة في المسجد تحويل الإسلام إلى كهنوت. وأثناء قيام وفد من الهلال الأحمر التركي بزيارة لاهور صحبهم إقبال في المسجد للصلاة.

= وطورا في جماعات — بكاسات وأكواب
وتأتي باللهيب إلى — كليم غير هياب
وتأتي كالفراش إلى — يتيم شمعه كابي
رسالة الشرق، ص317.

(1) A Message from the East, p. 91.

(2) Persian Psalms, p. 100.

(3) Ibid., p. 121.

(4) Ibid., p. 126.

(5) تلوّنُ في كل ثوب مناةُ — وشاب بنو الدهر وهي فتاة
فهذا السجود الذي تجتويه — به من ألوف السجود نجاة
ضرب الكليم، ص24.

فلما أطال الإمام سأل الوفد التركي إقبال عن السبب فنظم إقبال القصيدة «صلاة العبيد». يرى أن الإسلام بعد الصلاة في حلف الجهاد، وليست الصلاة الشعائرية داخل المسجد. فالحياة كفاح، والشعوب حرة. وإطالة الصلاة داخل المسجد تحرم المسلمين من الكفاح في الحياة، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. ليست الصلاة هدفاً في ذاتها، بل وسيلة للإحساس بقيمة الوقت وأداء الواجبات في أوقاتها ومع الجماعة. هذه هي الصلاة الرمزية. أما الصلاة في الحياة فهو الجهاد[1]. إن دعاء الشيخ داخل المسجد ليس جهاداً خارج المسجد. إنما الذات هي التي تقاوم في الرباط. والشرارة لا تلهب الرماد[2]. بل إن التصوف العملي، قيام الأسحار ليلاً والتهجد والتعبد دون أن يرعى الذات، لا قيمة له[3].

إن العبادة بلا قوة أقرب إلى حياة الكهوف. والتصوف يؤدي إلى الموت والذل واليأس. ويطيل المسلم الهندي في السجود، والإسلام يريد أن يجعل منه سيدا[4]. الدعوة خارج الكهوف وليس داخلها. واشتعال همم الفتيان ونبذ الذل يظلم القلب، ويبدد الحيرة. هذه الدعوة التي يغلب عليها مس الجنون خير من خلوة شيخ الحرم. تحتاج إلى مكافأة منه[5]. ولا فرق في ذلك بين الإسلام

---

(1) قال بعد الصلاة حلف جهاد — كم يطيل الصلاة فيكم إمام
ما درى ذاكم المجاهد المؤمن الغر — صلاة العبيد كيف تقام
كم لدى الحر في الحياة كفاح — غيرة الحر للشعوب قوام
حُرِم العبد حرقة الكد عجزا — فعلى وقته المضي حرام
لا تعجّب إذا أطال سجودا — ما لديه سوى السجود مرام
رب وفق أئمة الهند يوما — لسجود تحيا به الأقوام

السابق، ص112.

(2) شيخ المساجد! ما دعاؤك سحرة — أبه الحياة بلا جهاد تظفر
ما «الذات» يرجى في رباط خلقها — هل للشرار من الرماد تسعر

السابق، ص122.

(3) وقيام الأسحار في طول وجد — ليس للذات راعيا، ليس شيئا

السابق، ص22.

(4) يا عابدا ليس لديه قوة — إذهب إلى كهف وسبح واعبدا
وهات إسلاما به تصوف — إلى الردى والذل واليأس هدى
للشيخ في الهند أجيزت سجدة — فحسب الإسلام حرا سيدا

السابق، ص22.

(5) ودع الخلوة يا شيخ الحرم — واسمعن في الفجر مني ذا النغم =

والهندوكية. بل إن الإسلام الهندي ربما أصبح أقرب إلى الهندوكية منه إلى الإسلام بعدما غلبت عليه الشعائر، وقويت فيه السلطة الدينية. فلا فرق بين إمام المسجد وإمام المعبد. كلاهما إمام بلا مؤمنين، ورعاة بلا رعية. الإمامة خارج المسجد وليست داخله[1].

الحر لا يقيم في الدين. ولا ينحت الأصنام[2]. فالإنسان يعبد ما يصنعه. ويرى بالعين ما ينحته باليد[3]. وهو خروج على الفطرة التي تشتق من ذاتها. ليس ما يجذب الانتباه هو نقش بالمساجد وزخرفتها بل ما يحدث خارج المسجد في العالم الذي يستدعي النظر والانتباه[4].

لا تحطم الأصنام إلا الذات. في حين أنه حين تشييدها قد يقيمها الآخرون للذات. كل ذات قادرة على تحطيم أصنامها. والغير لا يعرف إمكانيات الذات ولا قدراتها. بل قد لا يكون قادراً على أن يدرك نفسه[5]. نحت الأصنام صنعة العاجز الذليل. أما صنعة الخليل فهي التي تؤدي إلى العلا. ليس الإنسان مجرد نقع بل إنه النجم والمدار. وإذا كان نقعاً وغباراً فإن الجنون يستثيره[6]. وصرخة الفجر في

= يحفظ الله لك الفتيان في ... حكم نفس، واشتعال في الهمم
هم عن الغرب زجاجا أخذوا ... أدرك الحيران في هذي الظلم
في جنوني أسرار بدت ... فاجزني يا شيخ عن هذا اللمم

السابق، ص39 - 40.

(1) Persian Psalms, p. 61.

(2) بهذا الدير حرا قد أقمتا ... وأصناما كما تهوى نحتًا

زبور العجم، ص378.

(3) وننحت مثل صورته الحجارة ... ونسجد ما رأته العين نارة
هتكنا ستر فطرتنا علينا ... مجال حبيبنا ها قد رأينا

السابق، ص386.

(4) إن كانت اقتصرت على نقش المساجد همتي
لي ساعة تجتاح فيها الكون حدة نظرتي

جناح جبريل، ص407.

(5) إن أصنامي التي في معبدي ... مثلها تلك التي في معبدك
لم تحطمها يد غير يدي ... فترفع عن يد غير يدك
ذلك الأعمى الذي تقصده ... ماله علم بما في قلبك
هو لا يبصر حتى نفسه ... وتراه تحفة من ربك

(6) نحت أصنام آزر ... صنعة العاجز الذليل =

قرارة النفس هي التي تقضي على صنم العين من تصورات الذهن. أما طريق الخليل فهو سبيل الإقدام على النار بثقة واطمئنان. قد يؤدي الحب إلى السكر فيعبث السكران بحبال الصيد التي أوقعته وهو سعيد بها وكأنها هي التي تحرره. فالقيد أولى درجات التحرر(1).

مهمة الذات تحطيم الأصنام كما فعل محمد والغزنوي عندما حطم الصنم الكبير. ورفضوا مقايضته بالذهب والجواهر والحرير. فأفضل أن يسمى هادم الأصنام من أن يُسمّى بائع الأصنام(2). ليس السجود تهدل الكتفين من طول القعود. ولا يوجد سجود أفضل من سجود. كله سجود وخنوع. كل هذه السكنات والأصوات والترانيم وجل يطارده الفناء ألوان الأصنام وأصوات الساجدين. والأصنام عمياء صماء. هذه مرحلة من مراحل نمو الذات. ولا تغني الجزر القريبة عن السواحل البعيدة. للأسف لم يكن للنار لهيب. ضاعت شرارتها التي كانت بنظرتها تهيب(3).

= والذي يطلب العلا   حبه صنعة الخليل
لست نقعا مجردا   إنك النجم والمدار
من جنون مثابر   ذلك النقع والغبار

جناح جبريل، ص461.

(1) كل شيء هناك تُعرب عنه   صرخة الفجر في قرارة نفسي
صنم العين كل لون تراه   يجعل الكون هيكلا للعقول
ممكن أنت أن تكون خليلا   في صراخ الصباح بعد الأفول
فيم هذا المحب يعبث سكرا   بحبال الصيد التي أوقعته
لم تزده الشباك إلا صبورا   وكأن الشباك قد أطلقته

(2) لما أراد الغزنوي يحطم الصنم الكبير
جاؤوا إليه بكل أصناف الجواهر والحرير
فرمى بما جمعوه في بحر وبدده جميعه
وأجاب جئت لكي أحطمه وليس لكي أبيعه
فلأن أسمى هادم الأصنام خير في السلوك
من أن أسمى بائع الأصنام من بين الملوك

جناح جبريل، ص518.

(3) ليس السجود تهدل الكتفين من فرط القعود
ما كان يغني عن سجود آخر فهو السجود
من هذه الأصوات والألوان عالمنا خليط
وجل يطارده الفناء من المحيط إلى المحيط
أصنام ألوان وأصوات تلم الكون لما =

الكافر صاحي الفؤاد. وعابد الصنم خير من مؤمن مات في الحرم[1]. الإمام والصلاة والحرم والمداد والكتاب والقلم كل ذلك لا يكفي المسلم الذي وسعته الدنيا[2]. وعن بصيرة تحطم الأصنام بعد تمزيق كل الحجب وافتراق كل السحب. قد فعلها الخليل ولم يفعلها المعاصرون[3]. ولا يمكن الوقوف أمام أصنام جديدة[4]. صارت الهيجانات القديمة رغبة باردة سقيمة. وأصبحت دماء المسلم باردة. تبارك الأصنام كفره[5].

توضع الذات تحت التجربة. ومنها تحطيم الأصنام يوماً واحداً دون خوف من تخريب المعبد، وتحطيم أوثان الأجناس والأعراق وكسر أغلال التقاليد التي تكبل الذات من غير طائل. ليس دين الكهان هو طريق الخلاص. الدين هو دين الله الذي يؤكد وحدانية الذات. وشرطه الحفاظ على القلب دون أن تدوسه أقدام العباد. ومن يزرعه في صدره يجد المتعة أيام الحصاد[6]. والقادر على تحطيم معبد

= أسفا على سمع وعين ألفا عميا وصُمَّا
الأمر مرحلة ودرب الذات تذخر بالمراحل
ما أبعد الجزر التي تغريك عن تلك السواحل
يا أنت نارك لم تكن من موقد هذا لهيبه
ضاعت شرارتك التي كانت بنظرتها تهيبه

السابق، ص518.

(1) كافر صاحي الفؤاد ذو صنم يفضُل المؤمن نام في الحرم
جاويد نامه، ص166.

(2) الإمام والصلاة والحرم والمداد والكتاب والقلم
إنما الإنسان دنيا قد وَسِع هذه الدنيا له لم تتسع
السابق، ص201.

(3) وبعين مزّقت كل الحجب انظرن واخترق كل الحجب
سترى الأرباب حتما كلها وأنا أعلم حقا حالها
بعل ومردوخ ويعوق ونسر وقسر رم خن ولا ناد ومناة وعسر وغر
إنها للبعث تأتي بالدليل فالزمان ليس فيه من خليل

(4) إلام بعين عتبك أنت تنظر وأصنام لديك إلام تحضر؟
أرمغان حجاز، ص427.

(5) السابق، ص532.

(6) ليس يجدي الهم في شيئ إذا لم تضع ذاتك تحت التجربة
حطّم الأصنام يوما واحدا لا تخف معبدها أن تخربه
حطّم الأوثان أوثان العروق واهدم الأصنام أصنام القبائل
وانضُ أغلال التقاليد التي تتعنّى خلفها من غير طائل =

الأوثان يكون مثل إبراهيم في الإيمان[1].

وفي ميدان الفكر الإنساني، محمد وبوذا وكانط كانوا أكبر ثوار. وفي ميدان الفعل، نابليون لا ينافسه أحد. ولا يوضع المسيح بين ثوار العالم لأن الدين الذي أسسه تم استيعابه بسرعة في الوثنية اليونانية الرومانية السابقة عليها. المسيحية الأوربية ليست إلا ترجمة هزيلة للوثنية القديمة في لغة اللاهوت السامي[2]. يواجه الإسلام والمسيحية نفس العدو، عبادة الأوثان. والفرق بينهما أن المسيحية ساومت مع العدو في حين أن الإسلام دمره تماما[3].

5 ـ المسجد والدير

المسجد في الهند خلا من كل صوت. ديرها خمد ناره[4]. شيد الناس في الهند الدين وما يزيد المؤمن إلا كفراً[5]. والخشب لعمل الإناء أفضل من عمل المنبر أو الصليب[6]. أهل التصوف ذئاب لا يعرفون القرآن. يعرفون فقط الصياح والضجيج في الخوانق، وأفضل منهم السكارى العاشقون لله[7]. ومسلم الخانقاه

= لا تقل أنشد في الدين الخلاص   وامنح الكهان روحانيته
إن دين الله في الدين الذي   يهب الإنسان وحدانيته
الذي يزرعه في صدره   يجد المتعة أيام الحصاد
جناح جبريل، ص538.

(1) كن مثل إبراهيم في الأعيان   حتى تزيل معابد الأوثان
يا أمم الشرق، ص342.

(2) St. Ref., p. 38.

(3) Ibid., p. 99.

(4) مسجد فيها خلا من صوت حشد   ديرها ما فيه نار بعد خمد
جاويد نامه، ص308.

(5) هنا قد شيدوا ديرا عجيبا   يزيد لمؤمن كفر لدينا
أرمغان حجاز، ص430.

(6) إن للقرآن علما أن يُعرف   والذئاب أنهم أهل التصوف
الصياح والعجيج في الخوانق   أين خمّير لروح الله عاشق
السابق، ص333.

(7) لدي المال من خشب لنار   وليس لمنبر أو للصليب
السابق، ص497.

خجول. هانت شؤونه عليه. فمات هو ودينه سارت أحواله وبدت للعيان[1]. بنى الشيخ أساطيره على ما تلقي من أقوال. الإسلام لديه زنار وعمة ودير[2]. رجال الدين عاكفون على التظاهر، السبح التي تدور، ولا يعرفون شيئاً من شؤون الدنيا[3]. وبناردير يحرس حارس الكعبة التي مات فيها اليقين. واتجه إلى الغير. نظرتهما قصيرة. تجلى بأسه من كل خير[4]. وبيت الله في القلب، يغني ويطرب[5].

لقد ضاقت الأرض اليوم بالمسلمين. وكانوا قد احتووها من قبل. سجدتهم اليوم أردتهم إلى العبودية في حين أن سجدة القدماء جعلتهم يحكمون العالم[6]. أصبحت المساجد مواطن للشكوى، قادرة على إحراق قلب الشيخ[7]. السجود في مساجد اليوم عار[8]. لقد افترق المسجد عن القلب. وسار كل منهما في طريق معاكس للآخر. المسجد يفرق. ويخرج منه الناس شيعاً وفرقاً وأحزاباً. والقلب يوحد الناس ويجمعهم على المحبة والإخوة في المسجد. يزل القدم، والحب يقيم الناس، ويساعدهم على النهوض. المسجد يطيل البحث والنظر. ولا يصل إلى شئ إلا إلى الحيرة. والحب أقصر الطرق إلى اليقين. ضاعت العقيدة باثنين وسبعين فرقة

---

(1) خجول مسلم هانت شؤونه — له الخانقاه فقر، مات دينه
وعن أحواله لا تسألني — فقد ساءت وفيها حار ظني
السابق، ص442.

(2) أساطير متاع الشيخ حقا — من الأوهام أقوالا تلقى
له الإسلام بالزنار يبدو — وذا حرم ومن دير تبقى
السابق، ص442.

(3) رجال الدين سبحتهم تدور — بأمر الحكم ليس لهم شعور
زبور العجم، ص383.

(4) ويحرس كعبة بنار دير — يقين مات فيه، رنا لغير
وتقصر نظرة منه وفيها — تجلىً بأسه من كل خير
السابق، ص445.

(5) وبيت الله أحويه بقلبي — أغني ما بقلبي ثم أطرب
السابق، ص445.

(6) السابق، ص454.

(7) نصعّد في مساجدنا أنينا — على إحراق قلب الشيخ يقدر
السابق، ص493.

(8) لجم أنت تسجد أو لدارا — فلا تلحق ببيت الله عارا
السابق، ص497.

ضالة. ولا يصل إلى اليقين إلا الفرقة الناجية. وهي ليست فرقة السلطان، بل فرقة الحب والوجد. ليست فرق العقيدة والشريعة، العقائد والفرق، بل فرقة الحقيقة والطريقة. يقدم المسجد إسلام النقل والكتب والورق. ويقدم الحب إسلام التجربة والذوق. الأول إسلام جاف يابس. والثاني إسلام رطب غض طري. همة الدرس لن تصل إلى المعنى في حين أن الحب دائم الحلاوة حتى في محنه وسفهه. فالحب بلا جنون عقل مقنع. الحب رعشة ورعدة وخوف وارتعاش بلغة كيركجارد حتى يوم الحشر. يشق الصخر بجذوته. بل هو قادر على كشف الأسرار، ونزع الأستار حتى عن الذات الإلهية(1).

ليس المسجد مكاناً أو بنياناً بل كل أرض للمسلمين. ولا يجوز بناء مسجد في أرض في يد المستعمرين(2). فتحريرها سابق على بناء مسجد فيها. إذ لا تجوز الصلاة في الدار المغصوبة طبقاً للفقه الحنفي القديم(3). وما فائدة نقوش وحروف

---

(1) استفت قلبك كيف المسجد افترقا   وكيف نخرج من محرابه فرقا
وأين ذو جَلَد منهم يمر به   تقوى طِويَّته إن تكتم الخُرقا
الحب، يعرف من زلت له قدم   بأنه أقصر الأشياء أزمانا
وأنه جرح سهم إن صبرت له   أوتيت من جعبة الصياد سلوانا
ضاعت عقيدة قوم في مصادمة   باثني وسبعين واد من معانيها
هيهات يدركها من ليس من دمه   وجد يؤلف قاصيها ودانيها
درس الشريعة غير الوجد وهو كما   رأيت منتشر في جملة الفرق
وإنه وكما نمّت تجاربنا   إسلامنا الغير مكتوب على الورق
غصن اليقين الرطيب الوجد ينبته   ولا يفوح بغير الوجد معناه
الحب في قحة يحلو وفي سفه   فكن بحبك في هذين سكيرا
ولا تكونَنَّ ذا حب بلا سفه   فإن ذلك لا يجديك قطميرا
لن تهدأ الرعدة الملقاة في خلدي   ولن تراقب يوم الحشر ذا جاه
إن لم تشق بسيف السكر جذبتها   شقت أمام البرايا معطف الله

جناح جبريل، ص438 ـ 439.

(2) قال خير الخلف تاج المرسلين   كل أرض مسجد للمؤمنين
كيف يعلو منبر للمسلمين   فوق أرض في يد المستعمرين
يالها كارثة في العالمين   مسجد الهادي بأيدي الغاصبين
حرر الأرض معا والمسجدا   لا يكن غيرك فيها سيدا

يا أمم الشرق، ص359 ـ 360.

(3) في حديث المصطفى شمس الهدى   كل أرض مسجد للمؤمنين
كيف تبني فوق أرض مسجدا   إن تركت الأرض للمستعمرين

السابق، ص365 ـ 366.

للآيات القرآنية على المساجد، حوائطها ومنابرها وقبلتها. يسجد المسلمون داخلها. والأفضل أن يكونوا وقوفاً خارجها استعداداً للحركة والمواجهة[1]. ليس عن طريق المسجد والآيات المرتلة وليس عن طريق المدارس العالمة يستطيع الإنسان الحصول على راحة النفس وصفاء الضمير بل عن طريق العودة إلى القلب، بحثاً عن الحبيب المفقود[2].

مصباح الثائر شمعة في قصعة من خزف. تذوب ليلاً وتنطفئ إذا هبت الريح. والآن، ما فائدة المصابيح حول المزار؟ ولماذا الضريح والعطور والستور والحجار؟ كم كعبة للمسلمين وكم صنم في الحرم؟ بنيت القباب فوق الرؤوس حتى ضحكت عليها الأمم. نذور الأولياء ربا. صاحب القبر مختبئ. والمرابي متخفي. هم أولياء بالوراثة. لقد حلت الغربان مكان النسور[3].

وفي الدير خطيب صياد، واعظ يتحدث عن جهنم. والكافر في قوله أفضل. وهل جهنم لسواه؟ والمريد رأيه أفضل من رأي الشيخ السديد الذي جعل رزقه من تراكم هذه اللحود. إذ قال الغلام للشيخ إن هذا العصر عصر نمرود فأين الخليل؟ لماذا جعل الصوفي والمُلا نفسيهما أسيرين وفي القرآن متسع للعيش؟ خطأ الصوفي والمُلا تأويل النص بما يهويان وطبقاً لمصالحهما ولصالح الحكام فاحتار الناس[4]. ومن نام

---

(1) أي مستهتر بكل ملام ... خط فوق المحراب تلك الحروفا
هذه الأغبياء تسجد لما ... يقتفي الأمر أن يكونوا وقوفا

جناح جبريل، ص450.

(2) Ibid., p. 106.

(3) أنا فانوسي الذي أملكه ... شمعة في قصعة من خزف
إن أقمت الليل ذابت وإذا ... هبت الريح عليها تنطفي
ما الذي يفعله سيدنا ... بالمصابيح التي حول المزار؟
ثم ما معنى مزار وضريح ... وستور وعطور وجمار؟
يا إلهي كم لنا من كعبة ... كم لنا من صنم في الحرم
وفقاعات قباب فوقهم ... جعلتنا ضحكة للأمم
ليس ما يعطى لهذي الأولياء ... من نذور باسمهم إلا ربا
المرابي دائما مختبئ ... وولي القوم في القبر اختبا
أتراهم سلكوا كالأولياء ... إنما هم أولياء بالوراثة
ملأ الغربان أوكار النسور ... خلّص الله من القوم تراثه

السابق، ص548.

(4) ببيت الله صياد ودير ... وللصوفي لم يك أي ضير =

تحت محراب المسجد هو الذي تاه في بيت أوثان الإفرنج[1]. خطيب المنبر والمحراب خال من الهمة والنشاط. فالدين للمؤمن إما الموت وإما الحياة[2]. فليخرج الصوفي من الخانقاه وليقلد علي. مقر الخانقات هو الهم. رائحة الرهبان تهب من الدين والخلق[3]. وحديث الشيخ والبرهمن حديث سحر وخرافة[4].

وحين امتلأت كنائس بالإنجليز بكل ما لذ وطاب من طعام وشراب، لا توجد في مساجد المسلمين إلا المواعظ والصلوات. يعاني القرآن من كلام المفسرين. ويجعلونه أشبه بكتب المجوس[5].

حياة الدير ليست حياة العصر. والحديث بالألغاز لم يعد مقبولا. انتهي العصر الذي كان يقال فيه للميت قم فيقوم. فماذا يفعل المقيمون بالدير فيه؟ هل يحترمون القبور أم يحفرونها؟[6] .

= تحدث واعظ لي عن جهنم ومنه كافر في القول أحزم
غلام حاله ما إن دراها وقال جهنم لسواي فاعلم
مريد كان ذا رأي سديد لشيخ فاه بالقول الشديد
وجني الرزق موت، من تراب تكوم فوق هاتيك اللحود
لشيخ كان ذا قول الغلام تأمل واستمع لي باهتمام
لهذا العصر نمرود جديد فمنه اخلق خليلا للأنام
لملا أو لصوفي أسير وفي القرآن للعيش الكثير
على الصوفي والملا سلامي كلام الله قالا بالتمام
ولكن أوّلا ما أوّلاه فحار الروح بل خير الأنام

أرمغان حجاز، ص464.

(1) السابق، ص532.

(2) السابق، ص534.

(3) السابق، ص537.

(4) السابق، ص540.

(5) هل في مساجدنا بكل بلادنا إلا المواعظ تلك والصلوات
قرآنك الحق المبين وإن يكن قاسى كلام مفسر به وعانى
لو يرغبون برأيهم أن يجعلوا القرآن بازندا المجوس لكان

جناح جبريل، ص420.

(6) لا العصر للقول بالألغاز محتمل ولا أنا استطيع اليوم إلغازا
مضى الذين قالوا لميّتهم قم، قام فيهم بإذن الله واجتازا
فما الذي بعدهم في الدين تفعله جماعة بمذاق الدير كفارا
أخدمة لقبور القوم ما برحوا أم أنهم لقبور القوم حفارا

السابق، ص544.

أصبح الدير مقصد الأمة وفي نفس الوقت تبيع المسجد[1].

ليس الطريق هو طريق الدير بل طريق القلب. الحياة نداء على القوافل لبدأ المسيرة مع الركبان دون توقع موعد للبداية أو النهاية. إنما النهوض واجب. وهو نهوض لا يناسب عزلة الدير أو سلطة العقل. الطريق طويل وكثير الأشجان كما يصف الغزالي والصوفية معه[2].

6 ـ العزلة والرهبنة

ليس الدين هو الدعاء مثل دعاء نوح أو الصلاة مثل صلاة العابد أو الاعتزال مثل اعتزال الراهب. الإنسان قادر على أن يحول الترب ذهباً، والسماء لهبا. فالكليم فجر من الصخر ماء. وشيمة الأنبياء ليس الذكاء والدهاء بل الفطرة. ويدّعي الولي أنه مثل النبي. وشتان بين التقليد والاجتهاد، بين النقل والإبداع[3]. ليس للعاجز الضعيف حياة دواؤها العبادة. فالصلاة لم تعد توجهاً إلى الله بل أصبحت عادة، حركات فوق سجادة، وسجادة بلا حراك. ويتم إعلان النصر قبل بدأ المعركة[4]. السجود لرب لا يُحد يجعل الصلاة بلا معنى، وسيلة لا توصل إلى

---

(1) أصبح الدير لنا مقصدا نحن للغير نبيع المسجدا

يا أمم الشرق، ص363.

(2) دوى النداء على القوافل معلنا بدء المسير فقم مع الركبان

أواه ماذا يفعل هذا الساري يتوقع الترحال كل أوان

انهض فخمرك لا تناسب هاهنا ديرا وعصرك غير طبعك فان

سيان كان القلب عبدا طائعا أو لم يدع للعقل من سلطان؟

فالدرب يا هذا المسافر صعبة وطويلة وكثيرة الأشجان

جناح جبريل، ص461.

(3) إن نوحا لم يجد غير الدعاء والدعاء كان خلوا من غناء

اعتزل في الغار وارحل عن ديار نحو أهل النور عن محض اختيار

وبعين اجعل الترب الذهب وبنجواك السماء من لهب

كالكليم في الجبال كن شريدا واحترق مما رأت عين بعيدا

وتناس شيمة للأنبياء دعك من فرط الذكاء والدهاء

بين من هانوا تهون الفطرة والرماد في الرياح الجمرة

الولي إن شأى يوما نبيا للهوى كان النبي داء عصيا

قم وفي عش انفراد عزلتك ولتدع هذا التجلي خلوتك

جاويد نامه، ص174.

(4) ليس للعاجز الضعيف حياة ودواء الضعيف ذوق العبادة =

غاية[1]. وعلى لسان الشاعر الهندي برتري هري شاعر الحب والخلق والزهد في القرن السابع الميلادي يرفض إقبال دين الرسوم والأشكال وعبادة الأصنام الحسية أو الخفية والسجود والركوع بلا شعور، والشعائر بلا عمل حتى ولو كان غزلاً بخيط. وللعامل الجزاء الأوفى[2].

السجود نوعان: سجود فارغ خال وسجود يهب خراج الأرض. الأول سجود الصوفية، والثاني سجود المحاربين[3]. السجدة التي لا يحترق بها الساجد ويتحول فيها الكون إلى وجد سجدة فارغة[4]. والسجود على رمل يتلظى عليه الوسم ويحترق الجبين[5]. صلاة القلب لا تحتاج إلى سجود في معبد بل إلى تحطيمه. وليحذر المسلم السجود الخالي من كل ذوق[6]. هناك حرم به صنم هو الشيخ الكبير[7].

= لا تقل في الصلاة: وجهت وجهي ... فصلاتي كما صلاتك عادة
نحن سجادة لها حركات ... فوق سجادة بغير حراك
إن حربا أبطالها نحن حرب ... تعلن النصر قبل بدء العراك
السابق، ص460.

(1) ما السجود ولرب لا يُحد ... الصلاة ما ارتضاها قط عبد
السابق، ص182.

(2) هذه الأرباب شحّت وهي من طين وصخر
برتري كان بعيدا عن كنيس بل ودير
سجدة من ذوق أعمال خلت لا خير فيها ... عمل تلك الحياة، وهو من خير وشر
عالم أنت تراه ليس من آثار رب ... مغزل بالخيط دوّرت ولكن لست تدري
اسجدن عندما للعاملين من جزاء ... ما لهم هذا النعيم والجحيم غير أجر
السابق، ص298.

(3) عجيب أن تُكلّفني سجودا ... خراج الأرض والأرض الخلاء
أرمغان حجاز، ص424.

(4) فهبني سجدتي فيها احتراقي ... ومنها الكون في وجد يميد
السابق، ص426.

(5) ألا فاسجد على رمل تلظى ... عليه الوسم يحترق الجبين
السابق، ص437.

(6) فؤادي لم يرق أحدا بمعبد ... مقامي أين؟ كنت المقيّد
إله يبتغي مني سجودا ... لقد حطمته وهو المبدد
السابق، ص451.

(7) لنا حرم فماذا يستعير؟ ... به صنم هو الشيخ الكبير
السابق، ص443.

صلاة العشق غير محددة بوقت وأذان وخطاب بل بمقام العشق. تبدو فيها «الله أكبر» خمس مرات للناظرين. يدوم بها نداء العالمين، ويخلد بها المسلم. ولا يعلمها صريع العصر[1]. السبحة في اليد لا لزوم لها. ولا للزنار في الوسط. والتمسح بالأبواب لا يؤدي إلى شئ. لا يدخل المساجد إلا الملاّ. ولا يدخل الدير إلا السحرة[2].

قراءة القرآن لا تكون في زاوية أو ركن من المسجد بل هو أمر للتبليغ لكل الناس. هو نار مثل التي وضع فيها نمرود الخليل. فمن يشارك في ثورة الخليل يكون له نصيب في جبريل[3]. لا تتم قراءة القرآن في عزلة بل في جماعة لإسماعه لكل العالمين[4]. لا تتم في الدار بل أمام الخلائق أجمعين حتى يستجيب الكون.

يسأل إقبال عن هذا العصر الذي يستلزم النزال. وفيه يخبو لهيب الشعر في

---

(1) صلاة العشق ميّزها بوقت — فليس لها المؤذن والخطيب
مقام العشق يفعمه اليقين — يقينا يصحب الروح الأمين
أتسأل عن صلاة العاشقينا — وفيها خفية هم ساجدونا
أرى «الله أكبر» مثل نار — أفي خمس بدت للناظرينا
نداء العالمين بها يدوم — ومنها سليم خلدا يروم
صريع العصر فينا ليس يدري — قيامات «لقد قامت» تقوم
السابق، ص499 ـ 500.

(2) ويحفظ برهمي كل أمر — ولا يفضي إلى أحد بسر
وهذي سبحة قال اطرحها — بزنار على كتفيه يجري
قال لتبتعد عن باب غير — فمن أهل لنا نحظى بخير
وما تسع المساجد غير ملا — ومن سحر الدمى كانا بدير
السابق، ص477.

(3) أيها الشادي بقرآن كريم — وهو في ركن في البيت مقيم
قم وأبلغ نوره للعالمين — قم وأسمعه البرايا أجمعين
إن نكن في مثل نيران الخليل — أسمع النمرود توحيد الجليل
من له من ثروة الهادي نصيب — فهو من جبريل في الدنيا قريب
يا غريبا عن مقام المصطفى — عد إلى الحق تجد نور الصفا
يا أمم الشرق، ص362.

(4) أيها الشادي بقرآن كريم — وهو في عزلته ناء مقيم
قم وأسمعه لكل العالمين — قم وأبلغه البرايا أجمعين
السابق، ص358.

الحياة الصاخبة. ويجيب الرومي بأن العزلة ليست غاية في ذاتها. ومع الأحباب تصبح الجماعة شهدا. فليترك الإنسان العزلة، ويعيش مع الجماعة، وينتقل من جماعة لأخرى. الناس تشتري الفراء ليس من أجل الربيع بل للتزين[1]. ولا تترك الدنيا ليلاً ونهاراً بل تسخيرها وليس تدميرها. ومن يعلو صهوتها يأمن الخطر منها. هي وسيلة للآخرة. هي صيد المؤمن الحر الجسور مثل أن يصطاده فيها الغرور[2]. والصحبة مع صاحب القلب العظيم لإدراك الأمور العظيمة. وإذا ولد الإنسان عبداً على مهاد الذل فعليه الجهاد حتى يموت حراً كريماً[3].

وبالرغم من استشهاد إقبال في أول «الأسرار» و«الرموز» بجلال الدين الرومي إلا أنه ينقد حافظ[4]. فهو فقيه أمة الأذلاء، وإمام أمة المساكين، وقائد النعاج. كتب إقبال خمسة وثلاثين بيتاً ضد حافظ ناقداً إياه نقداً لاذعاً مما أثار حفيظة أتباعه ومحبيه. حذفها من الطبعة الثانية ووضع مكانها «حقيقة الشعر وإصلاح الأدبيات الإسلامية».

لا يتحمل إقبال السكوت. وكان من شدة غيظه يتمنى أن يموت. إذا بشر الحجاب بالفردوس ملاّ رفض إقبال لأن الملا لا يهتم بمغاني الله ونعمه. هو

(1) قال: يا أستاذ! إن العصر يستدعي النزال
ولهيب الشعر يخبو وقده دون اعتزال
قال: يا إقبال، لسنا نقصد العزلة قصدا
عندما الأحباب تأتي تصبح الخلطة شهدا
بدّد العزلة واذهب من قطيع لقطيع
تشتري الناس فراء ليس من أجل الربيع
جناح جبريل، ص528.

(2) أيها الناصح ليلا ونهارا داعيا أن نترك الدنيا احتقارا
إن معنى تركها تسخيرها في سبيل الخير لا تدميرها
والذي يعلو على صهوتها يأمن المحنة من عثرتها
فاتخذها من مطايا الآخرة تنج من تلك العجوز الساحرة
هي صيد المؤمن الحر الجسور قبل أن يصطاده فيها الغرور
يا أمم الشرق، ص360.

(3) فصاحب من له قلب عظيم لعلك تدرك الأمر العظيما
ولدت على مهاد الذل عبدا فجاهد ثم مت حرا كريما
السابق، ص373.

(4) الأسرار والرموز، مقدمة ص16 ـ 17.

سكران دائماً بلا فجر أي غائب عن الوعي. لم يعرف من العلم إلا القيل والقال. ويظن أن الدين المنزل مجرد جدال. العبد لا يكون جباناً فكيف يكون زعيماً وهو لا يحسن أي شيء؟ لم يعد يأبه إنسان بما أنزل إليه. فإذا فعل شيئاً فإنه يكفر الآخرين. لا يرى في الخلق مطيعاً إلا نفسه. وكيف يرضى الله عن غبي يكفر الناس جميعاً؟ لا يوجد في الفردوس ذكر لكهوف وصوامع. إنما الفردوس فيض حب من صدور العاشقين[1].

لا يوجد في حواشي الصوفي إلا الغبار بالرغم من ادعائه أنه يخوض الحروب ويُهزم فيها. زالت حرارة الحب عنه. وارتضى بالحياة السقيمة. لم تكن حربه للغنيمة، بل كان هو الغنيمة للعدو. تتراكم الكتب لديه للقراءة. ويصل الليل بالنهار للعبادة. ليس لديه إلا حكايات وروايات عن الأولياء يسمعها الصغار. شاع الخراب والفساد في الزوايا والتكايا. وامتد ذلك إلى قصور الملوك. فلا فرق بين المساجد والقصور من حيث التباهي والحياة السرية المغلقة[2]. ولم الصمت وكتمان

---

(1) أنا أيضا كنت لكن ما تحملت السكوت
كنت من شدة غيظي أتمنى أن أموت
كنت إذا بشَّرتِ الحجّاب بالفردوس ملاّ
فتقدمت أنادي عفوك اللهم كلا
ليس للملاّ اهتمام بمغانيك وحورك
هو سكران، نعم سكران، من غير خمورك
ما درى من لجة الذوق سوى قيل وقال
يحسب الدين الذي أنزلت تاريخ جدال
أنا لا أرضى لنفسي أن أرى عبدي جبانا
كيف ترضاه زعيما وهو لا يحسن شانا؟
لم يعد يأبه إنسان بملاكَ المنقّر
فإذا ما جاء يوما قيل قد جاء المكفر
لا يرى في خلقك المسكين إلاه مطيعا
كيف ترضى عن نبي كفَّر الناس جميعا
ليس في الفردوس ذكر لكهوف وصوامع
إنما الفردوس فيض الحب من صدر الجوامع

جناح جبريل، ص505.

(2) ما وجدنا وقد بحثنا كثيرا في حواشي الصوفي إلا غبارا
يدعي أنه يخوض حروبا كبّدته هزيمة وشنارا
كيف زالت حرارة الحب عنه وارتضى هذه الحياة السقيمة

الشهادة على النفاق، نفاق الملا والصوفي؟ يجلس على سجادة الصلاة ويقول ما لا يعمل به. ويدعو إلى ما لا يؤمن به. يحمل بيده كتاباً من نور وهو المصحف. يربك به الناس في الدنيا والآخرة[1].

قد تكون العزلة عن العالم وقتية كما انعزل الرسول في غار حراء لاكتشاف الذات واقتفاء أثرها. بعدها أقام أمة. والوعي بالجديد يتجاوز القديم. والأسد قبل أن يتقدم يتراجع خطوة إلى الوراء[2].

وفي مقابل العزلة هناك الصحبة. فللمرء زوج، والعين اثنان وإلا العور. واحترام الإنسان لأخيه الإنسان لأن بين الناس جميعاً عروة[3]. والذات تخرج بين الدروشة والملكية، بين الانسحاب من العالم والانكباب عليه، بين العزلة عنه والانكباب فيه. هذان العالمان يغزوان الوجود بالنظرات أو بالجنود. الأول يترك

= حربُه لم تكن ليغنم شيئا ... وقصاراه أن يكون غنيمة
كُتْب القوم عنده فوق بعض ... يصل الليل حولها بالنهار
ما تبقّى لديه إلا حكايا ... أولياء يقولها للصغار
ما تعجبّتُ أن يشيع خراب ... في الزوايا وفي تكايا السلوك
عجبي من نهاية مثل هذي ... كيف دبت على قصور الملوك؟
السابق، ص456.

(1) امض يا شاهد الشقاء بصمت ... أي يوم مضى عليك كيومي
مثل سجادة الصلاة نفاقا ... يطفح التاج في منازل قومي
الكتاب الذي يموج بياضا ... والذي عند كل ملاّ وصوفي
يملأ الحشر حيرة وارتباكا ... ووقوفا يكون مثل وقوفي
السابق، ص456.

(2) مدة في الغار ظل المصطفى ... غير آثار لذات ما اقتفى
رسْمنا قد أغرقوا في مهجته ... وأقاموا أمة من خلوته
وعلى إنكار رب إن قدرنا ... كل فضل المصطفى حتما عرفنا
لو أنارت فيك روح كالكليم ... لشقيت أنت بالفكر العقيم
فالخيال فيك تحيي عزلة ... ثم تأتي بعد بحث ضالة
جاويد نامه، ص202.

(3) يستمر المرأة زوج أو تراب ... والرجال حذرهم كان الصحاب
تنطق العوراء إذا كل الخطأ ... كافر أو مؤمن ربي برأ
أنت إنسان أخاك فاحترم ... ليس منا غير هذا من علم
تربط الناس جميعا عروة ... منك في هذا الطريق خطوة
السابق، ص332.

الركاب لغيره، والثاني يكتم جرحه ويعاني. وكل مقام ينازع المقام الثاني في الحداء[1].

7 ـ إمامة العالم

ليس الإمام في المسجد بل في الورى. والإمام في الورى هو الإمام الكامل[2]. هناك فرق بين إمامة المسجد وإمامة العالم. والإمام هو الإمام الحر. وكيف تتم الصلاة وعلى رأس جيش الغزاة إمام عبد باع نفسه وأطاع الحاكم الأجنبي بأذنه وعينه، ووهت الأجساد تحت حكم وأد الشرع وقصم الظهر؟[3]. فلا صلاة للعبيد تقام. وغياب إمام الصلاة جعل الشعب بلا إمام. فالإمامة الصغرى شرط الإمامة الكبرى[4]. اليوم، إمام المسلمين درويش يجرّح نفسه كما يفعل الشيعة. وليس لقلبه جهتان الحزن والتوحيد. ليس له مقام بين القواد العظام[5]. ورجال الدين ورهبانها لا يستطيعون قيادة سفينة الأمة[6].

---

(1) ما بين دروشة ولا ملكية ... فرق إذا صلحت أمور الذات
كلتاهما تغزو الوجود فهذه ... بيد الجنود وتلك بالنظرات
البعض قد ترك الركاب لغيرها ... والبعض يكتم جرحه ويعاني
لو أتقن الحادي مقاما واحدا ... لم يرغبوا عنه لحاد ثان
جناح جبريل، ص418.

(2) برؤيته، لعالمنا إمام ... له لا للورى كان التمام
السابق، ص394.

(3) لأرض الهند حال بعد حال ... وهذا الكون أمسى في اختلال
إلينا كيف تطلب أن نصلي ... برأس الجيش عبد كالمحال
ويحكم مسلم فالنفس باعا ... وآذانا وعينا قد أطاعا
وهت أجسادنا من إصر حكم ... فأد الشرع متنا والذراعا
السابق، ص430.

(4) أتى هذا كلام ليت شعري ... وهذا الشعب كان بلا إمام
السابق، ص440.

(5) لك ذلك الدرويش جرّح نفسه ... حاشا تكون لقلبه جهتان
لا في سمرقند ولا دلهي ولا ... في أصبهان له مقام ثان
السابق، ص420.

(6) رباه أين يلوذ مركبك الذي ... عصفت بطيبة نفسه الرهبان
السابق، ص435.

ليست الحياة داخل الصوامع، ولا أمجاد الحياة أفعال الطقوس. ولا يستطيع صياد السوء القابع في الأرض الذليل فيها أن يصيد العنقاء الطائر في السماء. تتطلب الحياة الشجاعة، طيراً في السماء أو غوصاً في البحار. وجود الإمام والدرويش داخل الصوامع وجود يُرثى له. ولا فرق في ذلك بين عربي وأعجمي. وإن غاب الذكر عن الفؤاد حضر ذكر الأجنبي. في غياب الموروث النافع يأتي الوافد المبهر[1]. طقوس المساجد اليوم ظلم، وانتهاك لحرمة الساجدين. وسلوك الكنائس سوق للرهبان والقساوسة[2].

فقد الإمام معنى الخشوع. وتنقصه الهواجس بالقيام. فكيف يرضى المسلم بهذا الخنوع وتلك الصلاة، ذاك الإمام؟[3]. الشيوخ وأرباب الكنيسة أجدر بالرثاء. جهودهم حصاد. شكوك وظنون جرت في دماهم. ولا يحتاج الإنسان إلى مثل هذا الوسيط. وبالاعتماد على نفسه يتقرب إليه كل العبيد والأسياد، أبناء الأرض وأبناء السماء[4]. وقد صرخ الشاعر ليسمع شيخ الحرم، ولكنه حذره من البوح بشيئ يصل إلى كل الأمم. لم يقل مرة ﴿أَرِنِي﴾ كموسى ليعرف السر. ألح موسى.

---

(1) لست أخفيك أنني لم يرق لي — ذلك العيش في طقوس الصوامع
لا يصيد العنقاء صياد سوء — ملئت نفسه بذل المطامع
طرت أم غصت في سماء وبحر — أم تراجعت عنهما وجبنت
ليس يدعو إلى الرثاء وجود — كالوجود الذي تعانيه أنت
وسواء، فلا تقل عربي — كنت أو لم تكن فليس يفيد
سترى الذكر أجنبيا إذا لم — يك للذكر في الفؤاد شهيد

السابق، ص442.

(2) ما طقوس المساجد اليوم؟ ظلم — وانتهاك لحرمة الساجدينا
ما سلوك الكنائس اليوم؟ سوق — لوجوه الرهبان والسالكينا

السابق، ص465.

(3) أمامك يفقد معنى الخشوع — وينقض نجواك عز القيام
أمثلك يرضى بهذا الخنوع — وتلك الصلاة وذاك الإمام؟

السابق، ص427.

(4) شيوخ القوم أجدر بالرثاء — وأرباب الكنيسة في سواء
حصاد جهودهم ظلمات شك — جرت في قلبهم مجرى الدماء
بنفسك ثق تجد نغفور عبدا — ويسأل عن رضاك ابن السماء

السابق، ص452.

والشاعر راض باختياره[1]. ولسيد الحرم أي لإمام المسجد وشيخ الإسلام قول بلا فكر، ونظر بلا عمل، وإشارة تنقصها الحرارة[2].

8 ـ المصلح والدرويش

ضريح المجدد هادي سبيل. وترابه يتألق في السماء. توارى صاحب الأسرار كما توارت في جنبات القلوب. والدرويش الحر لا تُذل عمامته لوصمة عار. هو معلم الأحرار. افتدى الهند من جحيم النار. أما دروشة هذا الزمان فإنها خور العزائم. بصر الدرويش بغير بصيرة فأصبح منبوذاً، صاحب شطحات مجنونة. يرفض الفقه وصاحب العمامة. وكلاهما سارا وراء الملوك. الفقيه فقيه السلطان، والدرويش خادم السلطان[3]. ولا يشكو الدرويش الأبي من الفقر وشظف العيش، ولكنه يتعجب. ويسأل الله الذي أرسل الملائكة رسلاً هل ليقيموا سلطة الأوغاد في

(1) لقد بلغت صرختي أوجها | كذلك أعلن شيخ الحرم
وحذرني اليوم من كتمها | لتسمع ذلك كل الأمم
أنا لم أقل أرني مرة | كموسى لأعرف أسراره
فموسى جدير بإلحاحه | ومثلي جدير بما اختاره

السابق، ص454.

(2) لاشك فيما قلته ولا جرم | فقد رأيت اليوم سيد الحرم
قول بلا فكر ولا إشارة | وعمل تنقصه الحرارة

السابق، ص447.

(3) جزتُ إلى ضريح مجدد | ووقفت ليلي ناديا ونهاري
وعلى التراب من الضريح تألق | غبطته في قصر السماء جواري
لا غرو للأسرار تلمع هاهنا | فهنا توارى صاحب الأسرار
هذا المكان من الوجود ضريحه | وهنا يقيم معلم الأحرار
لما وقفت على ضريح مجدد | دار الحديث عن الزمان الدائر
فشكوت دروشة الزمان له وما | ألقاه من شوقي وعزمي الخائر
فأجاب: طرفك ليس يبصر قلت: لا | هو مبصر لكن بغير نفوذ
من أين ألتمس البصائر إنني | أصبحت في عينيّ كالمنبوذ
لا تكترث منهم بصاحب شطحة | مجنونة ولو ارتدي جلبابي
أرني قلنسوة لدرويش لهم | لم ترض قنزعة العمامة جارا
ذهبوا مع الفقهاء خلف ملوكهم | لم يتركوا لذوي القلوب منارا

السابق، ص542.

ظل السماء؟[1]. وكوخ الدرويش أعظم من قصور السلاطين[2].

وإذا كان العبد الدرويش نصيب هذه الأرض ففي فقره طريق الكليم[3]. ينجح سعي الدرويش إذا صان ذاته وجاهر بها[4]. لم تعبأ أعين الدرويش بسلطان الملوك وأبهة الإسكندر. والتيجان لا قيمة لها إذا ما استجدت نساء الحي[5]. لا يبالي الدرويش عسر الطريق بل يرى أن هذا العسر عون له ونصير. ياليته على وعي بذلك. فسلاحه نور البصيرة[6].

ذهب الدراويش الذين لا يلقون بالاً للسيوف. وأنزووا في حرم يتاجر شيخه بوشاح فاطمة ومصحف محمد[7]. لقد قنع النساك بالانزواء في الحرب، في حين أن إقبال هجر القصور. ولم تقو عليه الملوك يوماً ولا النسور. والسر في ذلك أن هذا الشاهين ملك جني يطير فوق القصور فيزورها. وتدمي قلبه رؤية الجالسين في الحرم الشريف[8]. الدراويش يطربون للرئاسة والخزعبلات. وطريقهم غير طريق

---

(1) قال درويش أبي ... يسأل الله تعالي
أنا لا أشكو إليك الفقر والعيش المحالا
لكن اللهم قل لي ... أنت أرسلت الملائك
ليقيموا سلطة الأوغاد في ظل سمائك
السابق، ص537.

(2) بمقر للدراويش اعبُرنْ ... وقصورا للسلاطين انظرنْ
جاويد نامه، ص299.

(3) السابق، ص540.

(4) وينجح سعيه دهر مثابر ... بصون الذات درويش يجاهر
السابق، ص487.

(5) أعين الدرويش لم تعبأ ... أظهرت أبهة الإسكندر
هذه التيجان ما قيمتها ... وهي تستجدي نساء البيدر
جناح جبريل، ص444.

(6) لا يبالي الدرويش عسر طريق ... ويرى العسر عونه ونصيره
إسأل الله أن تكون بصيرا ... فسلاح الدرويش نور البصيرة
السابق، ص466.

(7) ذهب الدراويش الذين عهدتهم ... لا يأبهون لصارم ومهند
وبقيت في حرم يتاجر شيخه ... بوشاح فاطمة ومصحف محمد
السابق، ص422.

(8) بم النساك في الحرم استبدت ... بإقبال الذي هجر القصورا =

الشاعر، طريق تفتح القلب. من الممكن شراء الغني مثل أبرويز ولكن لا يمكن شراء جراح فرهاد. المادة تباع وتشترى. أما الفؤاد فإنه خارج الملكية وداخل الوجود[1].

يلهون مع السلاطين بمقدرات الأمة، وتتعاون السلطة الدينية والسلطة السياسية على استغلالها. لا فرق بين السبحة والسيف[2]. يقيم لدى السلطان في العصر السعيد الدرويش. ويغض السلطان عن جهلهم لاستعمالهم للسيطرة على الناس[3]. وليس عجباً أن يتبنى الدرويش بعد يقظته شعر إقبال حتى يتعلم ويبحث[4].

السالك يتضرع. عينه ضعيفة. وقلبه هلوع. يخلو من الحماسة والنضارة والسكينة والدموع. استطاع الدراويش القدماء الوصول إلى أرض الروم والشام. أما دراويش اليوم فقد وضعوا الأمة خلف الأنام[5]. الدرويش قاعد منهدم القوي. فقد

= ولم تقو الملوك عليه يوما وقد ملئت عوالمها نسورا
فما هو سره؟ الشاهين هذا ملوكي لجيني خفيف
يطير على القصور فيزدريها ويدمي قلبه الحرم الشريف
السابق، ص452.

(1) الدراويش يطربون لهذا والدراويش دأبهم غير دأبي
لست أعنى بمثل هذا فدعني أبحث اليوم عن تفتح قلبي
ممكن يُشترى غني أبرويز ومحال جراح فرهاد تشرى
السابق، ص459.

(2) فإلى متى صمتي وحولي أمة يلهو بها السلطان والدرويش؟
هذا بسبحته وذاك بسيفه وكلاهما مما تكد يعيش
السابق، ص435.

(3) لقد غضوا وغضوا من حكيم جهول كان ذا الفضل العميم
غني اليوم في عصر سعيد لدى السلطان درويش عظيم
أرمغان حجاز، ص438.

(4) ليس سهلا إذا الدراويش حجّت من بعيد إلى مدارس شعري
القضايا دقيقة فاستلمها واقض في أمرها إذا كنت تدري
السابق، ص442.

(5) تضرع حاشية السالكين عيون ضعاف وقلب هلوع
فأين الحماسة أين النضارة أين السكينة أين الدموع؟
نهضنا بأسلوب درويشنا فكانت لنا أرض روم وشام =

دنياه وأضاع دينه. لقد سمع الدرويش آهات الناس وأنينهم. يظن أنه من رجال الله إلا أنه مرتبط بالطين. له شطحات. يبدو كالبرق بين الناس. ويدعي إجراء المعجزات مثل الكافر الهندي الذي يذبح دونما سيف ولا رمح كمجنون[1].

9 ـ فلسفة العمل

السبب في كسل الأمة وسكونها وركودها وفتورها وقعودها هو التصوف الدخيل على الإسلام. تصوف غير إسلامي سلب المسلمين ذوق العمل. يخلو التصوف من كل حرق وكد. ويتحجج بشراب ﴿ألست﴾ للبطالة، وهي الشهادة الأولى التي قام بها البشر منذ الخلق على وحدانية الله ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾. ولا يختلف الصوفي عن الفقيه. فكلاهما ذاهبان. الأول إلى الداخل، والثاني إلى الخارج. الأول في الحقيقة، والثاني في الشريعة. كلاهما هارب من الحياة ومعاركها[2]. والأفكار دون أعمال تؤدي إلى الموت وليس إلى الحياة[3]. والعمل جوهر الذات. إذ لا يمكن معرفة الذات عن طريق الحواس الخمس لأنها كامنة فينا. ولا يمكن معرفتها عن طريق العقل. إذن هي أصل الحس والعقل والكون. يشاهد كل شيئ ولا يشاهد ذاته لأن الذات ليست موضوعاً بل ذاتاً. هي حقيقة مطلقة وليست وهماً

= ولما زهدنا بأسلوبه ذهبنا دواليك خلف الأنام
السابق، ص454.

(1) لا قعدة الصوفي منهدم القوى من فقد دنياه وضيعة دينه
ما قول سادتنا الدراويش التي سمعت لآهات ابنها وأنينه
هو من رجال الله إلا أنه سيثير عاصفة النشور بطينه
رجل تنير طريقه شطحاته حي كمثل البرق بين شؤونه
ملك أمارات الجنون بوجهه والعبد يفضحه غباء سكونه
الكافر الهندي يذبح دونما سيف ولا رمح فمن لجنونه؟
السابق، ص425.

(2) خلا الصوفي من حُرق وكد شرابُ «ألست» معذرة البطالة
وفرّ إلى ترهبه فقيه يرى في الشرع معترك البسالة
إذا خشي الرجال وغى حياة فتلك هي الهزيمة لا محالة
ضرب الكليم، ص24.

(3) ونغمة الأفكار دون صوت للذة الأعمال حادي الموت
السابق، ص10.

أو سراباً أو خداعاً للنظر[1]. فلسفة العمل رد فعل على الكسل والعجز واللامبالاة عند المسلمين في عصر إقبال أمام الاستعمار البريطاني والتعصب الهندوسي. وهي أوضاع مازالت سائدة حتى الآن في العدوان الأمريكي البريطاني على العراق، والصهيوني على فلسطين، والأمريكي على أفغانستان، والروسي على الشيشان، والهندي على كشمير، والأسباني على مدينتي سبته ومليليه شمال المغرب[2].

الذات عمل وجهاد وحياة كما عبر أبو القاسم الشابي وعلال الفاسي بعد ذلك. وتتلخص في حقائق ثلاث:

أ ـ الإسلام عمل يحدث ثورة.

ب ـ الذات ليست قديمة كما هو الحال في الفلسفة الهندوسية بل مخلوقة. وبالعمل تخلق ذاتها كذات مطلقة خالدة وكما قال فشته في الأنا الذي يضع ذاته حين يقاوم اللا أنا من أجل خلق الأنا المطلق[3].

جـ ـ نظرية وحدة الوجود وتأويلاتها عند ابن عربي أحدثت أثراً سيئاً عند المسلمين لتطعيمها بعناصر غير إسلامية. أثبتها فلاسفة الهند بالبراهين الفلسفية وشعراء إيران عن طريق التدوين. والنتيجة واحدة وهو الحرمان من «ذوق العمل». في حين أن جوهر الإسلام هو «قوة العمل». لقد نقد الفقهاء مثل ابن تيمية نظرية وحدة الوجود. وحملوها مسؤولية ضعف العالم الإسلامي. كما نقدوا التعاويذ التي كانت جيوش المسلمين تعلقها على الأذرع وهم يحاربون الجيش الروسي أو الغربي. وظل أحمد عرابي في حلقة الذكر ليلة المعركة الحاسمة. والمسلمون الأوائل خططوا للحروب وانتصروا فيها بالعلم والعمل.

الدين بغير قوة يصبح فلسفة. وهو ما أعاد إقبال التأكيد عليه في «ماذا ينبغي أن نعمل يا أمم الشرق؟». وفيه يؤكد على أن «رأي لا تدعمه القوة ليس إلا مكر وسحر وطلسم». وفي «بال جبريل» يصرح بنفس المعنى، «إذا وجد الكليم موسى بلا عصى فلا أساس لعمله». العمل ليس هو عمل المعجزات بل عمل القدرة

(1) سمير عبد الحميد: الأسرار والرموز، ص12 ـ 15.

(2) الأسرار والرموز، مقدمة، ص6.

(3) فشته، فيلسوف المقاومة، ص 181 ـ 192.

البشرية والإرادة الإنسانية، القائم على حسن التخطيط والتدبر والاختيار[1]. يخلق الإنسان القوي البينة. والضعفاء يتكيفون معها[2]. والحضارة فكر الرجل القوي[3].

10 ـ الزهد

ليس الزهد الامتناع عن الطعام والشراب واللباس والسكن. إنما الزاهد هو الغريب، العاشق في العقبى[4]. قد يشبه الزاهد المادي الزاهد الروحي، وهو الجاحد[5]. الزهد ليس ابتعاداً عن الناس والبشر بل هو تقوية للإرادة وتحكم في الطين الذي منه خلق الإنسان. أما زهد الصوفية ورضاهم به فهو نتيجة للجبن والخور. يعذبون به. الزهد هو زهد الاقتدار. فلا يقبل إدعاء زهد أو ملك لمن أضاع أمجاد تيمورلنك وهو يتراقص في حلقات الذكر[6].

ليس التجرد هو الجوع والضعف والقوى الخائرة والعوز. هذا التجرد يقضي على البشر. في حين أن هناك تجرداً آخر به يعز البشر ويكرم. وهو التجرد عند الملوك[7]. والمال ليس مطلباً للذات، بل يوجد عندما لا تطلبه[8].

---

(1) سمير عبد الحميد: الأسرار والرموز، مقدمة، ص9.

(2) St. Ref., p. 91.

(3) Ibid., p. 93.

(4) إنما الزاهد في الدنيا الغريب ذلك العاشق في العقبى الغريب
جاويد نامه، ص265.

(5) ماجن شيخ حكيم زاهد يشبه الزهاد وهو الجاحد
السابق، ص267.

(6) الزهد إخضاع هذا الطين والشرر وليس في بعدنا عن عالم البشر
فقل لصوفية بالفقر راضية هذا العذاب عقاب الجبن والخور
وما عليك إذا أنكرت مذهبهم وقلت: أطلب منكم زهد مقتدر
فالزهد والملك لا يستحسنان لمن أضاع أمجاد تيمورلنك في سمر
جناح جبريل، ص439.

(7) ليس التجرد أن تقيم على الطوى وقواك خائرة وبيتك معدم
فمن التجرد ما يطيح بأهله ومن التجرد ما يعز ويكرم
أنا لم أجد عند الملوك تجردا أحلى وأجدى منه في شابور
شابور في صنع الإمارة مسلم فتعلموا الإسلام من شابور
السابق، ص543.

(8) المال يوجد حتى حين تفقده فلا تكن وقحا إن رمته طلبا
السابق، ص543.

الزهد من شيم الملوك. والفقر من مظاهر العظمة، وعلامة على المحبة، إيثار الحبيب على العالم كله[1]. ولا تهم الأشكال والرسوم الخارجية، فسواء أكان الذي بذي سلطان أو ذي مسكن فالرأس العاري مثل رأس النسر، قادر على أن يطير إلى عنان السماء. وأحياناً تبدو الأمة غطاء بلا رأس، شكلاً بلا مضمون[2]. وكل زهد لا يأتي من واجد أي لا يرتبط بالوجد فهو مجرد سلوى لفقد أو لعدم[3].

الزهد كاذب خادع. يترك القليل لأخذ الكثير. ويتنازل عن العاجل لينال الآجل. فما من زاهد إلا وهو طامع في الملك[4]. زهد الصوفي كاذب. يتركه لأقل إشارة من الحان. والحب قادر على أن يجعله ملكاً بدلاً من التسول على الموائد[5]. إن الصوفي الحنيفي يحمل ناراً لا تبالي بريح الشكوك. ملأ الله دربه بمعان. علمت قلبه سلوك الملوك[6].

11 ـ الفقر

ليس الفقر موضوعاً نظرياً للفهم بل هو سلوك مشترك بين رواد الطريق. بل

---

(1) والزهد من شيم الملوك فإن تجد ... ذا الفقر فيه فمن عظيم فتونه
زهد الملوك كأبرويز محبة ... ألقى ممالكه إلى شيرينه
السابق، ص424 ـ 425.

(2) إذا كان زيك زي سلطان ... أو كان زيك زي مسكين
فغطاؤنا لا رأس يحمله ... فليق إلا رأس شاهين
السابق، ص443.

(3) كل زهد لم يكن من واجد ... فهو سلوى لعديم فاقد
يا أمم الشرق، ص360.

(4) مع هذا لا أرى من زاهد ... ماله من طمع في السلطة
جناح جبريل، ص444.

(5) عجبا من الصوفي يترك زهده ... لأقل بارقة بهذا الحان
الحب يجعل حيث مد بساطه ... من طعمة المتسولين ملوكا
السابق، ص416.

(6) إن هذا الصوفي يحمل نارا ... لا تبالي بريح تلك الشكوك
ملأ الله دربه بمعان ... علمت قلبه سلوك الملوك
السابق، ص520.

هي فكرة تجيش في القلب لا يستطيع لها دفعاً[1]. والفقير نادر الوجود. فإذا وُجد فلينتهز الجميع الفرصة للتعلم منه[2].

ليس الفقر فقط تجربة روحية بل تمليه أيضاً آيات الكتاب من أجل السيطرة على الكون وتسخير الكائنات. يرفع المؤمن فوق الشبهات لأنه أحد الصفات القدسية. في حين أن فقر الكفر هدم للفطرة ومجافاة للعمران. لا يتجاوز الكهوف، وليس له موضع بين الصفوف. هو صفر على يسار العدد. فقر المؤمن ليس عزلة عن العالم بل هو نضال في البر والبحر. فقر الكفر صامت كالجماد، في حين أن فقر المؤمن تعمير للوجود. الأول يقضي العمر في ترك البدن بحثاً عن الرشد أو هجرة للوطن[3].

أ ـ الفقر والحرية

الفقر هو التحرر من الطمع، والحرص على مغانم الدنيا. هو الترهب من أجل الحقيقة، والتحرر من العلائق. فالملكية قيد. الفقر رهبانية الإسلام أي القدرة على التحرر من أهواء النفس ومطامع الدنيا. الفقر تتجلى منه الذات. ينقلها من الفناء إلى البقاء. فإذا ما ضاع الفقر ضاع السلطان[4]. الفقر أساس الهمة. وهو نابع

(1) لم أكن في الفقر ذا فهم دقيق ... في سلوك بين رواد الطريق
فكرة جاش بها القلب اضطرابا ... ثم لم أملك عن القول احتجاجا
يا أمم الشرق، ص362.

(2) فاغتنم من فاقتي حظا يسيرا ... فعسى ألا ترى مثلي فقيرا
السابق، ص362.

(3) فقرنا تمليه آيات الكتاب ... ليس في رقص وسكر ورباب
فقرنا معناه تسخير الجهات ... واحتساب لجميع الكائنات
يرفع المؤمن فوق الشبهات ... مظهرا أعلى لقدسي الصفات
فقر أهل الكفر هدم للفطر ... ومجافاة لعمران البشر
عيشه بين المرامي والكهوف ... لا ترى موضعه بين الصفوف
لم يكن في الدهر منذ المولد ... غير صفر في يسار العدد
ليس للمؤمن بالفقر اعتزال ... هو في البر وفي البحر نضال
بينما الأول في صمت الجمود ... سار هذا نحو تعمير الوجود
ذاك يطوي العمر في ترك البدن ... طالبا للرشد أو ترك الوطن
السابق، ص360.

(4) إسلامك الموهوم شيئ آخر ... الفقر عندك كالترهب يظهر =

من الحجاز أي من أصل الإسلام[1]. قد يشكو الفقر جور الزمان. ومع ذلك فإنه قادر على فعل المعجز وأن يجعل الصخور كالذرات[2]. والفقر الحر إذا ناجى القدر أرهب الشمس واحتل القمر. أما الفقر المذل فإنه يزول. ويبعد المسلم عن جلاله. هو فقر بدر وحنين. هو زلزال تكبير الحسين[3].

ومهما كانت هناك من محاولات لتغيير معاني الفقر، عن المعنى الشائع في الثقافة الشعبية، فسيبقى المعنى التداولي. فالفقر بالمعنى الصوفي هو التجرد من كل شئ إلا الله، وعدم تعليق القلب بشيئ سواه. هي علامة على الحرية الباطنية والتحرر من قيود الدنيا.

وفي «على ذكر الإذن بحمل السيف» يشبه إقبال الفقر بالفولاذ، مصراع بيت. التوحيد أحد شقيه، والفقر الشق الآخر. التوحيد يطلق الطاقات، والفقر سيف بيد حر[4].

= شتان، فانظر، بين خلوة راهب ... وشراع فقر في عباب يمخر
في الروح والأبدان يبغي جلوة ... فنهاية الإيمان ذات تبهر
هو صيرفي الكائنات وجوده ... فعن الفناء أو البقاء يخبر
فاسأله عما ترتئيه أعالَم ... أم موج رائحة ولون يزخر؟
لما أضاع المسلمون على المدى ... ذا الفقر لما ذاع هذا الجوهر
لم يبق فيهم من سليمان ولا ... سلمان دولة عزة لا تقهر

ضرب الكليم، ص34.

(1) فإن تك ذا همة فأقدم ... وابتع فقرا أصله حجازي

السابق، ص63.

(2) فقر تراه شاكيا ... جور الزمان اللحز
باق عليه مسحة ... من اجتداء الكرز
ولم يزل ميسرا ... للبر فعل المعجز
أن يجعل الصخور ... كالذرات غير معجز

السابق، ص123.

(3) فقرنا الحر إذا ناجي القدر ... يرهب الشمس ويحتل القمر
فقرنا الغاري تولاه الزوال ... قد نأى المسلمُ عن هذا الجلال
إنه إيمان بدر وحنين ... إنه زلزال تكبير الحسين

السابق، ص361.

(4) أيها المسلم تدري اليوم ما ... قيمة الفولاذ والعضْب الذكَر
هو مصراع من البيت الذي ... مضمر فيه من التوحيد سر
وأرى مصراعه الثاني في ... سيف فقر تحتويه كف حر

السابق، المدخل ص م ـ ن/ 17.

الفقر وحده سلاح ماضٍ في الحرب[1]. هو روح القرآن[2]. هو المِسَنّ الذي يحد السيف للمنايا[3]. الفقر يحرر، والملك يذل. الفقر والملك متعارضان[4]. الفقر هو الحياة والعشق والتحرر[5]. يتجاوز حياة العلم والفن إلى طموح القلب. لا يصبر. يشق طريقه بين الفلسفة المعقدة للحكماء والمعجزات المتتالية للصوفية، تأسياً بمعجزات موسى أمام فرعون وعلى الطور. المسلم هو صاحب الصدر الذي يتنفس، ويتخلي عن كل ما في الحبيب إلى درجة الجنون. إن حماس العشق والفقر الغيور هما اللذان يحميان الأمة من الذل واليأس. يصبح الفقر بالعزة كمالا. يعزز العالم بلا سلاح. وهو علامة على الفضل الإلهي[6].

الفقير الغيور، والفقير الصالح، والفقير المؤمن، كلها أشكال مختلفة للمسلم

---

(1) الفقر يمضي بلا سلاح — في حومة الحرب كالرجوم
وكل ضرب له سديد — قصة فرعون والكليم
حماسه قص كل عصر — قصة فرعون والكليم
يا غيرة الفقر أنجدينا — واهدي إلى نهجك القويم
السابق، ص ن/ 18.

(2) تعلم فألف مقام وشان — لفقر بدا فيه روح القرآن
السابق، ص ن.

(3) يمر عليك من فقر مسنا — فيطبع منك سيفا للمنايا
السابق، ص ن.

(4) أي ملك مقام فقر، ولكن — تؤثر الذل مذعنا، ما احتيالي
السابق، ص ن.

(5) متاعك في الحياة فنون علم — تظل الدهر منها في حبور
وما عندي متاع غير قلب — طموح ما أراه بالصبور
لأهل الفكر معجزة تجلت — بفلسفة معقدة السطور
وأهل الذكر شادوا معجزات — على موسى وفرعون وطور
أقول لمسلم: ما فيك صدر — لأنفاس بها حر النشور
ومزقت الجيوب وأنت خال — جنوني لا ألومك في قصور
أقل القول وافتح عين قلب — ولا تك مهذرا عند البصير
وما أن ذل قوم قد أعدوا — حماس العشق والفقر الغيور
السابق، ص ن/ 34.

(6) في غيرة أرى طريق حق — الفقر بالغيرة في تمام
وصاحب الفقر الغيور هذا — بلا سلاح في الزمان غازي
إمارة المؤمن فيه سر — عطية الوهاب هذا الفقر
السابق، ص62 ـ 64.

الحر. هدف الحر فوق مسرى النجوم. ورده الذي يذكره «لا تخف». هو آمن في سلمه، آمن في حربه، ورأسه على كفه لا في جيبه. عرف الله فلم يرهب سواه. ومن يخشى الله لا يخشى خلقه. لا يرى في البؤس مرارة. ولا يكون عبد سلطان أو إمارة. هو جمل موصول الصيام. يحمل الأثقال. الشوك طعامه. هو نبض في عروق الأمل. يسعي في طريق العمل. ومن علا تكبيره من غير تاج قدمت له التيجان الخراج. النيران من جمره. والأنهار من خمره. وجنة الورد شذا من سحره. وشعلة المجد سناً من فكره. يرتعش رب السرير في قصره من سهم عريان فقير[1].

وفي تقابل مع الحر ومع أحوال الأمة، مع ما ينبغي أن يكون وما هو كائن فإن الأمة تتعامل مع الدين كخبر ورواية ونقل، في حين أنه عند الحر شهود ونظر. والأمة عند الباب تستجدي الأماني، وهو سيد في الدار جواد كريم. مقصد الأمة الدير. تبيع المسجد للغير. والحر يسقي من يمين المصطفى كوثراً عذباً يصفو به الورد. تكبير الإله في ضمير الحر. وتقدير الأمم في جبينه[2].

---

(1) فوق مسرى النجم للحر هدف — ورده في كل حين لا تخف
آمن في سلمه في حربه — رأسه في الكف لا في جيبه
عرف الله فلم يرهب سواه — كيف يخشي الخلق من خاف الإله
لا يري قط مع البؤس المرير — عبد سلطان ولا ظل أمير
جمل في البيد موصول الصيام — يحمل الأثقال والشوك طعام
هو نبض في عروق الأمل — وهو سعي في طريق العمل
من علا تكبيره من غير تاج — يلزم التيجان تقديم الخراج
قد ذكت نيراننا من جمره — وجرت أنهارنا من خمره
جنة الورد شذا من سحره — شعلة المجد سنا من فكره
وترى في قصره رب السرير — راعشا من سهم عريان فقير

السابق، ص363.

(2) شأننا في الدين لا يعدو الخبر — وهو في الدين شهود ونظر
نحن عند الباب نستجدي الأماني — وهو في الدار وفي طيب المجاني
أصبح الدير لدينا مقصدا — نحن للغير نبيع المسجدا
وهو يسقى من يمين المصطفي — كوثرا عذبا به الورد صفا
في ضمير الحر تكبير الإله — في جبين الحر تقدير الأمم

السابق، ص363.

ب ـ الفقر والملك

ومن يعيشون في القصور يعرضون الأبدان ولكنهم لا يعرفون إلا الروح[1]. بل إن خرقة الزاهد عبء على الفقير. يلقي اليسير حفاظاً على عفة القلب. ويكفي الروض عبيره. وهو قادر كالبحر الغامر جعل الصحراء سيلاً هادراً. هو في الحرب نشيد من دماء، وفي السلم رسول للإخاء. أهل الحق هم أرباب الوفاء. نذروا أنفسهم في كل وقت حتى يعم الخير على كل الناس[2]. لقد أنجب القوم الأمراء فمتى ينجبون الفقراء؟[3].

وفي وصف شرف النساء الفقر هو الذي يبقى في الذكرى إلى الأبد، فيتحول إلى صورة[4]. الفقير هو الغني. والغني هو الفقير[5]. قد يكون الفقر بمعنى التواضع في مقابل الغرور. وهو معنى غير شائع. فالفقر هو الفقر المادي أو المعنوي[6].

الفقر هو السلطان الحق. والسلطان الحق هو الفقير. والقرآن جمع بين السلطتين: سلطة البدن وقوة الروح. تتجلى الذات في قهرها. وهو أحد مقامات هذا الزمان. وبتعبير فشته «الأنا تصنع نفسها حين تقاوم». ثم توزن في هذا المقام. توزن قواها، قوة الإيمان وهي في الامتحان. والإنسان في هذا المقام عظيم، ظل

---

(1) قد ضل أهل القصر عن أرواحهم — لم يهتدوا إلا إلى الأبدان
السابق، ص343.

(2) خرقة الزاهد عبء للفقير — كن عفيف القلب وانعم باليسير
إن تكن بحرا قويا غامرا — فاجعل الصحراء سيلا هادرا
أنت في الحرب نشيد من دماء — أنت في السلم رسول للإخاء
إن أهل الحق أرباب الوفاء — ليس سر الحق عنهم في خفاء
نذروا أنفسهم في كل حين — ليعم الخير كل العالمين
السابق، ص345.

(3) يا القوم، انجبوا كل أمير — فمتى يولد في القوم فقير؟
السابق، ص361.

(4) وهي نور الأمل في عبد الصمد — فقرها ذكرى ستبقى للأبد
جاويد نامه، ص286.

(5) هو ذا «ظاهر غني» أو خير شاعر — الفقير، وغناه منه ظاهر
السابق، ص288.

(6) من غرور واختيال تشكر — ومن الفقر لدينا تسخر
رسالة الشرق، ص67.

الله في الأرض. وهي لا يعني القهر والبغي والتسلط بل العشق والوجد والجمال وإلا لما ساد الأمان في الأرض. الفقر ليس عبثاً في الدنيا، بل هو الذي يجعل الفقير يباري الكواكب، وينعكس عليه سنا الشمس[1]. الفقير هو الإنسان. تتمثل فيه مقاصد الفطرة العليا. أودع فيه الخلاق سلطانا[2]. الفقير بدناً هو الأمير روحاً[3]. في كوخ الفقير وفي قصر الأمير هناك ألم وهناك شفقة. ومن الصعب انحناء ظهر الشاب. يعني الشباب الهمة والذاتية[4]. ويستطيع الفقير أن يحصل على ثروة الكليم وملك داود. ترتعد الصخور من زجاجه. وأفكاره لا نهائية. لا يحدها شطآن[5].

وإذا كان تاج الإسكندر متاعه فإن الفقر والدروشة تاج العاشق. يبني الرجال بالفقر. والإسكندر يبني مدينة من زجاج[6]. لا يهنأ الإنسان بعيشة الأمراء بل بعيشة الفقراء. وسجل الفقر هو فخر النبي. والفقير سيد الأسماء[7].

---

(1) تــعــلّــمْ، فــألــفُ مــقــام وشــان لــفــقــر بــدا فــيــه روح الــقــران
إذا انجلت الذات في قهرها فهذا مقام لملك الزمان
وتوزن في ذا المقام القوي قوى مؤمن تبتلى بامتحان
وإنك في ذا المقام عظيم وظل من الله في ذا المكان
وما ذاك بغي وقهر ولكن هو العشق والوجد ملء الجنان
فما يستطاع بقهر وبغي على الأرض حفظ الوري في أمان
وأعياك في الدهر حفظ لفقر فأصبحت في الرق خدن الهوان
وكان على الدين سيما سجود تباري الكواكب ملء العيان
وكان على الشمس منه سنا فهل في نجومك منه معان؟
ضرب الكليم، ص20 ـ 21.

(2) مقاصد الفطرة العلياء يحفظها من عاش في البيد أو في الطود إنسانا
يراقب السِحر في التمدين يُبطله في فقره أودع الخلاق سلطانا
السابق، ص126.

(3) فماذا أجاب الهمام الفقير؟ فقير بملك المعاني أمير
رسالة الشرق، ص301.

(4) Persian Psalms, p. 123.

(5) بفقري كان لي مال الكليم وجاه الملك في سَمَل العديم
زجاجي منه ترتعد الصخور وأفكاري بلا شط بحور
زبور العجم، ص374.

(6) تاج إسكندر الشهير متاع وأنا الفقر والتدروش تاجي
أنا أبني الرجال بالفقر هذا وهو يبني مدينة من زجاج
جناح جبريل، ص532.

(7) أنا عيشة الأمراء لم أأبه لها أنا عشت درويشا مع الفقراء =

الفقير هو الذي يبتعد عن السلطان[1]. للسلطان الملك، وللفقير الروح. يحكم السلطان العالم. والعالم كله في ضمير الفقير[2]. يبدو الفقير أميراً لأنه نال نصيبه من الغنى[3]. السلطان هو الفقر. والفقير هو السلطان[4]. الفقير هو الأمير، وليس الخفير[5]. الفقير هو الذي يأخذ الخراج من الملوك. فلماذا تمجيد العروش والتيجان؟[6]. وإن صان الفقير ذاته فملك العالم له[7]. والفقير الذي يوقظ القلوب لم يعد يوجد في هذه الأمة[8].

جـ ـ الفقر الغيور

إن الذات التي تقوم على الفقر الغيور تصبح ملك البشر الفقير. هو الذي يقود الشعوب إلى سدة الملك[9]. والفقير الحيدري هو الذي يتأسى بعلي بن أبي

= فادخل سجل الفقر باسمك إنه ... فخر النبي وسيد الأسماء
السابق، ص533.

(1) عرفت الفقر عن سلفي قديما ... عن السلطان إحجامي، تأمل
أرمغان حجاز، ص452.

(2) لك السلطان لكني فقير ... لأرض الروح والمعنى أمير
ودنيا «لا إله» بدت تأمل ... حواها كلها مني ضمير
السابق، ص454.

(3) أمير فيه قد يبدو فقيرا ... فقير من غني نال النصيبا
السابق، ص463.

(4) وأدي القول عن عمر فقولي ... كن السلطان يعرف بالفقير
السابق، ص466.

(5) عن الرومي خذ سر الفقير ... يشير بفقره حد الأمير
وفقر ذاك لكن منه فاحذر ... مقاما نلت يدني من خفير
السابق، ص466.

(6) فقراء، حاكم يبغي الخراجا ... قل لماذا مجدوا عرشا وتاجا؟
رسالة الشرق، ص292.

(7) فقير إن يصن بالفقر ذاتا ... فملك العالمين لذا الفقير
السابق، ص497.

(8) السابق، ص535.

(9) وما فلك جائر في السير ... وماذا ذكاء وماذا القمر؟
أرى ركبها جاهدا في المسير ... وأقعدها طول هذا السفر
سكندر زمر كالرعد حينا ... وعندك يا موت صدق الخبر =

طالب، فتى جميل الطلعة طاهر القلب، في السلم ظبي وفي الحرب أسد. ناره تحرق كل شيئ. ويكفي الغاب مجرد شرار. أوتي الأبهة والملك. تاجه حسر الرأس عنه دون ارتياب[1].

وعلم الفقر لسالك ليس صعبا. عرفه البعض فحدث لهم الهدي أي صحوة الضمير. ولا يكون الفولاذ جوهر سيف إن لم يكن في اليد التي تمسك به قوة الفقر. إن قهر الإله فقر ذليل، ولكن سبيل السلطان فقر غيور[2]. يتطلب الفقر الغيور الحفاظ على الإيمان الذي يدعو إلى الاطمئنان في مقابل غياب الجاه والمال. فرأس مال الفقير الصدق والإخلاص والوجد والحرقة والتفاني وليس الحلي والمظاهر والثوب الموشى والذهب الأصفر[3].

الفقر المادي أحد نتائج اضمحلال المسلمين. أما الفقر المعنوي فهو عزة بالنفس. يؤدي إلى مالا يؤدي إليه الغنى. يعطي النفس شجاعة أدبية، وقدرة على

= وعاشت بدهلي يدا نادر بضربة سيف حكي فاختصر
وتبقى الجبال وأفغانها لك الملك والحكم رب القدر
تُذل الحوائج صيد الرجال ترى الليث كالثعلب المحتقر
إنْ الذات أيدها فقرها فعندي وعندك ملك البشر
قوام الشعوب بحُرّ فقير إلى سدة الملك ما إن نظر
ضرب الكليم، ص116.

(1) سواد عيون عترته علي حليف طهارة وفتى ضراب
يُرى في السلم ظبيا ذا جمال وفي يوم الكريهة ليث غاب
به نار تُحرّق كل شيئ وحسب الغاب من شرر الثقاب
حباه الله أبّهة وملكا بفقر حيدري واحتساب
سبيل التاج حسر الرأس عنه فلا تنظر إليه بارتياب
السابق، ص120.

(2) علم فقر لسالك غير صعب حث الناس عن هداه الضمير
لا يكون الفولاذ جوهر سيف إن يكن في الطباع منه حرير
إن قهر الإله فقر ذليل وسبيل السلطان فقر غيور
السابق، ص123.

(3) إن أردت الفقر الغيور فلا تفقد مع العُدم ثروة الإيمان
فمن الحال لا من الجاه والمال دوام الرضا والاطمئنان
رأس مال الأحرار صدق وإخلاص ووجد وحرقة وتفان
ليس في الحلي والمظاهر والثوب الموشى والأصفر الرنان
يا أمم الشرق، ص350.

الجهر بالحق لأنه لا يخشى أن يفقد شيئاً. وقد يكون الصعلوك أغني من الملك[1]. الفقر الغيور هو إثبات الذات، وليس ثوب الفقراء الدراويش أو خلعة الإنجليز[2].

وفي قصيدة طويلة بعنوان «فقر الصالحين» وهو ما سماه من قبل «الفقر الغيور» يكشف للناس معنى الفقر الغنى الأرفع. هو طريق العارفين، وارتواء القلب من عين اليقين. عزيز في غناه. يبدع في الحياة. ويهتدي بالتوحيد. صداه يرعش الكون. ويدرك أنه ليس في الكون إله غير الله. حرر خيبر بأكل خبز الشعير. يخشع لله. ويخشع الأمير له. حاله الرضى والذوق والشوق. يصفو به العيش. وهو ميراث النبوة، وهدي القرآن[3]. ويُفتدى أهل الفقر عن طيب خاطر. ولا تُنسى النعمة الرحمن[4].

---

(1) فـالـفـقـر صـاح مـيـسـر ... مـا لا يُـيـسـره الـغـنـي
شـبـان قـومـي لـو تـحـلـوا ... بـالـشـجـاعـة ديـدنـا
لـم تُـلـف صـعـلـكـتـي أقـلَّ ... مـن الـمـلـوك تـصـوّنـا
الأمـر لـيـس كـمـا زعـمـت ... وقـد وصـفـتَ الـمـؤمـنـا
فـزعـمـت أن طـمـاحـه ... مـن قـلـة الـمـال انـثـنـي
إن كـان فـي الـدنـيـا بـدا ... لـي جـوهـرٌ فـيـه سـنـا
فـمـن الـتـصـعـلـك قـد بـدا ... لا بـالـخـزائـن والـقـنـى
ضرب الكليم، ص11.

(2) يـا جـبـالـي أيـان عـنـك الـمـسـيـر ... وتـراب الآبـاء هـذي الـصـخـور
لا زهـور ولا صـدى عـنـدلـيـب ... فـيـك مـنـذ الآزال تـأوي الـصُـقـور
جـنـتـي فـيـك مـخـرم وشـعـاب ... مـاؤك الـنـور، والـتـراب الـعـبـيـر
لـن يـكـون الـشـاهـيـن عـبـد بُـغـاث ... ألـحـفـظ الأبـدان روحـي أُبـيـر
خـلـعـة الإنـكـلـيـز أم سُـحـق ثـوب ... إيـه فـقـري الـغـيـور مـاذا تـشـيـر
السابق، ص116.

(3) يـا عـبـيـد الـمـاء والـطـيـن اسـمـعـوا ... مـا هـو الـفـقـر الـغـنـي الأرفـع
هـو عـرفـان طـريـق الـعـارفـيـن ... وارتـواء الـقـلـب مـن عـيـن الـيـقـيـن
ذلـك الـفـقـر عـزيـز فـي غـنـاه ... هـامـة الـجـوزاء مـن أدنـى خـطـاه
يـحـكـم الإبـداع فـي صـنـع الـحـيـاة ... ويـري الـتـوحـيـد نـبـراس هـداه
يـرعـش الـكـون إذا دوى صـداه ... لـيـس غـيـر الـلـه فـي الـكـون إلـه
خـيـبـر حـررهـا ذاك الـفـقـيـر ... لـم يـكـن ثـم سـوى خـبـز الـشـعـيـر
خـاشـع لـلـه دنـيـاك الـقـديـر ... وإلـيـه خـاشـعـا يـسـعـى الأمـيـر
حـالـه ذوق وشـوق ورضـا ... ثـم تـسـلـيـم لـمـا الـلـه قـضـى
يـا لـه كـنـزا بـه الـعـيـش صـفـا ... فـهـو مـيـراث الـنـبـي الـمـصـطـفـى
في هدى القرآن والذكر الحكيم ... دائـم الإسـعـاد مـوصـول الـنـعـيـم
يا أمم الشرق، ص358.

(4) أهل فقر من فديت، طبت نفسا ... ويل من بالنعمة الرحمن ينسى
جاويد نامه، ص333.

ذلك الفقير في رقعته يسع العالم كله في وجدانه. هو صامت لا يطيل الكلام. وبصمته يربّي الأمم. له من طاقة الروح ما يساعد الخامل على الطيران. حوّل العصفور نسرا. بنداء الحق يحيي المدن. وبصدق العزم يبني الأوطان. كانت دولته فوق الحصير. يخشاها ألف سرير للسلاطين وللأباطرة والقياصرة. لا يرض العيش إلا في مقام الشاهين. لا يبالي أن يجهر بالحق في وجه الملوك. يتلاشي الحجر في ميزانه. ويخاف البحر من طوفانه. صوته في الشعب يشعل اللهب. وتخاف النار منه الحطب. ولا تخشى الأمة من مغير. ولديها ذلك الفقير. تغني الأمة بغناه. وترجو برجائه. تكشف عن نفسها في مرآته. وتستمد الحكمة من آياته. تكتسب منه صفات الصادقين. وتفز منه بسلطان مبين. تتجلي فيه حكمة الدين، وتظهر في قوته ورفضه للذل[1].

يبدي المسلم فقره. ويصعد منه كما تصعد زفرة النار[2]. ويضيق الفقير بالألم المقيم وبالابتعاد عن دين الحق والأصل الكريم[3]. الفقير على ما يبدو عليه قريب

---

(1) ذلك المسكين في رقعته — يسع العالم في مهجته
صامت ليس يطيل الكلما — وهو بالصمت يربي أمما
وله من طاقة الروح جنان — يمنح الخامل ذوق الطيران
حول العصفور نسرا في الفضاء — فبدا للأرض تفسير السماء
بنداء الحق يحيي مدنا — وبصدق العزم يبني وطنا
مسلم دولته فوق الحصير — كان يخشى بأسه ألف سرير
ليس يرضى العيش إلا في مقام — يستوي الشاهين فيه والحمام
لا يبالي من له هذا السلوك — أن يقول الحق في وجه الملوك
يتلاشي الجمر في نيرانه — ويخاف البحر من طوفانه
صوته في الشعب يذكي لهبا — وتخاف النار منه الحطبا
لا ترى الأمة تخشي من مغير — ولديها مثل ذياك الفقير
نحن باستغنائه نلقى الغنى — وعلى أشواقه نرجو المنى
فامتحن وجهك في مرآته — وانشد الحكمة من آياته
تكتسب منه مزايا الصادقين — وتفز منه بسلطان مبين
تتجلى حكمة الدين جمالا — حين يبدي الفقر عزا ودلالا
قوة الدين وتشييد علاه — في تسامي الفقر عن ذلك الحياة

يا أمم الشرق، ص359.

(2) ويبدي المسلم المحبوب فقره — يُصعِّد مثل حر النار زفرة

أرمغان حجاز، ص439.

(3) فقير ضاق بالألم المقيم — بدين الحق ذو الأصل الكريم

السابق، ص439.

من الحق والثورة[1]. وهو قادر على العطاء، وإثارة الروح، والتسامي والنمو[2]. الفقير الحق يصلي ركعة لله. يذل بها الطغاة والبغاة. والنار لاتخمد بصدره. وتتولى إلى عتبات الظالمين[3].

نشر الفقير واكتوى بنار النشر دون نار الضمير[4]. ورجاء المسلم أن يكون فقيراً، وأن يحول هشيمه إلى القلب[5]. ونظراً لأن المسلم ابن الصحراء رحالة وكان الفقر له دليلاً فإن أصبح فقراً غيوراً كان دليلاً للكون كله[6]. الحذر إذن من الفقر والتصوف الذي علم المسلم الذل والخضوع[7].

د ـ القلندر

«القلندر» عند إقبال ليس هو الدرويش كث اللحية، فقير الحال، رث الثياب، أشعث الرأس، بدعوى الاتصال بالله. بل هو المتوحد الفرد، المتجرد[8]. القلندر هو الحر الذي لا يركن إلى سكونه أو تقيده رغبة أو رهبة. هي النفس القوية المجاهدة في الحياة وفي الممات. فالذات ليس مكانها سكون القبر بل ساحة

---

(1) أنله الحق، مسكين أسير — فقير وهو في قلق يثور
السابق، ص440.

(2) بفقر كنت للصديق تعطي — أنر روحا تسامى أو تطور
السابق، ص443.

(3) فقير ركعة لله صلى — طغاة أو بغاة من أذلا
وتلك النار إن خمدت بصدر — إلى عتبات من ظلموا تولى
السابق، ص443.

(4) وتشريد ونار للفقير — من الحرقات هب نار الضمير
السابق، ص445.

(5) فقير فلتحقق لي رجائي — هشيمي اجعله قلبا في الفضاء
السابق، ص447.

(6) وللركبان من عرب دليل — فمحنة ربهم فقر طويل
وهذا الفقر إن أمسى غيورا — ترجف كوننا وهو الدليل
السابق، ص470.

(7) السابق، ص532.

(8) لا يجد القلندري راحة — وإن ثوي بقبره تحت الثرى
سكينة الأفلاك في الضريح لا — فساحة الأفلاك أو طول السُرى
ضرب الكليم، المدخل ص ع/ 26.

الأفلاك وسرى النجوم. القلندر هو صاحب الهمة المتولدة عن الإيمان الذي تحول لديه إلى طاقة وحركة وقوة وفعل. إذا طفى اليم فلا يحتاج إلى ملاح وسفن. قدرته تكبيره. وقوته آذانه. يحاسب الأفلاك. يقهر الأيام[1]. ويصدّر إقبال القسم الأول من «زبور العجم» بتوحيد نفسه مع «القلندر»[2].

لا يخفى على القلندر فكر عند الشباب أو الشيوخ، علناً أم سراً لأنه يعرف كل شئ عن طريق التجربة والمعاينة والمشاهدة. لا يقع في شراك الألفاظ مثل الحكيم أو الفيلسوف، ولا في شراك الحروف إن كان فقيها. يبحث عن الدرر وليس الأصداف في قاع البحار. يبدو عليه الحزن، مع حلقة المجانين دون أن يتخلى عن العقل. لا يرى الشرارة لهيباً مضيئاً. وصدق القلب أغلى من الجواهر. والفلسفة الحقة هي التي تُسطر بدم القلب وإلا فإنها موت أو تبعث على الموت[3].

ونظرة القلندر أعز من أبهة الإسكندر وملك دارا ودروشة تنم عن قلب الأسد، وشجاعة علي[4]. القلندر أقوى من الملوك. . . . .

---

(1) يقول للزمان ذلك الفتى ... امض إلى حيث يسير المؤمن
مالك في معتركي من طاقة ... حذار من قلندر لا يذعن
إذا طغى اليم فهيا أقدمن ... ما حاجتي ملاّحه والسفن
لقد محا سحرك تكبيري فهل ... تقوى على جحوده يا وَهِن؟
يحاسب الأفلاك ذا القلندر
وقاهر أيامه لا يُقهر

السابق، ص26.

(2) «مررت دون الباب بحمية القلندر، وأتحدث عما لا يمكن الحديث عنه داخل المنزل» Persian Psalms, P. I.

(3) ليس يخفى على القلندر فكر ... ساور النشء ظاهرا أو خفيا
أنا عندي بكل حالك خُبر ... فبهذا الطريق سرتُ مليا
لا يقيم الحكيم في شَرَك اللفظ ... ولا بالحروف كان حفيّا
ليس هم الغواص أصدافُ بحر ... يبتغي الغائصون دُرا بهيا
إن في حلقة المجانين عقلا ... في شرار يري لهيبا مضيا
إن أعلى من الجواهر، معنى ... صدّق القلبُ سره مطويا
فلسفات ما سَطرت بدم القلب ... موات أو للممات تُهيّا

ضرب الكليم، ص27.

(4) أعز من أبهة الإسكندر ... وملك دارا نظرة القلندر
دروشة تنم عن قلب ملي ... فيه عبير أسد علي

جناح جبريل، ص450.

والسلاطين[1]. وهو نادر الوجود، صعب البحث عنه. فلكل شيئ علامة مميزة. السيف للجندي. والتاج للملك. وفؤاد القلندر ما علامته؟[2]. سر حرية القلندر أنه لا يخشى نشر سره[3].

وفي قصيدة طويلة بعنوان «المعرفة والتجرد»، يضع إقبال تعارضاً بين العلم والمشاهدة، بين النظر والذوق، بين الفيلسوف والصوفي، ونموذجه القلندر. لا يقوى الزمان على القلندر. فقلبه تحت عرشه مستقر. سره ليس في العلوم، ولكنه تعلم بالتجرد. لا يبغي صقل العقل، ولكن تصفية القلب. هو درب مستقل وطريق متميز، طريق عيسى وموسى، وليس طريق الفيلسوف والفقيه. هو سر وبصيرة، والعلم أقاويل الأقدمين. هو سكر بالفضيلة، والعلم قد يؤدي إلى الرذيلة. النفي عند القلندر سيف صقلته الذات. وسيف واحد يفني جيوشاً تخاف وهم الفناء. وإذا كان للإنسان قلب كسرت عيناه مرايا السماء[4].

ومع ذلك، الصوفي هو القلندر، الفقير الغيور، العزيز الأبي، صاحب الملك والتاج، صاحب الجذب. معه الكليم القادر على سحق الملوك بنظرته. يبغي الصلح والسلم. وهم يبغون الحرب والجور. والصوفي هو القادر مثل الكليم على

---

(1) ما لسنجار أو لطغرل حظ ... من عيون القلندر الملكية
السابق، ص457.

(2) ليس للجند غير شكل سيوف ... ليس للتاج غير لمعة جوهر
في عروش وفي جيوش بحثنا ... ما عثرنا على فؤاد القلندر
السابق، ص458.

(3) والذي يجعل القلندر حرا ... أنه لا يخاف للسر نشرا
السابق، ص460.

(4) ليس يقوى على القلندر دهر ... قلبه تحت عرشه مستقره
سره ليس في العلوم ولكن ... علمه بالتجرد والحق سره
هي ترمي لصقل عقل وفكر ... وهو يرمي لصوغ عين وقلب
هو درب بذاته مستقل ... وهي بحث على مجرد درب
هو عند الصعاب عيسى وموسى ... وهي للناس فيلسوف وقاضي
هو سكران بالفضيلة سار ... وهي سكرانة بخمر الرذيلة
مطلق السكر في الحقيقة حال ... ليس فيه رذيلة وفضيلة
نظرة النفي للقلندر سيف ... طبيعته الذات التي يقتفيها
واحد من جنودها الحق يغني ... عن جيوش تخاف الفناء
وإذا المرء كان صاحب قلب ... كسرت عينه مرايا السماء

تحطيم الأسوار والتيجان والقضايا على كل أشكال السحر كما فعل الكليم «بسحرة فرعون»[1]. الفقر أقوى من سلطان الملوك، فقر القلب وليس فقر البدن[2]. وأهل الذكر لم يعرفوا الفقر[3]. الفقر ليس هو العري بل هو الذي يهب الملك[4]. والفقر الغيور هو الفقر العظيم. وهو ملك غني[5].

12 ـ المقامات والأحوال

المقامات سَفَر دون طيران حتى يمكن النظر إلى الأرض وحياة الناس. المقام حركة والمُقام ثبات. والبدر لا يرضى بالمقام لأنه حرام. وبهذا المعنى الطيران كحركة متعة. والالتصاق بالعش ضياع. وإذا كان رزق الغراب في القبر فإن رزق الشاهين لدى القمر والشمس. وسر الدين الطعام الحلال. وهو الصدق والتحلي بالجمال[6].

---

(1) إن للصوفي عزا يا له ... عزا، وهذا الملك للإسكندر
إن للصوفي جذبا من كليم ... الله، لكن ذاك سحر السامري
يُقتل الصوفي بالعينين ... لكن الملوك بالجيوش قتلُهم
ذاك يبغي السلم والصلح وهم ... يبغون بالهيجاء حكم الجائر
فتعال وتقدم، قبضة الصوفي قدّم، سدَّ ذي القرنين حطّم
أخيِ ما كان لموسى من رسوم ... ليس هذا السحر غير المبين، حطّم
جاويد نامه، ص155 ـ 156.

(2) كيف فقر الجوع أو فقر العراة ... حكم سلطان، فدع ذكر العفاة
السابق، ص206.

(3) إنه قول من الأقوال بكر ... ما عني بالفقر قط أهل ذكر
السابق، ص212.

(4) دعك من فقر به عُري وجب ... حبذا الفقر إذا مُلكا وهب
السابق، ص276.

(5) إنه ملك عظيم بالفناء ... وهو بالفقر العظيم ذو العلاء
السابق، ص297.

(6) لذة للسير غايات السفر ... لا تطر إن خطت بالعش النظر
ويدور البدر يحظي بالمقام ... ما المقام عنده غير الحرام
أن تطير، للحياة متعة ... والتزام العش فيها ضيعة
الغراب رزقه في جوف قبر ... عند شمس رزق شاهين، وبدر
إن سر الدين أكل للحلال ... وهو صدق والتملي للجمال
السابق، ص330.

يرفض إقبال عديد من المقامات مثل مقام الرضا عند الصوفية. فالاعتراض أولا. فقد سُئل يوماً عن رضاه عن العالم. فنفي. فطلب منه الله أن يبني عالماً أفضل. ولا يوجد بطل يرضى بالرضى[1]. الرضى يعني التسليم[2]. والتسليم نكوص عن المقاومة.

الصبر هو القبر. ولا يقوم شعب من أعماق قبر وهو في مقام الصبر[3]. ليس حزن الصديق علاجه بالصبر. ولا حل لغز الموت في الصبر[4]. القلب الصابر حجر. وهناك فرق شاسع بين الصبر والعشق.

والتوكل ثقة المؤمن بالله، عتاد تدفعه إلى العزم لتحقيق مقاصده. تحميه من اليأس. وتنير له الطريق الذي يميز به بين الخير والشر. لا تخشى الصعاب. وتحطم الظلم. وتقضي على بنيانه. تدرك الآمال بالفقر الغيور الذي يبعث الأجيال القادمة. هدي الله هو الهدي الكلي. ولا يرجى سواه منه. تنبع قوة الروح التي احتجبت في هذا العصر. هو حب دين الله. ودونه يظل المسلمون صاغرين[5]. والمؤمن رمز

---

(1) ثم قالوا هذه الدنيا لنا هل ترتضيها؟ — قلت لا، لا أرتضيها، قيل هيا أهدمن
ليس في الحانات كفء بالرضا منا جدير — رستم الأبطال حارب، ومع الساقي امزحن
السابق، ص295 ـ 296.

(2) رضاك وذلك التسليم مذهب — وعن نهج لصدق أين تذهب
أرمغان حجاز، ص470.

(3) لا يقوم الشعب من أعماق قبر — ما له من بعد قبر غير صبر
جاويد نامه، ص318.

(4) أرمغان حجاز، ص524 ـ 525.

(5) ثقة المؤمن بالله عتاد — فتوكل واعتزم نحو المراد
شيمة المؤمن عزم وثقة — حيثما هم بأمر حققه
بهما يسمو ويمضي قاهرا — لا أرى اليائس إلا كافرا
نظرة المؤمن مصباح منير — فهو بالخير وبالشر بصير
عزمه الوثاب لا يخشى الصعابا — تاركا ما عمّر الظلم خرابا
حوّلت ضربته صم الصفا — والجبال الشم قاعا صفصفا
يدرك الآمال بالفقر الغيور — وهو للأجيال بعث ونشور
حال من نشوتك العزم الصميم — لم تعد تحفل بالوهم القديم
كن مع الكل على هدي الإله — وبدون الكل لا ترجو سواه
قوة الروح هي السحر العجاب — أهل هذا العصر عنها في احتجاب
فلديهم حب غير الله دين — ولغير الله ذلوا صاغرين
يا أمم الشرق، ص344.

التضحية. يتفاني في السعي إلى الخلود[1].

ويأخذ إقبال مقامات أخرى مثل الإخلاص الذي يمنع من رهبة السلطان[2]. العدل أيضاً مقام، عدل القوي على الاقتصاد في الفقر[3]. ويعف الفقير عن لبس المرقع لأن الفقر ليس باللباس بل بالروح[4].

ويؤول إقبال مقام السكر ويفصّل أنواعه. طريق الصوفي سكر الحال. وطريق الفقيه سكر المقال. وطريق إقبال سكر الأعمال. فالحال نفسي خالص. والمقال خارجي خالص. أما العمل فهو الذي يجمع بين الداخل والخارج. السكر الأول بلا يقظة. والسكر الثاني بلا شعر وجمال. والسكر الثالث هو سكر التحقيق الذي يجمع بين الحقيقة والشريعة[5].

الصوفية هذه الأيام مدّعون للإلهام. أطفؤوا جذوة الإرادة في الشعب. وزادوه حيرة وترددوا في الظلام. وأولوا النصوص لخدمة الأغنياء والطغاة كما يفعل فقهاء السلطان. ولا يوجد في منابرهم إلا سلة الكعك أو مائدة الطعام، أجراً على الوعظ. ومنهم من أطال الجدل في العقل والنقل. وأفنوا أعمارهم في المراء. في حين لا تؤخذ الهداية إلا من كليم (موسى) أو من يد بيضاء (معجزة). فما فائدة إطالة الكلام؟ ولا يطالب صاحب الحق حقه إلا بالسعي وليس بالعطاء[6].

---

(1) هكذا المؤمن رمز التضحيات ... يتفاني في اقتناء الباقيات
السابق، ص346.

(2) وعلي الإخلاص شدد قبضتك ... رهبة السلطان جنّب شيمتك
جاويد نامه، ص330.

(3) أرضَ عن عدل القوي لا تبتعد ... في غناك بل وفي الفقر اقتصد
السابق، ص330.

(4) فقير عف عن لبس المرقع ... لهذا منه جبريل توجّع
أرمغان حجاز، ص429.

(5) في طريق الصوفي سكر الحال ... وطريق الفقيه سكر المقال
ونشيد الشعر المرجّع مَيت ... خامد اللحن لم يُشب بجمال
بين نوم ويقظة غير صاح ... بين سُكر الأفكار والبلبال
وبنفسي مجاهداً لا أراه! ... فيه سكر الأعمال لا الأقوال
ضرب الكليم، ص25.

(6) قد خبرت الدعاة في هذه الأيام والمدعين للإلهام =

وكثيراً ما يقوم الإيمان على الغدر والنفاق وبيع الشعب والدين بأبخس الأثمان. فأحرق الدار والحقل. لم يتبق نور في صلاته. وبعد التجلي من كائناته. وكل من يعبد في الدنيا الحطام يعشق المال ويخاف عليه[1]. ولا يعرف الصوفي المزيف حقيقة جذب الشعر. ضلوا بخرقهم. والشاعر ينزع خرقته. والصوفي لم ينزع خرقته أبدا. فما أعجب صوفي وملاّ يجبران الناس على الرياء![2].

= اطفؤوا جذوة الإرادة في الشعب وزادوه حيرة في الظلام
وأصاغوا التأويل في كل نص حيلة للغنى وجمع الحطام
لا أرى في منابر القوم إلا سلسلة الكعك أو خوان الطعام
كم أطالوا الجدال في العقل والنقل وأفنوا أعمارهم في المراء
أي باب من الهداية يرجى من كليم بلا يد بيضاء
أي أمر يفيده من كلام في صباح مردد ومساء
صاحب الحق أنت فاطلبه بالسعي ولا تنتظره بالإعطاء

يا أمم الشرق، ص369.

(1) مؤمن دأب له عقد النطاق ... مؤمن بالغدر يرضى والنفاق!
وبفلس شعبه والدين باعا ... أحرق الدار فضاعت والمتاعا
إن نورا ما تبقى في صلاته ... والتجلي قد نأي عن كائناته
كل من يعبد في الدنيا الحطاما ... عشق المال كما خاف الحماما

جاويد نامه، ص326.

(2) هل يعرف الصوفي ... والملا حقيقة جذبتي؟
ضنوا بكل ثيابهم ... وأنا أمزق جبتي
ما مزقا يوما ولا حشوا ولا طرف الرداء
فاعجب لصوفي وملا يلجئونك للرياء!

جناح جبريل، ص431.

الباب الثالث

الشكوى والأنين

الفصل الأول

الشكوى والجواب

1 ـ «صلصلة الجرس»

ديوان «صلصلة الجرس» (بانك درا) من أوائل دواوين إقبال بالأوردية وأكثرها رواجا. يحتوي على قصائد للطفولة والطبيعة والحب، وحث المسلمين على العمل والتضحية من أجل استعادة المجد القديم. ومن أهمها «النشيد الإسلامي» و«شكوى وجواب شكوى». وضع في «الشكوى» مصائب الإسلام وفي «جواب الشكوى» آمالهم. الأول الحاضر، والثاني المستقبل. الأول السلب، والثاني الإيجاب. الأول ما هو كائن، والثاني ما ينبغي أن يكون. الأول الواقع، والثاني المثال.

والحقيقة أن «الشكوى» ليست موضوعاً لديوان «صلصلة الجرس» وحده، بل تعم كل دواوين إقبال: «جناح جبريل»، «ضرب الكليم»، «رسالة الخلود»، «أرمغان حجاز»، «يا أمم الشرق...». ويتداخل موضوع «الشكوى والجواب» مع موضوع «الأنين والحنين». فالشكوى أنين، والأنين شكوى. والجواب حنين، والحنين جواب. لذلك صعب التمييز بين الفصلين، الأول «الشكوى والجواب»، والثاني «الأنين والحنين»[1].

---

(1) صلصلة الجرس، مقدمة عبد الماجد الغوري ص8. نقله إلى العربية نثراً ثم صاغه شعراً الشيخ صاوي شعلان المصري، مؤسسة محمد إقبال الإسلامية، الهند، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 2001.

ولا فرق بين الشكوى والنجوي، الشكوى من الحال، والنجوى للمآل. ولا فرق بين التوجه للحساد أو للعواد. فالأنين أنين. تعيش الأمة في ماضيها تحن إليه وكأن ليس لها أمس وغد. وتشارك الطبيعة أنين الأمة. وتصدح الطيور على أغصانها. طالت الشكوى، وامتد السهاد، وانهارت الدموع كالندى على الأغصان. فلماذا الصمت كالزهرة الخرساء التي ليس لها موهبة الإنشاد؟ [1].

لقد امتلأت قيثارة إقبال بأنات الجوى. وآن الأوان له للتعبير عنه. فتصعد البلابل من مهجته كي تنطق بلسانه. وهذا الإفصاح ليس تعدياً على القناعة والرضا، وكأن الغضب إثم لا يُغتفر. إنما هو الخلق الطبيعي بعد التخصيب من الأشجان. وهي شكوى الدين للديان، شكوى من قلب لم يعش إلا دائم الذكر والحمد له[2].

ويصعب الفصل بين الشكوي وجواب الشكوى. ففي كليهما إثارة مجد الماضي، ووصف مآسي الحاضر، والتطلع إلى نهضة المستقبل. فقد وضح إقبال في «جواب شكوى» تقصير المسلمين، وإهمالهم لدينهم، وعدم التفاتهم لأمور الدنيا، وإتقان العمل فيها، تبريراً للجهل والعجز أو للتبعية والتقليد.

يوضح إقبال في بداية القصيدة أنها حديث الروح للروح. يسهل فهمه بلا عناء. لا يحتاج حتى إلى كلمات تحمله. وينقل أنينه إلى رحاب الفضاء. ينطلق من الأرض، ولكن يصل إلى أعالي السماء. ينطلق من لوعة العشق ودموعه. وهي لغة

(1) شكواي أم نجواي في هذا الدجى ونجوم ليلي حُسَّدي أو عُوَّدي
أمسيت في الماضي أعيش كأنما قطع الزمان طريق أمس عن غدي
والطير صادحة على أفنانها تبكي الربى بأنينها المتجدد
قد طال تسهيدي وطال نشيدها ومدامتي كالطل في الغصن الندّي
فإلى متى صحتي كأني زهرة خرساء لم تُرزق براعة منشد
ضرب الكليم، ص93.

(2) قيثارتي ملئت بأنات الجوي لابد للمكبوت من فيضان
صعدت إلى شفتي بلابل مهجتي ليبين عنها منطقي ولساني
أنا ما تعذبت القارعة والرضا لكنما هي قصة الأشجان
أشكو وفي فمي التراب وإنما أشكو مصاب الدين للديان
يشكو بك اللهم قلب لم يعش إلا لمحمد عُلاك في الأكوان
السابق، ص93.

السماء. فوصل إلى الأفلاك. وأهاج بكاؤه الملأ الأعلى[1].

استمعت النجوم إلى الشكوى التي وصلت إلى قرب العرش، وجاوبت المجرة. ربما طيف سرى في الفضاء. أدرك البدر أنها من قلب شاك. وتعرّف على الصوت الأرضي الصادق الذي كان صاحبه من قبل في جنات عدن لولا خروجه منها للسعي في الأرض والاختبار فيها[2]. إنه ابن آدم في غروره. تجاوز قدره دون حساب. لقد سجدت له الملائكة الكرام من قبل. وهو مخلوق من طين وماء. تصور أن العلم كيف وكم، والسر ما زال خافياً عنه. ملأ كؤوسه دمعاً وشكوى، ولكن مازال في صوته نغم الرجاء. لقد وصلت الشكوى بالرغم مما فيها من مراء[3].

وبالرغم من ركاكة شعر إقبال متواضعاً إلا أنه قد يبلغ يوماً القلوب. ولا يهم رأي المستمع ولا الشعر الذي يستمع إليه. يكفيه نداء «الله أكبر». يكفيه إذا خفق في كشف النوايا في صلوات وتراتيل الزوايا بعد معرفة النفس بدون فلسفات تضر

---

(1) كلام الروح للأرواح يسري — وتدركه القلوب بلا عناء
هتفتُ به فطار بلا جناح — وشق أنينه صدر الفضاء
ومعدنُه ترابي ولكن — جرتْ في لفظه لغة السماء
لقد فاضت دموع العشق مني — حديثا كان عُلويَّ النداء
فحلّق في ربا الأفلاك حتى — أهاج العالم الأعلى بكائي
صلصلة الجرس، ص101.

(2) تحاورت النجوم وقلن صوت — بقرب العرش موصول الدعاء
وجاوبت المجرّة علّ طيفا — سرى بين الكواكب في خفاء
وقال البدر هذا قلب شاك — يواصل شدوه عند المساء
ولم يعرف سوى رضوان صوتي — وما أحراه عندي بالوفاء
ألم أكُ قبل في جنات عدن — فأخرجني إلى حين قضائي
السابق، ص101.

(3) وقيل هو ابن آدم في غرور — تجاوز قدره دون ارعواء
لقد سجدت ملائكة كرام — لهذا الخلق من طين وماء
يُظن العلمُ في كيف وكم — وسر العجز عنه في انطواء
وملأ كؤوسه دمع وشكوى — وفي أنغامه صوت الرجاء
فيا هذا لقد أبلغت شيئا — وإن أكثرت فيه من المراء
السابق، ص102.

أكثر مما تنفع. وعمال المناجم على الجانب الآخر أغرب عن اللاهوت، وفي البحث أعاجم[1].

2 ـ حيلة العاجزين

الشكوى بين الألم واليأس، بين النور والظلام، بين الإمكان والتحقق، بين ما ينبغي أن يكون وما هو كائن. وبين كل شكوى وأخرى ينادي إقبال «أيها الأرباب قد آن الآوان». قد تكون الشكوى حيلة العاجزين، وصوت المتوحدين، وغناء الشعراء، وابتهال الصوفية[2]. إن الجنون هو الذي يدفع للشكوى وهو ما لم تقو صحراء الطبيعة على منعه. وهو الذي دفع الذات إلى التعبير عن المخاوف والظنون. والذات قادرة على أن تقضي على سحر إغراء الطبيعة[3].

ويحتار إقبال. هو في نار غرور يحترق. يصمت أو يشكو؟ آثر الصمت عندما سأله جبريل: هل يحتاج إلى شيئ؟ لأن المسلم إذا احتاج شيئاً ناله بجهده لأنه ليس حبة شيلم. ويقرر في النهاية الشكوى لأنه لم يعد يستطع غمض عينيه. فالحسن حوله في كل مكان، والحب يملأ قلبه، والأمل يجدده. والشجاعة لا تنقصه. وفرح بالفقر أي باستقلال الشعور. ولا يُحرم على برعم بالابتسام، ولا على

---

(1) رُغم ما يوجد في ركـ   ـة شعري من عيوب
ربما تبلغ يوما   كلماتي للقلوب
ما على الشارع لوم   كيفما قال وعبر
أنا يغنيني عن الشـ   ـعر نداء (الله أكبر)
صلوات وتراتيـ   ـل بهاتيك الزوايا
معشر الجانب هذا   دينهم لا يستطاع
عرفوا النفس ولما   نظروا في الله ضاعوا
وعباد الجانب الآخـ   ـر عمال مناجم
هم عن اللاهوت أغـ   ـراب وفي البحث أعاجم
جناح جبريل، ص532.

(2) وأظلم حظنا نحن الحيارى   وما في القلب للآمال نور
أرمغان حجاز، ص443.

(3) لم تقو صحراء الطبيعة هذه   لما جننت على احتواء جنوني
لولا الجنون أساء في تقديرها   لم آتها بمخاوفي وظنوني
بالذات يمكن أن نكسِّر سحر ما   بعثته من عطر ومن تلوين
جناح جبريل، ص422.

زهرة بالتفتح، ولا على القمر بالضياء، ولا على الشمس بالإشعاع. لم يستطع إقبال أن يكتم جرحه حتى أمام الله. وشكا له. واشتكى من المسلمين له على الرغم من رفض الناس وتململهم من هذا الصوت الهاتك للأسرار[1]. شعر إقبال محير بفارس والعراق. يطربون له ويشجون[2].

ويشكو إقبال وحيدا. وأراد البحث عن الاستجابة لشكواه في يثرب. يعبر البيداء أم يطلب لقاء الحبيب؟ [3]. في محفله غريب يشكو. ويخشى ذيوع السر[4]. وبالرغم من تفاؤل إقبال إلا أنه أحياناً يصيبه الاكتئاب من مشكلته التي أعياه حلها[5].

3 ـ الشكوى لمن؟

لا يجد إقبال من يشكو له صراحة[6]. هو غريب في الشرق والغرب. لا

---

(1) لما قذفت لنار نمرود أتى — جبريل يسألني فلم أتكلم
وصمت لما قال: هل لك حاجة؟ — أنا مسلم أنا لست حبة شيلم
رباه! إني أتعبتني حيرتي — ما عاد يمكن أن أغض عيوني
الحسن من حولي يشيع وصاله — والحب في صدري يذيع فتوني
سكران مغتبط السجية منتش — بالفقر فرحان الفؤاد بهيجه
يا ليت شعري كيف يحرم برعم — من رغبة في الابتسام تهيجه
لم يستطع إقبال يكتم جرحه — حتى أمام الله قام وقالا
من سوف يسكت ذلك الوقح الذي — لم يبق للمتجملين جمالا

السابق، ص421.

(2) شعري بفارس والعراق محيّر — طربوا له وتحيروا لشجونه

السابق، ص425.

(3) لقد آثرت أن أشكو وحيدا — ويثرب رمتها فاجتزت بيدا
أأطلب مكتبي أم هان شوقي — تخير، حيرتي تأبى المزيدا

أرمغان حجاز، ص445.

(4) ولست بمحفلي غير الغريب — لمن في مشكلي شكوى كروبي؟
ذيوع السر بين القوم أخشى — شكاتي صنتُ عن قلبي الكئيب

السابق، ص448.

(5) أنا من مشكلتي طال اكتئابي — حلها أعيا على الجهد صوابي

يا أمم الشرق، ص360.

(6) وما وسع الكلام أسىً خفيا — لمن أشكو بقول لي صريح
وفي شرق وفي غرب غريب — فؤادي لا يواسيه الحبيب =

يجد حبيباً لفؤاده. فيشكو همومه إلى نفسه. قد تكون الشكوى للساقي أو للمرشد أو للناس أو للرسول أو للطبيعة أو لله.

يبث إقبال شكواه إلى الساقي كما هو الحال في خمريات عمر الخيام. وهو نديم الشاعر. لقد قام الغفاة بثورة في كل شيئ في الحياة. ولا توجد ذرة لم تخل من عاصفة. نُهبت خيرات المسلمين. ولم يعودوا بذي نفع لأحد. لقد أصابتهم العين بحيث أصبح ركبهم هائماً في كل واد. وأصيب أطباء القلوب بفتنة في القلب. لم يعد في الوديان ماء يحيي الشعوب. ولم تعد جذوة الحرم موقدة كما كانت. وغطت الحجب العيون عن رؤية زمزم. والنهر والبستان مازالا في تبريز. وغناء جلال الدين والرومي مازال يصدح. لا يأس مادام الحقل يروي. والماء يهطل. والمسلم بفطرته ومواهبه قادر على إعادة مجد الأقدمين(1).

لا يريد إقبال أن يكذب قلبه لسانه. وهو طرق القلندر. كما أن الساقي اللبيب هو الذي يحشد الجموع في ألحان. لا تداوي فلسفة الرازي خور القلوب، رغم ما فيها من براعة. والمريد البسيط التقي يبكي من صدقه. ياليت الشيوخ يكونوا مثله، بدلاً من الموت رياء. إن الإنسان، نجل آدم، مازال ضحية الأوهام والشعوذات

= هموم القلب أشكوها لقلبي ... فكان لغربتي خدع عجيب

السابق، ص449.

(1) أيها الساقي لقد قام الغفاة ... ثورة في كل شيئ في الحياة
ذرة لم تخل من عاصفة ... أيها الساقي خذ الكأس وهات
نهبت خيراتنا أجمعها ... لم نعد ننفع شيئا للعباد
أي عين قد أصابت ركبنا ... جعلته هائما في كل واد
فتنة في القلب قد أودت بنا ... نحن أبناء أطباء القلوب
أين في وديانا الماء الذي ... قبل أحيينا به روح الشعوب
لم لا ينطلق الطوق الذي ... يوقد الجذوة في صدر الحرم
حجب غطت عيون المؤمنين ... أن ترى زمزم قرب الملتزم
رغم أن النهر والبستان فـ ... ي تبريز بستان ونهر
لم يزالا لم تقم جوقـ ... ـة رومي منذ دهر
قل لها إن شئت هـ ... ـذا النهر والبستان قومي
لو ترى إذ رقصت تبريـ ... ـز في حضرة رومي
أنا لا أيأس من حقل ذوى ... أيها الساقي إذا الماء هطل
فأعد رونقه إن لم يكن ... وابلا يا أيها الساقي فطل

جناح جبريل، ص412.

القديمة. يلبس حلة النصر على جسد الهزيمة. والشاعر مسؤول عن ذلك أيضا. لا يبرئ نفسه. فشجاعة الاعتراف جوهر الإيمان. ياليت الملا لديه مثل هذه الشجاعة. والإيمان بلا حب جمود. وإذا قابل الحب الكفر انتصر عليه. وقاده إلى طريقه[1].

يعبر إقبال عن الشكوى والجواب في حوار يين «المرشد والمريد»، بين الرومي وإقبال. إقبال يسأل، والرومي يجيب. يسأل إقبال باعتباره إماماً للعاشقين أن العود وأوتاره سجون. تيبّس فيه اللحن الخافت. وتحول العصر النشوان إلى مجرد ظنون. ولا تمحو رقصة الأجساد القلب الحزين. كان المبدأ قديماً أن ما تنشؤه الأمة يكون مثل الله ﴿كُن فَيَكُونُ﴾. والآن ليس في القلب أي حضور، ولا في الوجدان أي يقين. كيف يستوعب هذا الصدر المهين سراً؟ أسر لصديقه شيئاً عن الوحي الأمين، وكيف جرته إلى الأوهام قيثارة طين، رغم ما قام به من أمجاد عبر القرون؟[2]. وينهي إقبال الحوار بحديث الرومي أن كل ما في إجاباته وشعره من

---

(1) ألف خوف ولا قيام لساني ... بحديث مما يُكذّب قلبي
عندما قلت للقلندر هذا ... قال: أحسنت إن ذلك دأبي
الذي يحشد الجموع بحان ... ظرف ساق مُنشَّأ في الخلاعة
خور القلب لا يداويه رازي ... رغم ما في كلامه من براعة
المريد البسيط وهو نقي ... يُرفق التوبة النصوح بكاء
أسأل الله نعمة مثل هذي ... للشيوخ التي تموت رياء
رب ما زال نجل آدم هذا ... إسر وهم وشعوذات قديمة
صنم النفس تحت إبطيه يضفي ... حُلة النصر فوق شر الهزيمة
لست في صرختي أبرّئ نفسي ... فاحتراف الإيمان روح الشجاعة
وأنا، كل تهناآتي لملا ... يدَّعي حمل مثل هذي القناعة
مؤمن لا يكون للحب أهلا ... مؤمن في الجحود جد عريق
وإذا الكفر صادف الحب يوما ... قاده الحب مرغما لطريقي

السابق، ص433.

(2) قال إقبال للرومي ... يا إمام العاشقين
لم يزل يملأ سمعي ... ذلك القول المبين
وتر العود وقشر الـ ... عود والعود سجون
عندما تيبس فيه ... يبس اللحن الدفين
عصرنا النشوان هذا ... تنتشي منه الظنون
رقصة الأجساد لا تمحو أسى القلب الحزين
مبدأ العالم يا أستاذ ما شاؤوا يكون
ليس في قلب حضور ... أو بوجدان يقين

=

صياح وصراخ قد يذهب كله أدراج الرياح. وهو ما يتنافى مع تفاؤل إقبال[1]. ويرد الرومي بأن هذه الأيام لا فرق بين لحن وطين، مع أن فن الاستماع الحق ملك الفنون[2].

يشكو إقبال أنه طوّف الشرق والغرب من أجل العلم. وهو الآن وحيد. الآسى يملأ قلبه لأنه لم يستفد شيئاً ولم يجد علاجاً لدائه أو إجابة لسؤاله. ويرد الرومي بأن العلم الموجود الآن مجرد طب كف أي قراءة المستقبل، مجرد خرافة. لا يعالج شيئا. وإقبال مريض من لجاج القدماء والفكر القديم. ولو سئلت الأم عن علاج لوليدها لكان نصفه من العقاقير والنصف الآخر من حنان الأم. فالعلاج مادي ومعنوي، جسدي ونفسي[3].

يشكو إقبال من الناس حتى يشعروا بما يكابده. فقد كشف أسراره وإن لم يستطع بلوغ درجة سكر السكارى[4]. ولولا أوضاع الأمة لما عانى إقبال مما يعانيه من غصص في الحلق لو عرف سببها لما أطال قصصه. وإذا أراد الاقتراب منها

= كيف يستوعب سرا ذلك الصدر المهين
رد للصديق ما يروى عن الوحي الأمين
كيف جرته إلى الأوهام قيثارة طين
رغم ما أنفقه للمجد من كد القرون
السابق، ص523.

(1) كل ما في الشعر هذا من صراخ وصياح
ليس ما يدهش أن يذهب أدراج الرياح
السابق، ص528.

(2) قال رومي أي فرق بين لحن وطين
إن فن الاستماع الحق سلطان الفنون
كالعصافير وليس كلها تأكل تين
السابق، ص523.

(3) قال: طوفت لأجل العلم في شرق وغرب
وأنا الآن وحيد والأسى يملأ قلبي
قال: هذا طب كف ليس أهلا لعلاجك
جعلت منك مريضا في فراش من لجاجك
اسأل الأم علاجا من عقاقير الأمان
إن نصف الطب من علم ونصفا من حنان
السابق، ص524.

(4) حتى تحس بما أكابده مزقتُ أسراري إلى الأبد =

تفيض أشجانه. يقرؤها الناس في عزلة كالمزامير، دون حزن من شطحاته وأشجانه ورنين صوته في منتصف الليل[1]. بحث إقبال طول عمر في بستانه فما وجد إجابة لقصته. في صوته أغنية قد يحار في فهمها جبريل. قد تظل مطوية في القلب أو قد يصدح بها الشعر[2].

وفي قصيدة «شكوى ومناجاة» التي كتبها وهو على فراش الموت، يشكو إلى الرسول حال الأمة. مع أنها حطمت الأصنام من قبل. وجددت العالم القديم المنهار[3]. الرسول هو رأس مال البائسين، ودعاء الحائرين. تحتاج أمته إلى الشجاعة واليقين وإلى التحرر من الخوف من الموت[4]. ولا يسمع أحد النداء[5].

= وجذور غفلتك التي سكرت لا أستطيع بلوغها بيدي
السابق، ص434.

(1) ولولا ذاك عانيت ما عانيت من غصصي
ولو أني ظفرت به رجعت ولم تطل قصصي!
إذا أحببتُ تلمُّسه فذلك فيض أشجاني
أقم في عزلة واقرأ مزاميري بإيران
ولا يحزنك ما تقرأ من شطحي ومن ميلي
يقال: يُرنّ صوتُ السر في منتصف الليل
السابق، ص436.

(2) فيالحسن فارس ووحيه ويالكأسه ويالغصتي
بحثت طول العمر في بستانه فما وجدت زينة لقصتي
ترقد في حنجرتي أغنية لو قلتها لحيرت جبريلا
أحرص أن تبقى هنا مطوية هناك سوف أنقع الغليلا
السابق، ص445.

(3) يا أمم الشرق، ص397/ 400 ـ 401.

(4) يا رأس مال البائسين ويا منار الحائرين
ادع الإله يهب لأمتك: الشجاعة واليقين
ويعيذهم من شر خوف الموت من قبل الممات
الخوف يفني البائسين وهم على قيد الحياة
السابق، ص401.

(5) فإذا نصحت فإنني ناديت من لا يسمعون
وإذا نهيت فإنما أسمعت من لا ينتهون
السابق، ص402.

ومع ذلك، الشكوى ضرورية دون كتمان الأسى[1]. يعاني منها القلب. ويئن بها الناس لمن لا يسمع[2].

يشكو إقبال إلى الطبيعة. فإلى متى تستمر الشكوى للنجوم؟ كانت نجوماً ثم ضاعت، وتحولت إلى علوم. والإنسان موجود لم يتوقف عن الوجود. وهو أولى بالوجود. والصراع بين الوجود الإنساني والوجود العام جمود. ما دام الوجود الإنساني صاعقة فإنه قادر على جوب الصحراء، وتسلق الجبال. ولا يستحق العشب والقش اليابس اهتمام الإنسان. الكون ميزان عند الشجاع الصلب. وللمؤمن الحق المخاطر لما يدعو إليه. لا يري أمامه أي سد منيع. فهو علة الكون كله[3]. وتريد الطبيعة أن يجدد إقبال أشعاره، خشية من الثرثرة وكثرة الكلام. ويريد إقبال صياغة شعره من الغابات وليس من المدن، من الطبيعة وليس من الصنعة[4].

لقد غنى إقبال أمام الروض أغنية رشيقة هيجت في الروض شكواه. ولم يكن

(1) هذا يقول ابنْ عن الشكوي ولا تكتم أساك
ويقول ذا انظر ولا تهمس بحرف عن جواك
السابق، ص405.

(2) كم ذا يعاني القلب من نار اللواعج والشجون
ويئن مثل الناي بالشكوى لمن لا يعلمون
السابق، ص407.

(3) حتى متى يا طينتي تتوسلين إلى النجوم
كانت نجوما ثم ضاعت خلف أوهام العلوم
إما أكف أنا وإما أن تكف عن الوجود
هذا الصراع البارد الواهي طريق للجحود
ما دمت صاعقة ففي الصحراء أعمل والجبال
عشب وقش يابس لا يستحقان انفعالي
الكون ميزان يكون لذي الشجاعة والجلاد
للمؤمن الحق المخاطر بالحياة لما ينادي
ما مؤمنا من لم يكن للكون علته جميعا
جناح جبريل، ص431.

(4) ويحثني العصفور في البستان، يرغب أن أجدد في النشيد
من هذه الغابات قام الحسن يبدأ رقصته
في هذه الغابات لا في المدن نفهم قصته
السابق، ص429.

إقبال كالزهر رهن الريح إن شاء مزقه وإن شاء أبقاه. ومع ذلك يسير ومعه جنونه. ولا يمزق ثوبه إلا حماه وحرارته[1].

لم يشْك إقبال إلى الله، ولكن إسرافيل هو الذي اشتكى له من شكوى إقبال الذي يريد أن يغير العالم المتمرد. والشكوى الحق من إحرام أهل الصين داخل سورها، ورقود أهل الحجاز بجوار مرقد محمد. شكوى إسرافيل من أجل إدخال المسلمين في العالم، وليس عزلهم عنه. فالملائكة راضية، ولكن الشاعر غاضب. عذر الملاك ليس في الإمكان أبدع مما كان. وعند الإنسان في الإمكان أبدع مما كان. وتلك رسالة الإنسان[2].

4 ـ موضوع الشكوى: العصر الحاضر

الأحوال الحاضرة تبعث على البؤس وحزن قلب جبريل. أصبحت الدنيا في أيدي اللئام، والأحرار في مقام الأسر[3]. وبالرغم من سنا الإصباح وأصوات الطيور، وبالرغم من نمو الخمائل على الربى يجاوبها الغدير إلا أن نوم المسلمين ثقيل. لم يدركوا نور الصباح. بل إن رمضان لديهم أصبح قيداً دون تحرر من الأهواء وتقوية للعزائم. ولو كانت هناك مزايا للعصر الحاضر إلا أن الضمير غائب[4]. غاب فيه الوفاء، ونال الظالمون العهد. وإذا ضاع الإيمان فلا أمان، ولا

---

(1) إقبال غنى أمام الروض أغنية — رشيقة هيجت في الروض شكواه
ما كنت كالزهر رهن الريح عالمه — إن شاء مزقه أو شاء أبقاه
أمشي ويمشي جنوني في الطريق معي — ولا يمزق ثوبي غير حمّاه
السابق، ص509.

(2) لما اشتكى لله إسرافيل من — شكواي قال بحرقة وتنهد
هذا الفتي قبل الأوان يريد أن — ينهي الوجود بشعره المتمرد
فأجابه صوت: أليس أشد من — هذي النهاية ما ترى يا سيدي
إحرام أهل الصين داخل سدها — ورقود مكة في جوار محمد
السابق، ص422 ـ 423.

(3) كهذا العصر عصرا ما رأينا — حزين القلب جبريل علينا
أرى دنياك في أيدي اللئام — وللأحرار في أسر مقام
أرمغان حجاز، ص430.

(4) وكم لاح الصباح سنا وبشرى — وأذّنت القماري والطيور
وكبّرت الخمائل في رباها — مصلية فجاوبها الغدير
=

دنيا إلا لمن يحيي دينه. والحياة بلا دين مصيرها إلى الفناء. والتوحيد ينعكس على الأمة في وحدتها. ولا تنهض إلا بالوحدة. لقد تساندت الكواكب بفعل الجاذبية. لذلك لا يتوحد أفراد الأمة إلا برابطة الأخوة في الدين[1].

أصبح المسلمون اليوم في الديار بلا ديار، وكالطيور بلا وكور. وكل صواعق الدنيا سهام موجهة لمضاربهم. وهم في غرور كاذب. هم فقراء في العلم والمال. يقطعون مع العالم، وينفرون منه. باع الأحفاد مقابر الأجداد. ويعجب تجار الأصنام من تجار القبور[2].

نخي الدهر على المسلمين. وتغيرت بهم الليالي. وتفرقت بهم الأيام. وتشعبت وجهاتهم. وتضاربت أمانيهم. تركوا الدين. ثم عادوا أسرى للهوى والهوان. وأصبح رقي الأمم متروكاً لتقلبات الأزمان، وليس مشروطاً بإرادة الأمة وعزيمتها. وما أبعد الشقة بين أوهام المسلمين ولغوهم وبين السبع المثاني! لقد انقلبت النار إلى رماد. ولم يبق منها إلا ظلاً ضعيفاً من دخان[3].

= ونوم صباحكم أبدا ثقيل كأن الصبح لم يدركه نور
وأضحى الصوم في النهار قيدا فليس لكم به عزم صبور
تمدّن عصركم جمعَ المزايا وليس بغائب إلا الضمير

صلصلة الجرس، ص103.

(1) لقد ذهب الوفاء فلا وفاء وكيف ينال عهدي الظالمينا؟
إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحيِ دينا
ومن رضي الحياة بغير دين فقد جعل الفناء لها قرينا
وفي التوحيد للهمم اتحاد ولن تبنوا العلا متفريقنا
تساندت الكواكب فاستقرت ولولا الجاذبية ما بقينا

السابق، ص103.

(2) غدوتم في الديار بلا ديار وأنتم كالطيور بلا وكور
وكل صواعق الدنيا سهام لبيدكم وأنتم في غرور
أهذا الفقر في علم وحال وأنتم في القطيعة والنفور؟
وبيع مقابر الأجداد أضحى لدى الأحفاد مدعاة الظهور
سيعجب تاجروا الأصنام قدما إذا سمعوا بتجار القبور

السابق، ص103 ـ 104.

(3) وكيف تغيرت بكم الليالي وكيف تفرقت بكم الأماني؟
تركتم دين أحمد ثم عدتم ضحايا للهوى أو للهوان
رُقي الشعب قد أضحي لديكم تقرره صلاحية الزمان
وكيف تُقاس أوهام ولغو بحكمة منزل السبع المثاني =

ومع ذلك، بقي في الأمة الفقراء، عباداً تقاة، قياماً ركّعاً في المساجد. أبرار دائماً في صوم، ويستغفرون بالأسحار. وهم الستر الذي يواري العيوب. في حين ضل الأغنياء بالملاهي والريب والتردد. الفقراء كنوز دين الله رب العالمين. هم الذين يحفظون الأمة في التاريخ. وهم البقية الصالحة[1].

أصبح تفكير المسلمين تفكيراً خاملاً. عزيمتهم باردة. وعظهم من غير سحر. لا يخرج من القلب، مقالهم غير مضيء. لديهم فكر، ولكن ليس حرارة الغزالي. صوت الآذان في الأرض خال من حرارة آذان بلال. علت الضمائر في كل حي، ولكن المساجد خالية[2].

العصر الحاضر غارق في الجسم. لا يدري شيئاً عن الروح. وإشباع الجسم وفقر الروح يقضيا على الذات[3]. فهم العصر رقصة الجسم، ولكنه لم يفهم رقصة الروح. رقصة الجسم في التراب، ورقصة الروح في السحاب. رقصة الجسم

= أرى نـارا قـد انـقـلـبـت رمـادا — سـوى ظـل مـريـض مـن دخـان
السابق، ص105.

(1) أرى الـفـقـراء عـبـادا تـقـاة — قـيـامـا فـي الـمـسـاجـد راكـعـيـنـا
هـم الأبـرار فـي صـوم وفـطـر — وبـالأسـحـار هـم يـسـتـغـفـرونـا
ولـيـس لـكـم سـوى الـفـقـراء سـتـر — يـواري عـن عـيـوبـكـم الـعـيـونـا
أضـلـت أغـنـيـاءكـم الـمـلاهـي — فـهـم فـي ريـبـهـم يـتـرددونـا
وأهـل الـفـقـر مـا زالـوا كـنـوزا — لـديـن الـلـه رب الـعـالـمـيـنـا
السابق، ص105.

(2) أرى الـتـفـكـيـر أدركـه خـمـول — ولـم تـبـق الـعـزائـم فـي اشـتـعـال
وأصـبـح وعـظـكـم مـن غـيـر سـحـر — ولا نـور يـطـل مـن الـمـقـال
وعـنـد الـنـاس فـلـسـفـة وفـكـر — ولـكـن أيـن تـلـقـيـن الـغـزالـي
وجـلـجـلـة الأذان بـكـل أرض — ولـكـن أيـن صـوت مـن بـلال؟
ضـمـائـركـم عـلـت فـي كـل حـي — ومـسـجـدكـم مـن الـعـبـاد خـالـي
السابق، ص105.

(3) أنـت فـي عـصـر ولـكـن أي عـصـر — غارق في الجسم، روحا ليس يدري
قـحـط روح سـعـرُ جـسـم انـقـصـا — رجـل الـلـه لـذات نـكـصـا
رقـص جـسـم مـنـه كـانـوا يـفـهـمـونـا — رقـصـة الـروح تـنـاسـى الـغـافـلـونـا
رقـصـة الـجـسـم تـدور بـالـتـراب — رقـصـة الـروح لـهـا نـجـم الـسـحـاب
رقـصـة الأرواح عـلـم وهـي حـكـم — وإلـيـنـا الأرض والـخـضـرا تـضـم
جاويد نامه، ص334.

جهل، ورقصة الروح علم. لقد تخلى العصر عن الروح. ولم يعد به لهب. والعنق لف حوله الحبل لصلبه. ولم يعد للزهر ألوان وريح. فضاق الصدر بالأمل الجريح[1]. وفساد العصر ظاهر. تخجل منه الأفلاك، سرقة وتلاعب في الأسعار، وإضلال الناس، وآثام طول العمر[2].

ويشتكي الدين من هذا العصر، ووأد الطغاة حرياته. شاهت فيه وجوه الإنسان. وأفسد نقشه حتى الهواء. نظرته تتم عن كفر وفن ناقص، والحذر منه في تجارة السوق[3]. تحول الدين إلى عنصرية. أخمد أبو لهب شعلة المصطفى. وشُرّد فعل النفي «لا إله» من الفؤاد. فبعثت الأصنام. وأحيا سحر الغرب آلهة أخرى. وشحب «وجه» الله. لقد آن الأوان لتحرير الدين من القيود، والعبيد من الأغلال. ولكي تقام الصلاة ترفع الجباه أولاً دون سجود. ولا صلاة بدون نشيد للحرية. لقد توارى الإله، ويشهد الشيطان[4]. وعلى لسان سعيد حليم باشا يصف إقبال أحوال

(1) وهذا العصر من روح تخلى — فقل ما السر أو مثلي تعجّب؟
وفي عصر بلا لهب خُلقت — ترابي فيه ما يهفو مُنحتُ
وفي عنقي حياتي مثل حبل — على عود كأني قد صلبت
وما للزهر ألوان وريحي — يضيق الصدر بالأمل الجريح
أرمغان حجاز، ص449.

(2) فساد عصرنا أوهى وأثقل — وأفلاك تشاهده فتخجل
ومن عيناه والأذنان سارق — ترصد في الظلام لسلب خافق
وكان السعر في الأسواق بخسا — بفلس تشتري ذنبا؟ تحامق
ومن شيطان هذا العصر فاحذر — خسيس من يضلله ويسحر
أبالسة بهذا العصر جافي — غيور وهو طول العمر يأثم
السابق، ص492 ـ 493.

(3) وعصر منه للدين الشكاة — وحرياته وأد الطغاة
وجوه فيه للإنسان شاهت — وأفسد نقشه حتى الهواة
ونظرته بها تصوير كافر — وليس كمال فن غير جمر
ومن تجاره في السوق فاحذر — فهذا ميسر في كل أمر
السابق، ص475.

(4) قف تأمل وحدة قد شتتت — و ألست عند قوم أبطلت
حُطّمت كأس بأيدي ثلة — خمر جبرائيل منها أسكرت
كل حر في قيود من حدود — وصلة بالله منه صُدّعت
سؤدد الأسلاف برد في دماء — وزنانير الشيوخ شوهدت
أيـــهـــا الأربـــاب قـــد آن الأوان =

الأمة الحاضرة بأنها حولت الدين الحق إلى الكفر الصراح. بدا لها كلها بحراً والبحر طلها. باعت الكتاب. وانتحب جبريل. لم تشق بجولة في السماء لدى أم الكتاب. لم تُبق من دين النبي شيئاً بعد أن أضاعت الكوكب المنير. وهذى ضرير القلب بالنفاق. والأمة تعْمه في الشقاق. تزداد المكاتب. ويكثر المشايخ. وتتسع أسرار الكتاب. ولا يرى الأعمى نور الشمس. ومن كفر بالجهاد فإنه فاسد في سبيل الله. كانت الروح تسعى في الدنيا. والآن يستكين في العالم. وتحول الفكر المبدع وثبات الشعوب إلى أقوال محفوظة، ومذاهب يتصارع عليها الناس. والحق أن يرفع الكليم رأسه، وأن يجهر بالحق، ويصدع بالأمر. فهو يدعو لرسالة محمد. ووصفه للأحوال الحاضرة وصف محمد[1].

= بعد دهر عاد يوم للطرب — أصبح الدين صريعا للنسب
لا تفكر في سراج المصطفى — أخمد الشعلة فيه بولهب
«لا إله» في لسان ناطق — عن فؤاد شرّدت يا للعجب!
إن سحر الغرب أحيا أهرمن — وجه يوم الله من ليل شحب
أيها الأرباب قد آن الأوان
دينك القيد تحرر من قيود — عبدنا قد كان حرا في عبيد
وعليه كي نشق في صلاة — ركعتين نبتغي، ما من سجود
إنما النغمة تعلي جذبة — ما الصلاة وهي تخلو من نشيد
إن خيرا من إله قد توارى — ذلك الشيطان يبدو في الشهود
أيها الأرباب قد آن الأوان

جاويد نامه، ص226 ـ 227.

(1) إن دين الحق كالكفر الصراح — إن تردَّى الشيخُ في الكفر المباح!
طلّنا يبدو كبحر عندنا — ويُرى في البحر هذا طلّنا!
من أعاجيب لمن باع الكتابا — كم تعالى صوت جبريل انتحابا
في السماء لم تشقّه جولةْ — عنده أم الكتاب قوله
ما نصيبا نال من دين النبي — في ظلام لضياع الكوكب
وضرير القلب يهذي في النفاق — تعْمه الأمة منه في الشقاق
مكتب، شيخ، وأسرار الكتاب — أكْمه والشمسُ كُمها لا تحابي
دين من يكفر تدبير الجهاد — في سبيل الله شيخ في الفساد
رجل الله لدنيا الروح كانا — قل لمن في عزلة الركن استكانا!
أنت يا من للحياة الفكر منكا — وثبات الشعب قول قيل عنكا
حفظ قول الله كان دينك — نشرُه في الناس كان مذهبك
ارفع الرأس، تكلم يا كليم — من يديك يصدر الأمر العظيم
أنت حقا مستنير من محمد — وضعنا الحالي فصفه، أين نوجد؟

السابق، ص210 ـ 211.

فسد شباب هذا العصر. وغواهم إبليس. أراد الجمع بين السلطان والفقر. ولم يحصل لا على السلطة ولا على الفقر الغيور[1].

تفرقت وحدة الأمة. وانقضى عهد ﴿ألست﴾. وحُطمت الكأس التي كان يسقي منها جبريل. أصبح كل حر في قيد. وانقطعت صلته بالإله. برد سؤدد الأسلاف. وارتفعت عمائم الشيوخ. يعادي المسلمون الأقربين. وهم في شقاق دائم. ويزيدون على ذلك النفاق عندما يئسوا على هدم مسجد، كانوا منه دائماً يهربون. بعد ذلك سجدوا لغير الله كالمجوس. فالشكوى من النفس قبل الشكوى من الغير. ومن ثم، أصبح المسلمون غير لائقين بالعلا الإلهي[2]. وسأل إقبال الإله وهو يسكب الدمع. ألم يحن للمسلم دفع الكروب؟ وظلت الشكوى بلا إستجابة. وإذا كان له قلب فإنه ليس له حبيب[3].

كل شيء حول المسلمين يسلبهم مجدهم وتاريخهم حتى سجاجيد الصلاة. **ولا ريب أن ترمقهم أعين الطغاة. فقد بليت أثواب الأمة جميعاً، جبة الشيخ** وجلباب الأمير. فماذا يفعل إقبال في وحدته؟ وماذا يستطيع إيمانه الكسير؟[4].

يسأل إقبال عن المسلم المعاصر الضائع الذي فقد حرارته، وأصبح دمه

---

(1) جمعنا بين سلطان وفقر — وما يغني وما يبقي لدهر؟
عياذا منه بالباري عياذا — دم الشيطان في السلطان يجري
أرمغان حجاز، ص476.

(2) يعادي المسلمون الأقربينا — وظلوا في شقاق راغبينا
تداعى مسجد يوما ليأسوا — وكانوا منه دوما هاربينا!
لغير الله عفرنا الجبينا — وكنا كالمجوس مهللينا
فأنفسنا شكونا لا سوانا — لمثل علاك لسنا لائقينا
السابق، ص444.

(3) سألت الله بالدمع السكوب — أحان لمسلم رفع الكروب؟
نداء ظل في سمعي يدوي — له قلب، وأقفر من حبيب
السابق، ص444 ـ 445.

(4) كل شيء حولنا يسلبنا — مجدنا حتى سجاجيد الصلاة
أنا لا أستاء أن ترمقنا — شزرا أعين أولاد الطغاة
بليت أثوابنا أجمعها — جبة الشيخ وجلباب الأمير
ما الذي أفعله في وحدتي — ما الذي يفعل إيماني الكسير؟
جناح جبريل، ص539.

ثلجا. غاب عطره، وانقشع لونه. ويجيب الرومي بأن الله لا يظلم قوماً ولكن أنفسهم يظلمون. ورجال القلب لا يجرحون قلوبا[1]. ولا محل للسؤال عن قصة المسلمين. فقد أسكت الدمع اللسان عن الوصف. لقد مُلأ القلبُ بالسهام. فأصبح كأهوال القيامة. وقد أعيت وصف الواصفين. ولم يبق إلا أن يقدم بنفسه دفيناً في الصدر[2].

يسأل إقبال لماذا ضاعت الهند، واختفى منها اللهيب والضياء؟ ولماذا رجال القلب فيها تعساء أشقياء؟ ويجيب الرومي بأن الناس لا تعرف روحاً. ولا داعي للبكاء ولمس الجراح والجسد بلا قلب يلفظه الحق والتاريخ. والله رب الأحياء دون الأموات[3].

والآن تمر الهند بفترة حرجة. فهناك ثلاث مراحل في تطور المجتمع الهندي بالنسبة لتطور الأفكار الدينية: الأولى مرحلة الشك تجاه الدين التقليدي، والثورة ضد العقيدة. والثاني مرحلة الشعور بالحاجة إلى الدين كقوة اجتماعية ذات قيمة كبيرة والتوفيق بين الدين والعقل. والثالث مرحلة انتهاء هذه المحاولة بالضرورة إلى الخلاف في وجهات النظر مما أدى إلى عواقب وخيمة على وجود هذا المجتمع. وإن لم تكن هذه المحاولة مخلصة، ولسوء الحظ الكثير منها كذلك. فقد تؤدي

---

(1) قال: يا شيخ، وهذا المسلم الضائع كونه
دمه أصبح ثلجا عطره غاب ولونه
قال: يا إقبال إن الله لا يظلم شعبا
ورجال القلب لا تجرؤ أن تجرح قلبا
السابق، ص525.

(2) لا تسل عن قصة القوم بيانا — أسكت الدمعُ عن الوصف اللسانا
ألم أغمد في صدري سهامه — هو في قلبي كأهوال القيامه
هول هذا الحشر أعيا الواصفينا — فليدم في الصدر مطويا دفينا
يا أمم الشرق، ص361.

(3) قال: أينَ الهند ضاعت — لا لهيب لا ضياء
ورجال القلب فيها — تعساء أشقياء
قال: يا إقبال، أهذى الناس لا تعرف روحا
أجّل الدمعة هذي — وكفى اليوم جروحا
يلفظ الحق بعيدا — جسدا ما فيه قلب
إن رب الناس حي — وهو للأحياء رب
جناح جبريل، ص528.

إلى تفكك الجماعة. ومسلمو الهند الآن في المرحلة الثالثة وربما جزئياً في المرحلة الثانية، وجزئياً في الثالثة. وتبدو هذه الفترة في حياة الجماعة حرجة للغاية. ومن المفرح وجود قوى مختلفة تهدف إلى الحفاظ على التضامن الاجتماعي حتى ولو كانت آثارها وقتية[1].

تمادى الناس اليوم في الغرور. ولم يبالوا بمقاييس الأمور[2]. ضاع العزم الغيور هذه الأيام من الشعوب والأقوام. بلت أرواحهم. ولم يعد في القبور إلا الأجساد. مزق الكبار أستار الحياء. وقلد الشباب صنع الغانيات. فيحيون أمواتاً. ويموتون أحياء. والحسناء عارية بصبغ مستعار كجنية البحر. تخلى الشعب عن كفاحه. فرماده ليس تحته شرر. وزاغ بصره. تقوقع على ذاته خشية الموت. فمات وهو حي. والغني الشحيح ينفق ماله على اللهو. جعل حياته في جمع المال. يبيع دينه بدنياه. ويعمل على إرضاء غاصبه. يفكر في الحاضر دون المستقبل، وفي اليوم دون الغد[3].

أين أئمة المسلمين وجنودهم البواسل الذين تهاب الحراب عزمهم؟ يصنعون المعالي. ويقولون الصواب. هدفهم التوحيد بلا رياء. ونهجهم اليقين بلا ارتياب. عاشوا للأمة وللأوطان. ولم يكن لهم في الدنيا أي مغانم[4]. خسر المسلمون

---

(1) St. Ref., pp. 84 - 5.

(2) أهل دنيانا تمادوا في غرور ... لم يبالوا بمقاييس الأمور

يا أمم الشرق، ص345.

(3) جمود هذا الشعب عن كفاحه ... يحكي رمادا ليس تحته شرر
مساؤه ران على صباحه ... بظلمة في ليلها زاغ البصر
كل يعيش في إطار نفسه ... والعيش والمتعة في الدنيا مناه
يخشي البلى قبل حلول رمسه ... فاعجب لميت لم يزل قيد الحياة!
وذو الغنى في الشح يحكي جلمدا ... وماله في اللهو يغرق السحاب
حياته ضاعت على الغي سدى ... تشغله قشورها عن اللباب
يبيع دينه لدنيا غيره ... وفي رضا غاصبه يستشهد
ويومه الحاضر كل عمره ... فليس في تاريخ دنياه غد

السابق، ص353.

(4) فأين أئمة وجنود صدق ... شهاب شباة عزمهم الحراب
إذا صنعوا فصنعهم المعالي ... وإن قالوا فقولهم الصواب
مرادهم الإله فلا رياء ... ونهجهم اليقين فلا ارتياب

=

قادتهم القدماء. ولم يبق لديهم إلا قادة محدثون، تابعون للخارج، قاهرون للداخل. لا يدافعون إلا عن مصالحهم، ولا يحافظون إلا على كراسيهم.

جهاد المؤمنين حياتهم، فالحياة جهاد. وعقائدهم سواعد تنطق بالأعمال التي تثبت الاعتقاد. خوف الموت من الأحياء قبر. وخوف الله من الأحرار زاد لهم. أضاعوا ميراث القدماء. فضاع الرشاد. ولا يكفي الحفاظ على إرث الخير إن لم يقم على تثبيت وحدة الأمة حتى لا تتفرق بها الشيع والمذاهب[1].

فلأي مآثر ولأي قوم ينتسب المسلمون اليوم ليكتسبوا فخار المسلمين؟ وأين هم من مقام الصحابة الأوائل ومن دولة العزة في الدنيا والدين؟ ولماذا لم تربح الأمة كنز الفاتحين بقيمة الفقر الغيور؟ لقد غاص المسلمون في الذنوب وفي الخطايا. بل واغتابوا الصالحين الصادقين الأطهار الذين ستروا عيوب الخلق، وكانوا أبر المتقين[2].

لقد احتمى الروم بأريكة قيصر. واحتمى الفرس بسرير كسرى. والمسلمون يطمحون إلى الثريا بلا عزم أو همة أو إرادة أو قلب سليم. أضاعوا الأخوة بينهم. والأقوام أقاموا صروح إخائهم فوق النجوم. طلبوا أزهار الدنيا فلم يفح منها شذا أو

= لأمتهم وللأوطان عاشوا ... فليس لهم إلى الدنيا طلاب
كمثل الكأس تُبصرها دهاقا ... وليس لأجلها صُنع الشراب

صلصلة الجرس، ص106.

(1) جهاد المؤمنين لهم حياة ... ألا إن الحياة هي الجهاد
عقائدهم سواعد ناطقات ... وبالأعمال يثبتُ الاعتقاد
وخوف الموت للأحياء قبر ... وخوف الله للأحرار زاد
أرى ميراثهم أضحى لديكم ... مضاعا حيث قد ضاع الرشاد
وليس لوارث في الخير حظ ... إذا لم يحفظ الإرث اتحاد

السابق، ص106.

(2) لأي مآثر القوم انتسبتم؟ ... لتكتسبوا فخار المسلمينا
فأين مقام ذي النورين منكم ... ودولة عزِّه دينا ودينا
وفقر عليّ الأواب هلا ... ربحتم فيه كنز الفاتحينا
أقمتم في الذنوب وفي الخطايا ... وتغتابون حتى الصالحينا
وهم ستروا عيوب الخلق فضلا ... وإن كانوا أبر المتقينا

السابق، ص106.

عطر. والبستان كان أمامهم في الدنيا، وجنات النعيم في الآخرة[1]. والتاريخ يعيد نفسه. وينشئ من قصص المسلمين الفنون. فقد نزحت الأمم عن الأوكار شوقاً إلى التحليق والإبداع فوق العالمين. وكلما يئس الشباب تقدم الآخرون على خطاهم، فظنوا بالدين الظنون، أنه سبب التأخر، وتركه والتخلي عنه والتحرر منه سبب التقدم. وجد الشباب أنفسهم وسط المذاهب التي قدمتها لهم المدينة الحديثة حائرين بينها. وقدمت لهم الملاهي والمجون وبيوت الدعارة لتحجب عنهم الحرم الأمين[2]. لقد سئم قيس الهوى في البيد. ومل من الشكاية والعذاب. ومازال يحاول أن يبوح بالعشق حتى يرى ليلى بلا حجاب. يريد رؤية الوجه السافر بلا نقاب. فقد أحرق هذا العصر الحاضر كل غرس من الماضي. وأغلق كل باب. وأفنت صواعقه المغاني. وأفسدت كل شيئ في الجبال وفي الهضاب[3].

واليوم، هناك نار جديدة لا يكفي فيها حطب سوى المجد القديم. وبإيمان إبراهيم تنبت في النار روضات النعيم. وينبت من دم الشهداء ورد، ذكي العطر قدسي النسيم. ويلمع في سماء الكون نوع من الهضاب أحمر اللون. ولا خوف إذا

(1) أريكة قيصر، وسرير كسرى قد احتميا بملكهم العميم
وأنتم تطمحون إلى الثريا بلا عزم ولا قلب سليم
تضيعون الإخاء هم أقاموا صروخ إخائهم فوق النجوم
طلبتم زهرة الدنيا وعدتم بلا زهر يضوع ولا شميم
وكان لديهم البستان محضا وهم أصحاب جنات النعيم
صلصلة الجرس، ص107.

(2) يعيدُ الكون قصتهم حديثا وينشئ من حديثهم الفنونا
فكم نزحوا عن الأوكار شوقا إلي التحليق فوق العالمينا
ويأس شبابكم أو من خطاهم فظنوا فيه بالدين الظنونا
هي المدنية الحمقاء ألقت بهم حول المذهب حائرينا
لقد صنعت لهم صنم الملاهي لتحجب عنهم الحرم الأمينا
السابق، ص107.

(3) لقد سئم الهوى في البيد قيس وملّ من الشكاية والعذاب
وحاول أن يُباح العشق حتي يرى ليلاه وهي بلا حجاب
يريد سفور وجه الحسن لما رأى وجه الغرام بلا نقاب
فهذا العهد أحرق كل غرس من الماضي وأغلق كلَّ باب
لقد أفنت صواعقه المغاني وعاثت في الجبال وفي الهضاب
السابق، ص107.

ما أصبح المرجان، وهو صغار اللآلئ، عقوداً للبراعم والأعناب[1].

لقد زالت الرياض من الربى. وبادت النخيل من البوادي. ومع ذلك تنمو نخلة الإسلام بالرغم من العواصف وعوادي الزمن ومجد الأمة في محن. الإسلام باق بقاء الشمس والكواكب السبعة. المسلم هو يوسف في مصر. يرى كنعان كل البلاد. تسير قافلته في كل مكان بلا جرس أو صدى حداء[2].

ضياء الأمة مشرق في كل أرض لأنها غير محدودة في المكان. غزاها التتار، ولكنهم عادوا بالإيمان بعد الغزو. شاءوا التدمير. فحصلوا على الهدى. وتحول عبدة الأصنام إلى حماة للكعبة. فلا خوف أنه في الليل البهيم يشع الضياء، ولا من هبوب العواصف، والشعلة مازالت مضيئة عبر الزمان[3].

5 ـ جواب الشكوى

مهما حاول الشاعر الإجابة فإن بحر الوجود لا يمكن معرفته. ومهما غنت

---

(1) هي النار الجديدة ليس يُلقى — لها حطب سوى المجد القديم
خذوا إيمان إبراهيم تنبت — لكم في النار روضات النعيم
ويذكو من دم الشهداء ورد — سني العطر قدسي النسيم
ويلمع في سماء الكون لون — من العناب مخضوب الأديم
فلا تفزع إذا المرجان أضحى — عقودا للبراعم والكروم
السابق، ص108.

(2) فكم زالت رياض من رباها — وكم بادت نخيل في البوادي
ولكن نخلة الإسلام تنمو — على مر العواصف والعوادي
ومجدك في حمى الإسلام باق — بقاء الشمس والسبع الشداد
وإنك يوسف في أي مصر — يري كنعانه كلَّ البلاد
تسير بك القوافل مسرعات — بلا جرس ولا ترجيع حادي
السابق، ص108.

(3) ضياؤك مشرق في كل أرض — لأنك غير محدود المكان
بغت أمم التتار فأدركتها — من الإيمان عاقبة الأمان
وأصبح عابدو الأصنام قُدْما — حماة الحِجر والركن اليماني
فلا تجزع فهذا العصر ليل — وأنت النجم يشرق كل آن
ولا تخشى العواصف فيه وانهض — بشعلتك المضيئة في الزمان
السابق، ص108 ـ 109.

قيثارة الشاعر فإنها لا تستطيع التعبير عن كل ألحان الوتر[1]. لا يعرف إقبال ما مصدر إجاباته عن الشكوى. ولا يعرف ما مصيره؟ وإقبال نفسه يتساءل. ويغيب في وجده وفي تفكيره. والسر تفضحه العيون دون سؤال. وتختلط صرخات الوجد بالدم دون جواب. فيقتل الشاعر دون عقاب[2]. وربما جاءه كتاب جديد أوصلته له صرخة الليل. يطلب منه التمهل وإعادة التفكير. فلعل ما يدعو إليه إقبال طريق عسير[3]. وقد استجاب إقبال. ووهب المسلمين ناراً، ولكنها ذبلت لديهم. ولا لوم على الكأس، ولكن اللوم على من طاف عليهم لخمولهم[4].

قد يُستجاب للشكوى وقد لا يستجاب لصعوبة وجود خِل مثل صعوبة وجود الحبيب. ومع ذلك أشرق الصباح يوما فغمر الضياء كل شئ. والعصر مليء بالنواهي. ونفذ صبر الروح. ويمر الزمان، والروح لم تخمد بعد. ومن الماء والطين يخرج قلب الإنسان[5].

الشكوى لا تكون إلا في الظلام وعدم وضوح المعنى أو الطريق. فالوصال

---

(1) بحر الوجود تعالى أن تحيط به — وبعض ما فيه موج الشمس والقمر
حاشا لقيثارة مهما بذلتْ لها — أن تستطيع أضواء اللحن والوتر
جناح جبريل، ص434.

(2) لم تسألون القوم ما هو مصدري — وأنا بنفسي لم أحط بمصيري
ما زلت منذ وُجدت أشرقُ سائلا — وأغيب في وجدي وفي تفكيري
سري تترجمه سلاطة أعيني — لا تسألوني من تكون ومن هي؟
صرخات وجدي في الصباح تلطخت — بدمي ولم أسمع لهن جوابا
رباه، أي جريمة قارفتها — لأكون من قتلى الصباح عقابا
السابق، ص449.

(3) جاء من عندهم كتاب جديد — صرخة الليل أوصلته إليا
فإذا فيه: يا مسافر أمسك — وتفكر بما قطعت مليا
ربما كنت ذاهبا من جديد — في طريق كمثل تلك عسيره
السابق، ص450.

(4) وهب المسلمين إقبال نارا — فإذا النار ذاتها في ذبول
ما على الكأس في الحقيقة لوم — خامل طاف بين أهل الخمول
السابق، ص450.

(5) نحت في الشكوى وما من مستجيب — أين للإنسان خل أو حبيب؟
شاهدتْ عيناي يوما أشرقا — في ضياء كل شيئ أغرقا

=

آخر الشوق. فالحذر من الشكوى[1]. بل إن الشكوى كفر. والشعر لا يكون إلا كفراً. والكفر لا يكون إلا شعراً[2].

الشكوى من الذات أمر غريب لأن الذات ليست غريبة. الذات ذات، وليست موضوعا[3]. وهي عن الآمال والآلام، عن الأحوال الحاضرة[4].

قد يكون الجواب في الإصلاح. وقد عارض الجميع الإصلاح الذي ارتآه إقبال. وأجمعوا على إقصائه وإبعاده. ذهبوا مع الصحراء جرياً وراء جنونهم. وبقي إقبال مجنوناً بلا صحراء. ويحمد الله على إسدال أستار الكعبة في وجه صياحه. ويبقى وحيداً بعد أن طافت جراحه حول الحرم. لم يجب الفقهاء بشيئ. ولا استطاعت مثل أفلاطون وفلسفته من الحضور والغياب، والسلب والإيجاب وأن ترد بشيئ. وقديماً كان رجال الفكر ينبضون جرأة وحمية أوجبتها روح العصر. كان بهم نفس القرآن، وليس «الكشاف» وغيره من كتب التفسير[5]. ويرجو إقبال المسلم الذي يشتكيه بعدم لومه لأن عينه تفضحه. فالصراحة في الشكوى بين المسلمين

= قيد هذا قيد من نهي — أين روح لي تناهي صبرها
ويمر الدهر من عمر الوجود — كي نرى روحا وما فيها خمود
إن نما من ذلك الطين المهين — قلب إنسان فذا كنز ثمين
رسالة الخلود، ص139 ـ 140.

(1) أي معنى للطريق والمقام؟ — إن شكواي السراج في الظلام
الوصال آخر الشوق، الحذر — ما لشكوى وزفير من أثر
السابق، ص220.

(2) ليس ما تبغيه من غير كفر — إنه كفر وراء كل شعر
السابق، ص261.

(3) مشكاة الذات همهم يجافي — فما عن ذاته كان الغريبا
أرمغان حجاز، ص496.

(4) وهذا عبدك المسكين سَله — عن الآمال في حلو ومر
السابق، ص428.

(5) وقف الجميع يعارضون ندائي — لم يجمعوا إلا على إقصائي
ذهبوا مع الصحراء خلف جنونهم — وبقيت مجنونا بلا صحراء
حمدا لمن رحم العباد فأسدلت — أستار كعبتنا بوجه صياحي
وبقيت وحدي مرة أخرى وقد — طافت على الحرم الشريف جراحي
فقهاؤنا وقفوا بصوت واحد — دوني وما حاروا بأي جواب
لا مثل أفلاطون بين حضوره — وغيابه والسلب والإيجاب =

عتاب أخوي لا يعلمه الناس[1].

قد يكون الجواب في الشعر والخيال والإحساس بالجمال. وإذا كانت قصص الحب متنوعة بالآلاف فكذلك أشعار إقبال وغنائياته. تارة تملأ الحياة وصالاً للبقاء، وتارة تطلب الفراق للفناء[2]. وإذا أراد الأتراك أن يكونوا أقوى بالشعر، فليقرؤوا بيتاً للشاعر. ولا يكون الضعيف قوياً بمجرد لولا وليت[3].

قد يكون البديل هم الشباب والمستقبل ونوعيته بأنه لا فائدة من سجادة العجمي ولا من الأثاث الإنكليزي، لا من الموروث ولا من الوافد. ولا فائدة من ثروة حصل عليها وأنفقها كما يفعل الملوك مما يدعو إلى الرثاء والبكاء. ربما لم يذق غبطة الإيمان أو بأس علي أو رضا سلمان، ولم يرحم شبابه. ولا تقاس سلع الحضارة بالذات. فالثمن غال. وهو الخطأ بعينه. المؤمن الصديق سيد نفسه، ومالك وقته. يرقى عالمه برقي قناعته. تلك مكانة الإنسان في الكون. لو دب روح النسر في قلوب الشباب لم يبحثوا في أصلهم في التراب. ومن ثم فلا داعي لليأس ما دام العلا هو المطلب. اليأس يميت الفتى. والمؤمن الصديق برهان الإله وسره. فليبعد الشباب نفسه عن اليأس. وعش الشاهين ليس في قصر الملوك بل على قمم الجبال. ودونها يتم اصطياده. لذلك فليبق الشباب بعيداً عن مرمى الصياد[4].

= كانت رجال الفكر تنبض جرأة وحمية أوحت بها الأعراف
نفس إذا القرآن ما انتفعت به لا الكشف ينفعها ولا الكشاف
جناح جبريل، ص464 ـ 465.

(1) أيها المسلم الذي يشتكيني لا تلمني فأنت تفضح عينك
لا تخف من صراحتي في حديثي إن هذا الحديث بيني وبينك
السابق، ص466.

(2) قصة الحب ألف نقش ولون وغنائي أشد نقشا ولونا
تارة أملأ الحياة وصالا تارة أطلب الفراق لأفنى
السابق، ص465.

(3) قيل إن الأتراك بالشعر أدرى فأقرؤوهم من شعر إقبال بيتا
لا يكون القوي جار ضعيف كل ما في يديه لولا وليت
السابق، ص465.

(4) سجادك العجمي هذا والأثاث الإنكليزي
ماذا يفيدك يا عزيزي =

إلا أن هذه الردود لا تعبر عن كل أماني الشاعر وتطلعاته. ويعبر «النشيد الإسلامي» في أول الديوان عن طموحات المسلمين. ويتضمن ثلاثة وعشرين بيتاً مثل الأناشيد الوطنية للشعوب المستقلة حديثاً. وموضوعها واحد «نهضة المسلمين» وإن تبادل كل بيتين أو ثلاثة موضوعات تفصيلية.

العالم كله للمسلمين: الصين والهند وبلاد العرب. الإسلام دين واحد. والكون عالم واحد. وقد تم ذلك بفضل التوحيد الذي حل روح المسلمين. إن زالت السيادة على الأرض تظل السيادة في النفس قائمة. أقيمت له معابد في الأرض. والكعبة أول بيت. يحافظ عليه المسلمون بالروح كما يحافظ هو عليهم برمز وحدتهم، ونقطة ارتكازهم وانطلاقهم[1]. تربوا في ظل السيف. وبنوا العزة لدولهم. ورفع علم الإسلام في كل مكان، رمزاً للمجد والرفعة. ورفع الهلال فوق

= ماذا تفيدك ثروة حصلتها ... في مثل أبهة الملوك بذلتها

أبكي لأجلك يا عزيزي

هل ذقت يوما غبطة الإيمان ... أو بأس حيدر أو رضا سلمان

ارحم شبابك يا عزيزي

المؤمن الصديق سيد ساعته ... ورقي عالمه رقي قناعته

فاعرف مكانك يا عزيزي

لو دب روح النسر في قلب الشباب ... لم يبحثوا عن سرهم بين التراب

إياك تيأس يا عزيزي

باليأس معرفة الفتي تغتاله وبصيرته ... والمؤمن الصديق برهان الإله سريرته

فاربأ بنفسك يا عزيزي

يا أيها الشاهين عشك ليس في قصر الملوك ... لو كنت شاهين الجبال حقيقة ما أمسكوك

فارجع لعشك يا عزيزي

السابق، ص507.

(1) الصين لنا، والعُرب لنا ... والهند لنا، والكل لنا

أضحى الإسلام لنا دينا ... وجميع الكون لنا وطنا

توحيد الله لنا نور ... أعددنا الروح له سكنا

الكون يزول ولا تمحى ... في الكون صحائف سؤددنا

بنيت في الأرض معابدنا ... والبيت الأول كعبتنا

هو أول بيت نحفظه ... بحياة الروح ويحفظنا

صلصلة الجرس، ص91.

المآذن يمثل خنجر القوة. وكان للآذان صدى في الغرب عن نهضة المسلمين وحضارتهم ومطاولتهم النجوم[1].

(1) فـي ظـل الـسـيـف تـربـيـنـا … وبـنـيـنـا الـعـز لـدولـتـنـا
عـلـم الإسـلام عـلـى الأيـام … شـعـار الـمـجـد لـظـلّـتـنـا
وهـلال الـنـصـر يـضـيء لـنـا … ويـمثّـل خـنـجـر سـطـوتـنـا
وأذان الـمـسـلـم كـان لـه … فـي الـغـرب صـدى مـن هـمـتـنـا
قـولـوا لـسـمـاء الـكـون لـقـد … طـاولـنـا الـنـجـم بـرفـعـتـنـا

السابق، ص91.

الفصل الثاني

الأنين والحنين

1 ـ جناح جبريل

الأنين والحنين يعادل «الشكوى والجواب». الأول مضمون ديوان «جناح جبريل» والثاني مضمون «صلصلة الجرس»[1]. وهو الديوان الخامس صدر بالأوردية عام 1935 بعد زيارات إقبال لفلسطين ومصر وأفغانستان وأسبانيا، وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا. فيه يبكي على الأطلال. ويتألم لاندثارها. ويحن إلى المجد القديم.

يتكون من ثلاثة أقسام: الأول، قصيدة غنائية طويلة واحدة. تغلب عليها الغنائيات، وإن كانت فلسفة الذات تبدو فيها قليلة. وهي أقرب إلى البكائيات والأنين والألم لأوضاع المسلمين الحالية. والثاني، قصائد نظمها في الأندلس وفيها الحنين إلى الماضي، واسترجاع انتصارات الأمة السابقة. والثالث، قصائد متفرقة يغلب عليها الحوارات الفكرية وأهمها «لينين أمام الله» والحوار بين إقبال والرومي[2].

هي شكوى وحنين. شكوى قد تقتضي البكاء والخور. وقد تؤدي إلى الحنين إلى الماضي، تخفيفاً للأحزان[3]. . . . .

---

(1) جناح جبريل (بال جبريل) نقله من الأوردية إلى الفرنسية نثراً السيد ميرزا سعيد ظفر شاغتي والسيدة سوزان بوساك. ثم نقله من الفرنسية إلى العربية نثراً الأستاذ عبد المعين الملوحي. ثم صاغه بالعربية شعراً الأستاذ زهير ظاظا.

(2) السابق، ص405 ـ 406.

(3) ثــم أرجــو ألا أخــور وأبــكــي   وتـرى الـحـورُ لـوعـتـي ونـحـيـبـي =

هي شكوى تطلب السماع(1). والعدل ليس هو المطلوب إذا كان ينتهي إلى الظلم. هو أنين لا تقوى على حمله أمة واحدة(2). ليس المطلوب من الشكوى والأنين أن يجد الإنسان نفسه عارياً أمام ذاته بلا واقع يعيش فيه. بل الغاية معرفة محيط الذات، وميدان فعلها. ليس المطلوب أيضاً البحث عن أي منهج أو طريق للخروج من الأنين إلى الحنين(3).

الشاعر حزين فرح، يئن ويحن، مجنون وعاقل(4). لقد تمكن جنون الشاعر من معرفة السر المكنون. وأنفاس شعره أتت من صدر جبريل الأمين. وبث الأنين ليس للنجم وسؤال عن مصير الأمة لأنه نفسه لا يعرف من أين أتى، وهو منبوذ في ركن من الكون. حياة الناس سكرة بين اليقظة والحلم. وتفسير ذلك مضيعة للوقت وللعمر(5). ويستعجب الناس من إقبال الفقير الذي أصبح غنيا. ويتساءلون عن أي كنز عثر. ويعجبون من عالمه اللهب الذي لا يمنح الناس إلا الشرر(6).

= فرجائي ألا يصير حنينا   ذلك الوخز في فؤادي الرقيق
السابق، ص410.

(1) سواء أهزتك أم لم تهزك   شكواي أطلبُ تُصغي إليّ
أنا وقح لست أسأل عدلا   فيا طالما العدل يبغي عليّ
السابق، ص409.

(2) وأمنية العمر هذي الجراح   تقسمها بين كل الأمم
السابق، ص410.

(3) أنا أرجو ألا أفاجأ يوما   وأري ساحلي شعوري بذاتي
ورجائي ألا أكون ببحثي   وهو بحث بغير لون ومنهج
السابق، ص410.

(4) الشاعر الفرح الحزين معا أنا   حذر الحكيم أشوبه بجنونه
السابق، ص424.

(5) روعة السر التي أعطيتها   والتي مكنني منها الجنون
إن أنفاسي التي أحدو بها   أخذت من صدر جبريل الأمين
لست آتي النجم كي أسأله   عن مصيري هاهنا كيف يكون؟
هو لا يعرف من أين أتى   في رحاب الكون منبوذ مهين
ما حياة الناس إلا سكرة   وهي في اليقظة أو في الحلم
لا تضع عمرك في تفسيرها   كثرة الحيرة موت الهمم
السابق، ص425.

(6) يقولون إقبال في فقره   غني على أي كنز عثر؟ =

يفرح الشاعر فرحاً غامراً. ولا يستطيع أن ينسل عن نفسه. ضميره معذب. وسمو فكره من سكرة الحب. لا يعتمد في أنينه أو حنينه إلا على قلبه المجنون، وليس على كنوز قارون أو علوم أفلاطون. يعتمد على معراج الرسول أي استلهام الحقائق من الملأ الأعلى. ما زال الوجود الإنساني في طريق الاكتمال. فالوجود مشروع إيجاد على ما يقول فلاسفة الوجود المعاصرون في الغرب. يتجدد كل يوم. ويقضي على خرافات سادت منذ قدم الزمان(1).

لم يستطع الطبيب أن يفهم ما يكابده الشاعر أو أن يدرك مكنون سره. بل إنه أدرك أن يتطلع إليه الشاعر لا طاقة له به. ومع ذلك، لا ينبغي اليأس. صفاء الروح معروف، ولكن الدم القرمزي الذي في قلب الشاعر يدل على أنه على الطريق الصحيح(2).

= وعالمه لهب كله ولا يمنح الناس إلا الشرر

السابق، ص443.

(1) فرحي تفجّر من قدمي إلى رأسي
والقوم تطلب أن أنسل من نفسي
ما سر قلبي؟ آه لضميره العذب
وسمو نظرته في سكرة الحب
لا أرتضي بدلا عن قلبي المجنون
بكنوز قارون وعلوم أفلاطون
معراج سيدنا علم عظيم الشان
بدت السماء به في عالم الإنسان
لابد يدهشنا ما كان يحتمل
فوجودنا هذا مازال يكتمل
في كل آونة نُصغي إلى إعلان
يُلغي خرافات من سالف الأزمان

السابق، ص426.

(2) جس الطبيب بقلبي ما أكابده فقال: ويحك ما تخفيه من طلب؟
تطلعاتك لا طاقات تحملها لكن «لك الحق» لا تيأس من السبب
وما يسمى صفاء الروح أعرفه وليس هذا الذي في قلبك اللجب
هذا الدم القرمزي اللون نضرته تدل أنك لم تشرب شراب غبي

السابق، ص428.

2 ـ مصدر الأنين

ويئن إقبال لأن فكره ما زال حائماً في السماء. لا يستقر في أحد الأفلاك. تأبى عليه الفطرة أن يشرك. إقبال ليس مسكيناً وليس مراوغاً، بل يشهد على عصره. غضب عليه الأصدقاء لكشف الأستار حتى لم يعد له صديق واحد. ولا يكذب. فيسمي سمهم حلوى وهو سم قاتل[1]. لم يتحمل أي ساحل شطحات إقبال التي هتك بها أسرار الكتاب دون جدوى[2].

احتار إقبال في دروب الفكر. فلما أحب مال القلب واهتدى[3]. وأخيراً انتبه إقبال. ولبت السماء صرخته. وسمع أنه سُيكشف له الغطاء عن حكاية العاشقين من البداية إلى النهاية. وهي حكاية نار وحزن وانفجار[4]. وتحزن الملائكة إقبال لأنها عابت عليه صرخته وجرأته أمام الله. يهتك أسرار الطبيعة. ويجمّل الدنيا بفلسفته. لا ينتمي إلى الأرض وهو مكوّن منها. تتعدد قدراته كالملك، ولكنه في رغباته إنسان. يملأ الريح صدره. ويعيقه بستانه المحدود. اهتدت الملائكة، واقتدت به، وسلكت طريقه، طريق آدم إلى الله[5].

---

(1) مازال فكري في سمائك حائما فاسجنه في فلك من الأفلاك
تأبى عليّ ملائكية فطرتي أن أستمر بهذا الأشراك
أنا لست مسكينا ولست مراوغا والحق، أرفض غير نفسي شاهدا
غضبت عليّ الأصدقاء جميعهم والحق لا يبقي صديقا واحدا
لم أستطع أبدا أسمي سمّهم حلوى وأعرف أنه قتال
السابق، ص420.

(2) لم يتحمل موجة الشطحات هذي أي ساحل
هتكت بها مجنون أسرار الكتاب بغير طائل
السابق، ص447.

(3) مضى إقبال هونا في دروب الفكر واجتازا
ولما جاء دربَ الحب مال القلب وانحازا
السابق، ص446.

(4) وأخيرا انتبهت ولبت صرختي هذي السماء
وسمعت ما قالوا: أخيرا سوف ينكشف الغطاء
وللعاشقين حكاية وتكاد تتفق الحكاية
نار وحزن وانفجار في البداية والنهاية
السابق، ص447.

(5) إقبال تحزنه الملائكة التي عابت أمام الله جرأة صرخته =

وهت مباحث الفكر عن الغياب دون الحضور. ووثب الحب من الدم. وبالرغم من الشمس الساطعة، مازالت الأرض ظلماء. الكل يعرف كد الأمة وسعيها في سالف الأيام. لم يعرف أحد أن العلم مضيعة، وأنه سبب الأطماع والنهم. ومهما هز الإنسان نخيل الفكر لم تسقط عليه إلا العراجين القديمة. كما أيقظت مقالات الموتورين والمنتقمين وجدان الشاعر. الفكر بضاعة أبي لهب. وكل مكر ودهاء بين الأفراد والأمم. والحب اختيار المصطفى، واختيار الشاعر. ونهايته أحلى من بدايته[1].

ويجيب إقبال من السر القديم الذي يعود من جديد إجابة من حميم إلى حميم، اعتراف كاعترافات أوغسطين[2]. وييأس من حمق الناس. ينعزل عنهم، ويعود إلى وحدته، ولكن أصدقاءه يروون له أخبارهم لينير بها وحدته[3]. مراد

=
وقح يهتك للطبيعة سره ... ويجمل الدنيا بلؤلؤ نظرته
لا ينتمي للأرض وهو سليلها ... لا الشام موطنه ولا قاشان
متعددُ الأوصاف في قدراته ... ملك وفي رغباته إنسان
قلق رياح الخد تملأ صدره ... ويعيقه بستانه المتنامي
في ظل مذهبه الملائكة اهتدت ... لطريق آدم في رحاب الله

السابق، ص460.

(1) مذاهب الفكر من بحث الغياب وهت ... ومشهد الحب من وثب الحضور دمي
بالرغم من ثورة للشمس ساطعة ... مازالت الأرض في بحر من الظلم
أنا، وتعرف أيامي التي سلفت ... وما تحملت من كدي ومن سأمي
ما كنت أعرف أن العلم مضيعة ... وأنه سبب الأطماع والنهم
هززت كل نخيل الفكر ما سقطت ... على غير عراجين من الهرم
لقد تيقظ وجداني الذي عصفت ... به مقالات موتور ومنتقم
الفكر من حيث تأتيه أبو لهب ... وكله كله مكر من الأمم
والحب حيث يكون المصطفى يده ... وكله كله من مقلتيه نمي
أخذت عنه فنون الحب فاغتنموا ... مذاهب الحب في شعري وفي حكمي
نهاية الحب أحلى من بدايته ... وربما صحت الأجسام بالسقم

السابق، ص502 ـ 503.

(2) ربما أشرق إقبال ... على السر القديم
حدّث السرُّ حديثا ... كحميم لحميم

السابق، ص449.

(3) أنا قد تخليت عن حمقهم ... وألقيت في وجههم وحدتي
وأصبحتُ لي أصدقاء هناك ... بأخبارهم ترتوي جلوتي

السابق، ص453.

إقبال كشف أسرار تقضي على حالة اليأس، وأن يفصح للطلاب عما يجول في نفسه. لقد ركب إقبال الفلك الذي صنعه بيديه، ولكن الريح أجرته على غير هواه. ضاع الكرى من عينيه قلقاً. والدمع في عينيه طل من ندى القلب[1].

يريد إقبال أن يعلم نفسه بنفسه في الحياة دون ما حاجة إلى جبريل، وتعليم أستاذ إلى تلميذ، ومعلم إلى متعلم. فتقليد الآخرين متعارض مع تجربة الحياة، بالرغم مما فيها من سفك للدماء، يستغفر لها أهل السماء[2].

نَفَس الشاعر يؤجج نار الورود التي خمدت لواعجها على الأغصان. لم يهدأ البستان منذ أن نفت الشاعر روحه، وبدا آثاره عليه. أيقظ قلب العارفين. وكشف الأسرار للبسطاء. ووهب لعدة أجيال ذوق اللهيب. وملأ أنفاسهم برشح دنانه. الشاعر أعجمي الحب إلا أنه أطلق لسانه في الحرم الشريف. فخرق أثواب الأدعياء من الحجاج والمطوفين. جمع بين نظرة العادل وسهم الحسين. ولم التعجب من تحرق المسلم وهو لابس رداءً من الأحزان. وهو الذي يجمع بين فقر الجنيد وملك سنجار وجنون طيفور الطليق؟ لماذا يتأذى أحد ويحكم بقبح الشعر إلا لأنه يكشف الحقيقة ويجعلها ظاهرة للعيان؟[3].

---

(1) مرادي رشف أسرار ... تؤول راحة اليأس
وإلا قلت للطلاب ... ما أخفيه في نفسي
ركبنا البحر في فلك ... بأعينه صنعناه
فأجرى الريح عاصفة ... وعكس الريح أجراه
ذوت عيناي من أرق ... على قلق طوي جنبي
وهذا الدمع في عيني ... طل من ندي قلبي
السابق، ص514.

(2) جبريل دعني في الحياة وسكرتي ... لا أنت أستاذي ولا أنا عبدك
أنا إن تبعت خطاك خنتُ خلافتي ... شتان وجدي في السماء ووجدك
سفك الدماء رسالة مذمومة ... لكنها في الأرض أقدس فرضي
أهل السماء صلاحهم في أنهم ... يستغفرون بها لمن في الأرض

(3) نفسي يؤجج نار وردتك التي ... خمدت لواعجُها على الأغصان
لم يهدأ البستان منذ أتيته ... فانظر لآثاري مدى البستان
أيقظت قلب العارفين بصدرهم ... وهتكتُ للبسطاء سر الحان
ووهبت للجيلين ذوق لهيبهم ... وملأت أنفسهم برشح دناني
أنا أعجمي الحب إلا أنني ... أطلقت في الحرم الشريف لساني
كم ثوب إحرام على متضرع ... مزّقتُه باللحن من ألحاني =

شهادة إقبال هي شهادة كل مسلم بل وكل إنسان، عربياً أم أعجمياً، شهادة صدق وحق، شهادة على هذا العالم، تمتد إلى العالم الآخر. تذهب السكرة، ولكن تظل عين الساقي كالنصل. له نظراته القاتلة التي تريد أن تقضي على شهداء الحق، وتبقي على شهداء الزور. والبستان لا يذم الورود الحزينة. ورب سم يكون دواء، ورب دواء يعين على بقاء الداء[1].

لقد ابتعدت الحمائم عن أغصان الصنوبر. وتعرت الأشجار من حلل الربا. وفرت طيورها إلى الوديان. أما بلبل إقبال فما زال يغرد قبل الربيع. ألحانه بحر متلاطم الأمواج وكأنه يقص عن الطوفان. هدفه أن يسمع قومه شكواه المحبوسة في ضميره. وهي صرخة الوجدان[2].

لقد احتار الشاعر مما يدور في قلبه. يريد أن يلهمه الله مباشرة لأمته ليبعث فيهم يقظة الإيمان. ويذيقهم الخمر القديمة، عين اليقين وكوثر الرضوان. وهي الخمر الموروثة لدى كل المسلمين بصرف النظر عن أوطانهم، خمر الحجاز التي

= متلطخ قلبي بنظرة عادل ... بسهام سيدنا الحسين رماني
لم تعجبون لمسلم متحرق ... ورداؤه قطع من الأحزان
فقر الجنيد وملك سنجار به ... وجنون طيفور الطليق العاني
بالرغم مما قلت قبحي ظاهر ... تأذى به عيناك حين تراني

السابق، ص462.

(1) وسواء كان ابن آدم هذا ... عربيا أم لا، معانيه بيض
وعن العالم الذي هو فيه ... وعن العالم الأخير يفيض
ذهبت سكرة المساء ولكن ... نظرة الساقي في الفؤاد كنصل
ولها فيه طعنة بعد أخرى ... فسلوه فديته لم قتلي؟
لا يذم البستان مر غنائي ... يصبغ الروح منه لونا فلونا
رب سم يكون ترياق داء ... ودواء يكون للداء عونا

السابق، ص456.

(2) ما بال أغصان الصنوبر قد نأت ... عنها قماريها بكل مكان
وتعرت الأشجار من حلل الربا ... وطيورها فرت إلى الوديان
يا رب إلا بلبلا لم ينتظر ... حتى الربيع ولا صبا نيسان
ألحانه بحر جرى متلاطما ... فكأنه الحاكي عن الطوفان
ياليت قومي يسمعون شكاية ... هي في ضميري صرخة الوجدان

صلصلة الجرس، ص99 ـ 100.

جمّعت كل الشعوب والأقوام. صوت إقبال قادم من عدن وسط أنغام الهنود حتى يسمعه المسلمون[1].

ويتساءل الناس عن مصدر أنين إقبال. وسأل إقبال بدوره الدراويش، ولكنه وجد المسؤول وجوه الملوك[2]. بحث عمن يحيل أنينه إلى حنين. فطوّف أمة الصحراء يسألها فوجدها ضعيفة مستكينة حائرة. سجودها بلا اتجاه. ليس له أي أثر عليهم. ومع ذلك، ماضي الأمة في قرطبة الحمراء. مازالت تمثل رصيداً للأمة تتحدى به الغرب بدخانه ومصانعه. وحماسة الشعر تعبر عن هذا الحنين، بالرغم من موجات الكفر والجمود[3].

لقد لعب الرهبان دور الربان فعصفت بمركب الأمة الرياح. وضل طريق الشاطئ، والبحر بحر الرحمن. وقد يمنع الرياء التعبير عن آخر زفرة للأمة التي لا ترى منارتها. وقد يمنع البرهمي آخر زفرة، وهو ما زال يخفي شرارته في معبده.

3 ـ منابع الحنين

كان هذا الكون قبل وجود المسلمين روضاً وزهراً وورداً بلا روائح. وكان الزمان قبلهم ليلاً مظلماً للظالم والمظلوم. ولما ظهر الإسلام اخضرت الربى وانتشر الشذا[4].

---

(1) إن الجواهر حيّرت مرآة هذا القلب فهو على شفا البركان
اسمعهُمُو يارب ما ألهمتني ... وأعِدْ إليهم يقظة الإيمان
وأذقْهم الخمرَ القديمة إنها ... عين اليقين وكوثر الرضوان
أنا أعجمي الدَّن لكن خمرتي ... صُنع الحجاز وكرمها الفتيان
إن كان لهم نغم الهنود ولحنهم ... لكن هذا الصوت من عدنان
السابق، ص100.

(2) يقولون إقبال ماذا يريد ... ومن أين جاء بهذا السلوك
سألت الدراويش عن سرها ... وألقيته في وجوه الملوك
السابق، ص430.

(3) طوّفت في أمة الصحراء أسالها ... فإذ بها أمة الصحراء في خور
رأيتهم في سجود لا اتجاه له ... وماله في وجوه القوم من أثر
مهلا فقرطبة الحمراء ما برحت ... تلوح بين دخان الغرب بالشرر
حماسة الشعر هذا من شبيبتها ... تفوح رغم حروب الكفر والأشر
جناح جبريل، ص434.

(4) قد كان هذا الكون قبل وجودنا ... روضا وأزهارا بغير شميم =

لم يذكر أحد قبل المسلمين اسم الجلالة ولم يكن أحد يدعو قبلهم الواحد القهار. فقد انغمس الناس من قبل في عبادة الأصنام، وتقديم القرابين. عبدوا الكواكب والنجوم جهلاً، دون الاستفادة بنورها في المسير. لم يعلن أحد من قبل التوحيد وهدي الشعوب. قدم المسلمون للسيوف صدورهم دون خوف من أي غاشم جبار[1].

ثم خنى الدهر على الأمة. وجرّب عليها كل الشدائد. وحاول طوفان الباطل إغراق سفينتها[2]. والتاريخ شاهد على عظمة الأمة الماضية بالرغم من مآسي الحاضر: حدائق الأندلس وموسيقاها وأغانيها وموشحاتها، أشعار دجلة وأدباؤه وفلاسفته، شريعة الحجاز ومدارس فقهه ورأيه، ونشأة الإسلام، وإمارة النبي للركب[3]. إن اسم الرسول ما زال يبعث الأمل في نهضة جديدة. تلك نبوءة

= والورد في الأكمام مجهول الشذا — لا يُرتجى ورد بغير نسيم
بل كانت الأيام قبل وجودنا — ليلا لظالمها وللمظلوم
لما أطل «محمد» زكت الربى — واخضر في البستان كل هشيم
وأذاعت الفردوس مكنون الشذا — فإذا الورى في نضرة ونعيم

صلصلة الجرس، ص93.

(1) من كان يهتف باسم ذاتك قبلنا — من كان يدعو الواحد القهارا؟
عبدوا تماثيل الصخور وقدسوا — من دونك الأحجار والأشجارا
عبدوا الكواكب والنجوم جهالة — لم يبلغوا من هديها أنوارا
هل أعلن التوحيد داع قبلنا — وهدى الشعوب إليك والأنظارا؟
كنا نقدّم للسيوف صدورنا — لم نخش يوما غاشما جبارا

السابق، ص94.

(2) يا دهر لقد جرّبت على — نيران الشدة عزمتنا
طوفان الباطل لم يغرق — في الخوف سفينة قوتنا
يا ظل حدائق أندلس — أنسيت مغاني عشرتنا؟
وعلى أغصانك أوكار — عمرت بطلائع نشأتنا

السابق، ص91.

(3) يا دجلة هل سجلت على — شطيك مآثر عزتنا
أمواجك تروي للدنيا — وتعيد جواهر سيرتنا
يا أرض النور من الحرمين، ويا ميلاد شريعتنا
روض الإسلام ودوحته — في أرضك رواها دمُنا
ومحمد كان أمير الركب، يقود الفوز لنصرتنا

السابق، ص91.

المصلحين لإعادة المجد الأول وبعث الأمة[1].

كان لليونان فلسفة، وللرومان مدرسة، وللساسانيين ملك. ولم يمنع العلم أو الحكمة أو القوة أو المال من انهيار المجتمعات. وفي كل أرض سامري ماكر، يقوم بدور الشيطان لليهود. كانت الحكمة الأولى وثنية في الصين والهند وطوران. ثم جاء الوحي الإسلامي. فأوضح نهج الهدى ومعالم الإيمان[2].

حمل المسلمون الرسالة، وأوفوا الأمانة، ورفعوا السيوف لرفع رسالة التوحيد فوق هامات النجوم. ساروا فوق الجبال، وعبروا البحار. ووصل الأذان إلى معابد الإفرنج قبل وصول الفاتحين سلما. فتحت البلدان. وانتشر الإسلام في صحراء أفريقيا. وأقيمت فيها شعائر الإسلام في عز حرارتها. واحتموا بظلال السيوف حديقة خضراء. تنبت الأزهار في كل مكان[3].

لم يخش المسلمون طاغوتاً يحاربهم حتى ولو نصب شراك الموت حولهم. ودعوا إلى التوحيد جهاراً وإلى خالق الأكوان ومقدر الأقدار. وحملوا رؤوسهم فوق أكفهم مفازة وثوابا. هدموا الأصنام من ذهب، معابدها وعابديها. ولو كان غيرهم لحولها إلى كنوز وحلي. وصك منها النقود[4].

---

(1) إن اســم مــحــمــد الــهــادي روح الآمــال لــنــهــضــتــنــا
دوّت أنــشــودة إقــبــال جــرســا يــحــدو فــيــه الــزمــنــا
لــيــعــيــد قــوافــلــنــا الأولــى فــي الــمــجــد ويــبــعــث أمــتــنــا
السابق، ص91 ـ 92.

(2) قد كان في اليونان فلسفة، وفي الرو مان مدرسة، وكان الملك في ساسان
لــم تــغــن عــنــهــم قــوة أو ثــروة في المال أو في العلم والعرفان
وبــكــل أرض ســامــري مــاكــر يكفي اليهود مؤونة الشيطان
والحكمة الأولى جرت وثنية في الصين أو في الهند أو طوران
غني الذين بنور وحيك أوضحوا نهج الهدي ومعالم الإيمان
السابق، ص94.

(3) من ذا الذي رفع السيوف ليرفع اسـ ـمك فوق هامات النجوم مسارا
كنا جبالا في الجبال وربما سرنا على موج البحار بحارا
بمعابد الإفرج كان أذاننا قبل الكتائب يفتح الأمصارا
لم تنس أفريقيا ولا صحراؤنا سجداتنا والأرض تقذف نارا
وكأن ظل السيف ظل حديقة خضراء تبعث حولنا الأزهارا
السابق، ص94.

(4) لــم نــخــش طــاغــوتــا يــحــاربــنــا لــو نــصــب الــمــنــايــا حــولــنــا أســوارا =

واستمروا في زلزلة الصخور دون وهن في العزيمة أو ضعف في الإيمان. ولو فزعت الأسود في عرينها فإن ثبات المسلمين في الميدان قائم. يتلقون بنيران المدافع في الصدور ريحاً وريحاناً. حولوا التوحيد إلى نور عبر الأزمان. وأصبحت صدورهم مصاحفَ في الكون. يقرآون القرآن على صفحاته[1].

المسلمون وحدهم هم الذين هدموا التماثيل التي كان يعبدها الجهال. هم الذين أسقطوا الصور في المعابد، حماية للتوحيد ولخالق الوجود ومصدره. هم الذين حملوا باب المدينة بسواعدهم يوم غزوة خيبر. هم الذين أطفأوا نار المجوس. وأظهروا وجه الحق. بذلوا حياتهم رخيصة في سبيل مرضاة الله الذي اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم. ورضي المسلمون البيع عن طيب خاطر[2]. هم الذين أيقظوا بصوت الأذان النيام. هم الذين يدعون إلى الصلاة ويحرثون الأرض بدمائهم. أخذوا الحجاز قبلة لهم حيث هبط الوحي لآخر مرة. واستمر على ذلك سلاطين المسلمين وغزاتهم مثل محمود الغزنوي وإياز مولاه. فلا فرق بين سيد وعبد في الخشوع أمام الواحد القهار[3].

= ندعو جهارا لا إله سوى الذي ... صنع الوجود وقدر الأقدارا
ورؤوسنا يارب فوق أكفنا ... نرجو ثوابك مغنما وجوارا
كنا نرى الأصنام من ذهب ... فنهدمها ونهدم فوقها الكفارا
لو كان غير المسلمين لحازها ... كنزا وصاغ الحلي والدينارا
السابق، ص94 ـ 95.

(1) كم زلزل الصخر الأشم فما وهى ... من بأسنا عزم ولا إيمان
لو أن آساد العرين تفزعت ... لم يلق غير ثباتنا الميدان
وكأن نيران المدافع في صدو ... ر المؤمنين الروح والريحان
توحيدك الأعلى جعلنا نقشه ... نورا يضيء بصبحه الأزمان
فغدت صدور المؤمنين مصاحفا ... في الكون مسطورا بها القرآن
السابق، ص95.

(2) من غيرنا هدم التماثيل التي ... كانت تقدمها جهالات الورى؟
حتى هوت صور المعابد سُجدا ... لجلال من خلق الوجود وصوّرا
ومن الأُلى حملوا بعزم أكفهم ... باب المدينة يوم غزوة خيبرا؟
أمّن رمى نار المجوس فاطفئت ... وأبان وجه الحق أبلج نيّرا؟
ومن الذي بذل الحياة رخيصة ... ورأى رضاك أعز شيئ فاشترى؟
السابق، ص95.

(3) نحن الذين استيقظت بأذانهم ... دنيا الخليقة من تهاويل الكرى
نحن الذين إذا دُعوا لصلاتهم ... والحربُ تسقي الأرض جاما أخضرا =

وصلت خيول المسلمين نهاية الأرض. وامتدت رمال الصحراء إلى البحار. رفع الهلال في محافل الأكوان علامة على النصر. ورفعت الرايات في كل موقعة معلنة النصر للتوحيد وحرية الناس بعد أن كانوا عبيداً باسم الدين أو الإقطاع[1].

لم يعرف البيت العتيق سجوداً إلا من جباه المسلمين. ولم يكتب مصحف على القلوب كما كتب وحفظ في صدور المسلمين. وهذا دليل على الوفاء الصادق، والشعور بالواجب والإحساس بالأمانة. لقد امتلأت الأرض بألوان البشر من جناة وعصاة وملاحدة وعتاة ومغرورين. يجرفهم غيث السحاب. وخص المسلمين بصواعق تدميرهم[2].

ثم عادت الأصنام بعد موت. وبعثت من جديد. واستيقظت من قبل نفخ الصور. وتوارى أهل الكعبة وأصبحوا موتى دون نشور. وضل حداة قوافل الصحراء طريقها. وتحولت مضارب القوافل ومنازل القبائل إلى ظلال قبور. لم يعد في الأمة من يقدم عملاً صداقاً لحور العين. في حين أصبح الكفار في نعيم ومواكب وقصور. يملكون الدنيا. ويتقدمون بالعالم. يتعلم الآخرون منهم كما كانوا يتعلمون سابقاً من المسلمين[3].

= جعلوا الوجوه إلى الحجاز وكبّروا ... في مسمع الروح الأمين فكبّرا
محمود مثل إياز، قام كلاهما ... لك بالخشوع مصليا مستغفرا
والعبد والمولى على قدم التقى ... سجدا لوجهك خاشعين على الثرى
السابق، ص95 ـ 96.

(1) بَلغتْ نهاية كل أرض خيلُنا ... وكأن أبحرها رمال البيد
في محفل الأكوان كان هلالنا ... بالنصر أو فتح من هلال العيد
في كل موقعة رفعنا راية ... للمجد تُعلن آية التوحيد
أمم البرايا لم تكن من قبلنا ... إلا عبيدا في أسار عبيد
بلغت الأجيال حرياتها ... من بعد أصفاد وذل قيود
السابق، ص96.

(2) رحماك رب، هل بغير جباهنا ... عُرف السجود ببيتك المعمور؟
كانت شغاف قلوبنا لك مصحفا ... يحوي جلال كتابك المسطور
إن لم يكن هذا وفاء صادقا ... فالخلق في الدنيا بغير شعور
ملأ الشعوب جناتها وعصاتها ... من ملحد عاث ومن مغرور
فإذا السحاب جرى سقاهم عيشه ... واختصّنا بصواعق التدمير
السابق، ص96.

(3) قد هبّت الأصنام من بعد البلى ... واستيقظت من قبل نفخ الصور =

حكمة الإله ومشيئته في كل أنحاء البرية. لم تجارها مذاهبها السياسية. تستطيع تحويل الصحارى إلى أنهر، والأنهار إلى أمواج سراب. وقد ابتلي الإسلام في أبنائه، فأصبحوا في محنة وعذاب. تحول ثراؤهم إلى فقر. ونُهبت دولة مجدهم من الثعالب والذئاب. وكان هذا عقاباً عادلاً للمسلمين كما ينتظر أعداؤهم يوم العقاب[1].

عاش أعداء الأمة ومحتلوها بثروات الأمة فاغتنوا. وافتقرت الأمة. وعاشت بين الذل والإملاق. والدين لا يحيا إلا في أمة حية. والكأس لا يبقى بدون الساقي. لقد غاب الذين تفانوا في حب الله والإسلام والوطن. وسكبوا الدموع وتوضؤوا بها. وصدر عنهم الأنين بعد أن كانت الشمس تسطع من الوجوه[2]. وطُويت الأيام الأولى التي نشر فيها الهدى. وهجرت الديار فغابت الهداية والاقتداء بعد أن كانت الـ... هي المرشد، والتوحيد هو الهادي[3].

= والكعبة العليا توارى أهلها ... فكأنهم موتى لغير نشور
وقوافل الصحراء ضل حداتُها ... وغدت منازلها ظلال قبور
أنا ما حسدت الكافرين وقد غدوا ... في أنعُم ومواكب وقصور
بل محنتي ألا أرى في أمتي ... عملا تقدمه صداق الحور
السابق، ص96 ـ 97.

(1) ولك البرية حكمة ومشيئة ... أعيت مذاهبها أولي الألباب
إن شئت أجريت الصحاري أنهارا ... أو شئت فالأنهار موج سراب
فإذا دُهي الإسلام في أبنائه ... حتى انطوُوا في محنة وعذاب
فثراؤهم فقر ودولة مجدهم ... في الأرض نهب ثعالب وذئاب
عاقبتنا عدلا فهب لعدونا ... عن ذنبه في الدهر يوم عقاب
السابق، ص97.

(2) عاشوا بثروتنا وعشنا دونهم ... للموت بين الذل والإملاق
الدين يحيا في سعادة أهله ... والكأس لا تبقى بغير الساقي
أين الذين بنار حبك أرسلوا الـ ... أنوار بين محافل العشاق؟
سكبوا الليالي في أنين دموعهم ... وتوضؤوا بمدامع الأشواق
والشمس كانت من ضياء وجوههم ... تُهدي الصباح طلائع الإشراق
السابق، ص97.

(3) كيف انطوت أيامهم وهم الأُلى ... نشروا الهدى وعلوا مكان الفرق؟
هجروا الديار فأين أزمع ركبهم ... من يهتدي للقوم أو من يقتدي؟
يا قلب حسبك لم تُلمَّ بطيفهم ... إلا على مصباح وجه محمد
فازوا من الدنيا بمجد خالد ... ولهم خلود الفوز يوم الموعد =

ومع ذلك، مازال المسلمون باقين على العهد طالما أن قيس ما زال متيماً بليلى. طالما أن المها مازالت ترعى في مراعي نجد والظباء ملأ الجبال. طالما أن العشق مازال فياضاً فأمة محمد مازالت قادرة على تسيير التاريخ، والتأثير فيه. ولو أنها حاولت العثور على مكانة في السماء لاستطاعت أن تقيل إلى شمس الضحى، وهي مازالت بعيدة في الأفق. وهي مازالت تتحجج بالحظ العاثر والأيام غير المواتية[1].

لقد هجر الحبيب. ورمي الأحبة بالنوى وانحسار الآمال. وربما ملّوا العشق، واستكانوا إلى الهوى والضلال. ربما صنعوا الأصنام وباعوها مع أن الموحّد لا يذل لمال. وما زال تاريخه موصولاً منذ أيام سليمان، وتقوى أويس القرني، وأذان بلال[2].

كان عهداً طيباً عندما حملت الأمة الأمانة. وانبثق منها نور الحق. وتجمع حولها العشاق، راحاً بغير دنان. وتولدت في القلوب نار الإيمان. ثم تغير الزمان وكأن القلوب لم تعرف نار الهوي أو دخانه. إن لم يعد نور الرسالة فليس أمام القلب إلا الانطواء، حزيناً كسيراً[3].

= يا رب ألهمنا الرشاد فمن لنا ... في الكون غيرك من ولي مرشد

السابق، ص97 ـ 98.

(1) مازال قيس والغرام كعهده ... وربوع ليلى في ربيع جمالها
وهضاب نجد من مراعيها المها ... وظباؤها الخفرات ملأ جبالها
والعشق فياض وأمة أحمد ... يتحفز التاريخ لاستقبالها
لو حاولت فوق السماء مكانة ... رفت على شمس الضحى بهلالها
ما بالها تلقى الجدود عواثرا ... وتصدها الأيام عن آمالها؟

السابق، ص98.

(2) هجرُ الحبيب رمى الأحبة بالنوى ... وأصابهم بتصرم الآمال
لو قد مللنا العشق كان سبيلنا ... أو نستكين إلى هوى وضلال
أو نصنع الأصنام ثم نبيعها ... حاشا الموحِّد أن يذلَّ لمال
أيام سلمان بنا موصولة ... وتُقى أويس في آذان بلال

السابق، ص98.

(3) يا طيب عهد كنت فيه منارنا ... فبعثتَ نور الحق من فاران
وأسَرتَ فيه العاشقين بلَمْحة ... وسقيتهم راحا بغير دنان
أحرقْت فيه قلوبهم بتو ... قد الإيمان لا بتلهب النيران
لم نبق نحن ولا القلوب كأنها ... لم تخظ من نار الهوى بدُخان =

ما أفرح الأيام عندما يعود الروض متجلياً وارف الأغصان. ويعود المحفل مضيئاً. ومن المحزن أن يعيش الأعداء بين الطلا والظل والألحان. ينعمون بالدنيا التي سُلبت من الأمة بعد أن تركوا أمور الآخرة إليها. يعيش الأعداء في البساتين وأنفاس الأمة تصطلي بنيران الهجير. ويدعو إقبال بالإشراق بالنور وبعث البرق لينير فراش الأمة المظلم[(1)].

إقبال غيور على شعره. يطالب الناس بالنهوض إذا كانت لهم بصيرة. مجاله الذات كجوهر لمشاعره النبيلة كسيف باتر[(2)]. ويشبه الشاعر نفسه بالخليل محطم الأصنام والذي قذفه نمرود في النار جزاء على فعلته. وكان الخليل في نعيم فيها، في برد وسلام[(3)].

إقبال من كفار الهند فهو من أسرة برهمية. اعتنقت أسرته الإسلام منذ مائتي عام. ومع ذلك لا يجحد فن المسلمين. حماسه من لحنه، وصلاته على شفتيه، ابتهالاً لتورد الخدين. فتنته تثير خيال الشاعر. يعبر عن نور التوحيد وحياة القلب. لا تخمد نوره رياح الدنيا. يشع جمالاً وجلالاً. حماس بالضحى ووجد بالمساء. وما خفي في الغد أعظم. يبعث على المسرة والمحبة والتواضع والود. كلماته عذبة. روحه خفيفة. قلبه رفيق. يقظ لا ينام. حبه أبدي. وحربه نقية. وعرضه مصون.

= إن لم يُنر وجه الحبيب بوصله ... فمكان حُزن القلب كل مكان

السابق، ص98.

(1) يا فرحة الأيام حين نرى بها ... روض التجلّي وارف الأغصان

ويعود محفلنا بحسنك مسفراً ... كالصبح في إشراقه الفينان

قد هاج حزني أن أرى أعداءنا ... بين الطلا والظل والألحان

ونعالج الأنفاس نحن ونصطلي ... في الفقر حين القومُ في بستان

أشرق بنورك وابعث البرق القديم بومضة لفراشك الظمآن

السابق، ص98 - 99.

(2) أنا على شعري شديد الغيرة ... فقم إذا كنت بلا بصيرة

أنا مجالي الذات في مشاعري ... نبيلة كحد سيف باتر

جناح جبريل، ص455.

(3) أنا خليل هذه الأصنام ... وعُدَّتي معرفة الأيام

في النار ألقوني كإبراهيم ... فكنت في النيران في نعيم

السابق، ص454.

تعضده يد «الله»، وتحفظه من غوائل الزمن، وتقلبات الدهر[1].

العالم كله قصر خلافته، وسماء العالم معبده. رؤيته سر الكونين، وهو متجرد عنهما. سراب العصر بنور الدين يبدده نور الحب. هو أول سر في الدنيا ومقصد الكون شغل العالم بالجمال القديم المتجدد. أعمدته كنخيل الشام. وزرقة قبته تتألق في ظلمة الليل. يتنهد في وحدته كالطيور. منائرها صداحة كما صدح صوت جبريل لمحمد أول مرة. ويشهد على ذلك إبراهيم وموسى[2].

4 ـ الحنين إلى الماضي

يبدو الحل حنيناً إلى الماضي واسترجاع الذكريات وإثارة الأشجار. فلا يصلح هذه الأمة إلا ما صلح به أولها. هذا القصر أي السجن الذي يعيش فيه المسلمون

(1) أنا من كفار الهند وفي نظراتي ما لا تجحده
وحماسة أغنيتي هذي من لحن قلبك ينشده
وصلاة الحب على شفتي وعلى خديك توردُه
الفتنة وجهك يوقدها وأنا أشرح ما توقده
توحيد الله لنا نور وحياة القلب توحّده
يحكيك جمالا وجلالا رجل لله تعبده
وحماس ضحاه ووجد مساه وما يخفيه له غده
ومسرته ومحبته وتواضعه وتودده
عذب الكلمات خفيف الروح رقيق القلب مسهده
أبدي الحب نقي الحرب مصون العرض مهنده
وعلى يده لله يد بلطيف القدرة تعضُده
السابق، ص479.

(2) العالم قصر خلافته وسماء العالم معبده
سر الكونين بنظرته وعن الكونين تجرده
وسراب العصر بنور الدين ونار الحب يبدده
هو أول سر في الدنيا ورجاء الكون ومقصده
هو مثلك شاغل عالمه بقديم الحسن يجدده
كنخيل الشام وأعمدها شمخت في المسجد أعمده
تتألق زرقة قبته وتقيم الليل وتقعده
وتنهدها في وحدتها كالطور كواه تنهده
بعثت جبريل منائرها بجمال أنت محمده
نادى إبراهيم وموسى لشهود هذا مشهده
السابق، ص479 ـ 480.

لا يصلح لهم. يكرهون لونه. أما قصر الماضي فهو العش والغصن الذي يطوي الكون. هو الذي أطلق من الصدر صراخ الفجر. هو الذي فجّر من التوحيد نارا. أنفاسه به تغني. وغناؤه ذو شجون وحماس وندوب وجروح، شكوى وجواب شكوى، أنين وحنين. التوحيد غايته وأمله ومطلبه الوحيد. هذا هو نصيب الإنسان دون غيره. عندما يقترب الإنسان من غايته تصبح الصحراء بحراً. وإن ابتعد يصبح البستان صحرا[1].

القصد من هذا الحنين إلى الماضي ثورة على الحاضر. فالحياة دون ثورة موت. والفكر دون غلبة انهزام. وبداية الفكر الحر مواجهته للأخطار. والشعب الواثق الخطوات سيف في يد المسلم ليعيد سيرة الآثار. وتستمر في الألحان[2]. إن لم تثر الآثار الحنين في النفس تكون معابة. وإن لم تستمر الأنغام القديمة أضحك الرقص.

الحل هو العودة إلى التراث القديم، شعر الرومي ووحي جبريل. فالشعر والوحي صنوان. ينبعان من نفس المصدر. لذلك حمل العرب الرسالة. وبلغوا الأمانة. ليس الفلاسفة الذين دفنوا رؤوسهم تحت ركام أفكارهم. بل هي رسالة

(1) أيكون هذا القصر عُشي وأنا أكره لونه؟
أنت ذاك العش والغصن الذي يستر كونه
أنت من أطلقت من صدري صراخ الفجر بعثا
بك أنفاسي تغني لك تغدو وتروح
ذاك شجو وحماس وندوب وجروح
أملي أنت وشغلي طلبي أنت الوحيد
وأنا هذا نصيبي غير هذا لا أريد
عندما تخطر قربي تصبح الصحراء بحرا
وإذا لم تك في البستان فالبستان صحرا
السابق، ص476.

(2) حياة ليس فيها ثورة موت لطالبها
وهل لحياتنا فكر يكون لغير غالبها؟
وبدا الفكر بدء تأهب الأحرار للخطر
وشعب واثق الخطوات سيف في يد القدر
إذا الآثار جوهرنا أبته عابها النقص
وإن لم تأخذ الأنغام عنا أضحك الرقص
السابق، ص481.

موسى الكليم وضربه الحجر بعصاه لتتفجر منه المياه. وهو الذي أمر بعدم الخوف عندما رأى النار في الأجمة[1].

يحن الشاعر إلى الأمجاد الماضية وإلى الأسلاف ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾[2]. لقد أخمد سراج الكعبة. وبعد أن انتصرت الأمة على الفرس والروم، انبهر فتيان اليوم بهم[3]. في الكتاب آيات محكمات، والعالم ما زال في حجاب. ولم يرفع النقاب عن الجبين. ولم يُكشف عن الفؤاد. والعالم فيه الدبيب للموت، والشعوب نائمة. خمدت نار الغلاب في التتار، وسُلمّ الكتاب[4].

وتجيب السماء بأنها وهبت المسلمين عطايا، سحباً سائرة، دون أن يطلبها أحد. الطريق مملوء بالزهور والأنوار، ولكن لم يسلكه أحد. لم تعكس الجواهر ضياء الوحي والنور المبين. في حين أن تراب آدم كان شيئاً آخر بالرغم من أن أصله ماء وطين. ولو صدقوا أنه لا توجد أنهار في الأرض لفجرت السماء لهم عيوناً[5]. وخضعت الثريا

(1) أنا لم أر السر لو لم أنل ... طريقة رومي وأحواله
ومن بدء تلمذتي قال لي ... وما زلت أحفظ ما قاله
رأيت فلاسفة بالألوف ... رؤوسهم تحت أطمارها
وذو الوحي يرفع من رأسه ... ويكشف أوهام أفكارها
إذا خضت معركة فلتكن ... كموسى بخطواته الضاربة
فمن لا تخف شعلة لم تزل ... تصاعد في الأجمة اللاهبة

السابق، ص437.

(2) فما الناس بالناس الذي عهدتهم ... ولا الدار بالدار التي كنت أعرف

جاويد نامه، ص179.

(3) صدرنا نار تلظت من محمد ... فسراج الكعبة الوضاء أخمد
وبهُلك الروم أو كسرى تغنى ... سلَب الفتيان طرا من يدينا

السابق، ص181.

(4) محكمات لي أبنتَ في الكتاب ... عالم مازال يطوى في الحجاب
النقاب عن جبين ما رفع ... ولماذا من فؤاد ما طلع
ولدينا عالم فيه الدبيب ... للبلى، والنوم فيه للشعوب
في التتار خمدت نار الغلاب ... ألمنْ أسْلم موت والكتاب؟

السابق، ص510.

(5) عطايانا سحائب مرسلات ... ولكن ما وجدنا السائلينا
وكل طريقنا نوْر ونور ... ولكن ما رأينا السالكينا
=

لملكهم. وأصبحت النجوم لهم حصون. والعيب أنهم ألحدوا في الدين الذي بنى ملكهم في الشمس. وأهملوا ما تركه الرسول وراءه. عاشوا مهملين. وحادوا عن الطريق الأول، هدم الأصنام. بل وصنعوا أصناماً جديدة. أبوهم إبراهيم، ولكن خرج منهم أمثال آزر أبناء لهم[1]. كان في الأسلاف مزايا يذكرها كل الناس. وتنشدها كل الأقوام. تفوح الصحراء بعطرها. وتبتسم الورود لريها. فهل بقت هذه المحاسن في الأبناء والأحفاد؟ فنوا في الخالق وخلدوا فيه. ونهل السلف من كوثر الرسول. وهو الآن بعيد عن الخلف[2].

يقظة الفاروق (عمر) ويقظة المرتضى (علي) نموذج ليقظة المسلم الحالي، وليس حجر الفلاسفة الذي يحيل التراب إلى ذهب وهما. يقظة المسلم الحالي تمنع من ضياع العمر، وحجاب القلب. وعصى الكليم نموذج آخر، تفجر من الأرض ماء. وعلى هذا النحو لن يضل مسلم في الصحراء. ولن يصطاد التتري الغزال[3]. الحل هو ثبات

= ولم نحد الجواهر قابلات ... ضياء الوحي والنور المبينا
وكان تراب آدم غير هذا ... وإن يك أصله ماء وطينا
ولو صدقوا وما في الأرض نهر ... لأجرينا السماء لهم عيونا

صلصلة الجرس، ص102.

(1) وأخضعنا لملكهم الثريا ... وشيدنا النجوم لهم حصونا
ولكن الحدوا في خير دين ... بنى في الشمس ملك الأولينا
تراث محمد قد أهملوه ... فعاشوا في الخلائق مهملينا
تولى هادموا الأصنام قدما ... فعادلها أولئك يصنعونا
أباهم كان إبراهيم لكن ... أرى أمثال آزر في البنينا

السابق، ص102.

(2) وفي أسلافكم كانت مزايا ... بكل فهم لذكراها نشيد
تضوع شقائق الصحراء عطرا ... بريّاها وتبتسم الورود
فهل بقيت محاسنهم لديكم ... فيجعل في دلالكم الصُّدود
لقد هاموا بخالقهم فناء ... فلم يكتب لغيرهم الخلود
وكوثر أحمد منكم قريب ... ولكن شوقكم عنده بعيد

السابق، ص103.

(3) يقظ كما الفاروق يقظةُ قلبه ... يقظ كمثل المرتضى في حربه
حجر الفلاسفة المجرَّب مثلهُ ... يستخرج الذهب الدفين بتربه
أيقظ فؤادك إن عمرك ضائع ... مادام قلبك غارقا في حجبه
أنا، لا عصاي ولا عصاك تفيده ... إن لم يذق ذوق الكليم بضربه
ستكون في الصحراء أحمق باحث ... إن كان لم يصحبك مرهف شمكا
وغزالنا التتري لست تصيده ... مهما نصبت له حبالة وهمكا

جناح جبريل، ص434 ـ 435.

إسماعيل، مقتل الحسين، الرضا والمقاومة، الطاعة والثورة[1].

5 ـ الحنين إلى الأوطان

الحنين إلى الماضي نوع من الرثائيات، والبكاء على الأطلال كما هو الحال في الشعر القديم. يبدأ من التراث الماضي إلى العصر الحاضر. وأحياناً يقلد إقبال الشعر العربي القديم مثل قصيدة «النخلة الأولى». فالمقطع الأول منها ترجمة لقصيدة عبد الرحمن الأول في «نفح الطيب» وكما رواها المقريزي. وقد غرست النخلة في مدينة الزهراء[2].

أ. مكة والحجاز: تتطلع أشواق الأمة أولاً إلى الحجاز. تحنّ إليه كحنين المغترب إلى الأوطان. والطيور إذا قصت أجنحتها طارت بحكم الفطرة. وقيثارة إقبال مكبوتة. ملت من صمتها وكتمان صوتها. والأوتار ترجو عازفاً يبوح بأسراره ومعانيها. والطور يرتقب التجلي بهوى الشوق ولهفة الحيران[3].

احترقت الأكباد بأنات الجوى، والدماء أنهار الدموع القانية. وفاض العطر من الخمائل والربى وكأنه شكوى بغير لسان. ومن أهوال القيامة أن ينم الزهر على البستان. ولا يخشى النمل جنود سليمان إذا حرسته عناية الرحمن. وبراهمة الهند في حاجة إلى من يرشدهم لرفع الإسلام فوق هياكل الأوثان[4].

---

(1) حكاية ليس لها نظير ... بسيطة لكنها تشير
ثبات إسماعيل مبتداها ... ومقتل الحسين منتهاها
السابق، ص455.

(2) السابق، ص483.

(3) أشواقنا نحو الحجاز تطلّعت ... كحنين مُغترب إلى الأوطان
إن الطيور وإن قَصَصْت جناحها ... تسمو بفطرتها إلى الطيران
قيثارتي مكبوتة ونشيدها ... قد مل من صمت ومن كتمان
واللحن في الأوتار يرجو عازفا ... ليبوح من أسراره بمعان
والطير يرتقب التجلي صارخا ... بهوى المشُوق ولهفة الحيران
صلصلة الجرس، ص99.

(4) أكبادنا احترقت بأنات الجوى ... ودماؤنا نهر الدموع القاني
والعطر فاض من الخمائل والربا ... وكأنه شكوى بغير لسان
أو ليس من هول القيامة أن يكو ... ن الزهر غماما على البستان؟
النحل لا يخشى سليمانا إذا ... حرست قراه عناية الرحمن
=

ب ـ قرطبة والأندلس: الحنين الثاني إلى مسجد قرطبة والأندلس. وتبدأ قصيدة الحنين إلى مسجد قرطبة بالشكوى من أن صرخته تفضح أمره. وهي الصرخة التي طواها القلب طيلة العمر. ويطمئن إلى أن صحبة الأطهار نور، وأن رضا الله نور. يمكن أن يتذكر وعثاء السفر. ويتوضأ ليصلي من دم القلب الكسير. ويسير في الطريق مع الآخرين، ولكن رجاءه لا يشاركه فيه أحد[1].

يعني مسجد قرطبة، الإسلام وسط الغرب، بعد أن حاول الغرب وضع نفسه وسط الإسلام ببناء كنيسة وسطه، عكرت جمال غابة النخيل من الأعمدة داخل المسجد. هو قصر التاريخ ومسجده من صنع فنانين موهوبين. يقص حكايته للناس. مازال صوته يرن في النفوس، ومازال الأذان في الآذان. المسلمون ظمأى، ولم يرتوا منه بعد. ويزداد الظمأ برويته. كلما قام الظمآن بعد ريه قعد. زينته يخفق لها القلب. صنع المسلمون من الصخر فنوناً بأفعال القلوب. يهيج الذكريات. فتقابل أنات الروح[2]. المسجد لا ند له في عظمته إلا الإيمان وعمقه. جمع بين عروبة اللحن، وحجازية الروح، ويمنية العطر، وشامية الباسقات. ظباء تلعب بسهام

= أرشد براهمة الهنود ليرفعوا الإسلام فوق هياكل الأوثان
السابق، ص99.

(1) إن هذي الصرخة اليوم التي تفضح أمري
صرخة القلب التي خبّأتها طيلة عمري
صحبة الأطهار نور ورضا الله صبور
وشقيق الروض كاسات على النهر تدور
هاهنا يمكن أن أذكر وعثاء المسير
ووضوئي لصلاتي من دم القلب الكسير
مع من عيشي الذي يمشي على هذا الطريق
وأنا إلا رجائي ليس لي فيه رفيق

(2) قصر التاريخ ومسجده، ما أروع ما صنعت يده
للقوم بصدر حكايته صوت مازال يردده
ظمأ لا ري له، وبه طلبُ الظمآن ومقصده
يزداد برؤيته ولها ويريد يقوم فيقعده
في الصخر فنون سرائرنا بلطائفنا نتعهده
ليهيج رنين جوانبه بأنين الروح نزوده
السابق، ص99.

الحب كما يلهو العرب بها[1].

أصبح الآن المسجد في الغرب جزءاً من تاريخ، لا يستطيع أحد جحده. وأصبحت الأندلس زينة الغرب، بل حرماً يفخر به الغرب ويعظمه[2]. من روحه خرج الإصلاح الديني في ألمانيا. فبدد الأسرار ولم يتبرك لها كما نتبرك بالبيت العتيق. وانهارت سلطة الباب العجوز وعصمته. وأيقظ الفكر قاضياً على الأوهام المسبقة معتزاً بأنه ترك المعارف السابقة حتى يتيقن من صحتها[3]. من ثناياه خرجت الثورة الفرنسية ناقدة للنظم الفكرية والسياسية القديمة، وأربكت كل شيئ. وانقلب الشيئ إلى نقيضه[4]. أما روما فقد شاخت على العهد القديم. تحتسي خمراً جديداً مع البابا كنديم[5]. ولو كشف المسلم أستاره وأسفر عن أفكاره لكلِّ الغرب بحملها[6]. إن الأندلس التي بها مسجد قرطبة سماء للعيون. لم يسمع الأذان فيها

(1) لا نـــد لـــه فـــي ســـؤدده إلا الإيـــمـــان وســـؤدده
عـــربـــي الـــلـــحـــن، حـــجـــازي روح الإســـلام تـــخـــلـــده
يـــمـــنـــي الـــعـــطـــر، تـــهـــب بـــه أنـــســـام الـــشـــام وتـــخـــشـــده
نـــظـــرات ظـــبـــائـــك لاعـــبـــة بـــســـهـــام الـــحـــب تـــكـــبـــده
السابق، ص479.

(2) يـــا ظـــل الـــغـــرب ودوحـــتـــه مـــن ذا تـــاريـــخـــك يـــجـــحـــده
بـــك أضـــحـــت تـــربـــة أنـــدلـــس حـــرمـــا فـــي الـــغـــرب نـــمـــجـــده
السابق، ص479.

(3) هـــيـــج الألـــمـــان حـــول الـــديـــن إصـــلاحـــا عـــريـــقـــا
بـــدد الأســـرار لـــم يـــتـــرك لـــهـــا بـــيـــتـــا عـــتـــيـــقـــا
أصـــبـــحـــت مـــنـــه هـــبـــاء عـــصـــمـــة الـــبـــاب الـــعـــجـــوز
وأفـــاق الـــفـــكـــر لا يـــعـــرف شـــيـــئـــا لا يـــجـــوز
السابق، ص480.

(4) مـــنـــذ أن ثـــارت فـــرنـــســـا بـــدأ الـــغـــرب الـــعـــراكـــا
لـــم تـــعـــد تـــبـــصـــر فـــيـــه بـــعـــدهـــا إلا ارتـــبـــاكـــا
السابق، ص480.

(5) هـــي ذي رومـــا الـــتـــي شـــاخـــت عـــلـــى الـــعـــهـــد الـــقـــديـــم
تـــحـــتـــســـي خـــمـــرا جـــديـــدا مـــعـــهـــا الـــبـــابـــا نـــديـــم
السابق، ص480.

(6) ولـــو هـــتـــكـــت أســـتـــاري وأســـفـــر وجـــه أفـــكـــاري
لـــكـــلَّ الـــغـــرب أن يـــحـــمـــل مـــا غـــنـــتـــه أوتـــاري
السابق، ص481.

منذ قرون. كيف سرى موكب الحب الغضوب وفي أي درب بعد أن تاه المسلمون؟[1].

في فؤاد المسلم اليوم غليان. عندما تهيج الذكريات. وهو سر كشف عنه كل المصلحين. إقبال واحد منهم واثب في بحر الفضاء. بيده كوب يلتقط به ماء السماء. تميل سحابة الوادي فتحكي قصة الغطاس. رمتها الشمس بالياقوت. وابنة الفلاح تغني بآهاتها وأناتها. تغازل نهر قرطبة الذي مازال يزخر بالحب. يرتع الساري فوقه. فالنهر تاريخ يغني فوقه الشرق. صحيح أن عالمه الجديد مازال يحوط به القدر. ومع ذلك، حرية المسلم قادرة على التحرر منه[2].

ساعة مغادرته أسبانيا سمع صوت المنارات عبر النسيم كتوماً في الأذان. صداه يتردد في الأرواح. يطوف بمسجدها توأم الحرم الشريف الركع والسجود. مازالت أثارهم على الثرى يفرح القلب، ونضرة تتجدد. تحكي النجوم لأسنة رماحهم بطولات الماضي ليلا. وإذا غابت الخيام فإن الأوتاد مازالت حاضرة. إن

---

(1) إن أرضا أنت فيها للسماء للعيون
كيف لم يسمع أذانا أهلها منذ قرون
ليت شعري كيف أسرى موكب الحب الغضوب
ليت شعري ما يرى الآن وفي أي الدروب
السابق، ص480.

(2) في فؤاد المسلم اليوم كهذا الغليان
هو سر الله عن تبيانه كلَّ اللسان
فارقبوا من ذلك الواثب في بحر القضاء
وارقبوا الكوب الذي يختاره ماء السماء
تميل سحابة الوادي فتحكي فيه غطاسا
رمتها الشمس بالياقوت أكداسا فأكداسا
وأغنية ابنة الفلاح تطرب رغم ركَّتها
برقتها إذا غنت وآهتها وأنّتها
كأن غناءها فيض يقل سفينة القلب
تغازل نهر قرطبة الذي يذخر بالحب
هنالك يرتع الساري هنالك تصدح الورق
كأن النهر تاريخ يغني فوقه الشرق
نعم، مازال عالمه الجديد يحوطه القدر
ومثلي ليس يعجزه عن إدراكه نظر
السابق، ص480 ـ 481.

سئلت الحسناء عن حسنها يحمر الوجه خجلاً من هجرها. فقد سفكت دماء المسلمين. نشفق وهم يشفقون على أعدائهم[1]. لقد فتح صقر قريش الأندلس، ولكنه لم يستطع توحيد أمرائها. لقد سكنت الأرواح. وزال اللهيب. وغاب بريق قرطبة الخالد. ضاع النوم من الجفون. وأثخنت الأمة بالجراح. في أسبانيا وفي مشهد. في كليهما العزاء[2]. ومع ذلك، ستهتك الأسرار في سيناء. وتباح من أول مصلح يعي أنين الأمة وحنينها[3].

ولما تحالف المعتمد بن عباد ملك أشبيلية مع الفونس السادس أسره يوسف ابن تاشفين وزج به في السجن فمات فيه. صور إقبال صرخته في السجن وكيف أنه آثر العبودية على الحرية فمات مع العبيد. ترك الحر السيف من يده فتحول إلى عبد. واغتربت ذاته في الآخر فوالاه[4].

نظم إقبال في إحدى ساحات المعارك في الأندلس «دعاء طارق». يتخيل صقر قريش وقد عاد من جديد يرثي لحال المسلمين فيها. ويقارنهم بجيشه الفاتح

(1) صوت المنائر في نسيمك يرقد، وصداه في أرواحنا يتردد
يا توأم الحرم الشريف تطوفت بك ركّع من عاكفين وسجّد
بسماك من أثر السجود على الثرى طربٌ يفوح ونضرة تتجدد
تحكي النجوم أسنة لرماحهم بإزائها ليل يقوم ويقعد
ملؤوا وهادك بالخيام ولم تزل أوتادها بنسيمهم تتأود
إن تسأل الحسناء عن خنائهم فتخيب ينصفها دمي المتورد
يا طالما سفكت هناك دماؤنا ظلما ونحن المشفقون العود
السابق، ص485.

(2) ما كان صقر قريش غير موحّد عجبا أما في المسلمين موحّد؟
خمدت حقيقتنا وزال لهيبنا وبريق قرطبة الشريد مخلد
ووقفت لا نومي حمدت ولا السرّى أتكبد الجرح الذي أتكبد
عانيت مشهدهم وقلت وقيل لي سيان قول في العزاء ومشهد
السابق، ص485.

(3) ستهتك الأستار عن سينائنا وتباح أسرار لنا وتُبدد
ويكون أول من يقوم بهتكها للناس أول مصلح يتحمد
السابق، ص485.

(4) كذاك تفعل بالحر الحياةُ إذا أراد شيئا وحالت دونه الطرق
أليس عارا على الأحرار يسجنهم مع العبيد دعي جيشه الحمق
السابق، ص482.

الذي حمل عناء العالمين، وجاهدوا في سبيل الله. حملوا السر، والسيادة في طلبهم، والنور في نظراتهم، والنار في عزيمتهم. فعلوا كما فعل موسى بشق البحر بعصاه، فتراجعت المياه أمامهم. كان البحر مثل حبة خردل في كفهم. وكان العشق في أرواحهم إعصارا. عزفوا عن الدارين، فأصبحوا من علاماتها الباقية. كانت الشهادة مطمحهم مهما أثخنتهم الجراح. لم يكن سبي الغواني وسلب الغنائم مطمعاً لهم. جمعوا من كل العباد أقواماً وشعوباً تحت راية التوحيد. وحدّهم لون الدماء. ونضج البستان[1].

خرجوا من الصحراء أفذاذاً. وامتلأ صدر الصبح من آهاتهم، وأصبح الأعراب أساتذة. طلبوا النار واستعذبوا طعمها. وأوجذوها بأرواحهم بعد حل وترحال. الموت ليس النهاية، بل باب البصيرة المفتوح. أين المسلمون الذين يؤمنون كما آمن قوم نوح. فالحق ثابت مهما تغيرت الظروف. الحق لا يتغير والناس كثر بين مدرك ومعتم. الحق يقين، والناس أوهام وظنون. يتنازعون على فهم العالم، والعالم سكران بين الماضي والمستقبل[2].

جـ ـ الشام وفلسطين: المسلم غريب الآن، مع أن عدد المسلمين بالشام

---

(1) هذي الكماة عبادك الأخيار ... حملوا عناء العالمين وساروا
أصحاب سرك والسيادة طبعهم ... والنور في نظراتهم والنار
فعلت كموسى في البحار عصيهم ... وتراجعت لخطاهم الأنهار
البحر حبة خردل في كفهم ... والعشق في أرواحهم إعصار
عزفوا عن الدارين إلا أنهم ... علم على الدارين لا ينهار
نيل الشهادة للموحد مطمح ... وإذا تفحم فالجراح غبار
لا سبي غانية وسلب خزانة ... ومطامح الهمم الكبار كبار
كل العباد على اختلاف عروقهم ... ترجو رجاء شقائق النعمان
ترجو من العربي لون دمائه ... وتضج ليل نهار في البستان
السابق، ص489.

(2) رباه أنت بعثت من صحرائهم ... سكانها وجعلتهم أفذاذا
وملأت صدر الصبح من آهاتهم ... وجعلت أعرابيهم أستاذا
طوت الحياة الدهر تنشد طلبة ... عزت وطلبتها مذاق النار
وبروحهم عثرت عليها بعدما ... طلت من الترحال والتسيار
الموت ليس نهاية في عينهم ... هو للبصيرة بابها المفتوح
رباه! فابعث مسلمين أعزة ... يتوسلون كما توسل نوح
لتغيرات العصر من ثوراته ... وهم وأنت الفرد لا تتغير
=

وحدها مثل عدد حبات رمالها. كلما طاف الشاعر وجد زماناً غريباً مختلفاً عن الزمان الماضي. ومع أن هذا البحر ليس له ساحل يُرى إلا أن الشاعر امتشق الحسام. فلا حياة لمن يأنف الردى. وإذا سطع البرق زاد تألقاً، وبانت نخيل الشام. يعطي إقبال الأمل للمسلمين، بالرغم من ضياع ملكهم. فالعالم كله ملك الحاكم العادل. ويعيد المسلمون البناء لأنفسهم ولغيرهم. فالكرم لا يتحول إلى بخل. وإذا نضبت الأجساد من الدماء فما زالت المنازل مملوءة به. وتظل آثار المسلمين باقية بالرغم من انفراطهم كعبة للفضل يحج إليها الناس. وفيها صلى المسلمون، وضجت قلوبهم، وانتبذت أرواحهم سعف النخل[1].

بعد زيارة فلسطين عام 1931 للاشتراك في المؤتمر العالمي الإسلامي، نظم إقبال قصيدة «فلسطين» على نفس وزن «البردة» و«نهج البردة» ونفس مطلعها[2]. يتذكر أطلال فلسطين القديمة والمدينة قبل الاستعمار الاستيطاني وولادة الكيان الصهيوني، وكيف تحولت فلسطين إلى أشلاء من الخيم[3]. سكر القدماء هنا. فهل

= رباه! أنت هو الحقيقة كلها — والناس منها موسر أو معسر
الدهر ملك يديك ليس لأهله — إلا ظنون الواهم المتقول
يتنازعون على تفهم عالم — سكران من ماض ومن مستقبل
السابق، ص489.

(1) وأعجب ما في الكون غربة مثلنا — وفي الشام من أمثالنا عدد الرمل
وما زلت في التطواف ألقى على المدى — زمانا غريب الوجه مختلف الشكل
وليس لهذا البحر من ساحل يرى — مضيت به عريان ممتشقا نصلي
وما من حياة للذي أنف الردى — وهل يقدح الزند الشرار من الوحل
إذا شام طرفي البرق زاد تألقا — وحن بذكر الشام للأعين النجل
وما ضرنا ملك تركناه خلفنا — فكل بلاد الله ملك ذوي العدل
سنبني كما كنا بنينا لغيرنا — وحاشا لأهل الجود توصم بالبخل
إذا نضبت أجسادنا من دمائنا — فمنزلنا ريان من غدق البذل
ستذكرنا الدنيا وتندبنا الورى — وتطلب من آثارنا كعبة الفضل
يقال هنا صلت وضجت قلوبهم — هنا انتبذت أرواحها رسل النخل
السابق، ص484.

(2) نزلت برية الوادي بذي سلم — والشمس ترتع بين البان والعلم
السابق، ص499.

(3) هنا بقية أطلال، هنا لهب — يذوي، هنا بضع أشلاء من الخيم
السابق، ص500.

يقدر المحدثون على ذلك؟[1]. ينادي إقبال على غزنوي جديد غير منهزم ليقود المعارك. فلا شيئ يُرجى من لهيب العرب أو غناء الفرس. كما ينادي على حسين جديد من الحجاز أو محمود جديد من العجم[2]. أين ضاع الحب القديم وهم أهله؟ وهل للدين من قيمة بغير الحب؟ بالحب قدم إبراهيم ولده إسماعيل قربانا. وقدم الحسين رأسه على كفه. وبفضله وقعت غزوات بدر وحنين[3].

وانقطع الرهبان في فلسطين. وانزووا داخل الأديرة. فعموا عن الدين والدنيا، عن الله والعالم. لا يرضى الناس عن حاناتهم بديلاً، بالرغم من أن الساقي نفسه ظمآن. لم يعد الناس ناساً، ولا القوم قوماً، في حين ساد القدماء على الأمم. العيب على ورد بلا جذل، وعلى شوك بلا ألم. وإن لم تقم الصلاة على صدق قامت على الزور[4].

6 ـ من الماضي إلى الحاضر

يتمنى إقبال مرة أخرى جرعة كأس كي يخرج مرة من طوافه حول نفسه بعد

---

(1) هم أقاموا سكارى هاهنا زمنا   فإن رضيت بسكر هاهنا أقم
السابق، ص500.

(2) أما لمعترك الأيام من طمع   بغزنوي جديد غير منهزم
لا في لهيب تراث العرب من رصد   يرجى، ولا في غناء الفرس من نغم
هل في الحجاز حسين من بني مضر   وهل هنالك محمود من العجم؟
السابق، ص500.

(3) أما لهم من بقايا الحب باقية   وهم سلالة أهل الحب والتَّيم؟
استغفر الله هل للدين من قيم   بغير حب وهل للشعب من قيم؟
بالحب قدم إبراهيم واحده   وابن الحسين على كف الحسين رمي
فسل حنينا وبدرا عن حروبهما   كم ضرج الحب فيها من فؤاد كمي
السابق، ص500.

(4) رهباننا انقطعت عنا بأديرة   وكل منقطع في الدير عنك عمي
لا يرتضي القوم عن حاناتهم بدلا   بالرغم من أن ساقي الناشئين ظمي
حكايتي البحث عن قوم هنا عُدمت   أخبارهم وهنا سادوا على الأمم
أنا أعيب على ورد بلا جذل   كما أعيب على شوك بلا ألم
إن لم تكن نصب عيني في الصلاة فلا   قامت على الزور في محرابها قدمي
السابق، ص501 ـ 502.

إثبات ذاته إلى العالم. ماذا يفعل ومازال الذات تحت الخمار؟ كيف تقوى وتشرب؟ كيف تخرج إلى العالم؟ لقد حطم المسلمون كل الحانات في العالم وهم يبحثون عنها. ويناجي إقبال الساقي أن يحن إليه، وأن يمر على الناس بالأقداح. فالخلق لم يذق بعد طعم الفتون. أما إقبال فقد أعاد إليه جنونه وعيه وذوقه[1].

تستطيع الأمة أن تعيد إلى التوحيد نوره. يتم به اتحاد العالمين. هو عطر في الروض لا يعيش في حبس دفين. هو نسمة تحمل شذى العاملين، ولا تحمل غبار الخاملين. تستطيع أن تحول شعلة الإيمان شمساً، ومن الذرى الطائرة جبلاً ثابتاً حصيناً، وأن تكون موجاً في قمة الطوفان، وسحاباً يمطر منه الغيث[2]. باسم التوحيد تقام خيمة الفلك المنير. يتلألأ في الرياض وفي الصحاري وفوق الموج والسيل الهادر. يخرج منه نبض الكون وحرارة العالم. ويمتد أسره من المغرب إلى الصين. هذه المشكاة التي يشع منها النور هو ضمير المسلم الغيور[3]. ورفع الذكر

(1) أتمنى مرة أخرى ولو جرعة كأس
علّ أن أخرج يوماً من طوافي حول نفسي
أنا منها في خمار كيف لي أشرب منها
كل حانات الورى حطمتها في البحث عنها
أيها الساقي متى تنظر لي عين حنانك؟
ومتى الجمهور بالأقداح تروي من دنانك
خلقُك اللهم هذا لم يذق ذوق فتوني
وأنا إن لم تبدله يبدّله جنوني
السابق، ص476.

(2) أعد من مشرق التوحيد نورا — يتم به اتحاد العالمينا
وأنت العطر في روض المعالي — فكيف تعيش محتبسا دفينا
وأنت نسيمه فاحمل شذاه — ولا تحمل غبار الخاملينا
وأرسل شعلة الإيمان شمسا — وصُغ من ذرة جبلا حصينا
وكن في قمة الطوفان موجا — ومُزنا يمطر الغيث الهتونا
صلصلة الجرس، ص109.

(3) فباسم محمد شمس البرايا — أقيمت خيمة الفلك المنير
تلألأ في الرياض وفي الصحارى — وفوق الموج والسيل المغير
وتبصر الكون منه مستمد — حرارته على مر العصور
ومن مراكش يغزو صداه — ربوع الصين بالصوت الجهير
وما مشكاة هذا النور إلا — ضمير المسلم الحر الغيور
السابق، ص109.

للتوحيد رفع لقدر الموحد نحو الكمال. الإنسان عين الكون. يشهد على مقامه العالي فوق المعالي. بخنجر العزم الوثاب تلوح على الأعلام أنوار الهلال. نداؤه في العناصر أجل ردع، والعشق خير سيف للنضال[1].

التوحيد هو الاهتمام بحياة الناس. «من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم». فالله في السماء رعاية الناس على الأرض. الإيمان هو وجع في الرأس، «شوكة في البدن» كما هو الحال عند كيركجارد. لا يعرف الهناء في الصباح أو المساء، بل هو وجع في الفؤاد، وخز في الضمير[2].

والأمة قادرة على ذلك. قلبها لا يعرف اليأس. علمها الحب قوة الإرادة. تحول العسر يسرا. تقدر على الصمود أمام قيصر وكسرى. هي متعلقة بالرسالة. فلا غرو أن تسقط الأقمار في أيديها. بها خاتم الرسل. شعلة تضيء أمام الركب. أخذها من الطور أول الصف وآخر الدرب. وهو سكران من نشوة الحب. إنها رحمة القرآن أعطيت للناس، ياسين وطه[3]. مازال المسلم قادراً على النهوض من جديد.

(1) ورفع الذكر للمختار رفع — لقدرك نحو غايات الكمال
فكن إنسان عين واشهد — مقامك عاليا فوق المعالي
بخنجر عزمك الوثاب لاحت — على الأعلام أنوار الهلال
نداؤك في العناصر مستجاب — إذا دوّى بصوت من بلال
وعقلك في الخطوب أجل ردع — وعشقك خير سيف للنضال

السابق، ص109.

(2) إن تكن ربا فيعني عندنا — صرت تهتم بأرض وسماء
وجع في الرأس لا يتركه — لهناء في صباح ومساء
أستميح العذر إما إن تكن — محض إنسان على هذي الوهاد
فهو لا يعني تماما عندنا — وجعا في الرأس لكن في الفؤاد

جناح جبريل، ص418 - 419.

(3) متفاهم قلبي — لا يعرف اليأسا
الحب علمه — أن يُرغم النَّفسا
من عسر عالمه — يستخرج اليسرا
لا قيصر — يرجو ولا كسرى
متعلق أبدا — بركاب سيده
لا غرو للأقمار — يسقطن في يده
هو سيد الأشياء — هو خاتم الرسل
هو شعلة الساري — في هذه السبل
هو مركب من نور — يمشي أمام الركب

=

فما زال الوجد في قلبه. ويعترف التاريخ أن الجمال ترعرع من زرعه[1]. رجل البصيرة لا يُهان، عبداً كان أم سلطانا. يختال في الدنيا مسلحاً بالزهد، دون شكاية من أحد[2].

من المسلمين من يتقدم إلى المعالي ومن يسير على نهج الهداية والصواب. يخرج النور من جبهاتهم، ويتلى الكتاب من أخلاقهم. بنى الأوائل المجد والفن العجاب. أما مسلمو اليوم فلا يعرفون من التراث إلا الشكوى والاكتئاب. ومن يعيش يومه يائساً فإنه يعيش غده معذباً[3]. فلماذا الشكوى من قوم فازوا، والآخرون نيام؟ مشوا بهدى الأوائل، في حين أن المحدثين أضاعوا التراث الأقدمين. كيف يحرم من ورد المعالي ويسعد بالرقي الخامل؟ أليس من العدل أن يكون حصاد الأرض لزارعيها؟ تجلي النور فوق الطور مما يستدعي وجود الكليم في سيناء[4]. لقد أُرسل إلى الأمة نبي يوحدها على نهج سليم. والمصحف منار

= أعطي جنون الطور — لغبار هذا الدرب
هو أول الميدان — هو آخر الدرب
في أعين السكران — من نشوة الحب
هو رحمة القرآن — للناس أعطاها
هو سيدي ياسين — هو مالكي طه

السابق، ص424.

(1) دم المسلم النور في دربه — وموهبة السحر في قلبه
ويعترف العصر أن الجمال — صبا وترعرع في شعبه

السابق، ص429.

(2) رجل البصيرة لا يذوق هوانا — سيان عبدا كان أو سلطانا
يختال والدرع الوحيدة زهده — لا يشتكي زمناً ولا شيطانا

السابق، ص422.

(3) من المتقدمين إلى المعالي — على نهج الهداية والصواب
ومن جبهاتهم أنوار بيتي — وفي أخلاقهم يُتلي كتابي
أما كانوا جدودكم الأوالي — بناة المجد والفن العجاب
وليس لكم من الماضي تراث — سوى شكوى اللغوب والاكتئاب
ومن يك يومه في العيش يأسا — في غده سوى يوم العذاب

صلصلة الجرس، ص104.

(4) أتشكو أن ترى الأقوام فازوا — بمجد لا يراه النائمونا؟
مشوا بهدى أوائلكم وجدوا — وضيّعهم تراث الأولينا =

للأخوة، والقِبلة سبيل السلام. وفوق الجميع إله رحيم واحد رب الأنام. فلماذا ضاعت وحدتها، وتاهت الأمة في الظلام؟ وحسن اللؤلؤ المكنون مرهون بصوغ العقد وحسن النظام[1].

التاريخ الرائع للمجتمع الإسلامي في الماضي شاهد على إمكانية عودته في الحاضر. فكلما زاد التفكير في التاريخ الإسلامي أدرك الإنسان كم هو رائع. فمنذ نشأته حتى بداية القرن السادس عشر حوالي ألف عام كان هذا الجنس النشط (ويقول إقبال طالما أن الإنسان عمل كقوة جنسية خالقة) مشغولاً دائماً بالتوسع السياسي. ومع ذلك، وأثناء هذه العاصفة للنشاط المستمر وجد هذا الشعب الرائع وقتا كافيا لنقل كنوز العالم القديمة وحفظها والإضافة عليها، وإبداع أدب فريد. وقبل كل ذلك وضع نسقاً قانونياً. وهو أفضل ما خلّفه الفقهاء المسلمون[2].

= أيحزم عامل ورد المعالي ... ويسعد بالرقي الخاملونا؟
أليس من العدالة أن أرضي ... يكون حصادها للزارعينا؟
تجلّي النور فوق الطور باق ... فهل بقي الكليم بطور سينا؟
السابق، ص104.

(1) ألم يُبعث لأمتكم نبي ... يوحدكم على نهج الوئام؟
ومصحفكم وقبلتكم جميعا ... منار للإخوة والسلام
وفوق الكل رحمن رحيم ... إله واحد رب الأنام
فما نار ألفتكم تولى ... وأمسيتم حياري في الظلام
وحسن اللؤلؤ المكنون رهن ... بصوغ العقد في حُسن النظام
السابق، ص104 ـ 105.

(2) St. Ref., pp. 100 - 1.

الباب الرابع

السقوط والنهوض

الفصل الأول

أسباب السقوط

1 ـ «ضرب الكليم» و«رسالة الخلود»

أ ـ ضرب الكليم: إذا كان ديوان «أسرار النفس» هو أول ما نشر إقبال بالفارسية في 1915 فإن «ضرب الكليم» هو آخر ما نشر في حياته بالأوردية عام 1937 قبل أن يتوفي بعام. إذ نشر «أرمغان حجاز» بعد وفاته بعام.

والرمز الذي يبدو في العنوان «ضرب الكليم» هو الأهم، رمز موسى وهو يضرب بعصاه، فيتفجر الماء. مهمة الإنسان، خليفة موسى ورسالته في الحياة، تفجير الماء من الصخر، والحياة من الجماد. ويضع عنواناً جانبياً «عصا موسى» أي فعل الإنسان وقدرته على التأثير.

وبالرغم من قسمة ضرب الكليم إلى ستة أقسام متنوعة الموضوعات ومختلفة الطول إلا أن الديوان كله مكون من مقطوعات صغيرة على عكس «جاويد نامه» أي «رسالة الخلود» التي هي منظومة شعرية واحدة[1].

---

(1) الأقسام الست هي: 1 ـ الإسلام والمسلمون (40ص) 2 ـ التعليم والتربية (18 صفحة) 3 ـ المرأة (6 صفحة) 4 ـ الأدب والفنون (28 صفحة) 5 ـ سياسات المشرق والمغرب (16 ص) 6 ـ أفكار محراب جل الأفغاني (12 ص).

ومن حيث عدد المقطوعات الشعرية 1 ـ الإسلام والمسلمون (68) 2 ـ التعليم والتربية (28) 3 ـ المرأة (9) 4 ـ الأدب والفنون (43) 5 ـ سياسات المشرق والمغرب (33) 6 ـ أفكار محراب جل الأفغاني (1).

والمقطوعة من بيت إلى عشرة تقريباً، كلها حوالى 202 بيتاً تقريباً باستثناء القسم السادس =

وبالرغم من أن المترجم قد أدى دوراً جليلاً بتحقيق أمنية إقبال وهو ترجمة بعض دواوينه إلى اللغة العربية، وقيام المترجم بذلك خير قيام، وإعطائه نموذجاً لما تكون عليه رسالة السفير في البلد الذي يمثل فيه الوطن، معرفة لغته وثقافته إلا أنه خاضع لسلوك العصر، والثناء على الحكام والدعاء للسلاطين[1]. والعيب لدى الشاعر نفسه الذي نظم رباعية في «أرمغان حجاز» بعنوان «الفاروق» بمناسبة اعتلاء ملك مصر العرش. وشتان بين الفاروق عمر، والفاروق الذي أزاحته الثورة المصرية عن العرش في 26 يوليو 1952 وتحويل البلاد من ملكية إلى جمهورية. فهو رياح العرب وموج النيل، الكرامة والسيادة، الإمامة والشهامة، الجمع بين الملك والدين مثل خليفة المسلمين، تتطلع الأشواق إليه وتنجذب نحو نوره[2].

وبالرغم من الموضوعات الفلسفية في «ضرب الكليم» إلا أنه تم التعبير عنها بالشعر. فلا توجد حقيقة إلا ويمكن التعبير عنها شعرياً. الحقيقة الإنسانية تجربة معاشة، حقيقة وجدانية يمكن التعبير عنها بالخيال. بل إن ما تبدو على أنها حقائق مجردة، تمت صياغتها شعرياً بعد تحويلها إلى تجارب ذاتية[3].

وتتكرر الموضوعات. فالشكوى والجواب، والأنين والحنين، والسقوط والنهوض موضوع واحد. الشكوى هي الأنين. وكلاهما أسباب السقوط. والجواب هو الحنين. وكلاهما عوامل النهوض. وهو يدل على خضوع إقبال لبنية فكرية واحدة، السلب والإيجاب. ويصل الأمر إلى حد تكرار نفس الأفكار، ولكن في مناسبات مختلفة.

ب ـ «جاويد نامه» أي «رسالة الخلود»: «جاويد» لفظ متشابه. إذ يعني الخلود. وهو في نفس الوقت اسم ابن الشاعر وهو أيضاً «زروان» روح الزمان والمكان الذي يمضي الشاعر في سفرته إلى العالم العلوي. موضوعها أحوال

= والمقدمة، ضرب الكليم، مدخل ص ح. ترجم الديوان وطبع لأول مرة في باكستان عام 1951 في الذكرى الثالثة عشرة لوفاة الشاعر.

(1) إهداء ضرب الكليم إلى جلالة الفاروق وهي ترجمة الرباعية في مدح الملك التي كتبها الشاعر نفسه بمناسبة اعتلاء الملك عرش مصر، السابق، ص أ.

(2) من العقيدة إلى الثورة، من الدعاء إلى السلاطين إلى مدح الشعوب، ط المقدمات النظرية، ص.

(3) ضرب الكيم، مدخل ص و.

المسلمين من خلال رحلة في الكواكب مؤتماً بجلال الدين الرومي في «المثنوي». الرسالة أشبه بالإسراء والمعراج يطوف فيها الشاعر بقيادة جلال الدين الرومي مثل البراق بين سبعة أفلاك[1]. وفي كل فلك يحيا شخصية أو يتطرق إلى موضوع، بعد مناجاة أولى، وتمهيد سماوي، وتمهيد آخر أرضي وأغنية الملائكة وغزل وزمزمة النجوم، ثم روح الزمان والمكان، تستخدم بمثابة التمهيد المسرحي لرحلة الروح. يحاور الشاعر في الفلك الأول: فلك القمر «جهان دوست»، وفي الثاني فلك عطارد الأفغاني وسعيد حليم، وفي الثالث فلك الزهرة الآلهة القديمة، وفي الرابع فلك المريخ القضاء والقدر، وفي الخامس فلك المشتري الحلاج، وفي السادس فلك زحل الخونة، وفي السابع ما وراء الأفلاك نيتشه، وهو ما دعا البعض إلى الحكم بأثر نيتشه على الشاعر. وكما بدأت الرحلة بمناجاة تنتهي إلى المستقبل مثل ابن عربي في «فصوص الحكم» في الفص الأخير، فصل «ابن سنان». أكبرها فلك عطارد، وأصغرها فلك زحل[2]. وهو الديوان الوحيد الذي يقوم على بنية مسبقة مثل المذاهب الفلسفية، وليس تجميع موضوعات متفرقة، وقصائد متباينة تحت عنوان واحد. لذلك أخذت طابعاً نظرياً خالصاً أقرب إلى التجريد منه إلى تحليلات الواقع المباشر وحال الأمة.

ليست القضية إذا كانت «رسالة الخلود» تقتفي أثر «الكوميديا الإلهية» لدانتي أو «مثنوي» جلال الدين الرومي، فالإبداع الشعري مستقل عن مصادره، ونماذجه، والأثر والتأثير.

في فلك القمر يقدم الرومي الشاعر إلى جهار دست «سحب الدنيا»، الحكيم الهندي، صديق للناس كافة، من أجل بيان أن طريق التقدم هو الجمع بين الحضارتين الشرقية والغربية، بين الروح والمادة، وأن الشرق الخامل بالفعل في طريقه إلى اليقظة. ثم يطلع الشاعر كتب بوذا وزرادشت والمسيح ومحمد. ويشرح

---

(1) رسالة الخلود «جاويد نامه» نقله إلى العربية شعراً حسين مجيب المصري. وهي التي اعتمدنا عليها اتساقاً مع الدواوين الشعرية التسعة الأخرى. ولها ترجمة نثرية أخرى قام بها الصديق الفاضل د.محمد سعد جمال الدين. جاويد نامه، ص152 ـ 154

(2) ترتيب الأفلاك من حيث الكم (عدد الصفحات) 1 ـ ما وراء الأفلاك (42) 2 ـ عطارد (32) 3 ـ القمر (26) 4 ـ المشتري (22) 5 ـ الزهرة (12) 6 ـ المريخ (12) 7 ـ الجيل الجديد (10) 8 ـ زحل (6).

تعاليم كل دين على لسان شخصيات أرمغان، البوذية على لسان راقصة، وزرادشت على لسان أهرمن، والمسيح على لسان تولستوي، ومحمد على لسان أبي جهل. ويلاحظ أحياناً الحديث بالضد في حالة البوذية والإسلام.

وفي فلك عطارد يقابل جمال الدين الأفغاني وسعيد حليم باشا. ويصف على لسان الأفغاني أخطاء أمم الشرق خاصة الأتراك والفرس والعرب، ووقوعهم في التغريب. والتعبير عن رأي الشاعر في المزج بين الثقافتين الغربية والشرقية على لسان سعيد حليم أحد المصلحين الأتراك وليس الخلافة أو العلمانية وهو طريق «زنده رود» أي «النهر الحي»، بالرغم من أن المصلح التركي يرى أيضاً أن الدين قد أصابه الفساد بسبب تعصب رجال الدين «الملا»، وخلق المشاكل بدلاً من حلها.

وفي فلك زحل يزور إقبال موطن الآلهة القديمة حيث يقيم فرعون وكتشينر. ويعتذر فرعون عما فعل لموسى مع مقارنة الشاعر بين الأوتوقراطية والاستعمار في الشرق.

وفي فلك المريخ يناقش إقبال مع فلكي مشكلة القضاء والقدر، وإمكانية الإنسان أن يغير قدره، والسيطرة التامة على قوى المجتمع والطبيعة ضد القدرية الجهمية، والكسب الأشعري، والثقافة الشعبية القدرية.

وفي فلك المشتري يتقابل مع الشاعر غالب والحلاج لمناقشة الحياة والموت وظهور الشيطان.

وفي فلك زحل يقابل الخونة الكبار الذين عملوا ضد أوطانهم وهم يكافحون عاصفة قوية من الدماء.

وفيما وراء الأفلاك يقابل الشاعر نيتشه الذي ظل يبحث عن الإله ولم يجده لاعتماده على العقل الذي لا ينتهي إلى شيئ. ثم يقابل ثلاثة شعراء من كشمير ليعرض بيع بريطانيا لها. ويقابل شعراء آخرين من الهند. وبعدها يسمع صوت الإله ليكشف له أن سر التقدم هو نمو الأفراد والمجتمعات.

وفي النداء إلى الجيل الجديد يخاطب الشاعر الشباب الذي يرمز لهم ابنه

جاويد. وينصحهم بالابتعاد عن صحبة الأشرار، وبتنمية ندائهم بالجهاد والكفاح، والسعي في الأرض[1].

يتناول إقبال في «أرمغان حجاز» الذي نشر بعد موته في 1938 نفس موضوعات الدواوين السابقة في خمسة أقسام: مناجاة، الرسالة، المجتمع، قصائد رباعيات. أطولها الثالث عن المجتمع. وواضح أن الثاني «الرسالة»، والثالث المجتمع أسماء موضوعات في حين أن الأول «مناجاة»، والرابع «قصائد» والخامس «رباعيات» أشكال أدبية. يجمع بين التصوف والفلسفة والسياسة خاصة في قصيدة «برلمان إبليس» لمناقشة المذاهب السياسية في عصره. والإسلام هو المنافس الوحيد لها. ويبدو في هذا الديوان بوضوح نقد التصوف كسلوك وطريق. ويعمّق فلسفة الذاتية. ويعرض لموضوع الخلافة والملك ونقد الأتراك لوقوعهم في تقليد الغرب. ويصف أحوال العصر الحاضر. ويبين طرق الخروج من أزمته[2].

وفي «برلمان إبليس» جلسة برلمانية ناقش فيها شياطين العالم، ووكلاء نظام إبليس. واستعرض المذاهب السياسية التي تهدد مهمتهم في العالم. وانتهى إلى أن المسلم هو المنافس الوحيد والمناضل ضدها. هو الشرارة التي تتحول بسرعة إلى نار. فكيف يُحارب هذا العدو؟ تآمر أنصار الباطل ضده لإضعاف الروح الديني لكن اليقظة الإسلامية حمته. وأصبح المسلم هو باز العالم الجديد[3].

2 ـ موقف الذات

العصر عصر الأمة الإسلامية، وحاضرها ووضعها الحالي. أما العصر الحديث فهو أقرب إلى الغرب، عصر الآخر وليس عصر الأنا. فالعصر عصران. والزمن زمانان، والوعي التاريخي خاص بكل شعب. قد يتزامن الوعي التاريخي للشعوب دون أن يتعاصر.

ليست النجوم في السماء هي المسؤولة عن هدم أمجاد الأمة بل المسؤول

(1) رسالة الخلود، ص135 ـ 138.

(2) أرمغان حجاز، نقل القسم الأول والثاني والثالث من الفارسية إلى العربية شعراً حسين مجيب المصري. ونقل القسمين الرابع والخامس نثراً سمير عبد الحميد إبراهيم، ص411 ـ 416

(3) السابق، ص503 ـ 509.

موت الذات وشقاؤها بين العزلة في القمقم، وتقييدها بالأصفاد[1].

العصر أمانة للذات في الشرق وفي الغرب على حد سواء. ماتت الذات عند العرب فأصبحوا خامدين، وعند العجم فتحولوا إلى مجرد عروق وعظام، وفي الهند جناح مكسور، طائره في قفص محتبس في قفص، وهو حرام. موت الذات عريها من ثياب البيت الحرام[2].

أصبح الفكر مجرد سقطات ومماحكات فيما لا ينفع مثل صلة الروح والجسم، وبلغة الفلاسفة بين النفس والبدن. يبحث عن جوهر النفس وجوهر البدن، ومشاكل الناس وأزماتهم وحياتهم اليومية في جانب آخر[3]. حطم الحكماء كل شيئ، يريدون الملائكة دون أن يظفرا بآدم في الحياة. فالحقائق عند البشر وليست في المجردات، في الحياة وليست في المجسمات[4].

أصبح المسلم قوقعة فارغة. وهو القادر على أن يجعل من الحصى تيجاناً للملوك[5]. والسؤال هو ذوبان الذات في العالم، وانشغال القلب بحاجات البدن.

---

(1) ليس النجوم برغم لعبتها — مسؤولة عن هدم أمجادك
بل موت ذاتك بعدما شقيت — ما بين قمقمها وأصفادك
جناح جبريل، ص443.

(2) من ممات الذات في الغرب ظلام — وبموت الذات في الشرق جذام
من ممات الذات في العُرب خمود — ولدى العُجم عروق وعظام
من ممات الذات في الهند جناح — هيض في الأقفاص والعش حرام
من ممات الذات يُعري مسلما — من ثياب سادن البيت الحرام
ضرب الكليم، ص56.

(3) تحير الناس في ذا اللغز من قدم — ما جوهر الروح أو ما جوهر البدن
ومشكلي في اضطراب بي وفي ثمل — وثورة وسرور النفس والحزن
ومشكلٌ لك أن الخمر من قدح — أو أن من خمرة كأسا، لذي زكن
ما اللفظ والمعنى؟ وكيف الروح في بدن؟ — حمر بدا في رماد منه للفطن
السابق، ص37.

(4) أرى الحكماء تحطم كل شكل — ومن هذا الوجود بسومنات
يريدون الملائك في طلاب — وما ظفروا بآدم في الحياة
رسالة الشرق، ص270.

(5) إن أكن قوقعة فارغة — فمن المسؤول عن هذا السلوك؟
أنت من يجعل من هذا الحصى — جوهرا يلهب تيجان الملوك
جناح جبريل، ص409.

ذهبت الجوقة. وانكسرت الكؤوس. وأطبق الصمت في الوديان. وتسولت في الحانات. واكتنفتها اللامبالاة في غياب ماء الخضر لملأ الكؤوس[1]. وإذا حضر الشراب فالكأس صغيرة، وفرغت الدنان. والذات طامحة. والقلب جامح. فاللؤلؤة مازالت في البحر تضيء[2].

أجدبت حانات إيران[3]. وأغلقت الحانات أبوابها في الهند، ثلاثة قرون بعد سقوط سرهند. اختفى الندمان والشراب. وانزوى الغزل. وتاجر اللاهوت حرم الشرب. فأصبحت القلوب سوداء في الغاب. وضاعت الحقيقة من قلوب الصوفية والملاّ. ولم تبق لديهم إلا القراب الفارغة. كلام القلب هو الخمر، وإلا كان موتا[4].

---

(1) ساقيّ ما حصل الذي أبغيه   الذات عالمها متى نلغيه
القلب منشغل بما عاطيته   عمّن يغنيه ومن يسقيه
ذهبت بجوقته كؤوسك كلها   لم تبق إلا الصمت في واديه
ما مثله متسول في حانة   باللامبالاة التي ترويه
لو جاء ماء الخضر كسر كأسه   ورثى لذي كلف به يأتيه
السابق، ص413 ـ 414.

(2) ساقيّ والكأس الصغيرة لم تعد   تكفي هلم له بما يكفيه
فرغت دنان القوم في أديارهم   وأتيت أسألك الذي تخفيه
بصري على طمح وقلبي جامح   فاستر إذا أحببت ما أنويه
غادرت لؤلؤتي التي أغرقتها   في البحر تنعم من ضيائك فيه
السابق، ص414.

(3) وحانات إيران قد أجدبت   وهذي التي فجرت عيننا
السابق، ص416.

(4) لماذا أغلقت أبوابها   الحانات في الهند؟
مضت هدرا ثلاث قرون بعد سقوط سرهند
مضت هدرا ثلاث قرون   في حان هدمناها
ولم تتحمل الندمان   بعدك أيها الساقي
ذوت غزليتي لا شيئ   واللاشيئ حرّمه
علينا بائع اللاهوت   بعدك أيها الساقي
قلوب أسودنا في الغاب قد هجرت تحققها
مع الصوفي والملاّ عبيد أيها الساقي
من انتزع الحقيقة من مهند حبنا هذا
وما أبقى لها إلا   قرابا أيها الساقي
كلام القلب حين يكون حيا خمرنا الباقي
وإلا كان للأرواح موتا أيها الساقي
السابق، ص412 ـ 413.

والحانات رمز المعرفة. هناك كؤوس لا مذاق لشرابها. وهناك شراب ليس له كؤوس. وثأر بين إيران وتركيا أو سرور قيصر والغرب[1]. الأوضاع بائسة، حائرة، سعيدة بالأوضاع القائمة. ومع ذلك تغييرها أسعد[2]. هذا الزمان صعب مظلم، والإنسان بعيد عن القافلة. لذلك يقدم إقبال لهيب زفرته مصباحاً يبدد ظلمات الليل[3].

حرم إنسان هذا العصر العشق لصالح العقل الذي يريد أن يثأر منه. أصبح العقل شاردا. غابت عنه البصيرة للهدى. لم يعد إلى ذاته لاكتشافه. وآثر النظر إلى الخارج، عالم الأفلاك. انتهت حكمته إلى شراك. فغاب عنه مقياس المنفعة والضرر. لم يعد يقبض على شعاع الشمس فأظلمت لياليه[4]. انتبه هذا العصر لعالم الطبيعة. ونسي عالم الإنسان، في حين أن علم الذات هو القادر على إنارة الطريق لعلوم الطبيعة. الذات في جدل مع الطبيعة، ويحتاج هذا الجدل لمعايير للسلوك[5].

أصبحت مدنية الإسلام اليوم خاوية باردة بلا عشق أو جنون. نقص منها

---

(1) كم ذا ذهبت مشرقا ومغرّبا ... أتفحص الحانات في الآفاق
فهنا كؤوس لا مذاق لخمرها ... وهناك خمر ما لها من ساق
طوران من إيران تأخذ ثأرها ... وبلاط قيصر من دمائهما ندي
السابق، ص422.

(2) قافلة القوم بوضع يؤسف ... حائرة يسحرها التوقف
ورُغم هذا غبطة السياحة ... تجاوزت غبطة تلك الراحة
السابق، ص454.

(3) هذا الزمان ليله شديد ... وأنت عن قافلتي بعيد
لهيب زفرتي هو المصباح لك ... يبدد الليل ويقشع الحلك
السابق، ص455.

(4) حُرم العشق وللعقل به ... نكزات كشجاع يثأر
تبع العقل شرودا سادرا ... ما هدى العقلَ لديه بصر
لم يسافر في دُنى أفكاره ... وعلي الأفلاك دام السفر
هو من حكمته في شرك ... غاب عنه نفعُه والضرر
من شعاع الشمس في قبضته ... ما به ليل حياة يسفر
ضرب الكليم، ص48.

(5) نظر المنجم في حباك نجومه ... لكن مقام الذات عنه يستر
من يدر أن الذات أرفع منزلا ... عرف الزمان وصرفه لا يقهر
وجميل أنظار يرى وقبيحها ... وحلال قلب والمحرم يُبصر
السابق، ص49.

الحماس والفعل والإقدام. وعمتها اللامبالاة والفتور كما لاحظ الكواكبي في «أم القرى». وهي خالية حتى من كمال العقل خلوها من عشق الجنون. لا يحركها شيئ من عظمة الماضي أو أزمة الحاضر. لديها من الحقائق والدوافع، وتحمل من الطموح والآمال ما يحركها بعيداً عن طلسمات أفلاطون. تحمل رسالة جبريل الأمين، وأمانة مكارم الأخلاق، والحمية العربية، والشجون والأحزان[1].

من أسباب السقوط ذبول الحب في أنفس العاشقين، وتحوله إلى وسوسة، والاعتماد على المدرسة والتعليم والتلقين والحفظ والطاعة للمشايخ. بلغ تعظيم المعلمين درجة أنهم أصبحوا أصناماً جدداً. تذرو الرياح معابدهم وزواياهم. والعالم لا يعيش في عش أو قفص[2]. لم يعد للمسلمين من جنون الحب نصيب. كان دمهم مناراً للشعوب. ثم أراقوه في الظلام. خارت قوى الضلوع. ولم يعد بها لهب يصول. وسجداته رتيبة في خمول، في صفوف معوجة وذهول[3].

وتصدر النظرة من القلب، على عكس النظرة اليوم الخالية من أي جذبة.

---

(1) حياة المسلم اعرف في بياني ... كمال العقل فيها والجنون
سنا كالصبح مغربه طلوع ... وحيد، كالزمان له شؤون
ولا كالعصر، خلو من حياء ... ولا فيها من الماضي فتون
حياة بالحقائق في قرار ... وليست ما يطلسم أفلطون
عناصرها يؤلفها جمال ... تمثل فيه جبريل الأمين
وحسن الخلق من عجم لديها ... ونار العرب فيها والشجون
السابق، ص32 ـ 33.

(2) ذوى الحب في أنفس العاشقين ... ولم يبق منه سوى وسوسة
وصرنا إلى زمن ماله ... إله سوى صنم المدرسة
يقولون أستاذنا آزر ... وللآن ماعرفوا رسمه
هم وثنيون لا يعرفون من فن آزر إلا اسمه
نعم هم إلى الآن لم يعرفوا ... رشاقة فطرته البادئة
تطوّح معبدهم في الرياح ... ولم تبق زاوية هادئة
تعجبت من عالم هكذا ... فلا هو عش ولا هو قفص
جناح جبريل، ص415 ـ 416.

(3) أترى ما للمسلمين نصيب ... من جنون الحب الذي أطلقوه
دمهم كان للشعوب منارا ... ثم هم في ظلامهم أهرقوه
ذاك أن الضلوع خارت قواها ... لم يعد بينها لهيب يصول
سجدات رتيبة في خمول ... وصفوف معوجة وذهول
السابق، ص467.

نظرة فارغة خالية من أي سحر[1]. أضاع المسلم القلب[2]. وضاعت منه حرارة الإيمان، وسراج ليل الفكر[3]. لم يعد الفكر حتى بالفضيلة يرضي القلب. ولم يعد القلب يؤمن بالتجارب ولا بالفكر. حدث نفور بين الخطابين: خطاب العقل، وخطاب القلب[4].

ليست الشكوى من الأصدقاء، ولا من جور الزمان، ولا من نقص الثياب. إنما الشكوى من غياب ذوق الغناء، والحزن الذي يثبط العزائم، والخوف الذي يقعد عن الجهاد. الشكوى من عقد الفكر وعدم إطلاق سراحه، والخلاص من شياطينه، وغياب الحب وجنونه[5]. وبسبب بلاهة المسلم باعته الملوك في الأسواق. ولم يتعود من قبل على هذا التشرد والتسكع في الطرقات. والشاهين يطير. لا يتخذ عشاً. ولا يأكل جيفة[6].

واللامبالاة أحد أسباب السقوط. لم يعد المسلم يبالي بشيء. أصابه الفتور وعدم الحماس كما عبر عن ذلك الكواكبي في «أم القرى» لمعرفة أسباب الفتور

---

(1) وحدها النظرة ما أطلبه — وشؤون القلب عنها تصدر
نظرة خالية من جذبة — نظرة فارغة لا تسحر
السابق، ص444.

(2) يا أمم الشرق، ص400.

(3) فحرارة الإيمان في القلب المشوق إلى النضال
وسراج ليل الفكر، لا معبود إلا ذو الجلال
السابق، ص401.

(4) الفكر حتى بالفضيلة لم يعد — يرضى بقول القلب في تفسيرها
والقلب حتى بالتجارب كافر — ويرد قول الفكر في تقريرها
فإلى متى هذا النفور يقودنا — وإلى متى تجتاحني أنفاسي؟
جناح جبريل، ص418.

(5) بفضلك لا أشتكي الأصدقاء — ولا أشتكي جور هذا الزمان
وثوب الحياة التي خضتها — بفضلك أخلعه في أمان
فهبني بسرك ذوق الغناء — كما فني السابقون الأول
فلا الحزن ثبط من عزمهم — ولا الخوف أقعدهم في الدول
نعم، عقد الفكر أطلقها — وخلصتني من شياطينه
متى الحب تمنحني سره — وتجعلني من مجانينه
السابق، ص416.

(6) أحرقتْ رغبتي بلاهة سوق — فأتتني ملوكه تشتريها =

في العالم الإسلامي. العينان تلمعان ولكن لا يشيران إلى الاهتمام بشئ مثل عيني الأبله الفاغر فاه، الجاحظ عيناه[1]. عدم الاكتراث هو البلاء. مع أن المسلم في الماضي كان يخوض المعارك. يقضي عمره كله في الجهاد في ساحة الوغى وفي العلم، بحرارة الرومي وباكتئاب الرازي. نما العقاب بين النسور الكاسرة. وكان للصقر الملكي سر واحد هو الحب[2].

3 ـ القدرية والمهدية

رداً على اشبنجلر أن سبب ضعف المسلمين إيمانهم بالقضاء والقدر وبالمهدي، نظم إقبال عدة مقطوعات بأن هاتين العقيدتين غريبتان على الإسلام، بالرغم من استعمال إقبال عقيدة المهدي في بعض أشعاره لنفخ الحياة في موتى الأحياء. فالإنسان سلبي في كلتا الحالتين، في الأزمة والخلاص، في البداية والنهاية. إرادة غير إرادته تورّطه، وإرادة غير إرادته تنقذه من ورطته كما هو الحال العقائد المسيحية، وحصار الإنسان بين الخطيئة والخلاص، بين آدم والمسيح[3].

ودرءاً للشبهة العامة بأن الإسلام مركز حول الله وليس حول الإنسان، ينظم

= لست أبتاع سكرة الملك غبنا ... بعبوديتي التي أنا فيها
ما ترددت أو تشردت يوما ... أو تسكّعت في طريق كهذا
لا يمل الشاهين ما يرتجيه ... بين غاب يرودها وجبال
ويرى في اتخاذه العش عارا ... ناعم باله شديد المحال
السابق، ص414 ـ 415.

(1) لم لست مهتما بهذا كله؟ ... ولو اهتممت جعلت منه يقينا
عيناك لامعتان إلا أنها ... دلت على عدم اكتراثك فينا
السابق، ص416.

(2) عدم اكتراثك لم يزل وشقائي ... لم أستفد شيئا بكل غنائي
ما خضت إلا وقعة نشبت به ... في ساحها أنفقت كل حياتي
ما خضت طول العمر إلا وقعة ... نشبت على لغز من الألغاز
بحرارة الرومي كنت أخوضها ... حينا وحينا باكتئاب الرازي
ما أفلحت تلك العقاب وقد نمت ... وترعرعت بين النسور الكاسرة
فلصقرنا الملكي سر واحد ... لم تدره تلك العقاب الحائرة
للحب أغنية وما لغنائها ... لغة، ولا تحتاج للألفاظ
السابق، ص417.

(3) أرى الأقوام تمضي في حياة ... على قدر التخيل في الحياة
فإن تنفر من المهدي ينفر ... غزال المسك من هذي الفلاة =

إقبال قطعة حول «الإنسان». فهو سر الوجود والعدم. سمي الإنسان منذ القدم. هو سر لا يمكن وصفه في كلمات معدودة. إذا ضعف الزمن فإن الإنسان لا يضعف. ويظل يحمل مشعل التقدم. هذا الإنسان هو الإنسان، لا روحاً ولا بدناً[1].

أصبح التوحيد اليوم نكتة أي المفارقة بين ما يجب أن يكون وما هو كائن. تحول إلى وثن في الرأس، وصنم للعبادة، وشيئ يُبتهل إليه. لم يبينه الفقه. أصبح دافعاً على حروب الزور والعدوان. وبدلاً من أن يكون ثورة للتحرر أصبح عبودية ورقا. وبدلاً من أن يميل المسلم إلى فقير أي إلى حر صاحب وعي مستقل جعله ذليلاً مذعناً[2].

ومن مآسي المسلمين كثرة إدعاء النبوة كما فعل محمد علي الباب وهو يلحن في القرآن فجعل من آياته اللحن! والمتنبي الجديد يرى إسقاط فريضة الجهاد، والدعوة إلى المسالمة. وهو ما تريده بريطانيا وبعض أدعياء التصوف[3].

= إذا ما الحيّ من جهل تردّى ... بأكفان وأغرق في سبات
أتُسلم ذا الجهول إلى الردى أم ... تمزّق عنه أثواب الممات؟
ضرب الكليم، ص40.

(1) ذا طِلَسْمُ الكون والعدم ... سُمي الإنسانَ من قِدَم
هو سر الله جل فلا ... يحتويه الوصف في كَلِم
إن هذا الدهر من أزل ... من سفار باء بالسقم
ومضى الإنسان سيرته ... لم يُصب بالضعف والهرم
وإليك السر أعلنه ... إن تسعه غير متهم
ما بدا روحا ولا بدنا ... ذلك الإنسان للفهم
السابق، ص39.

(2) إن سر التوحيد طوع بياني ... شِدَت في الرأس موثنا، ما احتيالي؟
رمز شوق بلا إلاه خفي ... ليس في الفقه بينا، ما احتيالي؟
كم سرور في حرب حتى وزور ... لست في الحرب مطعنا، ما احتيالي؟
كم تُجلي الآفاق نظرةُ حر ... حجب الرق أعينا، ما احتيالي؟
أي ملك مقام فقر! ولكن ... تؤثر الذلّ مُذعنا، ما احتيالي؟
السابق، ص36.

(3) لست المحدّثَ والفقيه ... ولا الوليّ ولا المجدّد
لا علم عندي بالنبوة ... كيف توصف أو تحدد
لكن إلى الإسلام في الأيام ... لي نظر مسدد =

وفي بعض كتاباته النظرية، يدافع إقبال باعتباره ليبرالياً عن الأحمدية والبهائية دفاعاً عن حرية الفكر والتأويل.

ومن أسباب السقوط تعدد المذاهب الفقهية الحديثة عند مسلمي البنجاب وكثرة النحل والبدع. فلكل مجدد مذهب. وكل عالم له تأويل. فارتبك الجميع. وقسمت الأمة إلى مذاهب وطوائف في جو عام من التعصب الديني[1].

لقد حطم الإسلام الوثنية، والكهانة والسدنة والتيجان والعروش. ثم فقدت الأمة قوتها. تفرقت وتم احتلالها[2]. لقد هدم الإسلام اللات والعزى، وحرر الحرم. وبنى فوقها أمة علت القمم. لم تبن ربا من رخام أو حجر. ولم تسجد لنجم أو لنبات أو بقر. لم تعبد الكهان أو السلطان[3].

وبالرغم من استمرار الرسالة في التاريخ إلا أن أنصار أبي لهب هم الذين يسيطرون على العالم الإسلامي. والشباب استنارت عقولهم وأظلمت قلوبهم. ينعمون بمباهج الدنيا ولا يحملون أملاً جديداً ونظراً بعيداً. نشأوا على العبودية جيلاً وراء جيل بحيث ضاعت الحرية كأمل منشود[4]. الدين له من الزمن البعيد

= أوحي إليّ بسره الفلكُ المحيط فلا أفنَّد
فرأيت في ظلمات هذا العصر ذا الحق المؤيد
عندي حشيش المسلمين نبوة فيهم تجدَّد
ما إن لديها دعوة للبأس والمجد المخلد

السابق، ص38.

(1) مجدد في كل حين مذهبا يحل في مرحلة ليركبا
في حلبة التحقيق نِكس وإذا خامره داع غوي غُلِبَا
حبالة التأويل إن تُنصب له هوى من العُش إليها معجبا

السابق، ص42.

(2) يا أمم الشرق، ص398.

(3) يا من هدمت اللات والعزى وحررت الحرم
وبنيت أعلى أمة تهدي بسيرتها الأمم
لم نتخذ في الكون ربا من رخام أو حجر
كلا ولم تسجد لنجم أو نبات أو بقر
لم نلق جبهتنا لدى الكهان في ذل حقير
لم نحن هامتنا لسلطان قوي أو أمير

السابق، ص401 ـ 402.

(4) طوفت في أرض الأعاجم ثم في أرض العرب =

أضحى غريباً عن ذاته. استبدل بكرامته طعام الذل. يلتقط حباً كالطير في الأرض، وليس كالصقر في عنان السماء. ومن لا يبتغي من هذه الدنيا متاعاً، إن لم ينل قرب الحبيب، تكون دنياه ضياعاً(1).

الأمة متفرقة متشرذمة فإلي أين يذهب المسلم؟ ولا يوجد في بحر العرب ثورة، ولا في الصدر موج، فأين يذهب؟ لا يوجد للحادي ركب أو زاد وهو يقطع الفيافي، فأين يذهب؟(2).

ومن مآسي العصر الحاضر الصراع بين المسلمين والهندوس. قتل مسلم هندوسياً أساء إلى الرسول في لاهور. وقتل هندوسي مسلماً أتي يشاوره في أمر في كراجي. وآراء المسلمين تأدية دية القتيلين تجنباً لقتل القاتلين. إلا أن إقبال لم يشأ التسوية بين مسلم وكافر في الدية. فالمسلم شهيد، والهندوسي كافر. والتوحيد لا يقبل الشرك. ولا يساوم معه!(3).

= لم ألق فيها المصطفي ولكم رأيت أبا لهب
عجبي لهذا المسلم المزهو بالعصر المنير
لا همة تحدو خطاه ولا سراج في الضمير
وأرى شبابا واهن العزمات في لين الحرير
ولدت أمانيه فكان المهد مصرعها الأخير
ذاك الغلام بن الغلام بن الغلام بن الغلام
في شرعه تحرير أمته محال أو حرام
الدين ليس له بدنياه زمان أو مكان
كل الذي أدريه عنه أنه بالأمس كان
عن ذاته أضحى غريبا مستهاما بالدخيل
بذل الكرامة عنده ثمنا لمطعمه الذليل
كالطير غايته التقاط الحب في ظل القصور
هو طائر لكنه لم يدر تحليق النسور

السابق، ص403.

(1) إن الذي لا يبتغي من هذه الدنيا متاعا
إن لم ينل قرب الحبيب تكون دنياه ضياعا

السابق، ص407.

(2) أرى الملة البيضاء بُدِّد نظمُها — فمسلمك انظر حاله، أين يذهب؟
وليس ببحر العُرب لذة ثورة — وفي الصدر موج غاله، أين يذهب؟
ولا ركبَ ولا زادَ عنده — وقطعُ الفيافي هاله، أين يذهب؟
فبيّن لنا الأسرار، روح محمد! — حفيظ لأي، ياله، أين يذهب؟

(3) قد تولي الله عبدٌ — مسلم ما آمرا =

يعبر إقبال عن وضع المسلمين في الهند. إذ يقول البرهمن عن المسلم أنه خائن لوطنه، وإن كان مخلصاً لدينه. فالإسلام دين ووطن. ويصفه الإنكليز بأنه سائل شحاذ. وتعتبره البنجاب كافراً لا يؤمن بالدين الهندي ومتمسكاً بإسلام الأسلاف. وبصرف النظر عن الصواب والخطأ في مثل هذه الأحكام إلا أنها مجهدة للذهن، مضيعة للوقت، جالبة للحروب[1].

نسي العرب الذين حملوا الرسالة وبلغوا الأمانة أداء الواجب والاستمرار فيه. فكيف يخاطب الهندوسي أمراء العرب وهو يعلم أنهم تخلوا عن واجباتهم، وغابوا عن الساحة بعد أن كانوا من أوائل الأمم التي تهب في نجدة الغير؟[2].

4 ـ القهر الداخلي والاستعمار الخارجي

لقد ماتت الأمة أربع مرات بسبب المرابي، والوالي، وشيخ الطريق، والشيخ. وهي السلطة الاقتصادية والسلطة السياسية والسلطة الدينية بنوعيها الفقهية والصوفية[3]. لقد بيع العلماء في سوق التجارة الرائجة بأرخص الأسعار.

= هو بالموت إلى عا   لم الروح سافرا
كيف تفدون شهيدا   لخلود آثرا
دمه من حرم أعلى   وأغلى جوهرا
آه للمسلم غفلان   نسيا ما درى
سر ولا تدع مع الله   إلها آخرا
ضرب الكليم، ص37 ـ 38.

(1) قال البرهمن: خائن أوطانه   والإنكليز تقول: هذا مجتدي
ونبوة البنجاب قالت: كافر   مستمسك بقديمه لا يهتدي
أيان صوت الحق يعلو هاهنا؟   ويل لقلبي في الصراع المجهد
السابق، ص16.

(2) هل يُسعد الكافر الهنديَّ منطقهُ   مخاطبا أمراء العُرب في أدب
من أمة قبل كل الناس قد أخذت   بحكمة فأعانتها على النّوب
إخاء مصطفويّ دون تفرقة   وهجرُ كلّ غويّ من أبي لهب
ما من حدود وأرض كان منشؤها   من أحمد العرب كانت أمة العرب
السابق، ص43.

(3) نحن في الدنيا نموت أربعا   اذكرن منها المرابي الأجشعا
أيليق بك هذا العالم   منه في ذيلك طين أقتم؟
جاويد نامه، ص317.

وتدخل المرابون. وتقامروا على الأديان[1].

لم يخرج مصلحو الشرق للناس شيئا. بل ربما قدموا لهم ما قدم لهم السامري الذي أضل بني إسرائيل. وجعلهم يعبدون عجلاً من ذهب له خوار جمعاً بين السحر والضلال. قدموا للندماء الأقداح وأفتوا بما يرضي السلطان. قدموا سحاباً ما برق، قديماً لا جديداً[2].

الإنسان مسافر في هذه الدنيا. قد تغره فيصبح في خسران مبين. ومن مظاهر الخسران النفاق لا الزهد ولا الملكية، على عكس الصادق الملك المبجل رغم محنته. لا تستطيع يد المنافق أن تحمل سيفاً. والصادق يصد كل السيوف الموجهة إليه. ليس المنافق حر الإرادة، بل هو عبد المصلحة. ولا هو قادر على استقبال الأقدار متحججاً بالعلم والنظر. والمسلم المغوار قادر على مواجهة الجهلاء بالدين. يحمل أقدار أمته وهو في مظهر المسكين[3].

ومن أسباب السقوط استسلام الناس للإنجليز. يعتقدون أن لهم مطلق السلطان. لم يمنحوا العلماء أية سلطة، بل جردوهم من كل سلطة، في حين أنهم يعطون أبناء الحمير المتعاونين معهم الرياض. ملأوا الكنائس بكل ملذات الدنيا من

---

(1) رباه هذا السوق ينبض روعة ويروج حتى في ابتياع الداء
بالرغم من هذا فأرخص سلعة عند الشراء مواهب العلماء
ملك المرابون البلاد جميعها وتقامروا حتى على الأديان

(2) يئستُ فلا أرجي في أناس لهم فن كفن السامري
سُقاة في ربوع الشرق طافوا على الندماء بالقدح الخلي
سحاب ما هوى برقا قديما وليس لديه من برق فتي

(3) أو لا تزال مسافرا تسري وتغرك الدنيا بما فيها
والعصر إن القوم في خسر وسل الطبيعة عن فيافيها
يمشي المنافق في نقائصه لا زاهدا حقا ولا ملكا
وترى الموفق رغم محنته ملكا يبجل أينما سلكا
كف المنافق لا تساعده في حمل سيف يبعث الفرقا
والمؤمن الصديق محنته قدر يشوب سيوفه ألقا
ما للمنافق من إرادته حر ولا من صولة القدر
يستقبل الأقدار مرتبكا متعللا بالعلم والنظر
المسلم المغوار حجتنا نرمي بها الجهلاء بالدين
في نفسه أقدار أمته متستر في زي مسكين

جناح جبريل، ص433 ـ 434.

لحوم وشراب[1]. جعل الله العالم فردوساً للجميع. فجعل الإنجليز بلادهم فردوساً. والمسلمون ينظرون إلى السماء وليس إلى الأرض[2].

لم تعرف الأمة حالياً استحقاق «لا إله إلا الله». فعل النفي الأول في «لا إله» كأس الأماني لأن الأمة لم تقم بنفي آلهة العصر المزيفة: القوة، الجاه، الثروة، السلطة، المرأة. . .إلخ. لم تقم بفعل الاستثناء «إلا الله» بعد أن تكسرت الكؤوس بأيديها. والكأس طافحة بالنفس. تبكي ذهاب الثبات، وخرس العازف. تبكي بلا صوت، وتخون نفسها[3].

الشباب قعود رقود نيام لعجز الأمراء وفوضى الجنود. تطيش السهام، وتخطئ أهدافها في الوجود. يقال إن الأمة بحر عميق. وهو ضحل ما أضيعه. وبعد البحث فيه موجة موجة وقوقعة قوقعة فإما هجر أصنام الآخرين أو الخروج من القمقم. وقد زُخرفت الأصنام من دماء الأمة[4].

---

(1) والناس يعتقدون رغم شقائهم — للإنكليز بمطلق السلطان
لم تمنح العلماء حتى قشة — وجعلتهم أخلى العباد وفاضا
والإنكليز وهم عباد مثلنا — يعطون أبناء الحمير رياضا
ملئت كنائسهم بكل ملذة — فهنا اللحوم وهاهنا الكاسات

السابق، ص420.

(2) فردوسك اللهم لم يره هنا — أحد وأنت هو السميع المبصر
الإنكليز بلادهم فردوسهم — والمسلمون إلى سمائك تنظر

السابق، ص420.

(3) من «لا إله» لنا — كأس يُمنِّينا
وكؤوس «إلاّ الله» — كسرت بأيدينا
الكأس طافحة — بالنفس في الأرواح
والكاس في الإثبات — تبكي ذهاب الراح
العازف الموهوب — بالعزف أخرسنا
نبكي بلا صوت — ونخون أنفسنا

السابق، ص423.

(4) شباب قعود رقود نيام — لعجز الأمير وفوضى الجنود
فوا أسفا كيف هذي السهام — تطيش بلا هدف في الوجود
يقولون بحر عميق عميق — وما أضيع البحر ما أضيعه
بحثت به موجة موجة — وقلّبتُ قوقعة قوقعة
أما آن تهجر أصنامهم — أما آن تخرجُ من قمقمك؟
وغاية أصنامهم أنها — تزخرف هيكلها من دمك؟

السابق، ص436 ـ 437.

لقد تعلمت الأمة الفقه وحكمة الدين، ولكنها تركت الكفاح[1]. الشباب مؤمن، ولكنه هارب من جنة الشهداء[2]. أين خالد بن الوليد وصلاح الدين كي ينال المجد والخلود؟[3].

5 ـ ما هو الحل؟

يتم النهوض في التو واللحظة مثل التوبة عند الصوفية. ومن الغد يتم استباق النجم. الإنسان شرار النور. يشارك الله في الخلود دون أن يغار منه. يجوب الآفاق بالحضور، وليس بالصبر. يفنى ليبقى في الأرض. يسكن السماء، هو بحر لا يسكن. يغوص فيه متى يشاء. هو بحر لا يستقر موجه، وليس ساحلاً ساكناً هادئاً آمناً[4].

الحل يبعث على التفاؤل ورفع الأحزان عن القلب، وليس حلاً وقتياً أو وهمياً أو خادعاً[5]. هل الحل ظهور درويش السودان، المهدي؟ المنقذ المخلص؟. برق الماء. وتدفق الموج. ولاح روح من الفردوس. هو در في القاع. في صدره ذاب الحجر. لم يصدق اللورد كتشنر. وظن أن الموت في القبر أو في النهر نهاية

(1) يا أمم الشرق، ص400.

(2) هو مؤمن لكنه من جنة الشهداء هارب
ليستقر بقلبه أن «ليس غير الله غال»
السابق، ص404.

(3) يا من خلعت على صلاح الدين حُلة خالد
فحقي بعز دائم يبقى ومجد خالد
السابق، ص407.

(4) من غدي والأمس إني منطلق ووراء كل نجم استبق
أنت نور خالد نحن الشرار ولنا الأنفاس عمر مستعار
قل لمن ما ماز موتا من حياة أي عبد غار من صنع الإله
جاب آفاقا وليس بالصبور لم يسر بغياب أو حضور
إنني بحر سكوني لا يليق أين من غاص على قاعي العميق
وعلى الساحل دنيا تستقر وترى في البحر موجات تفر
جاويد نامه، ص142.

(5) ألا يا حبذا تلك الطريق تطول ولا يؤانسها الرفيق
لها الزفرات، فافتح منك قلبا لتحرق فيه حزنا لا تطيق
أرمغان حجاز، ص419.

الحياة. إنه روح العرب يعود من جديد. يحمل تراث الأسلاف. يدعو قادتهم (فؤاد، وابن سعود، وفيصل) إلى أن يبدءوا الدخان من حولهم، وأن يوقدوا ناراً خمدت في الصدور، والعودة إلى الأيام التي ضاعت. يدعو البطحاء إلى أن تنجب خالداً، وأن يُبعث عطر الخلود من الأسلاف من جديد، وأن يتولوا أمرهم دون أن يتركوه لغيرهم خشية من البلاء[1].

هل الحل هو المصحف والسيف كما طلبت «شرف النساء» الطاهرة وكما قال الإخوان المسلمون بعد ذلك في مصر؟[2]. لقد انتهى هذا الحل إلى نوع من الوهابية والحكم الإلهي والتعصب وإقصاء الرأي الآخر مما أدى إلى ظهور جماعات العنف. فالضغط من أعلى يولد الانفجار من أسفل.

الحل هو حاجة هذا الجيل إلى بعث جديد وإلي نهضة ثانية. توقظه من

---

(1) هو ذا في الماء برق يأتلق   ثم يعلو الموج حتى يندفق
ومن الفردوس ضاع نفح عطر   لاح بالروح لنا درويش مصر
إن منها الدر في القاع استقر   «كتشنر» في صدره ذات الحجر
قال «كتشنر» انظرنْ يا فهم   إنما هذا ترابي ينتقم
ما حباك الله من قبر يضمك   بل رُميت بين أمواج تُطعمك
ثم ضاع في اللسان المنطق   والزفير من خشاه يحرق
قال هبيّ أنت يا روح العرب   قلدي الأسلاف في ماضي الحقب
يا فؤاد! ابن السعود، فيصل   كلكم مثل الدخان يرفُل
أوقدوا في الصدر نارا أخمدت   ارجعوا أيام دنيا ضُيعت
وادي البطحاء أنجب خالدا   نشتهي التوحيد فيك غرِّدا
أمة الإيمان، يا سود الجلود   منكم أستاف عطرا للخلود
فإلام تجهلون سيركم   وتولون سواكم أمركم؟
ليت شعري هل تخافون البلاء؟   البلاء كان للمرء الصفاء

جاويد نامه، ص231 ـ 232.

(2) تحمل المصحف والسيف الحساما   إنها السكرى وما ذاقت مداما
خلوة سيف وقرآن الصلاة   حبذا عُمر تقضّى في التّقاة
قبل موتي ذاك منك مطلبي   مصحفي والسيف مني قرّبي
الكتاب والحسام حسبنا   بهما يزدان حقا قبرنا
وقرونا تحت تبر للقباب   قد تحلى بالحسام والكتاب
منه سيف وكتاب ما حمل   ولذا الإسلام فيه قد قتل

السابق، ص286 ـ 287.

انبهاره بالغرب. فقد هزمت الأمة بالتقليد، دون حرب أو سجال[1]. وتكون يقظة الوجدان بذكر الله[2]. فقد اليقين والحياء. وأصبح طعامه وشرابه أقصى ما يتمناه. هو مقيد بالمنن الثقال، مقيد لأنه لا يقول «لا «ولا» إلا» أي لا يقوم بفعلي النفي والإثبات في الشهادة[3].

«الأمة العربية» هي ركيزة الإسلام[4]. إذ قامت قام. وإذا انهارت انهار. ففي قصيدة «إلى الأمة العربية»، يبين فضلها وسبقها في حمل الرسالة، رسالة التوحيد، «لا إله إلا الله»، وقيادة البشرية، وبدايتها تاريخ جديد، وتأليف القلوب، وإنهاء العبودية للبشر كما تنبأ الرسول «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده. وإذا ملك كسرى فلا كسرى بعده»، وإشعال الروح، وإحياء القلب، وإبداع العلوم، وظهور الصوفية كالبساطمي، والقواد كصلاح الدين الأيوبي. جمع بين العقل والقلب الرازي والرومي معا. نقل العرب من الجاهلية إلى الإسلام. ثم عادوا إلى جاهلية القرن العشرين. تركوا ذاتهم، وقلدوا الإفرنج. أضاعوا وحدتهم، وتفرقوا. يخاطب الشاعر الهندي زعماء العرب. ويحذرهم من الانقطاع عن محمد، والتواصل مع أبي جهل، وترك الإيمان للطاغوت، وبألا يقعوا في حبائل القوميات والوطنيات والفلسفات المادية، ووضع الحدود والقيود[5].

---

(1) يا أمم الشرق، ص399.

(2) ذكر الإله ويقظة الوجدان في أنس وجان
من فيض وحيك يا صلاة الصبح يا صوت الأذان
السابق، ص401.

(3) ذاك الذي فقد اليقين وقلبه فقد الحياه
وطعامه وشرابه ومنامه أعلى مناه
وتراه بالمنن الثقال مقيدا ومكبلا
ممن يقول «نعم» وممن لا يجيب بغير «لا»
فليضحُ من غفلاته ليعود حيا قلبه
ويعيش في أوج الكرامة هاتفا «الله هو»
السابق، ص404.

(4) السابق، ص377 ـ 382.

(5) شعب العروبة والمجد المؤثل في — بدو وفي حضر حتى ضحى المحشر
من الذي حرر الدنيا لخالقها — وأسمع الخلق لا كسرى ولا قيصر؟
من قبلكم أبلغ الآيات ناطقة — بوحي من خلق الدنيا وسواها
من غيركم رفع المصباح مؤتلقا — ووحد الخلق لما وحد الله؟

=

كان للعرب مجدهم السابق بفضل الإسلام. وتحولوا من بدو في الصحراء إلى أمة بلا حدود، حرة من طغيان كسرى وقيصر. لم يحمل أحد قبلهم الآيات ناطقة. وبلغ الرسالة إلى الدنيا. ووحد الخلق باسم التوحيد. أطعموا الناس على موائدهم. وتآخوا بعد فرقة. حولوا البيد روضاً، والحصى درراً. أنبتوا الورد في قلب الصحراء بفضل النبي الذي أغنت مكارمه عن السحب[1]. حطم أصنام الشعوب القديمة إكباراً لله. وأبقى على كل حسن قديم ونماه. ساروا خطى بهمم عالية. فسادوا العالم كله.

هم الذين حلوا الأغلال، وحطموا القيود، وواجهوا كسرى وقيصر. هم الذين صدعوا بالقرآن في مسمع الكون إعلاناً للتوحيد ووحدة البشر. قدموا الحكمة للناس، وهم أميون. أنبتوا الزهرة بالصحراء، والبساتين بالقفر. ثاروا، وانتصروا في بدر وحنين. وكان منهج أبو بكر وعلي والحسين. استعادوا سيف أيوب وتقوى بايزيد مفتاحاً لكنز العالمين. وضعوا الحكمة، أقاموا الدين القويم، وحكموا الدنيا. كان في كل قلب شوق للمجد. فاشتعل ثورة عارمة[2].

= لم يطعم الناس إلا في موائدكم ... علما شهيا وتهذيبا وعرفانا
في شأنكم أرسل الله الكتاب ... فأصبحتم بنعمته في الخير إخوانا
من حول البيد روضا والحصى دررا ... وأنبت الورد في الصحراء للعرب؟
أستغفر الله ما غير النبي لها ... أغنت مكارمه فيها عن السحب

السابق، ص382 ـ 383.

(1) فكل معبود قديم في الشعوب هوى ... بعزمه ساجدا لله إكبارا
وكل غصن هشيم من نداء غدا ... يجدد الحسن أوراقا ونوارا
واها لها جذبات طالما حَفَزت ... منا الخطا وأثارت للعلا همما

السابق، ص383.

(2) أمة الصحراء يا شعب الخلود ... من سواكم حل أغلال الورى؟
أي داع قبلكم في ذا الوجود ... صاح لا كسرى هنا لا قيصرا؟
من سواكم في حديث أو قديم ... أطلع القرآن صبحا للرشاد؟
هاتفا في مسمع الكون العظيم ... ليس غير الله ربا للعباد؟
حدثوني اليوم عن أي خوان ... قدم الحكمة قوتا للفطن
وابل من فيض أمي اللقب ... الكريم الفرد في كل الكرام
أنبت الزهر بصحراء العرب ... بل سقى في القفر بستان الوئام
لا تسلني الآن عن ثورته ... إنها ميدان بدر وحنين
في أبي بكر وفي صاحبه ... في علي ثم في صبر الحسين
سيف أيوب وتقوى بايزيد ... فيهما مفتاح كنز العالمين =

آثار المسلمين شاهد عليهم، قصر الحمراء، تاج محل. طاعت لهم الدول الأخرى. ودفعوا لهم الخراج. أقاموا دولة بها مظاهر العزة والملك الحصين. وحكمت بالحق الذي في قلوب العارفين. جاهدوا وكبروا لله في ظل السيوف واستشهدوا. وقفوا صفوفاً في المسجد. وأتت لهم الشعوب. ووصلوا إلى النجم القطبي[1].

ثم انقلبت الآية عندما أتى العرب المحدثون. تبدلت الليالي، وتبدلت السعادة إلى بأس مرير. انقلب النور إلى ظلمات. كل الشعوب اعتمدت على مواردها من أجل الرخاء. ولدى العرب كنوز تفوق النعم في صحرائها. انقضى الحفل، وانفض السامر. وكان منعقداً حتى الأمس. وانقلبوا من وحدة إلى فرقة، وكأن الكائنات لم تشرق لهم بهدي الإيمان والمنهج الرشيد، وكأنهم نسوا في ظلام الدنيا قيم الصحراء من أجل العيش الرغيد[2]. كل شعب أقام نهضة في حين انهدم بنيان العرب. كانوا قديماً أمة فأصبحوا حديثاً أمماً[3].

= هاهنا الحكمة والدين القويم ... وهناك الحكم للدنيا يقام
كل قلب فيه للمجد الصميم ... ثورة تعلو به فوق المرام
السابق، ص384 ـ 386.

(1) لا تقل أين ابتكار المسلمين ... وسل الحمراء واشهد حسن تاج
دولة صار ملوك العالمين ... نحوها طوعا يؤدون الخراج
دولة تقرأ في آياتها ... مظهر العزة والملك الحصين
وكنوز الحق في طياتها ... دونها حارت قلوب العارفين
كبّروا لله في ظل الحروب ... وصفوفا تحت ظل المسجد
ضجة دانت لهم فيها الشعوب ... وارتقوا فيها مكان الفرقد
السابق، ص386 ـ 387.

(2) قد أبدلتنا الليالي من سعادتها ... يأسا مريرا ومن أنوارها ظُلما
كل الشعوب أعدّت من مواردها ... حصن الرخاء وصارت للمنى قدما
كيف انقضى حفلكم وانفض سامركم ... وكان بالأمس مثل العقد منتظما؟
توحدت من قديم الدهر أمتكم ... ما بالها انقسمت في أرضكم أمما؟
السابق، ص383 ـ 384.

(3) وي كأن لم تشرقوا في الكائنات ... بهدى الإيمان والنهج الرشيد
ونسيتم في ظلام الحادثات ... قيمة الصحراء في العيش الرغيد
كل شعب قام يبني نهضة ... وأرى بنيانكم منقسما
في قديم الدهر كنتم أمة ... لهف نفسي كيف صرتم أمما؟
السابق، ص387.

ثم استُعمر العرب. خدعهم المستعمرون. ووضعوا سم العقارب في أكمامهم. أهدروا آدمية الشعوب. وأيقظوا الفتن. أفسدوا الفطر. وقسموا الأمة. وقضوا على وحدتها[1].

الحل هي الذاتية أو هو العود إلى الذات كما قال علي شريعتي بعد ذلك، أن يضرب العرب خيامهم في وجودهم دون الوقوف على الرسوم الخارجية والآثار القديمة، وأن يدفعوا بنوقهم في الميدان، وليسرعوا بها أسرع من ريح الصحارى، وليوحدوا أوطانهم المقسمة، ولينظر العرب إلى عصرهم ويحكموا النظر، وليبنوا أوطانهم بالسلم والعدل كما فعل عمر[2]. كل من أهمل ذاتيته يفنى. كل من لم ير ذاته قلد الغرباء. ويدعوا إقبال العرب إلى التفكير في العصر والسبق فيه، طالما أن جمالهم في هذا العصر وليس في العصر القديم. عليهم ملأ الصحراء عزيمة، واستعادة روح عمر[3].

(1) قد خادعتكم من المستعمرين يد — سم العقارب في أكمامها استترا
كم أهدروا من شعوب آدميتها — كم أيقظوا فتنا، كم أفسدوا فطرا
توارث العرب الأحرار وحدتهم — مدى عصور وأجيال وأزمان
حتى إذا جاء الاستعمار قسمها — إلى شعوب وأقوام وأوطان
السابق، ص384.

(2) اضرب خيامك في دنيا وجودك لا — تقف بها عند رسم الدار والدمن
وادفع بناقتك الميدان أسبق من — ريح الصحاري وأنقذ وحدة الوطن
يا أيها العربي انظر لعصرك في — دنيا يفوز بها من أحكم النظرا
بالسلم بالعدل تبني ما تؤمله — إن شئت للأرض عمرانا فكن عمرا
السابق، ص384.

(3) كل من أهمل ذاتيته — فهو أولى الناس طرا بالعناء
لن يرى في الدهر قوميته — كل من قلد عيش الغرباء
فكروا في عصركم واستبقوا — طالما كنتم جمالا للعصر
واملؤوا الصحراء عزما واخلقوا — مرة أخرى بها روح عمر
السابق، ص388.

الفصل الثاني

عوامل النهوض

1 ـ نهوض الحضارات

للحضارات قوانين قيامها وسقوطها مثل قانون ابن خلدون من البداوة إلى الحضارة، من الفتح إلى الترهل، من السيف إلى الكأس، من التقشف إلى البذخ. وينطبق ذلك على الأمة الإسلامية وعلى الغرب معا. بل ينطبق أيضاً على شعوب الشرق، وسلطان تيمور لنك[1]. سقطت الأمة عندما سقطت أوراق عشها في الخريف. فتمكن منها الصياد[2].

النهوض لفظ شائع في دواوين إقبال. ورمزه الأذان. إذ يؤذن المؤذن للصلاة عندما يسمع الزفرات المشتعلة للقلوب المنفعلة. ينادي بالنهوض من السبات العميق. ويتكرر النداء للنهوض سبع مرات[3]. ويقظة الأمة مثل مطلع الصباح بفضل

---

(1) فانظر إلى قدر الشعوب وكيف يبدأ بالسيوف
فإذا انتهي فإلى المزامير السجية والدفوف
حانات أوربّا كذلك والغريب طقوسها
السكر يبدأ أولا وتدور بعدُ كؤوسها
سيان تيمور لنك في سلطانه سلطان نادر
الكل تسقطه أخيرا سكرة الزمن المبادر
جناح جبريل، ص447.

(2) أنا لو لم تسقط الأوراق عن عشي اللطيف
عجز الصياد عن صيدي ولو وقت الخريف
السابق، ص451.

(3) Persian Psalms, p. 73 - 6.

أذان المؤمن الذي يبدد ظلمات الليل. الأذان هو الإعلان عن الحق والدعوة إلى الاستيقاظ لأداء الواجب(1).

يدعو إقبال المسلمين إلى النهوض والقيام بإذن الله، مادامت الدنيا قائمة، لم تُفن الأرض. وتلك دلالة «أنا الحق»، صرخة أطلقها الحلاج من القلب، تجلي المثال في الواقع، وحضور الله في الإنسان(2).عصرنا عصر الأوثان التي يمكن تحطيمها عن طريق «لا إله إلا الله». الدنيا وثن، غرور وخداع وخسارة ووهم. كلها أوثان تحطمها «لا إله إلا الله»(3).

وعوامل النهوض الفن والتربية والعلم والمرأة. يشمل الفن التمييز بين الجمال والجلال، والفن والحياة، وأنواع الفنون: الشعر والغناء والموسيقى والتصوير والسينما. وتضم التربية روح العلم والإبداع وحرية الفكر. ويحتوي العلم على التمييز بين العلم المنقول والعلم الحي، بين علم العقل وعلم القلب. وتتجسد في المرأة كل هذه المعاني من الجمال والفن والعلم والفكر والتربية.

2 ـ الفكر بين المثال والواقع

يستفسر إقبال عن أن فكره دليل للسموات، وهو حائر في الأرض، دليل حائر العزم. فلماذا يسترشد بمصلح غير قادر على إصلاح نفسه وأهله؟ لماذا يكون

---

(1) إنا لنجهل مطلع الصبح الذي ... يُدعى بيوم أو غد في الأزمن
لكنما الصبح الذي ارتجت له ... ظُلمُ العوالم من أذان المؤذن
ضرب الكليم، ص8.

(2) إن تُحل دنيا فلم تفنْ أرض ... وسماء، قم بإذن الله
من «أنا الحق» انطوى فيك قلب ... ومضاء، قم بإذن الله
السابق، ص45.

(3) عصرنا يبتغي خليلا حطوما ... وثنه. لا إله إلا الله
إن دنياك موثن لا تصدق ... زوره، لا إله إلا الله
في متاع الغرور تسعى وتبغي ... ربحه، لا إله إلا الله
يا أسير الخسار والربح ينسي ... نفسه، لا إله إلا الله
مال دنياك والبنون خداع ... كله، لا إله إلا الله
هي أصنام واهم قد براها ... وهمه، لا إله إلا الله
السابق، ص8.

العارف بالدين بغير الدين أبله؟ فأجاب الرومي بعدما تأمل في الكون الكبير أن من يسير على الأرض قادر على أن يسري في السماء[1]. نموذج الذات الطيران في السماء. لذلك كان العصفور بالرغم من رقته أقرب إلى الذات من التين بالرغم من حلاوته[2].

يتعجب إقبال من الخوض في المسائل النظرية الخالصة مثل أصل الإنسان من ماء وطين. هو يبحث عما يوقظ قلبه، وهو في صورة سجين. وينصح الرومي بأنه لا لزوم للشموخ كنعش. فخلف النعش يد وكف، وأنه من الأفضل التواضع كحصان في أي مكان يصهل ويخف[3]. يعرف الفيلسوف كيف يحلق بفكره في غاية البراعة. جسده فارغ من قلبه. علمه غزير. تنقصه الشجاعة وروح المغامرة[4].

الدين مع الفيلسوف مثل الشمس في كبد السماء، ولكنه يتوهم الوصول إلى الحقيقة بالبحث والنظر. يبحث إقبال عن سبب غربة النفس وطول الطريق في السفر، والحبيب في كل واد. أضاع العمر في البحث والنظر. وتردد بين ابن سينا والرومي، بين النظر والذوق. يسير مع كل رفيق ولكن لم يجد رفيقاً يسير معه إلى

(1) قال: يا أستاذ، فكري للسموات دليل
وأنا في الأرض هذي خائر العزم ذليل
لِمَ نسترشد بالمصلح لا يصلح أهله؟
ولِمَ العارف بالدين بغير الدين أبله
قال رومي بعدما استرسل في الكون الكبير
في سماء الله يسري من على الأرض يسير
جناح جبريل، ص527 ـ 528.

(2) الطيران سرنا المحجوب لا يستطيع نيله مجذوب
السابق، ص545.

(3)
قال: يا أستاذ الخوض في ماء وطين
أين ما يوقظ قلبي وهو في صدري سجين
قال: لا تشمخ كنعش فوراء النعش كف
وتواضع كحصان أينما شاء يخفّ
السابق، ص526.

(4) يعرف الفيلسوف كيف يطير وهو في العلم غاية في البراعة
جسد فارغ وعلم غزير لو أضافوا إليه روح الشجاعة
السباق، ص546.

نهاية الطريق[1]. يحتار أهل الفلسفة في أسرار المعرفة. لم يجاوز فكرهم منذ القدم آراء عن الماء والطين لأن أعينهم حرمت نور القلوب. ونضب لديهم معين العشق. لم يروا في الكون إلا الظاهر، الألوان بالإبصار، دون نور القلب وسراجه[2].

يخشى إقبال من الفكر الحر على الدين كما يخشى على العصفور أن يقع إن لم يحسن الطيران. الفكر الحر هو المرتبط بالوجدان. وهو مساوق للوحي، ومتفق مع الدين. لا يقف ضده أو يهدمه كما حدث في الثورة الفرنسية. يمكن أيضاً أن نخشى من الدين على الفكر الحر، من القطع على الشك، ومن الإيمان على البحث الحر، ومن المسلمات على الافتراضات، ومن الإلهيات على الإنسانيات[3].

3 ـ علوم النظر

الفيلسوف والمتكلم والفقيه وكل رجل علم نظري أيضاً يعيشون في الأوهام.

---

(1) محل الدين من يد فيلسوف ... محل الشمس من كبد السماء
له في كل يوم وهم بحث ... يكون من الصباح إلى المساء
أنا في ظل بيتي أم غريب ... وهل سفري بعيد أم قريب؟
قد استوحشت من جبل وواد ... فأين تراه يستتر الحبيب؟
أضعت على رسوم القوم عمري ... أفتش عن بصير بالرسوم
تعجب جئت من أين ابن سينا ... وساءلني ستذهب أين رومي
أرافق في طريقي كل سار ... وأعطيه نصيبا من طريقي
ولم أر في طريقي مستعدا ... يكون إلى نهايته رفيقي

السابق، ص533 ـ 534.

(2) ذلك السر وهذي المعرفة ... فيهما حيرة أهل الفلسفة
منذ بدء الخلق في ماضي السنينا ... لم يجاوز فكرهم ماء وطينا
حُرمت أعينهم نور القلوب ... ومعين العشق منهم في نضوب
لم يروا في الكون إلا منظرا ... أزرقا أو أحمرا أو أصفرا
وإذا الأبصار لم تدرك هداها ... من سراج القلب ضلت في ضحاها

يا أمم الشرق، ص344.

(3) ألا ترثي لعصفور ... عن الطيران قد منعا؟
إذا استخفى وحاول أن ... يطير لوحده وقعا
يحاول أن يكون ... فؤاده بيتا لجبريل
وليس له من الطيران غير القال والقيل
هل العصفور بين الشوك كالعصفور في الجنة؟
بربك هذه حرية في الفكر أم جنة؟

لا يعرفون معنى الشكوى والأنين. يحيون في أرض غير الأرض[1]. وهل الشريعة قامت من أجل التقليد وحراسة المعبد الذي شيدته أم أنها الوجد في فؤاد متجه إلى الكعبة التي ألهبته؟[2]. لا يحتاج الشاعر إلى فيلسوف أو مُلاّ. فقد مات القلب وفسق البصر. ويزدري الشاعر اللاهوتي وهو على رأس القوم وقد عمي بصره[3]. الميتافيزيقا متعبة، مع أن التعامل مع الآخرين يبين أن كثيراً من قضاياهم في حاجة إلى نقد وتمحيص مما يؤدي إلى النزعة التأملية، ومن ثم ضرورة الميتافيزيقا كتفكير في الحياة كما هو الحال عند برجسون[4]. المعرفة من التجربة. وكل تجربة تعكس شيئاً من روح الإنسان بما في ذلك تجربة الخطيئة. إذ تكشف عن شئ من الروح لم يكن معروفاً من قبل. التجربة إذن مصدر مزدوج للمعرفة. تعطي رؤية لما هو بخارج الإنسان وما هو بداخله[5].

الصوفي النظري والملا أي التصوف الإلهي والفقه ليسا طريقاً للعلم. فالعلم ينقش على صفحات القلب. تشهده الذات. حل الغمّ في قلب الملا، ودمعت أعينه. يهرب منه الناس لأنه لا يزين حجازه بالبشر. يتحدث للحرب، وفي حضنه عدة كتب. لا يعرف لغة الذات. فمن الذي يملك القلب، ويلهم الشوق؟ كل منهما

= فقل لمفكر حر أضل الفكر وجدانه؟
تعالى الله أن يلهم ما يبطل قرآنه
وهل يهدم مجد الشعب غير الفكرة الحرة؟
وهذه الفكرة البلهاء سيدها أبو مرة

جناح جبريل، ص550.

(1) أيها الفيلسوف دعك وشأني فأنا مدرك إلى أين أمضي
لست مثلي مسافر كيف أشكو لك دربي وأنت في غير أرضي

السابق، ص242.

(2) أهي في هذه الشريعة قامت تحرس المعبد الذي شيدته؟
أم هي الوجد في فؤاد مُلب يمسك الكعبة التي ألهبته؟

السابق، ص457.

(3) لست أحتاج فيلسوفا وملاّ موت قلب هما وفسق بصيره
كيف للاهوتي أبدي ازدرائي حين ألقاه وهو رأس العشيرة

السابق، ص459.

(4) St. Ref., p. 22.

(5) Ibid., p. 146.

رمى في الدين بسهم فمن المصيب، الملاّ أم الشاعر؟[1]. ولا يُسلم القلب لأيد تضيق العقدة. وإذا ما رفعت العين إلى بيت الإله فإن الإنسان يتردى من الأعالي. الملاّ عبوس لا يميز في الكتاب بين القشر واللباب. وليس عجباً أن يطرد الناس من بيت الله[2].

العلم عن طريق الدرويش قد يفتح القلب عطراً وزهراً. أما علم الملاّ فالتحرر منه واجب. فعلمه لا يساعد على السيطرة ولا على القدرة[3].

يمكن الفهم من كتب الرازي وتفسيره، ولكن كلام النفس وصوت الضمير وهمس الفؤاد أعمق[4]. رفع الحجاب عن الذات هو الطريق إلى العلم وليس الكتاب[5]. العلم في بحر العمر وليس في الكتاب[6]. . . . .

---

(1) أنا الصوفي والملاّ أجافي وتعلمُ من أكونُ بلا خلاف
علي صفحات قلبي «الله» فاكتب لأشهده وذاتي بالشغاف
في قلب لملا الغم حلا وهل بالدمع بلّ العين بلاّ؟
أولي من مجالسه فرارا أزينُ حجازه بالبئر؟ كلا
يقول القول نصلا للحراب وفي حضن له كم من كتاب
وتخجلني الصراحة في كلامي عن الذات اختفى لا عن صحاب
أجب بالله من ملك القلوبا ومن قد ألهم الشوق المذيبا
كلانا من رمى في الدين سهما فقل في الرمي من كان المصيبا
أرمغان حجاز، ص448.

(2) هو الملاّ، عبوس والكتاب وقشرا لا يميز من لباب
ببيت الله يطردني لديني وذلك ليس بالشيئ العجاب
السابق، ص463.

(3) إلهي حيٌ للدرويش ذكري يفتح قلبنا عطرا وزهرا
و«لا إله» من دوما تذكّر من الملاّ ومن درس تحرر
بهذا العلم لا تبسط جناحا به الإنسان في عجز تحير
السابق، ص478 ـ 479.

(4) من الرازي كتاب الله فافهم ومنه النور خذ فالليل أظلم
ولكن لي كلام فيه فانظر أنحيا بالفؤاد وما تضرّم؟
السابق، ص460.

(5) أعن ذات تحجّب بالحجاب إليها حبذا يوم الإياب
وفي رزقي لي التفكير كفر وأنت كفرت من علم الكتاب
السابق، ص483.

(6) وعلم الغوص ضمّنه كتابا ولكن ليته في العمر أبحر
السابق، ص438، السابق، ص538.

لم ينفع الملا علمُ الكتابي(1).

يتساءل إقبال عن الحرب التي تملأ جنبيه. وفي كل مرة يسأل يقال له: قلبك، قلبك. والقلب في الصدر، رفيق الطريق. يتأرجح بين الخمول والكد. ويرى بريقه في مرآته. ويرد الرومي بأن الأمة ليست أهل فقه وأصول. وكل إنسان لديه قلب. والقلب سماء عرشه في أوجها. ولكليهما رب واحد. ليس المهم أي درب يسلكه القلب بل من الذي يملكه ويسيطر عليه ويوجهه(2).

ليس العلم تنميقاً للكلام ولا صياغة لخطاب لأن ما يحتويه الفؤاد لا يكون على اللسان(3). القول الحق لا حجاب عليه. والباقي منقول من الكتب. معاني الكلام معقدة الفهم. ويزداد التعقيد بالصوت والنطق. أما النظرة فهي خير موصل للمعاني، وكذلك الأنين وصداه في السحر.

والطلسمات التي ظهرت في العصور المتأخرة ليست علماً بل مجرد خرافة، مجرد خطوط وأعداد لربط روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب

---

(1) قال يا أستاذ، ما الحرب التي تملأ جنبك؟
أنا ما جئت إلا   قلت لي قلبك قلبك
هو ذا قلبي بصدري   وأنا حلف طريقي
بين كد وخمول   ملء مرآتي بريقي
قال: يا إقبال لسنا   أهل فقه وأصول
أنا لي مثلك قلب   وكما أنت تقول
إنما القلب سماء   عرشه في مستواها
وله رب حواه   وله رب حواها
ما لملك القلب يا إقبال درب تسلكه
منتهى الحكمة أن تبحث عمن يملكه
جناح جبريل، ص527.

(2) إن تنميق الكلام غير مجد   فالفؤاد ما احتواه ليس يبدي
قلت قولا ما عليه من حجاب   ما تبقى منه ينبو عن كتاب
بالكلام كل معنى لي تعقد   ويزيد اللبس من صوت تردد
نظرتي منها افهمن ما استعر   أو أنيني وصداه في السحر
جاويد نامه، ص326.

(3) لعلم اليوم أبطلتُ الطلسما   حطمتُ حبائلا بالحب حُطما
أرمغان حجاز، ص449.

منفعة أو دفع ضرر. فعندما يضعف النظر تقوى الخرافة[1]. العلم هو الذي يؤدي إلى الإطلاق[2]. وقد يضار الروح من علم[3].

ليس العلم سراً أو حجاباً. ومؤلفات الرازي كُحل على الجفون، تمنع الرؤية[4]. التعلم من الذات والاحتراق بها تقدم الخانقاه النار[5]. أساس العلم خوف ورجاء. يرهب العلم جلال الكون ويغرق العشق في جماله. يغيب العلم ويحضر ويظل يتطلع للعشق. وذرة شوق تتسع للكون كله. والشوق هو طريق الخلود[6]. العلم هو العلم الفياض على العقل والقلب. يستحيل عليه الكذب. وهو في نفس الوقت مرتبط بالأرض والطين[7].

يؤدي العلم إلى النظر بالدليل ولكنه يكشف عن قشر الوجود. فيقف عاجزاً عن كشف سره. يمهد الطريق فحسب. ويوقظ الشوق النائم. يوهب النار للقلب.

---

(1) نـعـلّـم ذاك أنـبـاء فـعـلّـم — لأن كـتـابـهـم سـحـر يـخـيـب
السابق، ص447

(2) عـلـيـم زانـه أدب وجـاهـل — كريم منه من يحظى بحاصل
ومـا أحـبـبـت إنـسـانـا عـلـيـمـا — ومـن أدب نـصـيـب غـيـر كـامـل
السابق، ص478.

(3) فـلا تـأمـن إذا حـصـلـت عـلـمـا — فـمـنـه الـروح يـمـكـن أن تـضـارا
السابق، ص479.

(4) أخشى عليك ركوب بحر من سراب — وكما ولدت العمر تطوي في الحجاب
للفخر كحل عن جفوني أغسله — فأرى مصير العشب في هذا الكتاب
جاويد نامه، ص168.

(5) ومن الذات تعلّم أنت حرفا واحترق — تعدم الخانقاه نار للكليم أبدا
السابق، ص217.

(6) وأسـاس الـعـلـم خـوف أو رجـاء — مـا لـعـشـاق عـلـى هـذا اتـكـاء
يُرهـبُ الـعـلـمُ من الكون الجلال — يُـغـرق الـعـشـق الـرواء والـجـمـال
ما مضي للعلم أو ما قد حضر — وإلـى الآتـي مـن الـعـشـق الـنـظـر
ذرة لـلـشـوق شـمـس حـاسـدة — صـدرهـا فـيـه الـسـمـاء راقـدة
إن يكن للشوق في الدنيا الهجوم — يـمـنـح الـخـلـد لـفـان لا يـدوم
السابق، ص255.

(7) إن بـفـضـل الـلـه فـاض عـلـمـكـمـا — فـسـيـأتـي لـلـزمـان غـيـركـمـا
لـم يـخـف عـقـل وقـلـب لـم يـذب — ما استحث عين وغاصت في الكذب
كـل عـلـم كـل فـن كـل ديـن — لا تُكفّ عن طَواف حول طين
السابق، ص328.

ويهدي النحيب في جوف الليل. لا يفسر الدنيا. يربّي العين دون القلب. يرفع إلى جذب الشوق إلى جبريل. ويضعه في صحبة المحبين. هو رفيق في بداية الطريق، ولكنه يفترق في منتهاه[1]. العلم ليس هو كلام العارفين، ولكنه طبع العاشقين[2].

العلم عند الشباب شك في حاجة إلى يقين. إذا علم بالحس فإنه ينتهي إلى الشعور[3]. العلم ضروري لتجاوز الصعاب حتى حين اللعب واصطياد الغزلان[4].

العلم هو الذي لا يذل نفسه من أجل الخبر[5]. العلم سعي نحو الحقيقة المستقلة عن أهواء العالم وأوضاعه الاجتماعية. العلم كرامة واحترام للذات، وليس ذلاً أو إذلالاً للعالم.

4 ـ علوم الذوق

في مقابل علوم النظر هناك علوم الذوق. ويسأل إقبال عن السوق التي كسدت، مع أن أي بيع يربح؟ ويجيب الرومي بشراء الحيرة بالعقل الظني. فهو

---

(1) وإذا بالعلم حققنا النظر ... فالسبيل والدليل يعتبر
ويريك للوجود قشره ... ويقول سل تبين سره
رام تمهيد الطريق دائما ... أيقظ الشوق وكان نائما
وهب النار لقلب والوجيبا ... وبجوف الليل قد أهدى النحيبا
إنه ما فسر الدنيا لنا ... عيننا ربي وربي قلبنا
وإلى جذب وشوق يرفعك ... مثل جبريل أراه يبدعك
هل يتيح العشق يوما عزلة ... إنه يحسد منه مقلة
كان في البدء الرفيق والطريقا ... ثم يمضي بعد أن ينسى الرفيقا
السابق، ص315.

(2) عدمت أنا كلام العارفينا ... فطبعي كان طبع العاشقينا
أرمغان حجاز، ص459.

(3) ظمئ الفتيان ما في الكوب قطرة ... عقلهم نور، بروح ليل حسرة
شكهم يربو ويجتاح اليقينا ... ما رأوا شيئا، وكانوا البائسينا
جاويد نامه، ص329.

(4) لا تغفلن فلات حين لعب ... العلم حصّل واستهن بالصعب
ضرب الكليم، ص61.

(5) بعلم ليت شعري أي فخر ... فعن روح لأجل الخبز غابا
وينصح طفلنا نصحا حكيما ... لخبزك لا تذل النفس أسرا
أرمغان حجاز، ص478.

وهم وظن، في حين أن الحيرة حق ويقين[1].

لا يكفي العقل بالعلم إن لم يصاحب بالجنون أي بالقلب والعشق. العقل يهدأ والقلب لا ينام. العلم وحده متفرج على مسرح، في حين أن القلب يشارك في صنع الأحداث. العلم استنباط مجرب، والعشق تجلٍّ وكشف جديد. العقل جبر، والقلب تحرر. العلم خبر ورواية، والبحر والبر مصدرها. العلم من التراب لا ينتج إلا الكلام، والعشق صمت الروح[2]. يتخلى العقل عن هذائه، ويحل محله العشق[3]. جوهر العقل هو العشق، سر الكائنات، وطريق العشق طريق جديد تتجلى فيه الذات، حنين في قلوب العاشقين[4]. ليس إلا القلب في صدر الشعوب هو الذي يحركها ويحولها إلى واد خصيب[5].

العلم والشوق من المقامات التي عرفها الصوفية. العلم بهجة، والعشق متعة. أراد صاحب التحقيق المنجلي، وصاحب الخلق بذاته يختلي. أراد موسي أن يتحقق، ولكنه أجيب ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾. فالعين ترى، ولكن الأذن تسمع. ترى العين

---

(1) قال: يا أستاذ إن السوق والحق أقول
كسدت فالبيع أي البيع يحظى بالقبول
قال: اذهب واشتر الحيرة بالعقل الظنين
إنه وهم وظن وهي حق ويقين
جناح جبريل، ص525.

(2) قد وُهبتُ العقل فامنحني الجنون واهد هذا القلب للجذب الدفين
إنما للعلم في الفكر المقام عشُّ ذاك العشق قلب لا ينام
وإذا العلم عن العشق انفرد مسرحا أضحى لأفكار تعد
عيشنا لولا التجلي سقمنا عقلنا مسّ وجبر ديننا
هذه الدنيا بها بحر وبر نحن نرنو وهي من يروي الخبر
من ترابي ما نما إلا الكلام وكلام الهجر يخلو من ختام
جاويد نامه، ص141 ـ 142.

(3) أنت يا عقل فانصرف عن هُذاء أنت يا عشق صحوة الجد أطلب
السابق، ص146.

(4) عقلك الحاصل كان للحياة لك عشق هو سر الكائنات
وطريق للحبيب، كم جديد وجديد فيه يبدو للتجلي
إنما هذا الحنين للوحيد في قلوب العاشقين الشيقات
السابق، ص154.

(5) ليس إلا القلب في صدر الشعوب إنها لولاه كالوادي الخطيب
السابق، ص170.

الآفاق، لكنها قد لا تقوى على رؤية التجلي الإلهي في الدنيا[1]. العلم بالعشق علم المؤمنين، وبدونه علم الكافرين. العلم دون عشق جثة، وعقل لا يصيب. هو أعمى يحتاج إلى نور، وعقل يحتاج إلى هداية[2].

دور العقل حل لغز الطين والماء. إذا كان فوق القوة فإنه يكون بطيء الخطوة. في حين أن العشق زمان لا يفرق بين الشهور والسنين، بين القرب والبعد. يطوف العقل حول الجبل، والعشق يشقه. وهو ما قاله برجسون في العقل والحدس. العقل جبال، والعشق بركان. العقل في مكان، والعشق في زمان. العقل رماد، والعشق حجر[3]. يسود العشق ويسمو بالدماء. ويكافح في سبيل الحبيب حتى لو صد الحبيب[4].

---

(1) من مقامات لنا علم وشوق — لهما فيما جرى للقوم حق
بهجة للعلم تحقيق دقيق — متعة للعشق خلق قد يليق
صاحب التحقيق رام المنجلي — صاحب الخلق بذات يختلي
عين موسى رؤية الدنيا أرادت — وإليها رغبة التحقيق ساقت
لن تراني إنها المعنى الدقيق — ولتضع فيه فذا البحر العميق
إن تلح للعين آثار الحياة — تستمد النبع جوف الكائنات
هذه الآفاق بالعين ارمقن — وتجلي ربها لا تطلبن

جاويد نامه، ص202.

(2) عِلمنا بالعشق علم المؤمنينا — وبغير العشق علم الكافرينا
جثة علم لنا ما لم نحب — ولنا العقل كسهم لم يصب
هب عيون العُمي نورا تشهده — واهد للإيمان من تبّت يده

السابق، ص210.

(3) وإلى العالم هذا العقل جاء — كي يحل اللغز من طين وماء
حيث كان العقل فوق القوة — أم من يهوي وئيد الخطوة
ما درى العشق شهورا من سنين — لا ولا حتى قريبا من شطون
ويشق العقل شقا في الجبل — أو حواليه يطوف في مهل
ومن العشق جبال كالهشيم — وقلوب كالسموك إذ تعوم
إنما العشق بينات اللامكان — والممات دون قبر للعيان
ليس يقوى العشق من ريح وماء — لا ولا من قوة للأقوياء
والرماد العشق والعشق الضرم — يفضل الدين ومن علم أهم
أمسنا والغد وهو اللازمان — ما دنا أو شط وهو اللامكان

السابق، ص150.

(4) بالدماء العشق يسمو ويسود — وله العيدان منشار وعود
في سبيل الله ما يجري يطيب — مرحبا بالصد إن صد الحبيب

السابق، ص175.

وجوهر النبوات والملل العشق إن كمل[1]. وإمام شهداء العاشقين شرف للناس.

موت العقل ترك الفكر. وموت القلب ترك الذكر. والجسم تراب، والروح إله. والإنسان أبدي سره. والكون يُوجّه شطره. والعلم قشر لا يطيب. والدليل وجه الحبيب. ودين العوام لا وجود له. ودين العارفين تصعب معرفته[2]. قد يغزو العقل ويكتشف الآفاق، ولكن يظل العشق مجهولاً[3]. العقل راحة، والعشق ألم[4]. العقل سراج، سر التقدم، والقلب خمر للشرب مع المحبين[5].

عين القلب أفضل، والخروج عن إطار الفكر أمثل[6]. يتقد الطبع من القلب. ومنه يصحو التراب الراقد. إذا مات القلب تحلل الجسم، ويتغير لون الدم الأحمر[7]. ويصعب الحكم أحياناً، ويصعب التأويل. ولا يبقى إلا الاعتماد على

---

(1) النبوات، كما خلتَ، الملل يخلق الإنسانَ عشق إن كمل
السابق، ص176.

(2) قال: موت العقل؟ قلت: ترك فكر قال: موت القلب؟ قلت: ترك ذكر
قال: جسم؟ قلت: ترب قد تراه قال: روح؟ قلت: رمز للإله
قال: والإنسان؟ أبدى سره قلت: كون؟ قال: وجه شطره
قال: علم؟ قلت: قشر لا يطيب والدليل؟ قلت: وجه للحبيب
قال: ما دين العوام؟: ما سمعنا قال: دين العارفين؟: ما رأينا
السابق، ص199.

(3) عقلنا إن كان يغزو أي بأس عشقنا هذا وحيدا ما عرفته
السابق، ص251.

(4) وجْدُ من يعشق بالقلب الصريع تلك روحي منه في الحزن الوجيع
السابق، ص253.

(5) ألك العقل سراج؟ في الطريق سر تقدم ولك العشق مدام فمع الحب اشربن
السابق، ص296.

(6) قال لي الرومي عين القلب أفضل الخروج عن إطار الفكر أمثل
السابق، ص299.

(7) إن من قلب لنا الطبع اتقد وصحا منه التراب أو رقد
وبموت القلب جسم غُيرا ودما أمسى النضيح أحمرا
بفساد القلب ما هذا الجسد؟ وحده كن من على القلب اعتمد
السابق، ص305.

القلب[1]. القلب ألم. ومن الألم ينبثق الفرج[2]. لا يخشى القلب من الألم في حد ذاته، ولكنه يخشى من الألم الذي لا يليق به[3]. وأسير القلب لا يفدي الأسير. ولا يزيد من ألمه. والأعمى لا يقود أعمى[4]. ولو لم تؤخذ شرارة من نار القلب فإنها تكون شمساً تحت الفلك[5].

إذا غاب دليل العقل قاد القلب[6]. القلب عود إلى النفس. والصدر دار للحبس[7]. القلب بحر يسكن في الصدر، ويكمن في الدار[8]. وإذا صان القلب السلطان والفقر فإن البحر قد صان الجواهر. إذا دام العقل للإنسان قيدا فإن القلب يفتقد[9].

الذات من ناحية القلب وليس العقل[10]. ومنها ينبثق الحبيب. وبها تتم

---

(1) يصعب الحكم؟ حذار لا تؤول ... وعلى قلبك مصباحا فعوّل
السابق، ص330.

(2) لا تؤمّل غير قلب ذي أمل ... ادع ربا وانس كل من حكم
السابق، ص332.

(3) من الآلام لا أخشى ولكن ... بهذا القلب هب ألما يليق
السابق، ص424.

(4) أسير القلب لا يفدي الأسيرا ... وليس يزيد من ألم كثيرا
السابق، ص428.

(5) السابق، ص539.

(6) وهذا العقل يقدمه دليلا ... لذا أسلمتُ للقلب الزماما
أرمغان حجاز، ص435.

(7) بقلبك أمسكن وعد لنفسك ... وصدرك فليكن دارا لحبسك
السابق، ص480.

(8) وهذا القلب بحر منك يسكن ... ومن جراك فيه الدر يكمن
السابق، ص484.

(9) وصن للقلب سلطانا وفقرا ... فهذا البحر قد صان الجواهر
يدوم العقل للإنسان قيدا ... إذا في صدره القلب افتقدتا
السابق، ص487.

(10) وسكر أنا لتلك الذات عقل ... وإن الصمت في حاني لفضل
لديك بخرقة أدنى نصيب ... ومن ذاتي وجدت شذا الحبيب
بمرآة لذاتي قد بصرت ... بصدري خلوة فيها قرَرْت
السابق، ص496 ـ 497.

الرؤية. ولو نظر العقل بعين القلب لرأى العالم مضيئاً بنور «لا إله». ولو نظر بنور الشمس والقمر لم يحسبه إلا دوران الليل والنهار[1].

العشق دين الروح. وهو ما سماه المسيح المحبة. فقد يذل العقل والدين من الفسوق. لذلك كان عيسى سراج الكائنات. حرر الروح من البدن الذي كفنه الإنسان فيه. وتولستوي هو الذي فهم رسالة المسيح[2]. العشق احتراق. واحتراق قديم يعود لهيبه من جديد[3]. يضرم العشق النار وينصرف. ويهب العقل رؤية ويغادر. العشق حركة لا ثبات لها[4]. يبقي في القلب بعد إغراق العينين. العشق مستمر حتى بعد الوصال إلى الحسن. ولا يكون الوصال إلا بعد تحطيم القيود. فالعشق حرية[5].

العشق شوق، والشوق عشق. العشق شوق إلى الحبيب، والشوق عشق له. يمزق الشوق الستر. ويتجاوز رؤية العين في الضمير. لا يمكن عزله[6]. الذوق والشوق ركيزتا الشعور. ولا يدرك ذلك إلا بنور العين[7]. الذوق يؤدي إلى

(1) السابق، ص533.

(2) ذل عقل ذل دين من فسوقك — هان حتى العشق من سوم بسوقك
إنما عيسى سراج الكائنات — نوره اللماح في كل الجهات
المسيح أسكن الروح البدن — أنت من أدرجت ميتا في الكفن
جاويد نامه، ص177.

(3) إن عشقت في لهيب فاحترق — كان منه أو فلست المحترق
إنه في العشق منا أقدم — سرَّه ما ليس يدري آدم
السابق، ص266.

(4) أضرم العشق علينا وانصرف — وهب الرؤية عقلا، ما وقف
اغمض العينين حتى أملكه — في فؤادي طاب لي أن أسلكه
السابق، ص267.

(5) الوصال ما أراح قط عشقا — بل أراح سرمدي الحسن حقا
وابتداء عند حسناء سجود — بانتهاء حُطمت تلك القيود
السابق، ص314.

(6) إن فرْط الشوق سترا مزقا — وعن العين القديم فرقا
عصره كان ضميرا وهو فيه — عزلة مهما تكن لا تحتويه
السابق، ص258.

(7) ولما بالذوق والشوق الشعور — ولعين حاكم البنجاب نور
السابق، ص286.

اليقين[1]. والقلب في قيد إذا ما تجرد عن الذوق والشوق[2]. العشق مبدأ الحياة. وهما خطوب ومغامرة موصولة الأشجان[3]. القلب والعشق والشوق والذوق طريق الحب. والحب له شهداؤه في كل مكان، ولدى كل الشعوب. يهيج في الفؤاد كما يهيج الفراش حول السراج. هو الباعث على التفلسف عند الحكماء وإلا تحولت أفكاره إلى لعبة من لآلئ من زجاج. يدفع الذات إلى الاستقلال. ولا يخاف أي سلطان. فالخوف علامة الاحتياج[4]. قدر الإنسان في مكانة الحب من قلبه كما ينصح إقبال ولده جاويد، عندما يصبح نغماً صباحا ومساءً يجدد حرقة الندماء. فهو الطريق إلى الوعي بالدنيا والهداية الإلهية[5]. القلب مكان الدم. وهو الذي يحركه، وليس الفقر أو الجود. ومن لم يهده دمه الأحمر يكون عقله أسودَ[6].

5 ـ علوم التربية

أ ـ مناهج التعليم: من النقل إلى الإبداع. من عيوب العصر الحاضر مناهج

(1) أتروم الذوق عند المسلمينا … وتريد الشوق فيهم واليقينا؟
السابق، ص333.

(2) بظاهر ما يراه القلب قيّد … فمن ذوق ومن شوق تجرّد
أرمغان حجاز، ص440.

(3) مبدأ العشق والصبابة قهر وخطوب موصولة الأشجان
وهو من بعدها دلال وتيه بين طيب المنى وصفو الأماني
ويعود المحب بالقرب محبوبا وينسى لواعج الهجران
يا أمم الشرق، ص350 ـ 351.

(4) من شهيد الحب الذي زعموه … ابحثوا عنه في جميع الفجاج
سمة العشق لا تتاح لشعب … دون شعب ولا تباح لراجي
في هياج الفؤاد للحب سر … كهياج الفراش حول السراج
روّج الحب سوق كل حكيم … حاك آراءه به للرواج
هي لولا تدخل الحب فيها … لعبة من لآلئ من زجاج
رجل الحب لا يذل لشيئ … مستقل الفؤاد حر المزاج
ليس يحتاج أو يخاف مليكا … إنما الخوف مظهر الاحتياج
جناح جبريل، ص532.

(5) لتكن لقلبك يا بني مكانة … في موطن الحب البعيد النائي
كن في أماسيه وفي أسماره … نغما يجدد حرقة الندماء
وعى الفؤاد حقيقة الدنيا فإن … وهبتك إياه يد الرحمن
السابق، ص533.

(6) رجل يحرك قلبه دمه … لا الفقر يحزنه ولا الجود =

التعليم. فقد ازدحم التعليم بالغث والسمين، وبالحشو المنقول، دون تمييز بين حسن وقبح مما منع توليد الأفكار الجديدة[1]. تعليم هذا العصر لا ينضج فكراً. ولو وجد عقل حر في مدرسة إلا أن الأفكار متناثرة دون جامع بينها في ثنائية حادة بين إلحاد الغرب وفوضى الشرق[2]. ومن كان له نظرة سهم لم يحتج إلى الكتاب والديوان. إنما العلم هو العلم الذوقي الذي يقوم على العرفان والمشاهدة، لا علم الدور والفصول[3].

يقوم المعلم حالياً بخنق روح التلاميذ. ويبني بدلاً منه صرح فخار. الحق في القيل والقال، وليس في التجربة. إذا حجب جدار المدرسة الشمس فإنه سيحجب نورها[4]. وفي القوم حمال كتب ثقيلة يئن بحملها جمل[5]. لا يأتي العلم بالإقامة في زوايا الحجرات، يحشد الألفاظ كما يحشد المكتبات. إنما يأتي من نيران الخليل حتى يسمع التوحيد[6]. . . . .

= إيـاك مـن لـم يـهـدهـم دمـهـم ... سـود الـدمـاء عـقـولـهـم سـود
السابق، ص545.

(1) ضـمـيـر الـمـدارس فـي ازدحـام ... بـأفـكـار كـمـا امـتـلأ الـقـفـيـز
وهـذا الـعـصـر مـاض فـي هـواه ... جـمـيـلا مـن قـبـيـح لا يـمـيـز
فـفـي جـنـبـات قـلـبـك أخـل بـيـتـا ... عـسـى يـثـوي بـه ضـيـف عـزيـز
ضرب الكليم، ص57.

(2) فأين يصيب المرء ناضج فكرة ... وأجواء هذا العصر لا تُنضج الثمر
مدارس فيها كل عقل محرر ... ولكن بها الأفكار عقد قد انتثر
أطاحت بعشق الغرب أفكار ملحد ... وعبد عقل الشرق فوضى من الفكر
السابق، ص57.

(3) مـن كـان فـي نـظـرتـهـم سـهـام ... مـنـهـم خـلا الـكـتّـاب والـديـوان
لـكـنـمـا الـدار الـتـي سـراج ... أنـت لـهـا مـذاقـهـا عـرفـان
السابق، ص61.

(4) أمام روح التلاميذ التي اختنقت ... يبني المعلم هذا صرح فخار
الحق ما قال كاغاني ويسحرني ... ما قال من بيت شعر ند أشعاري
وإذا الجدار أمام الشمس ترفعه ... فلن ترى نورها في باحة الدار
جناح جبريل، ص546.

(5) وكم ترى في القوم حمال كتب ... ثقيلة يعيا بحملها جمل
يدور في الناس كحمال الحطب ... ويرسل الأقوال من غير عمل
يا أمم الشرق، ص353 ـ 354.

(6) يـا مـقـيـمـا فـي زوايـا الـحـجـرات ... يحشد الألفاظ حشد المكتبات =

طريق الفقه طريق مسدود، طريق الأدلة والأحكام[1].

يسأل إقبال عن كيفية العلم بالعيان أم بالبصيرة؟ ويجيب الرومي بأن البصيرة هي طريق العلم. فقد ترى العين ولا تدرك، تبصر ولا تعي[2]. ويسأل أيضاً أنه لا يبصر في الدرب مناراً. ويبحث عمن يقدح في صدره نار الحكمة. ويجيب الرومي أن من يوقد نار العلم هو يابس الخبز الحلال. أما الذي يأكل كد الناس فإن الضلال يقضي عليه[3].

لا يأتي العلم عن طريق الرواية والخبر والنقل، بل عن طريق الشهود والبصيرة. العلم الأول هو الظاهر، والثاني هو الباطل. الأول من يقف في ظل الدار، والثاني من يدخل فيه. وهي نفس الصورة التي استعملها برجسون في الفرق بين العقل والحدس، العقل الذي يرى كنيسة نوتردام من الخارج، والحدس الذي يدخل فيها[4].

= إن تكن في مثل نيران الخليل   أسمع النمرود توحيد الجليل
السابق، ص357.

(1) أنا لم أسلك إلى الفقه سبيلا   أتحرى الحكم فيه والدليلا
السابق، ص362.

(2) قال يا شيخ! بماذا   أملأ الدرب القصيرة؟
وبأي الأمر أعنى   بعيان أم بصيرة؟
قال: يا إقبال ما هذا الذي ليس يبين
إن تكن تبصر يعني   أنت إنسان مبين
يملأ المهجة حق   وحبيب دامغ
ما عدا ذلك يا إقبال جوز فارغ
جناح جبريل، ص525.

(3) قال: يا أستاذ، لا أبصر في الدرب منارا
أين من يقدح للحكمة في صدري نارا؟
قال: يوري العلم نارا   يابس الخبز الحلال
والذي يأكل كد الناس يفنيه الضلال
السابق، ص428.

(4) شأننا في الدين لا يعدو الخبر   وهو في الدين شهود ونظر
نحن عند الباب في ظل الشجر   وهو في الدار وفي مجنى الثمر
يا أمم الشرق، ص365.

لا يأتي العلم من كتاب أو مذهب. هذا علم إبليس[1]. يمكن بالجدل انتصار على العلم المنقول والمعقول. بل إن علم إبليس الظاهر هو إنكار وجود الله، وعمله الباطن إثباته. الشهادة بين «نعم» و«لا» وهو ما فعله إبليس، وليس «نعم» فقط وهو ما فعلته الملائكة.

يحتار العقل في الحقائق. تعامل معها وهو لا يدري كيف؟ والقياس لا يستطيع تحريك الفؤاد والخيال. العقل أسير للقياس، مرتبط بالحواس. ومعرفة الخير والشر تجلي. وأصل القصور العمل لا الحجر. فالعمل أصل الأشياء كما نبّه جوته وماركس[2].

لا يأتي العلم عن طريق الكتاب. النبي تلقى الوحي دون كتاب. وعلّمه دون كتاب. ولا يحدث القرآن ككتاب في القلب الأثر[3]. ليس القرآن كتاباً يقرأ بل ذوق يُطلب[4]. لا

---

(1) ليس عندي من حديث أو كتاب — والفقه من دحرْتُ في الغلاب
كالفقيه غزْل دين من غزل — جعل الكعبة آثار الطلل
ما عرفنا مثل هذا المطلب — ما لإبليس انشقاق المذهب
لوجود الله لست منكرا — أبصر الباطن واترك ظاهرا
أجهلت كي أقول ما وُجِد — كيف هذا، إن ربي قد شهد
و«نعم» في ستر «لا» ما قد نطقت — ما سكت، فأنا خيرا صنعت

جاويد نامه، ص268.

(2) حار هذا العقل في تلك الحقيقة — سار وهو لا يرى حتى طريقه
والخيال غيره عنه اختلف — ذاك في الجوزاء وهذا قد أسف
من يقول إن هذا في السما — بجوار من على الأرض ارتمى
فضل الدنيا على دنيا الفؤاد — بالقياس حرت في شرح المراد
قال لي «الرومي» أسير للقياس؟ — عنك دع كل اعتبار للحواس
بالتجلي الخير كان والشرور — جنة كانت كما كان السعير
القصور كالربيع في النظر — أصلها الأعمال لا ذاك الحجر

السابق، ص284 ـ 285.

(3) ما انتشى ما ذاق شيئا من حبور — وكتاب الدين في جوف القبور
ويقول ما يظن اليوم حقا — عن نبيين تلقى ما تلقى
ليس للقرآن في القلب الأثر — فيهما الآمال خابت للبشر

السابق، ص327.

(4) صاحب القرآن ما ذاق الطلب — العجب ثم العجب ثم العجب

السابق، ص327.

يهم الكتاب إلا إذا جذب القلب إليه[1]. كم كتاب أغشى فيها البصر؟ إن خير علم ما عُرف بالنظر، علم يسكر من أول رشفة[2]. الكتاب دماء غير مشتعلة بالنار، غمد خال من السيف، ومن اليد التي تمسك به[3]. العلم بالقلب وليس بالحرف. وهو العلم الذي يبعث على الخير والتقوى. ودرع الجاهل خير من فسق الكافر[4].

الأساتذة هم القادرون على فهم روح العصر وإفهام الطلاب إياها عن طريق تجلية النفوس، وليس عن طريق القيل والقال. مهمتهم التأثير في الطلاب كما تؤثر أشعة الشمس في الأحجار الكريمة[5]. مهمتهم إثارة الاعتراض من الطلاب وليس طاعتهم وإذعانهم حتى يشتد عودهم، ويقوون على المقاومة. مهمة التعليم إيقاظ نفس الطالب، تحريكها وإثارتها للنظر، وحثها على نيل المثل العليا، وليس تلقينها وحفظها للمنقول. فالعلم في الطبيعة، في الأمواج العاتية، وليس في هدوء العاصفة. الكتاب محدود. وقراءته محدودة. أما أصل الكتاب فغير محدود. ومشاهدته بلا حدود[6].

---

(1) ليس يدري القصد منه المكتب — إن تناسى ما بقلب يجذب
السابق، ص329.

(2) كم كتاب فيه أغشيت البصر — خير علم ما عرفت بالنظر
إن هذا العلم صب خمرة — يا لها من بعد رشف سكرة
السابق، ص329.

(3) دماء فيه تخلو من لهاب — وما زرع الأزاهر في الحراب
خليّ الغمد، ما في الكف مال — وهذا الرف يهوي بالكتاب
أرمغان حجاز، ص440.

(4) ومن علم بقلب ليس حرفا — تأمل متق خير وأبقى
أفضل جاهلا ورعا تقيا — بعلم ليس يخدعني الكفور
السابق، ص477.

(5) إن كان تربية الياقوت مقصدنا — فما شعاع رمته الشمس حيران
وما المدارس أو ما الدارسون بها — وللروايات عم الأرض إذعان
كانت جديرا بقود العصر أدمغة — يقودها العصر ما فيهن نكران
ضرب الكليم، ص59.

(6) الله يحبوك علما — بمائجات العباب
فإن بحرك رهو — ما يُبتلى باضطراب
لن تستطيع فراغا — في السِّفر من أبواب
فأنت قاري كتاب — ولست أهل كتاب
السابق، ص57 ـ 58.

تتجلى الذت في الإبداع، عندما تخلق من ذاتها عالماً آخر. والتوتر في الزمان هو بداية الإبداع، وألا يكون اليوم مثل الأمس أو الغد. الإبداع هو شرط بقاء الأمة أيضاً والأمة التي لا تبدع في التاريخ تندثر كالغبار، خاصة إذا ما عمتها فلسفة عدم تجعل الوجود وهماً وظناً. العدم بداية والعدم نهاية[1]. ولا يأس من تعلم الأطفال الصغار، مادامت القلوب في الصدور. والطفل قادر على تعلم الدين ليشرق في حياته[2].

وتقوم التربية على شقين: العلم والحياة، العقل والقلب. العقل والعلم للسيطرة على الدنيا. والحياة والقلب لتحرر الذات. ولا يغني العقل عن القلب، ولا الكتاب عن التجربة الحية، ولا علم الشيخ عن مشاهدة المريد. فالكبريت الأحمر لا يستطيع إشعال سراج الكهرباء[3]. الأسفار والكتب والنقول تعمي الحس، وتجعله غير قادر على شم عطر الرياض[4].

ب ـ المدرسة، من المهنة إلى الرسالة: أصبحت المدرسة وسيلة لتعليم الوظائف وسبل المعايش. لا تساعد على اقتحام الحياة أو انطلاق الفطرة أو كشف

(1) وما المعنى ليومك أو ليومي بلا ليل يكون ولا نهار
إذا عبر النبوغ بأرض قوم تولى مثل زوبعة الغبار
حكاية كوننا وهم وظن وهذي كل أطوار الحكاية
من العدم البداية أخرجتنا وترمينا إلى العدم النهاية
جناح جبريل، ص477.

(2) لماذا اليأس من طفل صغير إذا ما شئت فانعت بالغرير؟
ولكن من يعلّمه لتسأل ألـلأطفال قلب في الصدور؟
أرمغان حجاز، ص478.

(3) فرق علم وحياة ليس فيه من خفاء
هو في الرأس ذكاء وهي في القلب ذكاء
قدرة في العلم تبدو ومتاع وثراء
مُعضل أن ليس فيه في خطى السير اهتداء
ليس بدعا أن كأسا لك من راح خلاء
ما طريق الشيخ في المكتب للقلب ضياء
كيف بالكبريت إشعا ل سراج الكهرباء؟
ضرب الكليم، ص55.

(4) أعمت الأسفار حسا فالصبا لم تعطّر لك من روض مشام
السابق، ص60.

أسرار الكون. المهنية والحرفية قتل للنفس، وتوقف للقلب عن النبض. يغيب الحوار وطرح السؤال. تحجب المدرسة الأسرار المنتشرة في الكون[1]. ولا تقوم المدرسة الهندية على تربية الذات. فليست هدفها. الحمامة لا تلد نسراً. ومدرسة العبيد لا يخرج منها الأحرار. والموت لا يؤدي بالضرورة إلى الخلود[2]. الحر يدافع عن الحق، والعبد تغشاه الخرافة. الحر ذو كرامة، والعبد تأتيه الكرامة. والعبد المقيد لا يقدر على التعليم إلا بتصويره اللحون والنباتات.

مدارس المسلمين اليوم باردة ليست بها حرقة. مازالت ورود المسلمين لم تتفتح بعد. ومازالت سماؤهم سماء شياطين لا ملائكة. الرأس مملوء، ولكن النظرة ضحلة[3]. وأيهما أفضل: حيرة الفكر الفلسفي أم حماسة جلال الدين الرومي ووجد موسى؟ أسلوب الثعلب في الظلام أم يد الله في طريق الحب؟[4].

---

(1) لذلك كتب إيفان اليتش «القضاء على نظام التعليم المدرسي في المجتمع Ivan Illich: Deschooling Society».

ملك الموت عصرنا يتوفى — كلَّ نفس بفكرة في المعاش
يرجُف القلب من كفاح حياة — وهي موت لمشفق من هراش
أبعد الدرس عن حجاك جنونا — صاح بالعقل: لا تلذ بنقاش
عينُ صقر مُنِحْتَهَا وعليها — وضع الرق نظرة الخفاش
حجَبت دونك المدارس سرا — هو في البيد والرواسخ فاش

السابق، ص58 ـ 59

(2) إقبال أقصر، هنا لا تُعرف الذات — فما لمدرسة هذي المقالات
الخير ألا تُرى في عين قُبرة — من البُزاة مقامات وحالات؟
فلحظة الحر عام للذليل فكم — كم تبطئ السير بالعُبدان أوقات
ولحظة الحر من خُلد رسالته — ولحظة العبد من موت فجاءات
وفكرة الحر من حق منوّرة — وفكرة العبد تغشاها الخرافات
كرامة حية بالحر ماثلة — والعبد من غيره تأتي الكرامات
حسب المقيد تعليما وتربية — تصويره ولحون والنباتات

السابق، ص54 ـ 55.

(3) هب المدارس يا رباه حُرقتها — فحسنها بارد لا روح تذكيه
متى سمواتنا تنشق وردتها — متى ابن آدمنا هذا ترقّيه؟
هذي السماء التي أغرت كواكبنا — اللازوردية المجنونة الفرحة
سماء شيطان ما فيها ملائكة — رأس منير ولكن نظرة وقحة

جناح جبريل، ص457.

(4) حيرة الفكر أم حماسة رومي؟ — وجد موسى أم فكرة فلسفية؟ =

العقيدة في المدارس لا فعالية لها. والأديرة خاوية بلا أسرار، بالرغم من طول الطريق ووعورته، تتساءل العينان والقلب حيران[1]. يقنع الشاعر بِدنّه في حانته. ولا يطوف حول الكنائس يستجدي الهداية. لم يجد هذه الخمر في تلك المدارس[2]. لا يمزق الشاعر ثوبه متعة بل حرقة على أوضاع المدارس. يطمع في تربية الفرد وتكوينه حتى ينقذه من رقاد المدارس. وهو رأي غاندي أيضاً أنه لا يربي الفرد إلا «ضرب الكليم» الذي يقضي أيضاً على شعوذة البراهمة بدعوى السحر[3].

لم يتجاوز تعليم الدين الإسلامي والمسيحي طرق التعليم العام بل أسوأ منه. يقوم بالتعليم الإسلامي المشايخ دون إخلاص وبنية شيئ آخر. والتعليم النصراني براق لا يقوم على دين أو أخلاق. كلاهما تعليم يقوم على الذل والاستكانة. ربما يُغفر للفرد هذا التعليم، ولكن لا يغفر للأمة نظام تعليمها[4]. وفي هذا الزمان تقع حرب الأديان. وهي حرب ضد الدين لصالح الكفر. الدين بناء حق أرفع مما شيد السلطان[5].

= هي أسلوب ثعلب في ظلام ... أم يد الله في طريقة حبه؟
السابق، ص457.

(1) غصن العقيدة في المدارس عار ... ومذاق أديرة بلا أسرار
بالرغم من طول الطريق وعسره ... عيناك ظاعنة وقلبك سار
السابق، ص455.

(2) أنا في حانتي قنعت بِدِنّي ... لست ممن يطوف حول الكنائس
أبدا لا تقدّم الخمر هذي ... نفسها في رحاب تلك المدارس
السابق، ص458.

(3) لست عن متعة أمزق ثوبي ... تلك أسرارنا وليس وساوس
طمعي الفرد والمطامع كثر ... هبة الفكر من رقاد المدارس
رأي غاندي إن كنت غير قوي ... غير مجد في ملتي واعتقادي
ليس إلا عصا الكليم لسحر ... برهمي مشعوذ في البلاد
السابق، ص460.

(4) قد عرفنا قدر أشياخ الحرم ... كل دعوى دون إخلاص سقم
ولتعليم النصاري نغم ... ليس من دين وخلق ذا النغم
تكتب الذلّ على أقدارها ... أمة بالذات فيها لا تُهم
ربما تغفر للفرد ولا ... تغفر الفطرة آثام الأمم
ضرب الكليم، ص60.

(5) حرب على الأديان ذا الزمان ... مركب في طبعه الكفران =

والمسؤول عن ذلك هي المدارس الدينية وفقهاء السوء ورهبانه. ولولاهم لأمكن ري المدينة مما رواها السابقون. وصغار التلاميذ الأبرياء لم يعلموهم الطيران. قتلوا الحمية في صدورهم. والمفتي يكرر مصطلحات الفقه القديم بلا فهم. كؤوسه فارغة. لجاجه كثير. ومن قدر على نحت الصخور في الماضي سهل عليه صياغة الزجاج[1]. ليس في هذه المدارس إلا ما يُحدث الغفلة والبلادة. والدرس والبحث في الفؤاد سماع صوت التوحيد. فالعلم في القلب وليس في الكتاب، ومن الذات وليس من الأستاذ[2].

والدير كالمدرسة سبب ضياع البصيرة، وانزواء الحب، وظلام الطريق الموصل إلى المعرفة[3].

ويشير إقبال إلى الرسالة أحياناً باسم الدين. والدين يعطي اليقين. يعطي القوة، ويربط القلب بالإله. الدين احتراق في الطلب. هو عشق بالقلب يوجب

= سدة أهل الله، فاطلُبْنها — أرفع مما شيد السلطان
السابق، ص61.

(1) ولولا مدارس هذي الشيوخ — وأحبار سوء ورهبانها
لروّى المدينة مما ارتواه — وأورق بالحب بستانها
صغار الشواهين ما ذنبها — هم علموها عناق الغبار
هم قتلوا القلب في صدرها — هم أبدلوها بهذا الشنار
ترى النشأ يملأ وجه الطريق بروحات نسر وغدوات باز
ومفتي المدينة واد سحيق — يضج بمصطلحات الحجاز
أنا لست أفهم هذي الكؤوس — ويؤسفني مثل هذا اللّجاج
ومن كان يحسن نحت الصخور — ترفع عن أن يصوغ الزجاج
جناح جبريل، ص429 ـ 430.

(2) ما في مدارسك التي ترتادها — إلا بحوث مغفل وبليد
سر الدراسة في فؤادك كامن — لو كنت تتقن صرخة التوحيد
لم تبق يا مسيكن إلا فرصة — لك في استعادة سرك المفقود
اطلب علوم القلب من أستاذها — واجهد لنيل مقامك المحمود
السابق، ص442 ـ 443.

(3) أنا آسف جدا ويحزنني — غضبي على ديري ومدرستي
ضاعت هناك بصيرتي وذوى — حبي وأظلم درب معرفتي
السابق، ص443.

طاعة الحبيب[1]. يكشف العشق الطريق[2]. وأهل القلب شمس الكائنات. نورها يهب الحياة[3].

يريد إقبال أن يرى شيخاً قادراً على تغيير الأوضاع الحالية. يحول التلميذ إلى أستاذ، والأستاذ إلى تلميذ، متحولاً من النقل إلى الإبداع. يخاف الباز من العصفور الذي قد يقلم مخالبه. فلدى الشباب نور يفيض على الشيوخ إذا ما تخلصوا من قيد العبودية حتى لو ألقوا حطباً في نار الوجود. يتصرفون بجنون، ويسقطون تعبا. قلوبهم كالحجر[4].

والآن تبكي مدرسة الأسود التي تخرج منها أباطرة الزمان الماضي. جار عليها الزمن فأصبحت مرعى لخرفان ووكر ثعالب. لم يعد للقوافل من يقودها مثلما قاد موسى شعبه. ومن يردد وراء العصفور نشيده والجميع ساه والمردد لاه؟ إن حضر المعلم غاب التلاميذ وإن حضر التلاميذ غاب المعلم. مضت العزائم السالفة كما يمر النسيم بالبستان. وهي التي أعطته جمالها وروته بالألحان. والآن يكرر التاريخ نفسه في الظلمات في آيات معكوسة[5].

---

(1) كن قويا وابغ بالدين اليقينا ... واربط القلب برب العالمينا
نلت من ربك قلبا منحته ... مسلم هذا تأمل طاعته
إنما الدين احتراق في الطلب ... وهو عشق ثم يتلوه الأدب
جاويد نامه، ص330 ـ 331.

(2) ولعبد العشق من رب طريق ... وعلى الكافر والبر الشفيق
السابق، ص332.

(3) إن أهل القلب شمس الكائنات ... نورها وهاب هاتيك الحياة
السابق، ص333.

(4) بودي أن أري شيخا ... يغير وضعنا هذا
يقوم ويجعل التلميذ للأستاذ أستاذا
يخاف الباز عصفورا ... يقلم ظفر مخلبه
فآت شبابنا نورا ... تفيض على الشيوخ به
وخلصهم بما تختار من قيد العبودية
ولو ألقيتهم حطبا ... بنيران الوجودية
تصرّف بالجنون لهم ... وفجّره بهم شعبا
فليسوا شعبة منه ... إذا لم يسقطوا تعبا
جناح جبريل، ص513.

(5) يممت مدرسة الأسود رأيتها ... تبكي أباطرة الزمان الذاهب =

وتوجد غريزة جمع الشهادات في طبقة معينة من العائلات الهندية غالباً من صنع الإدارة الإنجليزية. تطور الميل إلى جمع الشهادات من مصادر رسمية متعددة وطباعتها. وأصبح غريزة ظهرت بوضوح لدى الخلف. وهو مرض نشأ في ظرف غير صحي[1].

6 ـ الجمال والفن

أ ـ الجمال والجلال: الجمال رؤية فنية للعالم في حالة نشوة وسرور به، وقدرة على التعبير والتصوير. الجمال مرتبط بالعين التي تسبح في الفضاء[2]. ليس الجمال الحجارة أو اللون أو الصوت أي البدن بل هو ما يثيره من معاني ودلالات أي الروح. فالمسجد ليس مجرد تشييد وأعمدة وأقبية وزخرفة بل هو أذان وذكر وشهادة «لا إله إلا الله». فما قيمة مسجد لا يُذكر فيه اسم الله؟ وما قيمة سجود لا يُتدبر فيه معاني التشهد؟[3].

= جارت عليها الحادثات فأصبحت ... مرعى لخرفان ووكر ثعالب
ما للقوافل من يقود ركابها ... بجوار موسى في رحاب الله
من أين للعصفور ذوق نشيده ... والجمع ساه والمردد لاه؟
آه لأنفاس مضت وكأنها ... طيف ومر بذلك البستان
وهي التي أذكت لهيب جماله ... وهي التي روته بالألحان
في ليل دهشته هناك ووجده ... ظلمات تاريخ يكرر نفسه

السابق، ص463.

(1) St. Ref., p. 138.

(2) الربيع النضير ملء الفضاء ... وجيوش الشقيق في الصحراء
وشباب ومتعة وسرور ... ودلال ونشوة بالغناء
وعيون النجوم في حلك الليل ... وسبح الأفلاك في الدأماء
وعروس الهلال في هودج الليل ... تهادى بموكب للقاء
وتبدى ذكاء في رونق الصبح ... وصمت الأفلاك في ذا الرواء
سرّح العين، لا تكلّف أجرا ... لا يباع الجمال في ذا الفضاء

ضرب الكليم، ص74 ـ 75.

(3) تملأ صدري هموم مفئود ... لم يبق إلا ادكار مفقود
قد خمدت «لا إله» لا حُرق ... ولا تجل تواتر ملحود
في الخلق كل العيون تنكرني ... أعيى إيازا مقام محمود
من صخرك المسلمون في خجل ... لجوهر كالزجاج معدود
فإنما كفء ما تمثله ... صلاة حر ربيب توحيد
جلال تكبيره لذي أذن ... فيه وغى هالك وموجود =

يفرق إقبال بين الجمال والجلال مثل الصوفية. وهي التفرقة الأثيرة عند كانط والتي اشتهر بها. فالجلال هو ما أضاف العظمة والرونق والقوة للجمال مثل جلال السماء المرصعة بالنجوم[1]. قد تفقد الذات نفسها حيناً، ولكن يبقى الجلال العظيم. كلاهما، الجمال والجلال، سر وسحر[2]. وكما ينمو نبات على ضفاف نهر وصوت الموسيقى العذب الفضي يسمع من تحته كذلك ينمو الإنسان على ضفاف اللانهائية يستمع إلى لحن إلهي من أسفل، يعطي روحه الحياة والانسجام[3].

القوة من عناصر الجمال. وهي التي تحيل الجميل إلى جليل. وهي تفرقة عند الصوفية المسلمين خاصة عند ابن عربي قبل أن تكون عند كانط[4]. بل إن من عذوبة العذاب أن يكون بنار قوية[5].

والحسن والقبح أو الخير والشر مرتبطان، نتيجتان لإثبات الذات ونفيها، لعلوها وسفلها، لقوتها وضعفها[6]. لا يعبران عن النفع والضرر أو المكسب

= وما صلاتي بقلب ذي حُرق ... ولا دعائي دعاء معمود
ولا أذاني جلال مقتدر ... فكيف ترضى سجود رعديد؟
السابق، ص75.

(1) حسبي كمالا قوة من حيدر ... وكفاك من أفلاطون الإدراك
وأرى جمالا في بهاء أن ترى ... في سجدة للقوة الأفلاك
ولنغمة من دون نار نفخة ... ما الحسن إلا بالجلال يحاك
السابق، ص98.

(2) Persian Psalms, p. 119.

(3) St. Ref., p. 140.

(4) عندي جمال في بهاء أن تري ... في سجدة للقوة الأفلاك
ولنغمة من دون نار نفخة ... ما الحسن إلا بالجلال يحاك
ضرب الكليم، المدخل، ص ط - ي.

(5) لا أرتضي نار الجزاء ولم تكن ... وهاجة ولهيبها دراك
السابق، ص ي.

(6) عالم الذات به علو وسفل ... وبه معرك قبح وجمال
في اعتلاء الذات يبدو جميل ... وقبيح ما بدا في الاستفال
السابق، ص ي.

والخسارة[1]. الجمال والأخلاق شيئ واحد. ومن القيم الإنسانية الإحساس بالاحترام والتقدير والجدارة، بل ولها قيمتها الاقتصادية. فلقب مساعد جراح أفضل من لقب مساعد مستشفى حتى دون زيادة في الأجر[2]. التملق سلوك مغالى فيه[3]. والأخلاق سلوك. أبدع القدماء شخصيات أخلاقية في حين ألف المحدثون مختارات أخلاقية[4].

ب ـ **الفن للحياة**: ليس الفن للفن بل الفن للحياة[5]. الفن في الهند جنازة لكل عشق، وقبر لكل فكر. فن الهند للموت، وليس للحياة. ينيم الروح، يسدل الستار على كل مجد. موضوعه المرأة التي يُسخّر لها كل شئ[6]. الفن تعبير عن الحياة. والحياة خضم زاخر. والذات لا تركن إلى الشطآن بل إلى النهر ذاته[7]. فالحياة على الشط ضعيفة، وفي البحر زاخرة. والحياة ليست موضوعاً للحديث بل للفعل[8]. الحياة هي تجميل الذات، وابقاؤها في مسيرة. والفن على هودجها هادي لها[9]. والفنان يعبر عن هذه الرؤية ليل نهار. ليست الحياة للبشر فقط وليست ملكاً

(1) جميلك أو قبيحك لا أراه ... جعلتَ عبارة ربحا وخُسرا
رسالة الشرق، ص266.

(2) St. Ref., p. 7.

(3) Ibid., p. 158.

(4) Ibid., p. 123.

(5) الشعر فيه من الحياة رسالة ... أبدية لا تقبل التبديلا
مقصد الفن في الحياة لهيب ... أبديّ فما وميض الشرار؟
السابق، المدخل ص ل، ص84.

(6) تخيلهم جنازة كل عشق ... وظُلمة فكرهم للحي قبر
وموثنهم به نقش المنايا ... وليس لفنهم بالعيش خبر
ينيم الروح في إيقاظ جسم ... ودون المجد يسدل منه ستر
يسخر للأنوثة كل شئ ... لهم قصص وتصوير وشعر
السابق، ص93.

(7) دع الشيطان لا تركن إليها ... ضعيف عندها جرس الحياة
عليك البحر صارع فيه موجا ... حياة الخلد في نصب تُواتي
السابق، ص267.

(8) أتكثر لي حديثا عن حياة ... ولست أراك فيها بالحقيق؟
سكرتُ بلذة التسيار حتى ... جعلت منازلي ميل الطريق
السابق، ص267.

(9) Persian Psalms, p. 118, 121.

لهم فحسب. الحياة في كل مكان. إنما السر متى تبدأ ومتى تنتهي[1]؟.

وتقليد الإفرنج في الفن ليس فنا. فمسجد باريس تقليد لطراز أفرنجي أقرب إلى الملعب منه إلى المسجد، وأقرب إلى روح الوثن منه إلى دار العبادة، وكأنه بني في عصر خراب دمشق، وليس في عصر المسجد الأموي[2]. ليس طرازاً مغربياً بل هو طراز غربي.

الفن تربية. ليس في مدارس الضوضاء واللهو والغم بدعوى العيش الوفير. فهذا ليس علماً. بل هو سم الحر. الفن تعبير عن كد الحياة سواء كان أدباً أو فلسفة أو غناء. هو الفن الذي يضيء كالصبح معلناً نهاية الليل. وليس هو الذي يحاكي الطبيعة. هو القادر على تطوير مسار كل شيئ. والطبيعة هي التي تحاكيه لأن الطبيعة عمل فني[3].

الفن والدين قرينان. بل إن كل فنون التعبير من شعر ونثر وخطابة وكتابة وتحرير وتدبر تدخل مع الدين والفن كشكلين أدبيين رئيسيين. كل فن له مضمونه وصورته. كلها تنشأ من أصل واحد، من الطين والقلب، ولكنها تتفرع إلى أزهار متعددة. الكل تعبير عن الذات. الذات تعبير عن نفسها في الدين والأدب لأن الفن أخلاق. والقرآن والشعر العربي قرينان. كلاهما نظم[4].

---

(1) Ibid., p. 120.

(2)
يا نظري لا يخدعنّك فنه ... للزور هذا الحرم المغرّب
وليس هذا حرما لكنه ... عند الفرنج للغرام ملعب
قد أخفت الإفرنج روح موثن ... في صورة من حرم تكذّب
إن الذي شيد هذا موثنا ... دمشق من عدوانه تخرّب

ضرب الكليم، ص74.

(3)
مدارس ثم ضوضاء ولهو ... وغم دام في العيش الوفير
وسم الحر هذا ليس علما ... إذا كان الجَدَى كف الشعير
وما أدب وفلسفة غناء ... قوام الفن في جهد المسير
تحكم في الطبيعة رب فن ... يضيء الليل كالصبح المنير
فرب الفن من بركات فن ... يطوع لحكمه كل العسير
وذلك إن يشأ قطرت عليه ... أياة الشمس كالطل النضير

السابق، ص117.

(4)
الدين والفن والتدبير والخطب ... والشعر والنثر والتحرير والكتب
كلٌ يحيط بمكنون يضن به ... في صدره يتوارى جوهر عجب

الفن والعلم تعبيران عن الحياة. كلاهما خادم لها[1]. الأول بالخيال، والثاني بالعقل. الأول بالوجدان، والثاني بالذهن. الأول بالتعاطف مع الأشياء، والثاني للاستخدام العملي. الفن وحده لا حدود له، في حين أن للعلم والفلسفة والدين حدود[2]. الشاعر وحده هو الذي يستطيع أن يصور اللانهائية في خط وليس الرياضي[3]. وفي نفس الوقت، الفن كذبة مقدسة. فهو خيال ووهم وشرود[4] ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾.

الفرق بين الفلسفة والشعر أن الفلسفة هي مجموعة من المجردات تتراءى في الليل البارد وللعقل الإنساني. ثم يأتي الشعر ليدخل عليها الدفء لدرجة الموضوعية[5]. يعبر الفيلسوف والشاعر عن نفس الفكرة، ولكن يصورها الشاعر بطريقة أدق. ويختلف الشعراء في دقة التصوير. فقد نظم هوراس فكرة ثم عبر عنها الفيلسوف مونتاني. ثم أحسن تصويرها الشاعر آزاد[6]. والنقد الأدبي لا يتبع بالضرورة الإبداع الأدبي. فلسنج في قلب الأدب الألماني روائي وناقد[7]. وفنون الشعر والرسم تعبير شامل عن الحياة[8].

جـ ـ **الفنون**: تتجلى الذات في الفنون وإلا تحولت إلى صنم، والفنون إلى أوثان[9]. والفنون على أنواع: الشعر والغناء والتصوير والسينما. الشعر خاصة،

= ومن ضمير سليل الطين مطلعها — لكن لها من وراء الزهر مضطرب
إن تحفظ الذات هذي فالحياة بها — أو لم تطق ذاك فهي السحر والكذب
كم أمة تحت هذي الشمس قد خزيت — إذ جانب الذات فيها الدين والأدب
السابق، ص72.

(1) للحياة العلم والفن خدم — للحياة العلم والفن حشم
الأسرار والرموز، ص18.

(2) St. Ref., p. 156.

(3) Ibid., p. 104.

(4) Ibid., p. 1.

(5) Ibid., p. 129.

(6) Ibid., pp. 148 - 9.

(7) Ibid., p. 150.

(8) Ibid., p. 110.

(9) قد رأى ذو بصر سر الذات — وجلا الفنّ أمين جنات =

والأدب عامة يجمع بين القلب والعقل. يجدد القديم في صورة جديدة. ويؤصل الجديد في صورة قديمة، حرصاً على التواصل ضد تقليد القدماء وتقليد المحدثين[1]. وفي قصيدة تصويرية عن «الفلسفة والشعر»، نقد أبو علي (ابن سينا) في الغبار الذي أثاره جمل ليلى. وأمسك جلال الدين الرومي بستار هودجها في وصل إلى الجوهرة. والآخر غاص في الدوامة مثل القشة. لو كانت الحقيقة بلا طعم فهي الفلسفة. وإذا كان لها مذاق خاص فهو الشعر[2].

وبعنوان «الشاعر الشرقي» لا يريد إقبال أن يحدثه أحد عن هذا العقل الحساس المرفه الذي ينكسر زجاجه بسبب أقل هبة ريح. كيف يستطيع أن يتكيف مع الحرب الطحون أو يشحب وجهه عندما يرى أي فقاعة ماء؟ الشعر قوة[3]. الشعر أقرب إلى الجنون. والجنون أحد مصادر الفن كما لاحظ نيتشه وفوكو. الشعر غير الفقه. الشعر خيال، والفقه نظر واستدلال. الجنون كمال عندما تتولد عنه الفنون. لذلك قيل في الأمثال «الفنون جنون»[4].

ومن الجنون البحث عن حقيقة منطقية في الشعر. فالمثل الأعلى للخيال هو الجمال وليس الحقيقة. لا يمكن إذن بيان عظمة الشاعر بذكر أبيات من شعره يُظن أنها تحتوي على حقيقة علمية. والكتب المقدسة مثل الشعر[5]. ولا ترجع شعبية

= ما به الذات ولا الكون يُرى — فهو من جهد حياة في نجاة
تعس الكافر من أصنامه — من حطام لمناة لِلاَّت
هالك صلى عليه فنه — في ظلام اللحد يرنو للحياة

ضرب الكليم، ص83.

(1) رأيت العشق يقفو اليوم نهجا — من العقل الإلهي القويم
وليس يُريق ماء الوجه ذلا — على عتبات محبوب غريم
محا التقليد في روح قديم — وأحيا الروح في جسد قديم

السابق، ص74.

(2) A Message from the East, pp. 67 - 8.

(3) Ibid., p. 121.

(4) واهن البيت شاعر وفقيه — وطوى البيد ويحه المجنون
في طماح الجنون أي كمال — حين تعدو البيداء منه فنون
فله في الدروس أيضا مجال — ليس وقفا على الفيافي الجنون

ضرب الكليم، ص73.

(5) St. Ref., p. 16.

قصيدة إلى مقدار ما فيها من حقيقة منطقية. فقصيدة «القرية المهجورة» لشميث شعبية رائجة للغاية بالرغم ما تحتويه من أخطاء علمية واستدلالات اقتصادية خاطئة[1]. الشعر أعمق من علم النفس. فعالم النفس يسبح، والشعر يغوص[2]. الفلسفة تجعل الإنسان هرما. والشعر يعيد إليه شبابه[3].

وأهم خاصية للشعر صدقه وتعبيره عن النار في الضلوع، والكشف عن أسرار النفس وخبايا الوجود[4]. ليس الشعر فقط هو المنظوم، بل هو حالة من العطاء، ونطق الحر، وفرح وطموح[5]. الشعر هو شعر القوة والعزة وليس شعر الخنوع والذل. هو حاد كالسيف. فناي الشرق ليس من نَفَس الرئة بل من نَفَس القلب[6].

---

(1) Ibid., p. 53.

(2) Ibid., p. 137.

(3) Ibid., p. 143.

(4)
لي من فعلك شكوي   همت في حب الطلوع
شعّت عن قلبي فالأسرار عن قلبي تشيع
لا تكن مثل شرار   ند عن نار يضيع
والتمس خلوة صدر   فيه من نار ضلوع

السابق، ص73.

(5)
عدتي ذكر وفكر   وهُيام وغناء
لست أدري أهو شعر   أم سواه ذا العطاء؟
إن عبد الحق يُزهي   في محياه ضياء
من جلال ظل فكر   الكون منه في امتلاء
ليس دون الكفر إن لم   يك كفرا ذا البلاء
أن يُري بالحاضر المشهود للحر سباء
لا تذب غما فكم في الدهر أدوار وضاء
كم نجوم حادثات   سوف تجلوها السماء

السابق، ص78 ـ 79.

(6)
في غابة الشرق ناي يبتغي نَفَسًا   يا شاعر الشرق هل في صدرك النفس؟
من كان في ذاته من رقه خور   فقل له من لحُون العُجم يحترس
إناؤها من زجاج كان أو خزف   اجعل بخمرك سيفا لمعه قبس
لم تبصر الشمس من دنيا يُخال بها   مجد بغير الجلاد المر يلتمس
طور جديد، وبرق كلّ آونة   لا قرّب الله للعشاق ما التمسوا

السابق، ص91 ـ 92.

يعبر الشعر عن تجلي الذات. يغني كالطير في الصباح[1]. الشعر يشعل النار في الجُنوب، واللسان يعبر عنه[2]. يُعبر عن الحياة ورسالتها الأبدية[3]. الشاعر هو روح العالم الذي يخفي المراحل المختلفة للحياة الداخلية في رموز. فليس العالم إلا رمز كبير ولكنه لا يهتم بتفسير هذه الرموز لنا. تلك مهمة الشاعر لتفسيرها والكشف عن معانيها للإنسانية جمعاء. ومع ذلك، قد يتعارض روح العالم مع الشاعر طالما أن العالم يستر والشاعر يكشف[4]. وكل كتب الفن الشعبي في المكتبة لا تساوي غروب الشمس على ضفاف نهر «رافي»[5]. فالواقع أبلغ من أي تصوير له.

مهمة الشعر إصلاح الآداب الإسلامية[6]. فالشعر له رسالة أخلاقية. مهمته إشعال العواطف في قلوب الأمة. يحرك النفوس، ويبعث الأمة. وتلك طبيعة الشعر العربي. الشعر هو القادر على إثبات الذات والتعبير عنها، والتأثير فيها. هي الطاقة التي تدفع إلى الأمل، والنور الذي يبعث في العين الضياء. الشاعر هو القادر على الإحساس بالحسن. فهو ما زال على الفطرة. يشعل القلب البارد. يحيي الموتى، ويعز المذل، ويفرح الحزين، ويقوي العاجز. الشعر في شط العرب يعبر عن روح العروبة أكثر مما في الهند أو بلاد العجم. العربي شاعر بالطبع. لذلك نزل القرآن

---

(1) كم بشعر العُجم من سحر ولكن — منه سيف الذات ذو حد كليل
صمتُ طير الصبح أولى من غناء — إن سرى باللحن في الروض ذبول
ليس ضربا ما يشق الطود لكن — ليس منه عرش برويز يميل
ينحت العصر أيا إقبال صخرا — فاحذرن من كل ما يبدي الوذيل
السابق، ص92.

(2) أثار الشعر في جنبيّ نارا — مرد الترب في طرقي شرارا
حديث الحب حاوله لساني — فزاد السر تبياني سرارا
رسالة الشرق، ص273.

(3) لم أدر سر الشعر إلا نكتة — سير الشعوب تُبينها تفصيلا
الشعر فيه من الحياة رسالة — أبدية لا تقبل التبديلا
إن كان من جبريل فيه نغمة — أو كان فيه نفخ إسرافيلا
السابق، ص96.

(4) St. Ref., p. 105.

(5) Ibid., p. 131.

(6) أسرار النفس، ص32 ـ 37، المقدمة، ص48.

بلغة الشعر والبلاغة، إعجاز العرب[1].

ويستخدم الشعر أحياناً في أول القصائد للإيقاظ والتنبيه وكإعداد للموضوع. قد يكون شعراً ذاتياً، تأملات خاصة. وقد يكون تأملاً في الطبيعة وحواراً معها. وقد يكون حواراً بين الشاعر والطبيعة قبل أن يتجلى موضوع الذات[2].

يخشي الشاعر من رفع الأستار. وهتك الأسرار. انشغاله بما يحب يؤدي إلى التهلكة. هو الحب الذي ينسي آلام الجراح، وينضح الأسرار. هو الذي يؤدي إلى الشهادة، بدلاً من العيش الذليل[3]. الشاعر أيضاً كائن بشري. فقد عُرف إقبال بأنه مفكر مجرد، عالم بمثل عليا، ولكنه في المنزل يلعب مع الأطفال. يركبون فوقه بالدور وكأنه حصان خشبي وهو في دائرة العائلة. وينحني على قدم أمه ذات الشعر الرمادي. وتلمسه بيديها الشايبتين على مر الزمن. ترجعه إلى أيام الصبا بالرغم من وجود كانط وهيجل في رأسه[4].

قد يجتمع الشعر والغناء والموسيقى والرقص والتصوير معاً في فن واحد، هو فن الأوبرا. للشعر بهجته. حمل مثله جبريل. الموسيقى ابتهاج، والرقص نشوة.

---

(1) حرقة الإنسان من كور الأمل ... نار هذا الطين من نور الأمل
مطلع الحسن ضمير الشاعر ... طُورُه صبح الجمال الباهر
يا برود القلب من ألحانه ... قد شربت السم من تبيانه
يا دليلا للردى أفكاره ... عطلت من نغم أوتارُه
أنت للذل أرحت البدنا ... أنت للإسلام عار في الدُّنى
آه من وغد ذليل يائس ... هالك من ركلات الحارس
صار كالناي هزيلا نائحا ... شاكي الأقدار جهلا صائحا
ليس إلا الحقد في جوهره ... ليس إلا العجز في مخبره
من بفكر صالح في الأدب؟ ... ارجعن يا صاح شطر العرب

الأسرار والرموز، ص32 ـ 37.

(2) السابق، ص13 ـ 5.

(3) أنا كيف أجهر هذا المساء ... بسر كهذا الذي أهتكه
وشغل الحكيم بهذا العراء ... كشغل المحب بما يهلكه
هو الحب ينسيك وقع الجراح ... وتفضح سرَّك آثاره
وما الحب إن لم تمت عزة ... وما العيش جلَّله عاره

جناح جبريل، ص437.

(4) St. Ref., pp. 141 - 2.

الموسيقى روح الشعر، والرقص روح العين[1].

ليس الغناء هو مجرد نفخ هواء في عود، بل صوت قلب حي، نشوان بالفرح. تهب منه الريح. يزدري الملوك والسلاطين[2]. وإن أدى الغناء إلى ضعف وخور فهو حرام[3]. الغناء الحلال يثير قوة الذات وحرقة الحياة. يفتح القلب ويحييه. وفي الأفلاك ألحان طبيعية، تلين الكائنات، وتحرر الحزن والغم. تحول النفس من العبودية إلى السيادة[4]. والموسيقى تخرج من حرارة القلب، وليس من برودة الدم. إن لم تطهر الضمير فإنها تكون كالسموم[5].

---

(1) إن للشعر بهجة ضاء منها — روح جبريل والرجيم اللعين
ومن الموسيقى ابتهاج وشوق — وكذا الرقص نشوة وفتون
قد سمعنا في الصين قول حكيم — فيه أفشى مخبآت الفنون
إن للموسيقى من الشعر روحا — ومن الرقص جسمها في العيون
ضرب الكليم، ص96.

(2) صاح من أين لناي نشوة؟ — صوت عود ذاك أم من قلب حي؟
صاح ما القلب؟ ومن أين له — قوة سكرى تحدّتْ كل شيء؟
ولماذا نظرة منه سرت — مثل ريح صرصر في تخت كي؟
ولماذا ذلك السر له: — من حياة فيه يحيا كل حي؟
ولماذا كلٌّ حين مبدلٌ — واردات زُمرا تهفو إليّ؟
ولماذا صاحب القلب ازدرى — ملك روم ومنى وشام وري
إن وعى للقلب رمزا مطرب — طوي الفن له أسرع طي
السابق، ص81 ـ 82.

(3) إن سرت في اللحون دعوة موت — حرم الناي عندنا والرباب
السابق، ص91.

(4) تفتح القلب نغمة من غناء — أيُّ فتح والقلبُ رهن همود؟
في صدور الأفلاك لحن خفي — صاهر حره نجوم الوجود
يهجر الناس منه خوف وغم — وإياز يسمو إلى محمود
تيه هذي النجوم يفنى ولكن — أنت تبقى ونغمة التوحيد
قد أحلّت شريعة الذات لحنا — لم يزل في انتظار شاد مُجيد
السابق، ص90.

(5) دل على برد دم المغني — لحن له الوجوه لا تنير
أنفاس زامر سموم لحن — إن كان لم يطهر به ضمير
بالشرق والمغرب في رياض — من الشقيق شاقني المسير
فما مررت بينها بمرج — شقت بها جيوبها الزهور
السابق، ص95.

ويتأسى كبار الشعراء الأقدمين كالرومي وسنائي على تقليد الشرق في الفنون. وقد أعلن الحلاج من قبل أن سر الذات يعيشه القلندر، رمز الوعي الإبداعي المستقل[1]. وتكشف أشعار الرومي عن الذات. وعلى أوتارها يتم نظم الشعر[2].

والمصور يعبر عن الحياة. يطلق ذاته لا أن يحاكي الطبيعة[3]. الفن ثورة ضد التقليد، والمحاكاة تقليد. التصوير ليس للطبيعة الخارجية بل للذات في رؤيتها للطبيعة أي للخلود وليس للزمان[4]. الإنسان قادر على الإبداع. لا يحاكي الطبيعة. بل يسيطر عليها، ويؤثر فيها[5].

ولإقبال موقف سلبي من السينما حديثة العهد. ففيها تعود الوثنية مرة أخرى، وتذيع فيها قيمها. وتقيم الأصنام وسط صالتها كما كانت الأصنام من قبل في أفنية المعابد، تعيد بيع الأصنام. عرضت الدنيا لعبادتها. وكوّنت ديناً جديداً للعصر. الفن هو الفن الخالد دون طقوس لأوثان. والسينما هي وثن ثان. صاغت عالماً من

---

(1) قال للرومي في الخلد سنائي ... لا يزال الشرق بالتقليد يُؤسر
قال منصور: ولكن قد سمعنا ... أن سر الذات أفشاه قلندر
السابق، ص84.

(2) مازال طرفك في خلط وفي سنة ... وعنك ذاتك في الأسرار لم تزل
ولم تزل في صلاة لا قيام لها ... وبالضراعة عز الروح لم تصل
ومزهر الذات أوتار مقطعة ... مازال عن نغمة الرومي في شُغُل
السابق، ص87.

(3) مقصد الفن في الحياة لهيب ... أبدي فما وميض الشرار
كم ترى من طبيعة وتريها ... أرنا الذات فوق هذي المجالي
السابق، ص م.

(4) رأيت الكواكب لمحات نور ... وذاتك بالعشق رهن خلود
تعالى ضميرك عن كل لون ... فعفت من اللون كل القيود
وغيبة ذاتك ذكر وفكر ... ومحضرها شعرها والنشيد
إذا أضنت الروح آلام رق ... ففنك عبد رهين سجود
وإن عرفت قدرها كنت حقا ... على الجن والأنس رب الجنود
السابق، ص80.

(5) شادت الفطرة كثبانا لها ... في سكون من يباب قد وقد
روّع الأفلاك فيه هرم ... أي كف صورت هذا الأبد
من إسار الكون حرّر صنعة ... صائد ذو الفن أم صيدا يعد
السابق، ص83.

الصور والأضواء كما صاغت الوثنية القديمة عالماً من الأحجار والطين. ومع ذلك، يصلح حالها إذا كانت عوناً على نشر التوحيد. فالفن أخلاق. والسينما من أجل نشر قيم التوحيد[1].

لا توجد وسائل تسلية في البلاد الإسلامية، لا مسارح ولا قاعات للموسيقى، ولا حفلات موسيقية. وهذا جيد! فالرغبة في التسلية لا يمكن إشباعها. وتطلب دائماً المزيد. وتثبت تجربة البلاد الأوربية هذه الحقيقة المؤسفة. ولا يدل غياب وسائل التسلية في البلاد الإسلامية على فقر أو تقشف أو غياب الإحساس بالمتعة. بل يدل على أن شعوب هذه البلاد تجد تسلية كافية في التمتع بلقاءات المنازل. ولا يجب أن يتسرع الناقد الأوربي في رفض هذا الطابع للمنزل الإسلامي. واللامبالاة بالتسلية الخارجية ليست نتيجة حتمية للسعادة المنزلية. ولا يعني أن حب التسلية في الخارج نتيجة الشقاء المنزلي في الداخل[2].

7 ـ المرأة الجميلة

المرأة في حد ذاتها كائن جميل. هي لون في رسوم الكائنات. لحنها ينفث الوجد في صدر الحياة. خلقت من الطين، ولكنها تسمو فوق الكواكب والنجوم. هي عقد به كل الجواهر الكريمة. فلا إشكال فيها كما يرى أفلاطون. وقد خلق هو منها كشرارة من جمرة متقدة[3]. وأعظم شيئ سحراً على الأرض المرأة ذات

(1) أيعود آزر مرة أخرى — ويذيع في السنما معانيه؟
أصنامها في صدر صالتها — عادت له برواج ماضيه
ما كان ينحت قبل من صنم — جاءت تريد تبيعه فينا
صاغت لنا الدنيا لنعبدها — وثنا وصاغ لعصره الدينا
ما كان فنا فنه أبدا — ما كان غير طقوس أوثان
فتفحص السنما التي ظهرت — هي في الحقيقة ثوبه الثاني
هو صاغ أصناما لعالمه — ما صاغ من طين وفخار
وتصوغ صالتها لعالمنا — أصنامها من مارج النار
ما في زوايا المعبدين سوى — هذا الرماد وذلك الطين
إن لم يل التوحيد أمرهما — لم يتركا شرفا لمسكين

جناح جبريل، ص541.

(2) St. Ref., pp. 77 - 8.

(3) إنما المرأة لون — في رسوم الكائنات =

الجمال الرائع الفاقدة الوعي تماما[1]. المرأة جوهر يتجلي بغيره. والرجل جوهر يتجلى بذاته. حرارة الشوق سرها. كيانها لذة التخليق. منها بدت أسرار الحياة، الخلق والموت. تلك هي فطرتها التي لا حل لها[2]. ولا يمكن أن تتحقق جماليات الطبيعة إلا من خلال عيون المحبين. ومن هنا أتت أهمية الزواج[3].

يصور إقبال العشق كما يصوره الصوفية تصويراً حسياً اتصالاً بين جسدين. فيما أعظم من اثنين يعشقان. جنسان موصولان. تشعل المرأة نيران الحياة. وتصغرها في الروح، وخلق الإنسان لا يتم إلا بها. تعيش في الضمير، وفي وهج الشعور إن غاب الشرر عنها غاب الجسم وقصر النظر. بدونها لا يكون للفرد قيمة. فقد رسمت جسده، وأثارت روحه. النظر إليها تطهير للنفس. وفي هذا العصر أفسد إيمان العوام النظرة للمرأة. دخولها إلى متعة أو إلى محرم. في الجسم نار تتقد. فلماذا لا يستفيد منها الفرد؟ من تصيبه هذه النار تتحول نفسه إلى رقيب[4]. العشق

= لحنها ينفث نار الوجد في صدر الحياة

ذلك الطين تعالي فوق أوْج النيران
إنها درج لديها كل در من صفات
ماالأفلاطون تروي من قضايا معضلات
وهو منها كشرار من ذكي الجمرات

ضرب الكليم، ص67.

(1) St. Ref., p. 129.

(2) بغيره يتجلى جوهر امرأة ووحده يتجلى جوهر الرجل
حرارة الشوق سر في بلابلها كيانها لذة التخليق كالشعل
من هذه النار أسرار الحياة بدت والخلق والموت منها في وغى زَجِل
كذلكم في فؤادي للنساء أسى لكنها عقدة أعيت على الحل

السابق، ص69.

(3) St. Ref., p. 133.

(4) ما الحياة يا بصير هل فهمنا أن تُري اثنين، وفرد من عشقنا
يربط الجنسين موصول الصلات يرسمان شوق تلك الكائنات
تشعل المرأة نيران الحياة طبعها لوح لأسرار الحياة
أضرمت في الروح منها نارنا جوهر فيها أتم خلقنا
ممكنات العيش منها في الضمير وثبات العيش في وهج الشعور
إن يغب عن هذه النار الشرر لم يلح جسم وروح للنظر
ما لنا من قيمة، منها لنا رسمتنا وأجادت رسمنا =

له متطلباته فإن لم تتحقق فليضرب الكأس البيت المصون[1]. والعشق لا يدان كما يدان أهل الكلام[2].

وحصانة المرأة بيتها، في عصمة رجل يحفظها ويحميها أكثر مما يفعل العلم أو الحجاب. وإن غابت هذه الحصانة عن أمة تنكسف لديها الشمس، وتغيب عنها الحقيقة[3].

ومن وسائل النهوض بالأمة النهوض بالمرأة. والمرأة في الإسلام هي المرأة المحجبة. تتلون الأحجبة، والدنيا واحدة. وتتعدد الأنقبة، والوجه واحد. فمتى تبرز الذات من الحجاب؟ المهم هو الخروج عن حجاب العقل وستر الذات[4].

ويقيد إقبال حرية المرأة. وهي قضية العصر. يمكن التفرقة فيها بين الشهد والسم. والناس أقرب إلى التمدن، وبالتالي التأكيد على حرية المرأة. والفصل في ذلك للمرأة ذاتها. ويعجز عنه الرجال. وأيهما أجمل زينة حرية المرأة أم تزيين جيدها بالدر الثمين، بالزوج والأسرة والبيت؟[5]. وأنبياء الأمة للإصلاح الاجتماعي

= إن حباك الله عقلا للتفكر — طهر النفس بتقديس لها انظر
أفسد الإيمان فيك عصرنا — يكشف السر الخفي قولنا
في الجسوم الخلقُ نار تتقد — أي فرد حولها لم يستفد
من ينل من هذه النار النصيبا — يجعل النفس على الفعل الرقيبا

جاويد نامه، ص201 ـ 202.

(1) إذا كان هذا دأب عشق — بكأسك فاضرب البيت المصونا

أرمغان حجاز، ص424.

(2) أدانوا عاشقا رشف المداما — وكم لمحنك عابوا الكلاما

السابق، ص435.

(3) في الصدر حق ليس يدركه — من حاز برد دمائه غَضَب
حفظ الأنوثة في يدي رجل — لا العلم يحفظها ولا الحُجب
إن غاب هذا الحق عن أمم — فكسوف شمس فيهم كثب

ضرب الكليم، ص68.

(4) أرى فلكا كلَّ حين للون — ولم تنضُ دنياك هذا الأهاب
ولا فرق ما بين عِرس وعِرس — فذي في نقاب وذا في نقاب
ولم يزل الناس رهن حجاب — ومن برزت ذاته من حجاب

السابق، ص66.

(5) قضية عصر لست فيها بفيصل — وإن كنت بين الشهد والسم أفرق
وما نفع أقوال تزيد ملامتي — وقبلا بنو التمدين عني تفرقوا =

يحبذون قدراً ضئيلاً من التعليم على النمط الأوربي لأنه سيحيي المرأة المسلمة الحديثة، ويجعل دموعها مجرد ذكريات أليمة. قد يكون ذلك صحيحاً، ولكن يُخشى أن تجد نفسها عارية ومضطرة إلى تغطية جسدها من عيون هؤلاء الأنبياء الشبان[1].

لم يكن الهدف من نظام تعدد الزوجات أن يكون نظاماً عاماً. بل هو استثناء خاص يُسمح به استجابة لبعض الصعوبات التي توجد لا في المجتمع الإسلامي وحده. فالطلاق هو أبغض الحلال عند الله. لذلك يسمح بتعدد الزوجات للاختيار بين أهون الضررين. وتجنب الطلاق ليس هو المبرر الوحيد. هو تنازل جزئي لطبيعة الرجل التي تميل إلى التنوع دون الهرب من مسؤولية هذا التنازل. وفي إنجلترا يسمح للفرد بمثل هذه الرخص، ولكن القانون يتركه لممارسة هذه الحرية الجنسية دون مسؤولية. فهو ليس مسؤولاً عن تعليم الأطفال. ولا يرث الأطفال منه شيئا. ولذلك نتائج وخيمة. كما اضطرت فرنسا إلى الاعتراف بالعهر كنظام اجتماعي. مهمة الدولة القبيحة الرعاية الصحية للعاهرات. وأشهر نقد لنظام الزوجة الواحدة هو وجود نساء كثيرات في البلاد الأوربية بلا أزواج بالرغم من أن نظام الطبيعة يكفل تساوي عدد النساء والرجال. وقد عوضت العانسات في أوروبا عن ذلك بالانشغال بمسائل أخرى غير إنجاب الأطفال. وحملن الأفكار وليس الأطفال. ثم انشغلن أخيراً بموضوع مساواة النساء مع الرجال في الانتخابات من أجل إيجاد مشاغل لهن في ميدان السياسة. فإذا لم يسمح المجتمع لهن بإنجاب الأطفال فإنه يعطينهن ما يشغلهن. وحركة المطالبة بالاقتراع في أوروبا هي حركة مطالبة بالأزواج وليس بالانتخاب. هي مجرد مظاهرة ضد البطالة[2].

= يـبّـيـن هـذا الـسـر وجـدان مـرأة ويعجز عنه في الرجال المحقق
أحـريـة الـنـسـوان أجـمـل زيـنـة أم الجيد بالدر الثمين يُطوّق؟

السابق، ص68.

(1) St. Ref., p. 124.

(2) Ibid., pp. 62 - 5.

الباب الخامس

الذات المضادة

الفصل الأول

الغرب والتغريب

1 ـ رسالة المشرق

ظهر ديوان «بيان مشرق» لأول مرة بالفارسية عام 1923، رداً على ديوان جوته «الديوان الشرقي للشاعر الغربي». وكتب فوقه آية ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾، وتحته «جواب ديوان الشاعر جوته».

ليس كله في الغرب بل القسم الرابع منه فقط بعنوان «نقش الفرنج». ويعني النقش هنا الموضوعات[1]. إذ ينقسم الديوان إلى خمسة أقسام: شقائق الطور، الأفكار، الخمر الباقية، نقش الفرنج، الدقائق[2]. وتحتوي الترجمة الإنجليزية على بعض الزيادات. وربما تحتوي الترجمة العربية على بعض الحذف[3].

وفي مقدمة إقبال للديوان يذكر وصف هايني الشاعر الألماني ديوان جوته بأنه باقة من العقائد يرسلها المغرب إلى المشرق. فقد حن المغرب بروحانيته الضعيفة الباردة. فتطلع إلى الاقتباس من صدر المشرق. فهو ديوان يدخل فيما عرف باسم تأثير الشرق في الأدب الألماني.

---

(1) Thèmes.

(2) شقائق الطور The Tulip of Sinai.

(3) رسالة الشرق (بيام مشرق) نقله إلى العربية د. عبد الوهاب عزام. وله ترجمة بالإنجليزية قام بها هـادي حـسـيـن - A Message from the East, A selective verse rendering of Payam - I - Mashriq, by Hady Hussain, Iqbal Academy, Pakistan, Karachi, 1971.

كان جوته منذ شبابه يميل إلى الشرق. ولقي هردر في استراسبورج حيث كان يتعلم القانون. تأثراً بسعدي وحافظ. بل إن شيلر نفسه قد تأثر بالأدب الشرقي في قصته «ثوران دخت» المأخوذة من قصة بنت سلطان الإقليم الرابع لنظامي. وبعد نشر الترجمة الكاملة لديوان حافظ في 1812، بدأ الأثر الشرقي بوضوح عند جوته بعد أن سئم من انحطاط الغرب عامة، وألمانيا خاصة. كما تأثر بالعطار وسعدي والفردوسي[1]. وكان يأمل في أمريكا الجديدة كعنصر تصحيح لانحراف أوربا.

والديوان صوفي خالص، أقل فلسفة وسياسة وواقعاً من «أسرار النفس» و«ضرب الكليم». ولا جديد فيه بالنسبة لموضوعات الدواوين السابقة. اعتمد على جماليات الشعر. وهو أقرب إلى الفن للفن منه إلى الفن للحياة. يغيب عنه الحس النقدي. كما أنه أقرب إلى شعر الطبيعة. وهو في نفس الوقت نشيد للعشق ضد العقل والعلم والفلسفة والفقه. وهو أقرب إلى الدفاع عن التصوف منه إلى نقده. أحياناً يبدو غامضاً لأن الشاعر هام في كلِّ واحدة، وبعد عن الإصلاح. يمثل الرومانسية الإسلامية كما يمثل شاتوبريان Chateaubrian ودي لامنيه De Lammenais الرومانسية المسيحية (الكاثوليكية). لذلك تفرقت موضوعاته عبر الأبواب والفصول السابقة دون أن يكون له باب أو فصل خاص[2].

والعنوان الفرعي الثاني لديوان إقبال الآخر الذي نشره عام 1937 قبل وفاته بعام واحد «ضرب الكليم». وعنوانه الفرعي الأول «عصى موسى». هو «إعلان الحرب على العصر الحاضر» خاصة القسم الخامس منه «سياسات المشرق والمغرب»[3].

---

(1) بيام مشرق، مقدمة إقبال، ص253 ـ 259.

(2) نظم عبد الوهاب عزام بعدما قرأ ديواني «أسرار خودي» و«رموز بي خودي» قصيدة بعنوان «اللمعات» ونشر الأبيات الأولى منها. ثم استأنفها بين الحين والآخر. وبعد أن أتم ترجمة «بيام مشرق» أكملها وأهداها إلى الشاعر. ونشرها كملحق للديوان مقلداً إقبال سواء في الشكل الأدبي، الشعر الفارسي والأوردي أو في المضمون ابتداء من العنوان «اللمعات» أي الاشراقات والإلهامات حتى الموضوعات: صفاء الهمم، العالم معبد، لا رهبانية في الإسلام، معنى التوكل، غفلة بعض المسلمين عن معنى التوكل، طغيان العقل على القلب، البيت، تفاخر الجماعة، الشيوعية، إقبال، دعاء. رسالة المشرق، ص343 ـ 368.

(3) محمد إقبال: ضرب الكليم، عصى موسى، إعلان الحرب على العصر الحاضر. نظمه باللغة =

يعترض إقبال على أوربا، ويحتج عليها، ويقف ضد الانبهار بها. يلعن أوربا وسحرها، وقدرتها على الأسر والإبهار، ونزع أسلحة الآخرين. قبائلها الهمجية تُشعل النار. فيمتد لهيبها إلى كل شئ. وتحطم العالم. تبني دوراً جديدة للعبادة، والأرض في حاجة إلى إعادة بناء يقوم به المسلمون إذا نهضوا[1].

2 ـ الموت في الروح

لقد فصل الغرب بين النفس والبدن، بين الروح والجسد. فوقع في ثنائية حادة متعارضة بين السماء والأرض، بين المثال والواقع على التبادل[2]. فماتت النفس، وانحل الجسد.

لذلك أقام الغربي حكمه على الشيطان الذي انفلت من كل قيد. الصحراء أجمل من بستانه. والفقر أفضل من مدنه الخادعة[3]. الجسم صحيح، والروح عليل. يحقر الدين، ويعظم العلم والفن. ينتهي العقل إلى الكفر، ومصير الإنسان العقل. الكل يقتل الكل. الحذر من نار الغرب واجب، وإلا مات القلب، وحيا الظاهر[4]. بريق حضارة الغرب الترف. ولم تستطع فتنة الشاعر وهو ابن المدينة والنجف وغبارها في مقلتيه، قطرة للعيون، وأنجع دواء لعلة. ومازال مقيماً في العالم، بالرغم من تقلبات التاريخ، ورياح القرون، كل مستبد عتي[5]. ويظن الغر

= الأوردية شاعر الإسلام الفيلسوف محمد إقبال وترجمه الدكتور عبد الوهاب عزام بك، سفير مصر لدى باكستان، جماعة الأزهر للنشر والتأليف، مطبعة مصر، 1952، ص99 ـ 124.

(1) Persian Psalms, p. 76.

(2) وبين الروح والجسد الفراق ... بغرب، أين في الحكم الوفاق؟
زبور العجم، ص383.

(3) وغربي له حكما أقاما ... عن الشيطان قد خلع الزماما
ومن بستانه الصحراء أجمل ... مدينته فدع، فالفقر أفضل
لدي الكفار زاد الكفر عقل ... وللإنسان عند الغرب قتل
وهذا راصد ولذا الكمين ... إلهي! كن لهم نعم المعين
ليدخل ذلك الصمصام غمده ... وإلا أهلك الإنسان بعده
السابق، ص394 ـ 395.

(4) وإلا نار غرب خذ وحاذر ... ومت في القلب كي تحيا بظاهر
السابق، ص401.

(5) بريق الحضارة أوج الترف ... لدى الغرب لم يستطع فتنتي =

أن رفاهيته ستبقى إلى الأبد، وأن الوفرة لن تزول. عقله طائش، ورغبته غير ناضجة[1].

لم يعلّم الغرب غيره الا الترهات. وصار «الملاّ» هو الآخر عاراً في الحياة. فلا الجديد غير ضار، ولا القديم نافع[2]. لقد جفت دموع عيون أوربا. وما تبقى لها من قطرة لا تبدد ظنونها[3]. صرح أوربا مضيء معتم، مرايا من جليد. لا تعكس نور الحقيقة مثل الإسلام[4]. إن موهبة أوربا أن تحيل العصر إلى ليل من التيه. ويظل أثرها محدوداً. فكم وردة قصفت في رياض المسلمين ولم تمزق بستانها. فمازالت عند المسلمين حرارة الحب من خمر اليقين. ولا ينكر ذلك إلا واهم[5].

في الغرب لا يساعد علم على الرؤية. من أبدع فيه لم يُحاسب. يكفيه السعي وليس إدراك الصواب[6]. يخطئ الغرب في أحكامه، وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. يسحر ويمتدح شعوب الأرض. ويلعب بهم كما يلعب بالنرد. يسرق

= أنا ابن المدينة وابن النجف غبارهما كان في مقلتي
غبارهما قطرة للعيون وأنفع طب لذي علة
مقيم برغم رياح القرون وما كان من مستبد عتي
جناح جبريل، ص437.

(1) يرى الغرب أن بقاء الرفاه أن يستمر بهذا النهج
فكم يفعل الطيش في عقله ويُنقص رغبته من نضج

(2) رغم أن الغرب ما علمني من جميع العلم غير الترهات
فأنا يؤسفني (الملاّ) الذي صار للإسلام عارا في الحياة
السابق، ص419.

(3) حاشا لأوروبة التي جفت دموع عيونها
حاشا تنير بقطرة ملئت بليل ظنونها
السابق، ص431

(4) وعجوز حانتنا يقول مؤكدا عن صرح أوربّا المضيء المعتم
هذي المرايا من جليد ما لها وسع لتعكس نور قلب المسلم
السابق، ص455.

(5) أقصى مواهب أوربّا النشيطة أن تقلب العصر في ليل من التيه
كم وردة قصفت في روضنا يدها ما مزقت طوق زر واحد فيه
حرارة الحب من خمر اليقين وما لمنكر الحب إلا الوهم يفنيه
السابق، ص457.

(6) في الغرب كنتُ وقلما عيني رأت من كان ذا لحن تجافى عن حساب
جاويد نامه، ص168.

الثروة، ويبذر العداء بين شعوب الشرق. ويتقاتل على الغنيمة. يعتبر الآخرين سلطة وهو التاجر. يحب المال كما تحب الأمة وليدها. يخرج الماء من جذع الشجر بحثاً عن حلو الثمر. وكي لا يتحرك المستقبل ضده، قتلوا الأجنة في الأرحام. لديه إبداع في كل الفنون، يقلدها الناس. وقراءة الكتاب تساعد أسير التقليد أن يفك من أسره[1].

صدر الغرب يضنيه اللهيب. استطاب لذة السطو الغزو. نكس أعلام الأمة، ونهب أموالها. واستمد بطش إبليس. وحول النور إلى جحيم. تعود على القتل. ونزعت من قلبه الرحمة. كان الأولى أن يكون مؤمناً أو أن يُقتل بسيف الكتاب[2]. لم يشأ الغرب الرقي، بالرغم من أنه أشاد ألف شكل له. حرّق الديار. ومزق غصون العشوش. ظاهر الرقي يبدو للعين، وروض القلب يشعر به الفؤاد، ومصير الشرق يرجى وراء مظاهره[3].

---

(1) بئس ما في الغرب حقا حكمهم ... ويزيد الميت موتا صُورهم
يسحرون، خدْع دهر خدْعهم ... من شعوب الأرض كان نردهم
يسرقون، ذا ثري ذاك كادح ... بالعداء بعضهم للبعض كاشح
يكشف السر جليا قولنا ... سلعة نحن وهم تجارنا
جفنهم في المال حبا قد جمد ... كل أم آدها ثقل الولد
ويلهم! خوفا على حلو الثمر ... يخرجون الماء من جذع الشجر
ولكيلا يبعث العود الرنينا ... في البطون قتلوا حتى الجنينا
عندهم من كل فن كثرة ... كل ما حصلت منهم عبرة
يا أسيرا كان من تقليدهم ... الكتاب اقرأ، وعد من أسرهم

السابق، ص204.

(2) صدر أهل الغرب يضنيه اللهاب ... لذة للسطو والغزو استطابوا
نكَسوا الأوضاع في أيامنا ... نهبوا الأموال من أقوامنا
واستمدوا بطش إبليس الرجيم ... تصبح الأنوار نارا بالجحيم
قتله ما زال كالأمر الصعوب ... إنه قد ضاع في عمق القلوب
كان أولى مؤمنا أن تجعله ... وبسيف للكتاب تقتله

السابق، ص209 ـ 210.

(3) الفرنج بالرقي ما أرادوا ... ألف فردوس من الألوان شادوا
ظاهر منهم ديارا حرّقا ... والغصون بالعشاس مزقا
ظاهر يبدو لعين لامعا ... وهن القلب لعين خانعا
ومصير الشرق هذا من درى ... أيُّ تدبير وتبغي مظهرا

السابق، ص307.

وإذا كانت مهمة الحياة التنفس بحرية من هذا الإنسان الهش فإن الحياة الحقة هي التحرر من الطلاسم. علم الغرب فان. زفراته حلوة، ولكن الدمع في العين، والرؤية ضعيفة[1]. علوم الغرب نهب. وبدون علي بن أبي طالب يكون مجرد دير خيبر[2].

الحرية في الغرب خادعة. فقد سمحت الحضارة الحديثة لكل فرد أن يفكر ويسلك كيفما أراد. هي حرية ظاهر، والواقع استبعاد، يثرب هو الحل، وليس الغرب. فهي الدواء لكل داء. وكيف تضيع المعرفة والإيمان بسبب شك الفرنج ووسوسة البرهمي؟[3]. الغرب وهم مفرح. والحقيقة أنها سفينة تغرق. في خمر أوربا شعاع يذوب ويتألق، بالرغم من أكدارها[4].

عرف الغرب بالعقل والحسن، بالفكر والجمال، بالفلسفة والفن، ولكن القلب نواح من الألم[5]. حاول الوصول إلى الكمال في خلقه. وقلده الشرق في تشييد الأصنام[6]. قال «لا إله» أي أنه نفي، ولكنه لم يقل «إلا الله» أي الإثبات. فتاه العقل[7].

---

(1) Persian Psalms, p. 58.

(2) وعلوم الغرب نهب يُذكر ... وبلا حيدر دير خيبر

(3) سمحت حضارتنا الحديثة هذه ... للناس يتجهون كيف أرادوا
مَكَرَتْ بعالمهم فظاهر أمرها ... حرية والواقع استعباد
مولاي خذ بيدي ليثرب إنه ... بتراب يثربك المطهر مرهمي
ضيّعتُ معرفتي وإيماني على ... شك الفرنج ووسوسات البرهمي
جناح جبريل، ص435.

(4) إن كنت من وهم بشيء مفرح ... تأسى فإنك في السفينة تغرق
في خمر أوربّه شعاع ذائب ... بالرغم من أكدارها يتألق
السابق، ص465.

(5) شعبه بالعقل والحسن اشتهر ... وهو في الآفاق معروف الخبر
دُحرجت كأسي ولكن في دماه ... ناح نابي للأليم من أساه
جاويد نامه، ص259.

(6) وقتيل دَلّ أصنام الجمال ... تشبه الإفرنج في خلق الكمال
السابق، ص301.

(7) إنما المسكين قال: لا إلها ... فكره ند ومنه العقل تاها
السابق، ص316 ـ 317.

الغرب بلا عقل أو قلب أي إنه بلا فؤاد أو لب. يوهم نفسه بأن العقل في كمال وافر. يقوده العقل إلى الطبيعة، وقلبه وراءه خائف وجل. فالعقل الغربي صوري مجرد، كمي قياسي، آلي مادي، مما آثار الرومانسية وكل المذاهب الحيوية. وانتهى إلى الشك والنسبية واللاأدرية والغنوصية والعدمية كما هو الحال عند نيتشه[1]. يعيش الغرب في راحة اليأس. يواجه سيلاً عنيداً ولا يستطيع حماية نفسه[2].

يأخذ إقبال نيتشه نموذج الحضارة الغربية في معراجه وهو يسيح في ما وراء الأفلاك. ويسميه المجنون. ويحييه الرومي، وهو مشهود الذكاء عند الألمان. يعزف نَفَس الحلاج بلا عوده. وهو جريء القول، براق الفكر. شطره سيف الفرنج. في رأي الطب مجذوب لا يعرف العشق. ابن سينا قادر على علاجه بفصد الدم أو بالحب. كان كالحلاج في الغربة. فر من قتل رجال الدين له وليس الأطباء. ليس لديه دليل فضل في السير. كان لديه المال الذي يعصى على العد. وينجز الأعمال وحده. عاشق له زفرة، سالك تاهت خطوته[3]. حطّم الكأسات في لحظة السكر. وانفصلت ذاته عن الله. ورأى بعين الظاهر العلاقة بين العبد والسيد. ولم يشأ مقام

---

(1) انظر خراب فؤاد الغرب يأكله — وعقله في كمال وافر بطر
يقوده العقل في نهر يفجره — وخلفه قلبه يمشي على كدر
جناح جبريل، ص440.

(2) قال أهل البحار أهل البراري — ليس للغرب غير راحة بأسه
واقف في طريق سيل عنيد — ليس يقوى على حماية نفسه
السابق، ص458.

(3) قلت للرومي ذا المجنون من؟ — قال: في الألمان مشهور الزكن
كان بين العالمين موضعه — وقديم اللحن منه نسمعه
إنه الحلاج لكن أين عوده؟ — قال قولا وسواه لا يعيده
وجريء القول براق الفكر — قوله السيف الفرنج قد شطر
عند أهل الطب ختل ما وجد — ويل مجذوب لإفرنج وُلد
ابن سينا في كلام قال أفصد — أو بحب من شكا الأوجاع أرقد
كان حلاجا بأرض كالغريب — فر من قتل الفقيه لا الطبيب
الطريق في الفرنج من عرف؟ — فعلى قيثارة دوما عزف
الطريق ليس فيه من دليل — ضل في سير وفي سير وبيل
كان مالا لم يجد من عده — ينجز الأعمال لكن وحده
عاشق لكن طوته زفرته — سالك قد تيهته خطوته
جاويد نامه، ص282.

الله أو الوصول إليه بالعقل. ظل في مقام «لا» أي النفي دون مقام «إلا» أي الإثبات. يحب الإنسان ولم يجده. عاش كموسى وحيدا. يا ليته عاش عصر المصطفى. طال في مقام واحد، ولم يعبره إلى آخر[1].

3 ـ السفور

المرأة لها نموذجان: الأول، المقلدة للغرب، المرأة السافرة وهي أحد مظاهر الاغتراب. والثاني، المرأة المحجبة أحد رموز النهوض. فقد حاول كثير من الحكماء حل قضية المرأة. والحقيقة أنه لا لوم على المرأة الغربية لأنها في فساد شائع كما شهدت بذلك النساء الفضليات. وكل امرأة تعاشرهن يعدوها الفساد ولا يعرفن طباع المحصنات[2].

السفور فضيحة العصر، نور في الظاهر وظلمة في الباطن. قد تتمتع العيون ولكن يتشتت الفكر. وقطرات الماء لا تتحول إلى در خارج أصدافها بقاع البحر. واستحكام الذات ممكن دون خلوة المساجد والأديرة[3].

---

(1) حطم الكاسات ذياك الشمل وعن الله وذات منفصل
ورأى لكن بعين الظاهر الرقيق في العنيف القاهر
ومقام للإله ما يريد وعن العقل البعيد والبعيد
إن تلك الذات شرح للحياة «لا» و «إلا» من مقامات الذات
ظل في «لا» وحدها هذا العجيب عن مقام «عبده» وهو الغريب
طلعة الإنسان راقت منه عينا ثم صاح ذلك الإنسان أينا؟
أو عن الناس تراه راغبا وكموسى للقاء طالبا
ليته من عاش في عصر لأحمد ليعيش في الحبور وهو سرمد
السابق، ص283.

(2) كم حكيم قد تمنى حله مشكل المرأة في هذي الحياة
لا تلمها في فساد شائع شهدت بالطهر كل النيرات
عشرة الأفرنج نهج مفسد جهل الحمقى طباع المحصنات
ضرب الكليم، ص66.

(3) فضح العصر جنة بالسفور نور عين وظلمة في الصدور
إن تُجز متعة العيون مداها كان فيها الشتات في التفكير
قطرة الماء لا تحول دُرًّا دون أصدافها بقاع البحور
تمسك الذات بنفسها حين تخلو لا خلاء بمسجد أو ديور
السابق، ص67.

ينتقد إقبال تحديد النسل في الغرب ومنع الحمل إما بسبب عقم النساء أو عجز الرجال أو عدم الرغبة في الإنجاب. وقد شاع هذا النموذج خارج الغرب أيضا[1]. لذلك ماتت الأمومة في الحضارة الغربية. والموت مصير طبيعي للإنسان في الغرب. فإذا ما أخرج التعليم في الغرب المرأة عن طبيعتها فإنها تموت. وحرمت الفتاة من تعليم الدين في المدرسة. والعلم والفن لا يكفيان[2].

درس الغرب هو مركزية الحور، نشوى الحاضر وفي نفس الوقت منطق الغرور[3]. فالحذر من وضع الغرب الحور في العين والقلب[4]. ويشكو إقبال بأن حور الغرب ألقت الشباك على مفاتن الشرق. صرعت كل الناس بمن فيهم ذوي الألباب حتى لم يبق فيهم حراك. ويحذر الرومي إقبال من الخداع بالمظاهر. عندما يفرك الفضة ينظر إلى يديه أي ما تركته فيها الفضة من صدأ. حضارة الغرب بريق فضة يعلوه صدأ[5]. ثم يستمر إقبال في السؤال: إلام سحر الإنجليز؟ يحج الطالب

---

(1) إلى عالم الغرب من أسلست — له الروم والهند يُرجى سؤال
كمال معاشرة عندكم — حيال النساء وعطل الرجال؟
السابق، ص66.

(2) موت الأمومة إن رامت حضارتهم — فالموت عاقبة الإنسان في الغرب
إن يجعل المرأة التعليم لا امرأةٍ — فالعلم موت يراه صاحب القلب
إن تحرمن الفتاة الدين مدرسة — فالعلم والفن موت العشق والحب
السابق، ص69.

(3) تذكرتْ روحي دروس الغرب — أيام حوره سكرْن جنبي
فآه يا الفرحة الحضور — وآه من منطقه المغرور
جناح جبريل، ص455.

(4) الحور في الغرب سكر القلب والبصر — فاهدأ قليلا وكن منها على حذر
السابق، ص434.

(5) قال: حُور الغرب ألقت فتن الشرق شباكا
صرعت ذا اللب حتى — لا ترى فيه حراكا
قال: يا إقبال! احذر — ظاهرا يطغى عليك
عندما تفركها الفضة انظر ليديك
قال: يا رومي! وسحر الإنكليزي إلاما
يأخذ الطالب لحما — ثم يرميه عظاما
قال: كالعصفور إن لم — يكمل الريش وطار
هجم القط عليه — ورماه للصغار
السابق، ص524.

إليه لحماً ثم يرميه عظاماً. ويجيب الرومي أن ذلك بسبب أن العصفور يطير قبل أن يكتمل الريش. فهجم القط عليه ورماه للصغار. فالطالب الذي يذهب إلى الغرب غير واع. تنهشه حضارة الغرب وتقضي عليه. في خمر أوربا سم يسمم شعوبه. يفني شبابه بالتسكع فيه. فتضيع مواهبه، وتبيد كرامته[1].

المرأة في الغرب مثل فتاة المريخ التي ادعت النبوة. وهي حسناء ادعت النبوة في العالم مثل الغرب تماماً الذي يبهر بريقه ليستولي على العالم[2]. رسالتها للنساء أنها ليست خليلة للرجال، بل تريد أن تكون حليلة. يظلمها الرجال ويحرمونها من ذاتها. ترخي شعرها بالمشط لغواية الرجال. يصيدونها بعد أن يدوروا حولها. يبدون العشق والهيام لخداعها. هم كفرة يقيمون الحرم وكله ألوان الألم. وإذا تم الاتفاق على الزواج فإن الوصال سم. والفراق شهد. وتنتهي نبية المريخ إلى تحذير المرأة بأنها ستذبل لخداع الرجال لها خليلة أو حليلة. وعليها مقاومة خدعة الفطرة كي تكون حرة بافتراق الجسدين، والابتعاد عن الرجال[3].

ويندب الرومي هذا العصر الجديد، ويعني الغرب ووضع المرأة فيه الذي لم يعد يؤمن بالله. فالعشق سر الحياة، وهو دينها الأوحد. تحرق المرأة في الظاهر،

---

(1) في خمر أوربه لشعب كامل ... سم يسمم ذاته وإرادته
تغني بنيه بالتسكع خلفها ... تمحو مواهبه تبيد كرامته
السابق، ص530.

(2) فَرزُمَرْزُ في حديث قد صدق ... من بلاد الغرب إياها سرق
لقَّن الحسناء أسرار النبوة ... ثم في العالم ألقاها بقوة
جاويد نامه، ص244.

(3) يا نساء، أنت يا أمي الجليلة ... قلن لي حتام عيشي كالخليلة؟
عيشها ما كان إلا ظلمها ... إنما الحرمان في الدنيا لها
إننا بالمشط نُرخي شعرنا ... في الرجال قد وجدنا صيدنا
الرجال صائدون، حذركن! ... ولأجل الصيد داروا حولكن
وإذا ابدوا هياما ماكَرونا ... وبشوق وشجون خادعونا
كافرون، ويقيمون الحرم ... ولكن فيه ألوان الألم
كل أم سوف تضوي في ذبول ... طاب عيش ليس فيه من حليل
غالبي ما الناس قد سموه فطرة ... والفتاة فلتكن من بعد حرة
بافتراق الجسدين وحُدي ... كي تصاني، عن رجال فابعدي
السابق، ص244 ـ 245.

وبنور الإله تشرق في الباطن. نارها أوجدت كل الفنون. وكل فن جنون. بالعشق ينتصر الدين، ومن العشق يؤخذ منه[1]. ويسميها إقبال أحياناً «فتاة المجتمع» التي تتجمل على طريقة الكفار وإعطاء الخد بدعوى الحداثة والعصرية. ونسيت دور الأم[2].

4 ـ عبادة المال والقوة

عبادة الغرب جمع المال. وهو ما يفخر به كقيمة. أباح العشق والسكر دون ضبط الهموم[3]. لذلك سيطر اليهود على الغرب، وتحكموا في مقدراته. استولى البخلاء على الأغنياء. يشتري اليهودي نصف كفنه ويستعير الآخر[4].

أدرك إقبال ببصيرته سيطرة اليهود على أوربا. وقد توفي قبل مأساة فلسطين بعقد من الزمان. في الغرب نظام ومال وعيش رغد، ولكن أيضاً فيه ظلمة القلب. ودخان المصانع لا يؤدي إلى تجلي الذات. الحضارة الغربية بالرغم مما يبدو عليها من تقدم، في احتضار. وهنا ظهر اليهود لوراثتها واستعمالها لحسابهم الخاص من

---

(1) مذهب العصر الجديد! قف لتنظر ... يا لعمري كلهم بالله يكفر
إن هذا العشق شرع للحياة ... في الحياة ما لنا دين سواه
وهي في الظاهر نار تحرق ... وبنور الله قاع يشرق
ناره قد أوجدت كل الفنون ... كل فن كان من فرط الجنون!
إن عشقا بوّأ العلياء دينا ... ذلك الدين فخذ عن عاشقينا
السابق، ص246.

(2) فتاتي دعك من هذا التجمل ... من الكفار تزيين أيجمل؟
وصدي القلب عن توريد خد ... فإن الغزو من عين التأمل
ضمير العصر ليس له نقاب ... على حسن تفتّح منه باب
بنور الله دنيا فلتنيري ... عليه في تجليه الحجاب
أصبنا العقل من ذاك الجنون ... بنظرة هذه الأم الحنون
ومن ليل لنا فجرا أنيري ... إلى القرآن عودي بالبصير
أرمغان حجاز، ص474 ـ 475.

(3) عبادة الغرب جمع مال ... تنخر في روحه السقيم
العشق والسكر ما أباحا ... أن اضبط النفس في همومي
ضرب الكليم، ص19.

(4) مثل كرباس والياس يخيط نصفه ... ويهودي لكفن نصفه الثاني استعارا
جاويد نامه، ص303 ـ 304.

خلال الاستيلاء على الكنائس وكما هو واضح الآن في المسيحية الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية[1]. ويسخر إقبال من التقدم التقني الغربي مثل الطائرة. فقد صنعت من الطين وطارت إلى السماء مثل جبريل، وكأن البشر أصلحوا ما في الأرض فلجؤوا إلى إصلاح السماء[2].

الغرب مدجج بالسلاح للدفاع عن الباطل. ويبرر باطله باستعمال الحضارة والدين. الجهاد للدفاع في الشرق شر مستطير. والحرب في الغرب للعدوان مجرد شر وليس جريمة.فأين الحق، مع الغرب المعتدي أم مع المسلم المقاوم؟[3].

لقد نشر الغرب أسواقه ومن حولها الجند بالسلاح. وسلعه شراك للشراء. ومتجره ظل عرش وتاج. فالرأسمالية مقدمة للاستعمار، والاقتصاد وسيلة للسيطرة السياسية. في التجارة منفعته، وفي السياسة عدوان. باللسان الكلمات العذاب، وفي القلب الحقد الدفين. تتم مقاومته بالزهد في تجارته، ففيها الخسارة. ونسيج الذات أقوى خيوطاً، وثيابها أنعم. تدور آلاته وهي تحمل المنايا. ويميت بالغش من غير حرب. ويمص دماء البشر. مقاومته بمقاطعته ورفض نقش البساط اكتفاء بالحصير. وفي معاملاته لا يعطي الوزير بالبيدق في لعبة الشطرنج. بريقه زائف. يجمع النقود، ويبيع الضمير. وعاء المسك لديه مصنوع من عظام الكلب، وليس من قرن الغزال. هو ماكر كالثعلب، غادر مثله. يُعاذ من كل شروره. ومن ذاق خمره لا

---

(1) نظام ومال وعيش رغيد — وظلمة صدر لها القلب يغلي
دخان المصانع في الغرب داج — فواديه ليس بأهل التجلي
رأيتُ حضارته في احتضار — تموت اعتباطا، وما الموت يُملي
فليس غريبا تولي اليهود — كنائسه بعد هذا التولي
ضرب الكليم، ص101.

(2) من الطين صار لنا جبرئيل — من الأرض نحو السماء دليل
أأصلحت في الأرض بعد عناء — فجاءت لتصلح جو السماء
رسالة الشرق، ص303.

(3) أما ترى الغرب بدا مدججا — ليحفظ الباطل في عز عمَمْ
يا مفتيا على الكنيس مشفقا — قد حار في أحكامه أولو الفهم
الحرب في المشرق شر داهم — والحرب في المغرب شر لا جرم
إن يبتغ الحق فكيف حاسب المسلم لا الفرنج ذلك الحكَم
ضرب الكليم، ص18.

يعود إلى داره، بل إلى قبره. يضل البصر بألوانه وأصباغه. وبسلعه تنبهر الأمة[1] .

الغرب جيفة لا تقترب منها الشواهين. هو مجموعة من الغربان إذا أخفت مخالبها أعينها سكاكين. لم تلهبها الأوتار بلوعة الحب. فنغمة الملائكة لا تفتن في القلب. لقد أتى إقبال الغرب، ولم يفتن بسكرة كأس ساقيها. فكرام الناس لا يطعنون ضيوفهم. وغزاة العصر ليس لهم بسلطان على العشاق. فالعاشق له من حبه كون، بالرغم من أن العاشق بين الحضور والغياب، بين الوصل والفراق[2]. إن

(1) لقد نشر الغرب أسواقه ... ومن حوله الجند أقوى سياج
وسلعته شرك للشراء ... ومتجره ظل عرش وتاج
له في التجارة ربح ونفع ... وبالحكم يأتيه كنز الخراج
ويلقاك بالكلمات العذاب ... وفي قلبه الحقد خلف الرتاج
فكن في متاجره زاهدا ... ففيها الخسارة والمغرم
نسيج بلادك أقوى خيوطا ... وقطنك من خزه أنعم
جهاز المنايا بدولابه ... يدور وأنت به أعلم
يميتك بالغش من غير حرب ... وأنت له الربح والمغنم
إذا جاء يعرض نقش البساط ... فدعه وعش راضيا بالحصير
وإن وصلتك به رقعة ... فلا تعطه بيدقا بالوزير
جواهره بهرج زائف ... لجمع النقود وبيع الضمير
ونافجة المسك في سوقه ... من الكلب لا من غزال غرير
تنبه لهذا الدخيل الذي ... تفر الثعالب من مكره
ولا تتعمم بمنسوجه ... ولا تغمش العين عن غدره
وإما مررت على حانة ... تعوذ بربك من شره
فمن ذاق خمرته لم يعد ... إلى داره بل إلى قبره
بأصباغه وبألوانه ... تضل البصيرة قبل البصر
بسلعته قد غدونا سكارى ... وصاحبها بالغنى قد سكر

يا أمم الشرق، ص394 ـ 395.

(2) أتطلب جيفة الغربان هاتيك الشواهين
إذا أخفت مخالبها ... فأعينها سكاكين
متى الأوتار تلهبها ... بلوعة ذلك الحب
فنغمة صور إسرافيل لا تفتن في القلب
أتيت الغرب لم أعبأ ... بسكرة دل ساقيها
كرام الناس لا تشجو ... على مرأى أعاديها
غزاة العصر ليس لها ... على عشاقنا عون
وما من عاشق إلا ... له من حبه كون
غياب كالحضور به ... من الهيجان أدومه
لعل الهجر للجرح الذي في الوصل مرهمه

جناح جبريل، ص436.

أعظم نصيحة أعطاها أحد لوردات الإفرنج لنجله هو أنه من الظلم إعلام الخراف بشريعة الأسود. إنما سر الملك هو عدم قهر العباد بالسيوف، بل عن طريق التعليم وتذويب النفوس في النار، ثم إعادة صياغتها طبقاً للمراد، عبودية أو حرية، ذلاً أو استقلالا. فالتعليم هو الذي يحول الرماد إلى ذهب[1].

الاستعمار أصل كل بلاء. يريد كليل أن يحجب الشمس، دون أن يعلم أن الليل موقوت، وأن شروق الشمس قادم[2]. ليس هناك طريق لمواجهة الاستعمار إلا القوة والنضال من أجل التحرر من الظلم والعدوان. والطريق إلى ذلك يقظة الروح حتى يهد البناء على رؤوس الظالمين[3]. ليس العدل بعيد المنال. ولا ينال أي خير من سراق أكفان القبور[4].

الأرض لشعوب الشرق وليس للغرب. يعيش الغرب فيها كنزلاء، وليسوا كأصحاب بلاد. وتكون المواجهة بالثقة بالنفس، والكفر بالعدو الدخيل. فالعلا والهوان في يد الذات، وكرامة الأجيال من صنعها[5]. تحيا الشعوب بقوة الحق،

---

(1) قال لُورد من الفرنج لنجل ... أبغ مرأى يدوم فيه المراد
أظلم الظلم للمساكين إعلام ... خراف شريعة الآساد
إن للملك سره فاكتمنه ... لا ترُم بالسيوف قهر العباد
وبحمض التعليم فاغمس نفوسا ... ثم صغ طينها وفاق المراد
أين منه الاكسير؟ هذا محيل ... جبل التبر كومة من رماد

ضرب الكليم، ص110.

(2) إن الاستعمار منه كل نكس ... يا له ليلا يريد حجب شمس

جاويد نامه، ص316.

(3) خذ السيف من عصبة المعتدين ... إذا كنت تنشد للحق نصرا
لقد آن للروح أن تستفيق ... وللشرق أن يستبين الدليلا
ليجعل أنقاش هذا البناء ... على الظالمين كثيبا مهيلا

يا أمم الشرق، ص392.

(4) لقد حان تغيير دنيا بها ... نرى العدل أمرا بعيد المنال
وسراق أكفان موتى القبور ... على يدهم أي خير ينال

السابق، ص392.

(5) لك الأرض أم هذه أرضه ... وأيكم في حماها نزيل؟
بنفسك كن واثقا مؤمنا ... وعش كافرا بالعدو الدخيل
فمنك إليك العلا والهوان ... ومجدك في الشرق عال أصيل
كرامة أجياله في يديك ... فأنت له أو عليه الدليل

السابق، ص393.

وتنال المجد. قوة الشعب في وحدته. ومهما بان الحق فإنه يبقى زيف خيال ووهم، أماني إن لم يقرن بالقوة. والقوة دون الحق جنون وطيش ووبال[1].

وبالرغم من قصيدة «لينين أمام الله» خارج موضوع الحنين إلى الأندلس إلا أنها نفحة من نفحات الإيمان، ونقد للغرب عامة، والرأسمالية خاصة، وإعطاء لينين الحق في قصده، والأعمال بالنيات. يعترف منذ البداية لينين بوجود الله وخلق العالم وخلود النفس وكأنه من كبار المؤمنين المؤلهين. يخاطب الله ويناجيه بأن كل شئ في الكون من تجلياته، وأنه حي خالد يقوم بذاته، وأن العقل قاصر عن إدراك كل عظمته وكمالاته، وأنه لم يدرك لطيشه دلالات الوحي، وأن العالم قد قصر فهمه عن إدراكه[2].

ويعلن لينين بعد أن شاهد ما يحدث في العالم بعد أن حاول فهمه ومعايشته أنه لم يكن وحده مغرورا. كانت أساطير الكنيسة حولهم في كل مكان. وكانوا مكبلين بأغلال السنين التي يصورها الله في قصص الأنبياء[3]. كان السؤال الذي يمزق قلبه والذي تركه لأباطرة الجدال واستمر معه طيلة العمر يثيره وما من جواب

(1) على قوة الحق تحيا الشعوب — وتجتاز في المجد حد المجال
فلا شعب يقوى بلا وحدة — تضم الصفوف لنيل المعالي
ومهما سما الرأي إن لم يقم — على قوة فهو زيف الخيال
وفي قوة دون رأي جنون — وجهل وطيش وعقبى وبال
السابق، ص393.

(2) يا من ترى في النفس والآفاق من آياته
الحق أنك خالد حي يقوم بذاته
ما كان يمكن في وجودك لا يكون على يقين
والعقل يخرج مرغما عن رأيه في كل حين
ما كان يدرك عقلنا في طيش نظرته السريعة
ما كنت ترسله من الأنغام في خلد الطبيعة
سيان رصّاد النجوم ومن توغل في النبات
وقفوا على مرصادهم والكل ينقصه الثبات
جناح جبريل، ص490.

(3) اليوم أعلن بعدما شاهدت عالمك الأخير
وأنا الذي كابدت أفهمه وعانيت الكثير
إني، وتعلم، لم أكن وحدي هنالك في غرور
كانت أساطير الكنيسة حول عتمتنا تدور
=

مما أدى إلى تحطيمه. يعبر عن شكوك نفسه: ما أصل آدم قبل أن يصبح طيناً، ومن كان سيده؟[1].

والإجابة على السؤال الميتافيزيقي: أين كان آدم قبل أن يصبح طيناً، ومن كان سيده؟ إجابة تاريخية عملية إنسانية. لم يكن معاصراً عندما كان الدين أفيون الشعوب، عندما كان الإنسان مترنحاً أمام الصنم الذي خلقته يداه في درب أوربا التي تآمرت على الشرق الجريح. أوهمت أوربا أنها منار الحياة. والحق أن النبع من ظلماتها نبع الحمات. تاهت في أبنية المصارف فوق أبنية الكنائس، جمعاً بين السلطتين الاقتصادية والدينية. وزينت هيكلها الجديد بكل أنواع النفائس. قيل تجارات وكل ما فيها قمار، ومؤامرات تجعل الصغار في جيب الصغار. رفعت السياسة والحكومة والكنيسة والسماء مبدأ المساواة وهي في حقيقتها مص الدماء. آياتها العري والفقر والبطالة والفساد. في حين أن شعباً كاملاً رد المحبة إلى السماء. حُصرت روائعه لما أتى عصر الكهرباء[2].

=
كـنـا هـنـاك مـكـبـلـيـن بـكـل أغـلال الـلـيـالـي
أيـام أنـت تـصـدر الأزمـان فـيـه عـلـى الـتـوالـي
السابق، ص490 ـ 491.

(1) قـلـبـي يـمـزقـه سـؤال فـيـه فـائـذن بـالـسـؤال
تـركـتـه خـوفـا مـن عـواقـبـه أبـاطـرة الـجـدال
هـذا الـسـؤال وكـان طـول الـعـمـر يـرمـيـنـي شـريـدا
ويـثـيـرنـي تـحـت الـسـمـاء أسـى ويـتـركـنـي وحـيـدا
هـذا الـذي ألـقـي بـأيـامـي حـطـامـا فـي الـوهـاد
هـذا الـسـؤال وكـان مـغـروسـا كـشـوك فـي فـؤادي
هـذا الـسـؤال عـن الأنـام ولـن أجـور عـلـى الأنـام
وأنـا تـضـايـقـنـي مـراقـبـة الـطـريـقـة فـي الـكـلام
فـالـمـرء لـمـا تـعـصـف الأفـكـار فـي أرجـاء روحـه
لا يـسـتـطـيـع تـخـيـر الـكـلـمـات تـخـرج مـن جـروحـه
مـن كـان آدم حـيـن كـان الـطـيـن صـلـصـالا عـلـيـه؟
مـن كـان سـيـده سـؤال لا أوجـهـه إلـيـه
السابق، ص491.

(2) إيـاك نـعـبـد ـ لا أظـن وأنـت عـلام الـغـيـوب
عـاصـرتـه مـتـرنـحـا بـهـيـاكـل الـصـنـم الـقـبـيـح
فـي درب أوربـه الـتـي اتـمـرت عـلـى الـشـرق الـجـريـح
فـي درب أوربـه الـتـي تـبـدو مـنـارا لـلـحـيـاة
=

الغرب حكم الآلات. لا مكان فيه لمعاني القلوب. محي الحنان من بين الشعوب. وتبدو الدلائل أنه صائر إلى فناء. يقع الغربيون في شباك حاناتهم. ويفنى شيوخ السكر مما يشربون بلا حراك. وجوهم صحراء من حمرة النبيذ. وهو خمر زائف وخضاب دماء. يذوق العامل مرارة العيش. ويعبر مركب الرأسماليين في البحار. فمتى تغرق أخذاً بثأر الحق؟[1].

وتغني الملائكة تأييداً لإقبال تأييداً لليقين. الفكر حر، لا يكبح جماحه أحد. والحب لا مأوى له. لوحة الله لم تكتمل. وجارت على السر الدفين. الكهان مع الطغاة ضد البسطاء. ولمحنهم صباح مساء لجؤوا إلى الإلحاد. الفقراء من البؤس في سكرة، والأغنياء من الترف سكارى. عبد يلم كسر الخبز من الشوارع، وعبد

= والحق أن النبع في ظلماتها نبع الممات
تاهت بأبنية المصارف فوق أبنية الكنائس
وأتت لهيكلها الجديد بكل أنواع النفائس
قالوا تجارات تدار وكل ما فيها قمار
ومصادفات تجعل البلدان في جيب الكبار
أي لاسياسة والحكومة والكنيسة والسماء
رفعوا مساواة تقال وأشربوا حب الدماء
العري والفقر المبادل والبطالة والفساد
آيات أوربّه التي انتشرت بأنحاء البلاد
أسفا لشعب كامل رد المحبة للسماء
حُصرت روائعه بما أوحت إليه الكهرباء
السابق، ص492.

(1) لم يبق بعد حكومة الآلات معنى للقلوب
كان الحنان ملاذنا فمحته من بين الشعوب
وبرغم هذا كله تبدو الدلائل أنهم
سيبددون ويقرعون على الهزيمة سنهم
حاناتهم رقعت بما نصبوه من تلك الشباك
فإذا شيوخ السكر مما يشربون بلا حراك
الحمرة الملقاة فوق وجوههم عند المساء
آثار خمر زائف وخضاب زور لا دماء
رباه! أنت القادر الحق الرحيم العادل
من ذاق من مر المعيشة ما يذوق العامل
الرأسماليون مركبهم يعربد في بحارك
فمتى تغرّقه وتأخذ من مظالمهم بثارك
السابق، ص492.

آخر يطعم حتى الأقمار. ولم يسلم الحكماء والفقهاء من طمع تأرجح في النفوس. تعارضت الآراء، وبثت الضغائن، وقُضي على الحب الذي يواسي جراح البؤساء. الحب جوهر الحياة وجوهر الذات. ويوضع هذا السر في غمد السيف بين الذل والآهات[1].

يصدر الله أوامره إلى الملائكة بإنقاذ هذا الكون الغريق، ورفع مقام الفقراء على الأمراء. لقد بدل الأغنياء القصور بالمساجد، وهم خلقه وأجراؤه. فليعاد النفخ في روحهم دون أي أسى على الأسرار. وعلى الحائر أن يستبدل ببرده حرارة اليقين. وللضعفاء قوة تجعل العصفور يصرع النسر. ويُمحى الماضي للقضاء على الجمود والتقليد. ويقام العدل على الأرض بسيف الإصلاح. وتُحرق الحقول التي لا تشبع الفلاح. وترفع الحجب بين الخلق والخلاق. وترفع الأستار التي وضعها الكهان على الأرزاق. ويخرج الكهان الغارقين في الأوهام من الكنائس. ولا يكون السجود إلا لله وإلا كانت مؤامرة مع الأصنام. وتوضع المصابيح في المساجد والكنائس حتى تنير للناس طريقهم. وما فائدة رخام أبيض والقلوب سوداء؟ وتبنى المساجد والكنائس من الطين مثل بيوت الفلاحين للمساكين. وينتهي النقش والرقش. فالطين لا يهديه إلا الطين[2].

---

(1) الفكر حر لا يرد جماحه — والحب لا مأوى له يؤويه
رباه! لوحتك التي لم تكتمل — جارت على السر الذي تطويه
كهان خلقك في صفوف طغاتهم يقفون للبسطاء بالمرصاد
محن صباح مساء لا معنى لها إلا لجوء الناس للإلحاد
فقراؤهم من بؤسهم في سكرة — والأغنياء من الرفاه سكارى
عبد يلم من الشوارع خبزه — عوزا، وعبد يطعم الأقمارا
هل تسلم الحكماء والفقهاء من — طمع تأجج في النفوس وقيده
أم تسلم الآراء من لعناته — هذي عطاياه، وتلك عبيده
يرعون كل ضغينة لبقائهم — والحب من ألم الشقاء يصيح
سبحانك اللهم فالحب الذي — يأسو جراح البائسين جريح
ذات الحياة الحب جوهر سرها — والحب جوهره حياة الذات
أسفا لهذا السيف يخبط سره — في الغمد بين الذل والآهات

السابق، ص493.

(2) قوموا إلى كوني الغريق وأطلقوا فقراءه فيه على الأمراء
أيبدلون مساجدي بقصورهم — جورا على خلقي وهم أجرائي؟
قوموا إليهم وانفخوا من روحنا — فيهم ولا تأسوا على أسراره
=

وفي قصيدة بعنوان «الدين والسياسة» ينقد إقبال المؤسسات الدينية ومظاهر الطقوس والعبادات الخارجية بلا مضمون وحياة باطنية. كما ينقد الصوفية الفقهاء، وأنصار «التأويل» أنصار «التنزيل». ويبدأ ساخراً، فشر البلية ما يضحك. فقد بنيت الكنائس ضد الملوك فأصبحت طوعاً لهم. رأس الكنيسة غارق في الوداعة. والقصر يترفع على رقاب الناس. لا تفعل شيئاً لإيقاف استبداد الملوك بل تسير خلفهم لتبرير استبدادهم. يتبادلان الأدوار. ثم فصلوا الدين عن السياسة بعدما عمت الفتنة، واشتد التقاتل بينهما، وسالت الدماء في حروب الدولة والكنيسة. أصبح البابا سلطاناً بلا سلطان، والشعب جريح مما أدي إلى فساد الدين والسياسة معاً، تناقضاً بين اليمين واليسار. لعنة حلت على الاثنين كما تنبأ بذلك النبي في الصحراء، جمعاً بين الجنيد وأردشير، بين السماء والأرض، بين الدين والدنيا[1].

= قولوا لحائرهم تبدل أمركم فاستبدلوا برد اليقين بناره
قوموا إلى ضعفائهم وهبوهم ما يجعل العصفور يصرع بازا
وامحوا من الماضي جميع ذيوله لا تتركوا للجامدين مفازا
وخذوا من العدل الأخير لأرضهم سيفا يقيم بحده الإصلاحا
وتقلبوا بالنار في الحقل الذي تجدونه لا يشبع الفلاحا
لم هذه الحُجُب التي تلهو بهم وتحول بين الخلق والخلاق
لا تتركوا في الأرض سترا مسبلا أرخاه كاهنهم على أرزاقي
ومن الكنائس أخرجوا أربابها الغارقين بلُجة الأوهام
لله قد شُرع السجود وما عدا هذا، مؤامرة مع الأصنام
جوسوا الكنائس والمساجد لا أرى لكنيسة ولمسجد مصباحا
أنا غير راض عن رخام أبيض تلقي به سود القلوب مراحا
وابنوا من الطين المعابد علَّ أن يجد السكينة عابدي المسكين
يتنافسون بنقشها وبرقشها والطين لا يهديه إلا الطين

السابق، ص494.

(1) عندي لرهبنة الكنائس طرفة فهلم نضحك للحياة قليلا
بنيت لأعداء الملوك وأصبحت للطامعين من الملوك سبيلا
رأس الكنيسة في الوداعة غارق والقصر فوق الناس يرفع أنفه
تنوي المضيَّ فيستبد أمامها وتريد تلعنه فتمشي خلفه
هذا التناقض كيف أمكن دمجه سبحانك اللهم رب النار
ما للقصور وللكنائس حيلة في الناس غير تبادل الأدوار
فصلوا عن الدين السياسة بعدما وصلوا بفتنتهم إلى التيجان
وتطاول البابا فقيل له: استرح أصبحت سلطانا بلا سلطان
وتلفت الشعب الجريح فلم يجد حظا له من ذلك التغيير
كانت مصالح راهب ومتوّج صارت مصالح حاكم ووزير =

5 ـ الانبهار بالغرب

وفي الإهداء إلى الأمة الإسلامية في بداية «رموز نفي الذات» يحذر إقبال الأمة من الانبهار بالغرب أي من التغريب. والغرب لديه هم النصارى أو النصران. الاغتراب نفي للذات وأحد رموزه، وابتعاد عن الأصالة التي ترمز إليها الكعبة. الخطر إذن نفي الذات، والاغتراب في الآخر. والاغتراب الحضاري للأمة مثل اغتراب الوجود للذات وخضوعها لغيرها[1]. يؤدي الانبهار بالغرب إلى «التغريب». وينشأ من فقد الذات، وتحويل الإنسان إلى غريب في الأوطان، واستمد أجره من غيره الذي ينصب شباكه على أرضه وقهره. ماتت الجذوة فيه لأنه حول نفسه إلى عبد. وخمدت النار في عروقه. أهان نفسه، ووضع الجبين على التراب. مع أنه فيما مضى خاض الحروب، وتحدى الخطوب[2].

ينقد إقبال الانبهار بالغرب كما تجلى لدي «صريع الفرنج» الذي نسي ذاته،

= ثنوية لم تبق دربا صاحيا سقت الدِّيانة كأسها والدارا
هي في اليسار وفي اليمين مقيمة تُزجي التناقض يمنة ويسارا
هي لعنة الدنيا كما أفضى لنا بالسر هذا سيد الصحراء
لن تعرف الناس السلامة ساعة إن لم تقم من حمق هذا الداء
أبدا مرقّعة الجنيد لوحدها لن تستطيع لأمرنا ترقيعا
إن لم يكن هو أردشير صراحة خرق الطرائق أردشير جميعا
السابق، ص505 ـ 506.

(1) لك طرف بالنصارى سُحرا وعن الكعبة أبعدتِ السرى
صحبة النصران قلبي هجرا حينما وجهك عندي أسفرا
أنا من نظم مديح أرفع لست ممن لأمير يركع
الأسرار والرموز، ص77 ـ 78.
قيل: أهدى سحر أوربا لنا وبقانون الفرنج افتتنا
السابق، ص151

(2) منذ أن ضيّع من ذات نصيبا كان في أوطانه هذا الغريبا
ظل في أيدي سواه أجراه وشباك الغير أرضى نهره
ومضت في سيرها كل القوافل أفسد الأعمال شأن كل غافل
ماتت الجذبة فيه وهو عبد ولنار في العروق كان خمد
لا تظن أنه كان المهينا في التراب دائما أدلى الجبينا
إنه فيما مضى خاض الحروبا وتحدى وهو ذو البأس الخطوبا
جاويد نامه، ص289.

واغترب في الغرب. تحولت ذاته إلى هيكل خال، غمد بلا حسام[1]. يشك في الله وهو يشك في ذاته. الكون جوهر الذات ينكشف فيها. والمغترب يدفن ذاته في غيره. والباحث عن المعنى تزوغ عيناه إلى الغرب، ولكنه لا يجد شيئاً هناك[2]. يدعو إقبال إلى تجنب الغرب وعدم الانسحار بسحر أوربا. فهي لا تساوي شيئاً في ماضيها، ولا في حاضرها. وكل الأبطال القدامى في الشرق والغرب، داريوس، الإسكندر، خوسرو، كايكوباد حفنة عشب جرفتها الريح الآن[3].

لقد أبهرت أوربا الأمة، وألهت نفسها بها، وتخلت عن ذاتها. فالحذر من أن تكسر الذات مرآتها التي تعكس فيها صورة غيرها. فلا تُترك الأصالة، أصالة الرومي. فداؤها دواؤها. وتستعيد به ما ضاع منها[4]. إذا انبهر الغر بالغرب فسره قد غزا من قبل الأنام. فقد استطاع الكليم تفجير الماء من الصخر. وشكل الحسام المستقيم أمضى من شكل الهلال المستدير[5]. إن بريق الغرب خادع، بريق ماسة

---

(1) من تَجَلّي الفرنج نلتَ وجودا | فهمو منك هيكلا قد أقاموا
ومن الذات هيكل التُرب خال | أنت غمد مذهَّب لا حسام
ووجود الإله عندك ريب | وأرى الريب في وجودك أنتا
إنما الكون جوهر الذات يجلى | فانظرنْ أيَّ جوهر قد دفنتا

ضرب الكليم، ص21.

(2) وصياد المعاني ما | رَجَتْ في الغرب عيناه
فضاء مونق لكن | غزال المسك خلاه

السابق، ص121.

(3) Persian Psalms, p. 117.

(4) ألهتك أوربة | بالسحر عن ذاتك
إياك أن ترضى | عن كسر مرآتك
لا تترك الرومي | ولهيب حرقته
فدواؤك الشافي | في نار نظرته
أو ما استعدت به | ما ضاع من نفسك؟
إياك كنت ترى | جيحون في كأسك

جناح جبريل، ص427.

(5) إذا سلب الغرب قلب الغرير | فسرك يغزو مصير الأنام
عصاك تُصّدع صُمّ الجبال | وتعرف سيناء صَدق الكلام
فدع ترفَ الغمد ما للهلال | على فخره غير شكل الحسام

السابق، ص427.

خارجي من أثر الكهرباء وليس من طبيعته(1).

الغرب نفسه يرفض التغريب أي ذوبان الآخر فيه. إذ يشهد الغرب أن إقبال غزنوي جرّع الغرب مصير إياز الذي قص الغزنوي ضفائره المغرية كما قص ضفائر أوربا. وما يقص شعره لا يكون نموذجاً للاقتداء. وبالتالي يظل الإنسان نسيج وحده(2).

لقد عشقت الأمة دُمى الغرب. وأصبحت تحرق النار لغيرها، لأهل الدير. أصبحت غريبة على نفسها. لم يتحقق وجودها. شربت الأمة من حان الغرب، وفي نفس الوقت شربت العذاب. وعندما نجالس أهل الحسين تبدو النيران ثلجاً مذابا(3). المتفرنج مثل الشيطان. رزق الله كليهما، واحتار بينهما(4).

لقد ذاق الشرقي جرعة من خمر الغربي. ولا عجب أن يخرق نذره بالامتناع عن الشرب. لقد علم الغربي بأفكاره الجديدة القارضة الشرقي كيف يفكر؟ وكيف يسلك بمفرده؟ فغلى الدم في عروق هذا العابد القديم للقدر. ولا يحزن الساقي إذا أرد الشاربون خمراً أكثر. ويعذرهم، فهو الذي علمهم الشراب. ولا يعرف البلبل إذا كان في حديقته إلا بفضل رائحة الورد(5). تغري أوربا الأمة بالنهر. وبنفس النهر ضاعت الأمة. تستتر أوربا وراء النهر لتخفى تيارها المدر. جرف كل شيئ. ولم

---

(1) لا تقل في الغرب رأيا ... ببريق يتعلق
ماسه من كهرباء ... جعلته يتألق
السابق، ص451.

(2) شهد الغرب أنني غزنوي ... حين جرعته مصير إياز
أيهيم الفؤاد في كل حسن ... أم يغنى لوحده في الزحام؟
السابق، ص466.

(3) دُمى الإفرنج قلب لي تعشق ... ومن نار للأهل الدير أحرق
لقد أصبحت عن نفسي غريبا ... فما أدري وجودا لي تحقق
بحان الغرب عاقرت الشرابا ... بروحي قد شربت لي العذابا
وكم جالستُ أهل الحسن لكن ... بدت نيرانهم ثلجا مذابا

(4) رأي متفرنج لله حكما ... فيرزق وهو يطلب منه دوما
على الشيطان أغدق أي رزق ... إلى أن حار فيه الله يوما
أرمغان حجاز، ص500.

(5) A Message from the East, p. 117.

يترك مكاناً لتمساح يعيش فيه. العبيد لا رأي لهم. والأحرار رأيهم عام. لا شيئ ينهض بالأمة إلا اجتهاد أصيل يستخرج لؤلؤة من الصدف. الأمة قادرة على أن تعيد صب الزجاج بعد صهره في الكير. وتجعله صخراً بما لديها من إكسير الحياة. يدها في الجهاد يخشاها فرعون. بيضاء تبغي السلام إذا ما مدت لمولاها. تخطئ أوربا إذا ظنت أن نَفَس الأمة سيتوقف أو أن ينطفئ نارها في قشها اليابس. نار الأمة بعد ما قويت من أعوادها لا شيئ يتوقف أمامها من حطب أوربا[1].

يؤدي الاغتراب إلى الرياء والنفاق والمداهنة، والتغني بمزايا الآخر، صدقاً أو كذباً، فيه أو ليست فيه. دولة الغير رحمة. والذل في الدنيا نعمة. ويؤدي حكم الدخلاء فيه إلى ازدهار وارتقاء للدين والدنيا. لقد تخلى البعض عن ذاتيته فأصبحوا غرباء. وكل من أعرض عن ذاته واغترب في الغير فقد جوهر مرآته. ولو أن الذات تعيش مطلبها يوماً واحداً مغايراً للأجنبي لعرفت معنى استقلال الذات[2].

---

(1) عجبا لأوربّه ... بالنهر تُغرينا
وبذات لجته ... ضاعت معانينا
تُخفي بهدأتها ... تيارها الماحي
عصفتْ فما تركت ... وكرا لتمساح
رأي العبيد بها ... لا نطمئن له
وتقرر الأحرار ... الرأي مجمله
لا شيئ يقنعنا ... إلا اجتهاد وفي
يأتي بلؤلؤة ... من ذلك الصدف
ذاك الزجاج إذا ... عجنَتْه في الكير
فأنا أسويه ... صخرا بإكسيري
لي في الجهاد يد ... فرعون يخشاها
بيضاء ما مدت ... إلا لمولاها
أتظن أوربّه ... أن ينتهي نَفَسي
أو تنطفي ناري ... في قشها اليبس
ناري وقد أذْكت ... ما اخضرَّ من قصبي
لا شيئ يمنعها ... من ذلك الحطب

جناح جبريل، ص423.

(2) كم تغنّي بمزايا بايزيد ... ذو رياء هو للورد مريد
فيرى في دولة الأغيار رحمة ... وكأن الذل في دنياه نعمة
وينادي أن حكم الدخلاء ... فيه للدين ازدهار وارتقاء
أيها المحروم من وجدانه ... ومن الشوق ومن أشجانه
أو تدري أننا من عصرنا ... غرباء فيه عن أنفسنا؟

استبدلت الأمة الآن بالمسجد الدير. والحر ما زال ينهل من يمين المصطفى. في ضميره تكبير الإله. وفي جبينه تقدير الأمم. أسلمت الأمة القيادة للأفرنج واعتمدت عليهم. وأرادت عزتها منهم، وقبلتها لهم. شعار الحر عزم وإباء. يعتمد على نفسه وعلى الله. لا يمد اليمين لغير الله. ولا يحني الجبين إلا لله.

يبدو الغرب قمراً في عين الفتى المسلم الساذج[1]. إنما المسلم هو الذي يمد يده للعاثرين. يضرم في روحه النار. ويهبها لجميع المسلمين[2]. لقد أطال جهبذ الإفرنج القول في الكون والعدم. وكرره الشيخ وراءه دون علم أو وعي[3]. وتغرب العقل وبدا كالمقامر بالعلم المشين. أصبح الجهول أفضل من الحكيم[4]. ومن الغربي لا يطلب أي شيئ بل فقط تحطيم الصنم المعار[5]. وعلى عتبات الغرب

= كل حي مُعرض عن ذاته — فقد الجوهر من مرآته
عش ولو يوما عزيز المطلب — أجنبيا عن طريق الأجنبي
يا أمم الشرق، ص361 ـ 362.

(1) أصبح الدير لدينا مقصدا — نحن للغير نبيع المسجدا
وهو يسقى من يمين المصطفى — كوثرا عذبا به الورد صفا
في ضمير الحر تكبير الإله — في جبين الحر تقدير الأمم
نحن للإفرنج أسلمنا القيادا — واتخذناهم لدى الجُلّى عتادا
وابتغينا عندهم عزتنا — وجعلنا ودهم قبلتنا
وشعار الحر عزم وإباء — رزقه من يد جبار السماء
فلغير الله ما مد اليمين — لغير الله لم يحن الجبين
السابق، ص363.

(2) فتى الإفرنج فلتشهده حينا — بدا قمرا لعين الناظرينا
فتانا ساذج من فرط ظرف — وقاه الله عين الكافرينا
يمينك مدها للعاثرينا — ومن لسواك كانوا ناظرينا
فمن نار أضرِّمها بروحي — نصيبا هب جميع المسلمينا
أرمغان حجاز، ص453.

(3) كلام جهبذ الإفرنج قالا — وفي كون وفي عدم أطالا
من الأعجام شيخ قال قولا — أبلغه، فألق إليه بالا
السابق، ص483.

(4) تغرب عقلنا ذا عن يقين — بدا كمقامر إلى الحق المبين
السابق، ص496.

(5) ولا تطلب إلى الغربي شيئا — بقلبك حطم الصنم المعارا
السابق، ص497.

يُعفّر الجبين كصنم جديد. فلتدر إليه الظهور. وإن عبادة أصنام الفرنج تؤدي إلى الموت[1].

6 ـ تقليد الغرب

قامت نظم التعليم على تقليد الغرب، والهيام به، ونفي الذات، وانتظار المعرفة من الغرب في الغذاء[2]. أضاع التقليد الأمة، ومحا شخصيتها. وتحول المسلم يحطم الأصنام القديمة إلى مشيد لأصنام جديدة. والنفس قادرة بكرمها وحيائها تأكيد ذاتها. لا تخشى سوى الإله. والقادر على إثبات الذات قادر على أن يشق طريقه في الدنيا[3].

ولا يكون الفن تقليد الغرب بل هو إبداع ذاتي[4]. التقليد محاكاة، والمحاكاة ليست حياة، بل هي إماتة للخيال.

ينقد إقبال «صريع الإفرنج» الذي يستمد وجوده من غيره. ويعمر ذاته من

---

(1) بجاه الغرب إن كنت القمينا ... على عتباته عفر جبينا
أدر لعصاه عند الضرب ظهرا ... كعير سيق فلتكن المهينا
وأصنام الفرنجة ما عبدتنا ... بمعبدهم فبئس الموت متا
السابق، ص498 ـ 499.

(2) يا أمم الشرق، ص398 ـ 399.

(3) قد ذاب في نار الفرنج فما له عنها محيد
وأتته نار جهنم لكن بأسلوب جديد
ومدينة الإفرنج ماضية بنا نحو الزوال
قتلت مواهبنا بلا حرب تدور ولا قتال
فاكشف لقومك عن كريم النفس متقد الحياة
ثمل يحب الله لا يرجو ولا يخشى سواه
وإذا تبين مسلم في ذاته شرف المكانة
اخلق به في الدهر أن يختار في الدنيا مكانه
السابق، ص404 ـ 405.

(4) قلد الغربَ فن عُجْم وهند ... عم هذي البلادَ موت الخيال
شفّني الغم أن بِهزاد عصري ... يفقد الشرق بهجة الآزال
يا خبيرا بفنه فيه تمت ... صنعة العصر والعصور الخوالي
كم ترى فيه خلقة وتريها ... أرِنا الذات فوق هذي المجالي
ضرب الكليم، ص89 ـ 90.

ذات غيره[1]. لم يأخذ المقلدون من الغرب إلا القشور دون اللباب، الزجاج المنكسر وليس الصخر الأصم[2]. يقلد المغترب وثن الإفرنج القائم على النرد والسحر. ويترك الكعبة التي يشع منها النور. ولا يحولها إلى بيت نار[3].

ينقد إقبال تقليد أمم الشرق للفرنج وخضوعها لهم. في حين لا يستطيع الفرنج أن يحيوا العرب والفرس. فنونهم تؤدي إلى الموت، ويعني إقبال بذلك إباحية الفن[4]. لقد ضل المسلمون بأن أخذوا الغرب إماماً لهم. ثم زاغ البصر عن إمامهم[5].

قلد الأتراك الغرب ففقدوا ذاتيتهم بعد أن أسكرهم الغرب بالسم. وكذلك فعل العراق دون ترياق. وعبيد الغرب يبغون الظهور عن طريق التقليد والرقص. روحهم في اللهو. ويصعب عليهم العلم. يطلبون السهل، ويتركون الصعب. يأخذون الظاهر، ويتركون العمل. فضاع الروح، وبقي الجسد[6].

الانبهار بالغرب وقوع في أسره[7]. وهو نتيجة إنكار الذات، والإيمان بالغير،

---

(1) من تجلّي الفرنج نلتَ وجودا … فهمو منك هيكلا قد أقاموا
السابق، ص21.

(2) هم عن الغرب زجاجا أخذوا … علَّمَنهم صدمة الصخر الأصم
السابق، ص39.

(3) من الكعبة اجعل بيت نار وإن تشأ … فموثن أفرنج به الزور والسحر
السابق، ص42.

(4) كيف تُجلى حقائق لعيون … عميت بالخضوع والتقليد؟
كيف يُحيي الفرنج عُربا وفرسا … بفنون تسير نحو اللحود؟
السابق، ص49.

(5) قد أزاغ العين في الغرب سَناً … لك من صاحب ما زاغ إمام
السابق، ص60.

(6) فقد الأتراك ذاتا بالمدام … فالفرنج أسكروهم بالسمام
إن ترياق العراق ما لديهم … رحمة يا رب فابسطها عليهم
وعبيد الغرب يبغون الظهورا … إنهم يرضون بالرقص الغرورا
روحهم في اللهو كانوا يفقدونا … يصعب العلم، بلهو لن يكونا
يطلبون السهل لكن من كسل … طبعهم ما يبتغي سهل العمل
اليسير السهل لكن إن طلبتا … أنت روحا لك من جسم فقدتا
جاويد نامه، ص307.

(7) انس شرقا لا تكن من سحر غرب كالأسير … فالقديم والجديد ما هما غير النقير =

وتحويل الذات إلى تراب قبر أو أحجار دير[1]. والاعتماد على لذة «اللوردات» يغني عن وقود نار الذات[2]. قلد المسلمون الإفرنج وهم يطلبون السراب، ويظنوه كوثرا. والإفرنج أهل حقد وعداء لدين المسلمين[3].

وإذا ضاقت قيود المسلم قلد الغرب ولم يحقق ما يريد. والوجه لا يُعفر بالسجود لغير الله[4]. قلد التركي العثماني في الغرب فأوقع نفسه في أسر الفرنج. سحره طلسمهم، وتخلى عن ذاته. وظن أنه حقق رغباته ونال أعلى المراتب بعد أن كشف له الأجانب مصيره[5]. وتقليد الفرنجة في الرأس لا يُعرف هل هو نشوة أم سكر. ما يعرف أنه لا ينبع من الدم[6]. عزة الشعب في الدين. وعزة الدين في وحدة الشعب. يفقد الشرق ذاته إذا قلد الغرب. وعزة الغرب ليست بالمطربات، ولا رقص الغواني العاريات، ولا التبختر على الأرض فيها وخيلاء، ولا لتركه الدين، بل لتمسكه بالعلوم والفنون ونور العقل. فلا يستطيع الشرق أن يلبس عمائم العلم. ولا يصبح بالثوب حكيماً كالأعاجم. ينال العلم بالعقل الذي يملكه الشرق،

= السابق، ص321.

(1) ينكرون الذات، إيمان بغير — رفعوا من تربهم بنيان دير
السابق، ص329.

(2) وعلى وقد إذا لم يعتمد — لذة للوردات لم يجد
السابق، ص329.

(3) قلد الإفرنج منا المسلمونا — من سراب كوثر ما يطلبونا
وبسر ديننا ما علمهم؟ — أهل حقد وعداء كلهم
السابق، ص333.

(4) من الإفرنج إن ضاقت قيود — فقلبك لا يحقق ما يريد
على عتبات غير الله وجه — تعفر لا يليق به السجود
أرمغان حجاز، ص426.

(5) بملك واسع أضحى أميرا — بقلب قد وعى أمسى بصيرا
يظل من الفرنجة في قيود — لسحر طلسمهم بقي الأسيرا
بذاتك فاعترف اليأس جانب — تحدى قبلهم قوم خطوبا
بهم قد حقق الترك الرغائب — ونالوا بغتة أعلى المراتب
أليس لمسلم عينا بصيره — لقد كشف المصير له الأجانب
السابق، ص473.

(6) أرقص ذاك؟ إني لست أدري — أنشوة فرحة أم سكر خمر؟
لتقليد الفرنجة كان رقص — وليس دما بعرقك وهو يجري
السابق، ص476.

وليس بثوب مستعار. فالعلم في الرأس وليس في العمامة. يكفي امتلاك الفكر. والطبع يغني عن الباقي[1].

ولو أراد الله أن يحمّل الرسالة لأمة لاستطاع ذلك. وهو يعلم أنه اختار أفضل الأمم لحملها. فتقليد الأمم المغايرة يسير في الروح رعدة. قد تحرم من ذكره. وبقلب الغير يلقي ناره[2].

يهرب البعض من جمود الشرق إلى تقليد الغرب. بل يكره أن يسمع الأذان في بعض قرى الإفرنج. والحق بين الاثنين، بين ترك تقليد القدماء وتقليد المحدثين. وإشباع الذات لتجديد القديم ونقد الجديد. فلا طعام من يد تذيق المسلمين الهوان. والعيش مع كدر القديم خير من العيش في نشوى الغرب. والدواء المر للعقل خير من الحلوى للطفل[3].

---

(1) بمقام وحدة قد عز دين ... ذلك الشعب بها شعب يكون
ذاته يفقد ذا الشرق المقلد ... ليته النقاد للغرب المفنّد
عز هذا الغرب لا بالمطربات ... لا ولا رقص الغواني العاريات
لم يهبه قوة ورد الخدود ... وقصير الشعر أو ميس القدود
مجده ما كان من ترك لدين ... ليس من خط لديه بالمكين
العلوم والفنون سره ... وبمصباح لديه نوره
لست بالثوب حكيما كالأعاظم ... أيُضار العلم من لبس العمائم؟
تدرك العلم بعقل أنت مالك ... لا بثوب تستعير من هنالك
ليس في هذا السبيل غير علم ... ما على رأسك من غير المهم
إن ملكت الفكر هذا الفكر حسبك ... كل شيئ عنه ما يغنيك، طبعك

جاويد نامه، ص306.

(2) لو أراد الله عنا حمله ... لاستطاع لسوانا نقله
ذلك التقليد فينا قد رأيت ... رعدة للروح في جسمي وجدت
في غد قد يحرمون ذكره ... وبقلب الغير يلقي ناره

السابق، ص216.

(3) إنه العاشق في أهل الجحود ... لم تزد أسماعهم غير الجمود
فهو يحكي مسلما بات يعاني ... في قرى الإفرنج ترديد الأذان
قل لأهل الحق ما يشفي القلوب ... قل عن الدين وأنباء الشعوب
اقبل الهم ولا تأكل طعاما ... من يد تطعمك الهم دواما
إن يكن عيشك من طول الكدر ... فيه مر الجوع فالذل أمر
الدواء المر للعقل الكبير ... فاترك الحلواء للطفل الغرير

يا أمم الشرق، ص345.

هناك إذن خطآن: الأول من يصطنع التجديد أو لا يعرف كيف. والثاني تقليد الغير والتغريب أي الانبهار بالغرب أو التغريب، الوقوع في أسر الغير[1]. الذوبان في الآخر يقضي على الذات، استقلالها وحريتها. والحق يحافظ على الذات، ويبقي على رجائها[2]. يؤدي الولاء للغير إلى بناء الدير بأحجار الحرم أي بيع الذات وشراء الغير. ويموت بعد أن عاش وهماً أدى به إلى العدم[3].

تقليد الغرب يسلب الذات ذاتها، ويجعلها تغترب في الآخر. يفنى المقلد في جمال الآخرين. وينظر إلى نفسه في مرآة غيره. يسكن في عشهم. ويطير بأجنحتهم. ويُقتل بالشرب من كأسهم. والحق أن هجرهم أحلى من وصالهم[4].

قلد الشرق باطل الغرب ونسي تاريخه[5]. ومن نسي ذاته وقلد سحر الغرب

---

(1) وذلك البارع في مهنته يصطنع التجديد في الدين القويم
قد شطر الوحدة في أمته فما له ند سوى عصا الكليم
السابق، ص352.

(2) متى يفيق القوم من وهدتهم وهم لحكم الغير زرع وحصاد
قد هدموا بناء ذاتيتهم وغيرهم في أرضهم ساد وشاد
كم من غرير استطال وادعى حصافة الفكر ودقة النظر
قد خبر الوجود والدنيا معا وما لديه عن وجوده خبر
أزال نقش الحق من خاتمه وكل خير عن ضميره استتر
قد ولد الرجاء في عالمه لكنه في المهد ولى واندثر
السابق، ص352.

(3) ولاؤه للغير كلُّ همه حتى بنى الدير بأحجار الحرم
مات ولكن ما درى بموته قد عاش وهما ثم واراه العدم
السابق، ص354.

(4) سفاك الغرب من كامن لنفسك منك سلاب
أنت كالمرآة تفنى في جمال الآخرين فاغسلن قلبا وعينا من خيال الآخرين
من نواح الطير في الأحرام فاقبس واحرقن ذلك العش الذي شدت بمال الآخرين
وتعلم جاهدا خفق جناحيك وطر أنت لا تسطيع طيرا بجناح الآخرين
أنا حر وغيور مسرف في غيرتي ممكن قتلي بكأس من زلال الآخرين
إيه يا أقرب من روحي ولا أبصره عندنا هجرك أولى من وصال الآخرين
رسالة الشرق، ص318.

(5) باطل الإفرنج ما قد حصّلت ولها التاريخ فهم شكّلت
إنهم لم يذكروا فضل العرب ومن الإفرنج ذابوا في اللهب
جاويد نامه، ص302.

فقد كفر[1]. كان في الأمة نار فتحول إلى مجرد نور. بحثت عن النار عند الكافر الأجنبي. وباعت الدين بأبخس الأثمان. ويعز الدين بالعلم، ويذل بالجهل[2]. قلد الشرق الغرب. آسيا أرض الشموس المشرقات اتجهت إلى الغير، وليس إلى الذات لأنها لم تجددها بل حواها الدين القديم في جمود وخمود. سهل صيدها من شيخ أو سلطان أو ملك. ووقع فكرها في الشرك. واتجه عقلها ودينها وشرفها إلى رقاب «اللورد». تمت الغارة على أفكارها، ومزقت أستارها. والقلب يفيض دمعاً عليها. ومع ذلك، هناك ذات أخرى قادرة على تغيير العالم[3]. إذا ما قلدت الذات الآخر فإنها تحترق بناره ولا تثبت ذاتها[4]. التقليد يصهر الذات في الآخر ويذيبها فيه[5].

الاعتماد على الذات هو سبيل التحرر من سيطرة الغرب. فذوي الفضل في كل شعب يسهرون على مجد أمتهم. يعملون بسواعدهم، ويزرعون في أوطانهم.

---

(1) كم لأهل الغرب من فن سحر   إن نسيت الذات كنت من كفر
السابق، ص308.

(2) يا أخي مصدر النور لدينا كان نارا   عند كفر أجنبي أي خير فيهما
لهما بالدين سعر يشتري حتى النضارا   عزة الدين بعلم وبجهل ذلة
السابق، ص303.

(3) آسيا أرض الشموس المشرقات   عينها للغير، ما كانت لذات
لا جديد جدّ للقلب الغرير   نلت منها الريح أو حب الشعير
وحواها ذلك الدير القديم   في جمود وخمود لا تريم
صيد شيخ أو لسلطان ملك   فكرها ظبي ولكن في الشرك
عقلها والدين بل حتى الشرف   من ركاب اللورد كانت في طرف
فعلى أفكارها كنتُ المغيرا   وعن الأسرار مزّقتُ الستورا
فاض قلبي بالدما من فرط جهدي   ثم دنياها أنا غيرتُ وحدي
السابق، ص328.

(4) تبارك فاحترق يوما وأقدم   بنار الأجنبي صلى الأمة
رسالة الشرق، ص264.

(5) أسفي عليك، نحتَّ أصناما أخر   عودا ولم تبحث بقلبك عن أثر
أسفي عليك صهرت في نار الفرنـ   ـج ومن لحاظ العين روحك قد قطر
أسفي عليك فما وُزنت بنظرة   في حلة فيها الترابُ له قدر
أسفي عليك قرأت أسفار العقو   ل وما فهمت حديث وجد يستطر
اسفي عليك تطوف من دير إلى   حرم وفي معناك لم تُجد النظر
السابق، ص321.

وينتجون من أرضهم ما تنكفأ به على نفسها[1]. وبدلاً من أن يبيع الشرق محصوله للغرب ثم يعاود شراءه منه بأضعاف سعره فلينتج الشرق وليصنع ما يستهلك. جهده يعود إليه. وكيف يشري المرء لؤلؤاً كامناً لديه من يد غواصيه؟

يشجع إقبال المسلم على التخلص من عقدة النقص أمام الغرب. فلا يمنعه شيئ من النهوض بإذن الله[2]. رفض الهنود تقليد الغرب. وانكروا كل سحر فيه. وعرف الغرب روح ثقيل لا ينزل من سماه[3]. وللإنكليز سيادة في غير قلب المسلم بل فقط على جسده. وقلب المسلم خال من تأويلات الشيوخ ونقاش البراهمة. فالاغتراب في الموروث والوافد على حد سواء. وسماع صوت الذات وهو صوت القلندر قادر على ألا تنحني الذات أمام غيرها[4].

---

(1) وإن ذوي الفضل في كل شعب ... على مجد أمتهم ساهرون
فهم بسواعدهم يعملون ... وهم في مواطنهم يزرعون
ومن أرضهم كل ما ينتجون ... وما يأكلون وما يلبسون
فيا من غدا منكرا ذاته ... إلى أين يمضي بك الماكرون؟
وكم بعت محصول زرع له ... رخيصا وأنت غدا مشتريه
يعود بأضعاف ما نلته ... بربح سخي لمستورديه
كأنك لم تشق من أجله ... ولا كنت في الأرض من زارعيه
أفي البحر لؤلؤه كامن ... ومن يد غواصه يشتريه
يا أمم الشرق، ص396.

(2) لا تُرع مما ترى، لفرنج ... سيمياء قم بإذن الله
ضرب الكليم، ص45.

(3) الهنود أنكروا قانون غرب ... كل سحر رفضوه كل خلب
إن عرف الغير روحا يثقل ... من سماء إنه لا ينزل
السابق، ص309.

(4) للإنكليز سيادة ... في غير قلب المسلم
ما فيه تأويلات ... شيخ أو مسائل برهمي
لو كنت تسمع للقلندر حين قال وحين جللني حياء
لما انحنيت أمام غيرك صرت من جسد ومن قلب هباء
جناح جبريل، ص429.

الفصل الثاني

الغرب والشرق

1 ـ الشعراء بين الشرق والغرب

أعجب إقبال بالشعراء الفلاسفة، والفلاسفة الشعراء مثل جوته، والشعراء مثل برونج وبايرون وأسد الله غالب وجلال الدين الرومي كل منها في بيت واحد مركز يعبر فيه عن فلسفته أو شعريته. برونج كأس بارد في حين أن الخضر كأس حار[1]. أما غالب فمنه يمتلأ الصدر اللهيب ويزداد الخمر. ويصهر الدن ويملأ الكأس[2]. ويعترف إقبال بأنه يدين لغالب وجوته وبديل (ميرزا عبد القادر) ووردزورث وهيجل الشيئ الكثير. فقد هداه هيجل وجوته إلى باطن الأشياء. وعلمه غالب وبديل كيف يظل شرقياً في الروح والتعبير بعد التعرف على المثل الأجنبية للشعر. وأنقذه وردزورث من الإلحاد أيام الدراسة[3]. وجلال الدين الرومي، وهو نموذج الشاعر الحق عند إقبال، فإنه يملأ كأسه منه ويغترف من عروق كرمه[4].

ويقارن إقبال بين جلال الدين الرومي وهيجل. فقد أدرك حكيم الألمان من

---

(1) ليس في كأس الحياة البرد نار فبماء الخضر كأسي أملأ

السابق، ص334.

(2) لأزيد الخمر والصدر لهيبا أصهر الدن وكأسي أملأ

السابق، ص335.

(3) St. Ref., p. 54.

(4) أين مزج من سنا جوهرها من عروق الكرم كأسي أملأ

السابق، ص335.

الشيئ الآني حقيقة أبدية لدرجة أن العالم يخجل من أفكاره أمام هذا الفضاء الفسيح. أما صوفي العجم فقد ارتطم العقل بطوفان البحر. وجرف العشق تأمل العقل. واستولت الشمس على نوره. وأوقظ النائم[1].

ويقارن إقبال هذه المرة بين جلال الدين الرومي وجوته الشاعر وليس هيجل الفيلسوف. فقد صاحب شاعر الألمان في روض إرم أي الجنة شيخ العجم. والشاعر عالي الهمة ليس نبياً ولكن له ديوان. قص للعارف السر القديم عن إبليس والشيخ ويعني «فاوست». فأجاب الشيخ بأن الفكر خال، والروح مملوء. رأى الدر في قاع البحر وسمع دبيب الروح من خلف الستار. العشق ليس لكل الناس، بل فقط للسعيد. وهو القادر على مواجهة مكر إبليس[2]. وتتطلب حقائق الحياة شرحاً أعمق في صورة أمثال تعليمية عبقرية فائقة. وقد يكون شكسبير مولانا جلال الدين الرومي أكبر من عبر عن هذا النمط من العبقرية[3].

---

(1)
ليلة بت أعاني حلها ... مشكلات لحكيم الألمان
ذاك من أبرز في إبداعه ... أبدي الكون من شر لآني
يخجل العالم من أفكاره ... شاكيا ضيق زمان ومكان
سرتُ في بحر له فالتطمت ... سفن العقل بموج الطوفان
نفث الومَ بعيني سحره ... فحماني فكر باق أو فاني
وأحدَّ الشوق طرفي فإذا ... نور وجه لحكيم رحماني
إنه الشمس تجلت في الضحى ... كل أفق بسناها نوراني
نوره في مظلم الأفق سرى ... كمنار في طريق الركبان
تنبت الأفكار في ألفاظه ... مثل ما ينمو شقيق النعمان
قال: قم يأيها النائم! هل ... تمخر السفن سراب القيعان؟
في طريق العشق بالعقل يُسار ... بسراج تبتغي شمس النهار

السابق، ص321.

(2)
شاعر الألمان في روض إرم ... فاز بالصحبة من شيخ العجم
شاعر يشبه ذا العالي الجناب ... ما نبيا كان لكن ذو كتاب
قص للعارف بالسر القديم ... ما وعى إبليس والشيخ الحكيم
فأجاب الشيخ: يا رب العلاء ... أنت صياد ولكن في السماء
قد خلا فكرك في القلب السليم ... فأجد الروح في الكون القديم
فرأيت الدر في قاع البحار ... ودبيب الروح من خلف الستار
ليس كلٌ قد تجلى العشق له ... ليس كل أهل هذي المنزلة
قد تجلى لسعيد ألمعي ... مكر إبليس وعشق الآدمي

رسالة الشرق، ص332 ـ 333.

(3) Ibid., p. 55.

لم يتأثر إقبال بجوته فقط بل إنه عارض قصيدته «الحور والشاعر» بقصيدة مثلها. وكلاهما يعبر عن رؤيته للعالم، الرؤية الغربية والرؤية الإسلامية. إذ قالت الحور للشاعر إن الخمر لا تسره، ولا ينظر إلى الغير. فما أعجب الأحبة دون أن يشعر بهم. وهو شاعر يعبر عن حرقة القلب. خلق عالماً جديداً بالإيمان. عيبه أنه ينظر للجديد بعين القديم. ويجيب إقبال الشاعر مدافعاً عن نفسه بأن لديه فطرة شاعر يكره دعة المنازل. يدرك الجمال، ولكن يعلو بإدراكه إلى الجلال. يرقى من الشرار إلى النجوم إلى الشموس بكل أمل في المزيد. فلا حدود للطموح. تتجاوز عزيمته التدرج والمراحل. يشرب من الربيع الحالي. ويغازل الربيع الآتي. يعشق بروح الخلود. لا يحزن ولا يتألم. ولا يحتاج إلى مواساة[1].

لم تقرر الطبيعة ماذا تفعل بأفلاطون شاعراً أم فيلسوفاً. وهي نفس الحالة التي شعر فيها إقبال أيضاً بالنسبة لجوته[2]. يكتشف الروح ذاته عندما يقابل روحاً أعظم.

---

(1) الحور: لا الخمر يوما تطيبك — ولا إلينا أنت ناظر
إني عجبت لشاعر — يهوى الأحبة غير شاعر
من حر أنغام الرجاء — وحرقة الطلب المثابر
نَفَس تذيب بلوعة — وتغزّل يشجو المزاهر
وخلقت بالألحان دنيا — ك العجيبة خلق شاعر
تبدو لها إرم كما — يبدو لعين فعل ساحر
الشاعر: تخدعني قلب مسافر — بالسحر من وخزات قائل
ما إن تحاكي لذة — وخزات شوك في المجاهل
ماذا أقول وفطرتي — لا ترتضي دعة المنازل
قلبي على قلق كما — تهفو الصَّبا حول الخمائل
فإذا نظرت إلى جميل — رائع حلو الشمائل
خفق الفؤاد إلى الذي — يعلوه حسنا في المحافل
فمن الشرار إلى النجوم — إلى الشموس رقي آمل
إني ليهلكني القرار فما — أعوجُ على المراحل
وإذا شربت من الربيع — الكأس تسري في المفاصل
أشدو بشعر آخر — وربيعي الآتي أغازل
طلبي النهاية في الذي — لا ينتهي فيه المُسائل
لا صابر نظري ولا — قلبي عن الآمال غافل
تودي قلوب العاشقين — بدارة الخلد المواصل
لا صوت محزون ولا — ألم ولا واس يسائل

السابق، ص296 ـ 297.

(2) St. Ref., p. 126.

حدث ذلك لإقبال عندما تقابل مع خيال جوته حين اكتشف ضيق خياله الخاص[1]. وإذا أراد أحد تشريح العقل الإنساني فإنه قد يستعين بفوند ووارد وجيمس وستاوت، ولكن الحدس الحقيقي للطبيعة البشرية يمكن الحصول عليه من جوته[2].

يعيد جوته وشكسبير كلاهما التفكير في الخلق. والفرق بينهما أن الشاعر الإنجليزي واقعي يفكر في الفرد في حين أن الشاعر الألماني مثالي يفكر في العام. وبالرغم من أن «فاوست» تبدو عليه الفردية إلا أنه تغلب عليها الإنسانية المتفردة[3]. أخذ جوته في «فاوست» أسطورة عادية وملأها ليس فقط بتجربة القرن التاسع عشر بل بالتجربة الإنسانية كلها. هذا التحول لأسطورة عادية إلى تعبير نسقي للمثل الإنساني الأعلى عمل إلهي، شيئ رائع، مثل خلق عالم جميل من عماد مادة هلامية[4]. الأمة الألمانية سعيدة الحظ لأنها أنجبت الشاعر هاينه عندما كان جوته في قمة إبداعه الشعري. فأصبح لديها معينان لا ينضبان[5].

ويجيب على سؤالات هاينه في موضوع الحياة والعمل. فالساحل المسكين ثابت أبد الدهر لا يتغير. والموج صاخب يوجد ويعدم[6].

ويعبر إقبال عن صورة بعض الشعراء والفلاسفة في ذهنه مترجماً مذاهبهم الشعرية أو الفلسفية بنظم شعري. فبايرون قطرة رشحت من كأسه، شعلة تنمو كورد. بها رسالة حر. ضاق بالإفرنج وبالحضارة الغربية الباردة، وأصبح مغموماً وضائقاً بالأوطان. بنى عالماً من الخيال، وفضاء للشباب. فارق العش كطائر خرج من حلق الشباك ولم يعد. فقد فارق الشاعر وطنه إلى بلاد اليونان لنصرة الثورة

(1) Ibid., p. 2.

(2) Ibid., p. 139.

(3) Wnnd Ward, James, Stouf.

(4) Ibid., p. 71.

(5) Ibid., p.151.

(6) يقول الساحل المسكين: دهرا حييت ولم يَبْن لي ما أكون
فقال الموج في صخب وسير وجودي السيرَ والعدم السكون
السابق، ص297 ـ 298.

بها. ومات هناك[1]. وبايرون يلهب صدور الشعراء مثل الخضر. ويكتفي إقبال بماء القلب ليبرد[2].

والحياة نقد للشعر عند ماثيو أرنولد. وهي أيضاً نقد للأدب[3]. وهو شاعر مدقق. ومع ذلك يحب إقبال عنصر الغموض والإجمال في شعره لما يعطيه من عمق[4]. أما ملتون فلا يستطيع اللاهوت التطهري عنده جذب خيال هذا العصر. لذلك كان قراؤه قليلين. وفولتير على حق عندما اعتبر نفسه أكثر رواجاً من ملتون لأن لا أحد يقرؤه. ومع ذلك لا يوجد أحد من الشعراء أخذ رسالته بنفس الدرجة من الجدية مثل الشاعر ملتون. ويظل أسلوبه، وهو معمار ضخم لآلهة مزيفة، فريداً لا يقارن عبر الزمان[5]. أما أوسكار وايلد فروحه فارسية أكثر منها إنجليزية[6]. وإذا كانت المعرفة المطلقة مستحيلة في الفلسفة فإن الشاعر بروننج حول هذه الاستحالة إلى استعمال أخلاقي بحجة عبقرية مؤداها أن لا يقينية المعرفة الإنسانية هو الشرط الضروري للنمو الخلقي طالما أن المعرفة الكاملة سوف تدمر حرية الاختيار الإنساني[7].

والشهادة للأوطان أيضاً. فقد قتل شاعر مجري شاب في الدفاع عن وطنه. ولم يعثر له على بدن كي تبقى ذكرى أرضية له. ونظم إقبال خماسية تجعل أصل الإنسان في السماء، وليس في الأرض. فهو طين ولكن نفخ فيه من روح الله.

(1) قطرات رشحت من كأسه — شعلة تنمو كورد وشقيق
ذو رسالات بها حر الجوى — فرسول الحب منها في حريق
ضاق بالإفرنج بردا طبعه — فهو في الأوطان في غم وضيق
وخيال كم بنى من ملعب — فيه للحور مراح وبريق
جلوات للشباب انتقلت — فهو في الغشية منها لا يفيق
طائر فارق عشا ورأى — حلق الشباك أولى بالحلوق

السابق، ص331.

(2) منه للخضر لا تلهب صدري — فبماء القلب كأسي أملأ

السابق، ص334.

(3) St. Ref., p. 37.

(4) Ibid., p. 106.

(5) Ibid., p. 72.

(6) Ibid., p. 73.

(7) Ibid., p. 157.

المزار في القلب والروح، وليس في المقابر والمدافن[1].

ويمثل غالب الشاعر الفارسي المساهمة الوحيدة تقريباً للهند في الأدب الإسلامي. إذ يفوق خياله وعقله الحدود الضيقة للعقيدة والتوحيد. لم يعترف به أحد حتى الآن[2]. أما حافظ فقد عبر بكلمات كالجواهر عن الروحانية اللاوعية للبلبل[3].

ويذكر إقبال من الشعراء العرب البحتري والمتنبي. إذ يستشهد بحكاية رمزية للبحتري في «ديوان الحماسة» أن ابن خاله سار على حافة الهاوية وتساؤله هل يدفعه من الخلف ليقع في الوادي فيموت دون فجر؟ وهو محق في هذه الطريقة في التعامل معه، وهي طريقة وضيعة لا إنسانية. ويعتبر إقبال نفسه محقاً في هذه الطريقة في التعامل معه بالرغم من أنها طريقة وضيعة لا إنسانية. هكذا قال الشاعر العربي في «ديوان الحماسة». ويمكن اعتبار هذا الشعر نموذجاً للشعر العربي. ولا يوجد شاعر أكثر مباشرة وصراحة ورجولة في الروح منه. فالعربي مرتبط بالواقع ارتباطاً وثيقاً. لا يثيره بريق الألوان. وربما كان المتنبي استثناء. هو شاعر عربي من حيث اللغة، وفارسي من حيث الروح[4].

2 ـ الفلاسفة بين الشرق والغرب

ويصور إقبال مذاهب الفلاسفة مثل لوك وكانط وبرجسون، بصرف النظر عن الترتيب الزماني أو التصنيف المذهبي، فلوك فارغ الكأس، يريد ملأ الأكواب من شمس الضحى. فالفلسفة الحسية فارغة من أي مضمون[5]. وكانط فطرة ضاعت

(1) لعروس الرياض غنيت حينا ... زدت قلبا جوى وأسليت قلبا
وخضبت الشقيق من دمك المسفوك ... وجدا وجل ذلك خضبا
كم بآه الصباح في المرج يسري ... في صدور الأكمام فتحت قلبا
نغمات من الجوى ذبت فيها ... في مزار القريض تدفن حبا
وإلى الترب لم تعد بممات ... ذاك حق فليس أصلك تربا

السابق، ص332.

(2) St. Ref., p. 51.

(3) Ibid., p. 152.

(4) Ibid., pp. 81 - 2.

(5) فارغ الكأس أتى الروض شقيق ... يملأ الأكواب من شمس الضحى

السابق، ص334.

شرابا. ولها نجم كأس من الأزل. فلسفته عكس لوك، ذات مضمون، وشرابها من رحيق الأزل[1].

كما أعجب بالفلاسفة الأدباء والأدباء الفلاسفة مثل نيتشه. ويأخذ عليه أنه عرف العقل لا القلب، والجسم لا الروح، والعلم لا العشق. لم يعرف التوحيد. آمن عقله دون قلبه. بنى موتنا على أساس مسجد[2]. ويسميه إقبال مجذوب الفرنج الذي توصل إلى النجاة عن طريق المهدي[3]. نيتشه مصاب بالجنون. فالإنسان مليء بالتناقضات الغريبة. إذا تزوج عاهرة فإن ذلك يعني أنه لا يرى غضاضة في مثل هذا الارتباط. فإذا تحول سلوكه إلى رواية أو قصة فإنها تصبح لا أخلاقية مدانة نظراً لما يتم قبوله عملاً. فلسفة نيتشه على الأقل في ميدان الأخلاق محاولة عقلية لتبرير سلوك أوربا بالرغم من إدانة هذا النبي للارستقراطية الأوربية. وقد عرف القليل من الناس هذا الجنون[4].

وفي الخطاب الشهير من إقبال إلى نيكلسون ينفي إقبال تأثره بنيتشه. فهناك فرق بين «الإنسان الكامل» عند إقبال و«السوبرمان» عند نيتشه. وقد كتب إقبال بحثاً عن «الإنسان الكامل» قبل أن يتعرف على نيتشه، وضمنه رسالته للدكتوراه، «تطور الميتافيزيقا في فارس». ينكر نيتشه البقاء الشخصي الذاتي في حين يثبته إقبال. رأى نيتشه ضرورة ظهور الأمة المثالية ولكن دهريته وإعجابه بالسلطان أضاعا فلسفته[5]. يعجب إقبال بنيتشه في فلسفة الحياة والقوة والإنسان الأعلى التي تعادل فلسفة الذات عنده. ومع ذلك عرف نيتشه العقل دون القلب، وتصور العلم ولم يعش العشق. لم يعرف التوحيد والبراءة الأصلية، ولكنه عرف الإثم والخطيئة كما هو الحال في المسيحية[6]. ثار من ضعف الناس قلبه فأراد تكميل الخلق. وهي إحدى

---

(1) فطرة ضاءت شرابا ولها — نجم كأس من حريم الأزل
السابق، ص334.

(2) ضرب الكليم، المدخل، ص ط.

(3) فمجذوب الفرنج على خيال — من المهدي قاد إلى النجاة
السابق، ص40.

(4) St. Ref., pp. 42 - 3.

(5) الأسرار والرموز، مقدمة ص24 ـ 25، خلاصة مقال الشاعر إلى الأستاذ نكلسون، ص20.

(6) أي قدر لذا الحكيم ولكن — لم يكن أهل نكتة التوحيد =

فتن الغرب، كسر بيت الزجاج[1].

ويجمع إقبال بين شوبنهور ونيتشه في نسق واحد. فشوبنهور متشاؤم. طار العصفور من عشه فوق الروض فأصابته شوكة. فلعن الروض والزمان. ورأى سمة الزهور جوراً وظهور البراعم خداعاً. شيدت الدار على اعوجاج. وزاد النواح. وتحول الدمع إلى قطرات من دماء. لا كسب بل خسارة[2].

قرأ إقبال عن نظرية وحدة الوجود في الفلسفة الغربية، الألمانية والغربية، ولكنه أفاق منها وأسس أسرار النفس، إثبات الذات، ونفي رموزها من القرآن[3]. قرأ إقبال التراث القديم والتراث الغربي، ولكن أفكاره مستمدة من التراث القديم. فالعربي أو المسلم ذو ثقافتين. ينهل من منبعين. والغربي لأنه لا يعلم إلا ثقافته سرعان ما يحكم على المفكر اللاغربي بالأثر الغربي إذا وجد تشابهاً بين فكره وفكر أي مفكر غربي. لذلك ساد منهج الأثر والتأثر[4]. أفكار إقبال عن الذاتية تستمد من التصوف الإسلامي بالإضافة إلى تجاربه ومشاهداته. قرأ القديم في إطار

= ليس إلا لذي البصيرة يبدو سر معنى بـ (لا إله) بعيد
أرسل الفكر أسهما في سماء وحوى الشمس بالخيال المديد
طاهر الطين في الترهب لكن لذة الإثم نصب طرف حديد
ضرب الكليم، ص59.

(1) ثار من ضعف الأناسي قلبه فبرى الخلق المكمل لبه
فتنة في الغرب من ذي جنون كان في دار الزجاجي ضربه
رسالة الشرق، ص330.

(2) طار من عشه يسير بروض فأصابته شوكة من زهور
لعن الروض والزمان ونادى بثبور لنفسه والطيور
ورأى وسمة الشقائق جورا وطلسم البرعوم خدع خبير
قال ذي الدار شيدت باعوجاج كل صبح بها إلى ديجور
ناح حتى تقاطرت نغمات من دماء، بدمع عين غزير
وشجا الهدهد النواح فوافى ينزع الشوك من جناح الكسير
قال: أخرج من كل خسرك ربحا مزق الورد صدره للعبير
واجعل الجرح بلسما فترضى وائلف الشوك تغد كلك روضا
السابق، ص329 ـ 330.

(3) الأسرار والرموز، ص22/ 27.

(4) التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم، المركز العربي للبحث والنشر، القاهرة، 1980، ص102 ـ 110.

جديد. ومن المؤسف أن يجهل الغرب الإسلام. ويظن أن كل إبداع فلسفي إسلامي إنما هو أثر من آثاره حتى يبقى الإبداع وحده قاصراً على الغرب، ودونه من الناقلين.

والمسؤول عن وحدة الوجود هو الفيلسوف الهولندي الإسرائيلي ويعني اسبينوزا، ولكن الغرب سرعان ما تخلى عنها إلى إثبات الذات خاصة الفلاسفة الألمان والإنجليز. اتجه الغرب نحو العمل. والحقيقة أن هذا سوء تأويل للتاريخ. فقد بدأ الغرب بإثبات الذات عند ديكارت في «الكوجيتو» الشهير. ونقله اسبينوزا تلميذ ديكارت من مستوى الفرد إلى مستوى الوجود. وظل إثبات الذات «الأنا أفكر» عند كانط، ولكنه تحول أيضاً إلى مطلق عند هيجل، ووحدة عند شبلنج. بل إن نظرية العلم عند فشته تشبه في دعواها الأولى إثبات الذات «الأنا تضع نفسها حين تقاوم». ثم في دعواها الثانية تتحول إلى اللاأنا أي حدود الأنا، نهاية المجال الحيوي للأنا. وفي الثالثة تتحول الأنا واللاأنا إلى الأنا المطلق. فالذات ليست جوهراً ثابتاً، وإثباتها أحد لحظاتها[1]. وينقد إقبال اسبينوزا بأنه فيلسوف عاقل. يبصر الحياة، ولكن الحياة ليست عقلاً بل هي «نور وجلوة تستحب»[2]. هي حدس وزمان وديمومة. وهو نفس قول برجسون بقوله «لكل إنسان فلسفتان، فلسفته الخاصة وفلسفة اسبينوزا» أي فلسفة حياة وفلسفة خلود.

وفلسفة هيجل نموذج لإنكار الذات، وجعلها من صنع الخيال لصالح الوجود العام والمطلق[3]. كما وقع شراح هيجل الإنجليز المحدثين في هذا الوهم، نفي الذات[4]. مذهب هيجل الفلسفي ملحمية شعرية بالنثر[5].

وتمثل فلسفة برادلي فلسفة نفي الذات. فكل مركز للشعور محدود. وكل

---

(1) الأسرار والرموز، مقدمة إقبال، ص14. وأيضا فشته فيلسوف المقاومة، نظرية العلم، ص121 ـ 230.

(2) يبصر العاقل الحياة وليست غير نور وجلوة تُستحب
ضرب الكليم، ص48.

(3) أصداف هيجل من الخوالي طِلْسمه جميعه خيال
السابق، ص10.

(4) الأسرار والرموز، خلاصة مقال الشاعر إلى الأستاذ نكلسون، ص16.

(5) St. Ref., p. 11.

ذات مفردة خداع باطل. والحقيقة أن هذا المركز بؤرة الكائنات ومنبعها. وهي واقع لا خيالٌ، وحقيقة لا وهمٌ. الحياة كلها فردية. وليست للحياة الكلية وجود خارجي. بل تتجلى في شخص أو فرد. والخالق فرد أوحد كما سماه شترنر «الوحيد» أو «الأوحد» أو «الفرد» أو «الفريد».

ولا يوجد أثر خارجي في مفهوم الذاتية عند إقبال بالرغم من التشابه بين الذات و«الأنا أفكر»، «الكوجيتو» عند ديكارت، والذات عند فشته، والديمومة عند برجسون. وإقبال يحيل إليهم دون حرج.

فلسفة برجسون نموذج لإثبات الذات والزمان[1]. ويشرح إقبال «رسالة برجسون» بأن الحياة هي التي تبوح بالأسرار. والفوضى فيها شرط المعرفة. أما العقل فهو نظر عريف يمر الإنسان به كالغريب. يقدم أوهاماً باسم العقل الذي لا ينير إلا بالقلب[2]. لا يحتاج برجسون إلى خمر وكأس من الأزل لأن ناره تصعد من حرقة القلب[3]. وكما يبحث إقبال موضوع المادة في حرية الذات، يعرض موضوع الزمان في خلودها. ويلتقي مع برجسون في أن الزمان ليس خطاً مستقيماً إلى ما لا نهاية بل هو توتر خالص لا طول له، ولا يمكن قياسه[4].

وضع الغرب فلسفة الذات منذ كوجيتو ديكارت، والأنا أفكر عند كانط، والأنا الحر عند فشته. ولم يعرف إقبال هوسرل ليقرر أن هذه الفلسفة قد اكتملت في الكوجيتو عند هوسرل، وتحقق حلم المثالية الترتسندنتالية في الظاهريات. إلا أن الغرب نسي الذات وأعلن موتها بإعلان نيتشه «موت الإله»، وإعلان بارت

---

(1) لو لم تقوّل ذاتك النسيانا ... لم تحمِلَنْ زُنّر بِرجسانا
ضرب الكليم، ص10.

(2) إذا ما شئت أن تحظى بسر ... تبوح له الحياة لمستجيب
فلا تبعد بنفسك عن لظاها ... كما جفل الشرار عن اللهيب
ولا تصحب سوى نظر عريف ... ولا تمرر بأرضك كالغريب
وما صوّرته وهم فأعدد ... لعقل شب في أدب القلوب
رسالة الشرق، ص333.

(3) ما له من أزل خمر وكأس ... ناره من حرقة القلب الشقيق
السابق، ص334.

(4) الأسرار والرموز، خلاصة مقال الشاعر إلى الأستاذ نكلسون، ص18.

«موت الإنسان» والانتهاء إلى العدمية المطلقة[1]. ولا أحد يستطيع فهم الأمر الجازم عند كانط فهماً كاملاً دون دراسة التاريخ السياسي للشعب الألماني. فأحكام تصور كانط للواجب يجد أصوله فيه[2].

ويعرض إقبال الفلسفة الإسلامية من خلال الفلسفة الغربية. وإذا أراد الإنجليز فهم نظرية الإنسان الكامل فعليهم بقراءة (صمويل) الكسندر، ذلك الفيلسوف الاسترالي الذي تعلم في إكسفورد وكمبردج والذي تُعد فلسفته مدخلاً لأسرار الذات، بالإضافة إلى آراء دكنسن وهاينه[3].

اعترض دكنسن على فلسفة إقبال بالرغم من عالميتها وشمولها على أنها محلية تدور في دائرة محدودة. والحقيقة أن إقبال يعرض لفكرة شاملة ثم يبرهن عليها من خلال ثقافة خاصة. واتهم دكنسن إقبال بأنه متعصب لدينه وقومه ووطنه، في حين أن الإسلام دين لا لقوم أو وطن بل للبشرية جمعاء. تجمعهم الأخوة الإنسانية دون اعتبار للفوارق العرقية واللغوية. ويكرر دكنسن الأفكار النمطية السابقة. وهي أن الإسلام انتشر بالسيف. وقام على إراقة الدماء. قد يكون هناك خطأ هنا أو هناك من بعض علماء المسلمين وأمرائهم، ولكن الإسلام دين عالمي. لا يفرق بين الشعوب. سهل في فهمه. بسيط في ممارسته. يقتنع به الإنسان ويقنع به. هو دين العقل ودين الفطرة ودين الحرية.

وفي حوار بين أوجست كومت وعامل، يعرض إقبال فلسفة كومت الوضعية وبداية الاشتراكية السان سيمونية. فعند كومت كل الناس أعضاء في جماعة واحدة كالأوراق والغصون لشجرة كبيرة. الرأس إلى أعلى والقدمان إلى أسفل وضع طبيعي. الرأس تأمر واليدان تعملان. ولكل عمله طبقاً لقانون تقسيم العمل. الورد والشوك كلاهما يكونان الحديقة. وهو تصور في ظاهره اشتراكي وفي جوهره رأسمالي. يعطي القمة أكثر مما يعطي القاعدة. ويثور العامل على الفيلسوف ويتهمه بالغش والخداع بإيهامه بأنه لا يستطيع الخروج من هذه الحلقة الجهنمية حتى ولو

---

(1) من ممات الذات في الغرب ظلام وبحوث الذات في الشرق جذام
ضرب الكليم، ص56.

(2) St. Ref., p. 96.

(3) الأسرار والرموز، المقدمة، ص25.

كانت من ذهب لأنها تعلم الإنسان الخضوع للأمر الواقع باسم القدر. والعامل قادر بمعوله شق القنوات، واستخلاص اللبن والعسل من أشياء رفيعة. يعطي رجل الأعمال أكثر مما يعطي العامل، ولا يمكن خداع الخَضر، سر الحقيقة وكاشفها. مهمة الرأسمالي متع الحياة بمص دماء العمال. هو لص بطبعه. وجريمته لا تغتفر. وبالرغم من حكمة الفيلسوف إلا أنه كان ضحية الوهم والخداع(1).

وفي «حوار بين لينين والقيصر فيلهلم» يقول لينين إنه منذ مدة طويلة حُشر الفقير بين الصخور كحبة القمح. خدعه القياصرة، ووقع في شباك الكنيسة. وفي النهاية مزق العبد الجائع في آخر قطرة دمع ثياب سيده. واستشهد في ثوب أحمر من دمائه. لقد أحرقت شرارة الديموقراطية أرواب رجال الكنيسة والملوك. ويتساءل القيصر: لماذا يقع اللوم على الأوثان، لطرقها المغرية؟ إنها طبيعة البرهامي في العبادة. يستمر في وضع أوثان جديدة لأنه يحمل الأوثان القديمة. أما قاطع الطريق فإنه يسرق ابن السبيل. وإذا أتت الدهماء في الحكم فإنها تتسلط أيضاً. إذ لا ينتهي النهم من قلوب البشر. فالنار يستعر لهيبها. وقوة السحر فعالة، بصرف النظر عن الدور الذي تقوم به. وسحر شيرين ليس للبيع على طارقة الطارق. فخسرو وفرهاد موجودان باستمرار(2).

وقد عقدت جمعية في العالم الآخر من تولستوي وكارل ماركس وهيجل ومزدك وكوخان للحوار. وكل حديث تصوير لفلسفة المتحدث. ففي رأي تولستوي أن محاربي أهريمان كانوا تجار حروب. يأكلون بحد السيف، باحثين عن رغيف من الخبز. الشر خير. يأكل البقول. الدولة والكنائس والأوطان مملوءة بالمخدرات. يشترون العبيد بأرواحهم. وواضح هنا النزعة الإنسانية عند تولستوي. وبسبب الأنانية والعقل، يعاني العامل من الجوع واليأس. أما كارل ماركس فإن الإنسان بالرغم من حكمته مازال غير واع. وشرعت الرأسمالية لقتل الإنسان لأخيه الإنسان. وواضح هنا أيضاً النزعة الإنسانية عند ماركس. أما هيجل فإنه يرى أن الواقع متشابه، الصحراء والرياض في آن واحد، الحلو والمر. ولفهم الواقع يتم تذوق الجانبين. الواقع تناقض، جدل بين الموضوع ونقيضه، صراع بين أصحاب رؤوس

(1) A Message from the East, pp. 110 - 3.

(2) Ibid., p. 114 - 5.

الأموال والعمال، بين السادة والعبيد. ونبت مزدك في أرض إيران من إمبراطوريات القياصرة، ووسط الملوك والأغنياء. وقبله حطم إبراهيم الأصنام. وألقاه نمرود في النار. ذهب عصر برويز. فعلى ضحايا الطغيان الاستيقاظ ومقاومته، واستعادة الحقوق المسلوبة. ومزدك أول اشتراكي في تاريخ إيران. أما كوخان حبيب شيرين الذي شق قناة في الجبل بيد واحدة كدليل على حبه بالرغم من وداعتها الظاهرة إلا أنها محاربة جسورة. لسانها عذب كلسان المسيح. وقلبها مثل قلب جنكيز خان. هناك سباق بين السماء والأرض. وعلى الإنسان أن يسرع الخطى[1].

3 ـ الصور المتبادلة بين الشرق والغرب

الغرب مجرد مرآة للذات، تعكس صورتها فيه، لترى مدى التقابل إن لم يكن التعارض بل التناقض بين مرآة الآخر وصورة الأنا. شتاء الغرب يعكس دفء الذات. ولندن ماخور لمن يريد، بما فيها من حانات، حيث كان الشاعر يخرج ليؤدي صلاة الفجر، ويقابل المخمور الهلع. كان لهيبه من آلام مجتمعه يحملها على ظهره أينما سار. تنكره الناس لأنه يحمل هم الشرق معه. ولا يغرف من لذة الحياة كما يفعلون. وهو الوقت الذي كان حزب العمال سيعطي العمال حقوقهم. صحيح أن الديموقراطية قضت على عرش الملوك، ولكن حزب المحافظين اتبع سياسة استعمارية خالصة. كما فصل الغرب بين الدين والدولة وأصبحت السياسة جنكيزية جشعة. تقوم على الغزو والمطامع. وقارن الشاعر دلهي بروما. فتألم وتوجع. واحتار بين الحضارتين، ولكل منهما سحرها[2].

---

(1) A Message from the East, pp. 105 - 8.

(2)
كان الشتاء كمثل السيف حدته ... وكان طرف الهوى من ميعة الولع
أيام لندن ماخور لطالبها ... بما تضم من الحانات والبيع
أيام كنت صلاة الفجر أبعثها ... على الصقيع بمرأى الفاجر الهلع
وكيف كانت هناك الناس تنكرني ... وتدعي أن هم الشرق جاء معي
أيام آلت مقاليد الأمور إلى ... ما تدعيه يد العمال من شرع
يا لعبة من دمقراطية طَلَبْت ... عرش الملوك بما أبدته من ورع
كانت حكاية فصل الدين آخرها ... إن السياسة جنكيزية الجشع
ذكرت دلهي بروما حين طفت بها ... فكنت بينهما في ملتقى وجعي
كلا الدروس لها سحر وأبهة ... رباه عفوك قد أبعدت منتجعي

جناح جبريل، ص438.

يظهر التقابل بين الغرب وحضارة الشرق كتقابل بين الحضارة الروحية والحضارة المادية. ففي لقاء بين إقبال وموسوليني، يرى موسوليني أن من ملك الحديد فقد ملك كل شيئ، في حين أن عند إقبال من كان حديداً ملك كل شيئ. فالقوم الحديد الذي يصاغ منه الشباب وهم لا يحتاجون إلى سيوف. والذات الحرة قادرة على الوصول إلى الأفلاك التي تطيع قانون الطبيعة الضروري. الحياة مجرد سعي، موج صاخب لا شأن له بصنع اللآليء. النسر يعلو ولا يهبط. والإنسان ذو العزيمة لا يناله التراب[1]. تشع الشمس في كل مكان، ولكن نورها في الغرب مخلوط بدخان المصانع وقارها. في الشرق القلب بصير، ولكنه متوارٍ عن نور الشمس[2]. الشرق نائم، والغرب يركب المخاطر، ولا ترهبه الشرور[3].

رقص الغرب بالجسم، ورقص الكليم بالروح. الرقص الأول هم بلا هدف، والرقص الثاني سلطان وفقر أي قدرة على استقلال الوعي[4]. تشرق الشمس على الجميع، ولكنها لم توقظ الشرق، بل أيقظت الغرب. وآخر شعاع ألا يفقد إقبال الأمل، وييأس من نهضة الشرق[5].

الحضارة الغربية حضارة مادية، لها بدن، وليس لها روح. لها عقل، وليس

---

(1) ما بهم حاجة إلى السيف قوم ... من حديد يُصاغ فهم شباب
أين منك الأفلاك؟ إنك حر ... وهي قهر ذهابها والإياب
ما اصطخاب الأمواج لذةُ سعي ... واللآلي يصوغها الوهاب
ليس يهوى الشاهين من طول خفق ... يا أخا العزم لا ينالك الثواب

(2) تداعى الأشعة من كل صوب ... إلى الشمس تبغي لديها قرارا
وصاحت: تعذر في الغرب نور ... دخان المصانع يكسوه قارا
وفي الشرق لب بصير ولكن ... كعالم غيب بصمت توارى
أنور العوالم! لا تهجرينا ... إلى نور صدرك آوى الحيارى
ضرب الكليم، ص77.

(3) فلا يحزنك من الشرق نوم ... وفي الغرب لا ترهبنَّ الشرور
السابق، ص78.

(4) دع لأهل الغرب رقصا بجسوم ... إن رقص الروح من ضرب الكليم
فبهذا الرقص سلطان وفقر ... وبذاك الرقص هم لا يريم
السابق، ص97.

(5) شعاع جريء له نظرة ... كنظرة حوراء تغزو الضمير
ولا يستقر على حالة ... ترى زئبقا في ضياء يمور
يقول: أضيىء على الشرق حتى ... أرى ذرة كشموس تنير =

لها قلب[1]. وماذا عن الرومانسيين والصوفية النصارى؟ ارتبط الإفرنج فيما بينهم بروح العصبية. فلو تنصر البرهمي لا تتغير نظرة الإنكليز إليه. بل إن الإنكليز لو أسلموا لما قبلهم المجتمع البريطاني. فالغرب يقوم على عنصرية دفينة وطائفية لم تمحها العقلانية أو التنوير أو الرومانسية أو التصوف أو الفن أو العلم أو الفكر. الثقافة الإفرنجية تقوم على فساد القلب والنظر. حضارتها خالية من العفة. فإذا ما خلت الروح من الأخلاق، طهارة القلب وجمال السريرة، يغيب جمال الوجدان ولطف الذوق وصواب الفكر[2]. قد يعطي الغرب نفساً، ولكن الإسلام هو الذي يعطي الإيمان[3].

وبإدراك يتجاوز البصر إلى البصيرة، والألوان إلى الشمس والقمر، يرى المؤمن أنه يستطيع أن يتجاوز منزلة الغرب. فهذه المنزلة ليست نهاية الطريق. الغرب حانة. السكر فيها ليس هو نهاية علم العصر. إذا شرب منها المسلم مات، إن لم يشعله بشرر التوحيد[4]. وإن أراد الغرب للإسلام لفظاً آخر فهو «الفقر

= وأجلو عن الهند هذا الظلام ... فأوقظ نوامها للنشور
ينام البرهمن في سدة ... لدى موثن والزمان يسير
السابق، ص77 ـ 78.

(1) هذي الحضارة ما تديّن قلبها ... فأخوّة الإفرنج بالعصبات
فلئن تنصّر برهمي لم يزل ... للإنكليز إليه نظرة عات
ولو أنهم قد أسلموا لم يرفقوا ... بالمسلم المنكود من إعنات
السابق، المدخل، ص ل/ 42.

(2) أرى تثقيف إفرنج ... فساد القلب والنظر
فروح حضارة لهم ... خلت من عفة الوطر
إذا ما الروح جانبها ... جمال الصفو والطهر
فأين جمال وجدان ... ولطف الذوق والفكر
السابق، ص50.

(3) قد سباك الفرنج نفسا ولكن ... أنت يا مؤمن البشير النذير؟
السابق، ص123.

(4) ليس الذي يدرك الألوان بالبصير ... بل مفتن عن ضياء الشمس والقمر
يا قومنا قد شأى الإفرنج منزلة ... تقدّمنْ، ليس هذا منتهي النصر
وحانة الغرب للصادي مفتحة ... ما السكر فيها بعلم العصر بالنكُر
لك الممات بهذا السكر مستتر ... إن لم يكن فيك للتوحيد من شرر
هل يسمعن بنو الحانات موعظتي ... في شملة لست ذا تاج ولا سرر؟

الغيور» أي الزهد الإيجابي، قوة الروح في العالم[1].

يضع إقبال تقابلاً بين الأنا والآخر، بين الإسلام والغرب، وهو تقابل الإيمان والكفر. فقد قابل إقبال الخضر الذي حذره من البحث عن الترياق من سم الإفرنج. الكافر حيران له الآفاق تيه. والمؤمن كون تاهت الآفاق فيه[2]. ومن مآسي التعليم ثنائيته بين أفكار الغرب الملحد وفوضى الشرق المؤمن[3]. لو كان في ضمير الغرب يسكن «لا إله» لكان تعليمه في أمان[4]. حانة الشرق بها صخرة تجلد الشعور، وحانة الغرب بها خمر سوداء تنيم الشعور[5].

الإسكندر رمز الحضارة الغربية، والخضر رمز الحضارة الإسلامية. الأول القوة والفتح والغزو، والثاني الروح والباطن والتأويل[6]. العقل من الغرب، والعشق من الشرق. هناك تمايز بين الحضارتين. وتقليد أحدهما للآخر انحراف حتى ولو أن كلاً منهما أكمل الآخر. الإكمال ليس بالتقليد بل التحديث والتجديد

---

(1) إن قلى الغرب من الإسلام لفظا   فله اسم آخر: الفقر الغيور
السابق، ص19.

(2) أمس عند البحر قال   الخضر لي قولا أعيه
تبتغي الترياق من سم   فرنج تتقيه؟
فخذن قولا سديدا   هو بالسيف شبيه
ذا مضاء وضياء   خبرة الصيقل فيه
إنما الكافر حيران   له الآفاق تيه
وأرى المؤمن كونا   تاهت الآفاق فيه
السابق، ص28.

(3) أطاحت بعشق الغرب أفكار ملحد   وعبّد عقل الشرق فوضى من الفكر
السابق، ص57.

(4) إن تك «لا إله» في ضمير   فالغرب من تعليمه في أمان
السابق، ص61.

(5) وإلى اليوم حانة الشرق فيها   خمرة للشعور منها جلاء
يئس المبصرون من أمم الغرب ففيها بواطن سوداء
السابق، ص81.

(6) ما جاهد يُنبط ماء الحجر   لا يهتدي بالخضر كالإسكندر
كنظر العين صفي مشرق   لا بلل وهو غريق نهر
مصراعه مكمَّل منفرد   ليس عليه مِنّة للأشطر
رسالة الشرق، ص300.

والتطوير[1]. بل إن الإفرنج هدموا ما بنوه، وقضوا على ما أنتجه العقل[2]. كما ولّى لحن الإسكندر ودارا أي حكم القوي. وبقي يوسف سجيناً عزيزاً[3].

الإسكندر والخضر نموذجان للذاتية، الإسكندر ذاتية الغرب، والخضر ذاتية الشرق. الأول نموذج القوة والحرب والفتح، والثاني نموذج الروح والإيمان والحياة الباطنية. كلاهما نموذج الكد والكفاح. وهما نموذجا أبوللو وديونيزيوس عند نيتشه[4]. ومصاحبة الإسكندر الخضر مثل مصاحبة الظاهر للباطن[5]. فعند الخضر النوم موتة صغرى، والموت موتة كبرى[6]. وما اعتبره الغرب سقط المتاع مثل الدين والإيمان هو رأس مال الأمة[7].

صورة الغرب عند إقبال أنه حانة أو «متجر» أو «مدفن». ففي رباعية «حانة الإفرنج»، الحانة مكان الخمر. والخمر تربى الخمار، وتحدد رؤيته. أما الساقي فإنه يبحث عن شراب أشمل، وعشقه أعم. يشعل ناراً ليس فيها حيارى أو سكارى[8].

---

(1) أبــلــغَــنْ يــا ريــح عــنــي — عــالــم الإفــرنــج جــهــرا
السابق، ص325.

(2) فــنــه قــد هــدم الأفــرنــ — ج والــنــقــع أثــارا
السابق، ص326.

(3) لــحــن إســكــنــدر ولّــى — وتــقــضّــى لــحــن دارا
وأتــى فــرهــاد يــبــغــي — مــلــك بــرويــز جــهــارا
يــوســف فــارق ســجــنــا — وعــزيــز الــمــلــك صــارا
وخــرافــات زلــيــخــا — ورقــاهــا تــتــوارى
السابق، ص328

(4) أهاب إسكندر بالخضر: أقبل — وعان الكد في بحر وبر
وموتن في الوغى تزدد حياة — إلام تحيد عن كر وفر؟
السابق، ص265.

(5) لقد أفصح الخضر في الظلمات — على حين صاحبه إسكندر
عسير على الناس فهم الممات — وفهم الحياة لهم أعسر
السابق، ص339.

(6) الــنــوم مــوت خــفــيــف — والــمــوت نــوم ثــقــيــل
السابق، ص340.

(7) وما عده الغرب سقط المتاع — بمذهبنا رأس مال الظفر
جناح جبريل، ص443.

(8) عــهــدُ حــانــات فــرنــج — ذكّــرنــي يــا خــلــيــلــي =

وفي نظم «حانات الفرنج» قال خليع أنها خالية من الوهن. وهي ليست كنيسة بها ترانيم للسماع. بها كل رذائل البشر، وكل مظاهر العصيان. توزن فيها الأعمال بأوزان غير ما اصطنعها الناس. وهو ميزان الدين. القبيح حسن، والحسن قبيح. الحياة رياء، والصدق خداع. الصدق والوقار حجاب يُحرم رفعه. قانون الحان التمويه والتزييف. هذا هو سر الحياة والطريق إلى الكسب[1]. وبالرغم من أن كثيراً من الآراء والأفكار في أوربا حرة إلا أنها تقيد عقل الآخرين. قد تسمم عقولهم، وتحيل خصبهم إلى أرض قاحلة[2].

وفي تقابل رمزي بين مكة وجنيوا يرى إقبال أن الإسلام وحد بين الشعوب في أممية شاملة لا تقوم على العرق أو القوم كما هو الحال في الوحدة الأوربية[3]. لذلك أخطأ رينان حين وضع تعارضاً بين الإسلام والعلم أي بين الإسلام والغرب.

= ربّت الخمرة فيها عين خمار جميل
نظرة الساقي رسالا ت لشرّاب الشمول
عقلها الخاتر غاز عشقها كلّ سبيل
جوهرها أشعلته نار آهات الحيارى
ليس فيها من خليع فيه ترنيح السكارى

رسالة الشرق، ص333.

(1) أمس في حانة الفرنجة وهنا راعني قول ماجن ذي خلاعة
قال: ليست كنيسة تغشاها في دمي للغناء تبغي سماعه
إنها حانة الفرنج وفيها كل ما ذمه البرية طاعة
قد وزنا الأعمال فيها بوزن غير ما حسن الأنام اصطناعه
لا تزن وزن أمة ذات دين رث ميزانهم فحاذر متاعه
كل قبح يزيد جاهك، حسن كل حسن يضره فهو شناعة
إن تفكرت فالحياة رياء وبها الصدق قولة خداعه
إنما الصدق والوفاء حجاب يحرم الساعي الغرير ارتفاعه
شيخنا قال: موْهَنْ كل صُفر بنضار وزيْفن كل ساعة
ذاك سر الحياه لا تفشينه تربحن في يديك كل بضاعة

السابق، ص335.

(2) Persian Pslams, p. 107.

(3) كم حديث عن الشعوب سمعنا وحدة الناس حجبت عن عيان
حكمة الغرب فرقة الناس والإسلام فيه توحد العمران
ومقال من مكة لجنيوا قد وعاه اللبيب في كل آن
خبرني اليقين: هل عصبة الأقوام خير أو عصبة الإنسان؟

ضرب الكليم، ص39.

ووقع في عقيدة التفرقة العنصرية. والإسلام يوحد بين البشر جميعا[1].

صورة المسلمين في مرآة أوربا المتقدمة صورة متخلفة[2]. المسلمون عبيد والأوربيون أحرار يسودون العالم. المسلمون ثبتوا في المكان. داخل محبس من صنعهم، في حين أن الغرب تقدم، وإشراقه مستمر. الشيخ قابع في حرم، والحبر في كنيسته، دون أي قول أو فكر جديد. السياسة فاسدة، والشعر مفلس، والخيال مغلق. يحتاج المسلمون إلى مهدي يزلزل عالم الأفكار دون أن ينحرف بالأمة عن الطريق القويم.

التبادل بين الشرق والغرب على النقيض. فقد أهدت الشام إلى الغرب نبياً، عفيفاً ومواسياً وصبوراً. في حين أهدى الغرب إلى الشام النساء والخمور والقمار[3]. وإذا كان الضعيف يشكو من الزمان، والحر باسم الحراب، فالخشية أن ينخدع الشاب الذي لا يحسن الطعان والحراب بالحضارة الغربية، وما تقدمه من حلوى يلهو بها الأطفال[4]. بل إن نظم التعليم في الغرب تخدع. ألم تقُمْ على القيم المادية؟ فهو تعليم ميت. لا يخرج من حرارة الصدر. وحرارة القلب لا تأتي إلا بالإيمان[5].

---

(1) الأسرار والرموز، المقدمة، ص25 ـ 26.

(2) كلٌ ثوى في مجلس من صنمه سيار إفرنج وثابت مشرق
والشيخ في حرم وحبر كنيسة لا جدةٌ في القول أو في المنطق
أهل السياسة في شراك قديمهم والشعر أفلس في خيال مغلق
من لي بمهدي له نظر يزلزل عالم الأفكار، غير ممزق
السابق، المقدمة، ص6/ 29.

(3) أهدت الشام إلى الغرب نبيا هو عف ومواس وصبور
ومن الغرب إلى الشام هدايا من قمار ونساء وخمور
ضرب الكليم، ص107.

(4) يشكو الضعيف من الزمان صروفه والحر فيه باسم لحراب
من صوت طير الصبح يدهش ذا الفتى أتراه أهل تطاعن وضراب
حذري لأنك في طباع طفولة والغرب تاجر سكًر وجُلاب
السابق، ص121.

(5) خدع العين فتى مدرسة فبدت فيه حياة الأنس
وهو ميت ومن الغرب اجتدى ما سرى في صدره من نفس
إن ترد تربية القلب فمن نظر المؤمن شزرا فاقبس
السابق، ص120.

والداعية إلى الإسلام في بلاد الغرب عليه أن يكون واعياً بخصائص الاثنين، جوهر الإسلام وروح الحضارة الغربية وكيف يصل الأول إلى الثاني. جوهر الإسلام يتجدد باستمرار طبقاً لظروف العصر. وحضارة الغرب هي حضارة نمرود الذي وضع إبراهيم في النار. للغرب أصنامه التي يحطمها التوحيد. فالإصلاح هو الطريق بين إسلام الحجاب ومدنية الغرب. كلاهما في حاجة إلى تغيير. تغيير الحجاز بسلفي، والترك بالشوق، ولخراسان والعراق وللعجم الألحان. لقد انتظر المسلمون عازفاً فجاءهم الأفغاني بلحن جديد فأتى بحديث العشق وسط الهوس ونثر در الكلام بالصحراء[1].

ويقارن الشاعر بين الشرق والغرب. ويزور الغرب ومصر والهند[2]. ويسمع أحكام الأفلاك عن الحضارتين، وهو يسبح في فلك المريخ أقرب الكواكب إلى الأرض. لقد سبق الغرب الأمة في كل فن. قهروا المكان والزمان بعلوم الفضاء. وتغلبوا على حدود العقل[3]. ونموذج الحضارة الغربية مدينة مرغدين، أبنية في السماء، سكان حسنوا الوجوه. كل شيئ موفور. العلوم والفنون مزدهرة. إنما عيبها صنم الدنيا. فليبتعد عن الحرم. ومع ذلك للفلاح مصباح ينيره. لا يخشى من غارة المالك عليه. آمناً على زرعه لا يشاركه فيه أحد. لا يوجد جندي يمص الدماء. ليس في المدينة قلم، فرية للخادعين. ليس في أسواقها عاطلون. ولا تسمع الأذن

---

(1) الدهر عاد بنار نمرود — جوهر الإسلام رهن تجديد
هلمّ نلق الحجاب عن حُرق — كالشمس تغشى الورى بتجريد
أمللتَ حور الفرنج من حكم — ورُعت أصنامهم بتوحيد
فقل لأهل الحجاز عن سلمي — وبثّ في الترك شوق معمود
على خراسان والعراق فعج — وردّ للعُجم شوق تغريد
كم انتظرنا لعازف ولكم — شجا جمال بلحن مفؤود
جعلتَ عشقا حديث ذي هوس — نثرت درّ الكلام بالبيد
رسالة الشرق، ص301.

(2) فارسا شاهدتها والغرب زرت — أرض مصر جبتها في الهند كنت
جاويد نامه، ص238.

(3) وكأهل الغرب فيه من سكن — سبقونا كلنا في كل فن
قهروا حتى الزمان والمكانا — في علوم للفضا كلَّ شآنا
إن وعرا في العقول مهدوا — الخفايا في الفضاء شاهدوا
السابق، ص235 ـ 236.

فيها سؤال الشحاذين[1]. ضمير الغرب ضمير التجار، وضمير الشرق ضمير الرهبان[2]. أما علماء الشرق فقد التحوا بالثلج أي أن لحيتهم مزيفة، مدعين أنهم منشغلون بالعلم، صباح مساء. يسبحون في الفكر كالغرب، ويلبسون المسوح مثل رهبانه[3]. لقد وصل الشرق لأرض الغرب. ثم خرج منها يبحث عن التجلي. والدليل أنه مازال موجودا[4].

لقد أعطي الشرق ملوكاً عظاماً من الأفغان والفرس والهنود مثل نادر رمز وحدة المسلمين، وأبدالي الذي نهض بالأفغان. أقام أبدالي ملكاً عظيماً فوق الجبال وأضرم النار فيها ولم يحترق! فأين بطل الشرق الآن؟ أين النور من نور الكواكب يواكب عيش الناس؟[5]. لقد كشف سر العاشق رجاء بالروح بشوق دافق. أبلى بلاء حسناً في بدر وحنين. وبفقره انجذب إلى الحسين. رفض قصر السلطان

(1) البناء في السماء كان طولا ... في السمو ما عسيت أن أقولا
إنما الدينار كان كالصنم ... أبعدوا الأصنام عن هذا الحرم
إن للفلاح مصباحا أنارا ... مالكا لم يخش حتى إن أغارا
آمنا يروي نباتا يملكه ... ما له في ملكه من يشركه
هاهنا ما لاح جندي لرائي ... لا ولا من عاش من مص الدماء
مرغدين ليس فيها من قلم ... فرية للخادعين قد رقم
ليس في السوق نداء من تبطل ... لا ولا في الأذن نوح من تسول
لا مكان هاهنا للسائلينا ... والعبيد لا ترى والمالكينا

السابق، ص240.

(2) أرمغان حجاز، ص542.

(3) ذاك شيخ العلم بالثلج التحى ... ممسيا كان يعلم مصبحا
كشيوخ الغرب في الفكر السبوح ... كنصارى الغرب في لبس المسوح

جاويد نامه، ص237.

(4) أرضكم هذي إليها قد وصلنا ... نحن في الدنيا ولكنا خرجنا
التجلي نحن عنه الباحثونا ... والدليل أنت نرضى أن تكونا

السابق، ص238.

(5) وملوك الشرق في حفل كعقد ... عزة الأفغان أو فرس وهند
نادر التحرير رمز الاتحاد ... كان للإسلام بشرى بالوداد
ثم أبدالي وقد كان البطل ... منح الأفغان أسا للعمل

السابق، ص299.

وفتى ملكا عظيما قد أقاما ... للجبال عاد واختار المقاما
أضرم النيران في تلك الجبال ... أحرقته؟ أم شجاع لا يبالي؟

السابق، ص304.

=

وحافظ على ملك الهند[1]. والجندي الشرقي هو الذي يحمي الشرق[2]. كل قول له كان فعلا. ظل مستيقظاً بالرغم من قوم الشرق[3].

يتجلى المرء في الثبات الذي يعطي الحياة للشعوب والأفراد. ونال ذلك بكمال التوحيد. وحقق الجمال والجلال[4]. وإذا التوحيد أسكر شعباً فإنه يرفعه إلى الذرى. وروح الشعب لا تحل في الأجساد بل في الأرواح[5].

الجمع بين روحانية الشرق ومادية الغرب ممكن عند حليم باشا المصلح التركي، بين القلب والعقل، قلب الشرق وعقل الغرب. فالقلب طريق العقل، والعشق سبيل الفكر. في الغرب فتحت العين، ومات القلب. وفي الشرق فتح القلب، وأغلق البصير، وأظلم العقل. وأخطأ مصطفى كمال حين اختار علمانية الغرب. وأخطأ العثمانيون عندما اختاروا سلفية الشرق. انهار الغرب بما اخترعه. الغرب إذن ليس نموذجاً للتقليد. إبداع الذات هو الطريق. اختار العلمانيون الجديد على حساب القديم. واستبدلوا صنماً بصنم. مع أن الغرب يحطم أصنامه كل يوم. فما سماه العلمانيون جديداً أصبح قديماً في الغرب. لذلك لم تتحقق نفوسهم في

= إنــه لــلــديــن بــأس والــوطــن قاد جيشا في جبال قد كمن
بـطـل الـهـيـجـاء حـقـا والأمـيـر والـحـديـد عـنـد قـوم والـحـريـر
السابق، ص308.

(1) أين من نور اسمه نور الكواكب وتـراه عـيـشـنـا هـذا يـواكـب؟
إنــه كــشــف ســر الــعــاشــق جــاد بــالــروح بــشــوق دافــق
وبـفـضـل مـن ببـدر أو حـنـيـن قد حباه فقره جذب الحسين
زايـل الـسـلـطـان قـصـرا زائـلا مـلـكـه فـي الـهـنـد ظـل مـاثـلا
السابق، ص300.

(2) وحـيـاة الـشـرق كانت من حـيـاتـه ابـنـه الـجـنـدي أمس من مـمـاتـه
السابق، ص308.

(3) كــان فــعــلا كــل قــول قــالــه لـم يـنـم، والـشـرق نـام لـيـلـه
السابق، ص311.

(4) بـالـتـجـلـي كان لـلـمـرء الـثـبـات إنـه لـلـفـرد والـشـعـب الـحـيـاة
ولـقـد نـالا بـتـوحـيـد كـمـالا حـقـقـا هـذا جـلالا ذا جـمـالا
السابق، ص319.

(5) وإذا الـتـوحـيـد شـعـبـا أسـكـرا فـمـكـان الـشـعـب في أعلى الذرى
إن روح الشعب بين الناس كانت لـلـحـلـول قـط جـسـمـا ما أرادت
السابق، ص320.

أبدانهم. ولم ينبثق القلب في صدورهم. حياة القلب تخلق الزمان، والتقليد يميته. والمسلم لا ينظر في الكتاب وحده، بل ينظر أيضاً في الضمير. وهو قادر على التجديد، يغير ثوب دنياه كلما رث. ويجدد الثوب بفهم القرآن من جديد طبقاً لعصره[1].

دون الذات تكون حياة المسلم زورقاً يسير بلا هدى. والقرآن هو الهادي له. ومن ثم يدعو الأفغاني إلى العودة إلى الربان. ويأمر المسلم (قم) كما أمر الوحي الرسول من قبل ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾. ولا ينبهر بالغرب. وليس بالقلب ملوك أو عبيد لأنه بغير حدود[2].

قد يفعل صاحب الرأي، ولكنه لا يقلد الغير، بل «يعتمل» أي يعمل

---

(1)
إن في الغرب الذكا أصل الحياة   والهوي في الشرق سر الكائنات
وبعشق يعرف الله الذكاء   والعشق بالذكاء ذا العلاء
وإذا العشق الذكاء صادقا   عالما آخر قطعا حققا
انهضن العالم الثاني اصنعن   بالذكاء ذلك العشق امزجن
للفرنج شعلة قد بُدِّلت   قلبهم مات وعين فُتِّحت
جُرِّحُوا لكن بحد سيفهم   يا لهم صرعى كمثل صيدهم
نشوة من كرمهم لا تطلبن   جدة من عصرهم لا تأملن
للحياة النار فلتشعل بنارك   اصنع العالم وارفع من منارك
وكمال حين نادى بالجديد   قال: إن المحو للعهد العهيد
ليس للكعبة تجديد الحياة   إن أتى الكعبة غربي بلات
ما تغنى الترك ما قالوا نشيدا   بل قديم الغرب سموه الجديدا
نفس آخر فيهم ما خفق   عالم في القلب منهم ما انبثق
إن حيّ القلب خلاق الدهور   ومن التقليد كان ذا النفور
مسلما إن كنت ذا عقل منير   في الكتاب انظر وفي هذا الضمير
يؤمن الإنسان من آيات ربه   كل دنيا يرتديها مثل ثوبه
وإذا دنياه رثت ثوبها   قدم القرآن دنيا غيرها

السابق، ص198 ـ 199.

(2)
زورق نحن بلا هدي جرى   عالم القرآن أين؟ من درى؟
عالم في صدرنا هذا اختفى   في انتظار قم لإنسان غفا
ليس فيه أي لون أو دماء   ما لغرب ما لديه من بهاء
ليس فيه من ملوك أو عبيد   مثل قلب في خلو من حدود

السابق، ص199 ـ 200.

بنفسه»[1]. ترك تقليد الغرب مرهون بالعود إلى الذات. ومكر الغرب مثل مكر الثعالب. يتحول بعدها إلى افتراس الأسود. لا يعرف إلا القتل[2].

4 ـ استعمار الغرب للشرق

وموضوع ديوان «والآن... ماذا نصنع يا أمم الشرق...؟» مقومات النهوض أو أساليب العمل. كما أنه يدخل في موضوع الشرق والغرب والذات المضادة. ويتعلق أيضاً بالموضوع السياسي. والعنوان هو عنوان آخر قصيدة في الديوان، دلالة للجزء على الكل. وهو آخر ديوان أصدره في حياته باللغة الفارسية عام 1936 بعد أن استولت إيطاليا على الحبشة.

ويشمل عدة موضوعات حول استعمار الغرب للشرق. فالشرق هو الذي هدى الغرب إلى الرقي والتقدم. وحضارته أعلى قيمة من حضارة الغرب في العلوم والفنون. كما يتناول موضوع تطهير الفكر وتجديده كشرط للتقدم مع التمسك بفقر المؤمن. فالفقر لا يعني ترك الدنيا ولا الإهمال والعزلة بل تسخيرها أولاً، والعزة والعفة والاستعلاء، كي تجوز للإنسان الخلافة على الأرض[3].

لقد استعبد الإفرنج الناس، ووضعوهم في قيود من حرير وصديد[4]. وتتنوع أشكال الاستعمار من استعمار مباشر كالهند إلى استيطان كفلسطين إلى انتداب مثل مصر. وحجة الاستعمار أن الشعوب المستعمرة غير قادرة بمفردها على التمدن، بالرغم من أنها صاحبة تاريخ عريق. ولها من التمدن الخاص بها، وليس بالضرورة

(1) إنه ذو الرأي فيما قد عمل لا يرى الغير ولكن يعتمل
السابق، ص202.

(2) دعك من هذا التجلي للشيات اترك الغرب وأدرك كنه ذات
وبمكر الغرب إن كنت الخبيرا لا تقلد ثعلبا بل كن هصورا
أمل الثعلب في الدنيا طعام قول أسد الله حر أو حمام
يصبح الثعلب ذياك الأسد دون قرآن، وملك ما استند
السابق، ص214.

(3) يا أمم الشرق، ص339 ـ 341.

(4) لبني الإفرنج في الدنيا عبيد في قيود من حرير أو حديد
السابق، ص365.

التمدن الغربي من خمر ونساء وخمور. هو تمدن يقوم على التواصل والأصالة والبداوة والتربية[1].

وفي آخر قصيدة تحمل عنوان الديوان كله «والآن... ماذا نصنع يا أمم الشرق...؟» يفضح إقبال مؤامرات الإفرنج الذين اغتصبوا أراضي المسلمين، وسلبوهم حقوقهم. ومزقوا أوطانهم. وينتقل من مخاطبة الأمة العربية إلى مخاطبة أمم الشرق. والعرب جزء من الشرق وكما دعا الأفغاني من قبل إلى أشكال من الوحدة مركزها مصر، وحدة وادي النيل، وحدة مصر والشام، وحدة المغرب العربي، الوحدة العربية، الوحدة الإسلامية أو الجامعة الشرقية. وهو السؤال في كل ثورة ونهضة: ما العمل؟ وتتضمن نفس موضوعات «إلى الأمة العربية»، استنهاض الذاكرة التاريخية، ووصف الأحوال الحاضرة، خاصة الاستعمار، ثم وصف الحل من أجل النهضة من جديد[2].

الفرنج سبب ضياع المسلمين وإسكارهم وإخضاعهم تحت سلطانهم[3]. لقد عاد روح فرعون في لورد كتشنر. وهو ما رآه إقبال في فلك الزهرة في معراجه إلى السماء. وينهي كل بيت بلازمة «ذاك أولى» مثل: كسر القيود، تحطيم الأصنام، شق الصخر. اشتد الصراع بين الشرق والغرب. ولا تنفع مدية الدرويش أمام عصى موسى. وينتهي الفرعون القديم والفرعون الجديد إلى الردى إذا ما فلق موسى البحر[4]. ويتوب فرعون القديم بعد أن فقد عقله ودينه. ويريد التماس قلب العقل

(1) ملكُ الحضارة أين يُحتم سيره؟ في عصرنا هذا السؤال يسير
في حيث لا خمرٌ ولا قمر ولا ضيق الثياب على النساء يجور
والروح في بدن قوي خافق لكن على سنن الجدود يسير
حيث المدارس غائص ينبوعها وابن البداوة في الذكاء جسور
يفتي جهابذة الفرنجة أنما هذي البقاع من التمدن بور
ضرب الكليم، ص108.

(2) يا أمم الشرق؟، ص389 ـ 396.

(3) الفرنجُ المسلمينَ أسكروا وبِشَصٍ في الحلوق جرروا
من نفوذ الغرب في الشرق الخراب والشيوع لانحطاط الدين باب
جاويد نامه، ص195.

(4) ذاك شرقي وذا من أهل غرب مع أهل الحق في حرب وضرب
وعصا موسى على هذا تهاوت والرفيق مدية الدرويش غالت

=

والقلب من الكليم[1]. ويعترف فرعون الجديد، لورد كتشنر، كما اعترف فرعون مصر القديم بأن للغربيين قصداً خفياً وهو حفر القبور من أجل الحصول على ذهب الأحياء. ويتكرر في هذا العصر ما حدث من قبل في مصر. وقد ظهر ما خفي الغرب بفضل العلم والبحث[2].

استعمرت بريطانيا الهند. واعتبرتها درة التاج البريطاني. وعلماؤها موتى بالأكفان. الجسم والروح مسلوبان. ولم يبق فيها أرض ولا سكن. ورضيت الهند أن تكون رقا لأوربا ولا تشكو[3]. وأرادت بريطانيا تجميل استعمارها بما سموه الاصلاحات كنوع من الحكم الداخلي. وهي في الحقيقة تأكيد لنزعة التسلط. مازال الصياد هو الصياد حتى لو تظاهر بالشفقة، ووسع قفص الضحية، وزينه بزهور لعل الطائر يرضى بقفصه[4].

= مثل فرعون الصغير والكبير ... ظامئان بين أمواج تثور
يعرفان الطعم مرا للردى ... موت جبار كآيات بدا
سر ورائي يا بني لا تخف ... هاك كفي فما قلب وجف
ومن القرآن طه الشيخ يتلو ... فإذا القمراء جوف البحر يجلو
السابق، ص228 ـ 229.

(1) آه عقلي آه ديني قد فقدت ... ونظرت والضياء ما عرفت
امنحوني نظرة يا من ملكتم ... وهبوني لفتة يا من ظلمتم
جاءنا عن غاصبين بالخبر ... عين عميان أنار بالبصر
ما يريدون لنا غير الشقاق ... والأساس أحكموه بالنفاق
ولهذا دب في الحكم الخور ... والفساد، وتفشى كل شر
لو بدا موسى كليم الله لي ... لالتمست منه قلب العاقل
السابق، ص229.

(2) إن للغربي قصدا قد ظهر ... ولأجل التبر كم قبر حفر
إن تاريخا لمصر والكليم ... ما نراه اليوم في سفر قديم
إنما بالعلم للسر الظهور ... حكمة والبحث، أو شيئ حقير
السابق، ص230.

(3) مستقبل الهند من يدري؟ وما برحت ... يا ويحها، درة في التاج ترتهن
دهقانها من ظلام اللحد مطّرح ... ولم يزل مِزقاً تحت الثرى الكفن
الجسم والروح للباغين قد رهنا ... لم يبق في أرضها دار ولا سكن
رضيت رقا لأوروبا بلا أنف ... فمنك شكواي لا منها، وبي حزن
ضرب الكليم، ص108.

(4) أرى رحمة الصياد سترا لقهره ... ولم يجد فينا ذا الصفير المجدد =

لم تكن قضية كشمير قد ظهرت بعد حين قسمت بريطانيا الهند إلى الهند وباكستان عام 1948. وخلقت مشكلة كشمير لاستمرار النزاع بين أكبر دولة هندوسية وهي الهند، وأكبر دولة إسلامية وهي باكستان. كما قسمت فلسطين بين العرب واليهود، وجنوب إفريقيا بين البيض والسود. يحن إقبال لكشمير، جبالها ووديانها، غاباتها وأحراشها، أرضها وسمائها، طيورها ومياهها[1].

وفي قصيدة بعنوان «لن يثير الشجن والأحزان، دمعة على افتراق الشعب في شبه القارة» يتنبأ بتقسيم الهند كجزء من سياسة بريطانيا «فرق تسد» وكما ستفعل في فلسطين وفي جنوب إفريقيا بعد موت إقبال بعشر سنوات عام 1948، إثارة للنعرات الطائفية والعرقية بعد أن فشلت محاولات غاندي في الدعوة للتسامح والإخاء بين المسلمين والهندوس خاصة وأن غاندي نشأ في منطقة الجوجورات حول بومباي، منطقة المسلمين. التقسيم إذن مؤامرة الغرب. فبالرغم من استغلال شعوب الشرق إلا أن الغرب مازال يسيطر عليها اقتصادياً وسياسياً. سلب ثروات الشرق. ونما نفسه بأموال الشرق. ويمتد نوم الشرق سنين طوالاً بإرادتهم، وليس بإرادة السماء. وهو ليس أهلاً للحزن أو للغسل أو للدفن أو لشق الثياب ولا عزاء. لا ينتسب إلى الفلك، ولا إلى السماء. يأتي يوم الحساب بلا أعمال. ويقف بلا حصاد لأنه لم يزرع بل ظل ينتظر المعاول بلا كد وكدح وسعي في الأرض. وما تنفع الأماني بلا جهود إذ يكون مصيرها العدم، ومحو نقشها من سفر الوجود. تمادي الغرب في الفتن وأحكم سحره وقبضته حول الشرق. فلا هو بقي على الكفر في الغرب، ولا هو حافظ على الدين في الشرق. أحال الضوء إلى ظلام. ولا حل لخلاص الشرق إلا بالثورة[2].

= وقد زين الأقفاص بالزهر ذابلا   لعل أسيرا للأسار يغرد

السابق، ص113.

(1) A Message of the East, pp. 92 - 3.

(2) شعوب الشرق والغرب استقلت   وضاق بنا على الأرض الفضاء
فللأغيار ثروتنا متاع   ومن لبناتنا لهم البناء
وأين حياتنا والغير فيها   يصول كما يشاء ويستطيل؟
وليس النوم ما صرنا إليه   فذاك الموت لا النوم الثقيل
وإن بذور هذا الموت جاءت   من الأعماق منذ الابتداء
ومنذ المهد كان القوم صرعى   وهذا الموت ليس من السماء =

كشف إقبال الأقنعة عن السياسة الغربية. وأيقظ أمم الشرق. في الهند الإنسان المستعبد الذليل ليس له الحق في ذكر اسم النبي. والعبودية والذل لا يلتقيان مع الإيمان والحرية. تصوّر السياسة الغربية الظلم عدلاً. وهو عدل جديد لا عهد للناس ولا للفطرة به. التحرير لديه زيادة قيد العبد والأمن لديه، أن يدخل الطير في وكر الصياد. ويرمي للطير الطعم فيقع. ويغيب رشده عندما يفقد الأمل[1]. على شعوب الشرق أن تحذر كيد الغرب. فكل ما يأتي منه زور وبهتان. والأفضل الموت ظمأ كالحسين من شرب ماء الغرب. ما يقوله تخدير لا يصدق. وكحله يعمي العين[2].

غزت إيطاليا الحبشة. وانقضت عقبان أوربا على جيف الأحباش. فحضارتها تقوم على العدوان. هي مجموعة من الذئاب تطارد الخرفان. والكنيسة تساهم في ذلك. تريق

= وليس فقيد هذا الموت أهلا ... لغسل أو لقبر أو بكاء
ولا شق الثياب عليه حزنا ... ولا سعي الوفود إلى عزاء
جهنمه سوى ما قد عرفنا ... فليس لها إلى الفلك انتساب
ويوم حساب كل الخلق يأتي ... بلا عمل فليس له حساب
حصاد الزارعين غدا وهذا ... بلا زرع فمن أين الحصاد؟
ومدة عمره في الدهر يوم ... وكل حياته يوم معاد
وأيةُ أمة ترجو الأماني ... بلا جهد وتمضي في ركود
يكون مصيرها عدما ومحوا ... وينسي نقشها سفر الوجود
وكم فتن تمادى الغرب فيها ... وأحكم حولها السحر المبينا
فما أبقى على الكفار كفرا ... ولا أبقى لأهل الدين دينا
هي الغمرات ما منها نجاة ... ولا حل بغير الانقلاب

يا أمم الشرق، ص371 ـ 372.

(1) صوّر الغاصب عدلا ظلمة ... ما هو التفسير للعدل الجديد
زاد في التحرير معنى أنه ... يحكم القيد لتحرير العبيد
قال للطير إذا رمت الأمان ... فاتخذ في منزل الصياد وكرا
ليس في الأجواء للطير مكان ... لا ولا تأمن في الصحراء نسرا
حين يلقي الحب في أشواكه ... يسقط الطير ويهوي ثملا
ويغيب الرشد عن إدراكه ... ساعة يفقد فيها الأملا

السابق، ص374.

(2) سدد الرأي وحاذر كيده ... كل ما يأتي به زور ومين
إن سقاك الماء فاترك ورده ... ولتمت ظمآن حرا كالحسين
لا تصدق منه ما تسمعه ... فهو تخدير مبيد للبشر
واحذر الكحل الذي يصنعه ... إنه الكحل الذي يعمي البصر

السابق، ص374 ـ 375.

الدماء أنهارا. ورئيسها لا يحرك ساكناً بعد أن سالت في العالم أنهار من الدماء[1].

وفلسطين غصة في حلق الغرب. فقد ادعى الغرب أنه حضارة التمدن. وأمانته فوق كل اشتباه. وأوربا نصيرة كل شعب. وقع عليها الظلم والضرر والحيف. قساوستها حملوا شعلة الفكر الحر. ثم خلقوا قضية فلسطين. وأحل شعب مكان شعب. وبعد أن نجت أوربا من تركيا العسكرية انتقموا منها في شعب فلسطين[2]. وإذا كان لليهود حق في فلسطين فللعرب حق في أسبانيا، ولكنها لغة بريطانية خفية في تقسيم العرب، وزرع جسم غريب بينهم، يفصل بين الشام ومصر، وتكون قاعدة غربية للعدوان في المنطقة العربية وعلى العالم الإسلامي[3]. ولا يوجد حل أمام عرب فلسطين إلا أن تعتمد فلسطين على ذاتها بدون لندن أو جينوا. فاليهود يعيشون في دماء الإفرنج. ومادامت النار في الحشا دون خمود فالزمان قادر على إرجاع فلسطين[4].

---

(1) عقبان أوربا بغير علم — في جيفة الأحباش أي سم
قد آن للميتة أن تجيفا
حضارة تكمل بالمخزاة — وعيش أقوام على الغارات
وكل ذئب طارد خروفا
وجه الكنيسة اكتسى شنارا — روما أراقت ماءه نهارا
يا بابُ قد أضحى الورى أسيفا
ضرب الكليم، ص104.

(2) أمانتها علت عن كل ريب — وإقبال مقر دون نكر
فأوربا نصيرة كل شعب — تشكي الدهر من ظلم وضر
كرامات القساوس أن أضاءوا — سراج الكهرباء بكل فكر
ولكن من فلسطين بقلبي — وللشام الكسيرة حر جمر
وتلك عقدة ليست لحل — تلاقي كل تدبير بعُسر
من الترك الجفاة نجوا فلاقوا — بأشراك التمدن شر أسر
السابق، ص109.

(3) مرحى لحانات الفرنج فقد — ملأت بهن زجاجها حلب
إن في فلسطين اليهود رجت — فليأخذن أسبانيا العرب
للإنكليز مقاصد خفيت — ما إن يراد الشهد والرطب
السابق، ص111.

(4) لا يزال الزمان يصلى بنار — لم تزل في حشاك دون خمود
لا دواء بلندن أو جنيوا — بوريد الفرنج كف اليهود
=

وموسوليني نموذج الحاكم المستبد في الغرب والشرق على حد سواء. هو مجرم حرب في ثوب سياسي. الكل يأخذ بوسائل التمدن. ويختار الغرب الوسائل الحربية. يشغل الغرب نفسه بالزمر والموسيقى وكل ملذات الحياة. والبعض الآخر يتملك الأرض ويأخذ الخراج حتى على الصحارى[1].

ولا فرق بين الإسكندر قديماً والقرصان. ففي حوار شعري بينهما يتهم الإسكندر القرصان أن جزاءه في سلاحه. كما أن التصميم في سيف الإسكندر. وإن ضيّق وسع البحر عندما يمعن في قطع الطريق. ويرد القرصان بأن الإسكندر أيضاً لم يوفق في مسعاه، وأنه ما ينقد به يرد إليه. فالقتل أيضاً مارسه الإسكندر. الإسكندر يصول ويجول في البر. والقرصان يصول ويجول في البحر[2].

تقوم سياسة الإفرنج في الغرب على أدمغة الساسة وإذا كان هناك إبليس واحد فساسة الغرب الآن ألوف الأبالسة[3]. أسفَّ الساسة وأخلدوا إلى الأرض.

= ومن الرق للشعوب نجاة ... قوة الذات وازدهار الوجود
السابق، ص113.

(1) أرى العصر يأبى من مسولين جرمه ... وأخيار أوربا عليّ غضاب
كلانا بآلات التمدن آخذ ... أتنقم أفعال السيوف حراب
وقد نقموا مني غرام تملك ... أما ثار منهم بالضعاف ضراب
لمن شعبذات الحكم تبقي ممالكا ... ولا ملك أو ملك بهن يصاب
أينفخ في الأعواد أبناء قيصر ... ويجبى إليكم عاصر ويباب
نهبتم خيام البدو والزرع والقرى ... وكم كان منكم للعروش نهاب
قصدنا من التمدين قتلا وغارة ... أأمسكم فخر ويومي عابُ؟
السابق، ص107.

(2) اسكندر:
جزاؤك في سلاسلك ارتهان ... أو التصميم من سيفي العتيق
فقد صيرت وسع البحر ضيقا ... بما أمعنت في قطع الطريق
القرصان:
سكندر! للفتوة لم توفق ... أيحمل بالفتي فضح الرفيق
فإن القتل دأبي لا أماري ... كذاك القتل دأبك يا صديقي
كلانا اليوم قرصان: ببر ... تصول، وصلت في بحر عميق
السابق، ص110.

(3) يا رب ندك في غرب سياسته ... وما تعبّد إلا الهام والروسا
خلقت إبليس فردا من لظى لهب ... ومن تراب أقامت ألف إبليسا
السابق، ص103.

يمدون الشباك كما يفعل الذباب والنحل. ونادراً ما يظهر أمير بينهم له هدف يتجاوز الأفلاك[1].

هناك حكمة مستفادة من الشرق والغرب على السواء وتفيد العبيد مؤداها أن لا ملك أو فقراً أو دنيا أو حكمة يمكن تأسيسها إلا على العقائد. فهي أساس الضمير. تحمي الأمة من أفعال الرعديد أو الأقوال المثبطة[2]. السياسة اللادينية خسة مات الضمير فيها وساد إبليس. ولما قضى الفرنج على الكنيسة استبدلوا بها الشيطان. وكلاهما واحد بالنسبة لاستغلال أموال الناس. بالإضافة إلى الإقطاع في الكنيسة ورأس المال والعسكر في العلمانية[3].

5 ـ تحرر الشرق من الغرب

وكيف يستعمر الغرب الشرق، وحضارة الغرب وافدة من الشرق؟ من الشرق فاض العشق والحسن على الكون. ومنه امتدت الفطرة في العالم كله. منه تعلمت نهضة الأمم، وعرفت العلوم والفنون. رفع الشرق الحجاب عن الكائنات. ومنه أشرقت شمس الحضارة. أصداف البحر من قطراته. وهدر الموج من بحره. حرارة الشدو من ميزانه. إيمان الناس من قلب آدم[4]. يكسب الغرب من جهة الشرق، وما

(1) ما رجائي بساسة قد أسفّوا — وإلى الأرض أخلدوا إدراكا
نظرات إلى ذباب ونمل — فهم العنكبوت مدت شباكا
حبذا الركب قد هداه أمير — ذو مرام تجاوز الأفلاك
السابق، ص111.

(2) تعلمت بين الغرب والشرق حكمة — أراها لأهل الرق أجدى الفوائد
فلا ملك أو فقرا ودينا وحكمة — يؤسس إلا فوق صخر العقائد
فإما خلا منها ضمير جماعة — فأفعال رعديد وأقوال هامد
السابق، ص104.

(3) ما الحق مخف عن فؤادي سره — فلقد حباني الله قلبا مبصرا
فسياسة اللادين عندي خسة — مات الضمير بها وإبليس افترى
لما قضى حكم الفرنج كنيسة — ساسوا كشيطان بلا قيد جرى
شَرِهت لأموال العباد كنيسة — فإذا الخميس سفيرها بين الورى
السابق، ص109.

(4) بنا لبس العشق ثوب الدلال — وفاض على الكون طيبا وحسنا
وفطرة آدم في كل حي — روتها الخلائق في الدهر عنا
تعلمت الأمم الناهضات — من الشرق دينا وعلما وفنا =

يقتنيه من ادخاراته. ومن يأخذ الغذاء والكساء ويعيش في نعيم[1].

فماذا كان الشرق أصل الغرب، فالشرق قادر على النهوض من جديد دون الذوبان في الغرب. وهو قادر على إجراء المعجزات كما اخرج موسى يده بيضاء من غير سوء ليبطل سحر الغرب كما أبطل موسى سحر فرعون. فلماذا قيد الشرق نفسه بزناد الغرب، وصبر على القيد؟ يكفيه أن يوحد البلاد ويوجهها نحو العلا حتى يحقق العزة والنصر[2].

لقد استعمر الغرب الشرق. وآن الأوان كي يتحرر الشرق. فالثورة في النفوس تدفع الحياة إلى المجد من جديد. ومازال الغرب في غروره، يكيد للعالمين. ينشر الإلحاد في الكون، ويقيم الدنيا على غير دين. ويلبس الذئب لبس الشاة، ويخفي أنيابه، وينتظر في الكمين[3]. يستغل الغرب البرايا. ويرى بني آدم مثل القطيع حلالاً

= رفعنا الحجاب عن الكائنات فنحن من الشمس والشمس منا
إذا لاح في صدف جوهر فذلك من فطر نيساننا
وإن هدَر الموج في بحره فذلك من فيض طوفاننا
حرارة شدو الهزار الطروب على غصنه بعض نيراننا
سقينا دم آدم قلب الورود فأهدى رسالة إيماننا
يا أمم الشرق، ص393 ـ 394.

(1) فمن جهد كسبك ما يجتنيه وما يقتنيه وما يدخر
ومنك الغذاء معا والكساء له في نعيم وعيش نضر
السابق، ص396.

(2) فتى الشرق أنت الوفي الأمين فأظهر يد العزم للناس جهرا
لتخرج بيضاء من غير سوء وتبطل من فتنة الغرب سحرا
علام ارتبطت بزناره وكيف استطعت على القيد صبرا؟
فوحد بلادك صوب العلا بإيمانها تلق عزا ونصرا
يا أمم الشرق، ص394.

(3) تئن الخلائق في الأرض طرا وقد سامها الغرب عسفا وجورا
فيا أمم الشرق فيم التواني لقد آن أن يصبح الشرق حرا؟
أكاد أرى ثورة في النفوس تشد الحياة إلى المجد جرا
مضى الليل وانجاب عهد الظلام وبعد الدجى يعقب الليل فجرا
وما برح الغرب يختال تيها ويحترف الكيد للعالمين
لينشر في الكون إلحاده وينشئ دنيا على غير دين
ويستبطن الذئب في جلد شاة بأنيابه العُصْل خلف الكمين
السابق، ص389.

للذئب[1]. والمستعمرون كضواري الشوارع يلتقون في العواصم الأوربية لالتهام العباد، وطمس الهدى. اقتسموا الكرة الأرضية نهبا، ووحدوا أنفسهم لذلك. يدعون امتلاك كل البلاد. يستولون على الثروات، ويشعلون الفتن[2].

لقد استيقظت كل الشعوب بعد سبات عميق. وبدأت الدخول في أسرار الحياة. وأفاق الشرق من نوم طويل، يحطم الأغلال، ويكسر القيود. وقعت له جذبة. فأزاح العبأ عنه وانتفض. أما أمم الغرب فقد عرفت قدرتها وإمكانيتها. وقد اكتوت أمم الشرق بناره[3].

فكر الشرق واضح. فلا يتبدل ليله بنهاره. يثير ناراً في الصدور جديدة مشوبة بالعزيمة. ينقصه فقط سماع نشيد المجد من قيثارة جديدة، وتحويل الطبع إلى وعي متحفز للسبق، وصياغة دور جديد له في المستقبل، والتحرر من لغو الإفرنج وزيف الاستعمار، والاعتماد على تحرير النفوس ونزاهة الأفكار. وإذا ضل الشعب في آماله عن قصد لم يلق إلا البوار. ويموت القلب داخل الصدر، وينطوي على الذلة والصغار. وتصبح الحياة سلامة وسكونا. يتم النصر فيها بالفرار منها. ويغيب الموج من البحر. الخطوة الأولى لنهضة الأمة تحررها بالعزيمة والإصرار. تطهر نفسها حتى يسهل تعميرها بالأفكار[4].

---

(1) يرى الغرب يستغل البرايا ... كما يشتهي دون قيل وقال
يرى الآدميين مثل القطيع ... فهم لفم الذئب رزق حلال
السابق، ص392.

(2) ضواري السباع التقت في جنيف ... لطمس الهدى والتهام العباد
قد اقتسموا كرة الأرض نهبا ... وهم نحو تقسيمها في اتحاد
يقولون هذي بلادي لكم ... ونحن لنا كل تلك البلاد
هنا ثورة وهنا فتنة ... بهم نارها أبدا في ازدياد
السابق، ص392 - 393.

(3) أمم الدنيا صحت بعد سبات ... واستبانت كنه أسرار الحياة
وأفاق الشرق من نوم طويل ... يكسر الأغلال والقيد الثقيل
جذبة واتته من دفع القدر ... فأزاح العبء عنه وانتصر
أمم الغرب تبينت مداها ... ما اكتوى مثلك حي بلظاها
السابق، ص343.

(4) لأنيل فكر الشرق أوضاح الهدى ... كيما يبدل ليله بنهار
وأثير نارا في الصدور جديدة ... مشبوبة بعزائم الأحرار =

يرى إقبال حل مشكلات الشرق بالإيمان والعلم. فمصير الإنسان في هذا الوجود هو التراب. وقد تشكل من قبل من ماء وطين. وفي الحياة ضلت القافلة عن طريق الصواب. كل شيئ مباح لتحقيق الأطماع دون حساب أو رقابة من ضمير. وللحق في كل شيئ دليل، ينير الأبصار. وفي كل شيئ له حكمة يدرك أسرارها العارفون. إذا شاهدوا آياتها لا يرهبون. وإذا تبين الهدى لهم فإنهم ينظرون. للمؤمن الحر من ربه في حياته نور مبين. وفي قلبه لوعة واشتياق وعطف على محن الآخرين[1].

يسأل إقبال عن الذي ملأ الشرق فأحيا القلوب، وعما يعصف به الآن فترضخ الشعوب؟ ويجيب الرومي بأن الشعب لا يموت إلا إذا حسب الأحجار بخوراً، وظن الشهد سما أي عندما تنقلب الرؤى لديه وتختلط الموازين[2].

= إني سأسمعهم نشيد المجد من ... قيثارة أوتارها أشعاري
وأحيل خام الطبع وعيا صارخا ... متحفزا للسبق في المضمار
وأصوغ للأيام دورا مقبلا ... غير الذي شهدت من الأدوار
ليحرروا الأرواح والأفهام من ... لغو الفرنج وزيف الاستعمار
ومجال تحرير النفوس أمانة ... موصولة بنزاهة الأفكار
والشعب حين يضل في آماله ... عن قصده لم يلق غير بوار
ويموت داخل صدره القلب السليم ... وينطوي في ذلة وصغار
فإذا الحياة هي السلامة والسكو ... ن وفوزه من حربها بفرار
في بحره موج الأماني راسب ... ما فيه من لج ولا تيار
الخطوة الأولى لنهضة أمة ... تحريرها بالعزم والإصرار
لو أمكن التطهير أمكن بعده ... أن يسهل التعمير للأفكار

السابق، ص347 ـ 348.

(1) أرى مشكلات بني آدم ... يزيد بهم شرها كل حين
فما قدر إنسان هذا الوجود ... لديهم سوى هيكل من تراب
تشكل في الخلق ماء وطينا ... وبنيانه صائر للخراب
وقافلة الكون ضلت خطاها ... بحكمتهم عن طريق الصواب
لأطماعهم كل شر مباح ... وما للضمير عليهم حساب
وللحق في كل شيئ دليل ... ومن نوره كل ما تبصرون
وفي كل معنى له حكمة ... يفوز بأسرارها العارفون
إذا شهدوا آية الله عاشوا ... أباة على الضيم لا يرهبون
لقد نظروا فاستبانوا الهدى ... بإدراكهم أفلا ينظرون؟
وللمؤمن الحر من ربه ... هدى في الحياة ونور مبين
وفي قلبه لوعة واشتياق ... وعطف على محنة الآخرين

السابق، ص390.

(2) قال: يا من ملأ الشرق بما يحيي القلوب =

ويحذر إقبال ابنه جاويد من أن يدين لصانع يصوغ الزجاج في أوربا. ويوصيه بأن يصوغه من تراب الهند، وأن يضع بلاده فوق رأسه تاجا[1]. وكل شيئ يجعله الشرق نجساً يعتبره الغرب مقدساً. فرح الغرب لترك المسلم لسجوده، في حين يعتبر المسلم ذلك إنكاراً لوجوده[2]. لقد آمن الشرق وحده بالإله. أما الغرب فقد شاح عنه. ومع ذلك، الشرق الآن متأرجح بين الوجود والعدم. ومن يدري ماذا يخبأ له المستقبل من نهضة جديدة؟[3]. من الشرق ذكاء يطلع عندما يفك من قيد الغرب. ويتجلى عندما يفيق من الغزو[4]. والشرق قادر على فهم الأسرار[5].

لقد علّم الغربُ حكمة للشرق، أن الدين معبد وطائفان، كهنوت ودير. وهو

= ما الذي يعصف بالشرق وما داء الشعوب؟
قال: ما أعرف شعبا مات إلا مات لما
حسب الأحجار بخورا وظن الشهد سُما

جناح جبريل، ص525.

(1) إياك يوما أن تدين لصانع في ليل أوربّه يصوغ زجاجا
صُغ من تراب الهند كأسك وافتخر وارفع بلادك فوق رأسك تاجا

السابق، ص533.

(2) كلما يجعل منه الشرق معيار النجاسة
لا تبالي حكماء الغرب أن ترفع راسه
فسَّر الغرب الديموقراطي تركي لسجودي
لم يَعُد من بعده في الأرض معنى لوجودي

السابق، ص545.

(3) شاهد الشرقُ الإله وحده وأشاح الغرب عنه خده
في طلسم للوجود والعدم ذلك الشرق بسر ما ألم
ما لنا أهل السما إلا النظر في غد للشرق تحقيق الوطر
قال يبدو الآن هذا المشرق شمسه الأخرى عليه تشرق

جاويد نامه، ص163 ـ 164.

(4) فمن الشرق ذُكاء تطلع باجتراء وتجل تسطع
في عذاب واصب من نار قلب عند فك القيد من شرق وغرب
بالتجلي أسكرت في شرقها أفقا ما أفلتتْ من غزوها
منهما قد قطّعت أصل السبب إنها للشرق لكن في النسب

السابق، ص196.

(5) أنت يا من قلت قولا عبقريا يعلم الشرق به سرا خفيا

السابق، ص297.

وهم[1]. والآن أصبح أمير القافلة محباً للمال في العاجلة. لم يقم بفعل النفي «لا إله» لتطهير النفس وتحريرها من العبودية للمال والجاه والجسم. كان في الماضي مرفوع العلم بالتوحيد. ينشد المجد. ولد في ظل الحرم ثم أصبح مريداً للغير. كان في الماضي مرشداً يسترشد به كل مرتاب يبحث عن اليقين. وإذا ما سجد هو وصحبه زلزلت الأرض من جبهاتهم. كانوا يعلنون وسط الأهوال وتحت ظلال السيوف توحيد الإله. يكتبون ربنا الله ولا رب سواه من دمائهم[2].

لقد ضاع من الأمة الشوق والقلب الصبور. والباقيات الصالحات ردمتها العصور، وتوارت في الظلام. بُليت بالرق. وهي بجوار الحرم حتى إنها لتخجل من ذكر اسم المصطفى على لسانها، وتحول ضمير الأمة إلى دير للأصنام. أصبحت أسيرة تحت حكم الغير، ولا تقدر على أن تصنع خيرا. تدعي الحب لخاتم الأنبياء دون أن تتحول أقوالها إلى أفعال. فتصبح أقوالاً كاذبة، لا تصديق لها في الفعل. وإذا لم يتبع الحب الاقتداء كان بلا قيمة وبلا فاعلية. لا يدرك العبد الذليل لذة الإيمان. والمسلم المستسلم للطامعين لم يعد يقتدي بالخليل بل بأبيه آزر. صلوات الحر تبعث الشعور. وهي معراج إلى العيش الكريم. أما صلاة المرء بلا حضور فإنها عادة جوفاء ومظاهر قديمة. الأحرار وحدهم أصحاب العزة في العيد السعيد. أما الأسرى العبيد فإنهم خارج دائرة المؤمنين[3].

---

(1) علّم غربٌ حكمةً للمشرق ... معبد والطائفان ليس شيئا
السابق، ص172.

(2) ضاق صدري بأمير القافلة ... ليس فيه ومضة من لا إله
عابد المال يحب العاجلة ... عبد جسم عبد نفس عبد جاه
كان بالتوحيد مرفوع العلم ... ينشد المجد طريفا وتليدا
ذلك المولود في ظل الحرم ... ما له أصبح للغير مريدا
أين من كان بهم يسترشد ... كل مرتاب فيحظى باليقين
وترى الأرض إذا ما سجدوا ... زلزلت من جبهات الساجدين
في دوي الهول كانوا يعلنون ... تحت ظل السيف توحيد الإله
بمداد من دماء يكتبون ... ربنا الله ولا نخشى سواه
يا أمم الشرق، ص375.

(3) أين ذاك الشوق والقلب الصبور ... ومرايا الباقيات الصالحات؟
قد طوتها في تواليها العصور ... وتوارت في الليالي الخاليات
قد بلوت الرق منذ الابتداء ... لم يكن مهدي في أرض الحرم
من رسول الله يعروني الحياء ... حين يدعو باسمه الغالي فمي

=

وبعد الإيمان يأتي العلم، فيتحول إلى تقوى. يزداد خوفاً من الله حتى يعطيه الأمان. هو علم يكشف عن الإله، يؤدي إلى صدق الإيمان، وليس علم الغرب الذي يُبعد عن التقوى والإيمان. فغاب المعيار، وعم الشك، وانتهى إلى الصوفية. العلم سبب الرقي في الحياة. حوّله الغرب إلى آلة للهدم والتدمير. حوّل جنات عدن إلى سقر. أصبح العلم خداعاً وسحراً. فتبدلت نعمة الله كفرا. أصبح الورد شوكاً، والأمن حجراً[1]. إذا أذعن العقل للقلب كان أهدى سبيلاً وأكثر طاعة وإلا أصبح كأبليس في المكر والدهاء[2].

= لك قلب ومع القلب ضمير ... أم غدا صدرك للأصنام ديرا
أنت للغاصب محكوم أسير ... تحت حكم الغير لن تصنع خيرا
تدعي الحب لخير الأنبياء ... أكذب الأقوال ما لم يبد فعلا
وإذ لم يتبع القول اقتداء ... لم يكن للحب أو للقرب أهلا
لذة الإيمان عند المؤمنين ... قل أن يدركها عبد ذليل
مسلم مستسلم للطامعين ... آزري حاد عن دين الخليل
صلوات الحر بعث للشعور ... فهي معراج إلى العيش الكريم
وصلاة المرء في غير حضور ... عادة جوفاء في رسم قديم
إن للأحرار في العيد السعيد ... مظهر العزة في دنيا ودين
ولدى الأسرى وفي عيش العبيد ... يصبح العيد هجو المؤمنين

السابق، ص375 ـ 376.

(1) إذا العلم حل بقلب الفتى ... أحل به خشية المتقين
ويزداد خوفا من الله حتى ... يرد الأمان إلى الخائفين
هو العلم فيه لنا كيمياء ... إلى قدرة الله يهدي البصر
فيا أسفا ليس للغرب منه ... سوي حيرة في دياجي الفكر
فلم يجبه العلم عقلا سويا ... يفرق ما بين خير وشر
فلا ينبع الطل من جفنه ... وفي صدره قطعة من حجر
فبالعلم كان رقي الحياة ... تضيء القرون به والعصر
فحوله الغرب سيفا رهيبا ... لمحو البوادي وقتل الحضر
تصير الملائك لو جاورتهم ... معاول هدم لمحو البشر
ولو كانت الأرض جنة عدن ... لسكانها جعلوها سقر
غدا مظهر العلم في عصرهم ... بكل الشعوب خداعا وسحرا
معاذ الحقيقة، ماذاك سحر ... لقد بدلوا نعمة الله كفرا
لهم فتن تجعل الورد شوكا ... وتوقد في روضة الأمن جمرا

السابق، ص391.

(2) إذا العقل أذعن للقلب حكما ... رأى طاعة الله أهدى سبيلا
وإن لم يجب داعي القلب أضحى ... كإبليس مكرا وشرا وبيلا

السابق، ص392.

6 ـ من ريح الغرب إلى ريح الشرق

وبالرغم من مسار التاريخ وقوانينه وقيام الحضارات وسقوطها هناك «الملك الخالد» الذي يقوم على العدل. ملوك تبقى وملوك تفنى. والسبب حضور العدل وغيابه[1]. التاريخ في حراك دائم، ولا شيئ ثابت فيه. تقوم الحضارات وتنهار ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾. ولا يوجد قدر يتحكم في التاريخ بل قوانين ومسارات فيه. جبروت الإفرنج ليس دائماً، قام على الغرور. وقد يتحول مركز الثقل من جنوا إلى طهران[2]. ومن ثم ينادي إقبال على جماعة الأمم الشرقية بأن المستقبل لها، سابقاً بذاك ما يُقال حالياً عن «ريح الشرق». تنتهي حضارة الغرب كما بدأت. فلا خلود للحضارات. تقوم وتسقط. لكل منها دورتها. وكلما شيد الغرب صرحاً تكسّر على حضارات الشرق[3].

أ ـ انهيار الغرب: الغرب لم يعرف مثل الروس إلا النفي «لا». فتحول إلى نار ودماء. وأثاروا الأمم. واستهانوا بتقاليد الزمن. وقضوا على معايير السنن. ولم يصلوا إلى فعل الإثبات «إلا». كون جيوشاً زاحفة تقهر حتى العاصفة، ولكن دون هدف نبيل أو مقصد سامي. فانعدم العدل. وعم الظلم. مع أن في الفطرة ضمير يدعو إلى التوحيد. فأصبح الوعي الأوربي نافياً وليس مثبتاً، يهدم ولا يبني. يشك ولا يوقن[4].

---

(1) إنـي لـغـواص الـمـعـانـي فـطـرة — لـكـنـنـي بـحـر الـسـيـاسـة أحـذرُ
ما إن يـحـب الـدهـر مـلـكـا خـالـدا — ولـو أن فيه من الرؤى ما يسحر
فرهاد أبقى الدهر تحت صخوره — لـم يـبـق مـن بـرويـز مـلـك يـؤثـر
ضرب الكليم، ص106.

(2) سُـخّـر الـمـاء والـهـواء مـسـخّـر — لـيـس بـدعـا إن الـقـضـاء تـغـيّـر
جـبـروت الـفـرنـج غـرتـه رؤيـا — عـلـهـا غـيـر مـا رآه تُـعـبِّـر
إن جنيوا للشرق طهران صارت — فـلـعـلّ الـتـبـديـل لـلأرض يُـقـدر
السابق، ص106.

(3) مـا لـمُـلـك الـغـرب خُـلـد — بـلـغ الـعـصـر أشـده
كـلـمـا شـيـد صـرحـا — ضـحـك الـشـرق وهـدّه

(4) صـار شـعـب الـروس نـاراً ودمـا — بـاسـم «لا» حـتـى أثـاروا الأمـمـا
فـاسـتـهـانـوا بـتـقـالـيـد الـزمـن — وأطـاحـوا بـمـعـايـيـر الـسـنـن
وقـف الـركـب بـهـم في بـاب «لا» — لـم يـرومـوا نـحـو «إلا» مـنـزلا =

والساسة يأتمرون بأوامر إبليس، إبعاد الناس عن الدين خاصة المسلمين الصابرين المستميتين، وبوجه أخص العرب الذين كرمهم الله بالدين، والأفغان الذين عرفوا بالحمية فيه ونصرته[1]. يريدون إخلاء ضمير المسلمين من مثلهم وآمالهم حتى يرضخوا لهم تماماً.

أوربا مثل شيلوك الذي صوره شكسبير في تاجر البندقية، المرابي الذي يريد أن يأخذ الفائدة من لحم إنسان. ومكر الثعلب أحياناً يتغلب على قوة الأسد. وإذا استمرت أوربا في أخذ شيلوك نموذجها فإنها ستسقط إلى الأبد[2]. وهو يعني بلغة العصر سيطرة القيم اليهودية على القيم المسيحية، بعد التعارض الذي وضعه المسيح بينهما.

وينشد إقبال قصيدة «علي قبر نابليون»، يمدح فيها سيف الخالدين مثل

= ستراهم كجيوش زاحفة … بعد حين يقهرون العاصفة
وترى للقوم أمرا عجبا … نحو «إلا» يدفعون الموكبا
«لا» و «إلا» بهما العدل انتظم … كل نفي دون إثبات عدم
إن للفطرة في كل ضمير … هاتفا يدعو لتوحيد القدير
لم يبن في حرف «لا» صدق الخليل … دون «إلا» فهي للصدق دليل

يا أمم الشرق، ص357.

(1) عليكم بالبرهمن فاربكوه … بأشراك السياسة والحبال
وأصحاب الزنانير اطردوهم … من الدير القديم بالاحتيال
وذلكم الصبور على الرزايا … ومن هو بالمنايا لا يبالي
فروح محمد منه اسلبوه … لتعمل فيه أحداث الليالي
وفي العرب اقذفوا في كل فكر … من الإفرنج ألوان الخيال
بأرض العرب للإسلام كيدوا … ليسرع في الحجاز إلى الزوال
وفي الأفغان بالدين اعتصام … وليس علاج هذا بالمحال
عليكم بالفقيه فأخرجوه … من الأرض المنيعة والجبال
وقواما على الحرم اسلبوهم … لهم سننا تحيد عن الضلال
غزال المسك من ختن أثيروا … وخلوا الأرض من هذي الغوالي
وإقبال له شدو مثير … به زهر الشقائق في اشتعال
من المرج أطَردوا هذا المغني … لتحموا الناس عن هذا المقال

ضرب الكليم، ص105 ـ 106.

(2) أشباه شيلوخ في المرصاد واقفة … مكر الثعالب يفري قوة الأسد
لابد تسقط أوربة إذا نضجت … في كيس شيلوخها المجهول للأبد

جناح جبريل، ص549.

الإسكندر وتيمورلنك، ولكنها خالية من الإيمان. لذلك يزول السيف[1]. ويمدح موسوليني عام 1931 قبل أن يستولي هتلر على الحكم، وبالرغم من إدانته غزو إيطاليا للحبشة. يعجب إقبال بالفكر الجديد، والنشاط الجديد، وأمل الثورة. ويسعى نحو المجد. ويتساءل عن طريقها، خطأ أم صواب؟ الشيوخ راضون، والشباب طموحون. يثني إقبال على التجلي والحماسة. ويرجع الفضل في ذلك كله إلى الحر الذي تقتدي نظراته بنظرات الشموس[2].

لقد قامر الإنجليز حتى اندثروا، وزالت دولتهم. والدهر لا يقامر وحده، ولكن مقامرة الدهر أقوى. وهو ما سماه هيجل «مكر التاريخ»[3].

ب ـ نهضة الشرق: الأزمة ليست في الغرب وحده بل في الشرق أيضا. ففي كليهما انطفأت الحياة. في الشرق ماتت الذوات. وفي الغرب مات الضمير. وفي كليهما بدايات ثورة في القلب، تتحول إلى ثورة في البلاد، وهما في طريق

---

(1) التّوق للفعل سيف الخالدين به ... تشق في جبة الأسرار أقدارا
وقبل مولد نابليون خاض به ... إسكندر الأرض أمصارا فأمصارا
جبال آلوند هدتها حماسته ... وأطلقت سيل تيمورلنك تيارا
تصير صرخة أهل الله صرخته ... إذا أصرت على الإيمان إصرارا
السابق، ص535.

(2) نشاط جديد وفكر جديد ... يثيرهما أمل الثائر
صبا شعبه أن يرد الصبا ... إلى مجد أمته الغابر
نشاط جديد وفكر جديد ... وهذان معجزة القادر
يصوغان من حجر لؤلؤا ... وتاجا لحاضره الزاهر
تأملت روما وقد جددت ... بتجديدها حيرة الناظر
فقلت: أيا رب ماذا أرى ... وهذا الهدى خطأ أم صواب؟
حياة تقر عيون الشيوخ ... وتذكي الطموح بصدر الشباب
فيا للتجلي الذي هاهنا ... ويا للحماسة ماذا تذيع؟
سماؤك يا نغمة الثائرين ... تهز أغانيك أقطارها
وروحك تنتظر العازفين ... فمن سيهيج أوتارها؟
ومن ذا الذي صاغ هذا الجمال ... وبارك بالحب تلك النفوس؟
هو الحر ذو النظرات التي ... بها تقتدي نظرات الشموس
السابق، ص536 ـ 537.

(3) قامر الإنجليز حتى تولوا ... وكذا الدهر لا يقامر وحده
السابق، ص520.

التحول من القديم إلى الجديد[1]. رؤية الغرب عمياء. تملأ عقله الأوهام. وسكران من البخور السحري. ولا يسعى إلا إلى الباطل. أما الشرق فإنه يهدر إمكانياته فيقع في الخسران أمام غرب متوحش. لا تثيره المسائل الجليلة. ومن ثم يسود الموت روح العالم[2]. لقد أعطي الغرب قدح نور العقل، وبه حرارة الشمس، ولكن دون الشروق. فبهر النور حتى العمى. وأحرقت حرارة الشمس حتى الموت[3].

وقع العالم بين قطبي الرحى، حيل الإنكليز من الخارج والتقاتل بين المسلمين في الداخل، بين العجم والأتراك أو بين الشيعة والسنة[4]. والمبدع لا يقلد الغرب أو الشرق. لا يقلد الكوفة وبغداد من ناحية ولا الغرب من ناحية أخرى، بالرغم من أن الكوفة لم تستطع كسر سيف الحسين ولا بغداد استطاعت أن تسيطر بقواها المادية. ولا يقلد الغرب بالرغم من أنه يثير ويوقظ[5].

نام الشرق ولم يعد يُرى في سماه نجم يبشر بقدوم رسالة كما فعل قبل ولادة السيد المسيح[6]. خبا في الشرق دنيا اللهب. لم يعد به روح، بل مجرد صورة دون مضمون، بدن بلا نفس. ينتابه طيف الأماني ولكن نايه صامت. يرقد نائماً في تراث القدماء، يكفّن نفسه فيه ولا يرجو بعثاً[7].

---

(1) أبمشرق أو مغرب — نار الحياة ونورها؟
فهنا تموت ذواتها — وهناك مات ضميرها
وأرى القلوب لثورة — ملأ البلاد زفيرها
فلعل دنياك القديمة — للممات مسيرها

(2) Persian Psalms, p. 41.

(3) Ibid., p. 49.

(4) حيلة الإنكليز تظهرها أم — هجمات التركي داخل حربه؟
السابق، ص457.

(5) يقصد المبدع الغيور بلادا — لمعانيه غير كل البلاد
لا إلى الكوفة التي ما استطاعت — كسر سيف ولا إلى بغداد
نظراتي التي تموج فنونا — والتي تملأ الفؤاد حبورا
منحتني في حالة الغرب صحوا — ونشاطا وغبطة وسرورا
السابق، ص459.

(6) نام هذا الشرق لا يرعاه نجم — بنشيد العيش فجرا قد خلقت
السابق، ص373.

(7) خبا في الشرق دنياك اللهيب — فأين الروح بل أين الوجيب
وأضحى صورة ترنو إليها — وما للعيش من ذوق لديها
=

وفي كل أمة ذليلة فقهاء السلطان. يضمون المفكرين والعلماء والشعراء والأدباء لتبرير السلطان، وتمرين الأمة على الخضوع. ويقضون على ما لديها من إقدام لقبول العبودية والرق. ويستعملون لذلك كل فنون التأويل والخداع والجدل[1]. والأئمة الأذلاء أحد أسباب أمراض الأمم. يبررون شريعة الأسود والثعالب للمتسلطين من الخارج أو الداخل. ويحيدون عن شريعة الحياة والقوة إلى مذاهب الخنوع والاستكانة، يدعون المسلمين إليها[2].

وجزء من السياسة تملق المناصب العليا مثل الوزراة والرياسة. فقد أكثر الهند منها بدعوى استقلال الولايات الهندية وضرورة إدارتها. وتطلع الهنود إليها. وتلقوا من تنصبوا فيها حتى ينالوا منها شيئاً ولو درجة أدنى. كثر مدح الوزراء. وقبل الوزراء المدح. فماتت الذات، ذات المادح وذات الممدوح ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾. وكيف يمدح الصقر البوم إلا إذا كان تملقاً ونفاقاً. فشتان ما بين المادح والممدوح[3]. لقد قدم الفرنجة هذه المناصب لغواية المسلمين. وهي موت للذات،

= يجافي قلبه طيف الأماني — ويُسكت نايه رجع الأغاني
لنا كفن ونرقد في ثرانا — قيام البعث يوما ما عنانا

السابق، ص373.

(1) ليس يخلو زمان شعب ذليل — من عليم وشاعر وحكيم
فرقتهم مذاهب القول لكن — جمع الآراء مقصد في الصميم
علّموا الليث جفلة الظبي وامحوا — قصص الأسد في الحديث القديم
همهم غبطة الرقيق برق — كل تأويلهم خداع عليم

ضرب الكليم، ص101 ـ 102.

(2) بأسباب سقم الشعوب خفاء — يقصّر في شرحهن البيان
بشرع الأسود إمام العبيد — يرى دائما حكمة الثعلبان
كليم الإله يُرى لعنة — على قومه في خطوب الزمان
إذا كان في السر هذا الكليم — لقوة فرعون طوع البنان

السابق، ص112.

(3) جهلتُ أمور الناس غير مجرّب — ولكن ربَّ القلب للغيب يشهد
فقل لوزير ما بدا لك مادحا — فذاتك دستور وعهد مجدّد
إذ قال صقر الليل للبوم مادح — فهل ذاك حق أو دِهان يردَّد

السابق، ص100.

كم عالم فاضل مماري — متاجر بالدين والأخلاق

السابق، ص119.

وتحول من التوحيد إلى الشرك، وشراء للذمم والضمائر[1]. لقد كذب الغرب بالوعود وبدلوها. فالابتعاد عنهم ضروري. والاعتماد على النفس وعلى الإله هو القادر على خلق عالم جديد[2].

وقد ضربت مصر مثلاً في الجمع بين العقل والقوة بتمثال أبي الهول. لذلك خرج منها موسى بعصاه التي فجرت المياه من الصخر. وآمنت برسالة المصطفى التي جمعت بين الحكمة والحسام[3].

ويعم الفرح للغز الإنجليز وللذي عرّى غروره. وفي نفس الوقت يشع النور من زجاج سور الصين العظيم. يتراءى السر في المرايا، ويلمع على رؤوس الهيمالايا[4]. تقود نهضة الشرق إذن مصر والصين.

وعلاج أمراض الشرق في النهاية بناء على تجربة الشاعر في البداية[5].

---

(1) سحر الفرنجة قد أحاط بمؤمن — يا ويح عيني قد همتْ عبراتها
فلعل منصبك الرفيع مبارك — فالذات مَن جراه حان مماتها
هذي القضية معضل إخفاؤها — وضحت لكل مفكر آياتها
لا شرك في حكم لعبد إنما — شربت عقُولهم وخاب شراؤها
السابق، ص100 ـ 101.

(2) عن الإفرنج فلتكن البعيدا — لقد كذبوا وإن بدلوا وعودا
لك النظرات خذها عن مليك — وشكّل عالما حرا جديدا
أرمغان حجاز، ص455.

(3) من أبي الهول أتتني نكتة — وأبو الهول طوى السر القديم
بدلت سير شعوب جملة — قوةٌ لم يجفها العقل الحكيم
طبعها في كل عصر مائل — يُبدل الشكل ويبقي في الصميم
فهي طورا في حسام المصطفى — وهي طورا في عصا موسى الكليم
ضرب الكليم، ص104.

(4) فرح للغز الإنكليز — وللذي عرّى غروره
ولأن ذات السر يعكس من زجاج الصين نوره
هوذا على مرأى وسمع الكون يرقص في المرايا
ويجيش في آلوند يلمع في رؤوس الهيملايا
جناح جبريل، ص511.

(5) لقد جربت ذلك في البداية — منحت الشرف منه في النهاية
زبور العجم، ص375.

الباب السادس

التراث والتجديد

الفصل الأول

التراث الفلسفي القديم

1 ـ «زبور العجم»

وموضوع «القديم والجديد» شائع في الدواوين الشعرية، وليس فقط في الكتابات النثرية. إذ يدعو إقبال في «زبور العجم» إلى القطيعة مع القديم ثم إعادة بناء العالم من جديد. ومن مبدأ «لا إله» فإنه ينتهي إلى «إلا الله». فشعار التوحيد فعلان: نفي في «لا إله»، وإثبات في «إلا الله»[1].

ويطرح إقبال تسعة أسئلة من التراث القديم يحاول الإجابة عليها إجابة جديدة. والأسئلة التسعة فلسفية مجردة خالصة عن التفكر والعلم، والممكن والواجب، والمحدث والقديم، والنفس والبدن، والجزء والكل، والحقيقة والطريقة، والمفارقة والحلول، والوحدة. والردود عليها شعورية خالصة من فلسفة الذات.

1 ـ ما هو التفكر؟ أي فكر طاعة الله، ثم يؤدي الفكر إلى الكفر؟[2]. هو الانعكاف على الذات لمشاهدة العالم، والغوص في النفس للوصول إلى الكون، لا فرق بين الذات والموضوع، بين الدين والعالم[3].

---

(1) Persian Psalms, p. 82.

(2) وقفت حيال فكري في التحير ... فما مفهوم ما يدعى التفكر
طريق شرطها من أي فكر؟ ... نطيع الله ثم نكاد نكفر!
زبور العجم، ص375 ـ 378.

(3) وهذا الملك، والملك العظيم ... وتوأمه هو الدين القويم
السابق، ص378.

2 ـ ما العلم وفي أي بحر وأي در يخرج؟[1]. هو علم الشعور الذي لا ساحل له. والشعور منفتح على العالم من خلال الحواس. العالم ينمو ويكبر. فالنمو سنة الحياة والشعور متجدد مثله[2].

3 ـ ما العلاقة بين الممكن والواجب، والقريب والبعيد؟ يصعب حد هذه الأمور بالعقل، ظاهراً أو باطناً. إنما هو إحساس داخلي بالزمان، وعشق بالقلب، وعود إلى الذات، وتفجير طاقاتها، وعشق الممكن كواجب بالفعل. فالصلة بينهما ليست صلة عقلية بطريقة المتكلمين والفلاسفة بل صلة الإمكان بالتحقيق أو ما بالقوة إلى ما بالفعل. ولا يستعمل إقبال المفهومين العقليين بل يجيب عنهما من خلال فلسفة الذاتية[3].

4 ـ ما هو المحدث والقديم؟ هل هما المعروف والعارف، الإنسان والله؟ ولماذا عشق المحدث للقديم والتوجه إليه بالقصد؟ وينقل إقبال الحجاج العقلي الكلامي الفلسفي المجرد إلى تجربة الفراق والوصال الصوفية. فقد انفصل المحدث عن القديم، ويشتاق إلى العودة إليه. وافترق عنه ويحن إلى الجمع به. ينقل إقبال الموضوع من العقل إلى الوجود، ومن الفلسفة إلى التصوف، ومن النظر إلى التجربة[4].

5 ـ من هي الذات وما بها من قصد؟ هي أول الكائنات وأصل الحياة. شرارها يصعد إلى النجوم. لا حدود لها. تفرق وتجمع. تخفى وتتجلى. تأمل

(1) وعلم كان ساحل أبي بحر؟ ... بعيد القاع يُخرج أيَّ در
السابق، ص378 ـ 381.

(2) حياة، يا لها بحرا يمور ... وساحله الفطانة والشعور
وفي دنياه ليس له مقام ... من الدنيا له هذا المقام
إذا أغمضت عنها العين هانت ... وإلا البحر والأطواد كانت
برؤيتنا لدنيانا النماء ... بنا لغصونها هذا العلاء
السابق، ص378 ـ 379.

(3) يقال لممكن صلة بواجب ... وما بعد وقرب يا مخاطب
السابق، ص381 ـ 384.

(4) أهذا محدث هجر القديما ... فكانا الكون والباري العظيما
أمعروف وعارفه، إلهي ... لم الأشواق أومضت الظليما
السابق، ص384 ـ 387.

دائما. وهي التي تحمل الأمانة والرسالة. مكانها في القلب. من الطين تخرج بنفس الحياة، وإليه تعود، ومنه تُبعث إلى الحياة من جديد. تعيش في عالم الضرورة وهي حرة. وهي الأمينة على نفسها المحافظة على كيانها[1].

6 ـ هل الذات جزء من كل؟ وما الطريق إلى البحث عن ذلك؟[2]، الذات ليس لها نموذج أو قياس لأنها فرد. يمكن تصويرها بالهبوط والصعود، حركة دائبة بين السماء والأرض. هي مجرد شعور، قادر على أن يجوب أنحاء الفضاء. هي نور في ظلمة الصدر. هي روح من نفس الإله[3].

7 ـ من الذي يعبر السبيل ويسافر، ويصف الكمال في الذهن والذكر؟. والجواب هو أين المقر؟ والطريق بداية ومسار ونهاية. البداية في الطين والبدن، والمسار في الحياة والروح، والنهاية في الخلود[4].

8 ـ ماذا يعني «أنا الحق» مقالة الحلاج الشهيرة؟ هل الشطحة هراء أم حقيقة؟[5]. هي تجربة صوفية وليست مقولة فلسفية. أشيع عنها أنه تجربة مجوسية أو أنها تجربة خادعة للذات مع أنها تجربة قلبية. قد لا تتفق مع حكم العقل، حلم يقظة، ليست علماً قياسياً ولا هي وهم عجاب. هي تجربة الذات، ترى ذاتها. هي تجربة حقيقية، تجربة التوحد بين العاشقين، البقاء بالذات، وليس الفناء عنها[6].

9 ـ ما هو سر الوحدة، وماذا تعني؟[7]. هي أحد المقامات، قبة يطيب تحتها

---

(1) أجبني من أنا؟ وضح أنا لي — وما في الذات من شد الرحال؟
السابق، ص387 ـ 390.

(2) أهذا «الجزء» عن كل يزيد — وكيف البحث عنه لمن يريد؟
السابق، ص390.

(3) السابق، ص390 ـ 392.

(4) ومن عبر السبيل ومن مسافر — ووصف كمال من في ذكر ذاكر
السابق، ص392.

(5) أتعرف ما تضمنه «أنا الحق» — أتحسبه هراء حين ينطق؟
السابق، ص395.

(6) السابق، ص395 ـ 397.

(7) وسر الوحدة الخافي أتدري — أيعلم عارف ياليت شعري؟
السابق، ص397.

ويلتهب أعلاها، شمس وضياء. تجمع ولا تفرق، تضم ولا تباعد، تحمي ولا تعتدي[1].

وفي الدواوين الأخرى، يظهر نفس الموضوع في صورة تساؤلات وتحديات مثل: إذا كانت السماء قادرة على الإطاحة بالسلطة الفاشية فلماذا تهبها للطغاة على حساب الشعب الجريح؟[2]. وهو تحد لأشكال الإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية في سلوك البشر أو لأشكال العدل الإلهي والحسن والقبح العقليين.

كما ينادي الساقي بإحضار خمر جديد بدلاً من الخمر القديم. فقد تبدل الزمان. ينادي إقبال على الساقي بإحضار الكؤوس من الدنان، وبألا يثخن القلب الجريح بمزيد من الظمأ، وهو أجدر بالحنان. ولا يريد خمراً أو كأساً قديماً لم يعد يؤثر في القلوب. يريد خمراً تشق لها الجيوب، تؤثر وتفعل، تصخب وتصيح، وليست الخمر التي تبعث على الكآبة كالورد الذابل على الخدود، تثير إشكالات الأمة وتذيع أسرار الخلود. يطلب من الساقي هتك الأستار، وأن يجعل العمر الباقي جلوة الأسرار. ولذة اللحن ليست في الوتر ولكن في القلب الذي يصوغ اللحن[3]. لقد تبدلت أنغام الزمان، وجوقة العزف البارد الرتيب، واضطربت آلاته لتمرد النغم الجديد[4].

---

(1) السابق، ص398.

(2) أنا لا أفهم ما قصد السماء   وهي بالسلطة لو شاءت تطيح؟
تهب السلطة من لا يملكون   أيَّ مفهوم عن الشعب الجريح
جناح جبريل، ص444.

(3) يا أيها الساقي فهات من الكؤوس من الدنان
لا تثخن القلب الجريح وأنت أجدر بالحنان
دعني أبدد خمرتي   أسفا على الكأس العتيق
ما كل ما دار السقاة به تدور به القلوب
أنا أطلب الخمر التي   كانت تشق لها الجيوب
كانت تفيض كآبة   كالورد يذبل في الخدود
فتسر إشكالاتنا   وتذيع أسرار الخلود
أيها الساقي   هتِّك الأستار
عمرنا الباقي   جلوة الأسرار
لذة التلحين   ليس في الأوتار
السابق، ص510 ـ 511.

(4) بدِّلتَ أنغام الزمان، ونوطة العزف البليد =

يئس الشاعر من الشيوخ القدماء. ولديه أقوال جديدة أكثر وضوحا. والمستقبل يجبّ الماضي[1]. ولماذا ذكر الماضي المجيد وهو لا يفيد. وفي القلب سراج، ولكنه خامد لا ينير منذ قرنين؟[2]. لقد طوي الزمان القديم وأتى الزمان الجديد[3]. التقليد ثوب قديم للتمزيق باسم التوحيد المتجدد فهمه[4].

2 ـ تطور الفكر الفلسفي

ويتناول إقبال موضوع «التراث والتجديد» في دراساته الفلسفية النظرية في أعماله النثرية في عملين رئيسين. الأول في بداية حياته «تطور الفكر الفلسفي في إيران، إسهام في تاريخ الفلسفة الإسلامية». وهي رسالته التي حصل بها على الدكتوراه من جامعة مينشن عام 1908[5]، والثاني «تجديد التفكير الديني في الإسلام» في أواخر حياته. وهي محاضرات خمس ألقاها في مدينة مدراس عام 1936[6]. ومع ذلك يظل شاعرا أكثر منه باحثاً، وأديباً أكثر منه عالماً. في شعره

= وتداخلت آلاته وتمرد النغم الجديد
السابق، ص511.

(1) قد يئست من شيوخ الأقدمين ولديّ عن غدي قول مبين
جاويد نامه، ص142.

(2) لماذا أذكر الماضي المجيدا فهذا الذكر ما كان المفيدا
بصدري قد حويت أنا سراجا وفي قرنين آنست الخمودا
أرمغان حجاز، ص445.

(3) طواه بفتنة عصر قديم ولكن لي الجديد من الزمان
السابق، ص451.

(4) إن للتقليد ثوبا، مزّقنه وخذ التوحيد منه وافهمنه
جاويد نامه، ص266.

(5) محمد إقبال: تطور الفكر الفلسفي في إيران، إسهام في تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة أ.د. حسن محمد الشافعي، أ.د. محمد السعيد جمال الدين، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1409هـ ـ 1989م. العنوان الأصلي للكتاب: Development of Metaphysics in Persia. وقد ترجم العنوان بتصرف. فقد ترجم لفظ Metaphysics بلفظي «الفكر الفلسفي». كما ترجم اسم Persia باسم «إيران». وهناك ترجمة أخرى عن الفرنسية للموضوع للدكتور محمد مجيب المصري.

(6) محمد إقبال «تجديد التفكير الديني في الإسلام»، ترجمة عباس محمود، راجع مقدمته والفصل الأول منه المرحوم عبد العزيز مراغي، وراجع بقية الكتاب الدكتور مهدي علام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، القاهرة، 1968، وقد صدرت الطبعة الأولى عام 1952. =

نبض الأمة. وفي بحثيه أثر الاستشراق. العمل الأول في التراث، والثاني في التجديد. الأول في القديم، والثاني في الجديد.

ويتضمن «تطور الفكر الفلسفي في إيران» قسمين ومدخلاً وخاتمة. الأول «الفلسفة الإيرانية قبل الإسلام» وهو الأصغر. ويحتوي على فصل واحد «الثنوية الإيرانية» ليبين أثر الفكر الفلسفي الإيراني قبل الإسلام على الفكر الفلسفي بعده، وكأن الإسلام لم يستطع احتواء الثقافات الشعبية التي كانت موجودة في المناطق التي انتشر الإسلام فوقها، وبرزت بعد الإسلام محدداً لثقافته، خاصة الثنوية الفارسية المعروفة. وهو رأي المستشرقين الذي يقسمون الفكر الإسلامي طبقاً للشعوب خاصة «فارس» من أجل التفرقة بين العرب والعجم. فهناك فلسفة عربية وأخرى فارسية على ما هو معروف في كتب المستشرقين، والتحول من العرب إلى الفرس، ومن الدولة الأموية إلى الدولة العباسية. والقسم الثاني «الفكر الفلسفي بعد الإسلام» وهو الأكبر[1]. ويتضمن خمسة فصول: الأول: «المشاءون الفرس المتأثرون بالأفلاطونية المحدثة». ويتناول الفلسفة في علاقتها باليونان عامة وأفلوطين خاصة. والثاني «ظهور المذهب العقلي في الإسلام وانهياره» وهو عن علم الكلام خاصة المعتزلة وكما يركز المستشرقون على انهياره وكأن العقلانية كانت طارئة على الإسلام ورافده من اليونان مع مزجها بروح الشرق الصوفي. والثالث النزاع بين المثالية والواقعية، وهو الصراع بين أصحاب الطبائع من المعتزلة والأشاعرة باستعمال مصطلحين من الفلسفة الغربية الحديثة. والرابع «التصوف» وإدخاله تحت الفكر الفلسفي لأنه يتعلق بالفلسفة الإلهية. والخامس «الفكر الإيراني في العصر الحديث» وهو ما يسمي عندنا «الفكر العربي الحديث»، ربطاً بين القديم والحديث، واستئنافاً للماضي في الحاضر إعداداً للمستقبل. وعلى هذا النحو يضم الكتاب العلوم الإسلامية الفلسفة والكلام والتصوف دون أصول الفقه الذي نبه

= والعنوان الأصلي: Reconstruction of Religious Thought in Islam. وهي ترجمة أيضاً بتصرف إذ ترجمة لفظ Reconstruction بلفظ تجديد. وهي ترجمة معنوية. واللفظ الأدق «إعادة بناء» وهو اللفظ الذي نستعمله كعنوان فرعي للجبهة الأولى لمشروع «التراث والتجديد» وهو «إعادة بناء التراث القديم».

(1) ويبدو ذلك في عدد الصفحات. الأول (14)، والثاني (110).

مصطفى عبد الرازق المعاصر له على أنه هو الإبداع الفلسفي الإسلامي الأصيل في «المدخل إلى تاريخ الفلسفة في الإسلام».

وفي آخر كل فصل يرصد إقبال أهم المصادر والمراجع التي اعتمد عليها مطبوعة أو مخطوطة كما كان الحال عليه في أوائل القرن التاسع عشر[1]. ومع ذلك فمصادره ناقصة. يعرض مسكويه من «الفوز الأصغر»، وليس من «الفوز الأكبر» أو «تهذيب الأخلاق» أو «تجارب الأمم». ويعرض ابن سينا من «منطق المشرقيين» وقطعة من كتاب له ما زال مخطوطاً في المتحف البريطاني[2].

3 ـ الاستشراق

ويغلب على الرسالة «الاستشراق» خاصة في القرن التاسع عشر، وذلك باستعمال المنهج التاريخي[3]. من الفلسفة الإيرانية قبل الإسلام إلى الفكر الفلسفي بعد الإسلام إلى الفكر الإيراني في العصر الحديث، وكأن الفكر الإسلامي من صنع التاريخ، وليس له بنية فلسفية مستقلة، تتخلل كل العلوم. هو كحلقة في تاريخ الفكر الإنساني. تأثر بما قبله، اليونان وفارس خاصة، دون الرومان والهند. والمؤلف هندي، وفي حاجة إلى مؤثرات خارجية جديدة لتطويره من خلال الفلسفة الغربية الحديثة.

ويعترف إقبال بأن تتبع سلسلة المؤثرات أصبح منهجاً وتقليداً لدى المستشرقين. وهو ما ينطوي على قيمة تاريخية كبيرة دون الإقلال من أهمية العقل الإنساني، وإمكانية اكتشافه نفس الحقيقة في عصور ولدى شعوب مختلفة. المؤثر يعرقل ولا يعطي، ينبه ولا يخلق، يثير ولا يوجد من عدم.

وفي نفس الوقت ينقد إقبال المنهج التاريخي مع منهج الأثر والتأثر بأنه يقوم على مفهوم العلية. وهو مفهوم خاطئ يقوم على ربط ضروري بين أ و ب. قد يصح في العلم الطبيعي، ولكنه لا يصح في دراسة الظواهر الإنسانية التي تتطلب الظروف التي نشأت فيها الظاهرة[4].

(1) السابق، ص16/ 46/ 67 ـ 69/ 80/ 123 ـ 126/ 139.

(2) السابق، ص33/ 40.

(3) تطور الفكر الفلسفي، مقدمة المترجمين، ص7.

(4) السابق، ص81 ـ 82.

والكتاب مهدى إلى أستاذه توماس آرنولد اعترافاً بدوره في تكوين ثقافته الفلسفية على مدى عشر سنوات، وتقديراً لأحكامه المتسامحة معه[1].

ومن آثار الاستشراق التاريخ بالميلادي في تحقيب الفكر الإسلامي وفي حياة الفلاسفة. فقد ظهر الإسلام في القرن السادس وبدأت الآثار الإغريقية في القرن الثامن. ومسكويه وابن سينا في القرن الحادي عشر، مسكويه (ت 1030) وابن سينا (ت1037)[2]والأشعري (ولد عام 823)، والبيروني(ت 1084)، وابن الهيثم (ت1038)، ثورة سنباد (755 ـ 756)، وثورة استادسيس (766 ـ 768)، وثورة المقنع الخراساني (777 ـ 786)، وثورة بابك المزدكي (816 ـ 838). وظهور الشعوبية (عام 815)، والدولة الظاهرية (عام 820)، والدولة الصفارية (عام 868)، والدولة السامانية (عام 874)، وعاش المأمون والأمين في القرن التاسع[3]. وكذلك مؤسسو المذاهب الفقهية الإسلامية مثل أبو حنيفة (ت767)، مالك (ت795)، الشافعي (ت820)، ابن حنبل (ت855)، وأحياناً يذكر التاريخاني مثل سقوط الدولة الأموية (749م ـ 132هـ)[4]. وأحياناً يظهر التاريخ الهجري في تاريخ علم الكلام وظهور الاعتزال. واصل بن عطاء في القرن الثاني الهجري[5].

بالإضافة إلى المنهج التاريخي يستعمل إقبال منهج الأثر والتأثر. ففكرة الوحدة في التصوف الإسلامي إنما ترجع إلى فكرة الوحدة في الديانات الهندية القديمة مثل البوذية والأسرة الآرية وفي إيران في البهائية. وهو ما يصرح به إقبال من أن الغرض من هذا البحث هو مجرد إرساء أساس لتاريخ الميتافيزيقا الإيرانية، وتأجيل قضية الأصالة فيما بعد[6]. فزرادشت نبي الفرس كان موحداً من الناحية العقائدية، ثنوياً من الناحية الفلسفية كما لاحظ هوج[7]. ويأخذ معلوماته عن ماني من إردمان[8]، وعن الإسماعيلية من ماكدونالد، وعن الأشعري من سبيتا، وعن

(1) السابق، ص11.
(2) السابق، ص32 ـ 33/ 40/ 57 ـ 58.
(3) السابق، ص83.
(4) السابق، ص83.
(5) السابق، ص48.
(6) السابق، ص14 ـ 15.
(7) السابق، ص19.
(8) السابق، ص22/ 55/ 58/ 120/ 128.

الجيلي من ماثيو آرنولد، وعن مللا صدرا من دي جوبينو. ومن علماء تاريخ الحضارة والدين يعتمد إقبال على «قصة الخلق» لكلود[1]. والتصوف متأثر بالأفلاطونية المحدثة في الإلهيات والكونيات[2]. كما يعتمد على كتاب لويس «تاريخ الفلسفة» وهو من الكتب العامة لمعرفة علاقة العرب بأرسطو[3]. ويعتمد على كتب التاريخ المقارن للأديان والحضارات الذي ارتبط بالاستشراق[4]. ويحيل إلى بعض المستشرقين المنصفين مثل توماس آرنولد واعترافه بانتشار الإسلام سلماً في جنوب شرق آسيا وأفريقيا[5].

ومع ذلك للفلسفة العربية أصالتها في القول بخلود الروح إذا ما قورنت بأرسطو والأفلاطونية المحدثة على ما يقول هويناكد[6].

وهناك تيارات ومفكرون معادون للفلسفة اليونانية ناقدون لها مثل النظام والغزالي والرازي وأبي البركات والآمدي. كما نقد آخرون المنطق اليوناني مثل السيرافي والقاضي عبد الجبار وأبو المعالي وأبو القاسم وابن تيمية. وانضم إليهم بعض الصوفية كالسهروردي الذي حاول إثبات عجز العقل ودحض الفكر اليوناني في كتاب «رشف النصائح الإيمانية وكشف الفضائح اليونانية».

وفي نفس الوقت ينقد إقبال إردمان في ظنه أن روح البحث قد اضمحلت بين المسلمين بعد الفارابي وابن سينا، وأن الفلسفة قد أفلست، واستسلمت إلى الشك والتصوف دون أن يعرف النقد الإسلامي للفلسفة اليونانية الذي أفضى إلى المثالية الأشعرية[7].

وقد نشأ التصوف بفضل عدة عوامل سياسية وثقافية ودينية ومذهبية. أولاً، كانت الحقبة كلها تفتقر إلى الاستقرار السياسي. وظهرت الشعوبية التي تعاظمت مع

(1) السابق، ص92.

(2) السابق، ص93/ 95.

(3) السابق، ص129.

(4) وذلك مثل كتاب جيجر Geiger «حضارة الإيرانيين الشرقيين في العصور القديمة»، تطور، ص18.

(5) Thoughts and Reflections, p. 47.

(6) السابق، ص94.

(7) السابق، ص96.

الأسر الحاكمة الفارسية المستقلة مثل الدولة الظاهرية والدولة الصفارية والدولة السامانية[1]. ثم غزي الطابع السامي الدقيق للحياة لدي الزهاد المسلمين الأوائل تدريجيا. ونظرية وحدة الوجود ذات الصبغة الآرية مواكبة لحركة الاستقلال السياسي للفرس. ثانياً، ظهرت الاتجاهات الارتيابية التي بذرت الشك وضرورة تحكيم العقل مما دفع بعض الصوفية إلى التأكيد على وجود مصدر أعلى للمعرفة كما فعل القشيري في «الرسالة القشيرية». ثالثاً، تقوم المذاهب الإسلامية الفقهية كالحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة على التقوى دون العاطفة. رابعاً، شجع المأمون المناظرات بين المذاهب الإسلامية المختلفة خاصة بين الأشعرية والمعتزلة مما دفع الصوفية إلى الخروج من هذه المناقشات الفقهية إنقاذاً للروح. خامساً، ضعفت الحمية الدينية تدريجياً بسبب ميل العصر العباسي نحو العقلانية بالإضافة إلى نمو تيار البذخ والترف مما أدى إلى الضعف الأخلاقي ولامبالاة الطبقات الاجتماعية العليا بالدين. سادساً، وُجدت المسيحية كنموذج للتطبيق خاصة حياة الرهبان وأثرها على الزهاد الأوائل بالرغم من تنافي ذلك مع روح الإسلام.

وهي نفس أسباب النشأة للتصوف اليوناني ممثلاً في الأفلاطونية المحدثة من حيث عدم الاستقرار السياسي في اليونان، وغارة برابرة الخيام على أباطرة القصور. ويتحدث أفلوطين في إحدى رسائله إلى فلاكوس عن عدم الاستقرار السياسي، واللامبالاة الدينية في الإسكندرية مسقط رأسه، وكذلك سيادة نزعة الشك ومزجه عند انتيكوس بالرواقية، وظهور الشك عند سكتوس امبريقوس تحت تأثير الشك القديم لبيرهو مما أدى إلى اليأس الذي هدى أفلوطين إلى الحقيقة. وربما دفعت إلى التصوف الأخلاقي الرواقية الجافة الخالية من العواطف، وظهور النموذج المسيحي[2]. وقد استمرت النزعة الأفلاطونية المحدثة في الفكر الإيراني الحديث عند ملاّ صدرا وهي أحد مصادر البابية، ممتزجة ببعض العناصر الزرادشتية. كما استمرت عند ملاّ هادي[3].

ويؤصل إقبال التصوف في القرآن الكريم كما يفعل الصوفية أنصار نظرية

(1) السابق، ص82 ـ 85.

(2) السابق، ص85 ـ 86.

(3) السابق، ص128 ـ 129.

المصدر الإسلامي للتصوف سواء في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أو حياة الرسول والصحابة الأوائل[1]. فالحكمة المذكورة في القرآن، والإيمان بالغيب، والله نور السموات والأرض، والروح، والصدق والعدل والإحسان كل ذلك هو التصوف.

كما يستعمل إقبال منهج العرض، عرض المذهب مثل عرض مذهب مسكويه ومذهب ابن سينا[2]. وهو عرض مبتسر غير كامل نظراً لنقص المؤلفات التامة في ذلك الوقت. كما أنه عرض يحيل المذهب إلى أحد جوانبه، مسكويه نحو الكونيات، وابن سينا نحو النفسانيات[3]. وكذلك تم عرض النسق الاعتزالي والأشعري. ويفصّل إقبال النسق الصوفي في عدة مبادئ مثل: الحقيقة كإرادة واعية بالذات مستشهداً بشقيق البلخي وإبراهيم بن أدهم ورابعة، والحقيقة باعتبارها جمالاً كما هو الحال في الأفلاطونية المحدثة والزرادشتية والرومي والبسطامي والحلاج والنسفي، والحقيقة باعتبارها معرفة ونوراً وفكراً كما تعرض الفلسفة الصوفية، الأنطولوجيا، النور المجرد والنور العارض، والكوسمولوجيا، وعلم النفس لتحليل المعرفة والسلوك، والحقيقة باعتبارها فكراً عند الجيلي ونظرية الإنسان الكامل[4]. كما يعرض للمبادئ العامة للفكر الإيراني الحديث عند ملاّ صدرا وملاهادي والسبزواري والبابية (المرزا علي محمد الباب الشيرازي المولود عام 1820) والبهائية، وعند الفرقة الشيخية التي أسسها أحمد الإحسائي من تلاميذ ملا صدرا[5]. وحتى لا يكتفي إقبال بالعرض التاريخي كما يفعل الاستشراق فإنه ينهي القسم الأول بمراجعة وتعقيب يبين فيه أن فكرة الوحدة كانت سابقة على الإسلام، وكأن الإسلام استمرار لفكرة وجدت من قبل في فارس[6].

(1) السابق، ص87 ـ 89.

(2) السابق، ص34 ـ 45.

(3) السابق، ص49/ 60 ـ 62.

(4) السابق، ص90 ـ 122.

(5) السابق، ص134 ـ 137.

(6) السابق، ص25 ـ 26.

4 ـ الشعوبية الفارسية

تظهر الشعوبية في العنوان ذاته «تطور الميتافيزيقا في فارس»، وكأن فارس منطقة متميزة في الفكر الإسلامي عن الهند أو العرب. وهو ما تجنبه في عمله الثاني في أواخر حياته «تجديد التفكير الديني في الإسلام»[1]. وعلاقة الفلسفة اليونانية بالفكر الفارسي، وليس بالفكر الإسلامي ككل. والفرس جزء من الشعوب الآرية[2]. وكانوا موضع كراهية من الشعوب الآرية الأخرى. والغزالي له مساهمة في الفكر الفلسفي الإيراني في «مشكاة الأنوار»[3]. ونشأ اتجاه آخر يمكن تسميته «الوضعية الإيرانية» عند البيروني وابن الهيثم[4]. كما تظهر الشعوبية المعتادة في تسمية الفتح الإسلامي الفتح العربي[5]. وبشار بن برد متشكك إيراني أعمى. أضفى على النار طابعاً إلهياً. وأعرب عن نفوره من كل أنماط التفكير غير الإيرانية[6]. والنقشبندية متأثرة بالفيدانتا الهندية، تحقيقاً لمذهب كندالديني «الهندي». وكانت معروفة أيضاً لدى صوفية الفرس مما جعل فون كريمر يرجع التصوف إلى مصدر هندي[7]. و«أنا الحق» عند الحلاج مأخوذة من الروح «الحقيقة الفدانتا» الهندي في قوله «أم براهما أسمي»[8].

وتبلغ ذروة الشعوبية في عرض نظرية المصدر الفارسي للتصوف الإسلامي عند فون كريمر ودوزي. فقد شبهاه بالفيدانتا الهندية. كما عزاه ميركس ونيكلسون إلى الأفلاطونية المحدثة. واعتبره براون رد فعل آري ضد الديانة السامية الخاوية من العاطفة[9]. وفي إيران أدى التفاعل الحضاري لدى بعض العقول إلى الوصول إلى صياغة جديدة للإسلام على نفس النسق، والتمثل التدريجي للمسيحية

(1) السابق، ص15.
(2) السابق، ص17.
(3) السابق، ص65.
(4) السابق، ص66.
(5) السابق، ص15/ 31.
(6) السابق، ص84.
(7) السابق، ص89.
(8) السابق، ص91.
(9) السابق، ص82.

والغنوصية، وتأصيل ذلك في القرآن الكريم. ولم يستطع نقد ابن تيمية القضاء على النزعة الصوفية الإيرانية. وإذا كانت غزوات البرابرة قد أطاحت بالفكر اليوناني فإن غزوات التتار لم تؤثر في التصوف الفارسي[1].

وإذا كان الدين السامي مجموعة من القواعد الصارمة، والفيدانتا الهندية نظاماً فكرياً مجرداً فإن التصوف يغوص في النفس. يجمع بين الصيغتين السامية والآرية داخل مفهوم المحبة. ويتمثل حال الفناء من البوذية. ويضع نظاماً لما بعد الطبيعة لا يتعارض مع الإسلام، ويتأصل في القرآن. فضم التصوف السامي والآري وأعطاهما طابعاً فردياً خاصاً منبثقاً من الفطرة الإنسانية. وقاوم كل الاتجاهات المعادية له بتأسيس إنكار الذات والتأمل. ويعبر أحد عناصر التصوف «الحقيقة» باعتبارها معرفة: نوراً أو فكراً عن روح فارسية أصيلة ممتزجة بأساليب الفكر المسيحي. والقول بأن الحقيقة نور كما هو الحال في الإشراق الصوفي عود إلى الثنوية الفارسية.

كما أدت الأشعرية إلى تجديد حقيقي للروح الفارسية لأن إقامة نظام فلسفي هو إيراني تماماً. وظل يؤكد على ممارسة الفكر الحر المستقل غير هياب بتهديدات السلطة وضيق أفقها. وسعي الموروث الفارسي القديم الذي وجد لنفسه تعبيراً جزئياً في كتابات الرازي الطبيب والغزالي والمذهب الإسماعيلي إلى التصالح بينه وبين الكلام الإسلامي. وقد تلقى السهرودي المقتول الفكر الفلسفي بشجاعة[2].

كان على الفكر الفارسي أن يقاوم نوعين من الثنوية، المجوسية قبل الإسلام والإغريقية بعد الإسلام. كانت نظرة الفرس قبل الإسلام موضوعية مادية إلا أن مبدأ الكون فعال ومؤثر. استطاع الفكر الإيراني بواسطة المثالية الأشعرية الثنوية الدخيلة الجمع بين الإله والمادة. ثم عاد إلى الثنوية الإيرانية القديمة بين النور والظلمة. فالسهروردي يجمع بين العقلية الواقعية للمفكرين الفرس قبل الإسلام والعقلانية اللاحقة ليقرر ثنوية زرادشت في صورة أكثر روحانية، جمعاً بين الموضوع والذات. والبابية لازالت تسيطر على الفكر الإيراني الحديث بطابعها

(1) السابق، ص86 ـ 87.

(2) السابق، ص95 ـ 97.

الصوفي ونزوعها العملي دون اهتمام بالوطن[1].

يتنقل الخيال الإيراني من زهرة إلى زهرة دون استعراض البستان كله في نظرة شاملة. لذلك اتجه إلى شعر الغزل في أبيات متفرقة على عكس الهندي. فعلى الرغم من تسليمه بوجود مصدر أعلى للمعرفة فإنه ينتقل في هدوء من تجربة إلى تجربة للكشف عن وحدتها الباطنة[2]. والإيراني قليل الوعي بالميتافيزيقا كنظام فكري في حين أن البرهمي على وعي تام بضرورة عرض نظريته في مذهب متكامل. هناك إذن اختلاف في العقليتين، الإيرانية والبرهمانية، غياب الأبنية الفكرية المكتملة في الأولى، وحضورها في الثانية مثل الفيدانتا. وتنمو العقلية الإيرانية غريزياً نحو التوحيد الصوفي[3].

والتركيز على إيران أو التخصيص بها هو اجتزاء للفلسفة الإسلامية طبقاً لبلدانه وشعوبه. فابن سينا الفيلسوف الإسلامي لا ينتمي إلى إيران. فقد أسلمت فارس وأصبحت جزءاً من الأمة الإسلامية. وجميع الفلاسفة المسلمين ينتسبون إلى مجموع الأمة. ليس الكندي عربياً، والفارابي تركياً، وابن سينا إيرانياً، وابن رشد أندلسياً وإلا وقعنا في النظرة الشعوبية التي وقع فيها المستشرقون من قبل. كل من تعرب فهو عربي. فالعروبة ليست بأب أو أم إنما العروبة هي اللسان[4]. بل إنه يتحدث عن خصائص الشعوب الثابتة. فأبرز السمات المميزة للشعب الإيراني النظر الميتافيزيقي. والعقل الإيراني قلما يصبر على التفاصيل. يفتقد الملكة التنظيمية التي تضع تدريجياً بناءً متكاملاً للأفكار عن طريق إيضاح الأصول الأساسية من خلال الحقائق والتفاصيل القائمة على الملاحظات الفردية[5].ومن خصائص التفكير الإيراني ارتباط الفلسفة بالدين[6].

ويتحدث عن العقلية الفارسية التي تواءمت مع الظروف السياسية الجديدة

(1) السابق، ص141 ـ 143.
(2) السابق، ص14.
(3) السابق، ص85.
(4) السابق، ص7.
(5) السابق، ص13.
(6) السابق، ص14 ـ 15.

لتفرض حريتها الذاتية من جديد، وتتراجع عن حقل الموضوعية، وتتجه نحو الذاتية لتعكف على ما أنجزته. وقد واكبت العقلانية عصور التشكك والتصوف وألوان البدع والهرطقة، ورفض كل معايير الفكر الخارجي. تم ذلك في بداية الحكم الأموي، واستمر في العصر العباسي[1]. واصل بن عطاء فارسي الأصل. وقد شغل الاعتزال طائفة من ذوي العقول البارعة من الإيرانيين[2]. والمذهب الإسماعيلي حركة فارسية لتحقيق مصالحة مع الفكر المتحرر بدلاً من معاداته أو تجاهله مثل إخوان الصفا. هو حركة من سلسلة المعارك المتصلة التي شنها الفارسي المستقل الفكر ضد القيم الدينية والسياسة الإسلامية. واستهوت العقلية الفارسية بطابعها السري. واعتبره ماكدونالد مؤامرة لاستئصال العرب من إيران[3].

ويسمي إقبال فلاسفة الإسلام مثل مسكويه وابن سينا «المشاءون الفرس المتأثرون بالأفلاطونية المحدثة»[4]. وتستمر الشعوبية في الظهور في عبارات مثل «الفتح العربي لفارس وبداية مرحلة جديدة في تاريخ الفكر الإيراني». وقد أنهى أبناء الجزيرة المحاربون الذين اجتازوا رمالها الشاسعة وجاءوا إلى نهاوند فأنهوا بأسيافهم الاستقلال السياسي لهذا الشعب العريق. وترك الفرس طائعين الزرادشتية. وآمنوا بالدين الجديد بحرية تامة. وحققت الثورة السياسية للفتح العربي تفاعلاً بين الساميين والآريين. فإن ترك الآري مظاهر حياته التي تنطبع بالسامية إلى حد كبير إلا أنه قرأ الإسلام قراءة آرية كما قرأ العقل اليوناني المسيحية، وهي دين سامي، في تجربة مشابهة. وحول الآري صرامة الدين السامي الجديد والقانون المطلق إلى دين داخلي ينبع من الذات مع شيوع الفكر اليوناني في فارس مما عوق إمكانية إنشاء فكر محلي خالص. ومع ذلك حدث تحول من الفلسفة الإيرانية الموضوعية إلى الفلسفة الذاتية[5].

ويصنف إقبال الفلاسفة المسلمين طبقاً لأعراقهم. فمسكويه وابن سينا

(1) تطور، ص47 ـ 48.
(2) السابق، ص48.
(3) السابق، ص54 ـ 55.
(4) السابق، ص31 ـ 45.
(5) السابق، ص31 ـ 32.

فارسيان. والفارابي تركي. ولا يذكر الكندي العربي. ولا يذكر باقي فلاسفة المسلمين مثل ابن باجه وابن طفيل[1].

وقد ساعد الفكر الوافد ويعني به إقبال الإسلام الفكر الفارسي على بلورة التوحيد بحيث يصبح أكثر روحانية. وأخذت الثنوية الفارسية القديمة معنى روحياً جديداً كما فعل الفكر اليوناني من قبل. فقد تأثر المفكرون الفرس بالأفلاطونية المحدثة[2]. وبدأ علم الكلام بالمرحلة السورية في حران وهي المرحلة اليونانية ثم بالمرحلة الفارسية التي بدأ فيها المسلمون يفكرون في دينهم. فنشأ علم الكلام الإسلامي[3].

إن أكبر حدث في تاريخ الإسلام هو «فتح فارس» فلم تعط معركة نهاوند العرب فقط بلداً جميلاً بل أيضاً حضارة قديمة، جمعت بين الحضارتين الآرية والسامية. والحضارة الإسلامية هي هذا التخصيب المتبادل بين الأفكار الآرية والأفكار السامية. هي كالطفل الذي ورث نعومة ورقة الأم الآرية وقوة شخصية الأب السامي. ولو لم يتم فتح فارس لأصبحت الحضارة الإسلامية ذات بعد واحد. لقد أعطى فتح فارس للإسلام ما أعطاه غزو اليونان للرومان[4].

والقول بالخصائص الثابتة للشعوب والشخصيات القومية قد يصل إلى حد النزعة العرقية. ومع ذلك، يستعمل إقبال لفظ الإسلام في عنواني قسمي الكتاب «الفلسفة الإيرانية قبل الإسلام»، «الفكر الفلسفي بعد الإسلام». فالإسلام وليس العرب هو الحد الفاصل في التاريخ[5].

5 ـ مراحل الفكر الفلسفي

الفكر الإسلامي حلقات متصلة من إيران إلى اليونان إلى العرب إلى الغرب الوسيط والحديث. فزرادشت نبي إيران مثل أفلاطون. ترتبط الميتافيزيقا لديه

(1) السابق، ص33.
(2) السابق، ص32.
(3) السابق، ص48.
(4) St. Ref., pp. 49 - 50.
(5) تطور الفكر الفلسفي في إيران، ص17/ 31.

بالأخلاق[1]. ولم تكن الحضارة اليونانية وحدها حضارة حرية الفكر. فكثيراً ما وقع فيها اضطهاد المفكرين الأحرار مثل سقراط وأفلاطون. وقد لجأ ديوجين وسيميليوس وآخرون من فلاسفة الأفلاطونية المحدثة إلى بلاط كسرى أنوشروان المتسامح، هرباً من اضطهاد جستنيان[2]. ويعترف إقبال أن معلوماته عن الفلسفة الشرقية من المراجع الثانوية، وليست من المصادر الرئيسية. فلم يقرأ «الزندا» المصدر الرئيسي لزرادشت[3].

لم تكن الفلسفة اليونانية ذاتها ببعيدة عن الدين، لا الأرسطية ولا الأفلاطونية المحدثة، على غير ما يظن إقبال[4]. ومن ثم لا فضل خاص للفلسفة الفارسية على الفلسفة اليونانية. ويرى إقبال أنه بعد الفتح الإسلامي الذي يسميه الفتح العربي، ظهرت فلسفة خالصة منفصلة من الدين على يد الأرسطيين المسلمين ذوي النزعة الأفلاطونية المحدثة. وهو غير صحيح. فلم تكن هناك فلسفة خالصة منفصلة عن الدين في الفلسفة الإسلامية القديمة.

والثنائية اليونانية العقلية الشهيرة، الجوهر والعرض، الكيف والكم، الزمان والمكان، الواحد والكثير.. .إلخ والتي استعملها الفلاسفة المسلمون للتعبير عن ثنائية الله والعالم، القديم والحادث.. .إلخ ليست ثنوية فارسية: النور والظلمة، الخير والشر، الإله والشيطان، الروح والمادة.

وقد انتقلت الفلسفة اليونانية في آخر صورها وهي الأفلاطونية المحدثة إلى الإسلام من خلال سوريا وحران ظناً أنها هي الفلسفة المشائية المتبقية لأرسطو من خلال نسبة ترجمة موجزة لتاسوعات أفلوطين له على أنها «ميثولوجيا أرسطو» قبل التمييز بينهما، ودون فهم دقيق لكل من أرسطو وأفلاطون. وهناك نصوص «سخيفة» نقلها مترجمون غير أكفاء. وربما يقصد بها إقبال المنتحلات[5].

ويصدر إقبال على الفلاسفة المسلمين أحكاماً عامة تنقصها الدقة. فابن سينا

(1) تطور الفكر الفلسفي في إيران، ص21.

(2) السابق، ص26.

(3) السابق، ص15.

(4) السابق، ص15.

(5) السابق، ص32 ـ 33.

أكثر دقة وأصالة من الفارابي ومسكويه. وابن رشد الأندلسي بالرغم من قربه من أرسطو إلا أنه لم يتمكن من الفهم الدقيق لفلسفته على عكس الحكم الشائع بأنه «الشارح الأعظم». وشروحهم محاولة للاكتشاف أكثر منها عروضاً أو تفاسير. ولم تترك لهم الظروف الوقت الكافي للعمل على بناء أنساق فكرية مستقلة بذاتها تدل على عقل حاذق حُبس وسط ركام من الغثاء المعوق[1].

ثم ظهر المذهب العقلي وانهار، وكأن العرب لم يستطيعوا الاستمرار في العقلانية إلى ما لا نهاية[2]. كان العقلانيون من الناحية الفلسفية ماديين، ومن الناحية الدينية (اللاهوتية) مؤلهة[3]. كانوا ماديين، فالعقل والمادة قرينان. ثم حدث رد فعل على المذهب العقلاني المادي في اتجاهين معاكسين: الشك أو اللاأدرية من ناحية مثل الجاحظ وثمامة بن الأشرس، والتصوف من ناحية أخرى. وكان مذهب التعليم الإسماعيلي أيضاً رد فعل على العقلانية المادية، ومصالحة مع الفكر المتحرر بدلاً من معاداته أو تجاهله[4]. واقترب البلخي من نظرية المعرفة الأشعرية التي سددت ضربة قاسية إلى النظرية المادية للعقلانيين[5]. كانت الأشعرية رد فعل كبير ضد العقلانية. وهو رد فعل محافظ[6]. والتصوف نتاج طبيعي للأحداث والظروف التي أنشأته[7]. وكان أكبر رد فعل على العقلانية المادية ويفرد له إقبال الفصل الخامس كله[8].

وطبقاً لأسماء الأعلام المذكورة يغلب التراث القديم على التراثين الشرقي واليوناني الغربي. ففي التراث القديم يتقدم الأشاعرة ثم المعتزلة كأهم فرقتين كلاميتين. الأولى روحية مثالية، والثانية عقلانية مادية. ثم يأتي الجيلي والإنسان الكامل الذي يتوحد فيه الشرق والغرب، إيران والإسلام. ثم تظهر الإسماعيلية كرد

(1) السابق، ص33.
(2) السابق، الفصل الثالث: ظهور المذهب العقلي في الإسلام وانهياره، تطور ص47 ـ 69.
(3) السابق، ص51.
(4) السابق، ص54.
(5) السابق، ص52.
(6) السابق، ص58 ـ 66.
(7) السابق، ص15.
(8) السابق، ص81 ـ 122.

فعل على العقلانية. ثم يأتي مسكويه وابن سينا مفكرين فارسيين ثم الغزالي ممثلاً رد الفعل الصوفي، ثم ملا صدرا من المتأخرين. ويخصص إقبال للبهائية والبابية مساحة كبيرة في الفكر الإيراني الحديث مبدياً تعاطفاً معهما لنزعتهما الصوفية. ثم تتفاوت أسماء الأعلام فيما بعد بالعشرات مما يدل على سعة إطلاع إقبال على التراث الإسلامي القديم[1]. كما تذكر عدة مؤلفات قديمة[2]. ولم تُذكر الآيات القرآنية إلا مرات قليلة[3].

ومن التراث الفارسي القديم يتقدم زرادشت والزرادشتية ثم ماني والمانوية، ثم مزدك والمزدكية، ثم بوذا والبوذية. ومن الملوك يذكر كسرى أنوشروان الذي أعجب به المسلمون لعدله[4].

6 ـ الفلسفة الغربية كوسيلة للتحديث

ويخلل تحليل القدماء بعض وجهات نظر تحديثية ليست بقدر العمل الثاني الموجه إلى هذا الغرض وهو «تجديد التفكير الديني في الإسلام». وإقبال على

(1) القرآن (9) الاشاعرة، الأشعرية، الأشعري (49)، الاعتزال، المعتزلة، الجيلي (17)، الإسماعيلية (16)، مسكويه، ابن سينا (13)، الغزالي (9)، ملاّصدرا (7)، البهائية، البابية، الباب (6)، الفارابي، فخر الدين الرازي، السهروردي، النظام، الرومي، الكاتبي (5)، ابن المبارك، وحيد الدين محمود (4)، الشهرستاني، الماتريدية، ابن تيمية، النسفي، الرشتي (3)، إخوان الصفا، الرازي الطبيب، الجاحظ، ابن حزم، بشر بن المعتمر، القاضي عياض، الحسيني، القشيري، ابن عربي، الجيلاني، السبزواري، أحمد الاحسائي، صلاح الدين، معمر بن عباد (2)، ابن رشد، السرخسي، أبو المعين الاصفهاني، المعصومي، واصل بن عطاء، أبو هاشم، أبو الهذيل، محمد ابن عثمان، أبو القاسم، ثمامة بن الأشرس، يوسف البصري، المقنع الخراساني، بشار بن برد، أبو حنيفة، مالك، الشافعي، النقشبندية، الشبلي، ابن الجوزي، البيروني، ابن الهيثم، النجاري، شقيق البلخي، إبراهيم بن أدهم، رابعة، الكرمي، البسطامي، الحلاج، حافظ الشيرازي، أبو البركات، الآمدي، السيرافي، القاضي عبد الجبار، أبو المعالي، أبو القاسم، مجد الدين الجيلي، الاصفهاني، ملآهادي، الجبائي، الباقلاني، العطار، البصري، سيمون القداح...إلخ.

(2) مثل «الفوز الأصغر» لمسكويه، «حكمة المشرقيين» لابن سينا، «المضنون به على غير أهله» و«مشكاة الأنوار» للغزالي، «حكمة العين» للكاتبي.

(3) القرآن (9).

(4) زرادشت، الزرادشتية، الزرادشتيون (22)، ماني، المانوية (20)، مزدك، المزدكية (6)، بوذا، بوذيون (6). كسرى أنوشروان، كابيلا (3). ميتهارا، كنداليني، سنباد، استادسيس(1).

وعي بذلك بأنه يعبر عن تطور الفكر الإيراني بلغة الفلسفة الحديثة. وهي أول محاولة فيما يعلم، وكما استخدم القدماء الألفاظ والمصطلحات اليونانية كذلك يستخدم المحدثون الألفاظ والمصطلحات الغربية. وقد توصل الجيلاني في «الإنسان الكامل» إلى نفس ما انتهى إليه كانط[1].

والفكر الغربي الحديث نفسه يمتد إلى الفكر الشرقي القديم. ومن ثم يكون استعماله من جديد للتعبير عن الفكر القديم بمثابة «هذه بضاعتنا ردت إلينا». فقد أثر الفكر الثنوي عند زرادشت على الفلسفة الإغريقية القديمة وعلى الفكر الغنوصي المسيحي المبكر ثم على بعض جوانب الفكر الغربي الحديث[2].

ومن التراث الغربي الحديث يأتي في المقدمة هيجل الذي عبر أصدق تعبير عن التصوف الإسلامي، ثم كانط لعقلانيته ومبدئه الخلقي، ثم شوبنهور وشيلرماخر وبركلي لفلسفتهم الذاتية الإنسانية، ثم فشته وجاكوبي لتصوفهما، واسبينوزا وليبنتز لفلسفتهما في الوحدة. ثم يشار إلى بعض الرومانسيين مثل شليجل وسولجر ووردزورث، وبعض العقلانيين والمثاليين مثل هاملتون[3].

ومن التراث اليوناني القديم يتقدم أرسطو والأرسطية والأرسطيون المسلمون بطبيعة الحال، ثم الأفلاطونية المحدثة، وأفلاطون موضوع الدراسة الرئيسي ثم أفلوطين، ثم المشاءون الفرس. ويذكر كتاب «التاسوعات». كما تذكر الرواقية. ولأرسطو احترام كبير لأن أثره كبير على المسلمين وجحوده لأفلاطون يمنع من الإعجاب الكامل به. صحيح أن نقده لأستاذه وارد، ولكن العيب في طريقة نقده. مع أن المسلمين أعجبوا بعبارة أرسطو «أحب أفلاطون ولكن حبي للحق أعظم». والدهشة عند أفلاطون أم العلوم. وينظر الشاعر بديل (ميرزا عبد القادر) إليها من وجهة نظر أخرى. قيمة الدهشة عند أفلاطون هو أنها تعود إلى سؤال الطبيعة. وعند بديل قيمتها في ذاتها بصرف النظر عن نتائجها الذهنية. وهو تعبير جيد عن

(1) السابق، ص7/ 15.

(2) تطور، ص19 ـ 20.

(3) هيجل، هيجلي، (9). كانط (5). شوبنهور، شليرماخر، بركلي (4). فشته، جاكوبي، اسبينوزا، ليبنتز، نقد العقل الخالص (2)، كومت، ديمستر، شليجل، ديكارت، هيوم، بورجر، سولجر، هاملتون، هربارت وردزورث. . .إلخ(1).

الفكرة[1]، وسكتوس امبريقوس[2]. ويحال إلى عديد من المستشرقين وعلماء تاريخ الأديان والحضارات المقارن[3].

وتتسم الدراسات الإسلامية لإقبال بنقلها من مستوى الحضارة اليونانية القديمة أفلاطون وأرسطو إلى الحضارة الغربية الحديثة عند ديكارت واسبينوزا وكانط وهيجل ونيتشه وبرجسون. وواضح أن كانط هو الأكثر جذباً مع الإحالة إلى «نقد العقل الخالص». فكانط هو نموذج الفيلسوف صاحب المذهب[4]. كما يبدو كانط في موقفه من الميتافيزيقا وارتباطها بالعلم في «نقد العقل الخالص» أنه دفع بعض الفلاسفة مثل جاكوبي وشيلرماخر إلى تأسيس الإيمان كحقيقة مثالية، وكذلك بالنسبة للشاعر الشاك وردزورث في حديثه عن الحالة الخفية للذهن التي تحيلنا كلية إلى الروح، وتجعلنا نعي حياة الأشياء[5]. وهو نموذج الفيلسوف صاحب المذهب الذي لم يصل إليه الشعب الإيراني بالرغم من نظراته الميتافيزيقية[6]. ويسلم الجيلي في «الإنسان الكامل» بالنتائج التي توصل إليها كانط فيما بعد في كتابه «نقد العقل الخالص» إلا أن الجيلي يجعل هذا الخيال نفسه جوهر الكون. فالشيئ في ذاته الذي قال به كانط هو عند الجيلي عدم محض. لا شيئ وراء الأعراض. الأعراض هي الحقيقة[7].

وفكرة الوحدة في التصوف الإسلامي ترجع إلى نفس الفكرة لدى الشعوب

(1) St. Ref., p. 83.

(2) أرسطو، الأرسطية، الأرسطيين المسلمين (25). الأفلاطونية المحدثة (19). أفلاطون (13). أفلوطين (4). ثيولوجيا أرسطو (3)، الرواقية (2). المشاءون الفرس سكتوس امبريقوس، انتيكوس، جستنيان، ديوجين (1). التاسوعات (1).

(3) من المستشرقين هوج (3). فون كريمر، سبيتا (2)، ماكدونالد، آرنولد، دوزي، براون، نيكلسون، دي جوبينو...(1). ومن علماء تاريخ الأديان والحضارة المقارن جيجر، إردمان، لويس، كلود (قصة الخلق)، هويتكر..(1).

(4) كانط (5)، نقد العقل الخالص (2)، هيجل (4)، هيجلي (1)، شوبنهور، شيلر ماخر، بركلي (3)، جاكوبي، ليبنتز، فشته (2)، جاكوبي، كونت، شليجل، ديكارت، هيوم، بورجر، سولجر، هاملتون، ودزدورث، هربارت، اسبينوزا، بوزانكيه(1).

(5) تطور الفكر الفلسفي، ص13.

(6) السابق، ص13/ 74.

(7) السابق، ص114.

الآرية الكبرى في الهند وإيران بل وفي الغرب عند شوبنهور وهيجل[1]. والنسق الكوني المانوي مشابه لمبدأ الخلاص المسيحي. وهو نفس النسق الكوني الهيجلي القائم على الثالوث المقدس[2]. ويستعمل إقبال إطلاق هيجل اسم «الرومي الكامل» على الرومي[3]. وفي وصف الجيلي في «الإنسان الكامل» لمراحل الوجود: الأحدية، الهوية، الإنية، أن الإنية ليست سوى مظهر خارجي للهوية. وهي بتعبير هيجل، انفصال ذاتي الباري. وتقود نظريته إلى أخص خصائص فكر هيجل، وهو تطابق الفكر والوجود. وهو ما يسميه الجيلي تطابق العرض والحقيقة[4]. والخطوة الثالثة وهي سفر الوجود عند هيجل تسمي الرحمانية عند الجيلي. وهي ارتقاء الكون من ذاته، وتجليها في كل ذرة نتيجة لانفصالها. ويعتمد هيجل على ذلك لتبرئة نفسه من وحدة الوجود[5]. ويصبح الإنسان كاملاً عند الإيجي إذا ما دمج نفسه مع الوجود المطلق أو بما سماه هيجل الفلسفة المطلقة[6]. والمبدأ الحي للوجود يتجلى في الكون الخارجي بأن يوجد في داخله وحدات أو مراكز واعية يعتبرها ماكتاجرت تشكيلاً جديداً لفكرة المطلق عند هيجل[7].

ويبدو أن زرادشت أدرك ما أدركه الصوفي الألماني بوقت طويل من أن التنوع والاختلاف في الطبيعة لا يمكن تفسيرهما بدون افتراض أصل لهما في طبيعة الإله نفسها[8].

وحقيقة الذات الإلهية عند الصوفية المسلمين مثل الغزالي مثلاً تشبه نفس الموقف عند بعض الرومانسيين الألمان مثل بورجر وسولجر في ألمانيا[9]. وكما أدت الوحدة والتصوف إلى رد فعل توحيدي عند ابن تيمية ورد فعل تكثيري عند

(1) السابق، ص14.
(2) السابق، ص23.
(3) السابق، ص92.
(4) السابق، ص112 ـ 114.
(5) السابق، ص117.
(6) السابق، ص119.
(7) السابق، ص136.
(8) السابق، ص20.
(9) السابق، ص63.

وحيد الدين محمود، ورد فعل لاإرادي عند عمر الخيام كذلك أدت الوحدة الألمانية إلى رد فعل تكثيري عند هربارت كما أدت وحدة الوجود عند اسبينوزا إلى الفردية عند ليبنتز، وكما أنكر وحيد محمود حقيقة الواحدية وأثبت التعددية[1]. وقال قبل ليبنتز بأن الكون متألف من أفراد أي وحدات أساسية وذرات بسيطة أزلية أودعت فيها الحياة. ويتنبأ السهروردي بنظرية ليبنتز الخاصة باتحاد الآحاد غير القابلة للتميز، إذ لا توجد نفسان متماثلتان تماما[2].

وقد انتهى شوبنهور إلى ما انتهى إليه ماني من قبل وهو الدعوة إلى الزهد وإنكار الذات كمبدأ للحياة[3]. ويتشابه موقف بهاء الله مع موقف شوبنهور في تمثل الحقيقة في الإرادة وتحقيق ذاتها موضوعياً بدافع آثم كامن فيها. الحب والإرادة كامنان في كل ذرة من ذرات الحياة. والمتعة في تحقيق الذات مع ميول ورغبات شريرة لا يمكن تفسيرها. ويفترض شوبنهور عدة أفكار لتبرير هذا التحقق الخارجي لتلك الإرادة الأولى، في حين لا يقدم بهاء الله أي تفسير للمبدأ الذي يقوم عليه تصوره لتجلي الحب الخالد وتحققه في الكون[4].

ويقترب السهروردي من بوزانكيت في تسمية التعريف «جمع الكيفيات». إذ يرى أن التعريف الحقيقي يشمل كل الصفات اللازمة. وهي لا توجد إلا في الشيئ المعرف رغم أنها قد تكون موجودة على انفراد في أشياء أخرى[5].

وحدث في الفكر الأوربي نفس الشيئ عند فشته في القرن الثامن عشر بشكه في حقيقة المادة. ثم وجد الحل في النهاية في وحدة الوجود. كما تشبث شليرماخر بالإيمان كنقيض للعقل. واتجه كاكوبي إلى مصدر آخر للمعرفة أعلى من العقل. في حين عارض أوجست كومت كافة الأنظار الميتافيزيقية. وجعل المعرفة قاصرة على الإدراك الحسي. ووجد دي ماستر وشليجل الحل في القول بسلطة البابا المعصوم.

---

(1) السابق، ص94 ـ 95.

(2) السابق، ص109.

(3) السابق، ص24.

(4) السابق، ص136 ـ 137.

(5) السابق، ص98.

وهي نفس طريقة الإسماعيلية في التفكير وإيمانهم بسلطة الإمام المعصوم بالرغم من سماحهم بكافة اتجاهات الفكر الحر[1].

وفي العصر الحديث، قادت النتائج السلبية لكتاب «نقد العقل الخالص» لكانط وكذلك جاكوبي وشليرماخر إلى تأسيس الإيمان على الإحساس بالحقيقة المثالية. وقد تكشفت كحالة خفية للذهن عند الشاعر وردزورث[2].

وتصور الجيلي لله في «الإنسان الكامل» قريب من تصور شليرماخر. إذ يحول الفيلسوف الألماني كل الصفات الإلهية إلى صفة وحيدة هي القدرة. يرى الجيلي أنه من الخطر تصور الله مجرداً عن الصفات. إلا أنه يتفق مع شليرماخر في أن الله في ذاته وحدة غير قابلة للتغير، وأن صفاته ليست إلا محض أفكار عنه طبقاً لوجهات نظر بشرية مختلفة[3].

وما عبر عنه الأشاعرة دفاعاً عن نظرية الخلق بحيث صار العالم مجرد عرض لمجموعة من الخبرات الذاتية لا تفرقها حقيقة إلا الإرادة الإلهية هو موقف بركلي[4]. فقد فسر بركلي نسبية الإدراكات البصرية للبرهنة على أن الله هو الأساس النهائي للأفكار كما فعل فيلسوف الإشراق[5]. ويتفق بركلي وفشته مع الجيلي في «الإنسان الكامل» في تطابق الفكر والوجود[6].

وقد سبق الغزالي ديكارت في الموقف الشكي، وكذلك هيوم بسبعمائة عام في الشك في السببية[7].

ومزدك أبو الشيوعية والاشتراكية ظهر في عصر الملك العادل كسرى أنوشروان كرد فعل ثنوي مضاد للمجوسية السائدة. كل البشر متساوون، والملكية الفردية أساس الشقاء[8].

---

(1) السابق، ص54.
(2) السابق، ص84.
(3) السابق، ص115 ـ 116.
(4) السابق، ص61.
(5) السابق، ص107.
(6) ص113.
(7) السابق، ص12.
(8) الاسبق، ص24 ـ 25.

ويستعمل إقبال أسماء المذاهب الفلسفية الغربية مثل العقلانية والمادية، والمثالية والواقعية لقراءة تاريخ الفكر الإسلامي خاصة علم الكلام. ويعرض المذهب العقلاني المادي، ويعني الاعتزال[1]. ويؤرخ للصراع بين الأشعرية والأرسطية على أنه صراع بين المثالية والواقعية[2]. وهو الصراع بين المتكلمين والفلاسفة بوجه عام. ويمثل الفلاسفة نجم الدين الكاتبي في كتابه «حكمة العين»[3]. ويمثل المتكلمون محمد بن المبارك النجاري ومحمد هاشم الحسين. وقد سبق الحسيني إلى ما قاله هاملتون ضد الواقعيين بأن الجوهر أو الكنه كموضوع المعرفة والذي يقال أنه لا يمكن إدراكه معلوم بصفة أولية بديهية[4]. كما يستعمل المباحث الغربية مثل الانطولوجيا والكوسمولوجيا ليصب فيها مباحث الفلسفة الإلهية في التصوف النظري[5].

وأحياناً يقارن إقبال بين التاريخ الإسلامي والتاريخ الأوربي. فما شرعه ميمون القداح من جواز اغتيال المخالفين على عادة الساميين جوز بابا روما مذبحة سانت بالتلميو في القرن السادس عشر[6]. وتشبه ثورات المرتدين الإيرانيين مثل سنباد واستادسيس والمقنع الخراساني استخداماً للدين من أجل السياسة ثورات اللامانيين أنصاري دي لامنيه[7].

(1) السابق، ص47.
(2) السابق...: الفصل الرابع، النزاع بين المثالية والواقعية، ص71 ـ 79.
(3) السابق، ص71.
(4) السابق، ص73 ـ 74.
(5) السابق، ص98 ـ 105.
(6) السابق، ص55 ـ 56.
(7) السابق، ص83.

الفصل الثاني

تجديد التفكير الديني

1 - «تجديد التفكير الديني في الإسلام»

وعلى عكس «تطور الفكر الفلسفي في إيران» وتأسيسه على الشعوبية والاستشراق في أول حياة إقبال فإن «تجديد التفكير الديني في الإسلام» بيان إصلاح إسلامي لإعادة بناء الفكر الإسلامي من الداخل في أواخر حياته. وهو الأكثر ذكراً وشهرة[1]. بينما العمل الأول رسالته للدكتوراه من جامعة منشن إلا أن العمل الثاني مجموعة من المحاضرات ألقيت في مدراس وحيدر أباد وعليكرة قبل أن يتوفى بعامين. تدل على نضج فلسفي. وتجمع بين التجربة الشعرية والتجربة الفلسفية. الهدف منها بناء الفلسفة الدينية الإسلامية بناءً جديداً جمعاً بين الموروث القديم والوافد الجديد، بناء على تطور المعارف الإنسانية حتى اللحظة الراهنة[2]. والوافد الجديد هو العلم. وقد استطاعت الطبيعيات القديمة نقد أسسها التي قامت عليها. فسرعان ما انتهت المادية. وليس غريباً أن يظهر الآن الاتفاق بين الدين والعلم.

ولفظ تجديد ترجمة معنوية للفظ Reconstruction الذي يعني حرفياً «إعادة بناء». ويتكون من مقدمة دون خاتمة وستة أقسام مثل العمل الأول: الأول

(1) محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، راجع مقدمته والفصل الأول منه المرحوم عبد العزيز المراغي. وراجع بقية الكتاب الدكتور مهدي علام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1952، ط2، 1968.

(2) السابق، ص2.

«المعرفة والرياضة الدينية» عن التصوف. والثاني «البرهان الفلسفي على ظهور التجربة الدينية» عن الفلسفة. والثالث «الألوهية ومعنى الصلاة» عن الكلام الإشراقي. والرابع «روح الثقافة الإسلامية» عن العلم والتجربة والواقع. والخامس «مبدأ الحركة في بناء الإسلام» عن علم أصول الفقه. والسادس «هل الدين أمر ممكن؟» رد على الوضعية الغربية. ويشبه سؤال القسم الثالث من «رسالة التوحيد» لمحمد عبده «الوحي ممكن الوقوع». وأكبرها الثالث «الألوهية والصلاة»[1]. ومع ذلك، الكتاب أقرب إلى الفلسفة الخالصة، وعلاقة التجربة الدينية بالفكر الفلسفي أو علاقة الدين بالفلسفة، والدين بالعلم، والدين بالتقدم عبر الاجتهاد، وليس دراسة للتراث القديم أو الغربي أو الواقع المعاصر.

أ ـ خصائص الفكر الإسلامي

يعنى القرآن بالعمل أكثر مما يعنى بالنظر. ومع ذلك نظراً لضعف إقبال أمام التصوف فإنه يجعل الرياضة الباطنية الهدف الأسمى للدين[2]. لذلك أثبت الصوفية الكوجيتو العملي «أنا أقدر» وليس الكوجيتو النظري «أنا أفكر»[3]. ولقد تعود الجيل الجديد التفكير الواقعي وهو ما حث الإسلام عليه في المراحل الأولى من تاريخه الثقافي مما دفع الجيل الجديد إلى التشكك في قيمة الرياضة النفسية لأنها عرضة للخداع. مثال ذلك تفسير آية ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾. فهي تشير إلى الأصل النفسي أكثر من الأصل الجسمي. وهي تجربة واقعية يشعر بها كل إنسان[4]. أسس التصوف في الماضي تجربته على الرياضة الدينية ثم انغلق على نفسه في العصور الأخيرة. ولم يستعن بنتائج الفكر الحديث والتجربة العصرية بالرغم من اختلاف الرؤى الثقافية بين الماضي والحاضر. تحتاج المعرفة الدينية إلى أن توضع في صورة علمية[5].

---

(1) ترتيب الفصول طبقاً لعدد الصفحات: 1 ـ الألوهية ومعنى الصلاة (67) 2 ـ مبدأ الحركة في بناء الإسلام (41) 3 ـ البرهان الفلسفي على ظهور التجربة الدينية (39) 4 ـ المعرفة والرياضة الدينية (31). 5 ـ روح الثقافة الإسلامية (26) 6 ـ هل الدين أمر ممكن؟ (19) المقدمة (3).

(2) تجديد، ص1.

(3) السابق، ص226.

(4) السابق، ص1 ـ 2.

(5) السابق، ص1 ـ 2.

وتجديد التفكير الديني في الإسلام لا يتوقف عند حد معين بل هو مستمر ودائم كلما تقدمت المعرفة وتغير العصر[1]. وقد أدرك شاه ولي الله الدهلوي ذلك. ووجد أن المهمة الملقاة على عاتق المسلم العصري ضخمة. إذ عليه أن يفكر في نظام الإسلام دون أن يقطع مع الماضي. وتبعه جمال الدين الأفغاني. إلا أن نشاطه وحركيته منعاه من التفرغ لتجديد التفكير الديني وإعادة بنائه[2].

ب ـ الاستشراق مستمر

وبالرغم من غلبة التحليل الفلسفي على الرصد التاريخي إلا أن الكتاب لم يخل من الاستشراق بمعنى التأريخ للفكر الإسلامي بالتحقيب الميلادي. فأبو هاشم الجبائي توفي عام 933م، والباقلاني عام 1012م[3]، وتخريب بغداد في القرن الثالث عشر الميلادي، والسيوطي في القرن السادس عشر الميلادي، وولد ابن تيمية عام 1263، ومحمد بن عبد الوهاب عام 1700م. والإسلام ظهر وامتدت حضارته ما بين 800 ـ 1100م.

ويظهر الاستشراق أيضاً في منهج الأثر والتأثر. فنظرية الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ قد تأثرت بالبوذية[4]. وعقيدة المهدي عند ابن خلدون مستمدة من المجوسية الأصلية. فالمجوس هم الأصل مع أنها من صلب الفكر الإسلامي السني والشيعي[5]. واستلهم فلاسفة الإسلام آراءهم في النفس من الفكر اليوناني. وأدخل في حظيرته أقواماً ومللاً متعددة كالنساطرة واليهود وأتباع زرادشت[6].

كما يظهر الاستشراق في الشعوبية. إذ لم يستطع العقل العربي العلمي اعتبار الزمان شيئاً متوهماً كما فعل اليونان[7]. والعقل العربي غير العقل اليوناني. الأول يبدأ من المحسوس، والثاني من المعقول كما لاحظ بريفو في كتابه «تكوين

---

(1) السابق، ص3.
(2) السابق، ص111 ـ 112.
(3) السابق، ص80 ـ 81/ 173 ـ 175/ 188.
(4) تجديد، ص81.
(5) السابق، ص167.
(6) تجديد، ص109 ـ 110.
(7) السابق، ص88.

الإنسانية» Brifault: Making of Humanity. المثل الأعلى اليوناني كما لاحظ إشبنجلر هو التناسب وليس اللانهائية[1]. ونشأ القياس وجعله أبو حنيفة أصلاً من أصول التشريع. تتمثل فيه النزعة السامية التي تهدف إلى كبح الميل الآري إلى تيار النظر المجرد لصالح الواقع المتحقق، وعالم الأذهان على عالم الأعيان[2].

ويعتمد إقبال في آخر حياته على المصادر الاستشراقية كما فعل في أول حياته. فيعتمد على تلخيص ماكدونالد لمضمون «دلالة الحائرين» لموسى بن ميمون في مجلة إيزيس، وأعاد د. زويمر نشره في مجلة «العالم الإسلامي في يناير 1928»[3]. كما يعتمد على نشر ماسنيون لنصوص الحلاج. كما يذكر آراء المستشرقين مثل ماكدونالد الذي وصف نجد بأنها «أطهر بقعة في عالم الإسلام الذي دب إليه الانحلال» لتفسير نشأة دعوة محمد بن عبد الوهاب[4]. ويرد على تساؤل هورتن: هل شريعة الإسلام قابلة للتطور؟[5]. ويستشهد برأي المستشرق فون كريمر Von Kremer على أن الرومان أصحاب التشريع. لذلك جاءت المسيحية بعقيدة روحية في حين أن العرب أصحاب عادات وتقاليد. وجاء القرآن بالمبادئ العامة للتشريع تاركاً للمسلمين حق الاجتهاد. كما يستشهد برأيه في قانون الميراث في الإسلام وأنه يتسم بالأصالة والابتكار[6]. ويرد رأي جولدزيهر في عدم صحة الحديث. كما يستشهد بكتاب النظريات المالية الإسلامية Mohammedan Theories of Finance لبيان بداية التشريعات المالية والإسلامية وتطورها[7]. ويعتمد إقبال على بعض المستشرقين المنصفين مثل فلنت Flint عندما يؤكد أن الحضارة الإسلامية وحدها هي التي عرفت وحدة الإنسانية نظراً وعملاً، رؤية وحركة اجتماعية. وأفلاطون وأرسطو وأوغسطين ليسوا نظراء لابن خلدون[8].

---

(1) السابق، ص151 ـ 153.
(2) السابق، ص204.
(3) السابق، ص81/ 110.
(4) السابق، ص175.
(5) السابق، ص188.
(6) السابق، ص193 ـ 196.
(7) السابق، ص197.
(8) السابق، ص162.

2 ـ الفلسفة والدين

أ ـ العقل والإيمان

والمعرفة والرياضة الدينية هي قضية الفلسفة والدين أو العقل والإيمان. ويأخذ إقبال صف الدين على حساب الفلسفة، والإيمان على حساب العقل، ويعلن عجز العقل عن إدراك كنه الحقيقة القصوى. ولا يدرك جوهر الدين إلا بالإيمان الباطني[1]. الإيمان مجرد شعور خالص يشبه رضا النفس كما هو الحال عند الصوفية. قد يكون الفكر أحد عناصره كما حاول المتكلمون الفلاسفة. الدين في حاجة إلى أساس عقلي مهما تجاهل الميتافيزيقا من أجل رفع التناقضات في عالم التجربة. ولا يعني ذلك تعالي الفلسفة على الدين وإن كان لها الحق في الحكم عليه. الفكر والبداهة قرينان[2].

والأسس العقلية في الكتاب والسنة وعند الصوفية المتأخرين وفي مقالات المتكلمين وفي الفلسفة اليونانية. فقد وسّعت الفلسفة اليونانية آفاق النظر العقلي عند مفكري الإسلام، ولكن إقبال يرى أنها غشت على أبصارهم في فهم القرآن وهو غير صحيح[3]. وتركيز سقراط على الإنسان لا يخالف روح القرآن الذي يركز على الإنسان أيضا. فالدخول في النفس شرط للصعود إلى أعلى. وإن قدح أفلاطون في الإدراك الحسي لا يخالف دفاع القرآن عنه لأن الإدراك الحسي في القرآن مشروط بيقظة القلب أو الضمير أو الفؤاد. ولا تعارض بين النظر الفلسفي القديم والقرآن[4].

ونتيجة النظر الفلسفي القديم أسس الغزالي الدين على الشك الفلسفي. وهو ما يتعارض في رأي إقبال مع روح القرآن. كما يتعارض والعقل الفعال عند ابن رشد الذي انتشر مذهبه في كل أرجاء أوربا مع القرآن ونظرته إلى النفس

(1) السابق، ص5.
(2) السابق، ص7.
(3) السابق، ص8.
(4) السابق، ص9.

ومصيرها[1]. وأقنع التجلي اللانهائي على طريقة الوعي الصوفي الغزالي بتناهي العقل، وعجزه عن الوصول إلى أحكام قاطعة. وفرق بين الفكر والبداهة[2].

ب ـ الكلام والتصوف

كان الأشاعرة على طريق الصواب في فلسفتهم المثالية وهي تدافع عن أهل السنة بالمنطق اليوناني[3]. أما المعتزلة فيما يرى إقبال فقد تصوروا الدين مجموعة من العقائد والمعاني المنطقية دون حيوية. فالفكر لا يستقل عن التجربة[4].

هدف القرآن أيضاً هو إيقاظ شعور أسمى في النفس بالعلاقة بين الخالق والمخلوق. فهناك صراع بين الدين والحضارة. وقد واجهت النصرانية نفس المشكلة. فاعتنت باستقرار الحياة الروحية عن طريق تجلي عالم جديد في النفس وهو ما يقره الإسلام أيضاً. بالإضافة إلى أنه عالم ليس غريباً على المادة. فالمثال والواقع في الإسلام غير متعارضين كما هو الحال في النصرانية. وقد نص القرآن على ذلك في عديد من الآيات بأن الحياة رسالة، وبأن للإنسان هدفاً، وأن في الكون آيات، وفي التاريخ عبرة، وأن الإنسان قد يكون في أعلي عليين أو في أسفل سافلين. الحياة سعي وعمل وجهاد وكدح ومعاناة. الحياة اختبار. وللإنسان القدرة عليه. ويدعو القرآن الإنسان إلى التأمل في الطبيعة وتجربتها[5].

والبحث في الرياضة الدينية مصدر للعلم الإلهي. وهو أسبق من ضروب التجارب الإنسانية الأخرى كطريق للعلم بالحقيقة النهائية. والقلب نوع من علم الباطن كما قال الرومي. وهو ما تثبته الكتب المنزلة وأعمال الصوفية. وقد أورد البخاري المحدث شواهد كثيرة على ذلك. وأدرك هذا المعنى أيضاً ابن خلدون[6].

ويلاحظ على التجربة الدينية أو الصوفية الآتي:

(1) السابق، ص9.

(2) السابق، ص11 ـ 13.

(3) السابق، ص102.

(4) السابق، ص10.

(5) السابق، ص15 ـ 22.

(6) السابق، ص22 ـ 25.

أ ـ عدم الاعتماد على الوسائط أي إنها تجربة نفسية مباشرة.

ب ـ عدم القابلية للتحليل لأنها كل لا يتجزأ.

جـ ـ الحالة الصوفية عند المريد لحظة من الاتصال الوثيق بذات أخرى، فريدة سامية، تفنى فيها شخصية المريد فناء مؤقتا. وهو ما أكده القرآن.

د ـ عدم القابلية للنقل إلى إنسان آخر لأنها حالة ذاتية. وهو ما يؤكده أيضاً القرآن.

هـ ـ اتصال المريد بالذات الأزلية اتصالاً مباشراً. وهذا لا ينفي الزمان المتجدد[1].

جـ ـ البراهين على وجود الله

التجربة الدينية عند إقبال هي تجربة الإيمان بالله. والبرهان الفلسفي عليها هو البرهان على وجود الله[2]. ويعرض البراهين الثلاثة المشهورة على وجود الله: الدليل الكوني، والدليل الغائي، والدليل الوجودي. ولا يذكر دليل الحركة. ولا دليل القدم والحدوث أو الواجب والممكن أو الجوهر والأعراض إلى آخر ما هو معروف عند المتكلمين المسلمين أو عند توما الأكويني في العصر الوسيط. يقوم الدليل الكوني على العلية، أن لكل معلول علة، ولما كانت العلل لا تتسلسل إلى ما لا نهاية، إذن لابد للانتهاء إلى علة أولى. ويستبدل الدليل الغائي بالعلية الغائية. فلكل شيئ غاية. ولما كانت الغايات لا تتسلسل إلى ما لا نهاية، فلابد من الوصول إلى غاية قصوى. والدليل الوجودي هو ما عرف باسم الدليل الانطولوجي الذي يقوم على استنباط الوجود من الكمال. لما كان الله كاملاً، والوجود أحد مظاهر الكمال، إذن الله موجود[3].

وتكشف التجربة في الزمان على ثلاثة مستويات: مستوى المادة، ومستوى

(1) السابق، ص25 ـ 35.

(2) السابق، الفصل الثاني: البرهان الفلسفي على ظهور التجربة الدينية، ص36 ـ 74.

(3) السابق، ص36 ـ 40. انظر نقدنا لهذه الأدلة في «من العقيدة إلى الثورة» جـ2، التوحيد، ص5 ـ 75.

الحياة، ومستوى العقل والشعور. لذلك العلوم ثلاثة: علم الطبيعة، وعلم الأحياء، وعلم النفس. وهو مثل تقسيم هوسرل في الجزء الثاني من «الأفكار» في نظرية «التكوين»[1]. وهناك تمييز كيفي بين هذه المستويات الثلاثة كما هو الحال في التطور الخالق عند برجسون. المستوى الطبيعي موضوع العلوم الطبيعية. ويختلف العلماء في تصور الطبيعة والكون بين الفيزياء القديمة التي يمثلها نيوتن والفزياء الجديدة التي يمثلها أينشتين. الأولى تقوم على الجوهر المطلق الثابت، والثانية على النسبية، نسبية المكان والزمان والأبعاد الأربعة. ونسبة الحياة إلى الله عند علماء الكلام ومنهج ابن حزم خشية من التجسيم والتشبيه. والحقيقة أنه لا يمكن إثبات الكمال الإلهي إلا بعد نفى كل صفات التشبيه. والشعور انبثاق من الحياة يتسم بالتوتر والتركيز والانتباه. ويستدل إقبال على هذا التمايز بين المستويات الثلاثة. الطبيعة، والحياة، والشعور، بعديد من الآيات القرآنية[2]. وهي تثبت الزمان كلحظة كلمح البصر. كما يعتمد على الشعر لإثبات نفس الحقيقة[3]. ويذكر بيت شعر لناصر على السرهندي.

د ـ الذات والصفات

وبعد اطمئنان التجربة الدينية على المقاييس العقلية فإنها تكشف عن إرادة معبرة، ذات نظام معقول، هي أساس كل تجربة. وتسمى هذه الإرادة «ذات» أو «إله». تتسم بالوحدانية أو الفردانية وهو ما يثبته القرآن أيضا[4]. والسؤال هو: هل تقتضي الفردية التناهي؟ وإذا كان الإله فرداً فكيف يكون متناهياً؟ الذات الإلهية فرد غير متناه في المكان ولا الزمان. وتتسم الذات الإلهية بصفات عقلية أخري بحتة مثل الخلق والعلم والقدرة والقدم. والخلق والقدم يدخلان معاً في تصور واحد: خلق العالم وقدم الله. فالعالم حادث، والله قديم. وقد قال البسطامي «كان الله ولا شيئ معه».

(1) السابق، ص40. تأويل الظاهريات، النافذة، القاهرة، 2005، ص172 ـ 174.
(2) السابق، ص56/ 59/ 61/ 66/ 68/ 70/ 72. ويذكر إقبال حوالى 110 آية في الكتاب كله.
(3) السابق، ص64/ 71.
(4) السابق، ص35/ 76 ـ 78 ـ 86.

وفي علم الكلام خلق الله الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ رفضاً لمذهب أرسطو القائل بثبات العالم. وقال به أبو هاشم الجبائي والباقلاني بل وموسى بن ميمون. وقد أثبته الأشاعرة كذلك معتمدين على الآيات القرآنية. ورفضه ابن حزم. وقد أدت نظرية الجوهر الفرد عند الأشاعرة إلى التكثر الروحي.

وإقبال أميل إلى القول بفكرة الخلق المتصل التي حاول الأشاعرة إثباتها. فهي أقرب إلى روح القرآن من نظرية أرسطو. وهي أقرب إلى العلم الحديث. وقد سبق الأشاعرة العلم الحديث ولو بشيئ من الغموض. لذلك فإن قول الأشاعرة بأن النفس عرض يتعارض مع نظريتهم. وكان الرومي أكثر فهماً لروح الإسلام بقوله «أفاد جسمي وجوده من الروح ولم تفد الروح وجودها من البدن». فالحقيقة روحية في جوهرها. ولها درجات كما هو الحال عند السهروردي.

أما صفة القدم فإنها تستدعي القول بحدوث الزمان والمكان. وهو ما استرعى انتباه الصوفية والمتكلمين في آن واحد. وهو ما تؤيده الآيات القرآنية أيضا. فعند ابن عربي الدهر من أسماء الله الحسنى. وكذلك عند الرازي دهر وديهور وديهار. والزمان عند الأشاعرة آنّات مفردة. وهو نفس موقف اليونان دون الاستفادة منه[1].

وعندما تستند صفة العلم إلى الذات المتناهية فإنها تعني العلم الاستدلالي. وهو نسبي دائماً بالقياس إلى المقدمات. وإذا استند إلى الذات الإلهية فإنه يكون علماً مطلقاً[2]. ويصطدم العلم المطلق بمشكلة الشرق في العالم ووقوعه، ومدى المسؤولية بين التشاؤم والتفاؤل، وتأويل قصة هبوط آدم، ومسؤولية الإنسان عن الشرق في غواية حواء وهوي آدم، وفي النقوش البابلية القديم بين الثعبان رمز الذكر، والتفاحة رمز البكارة. والقرآن لا يستعمل هذه الرموز وإن كان يقر بقصة آدم وحواء وشجرة الخلد. ويلعن العهد القديم الأرض لعصيان آدم. ولا تتعلق القصة بظهور الإنسان الأول بل بالجانب الأخلاقي في ضعف الإرادة وسيادة الهوى[3].

(1) السابق، ص87.

(2) السابق، ص91.

(3) السابق، ص96 ـ 103.

وعلم النفس الديني عند العراقي خوجه محمد رضا أقرب إلى المفاهيم الحديثة للزمان والمكان. فالمكان منسوب إلى الذات الإلهية. وهو على ثلاثة أنواع: مكان الأجسام المادية، ومكان الكائنات غير المادية، ومكان الله. وكان يؤمن بالفكرة الأرسطية عن زمان الكون[1].

والحقيقة أن الذات طبقاً للأشاعرة لها أوصاف ستة: الوجود، والقدم، والبقاء، وليس في محل، ولا يشبه الحوادث، وواحد. أخذ منها إقبال وصفين، القدم والوحدانية. ولها صفات سبع: العلم والقدرة والحياة، والسمع والبصر والكلام والإرادة. أخذ منها إقبال صفتين: العلم والقدرة. فلم يفرق إقبال بين الأوصاف الستة، والصفات السبع.

وبالرغم من تأكيد إقبال على عقلانية الدين، وإيراد البراهين الفلسفية على صدق التجربة الدينية إلا أن مطامح الدين تسمو على مطامح الفلسفة. فالدين ليس مجرد معرفة بل هو سلوك وممارسة متمثلة في الصلاة رمز العبادة والتي تؤدي إلى الهداية الروحانية، وتحقيق الاتحاد بين الخالق والمخلوق. الصلاة إحالة من الوعي نحو عالم أخلاقي جديد. والعبادة معرفة وسلوك. ولما كان وضع الجسم عاملاً في تحديد اتجاه العقل مثل القبلة والصلاة الجماعية فإن الصلاة تؤدي إلى الوحدة والمساواة. فلا وجود لفريق المنبوذين كما هو الحال في الهند[2].

هـ ـ الحرية وخلود النفس

ويؤكد القرآن النفس الإنسانية، حريتها وظهورها وقوتها. فهي أساس شخصية الإنسان وفرديته، وأنه وحدة من وحدات الوجود. وهو مسؤول. فكل امرئ بما كسب رهين. فواضح في القرآن ثلاثة مبادئ: اصطفاء الله للإنسان، خلافة الإنسان لله في الأرض، حمله رسالة وأمانة لتحقيقها في الدنيا. وبهذا المعنى تفهم عبارة الحلاج «أنا الحق» كتحد للمتكلمين، والفصل بين الخالق والمخلوق[3].

وتكشف النفس عن وحدة الحالات العقلية، مثل تاج محل، بصرف النظر

---

(1) السابق، ص100 ـ 109.

(2) السابق، ص103 ـ 108.

(3) السابق، ص109 ـ 123.

عن مدينة أكرا. فالنفس لا توجد في مكان. والنفس متفردة دون انعزال. وهي جوهر روحاني بسيط ثابت لا ينقسم عند المسلمين خاصة الغزالي.

ويميز القرآن بين النفس والروح. الأولى يمكن للإنسان معرفتها. أما الثانية فيصعب ذلك. كما يميز بين الأمر والخلق[1].

والسؤال هو: كيف تنشأ النفس داخل النظام المكاني الزماني؟ القرآن صريح باستقلال النفس عن البدن. تتسم بصفات مغايرة له. والعلاقة بينهما مثل علاقة التلقائية بالنظام، الكيف بالكم[2].

وقد تصارعت الآلية والحرية لتحديد النشاط النفسي. تقوم الآلية على تصور خاطئ للنشاط العقلي تقليداً للعلوم الطبيعية التي تقوم على العلّية. فحدث رد الفعل في مدرسة الجشطلت. وأعطت النشاط النفسي استقلالاً تاماً. فالعقل الإنساني فعل قصدي يقوم على الكد والكدح والاختيار الحر، وكما يقر القرآن ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ، ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾. فللإنسان القدرة على حرية الاختيار[3]. والاعتقاد بالقدر هو اعتقاد بالقدرة الزائدة، والتوحد مع الهدف كما قال الحلاج «أنا الحق»، «أنا الدهر»، «أنا القرآن الناطق» «سبحاني، ما أعظم شأني» إلى آخر ما هو معروف من شطحات الصوفية. وأيدت عقيدة القضاء والقدر الدولة الأموية لمناقضة المعارضة ومطالبة الناس بالطاعة والولاء لها. فهي قدر الله.

وتناول الفلاسفة خاصة ابن رشد موضوع خلود النفس. وميز بين النفس والروح. ووقع في اثنينية ليست في القرآن[4]. أما رأي القرآن في مصير الإنسان ومستقبله فيتفرع إلى بيولوجي وأخلاقي. البيولوجي في صور مثل البرزخ، والأخلاقي مثل العدل. وتتفق الآيات على ثلاثة أمور: بداية الروح في الزمان، وأن ليس لها وجود سابق، واستحالة العود إلى الأرض، والنهاية هي القضاء الأجل. والمصير لا يلغي الفردية بل يقوم عليها. والخلود ليس حقاً بل هو خلود مكتسب بالجهد الشخصي، والإنسان مرشح له. وهذا هو المعني الروحي للبرزخ أي انتقال

(1) السابق، ص118 ـ 119.
(2) السابق، ص119 ـ 123.
(3) السابق، ص123 ـ 128.
(4) السابق، ص128.

من حال إلى حال، إمكانية تحقق، مشروع وجود، وقد أشار إلى ذلك الجاحظ وإخوان الصفا ومسكويه. وأنشده الشعراء مثل الرومي. لا يوجد جزاء أو عقاب أبدي مسبق بل هما من كسب الإنسان عمله وجهده[1].

و ـ الدين والتقدم

وكما اعتنى إقبال بالصلة بين الدين والفلسفة وهو موضوع القدماء، انشغل أيضاً بموضوع الدين والتقدم وهو موضوع المحدثين فيما سماه «روح الثقافة الإسلامية». وهي فكرة خاتم النبوة، أي اكتمال الوحي وترك المجال أمام الإنسان لإعمال الفكر[2]. فالتاريخ لا يعود إلى الوراء كما شعر ولي مسلم عظيم عبد القدوس الجنجوهي. ربما تكون الولاية تالية للنبوة. ومع ذلك هناك فرق بين الولي أو الصوفي والنبي. كلاهما يتحقق بمقام الشهود. لا يعود الصوفي منها، في حين يعود النبي ليوجه التاريخ ويحرك الزمان. الوحي صفة من صفات الوجود. يتجاوز الجانب المعرفي أو النفسي أو الاجتماعي أو السياسي. وينتهي باكتمال تقدم الوعي الإنساني، ونهاية العون الخارجي، والاعتماد على الذات أي على العون الداخلي. لذلك أبطل الإسلام الرهبنة ووراثة الملك. واعتمد على العقل والتجربة. دعا إلى النظر في الكون، والوقوف على أخبار الأولين. الوحي والعقل والطبيعة أبعاد ثلاثة لحقيقة واحدة[3].

ويعد القرآن الأنفس والآفاق مصادر المعرفة، أي الداخل والخارج، النفس والطبيعة. كانت وظيفة التصوف تحويل الرياضة الروحية إلى منهج دقيق للمعرفة كما قرر ابن خلدون. ويضيف إليهما القرآن التاريخ وتداول الأيام بين الناس. والكل يقوم على عالم الحس والشهادة. لذلك ثار الفكر الإسلامي على الفلسفة اليونانية المجردة ونقدها النظّام. وأفاض الغزالي في ذلك في «إحياء علوم الدين» ولو أنه ظل تلميذاً لأرسطو في المنطق. ووضع في «القسطاس» بعض حجج القرآن في أقيسة منطقية أرسطية. ونقده السهروردي في «حكمة الإشراق» وابن تيمية في

---

(1) السابق، ص133 ـ 141.

(2) السابق، 4 ـ روح الثقافة الإسلامية، ص142 ـ 65.

(3) الوعي والعقل والطبيعة، قراءة في كتاب القانون في الطب لابن سينا، حصار الزمن، جـ3، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، 2005. ص 539 ـ 586.

«نقص المنطق» المنطق الأرسطي. ونقد الرازي الشكل الأول للقياس الأرسطي. ووضع أسس المنهج التجريبي. فالملاحظة والتجربة أساس المعرفة، وليس التفكير النظري المجرد. وكشف البيروني زمان الانفعال، والكندي تناسب الحس مع الدافع باستعمال المنهج التجريبي وتطبيقه على الظواهر النفسية. وبين ابن حزم في «التقريب إلى حد المنطق» أن الحس مصدر من مصادر العلم[1].

وسارت فكرة التطور في التفكير الإسلامي جنباً إلى جنب مع التفكير الرياضي. فقد لاحظ الجاحظ التغيرات في هجرات الطيور. ثم نظّر مسكويه ذلك في «الفوز الأصغر». ووضع الكائنات الحية في درجات، من النبات إلى الحيوان إلى الإنسان. ولكل درجات. وهو ما عرضه إقبال في رسالته الأولى للدكتوراة «تطور الميتافيزيقا في فارس»[2]. كما ظهر مفهوم التطور عند ابن خلدون في تصوره للتاريخ. وهي أيام الله بتعبير القرآن. والتاريخ مصدر ثالث من مصادر المعرفة مع العقل والتجربة. وقد عرفه ابن خلدون من روح القرآن. ووضع مبادئ النقد التاريخي. وساهم القرآن في ظهور مؤرخين مثل ابن اسحق والطبري والمسعودي. وقد قامت فلسفة التاريخ من فكرتين رئيستين: الأولى، وحدة الأصل الإنساني. والثانية، إدراك حقيقة الزمان إدراكاً دقيقاً، وتصور الوجود حركة مستمرة في الزمان. التاريخ تغير لا ثبات كما لاحظ مسكويه والبيروني من قبل. وانتصر كتابه «المقدمة» لروح القرآن المعارض لعلوم اليونان. فالزمان عند اليونان في الخارج كما ذهب أفلاطون وزينون. يتحرك حركة دائرية عند هرقليطس والرواقيين مما أفقدها صفة الإبداع[3]. وقد قضى ابن خلدون نهائياً في تصوره للتاريخ على فكرة المهدي كمخلص. وهي عقيدة موجودة في المجوسية الأصلية[4].

ز ـ الاجتهاد ومبدأ الحركة

وبالإضافة إلى تطور الحياة، يقوم الإسلام على مبدأ الحركة[5]. إذ يرفض

(1) تجديد، ص142 ـ 148.

(2) السابق، ص154 ـ 155.

(3) السابق، ص159 ـ 164.

(4) السابق، ص167.

(5) السابق... 5 ـ مبدأ الحركة في بناء الإسلام، ص168 ـ 208.

الإسلام كحركة ثقافية وكتصور للعالم ثبات العالم. والحركة في الإسلام تتم في حياة الفرد والجماعة أي في حياة الشعور الإنساني وليس في فرد معين أو جماعة معينة تقوم على رابطة الدم. وعلى هذا الأساس قامت وحدة الإنسانية. فالحياة روحية في أصلها وغايتها، دون ما حاجة إلى شعائر تحافظ عليها، مما يساعد الإنسان على التحرر من الروابط المادية. وقد حاول الإمبراطور قسطنطين بعد اعتناقه المسيحية، وهو نظام رهباني، أن يجعلها نظاماً رومانياً لتوحيد الكلمة بين الناس باسم الإمبراطورية الجديدة. ولما أخفق ارتد الإمبراطور جوليان إلى عبادة آلهة الرومان مع تأويلات فلسفية جديدة. وهنا ظهر الإسلام معطياً العالم، كما يقول أحد المؤرخين، ثقافة جديدة، تحل محل ثقافة العرش والنظم التي كانت تقوم على قرابة الدم. وقام الإسلام على مبدأ التوحيد. ويعني تحرر البشر والمساواة الإنسانية والتكافل الاجتماعي. وجعل الاجتهاد أحد مصادره لمواكبة التطور. فكما أن الصلاة طريق الألوهية فإن الاجتهاد أساس الحركة في الإسلام[1]. والثاني، حق نسبي داخل كل مذهب. والثالث، حق خاص لتعيين قاعدة شرعية خارج المذاهب. وإثبات الحق الأول يثبت الحقين الآخرين. فهو الحق المبدئي الأصلي[2].

ويظن بعض الأوربيين أن سبب الجمود في القانون الإسلامي هم الأتراك. وهو رأي غير صحيح لأن الاجتهاد قد أرسي قبل الأتراك بزمن طويل. وهناك ثلاثة أسباب لتوقف الاجتهاد: الأول، اعتبار الحركة الفكرية في صدر الدولة العباسية مسؤولة عما وقع عند المسلمين من خلاف عقائدي خاصة في قضية قدم القرآن وما يشابهها في العقيدة المسيحية من قدم «الكلمة» واتهام القول بالخلق بأنه تقويض للجماعة الإسلامية. وشك النظام في الأحاديث وصحة الروايات. فتم تقييد حرية الفكر والاعتماد على النص دون الاستنباط أو الاجتهاد. والثاني، نشأة التصوف ابتداء من الزهد متأثراً بمصادر غير إسلامية، ووضعه علوم الذوق والكشف في مقابل علوم النظر والاجتهاد، والقلب في مقابل العقل. والثالث، تخريب بغداد بعد غزو التتار. فخشي المحافظون من إعمال العقل. واعتمدوا على سلطة النص الذي لا خلاف عليه لمقاومة الغزو. ثم ظهر ابن تيمية. فقد ولد بعد

(1) السابق، ص168 ـ 170.

(2) السابق، ص170 ـ 171.

تدمير بغداد بخمسة أعوام. ونشأ على مذهب ابن حنبل. وتبنى المنهج الظاهري عند ابن حزم. وأنكر مذهب الحنفية الذي يقوم على النظر والاستدلال. وبالرغم من مناداة السيوطي بضرورة الاجتهاد إلا أن حركة محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية في نجد لجأت إلى سلطة النص. وأثرت في كثير من الحركات المعاصرة كالسنوسية والبابية. وكان شبيهاً بأحد تلاميذ الغزالي وهو محمد بن تومرت المصلح المغربي أثناء انحلال الأندلس. ولا يهم توقف الدعوة الوهابية التي قضت عليها جيوش محمد علي، ولكن الأهم ما ولدته من رغبة في الإصلاح حتى ولو كان محافظاً، وتوليد حركة تجعل حق الاجتهاد ليس قصوراً على أصحاب المذاهب[1].

وقد عادت فكرة الاجتهاد للظهور في تركيا الحديثة. وأقامه حليم ثابت على أفكار اجتماعية عصرية. فقد وجد في تركيا اتجاهين: الحزب الوطني القومي وحزب الإصلاح الديني. يعطي الأول الأولوية للدولة على الدين، والثاني للدين على الدولة. وهو صراع مفتعل ناشئ من إسقاط تاريخ الغرب، والصراع بين السلطتين الدينية والسياسية أو الكنيسة والدولة على تاريخ الإسلام. في حين أن التوحيد الإسلامي تصور ينتج نظاماً قابلاً للتحقيق. يقوم على الحرية والمساواة والاتحاد. والدولة مجرد أداة للتنفيذ. نظام الحكم ليس ثيوقراطيا. وليس الخليفة ظل الله في الأرض، معصوماً من الخطأ. لا يفرق الإسلام بين الدين والدنيا، بين ملكوت السموات وملكوت الأرض. هو مثال يتحول بطبيعة الحال إلى واقع أو كما يقول إقبال، الدين أمر ممكن أو كما يقول محمد عبده، الوحي ممكن الوقوع. مهمة الدولة تحقيق الروحانية في المجتمع. قلد الحزب الوطني التركي الغرب في فصله بين الدين والدولة. ويعني في الغرب الكنيسة والدولة. والإسلام ليس به كنيسة[2].

وفي مقابل ذلك، نادى حزب الإصلاح الديني بزعامة سعيد حليم بالجمع بين المثالية والواقعية. فالحقائق الأزلية لها رصيدها في المجتمع في الحرية والمساواة والتضامن، دون الانتساب إلى وطن أو قوم. وقد مارس المجلس الوطني الكبير حق الاجتهاد. وفيما يتعلق بنظام الخلافة، الخلافة ضرورية لا ريب فيها،

---

(1) السابق، ص171 ـ 176.

(2) السابق، ص176 ـ 188.

ضرورة النظام السياسي للمجتمع. إنما السؤال هو هل تكون الخلافة ممثلة بالضرورة في فرد أم قد تكون في جماعة أو في مجلس منتخب؟ المجلس المنتخب هو ما قرره حزب الإصلاح في تركيا. وهو رأي يتفق مع روح الإسلام. ولا يرفضه ابن خلدون. إذ يورد ثلاثة آراء مختلفة في الموضوع: الأول، أن الإمامة نظام شرعي. والثاني، أن الوجوب عقلي لضرورة الاجتماع. والثالث، أن الإمامة ليست ضرورية وهو رأي الخوارج. وقد أخذ الأتراك الرأي الثاني وهو رأي المعتزلة. وقد أسقط الباقلاني من قبل شرط القرشية. كما عبر ضيا الشاعر الوطني العظيم عن نفس الرأي. تستقل البلاد الإسلامية أولا. ثم ترتبط فيما بينها بسلطان واحد يقيم نظاماً عصرياً لأن الضعيف يطمع فيه الناس، والقوي يهابه الجميع. فالإسلام ليس رابطة قومية بل وجدانية. الدين هو العلم والفلسفة. ولا يتناقض معهما. ويجوز الأذان والصلاة باللغة التركية كما أجازها لوثر باللغة الألمانية وليس باللاتينية وحدها. وقد أمر محمد بن تومرت ترجمة القرآن إلى اللغة البربرية حتى يفهمه الناس. كما أعلن الشاعر مساواة المرأة للرجل من أجل حفظ كيان الأسرة التي تقوم على العدل. وتشمل المساواة الطلاق والانفصال والميراث. تركيا نموذج التحديث في العالم الإسلامي والإصلاح الواقعي فيه. حرية الفكر في الإسلام ضرورية، وكذلك النظرة الإنسانية العامة. ويمر المسلمون الآن بفترة مشابهة للإصلاح البروتستانتي في أوربا، وإحلال الروح القومية محل الروح المسيحية الشاملة.

والشريعة الإسلامية متطورة بطبيعتها. فالمصادر الأربعة للتشريع متطورة فيما بينها، فأخذ الزمان بعين الاعتبار، من القرآن إلى السنة، إلى الإجماع إلى القياس. القرآن في زمن محدود، والسنة في زمن أطول. والإجماع لكل عصر. والاجتهاد ممتد إلى يوم الدين. بل يمتد السؤال إلى باقي العلوم الإسلامية، الكلام والتصوف والفلسفة. كل شئ يتطور بما في ذلك الثقافة مما يدل على مرونة التفكير الإسلامي. وهي أكثر ظهوراً في ميدان التشريع. وتدل على ذلك مؤلفات الفقه والشريعة. ونظراً لغياب دراسة نقدية للفقه، لم يعرف أحد مدى التغيير والخلافات المذهبية فيه. ويبدي إقبال ثلاث ملاحظات: الأولى، لم يدون منذ ظهور الإسلام إلى قيام الدولة العباسية إلا القرآن. والثاني، ظهر منذ منتصف القرن الأول حتى أول القرن الرابع حوالي عشر مدارس للفقه. والثالث، تدل المصادر الأربعة

للتشريع على قيامها على مفهوم التطور وهي[1]:

1 ـ القرآن: ورؤيته للكون متغيرا. والعقيدة مجرد منبه على التشريع. فالقرآن عقيدة وشريعة، تصور ونظام. حكم القرآن المتغير مطابق لحكم الواقع المتغير. وهو أيضاً رأي الشاعر التركي حنيا. مقاصد الشريعة ابتداء كما حددها الشاطبي هي ثوابت الشريعة: الحفاظ على الحياة (النفس)، والعقل، والدين، والعرض (النسل) والمال. ربما لم يعلم الشاعر حنيا وضع المرأة في الإسلام. فالزواج عنده عقد مدني. وللمرأة أن تشترط حق العصمة في يدها. والتوريث وحدته الأسرة وليس الفرد[2].

2 ـ الحديث: وقد خضع لمناهج دقيقة للرواية وشروط صعبة للخبر المتواتر. والأحاديث التي تتضمن أحكاماً تشريعية صحيحة في روايتها. أما غيرها فليست مصدراً للتشريع. ولم يستعملها أبو حنيفة. بل أدخل مبدأ «الاستحسان» في الفقه. وهو أحد أشكال القياس الحر الذي يعتمد على البديهة والذوق السليم. وكانت مجموعات الحديث لعبد الملك والزهري موجودة من قبل. لذلك لم يجمعها أبو حنيفة كما فعل أحمد[3].

3 ـ الإجماع: ويتعارض مع سلطة الحاكم المطلق ومصالحه السياسية. وهو مصدر الروح الجمهوري. لا ينسخ الإجماع القرآن. ويمكن تجنب الخطأ في التشريع عن طريق تأليف هيئة مستقلة من العلماء، أهل الدراية بالدنيا والدين، مما يستدعي تغيير نظام التعليم من أجل تخريج علماء عصريين[4].

4 ـ القياس: وهو الاستدلال عن طريق التشابه بين الحالات. وكان استعمال العقل ضرورياً للاستنباط من النص خاصة بعد ترجمة منطق أرسطو كأداة للاستدلال. ويرجع الفضل في ذلك لأبي حنيفة[5].

---

(1) السابق، ص188 ـ 190.
(2) السابق، ص190 ـ 196.
(3) السابق، ص196 ـ 199.
(4) السابق، ص199 ـ 203.
(5) السابق، ص203 ـ 208.

وعلى هذا النحو، ليس في الشريعة ولا في مصادرها ما يدعو إلى الجمود بل فيهما ما يدفع نحو التجديد والتفاعل مع تحديات العصر. فالإنسانية اليوم تحتاج إلى ثلاثة أمور: تأويل الكون تأويلاً روحياً، وتحرير روح الفرد، ووضع مبادئ أساسية لتطوير المجتمع الإنساني. ولا يكفي لذلك التفكير المجرد بل الإيمان الصادق. وإن معنى خاتم النبوة هو التأكيد على حرية الفرد والجماعة واستقلال الشعوب، وتأسيس الديمقراطية الروحية. وهي منتهى الإسلام ومقصده[1].

وإذا كان الدين يقوم على العقل والتجربة، ويدفع نحو التطور، يكون تحققه ممكنا. فالدين أمر ممكن[2]. وتنقسم الحياة الدينية على وجه العموم إلى ثلاثة أطوار: طور الإيمان، وطور الفكر، وطور الاستكشاف. في الطور الأول تخضع الحياة الدينية إلى نظام معين خضوعاً مطلقاً دون تحكيم العقل. قد يساعد ذلك على تقوية الشعوب، ولكنه لا يساعد على رقيها الحضاري. وفي الطور الثاني يفهم العقل مقاصد النظام وأهدافه. وقد يبحث في ذات الله. وفي الطور الثالث يحل علم النفس محل الميتافيزيقا، ويطمح الإنسان إلى الاتصال بالحقيقة القصوى. ويصبح الدين مسألة شخصية. ويكتسب الفردية حرية في الفهم والسلوك. ويكتشف أبعاد التجربة في أعماق الشعور. ويفهم القرآن كما نزل على النبي. الطور الأول الفقه. والثاني الفلسفة. والثالث التصوف، وإن كان اللفظ سيء الحظ. وممن اختار هذا الطريق ابن عربي والشاعر العراقي وغيرهم[3].

لذلك يضر الجمود بالدين. ويقضي على حرياته الإبداعية. ويعوق التقدم الروحي. وعجزت الطرق الصوفية المتأخرة عن القيام بهذا الدور نظراً لعزلتها عن الحياة الاجتماعية. فغاية الحياة الدينية كشف الذات ونموها[4].

---

(1) «ليس في أصول شريعتنا ولا في بناء مذاهبنا كما نجدها اليوم ما يسوّغ النزعة الحاضرة»، وإن العالم الإسلامي وهو مزوّد بتفكير عميق نفاذ وتجاريب جديدة يتبقى عليه أن يقوم في شجاعة على أثر التجديد الذي ينتظره. على أن لهذا التجديد ناحية أعظم شأناً من مجرد الملاءمة مع أوضاع الحياة العصرية وأحوالها...، السابق، ص206 ـ 207.

(2) السابق، ص209 ـ 227.

(3) السابق، ص209 ـ 211.

(4) السابق، ص211 ـ 212.

3 ـ الفلسفة الحديثة

وتدور الفلسفة الحديثة في سياق تاريخي. فلا يمكن الفصل بين تقدم الفكر ومراحل النشاط الإنساني. ويخبرنا تاريخ الفلسفة كيف فكرت الشعوب المختلفة ولكنها لا تعطي الأسباب الاجتماعية والسياسية. صحيح أن كتابة تاريخ كامل للفلسفة مهمة جليلة. ولا يستطيع لاهوتي بمفرده أن يكشف لقرائه المضمون الفني للإصلاح عند لوثر نظراً لميلنا إلى عزل الأفكار من السياق العام للنشاط الذهني الإنساني(1)، يموت الأفراد، وتنقرض من الشعوب ولكن أفكارهم خالدة. وهم الأطفال الذين يتركونهم وراءهم(2). والتاريخ أخلاق تطبيقية. وإذا كانت الأخلاق تجريبية فإنها تقوم على كشف التجارب الإنسانية. قد يغضب البعض لذلك ولكن سلوك البشر خاضع لتجارب التاريخ(3). التاريخ نوع من «الجراموفون» الكبير يحفظ أصوات الشعوب(4). وإذا كانت الفلسفة منطق الحق فإن التاريخ منطق القوة. وتبدو مدافع منطق القوة أقوى من منطق الحق(5). التاريخ تفسير للبواعث الإنسانية. قد يخطئ في تفسير بواعث المعاصرين وحتى أصدقائنا المقربين ومساعدينا في الحياة اليومية. والأولى أن يكون من الصعب تفسير بواعث الذين عاشوا قبلنا تفسيراً صحيحاً. لذلك يقبل تدوين التاريخ بحذر شديد(6). وللتاريخ قانونه الذي يتحكم في صراعه المستمر بين القوي والضعيف، بين من ينتج بذهنه ومن ينقل(7). وقد أفرزت الفلسفة الحديثة في الغرب عدة اتجاهات أهمها(8):

---

(1) St. Ref., pp. 60 - 1.

(2) Ibid., p. 69.

(3) Ibid., p. 21.

(4) Ibid., p. 107.

(5) Ibid., p. 39.

(6) Ibid., p. 86.

(7) Ibid., p. 89.

(8) تكرار أسماء الأعلام في «أفكار هائمة Stray Reflections» كالآتي: جوته (9)، المسيح (5)، أورانجزب (4)، بوذا، أفلاطون، كانط، جوته (3). أرسطو، هوراس، ماثيو أرنولد، بديل (ميرزا عبد القادر)، غاليد، مونتاتي، محمد، نيتشه، أزاد، شكسيد (12). وآخرون مرة واحدة مثل: أكبر، ألكسندر، بيكون، برونج، حافظ، هاينه، لسنج، ليبنتز، لوثر، مازيني، المتنبي، نابليون، بوب، رينان، الرومي، اسبينوزا، فولتير، أوسكار وايلد، وردزورث، فوند... إلخ(1).

أ ـ المنهج التجريبي: ويقارن إقبال بين التاريخ الإسلامي والتاريخ الأوربي. فقد ظل التاريخ الإسلامي راكداً في القرون الخمسة الأخيرة. وكان الغرب قد بدأ في النهوض ابتداء من ترجمة العلوم الإسلامية قبل ذلك. وأغرب شيئ هو نزعة المسلمين الآن تقليد الغرب. ولا ضير في ذلك. فتلك بضاعتنا ردت إلينا. إنما الخشية هو الانبهار بالغرب الذي يشل التفكير ويعيق التقدم. سيطرت أوربا على الطبيعة بفضل علومنا التجريبية التي أبدعناها[1]. لذلك من الضروري أن يستقل الشباب في آسيا وأفريقيا عن النظرة الأوربية، خاصة. وقد انتشرت في أواسط آسيا دعوة ضد الدين عامة والإسلام خاصة من أبناء المسلمين مثل الشاعر التركي توفيق فكرت. ليست أوربا بالمثل الأعلى الذي يمكن الاحتذاء به، بل هي الآن في أسوأ أحوالها، وربما في نهايتها. إنما المسلم الجديد هو القادر على استئناف رسالتها[2].

والزعم بأن أوربا هي التي وضعت المنهج التجريبي زعم خاطئ. وإن آراء روجر بيكون R. Bacon عن التجربة مستقاة من آراء المسلمين قبل أن يتم تنظيمها من فرنسيس بيكون F. Bacon. لقد تعلم روجر بيكون في الجامعات الإسلامية في الأندلس. والقسم الخامس من كتابه Corpus Maius عن البصريات نقل من كتاب «المناظر» لابن الهيثم. وقد تأثر بابن حزم. كذلك تعلمت أوربا المنهج العلمي من المسلمين. واعترف بذلك مؤرخوها المتصوفة مثل بريفوا Brifault في كتابه تكوين الإنسانية Making of Humanity. فقد درس بيكون اللغة العربية والعلم العربي والعلوم العربية في مدرسة أكسفورد على أساتذة كانوا تلاميذ العرب في الأندلس. وهو ما فاق به العرب اليونان. فالمحسوس المتناهي مصدر العلم. والتجربة والملاحظة طريقه. عرف اليونان التناسب وليس اللانهائية. بينما عرف العرب المتناهي من أجل الوصول إلى اللامتناهي. لذلك لم تنتشر نظرية الجوهر الفرد من ديموقريطس بسبب رفض الأشاعرة لها. وكان البيروني أول من بحث الدال في الرياضيات التي أصبحت فيما بعد رمز ثقافة الغرب. واكتشف الأعداد الزمنية، كما

(1) السابق، ص13 ـ 15.

(2) «إن مثالية أوربا لم تكن أبداً من العوامل الحية المؤثرة في وجودها. ولهذا أنتجت ذاتاً ضالة أخذت تبحث عن نفسها بين ديموقراطيات لا تعرف التسامح. وكل همها استغلال الفقير لصالح الغني. وصدقوني إن أوربا اليوم هي أكبر عائق في سبيل الرقي الأخلاقي للإنسان». السابق، ص207.

لاحظ اشبنجلر[1]. واعتمد عليه نيوتن لاستكمال الدوال المركبة. واستحدث الخوارزمي الرياضيات بالانتقال من الحساب إلى الجبر، واختراع حساب التفاضل والتكامل. ووضع جدول «اللوغاريتمات». وأراد هيوم تحرير العلم التجريبي من أي أثر خارجي. ثم أكمل أينشتين ما بدأه هيوم[2]. ولا يوجد شيئ عام مشترك بين الناس مثل الوقائع العامة التي لم يرها الناس حتى أتى بيكون ليفتح عيونهم عليها مع أنها كانت نصب أعين المسلمين، دون الوقوع في التجريبية الجذرية[3]. فالآخر وليس الأنا هو الذي نجح في الحياة. والشخصية الإنسانية مستقلة عن الجهاز العصبي ومراكز الإحساس في المخ كما هو الحال عند برجسون[4]. يعتمد العلم على الميتافزيزقا. فلا يسخر العلم من الميتافيزيقا لأن أول من أعطى العلم فكرة المادة هو ليبنتز. فالجوهر لديه قوة أو مقاومة. ثم استعار العلم هذه الفكرة من الميتافيزيقا. ودرس سلوك القوة التي يمكن اكتشاف نفسها بنفسها[5]. وقد لعب العلم مع الميتافيزيقا دور «الاستغماية». كل منهما يخبئ نفسه وراء حجر الآخر[6]. وإذا كان العلم يشعر الإنسان بضآلته فإن الميتافيزيقا تشعره بعظمته. فعندما رأى مذنّب هالي في أول مايو 1910 وهو ما يحدث مرة كل خمسة وسبعين عاماً سابحاً في الفضاء، وهو ما سيراه الأحفاد، شعر بضآلته وحدوده. ولم يعد لديه أي طموح إنساني[7].

ب ـ **الإيمان الفلسفي**: ويميل إقبال إلى ديكارت وكانط في عرض الدليل الانطولوجي على وجود الله بين إثبات ديكارت له عن طريق استنباط الوجود من الكمال ونفي كانط لأن الوجود لا يستنبط من الفكر وإلا كان زيادة ثروة عن طريق إضافة بعض الأصفار إلى اليسار[8]. كما يظهر ديكارت كفيلسوف حديث يثبت تميز

---

(1) السابق، ص148 ـ 151.

(2) السابق، ص224 ـ 225.

(3) St. Ref., p. 147.

(4) Ibid., p. 111.

(5) Ibid., p. 58.

(6) Ibid., p. 58 لعبة الاستغماية Hide and Seek.

(7) Ibid., p. 12 - 3.

(8) السابق، ص38 ـ 39.

النفس عن البدن واستقلالها عنه كما يقول المسلمون[1]. في حين أكد ليبنتز الانسجام المسبق. وحاول بعض العقليين مثل ليبنتنز وهاملتون اكتشاف البعد العقلي في الدين[2]. وبين لانج Lange في الانفعال الوجداني أن الجسد هو البادئ بالتأثير المتبادل وهو مما يثير الشك. إذ أحياناً تكون النفس هي البادئة.

ويعتمد إقبال على فارنل Farnell في حديثه عن صفات الله، وبيان أن تاريخ الدين يكشف عن أحوال الفكر واتجاهه إلى وحدة الوجود، وإن لم يوفق في وصف الذات الإلهية بالنور اعتماداً على القرآن[3].

ودعوة الغزالي مثل دعوة كانط في القرن الثامن عشر للمذهب العقلي الحليف للدين. ثم تبين له أنه لا يمكن البرهنة على العقيدة. فلم تعد مقدسة. ثم ظهر مذهب المنفعة في الأخلاق. وبالتالي أدى المذهب العقلي إلى الإلحاد. كما كشف كتاب «نقد العقل الخالص» عن قصور العقل الإنساني. فهدم ما بناه كانط من قبل. وهي نفس النتيجة التي انتهى إليها الغزالي بعد قضائه على المذهب العقلي. وإذا كان كانط لم يستطع إثبات أن معرفة الله ممكنة فإن الغزالي اتجه نحو الرياضة الصوفية، وبالتالي أثبت الدين مستقلاً عن العلم والميتافيزيقا. وهذا عرض غير دقيق. فقد ظهر مذهب المنفعة في الأخلاق كرد فعل على أخلاق الواجب. ولم يؤد المذهب العقلي إلى الإلحاد بل إلى الإيمان بالشيئ في ذاته وهي الإرادة الحرة أو الأمر المطلق[4]. وفات الغزالي وكانط إدراك أن الفكر يتخطى حدوده. وهو أقرب إلى موقف هيجل[5]. والزمان المتجدد عند كانط هو جوهر العلية[6]. وخطأ كانط في تصوره للنفس هو أنه وضع خلودها وفناءها من نقائض العقل. وقد رد عليه ليرد Laird بأن هذا التناقض ينشئ عالماً جديداً. والتجارب كيفيات تجعل الشعور بالنفس شعوراً روحانياً[7]. والحجج التي قدمها كانط على خلود النفس

(1) السابق، ص119 ـ 120.
(2) السابق، ص219.
(3) السابق، ص76.
(4) السابق، ص10 ـ 11.
(5) السابق، ص13.
(6) السابق، ص49.
(7) السابق، ص115 ـ 116.

حجج أخلاقية أي نوع من الإيمان بمقتضيات العدالة. إذ يعجز العقل عن إثبات الخلود. في حين ينشد الإنسان الخير ويسعى إليه. ويشمل الخير الفضيلة والسعادة، ويرمز إليها بالواجب[1].

وكان كانط هو أول من تساءل: هل الميتافيزيقا ممكنة؟ الظاهر ممكن معرفته أما الشيئ في ذاته فهو موضوع تصديق وهي ثنائية يصعب قبولها.

كان الهدف الرئيسي للقرآن هو إيقاظ شعور أسمى بين الخالق والكون في نفس الإنسان. وهو الذي جعل جوته يعتبر الإسلام قوة مهذبة مؤدبة كما صرح بذلك إكرمان[2]. ويستشهد إقبال بأبيات من شعره لإثبات أن الحقيقة الأولى مبدعة ذات نظام معقول. وتفسير الحياة ذاتاً ليس وقوعاً في التشبيه بل تسليماً بالواقع البديهي بأن الوجود ليس غائماً بل هو نسق منظم، نشاط تركيبي يربط بين العناصر الحية من أجل البناء. خطورة الفكر أنه حجاب على الحياة. وهي تيار جارف يعم جميع الأشياء. لذلك يؤدي المذهب العقلي إلى جعل الله هو الكل أي إلى وحدة الوجود. والمعرفة المباشرة منبعثة من داخل النفس. وتكشف البداهة الحياة بوصفها ذاتا مركزة. هذه المعرفة كشف مباشر للحقيقة. تثبت التجربة أن ماهية الحقيقة ماهية روحية أي ذات. والدين أسمى في الفلسفة. الفلسفة نظر عقلي في الأشياء. في حين أن الدين يذهب أبعد من ذلك. يغوص داخل النفس دون أن يعلو بفعل العقل. هو اتصال بالحقيقة أقرب وأوثق. الفلسفة نظرية مجردة، والدين تجربة حية، مشاركة واتصال أوثق. ويستطيع الفكر أن يتجاوز ذاته عن طريق حال من أحواله مثل الصلاة[3].

(1) السابق، ص129 ـ 130.

(2) السابق، ص15.

(3)
وبحر لا تحده حدود ... يظل لنفسه أبدا يعيد
يصب به الوجود إلى وجود ... ويبقى في الزمان له خلود
ترى الأقواس آلافا تلاقت ... وقد نهضت فليس بها بعيد
لتحفظ هيكلا عظمت ذراه ... وعز على الفناء فلا يبيد
وفي حب الحياة ترى الثريا ... تضيء لكي يكون لها مزيد
كما أن الثرى في الأرض يهوى الحياة، كلاهما رأي سديد
خلائق كلها تسعى كفاحا ... وتنشط في الحياة لها جهود

=

ويرى هالدين J. S. Haldane أن الاختلاف الرئيسي بين الكائن الحي والآلة هو الاكتفاء الذاتي في الكائن الحي في الوجود والاستمرار[1]. وفكرة أن الحقيقة روحية في جوهرها وأنها على درجات كما يصفها السهروردي موجودة في العصر الحديث على أوسع نطاق عند هالدين في كتابه «مملكة الشبيه» وعند هيجل أيضا[2]. ويرى دريش Driesch عالم الأحياء أن الحياة وحدة واقعية كاملة[3].

وقد أدى مذهب فوريد إلى الدين خدمة لا تقدر بثمن باستبعاد ما يزيفه الشيطان عما هو متصل بالله بالرغم من غياب الحجج المقنعة على ذلك. فإن كانت الميول الشاردة غير موجودة في الأحلام أو في أوقات الوعي فإنها لا تبقى حبيسة في اللاوعي. وتنبثق بين الحين والآخر إلى منطقة الوعي[4].

وإثبات العلم الإلهي المطلق يثير مشكلة الشر في العالم كما عرضها ناومان Nauman في كتابه «رسائل في الدين». فمعرفة الكون تثبت وجود إله ذي قوة وقدرة تبعث الحياة أو الموت، ويولّد خلق الكفاح في سبيل الوجود[5]. ويقول إن المسيحية لم تحفل بقيام دولة أو وضع تشريع. فقد ظهرت في الإمبراطورية الرومانية التي كفت المجتمع تشريعاته. في حين أن الإسلام جمع بين الدين والدولة كما فعل أفلاطون في محاورة «الجمهورية»[6].

ويأسف برنجل ـ باتيسون Pringle - Pattison على أن اللغة الإنجليزية ليس بها إلا لفظ واحد هو «الحق» ولا يوجد بها لفظ آخر يعبر عن «الأمر»[7].

وكما قدم الأمويون عقيدة القضاء والقدر لتسويغ حكمهم التسلطي كذلك قدم الفلاسفة تسويغاً عقلياً للنظام الرأسمالي باعتباره أكمل نظام اجتماعي. كما جعل

= وكل كفاحها سلم وأمن ورضوان من الله أبيد

السابق، ص73 ـ 74. (ترجمة مهدي علام).

(1) السابق، ص53 ـ .

(2) السابق، ص85.

(3) السابق، ص54 ـ 55.

(4) السابق، ص32 ـ 34.

(5) السابق، ص95.

(6) السابق، ص191.

(7) السابق، ص118.

هيجل العقل واقعاً والواقع عقلاً بالرغم من قوله بلا نهائية العقل. ورأي أوجست كومت أن وظيفة كل عضو في المجتمع قد حُددت منذ الأزل[1].

ويتفاءل برونج Browning. فالعالم على خير حال. على عكس شوبنهور المتشائم. فالعالم تتصرف فيه إرادة عمياء في صور لا تتناهى من المخلوقات الحية، تحيا وتفنى إلى الأبد[2].

وقدم برادلي أفضل دليل في تاريخ الفكر الحديث على استحالة إنكار حقيقة النفس. ففي كتابه «دراسات أخلاقية» يفترض حقيقة النفس. وفي كتابه الآخر «المنطق» يعتبر النفس فرضاً عملياً، صحيح النتائج، ولم يقم على برهان. وفي كتابه «الحقيقة والمظهر» يجعل النفس موضوعاً للبحث العميق، وينتهي إلى شيئ قريب من الأوبانيشاد عن بطلان حقيقة النفس الإنسانية. وينقد إقبال الخلط والتشويش عند برادلي مما أداه إلى التسليم بحقيقة النفس كرها[3].

ويذهب اشبنجلر في كتابه المشهور «أفول الغرب» بأن الإسلام ينكر النفس إنكاراً تاماً، وأن عقيدة القضاء والقدر منبثة في ثنايا القرآن كله. ويرى إقبال أن القرآن لا يقوم على تصور عليّ للأفعال بل على تصور حيوي. الحياة طفرة، وهي حياة الإيمان. وهي طمأنينة تتولد عند العظام والأبطال مثل نابليون[4].

وفي الفصل الذي عقده اشبنجلر عن «الثقافة العربية» فتح آفاق التفكير، ولكن على فهم خاطئ لحقيقة الإسلام كحركة في التاريخ. فالثقافات لديه دوائر منعزلة لا يتصل بعضها بالبعض الآخر. ولكل روحها وخاصيتها. الحضارة الأوربية معارضة لحضارة القدماء. وتلك عبقريتها، المعاداة للقديم، وليس من تأثرها بالحضارة الإسلامية. وهي ثقافة مجوسية في روحها وطبيعتها. وهو رأي صحيح. والحقيقة أن هذا الطابع نشأ من ثورة الإسلام على القديم. ويسمي اليهودية والدين الكلداني القديم والمسيحية والزرادشتية والإسلام مجموعة الأديان «المجوسية». وهو خطأ فادح يجهل حقيقة الإسلام وفلسفة الذات. وسبب خطئه أن المجوسية

(1) السابق، ص128.

(2) السابق، ص95.

(3) السابق، ص112 ـ .

(4) السابق، ص125 ـ 127.

تقوم على الصراع بين الخير والشر. وهو موجود في باقي الديانات القديمة[1].

ورأي ابن رشد في خلود العقل الكلي مثل رأي رينان في خلود الإنسانية والحضارة[2]. ويشبه رأي القرآن في الخلود. ويرى هلمهولتز Helmholtz أنه إمكانية تحقق. فالتهيج العصبي لديه يستغرق وقتاً كي يصل إلى الشعور[3].

وقد أكد الفكر الغربي الحديث مفهوم الخلود في نظرية «الوجود الأبدي» عند نيتشه. وكانت الفكرة قد شاعت من قبل. ويخالف نيتشه تصور كانط وشوبنهور للزمان. فالزمان لا يمكن تصوره إلا في شكل دورات. فالدائرة، كما لاحظ ابن رشد من قبل في الجمع بين القدم والحدث، متناهية من حيث الشكل والمكان لا متناهية من حيث الحركة والزمان. فنظام الحوادث في الكون نظام ثابت لا يتغير[4].

ولا يمكن تجاهل الميتافيزيقا وجعلها كما يريد نيتشه «لعب مشروع للكبار» أو لانجه Lange «صورة من الشعر سائغة». إذ يعتمد عليها الخبير بالدين. ولا يعتبره أكذوبة كبرى أو مجرد فرض يضبط به الفكر والسلوك لحث الإنسان على السعي والكد والكفاح. مغامرات العلم لا خطر فيها. أما مغامرات الدين فقد تؤدي إلى الهلاك[5]. ولا يستبعد نيتشه أن الإنسان الأسمى سيكون نهاية التطور. بل الإنسان قادر على أن يتجاوز مصطلحاته العلمية بما يشعر به من رغبة في التجاوز. ودون ذلك تقع الإنسانية في الفلسفة المادية التي تقضي عليها كما لاحظ هكسلي Huxley.

ويصف نيتشه الوطنية والقومية بأنها أمراض وحماقات تعادي الثقافة. وهي الأمراض التي أصابت المسلم العصري في تركيا ومصر وإيران[6]. كان موهوباً في علم النفس الديني، ولكنه فشل لتأثره بأسلافه من المفكرين مثل شوبنهور وداروين ولانج[7].

---

(1) السابق، ص164 ـ 166.

(2) السابق، ص129.

(3) السابق، ص137.

(4) السابق، ص131 ـ 133.

(5) السابق، ص212.

(6) السابق، ص215 ـ 216.

(7) السابق، ص223 ـ 242.

جـ ـ الإيمان الصوفي: يعتمد إقبال على تحليلات هوكنج للشعور الديني وعلاقته بالعقل. فالعقل جزء من الشعور وليس مستقلاً عنه. ومن ثم لا مسوغ لنقد الصوفية للعقل. وهو ما يرجع إلى الخلاف الكلامي القديم عن خلق القرآن وأنه «معني في النفس»[1]. يرى هوكنج أن الولي لا يحصل على الإلهام إلا إذا كانت روحه مستعدة لاستقبال الأبدية. وهذا هو طريق الولاية أو النبوة[2].

ولا يعرف ماكدونالد شيئاً عن الاختلاف النفساني الجوهري بين الوعي الصوفي والوعي النبوي. ويتندر على الوعي النبوي في «جمعية البحوث الروحانية». ولو أنه فهم روح القرآن لأدرك كيف انتهى المسلمون إلى النزعة التجريبية[3].

ويعتمد إقبال على برجسون في التأكيد على أن الفكر والبداهة قرينان. بل إن البداهة ليست إلا ضرباً عالياً من التفكير[4]. وقد انفرد بدراسة الديمومة. فالزمان كيف وليس مجموعة من اللحظات أو الذرات كما هو الحال عند ديموقريطس[5]. والغائية مفتوحة على المستقبل. وهي العلة الفاعلة بالأصالة. ربما أخطأ برجسون في اعتبار الزمان الخالص سابقاً على النفس التي منها تنبثق الديمومة الخالصة[6]. كما يعتمد إقبال على برجسون في تحديد مفهوم الفرد في كتابه «التطور الخالق». فالفردية هي أساس تطور الكائنات الحية، خروج الفرد من الجماعة حتى الوصول إلى الفرد المطلق، الصوفي أو النبي، البطل أو الإله[7].

وكان لوليم جيمس في كتابه «أنواع الخبرات الدينية» نظرات نفسية قيمة لتحليل الوعي الصوفي. فبعض أنواع الرسالات يحمل طابع الشخص البالغ مثل الغيبوبة والنوبات العصبية[8]. والصلاة عبادة، والناس سيصلون إلى آخر الزمان.

---

(1) السابق، ص29 ـ 30.
(2) السابق، ص34 ـ 35.
(3) السابق، ص25 ـ .
(4) السابق، ص7.
(5) السابق، ص57 ـ 58/ 62 ـ 63/ 65.
(6) السابق، ص67.
(7) السابق، ص75.
(8) السابق، ص25/ 31 ـ 32.

والدافع على ذلك أن الصلاة نتيجة ضرورية من أن النفس الإنسانية بالرغم من اتجاهها الاجتماعي إلا أنها في حاجة إلى رفيق أعظم في عالم مثالي. وهو أيضاً موقف الأفلاطونية المحدثة وتأويلاتها عند المسلمين أو المسيحيين. فهي تكمله للنشاط العقلي. وهو ما أكده الرومي في صلاة الصوفية النابعة من القلب، وليست صلاة الجوارح عند الفقهاء[1]. والشعور تيار جارف من الفكر، تدفق واع من التغيرات المتصلة. وكلها تكوّن النفس لإثبات وجودها واستقلالها عن البدن خلود[2]. ورأي ابن رشد في خلود النفس يشبه رأي وليم جيمس القائل بوجود آلية صورية في الوعي تؤثر في وسيط من الجسم عندما تتخلى عنه[3].

وعند رويس الحالة الصوفية علاقة متبادلة بين الشيخ والمريد. وهو أمر لا يقاس كميا[4]. ويشبه رأي جلال الدين دواني في فقرة من كتابه «زورا» عن الزمان رأي رويس. فلو كان الزمان نوعاً من الامتداد لكان ظهور الحوادث ممكناً بوصفها ركباً يتحرك. يسير وكأن هذا الامتداد وحدة. إلا أنه ليس حالة أصيلة من أحوال القدرة الإلهية، تحيط بأحوالها المتعاقبة. ويزيد جلال الدين بأن هذه الحالات تتلاشى في الله لأن علمه يحيط بكل شيئ. وهو أيضاً رأي الشاعر العراقي. وقد فصّل الرازي في «المباحث المشرقية» موضوع الزمان. وهو نفس رأي ميرداماد وملا باقر. وهو نشأة لازمان مع الخلق[5].

ويعتمد إقبال على تعريف هوايتد للدين بما يتفق مع التعريف الإيماني الصوفي. وهو أنه نظام مجموعة من الحقائق العامة لها تأثير في تكييف الخلق إذا صدق الاعتقاد بها، وفهمت فهماً واضحاً. وعصر الإيمان هو عصر الإيمان العقلي[6].

د. **الإيمان العلمي**: رفض هوايتهد النظرية المادية القديمة. فما لا يدركه

(1) السابق، ص104 ـ 105.
(2) السابق، ص117.
(3) السابق، ص129.
(4) السابق، ص17.
(5) السابق، ص89 ـ 92.
(6) السابق، ص6.

الحس فراغ مطلق. ليست الطبيعة شيئاً قاراً يقوم في خلاء لا حركة فيه، بل هي عملية متدفقة دائمة، يقسمها الفكر إلى وحدات منعزلة. وهو نفس موقف برجسون. وقد ارتبط التصور القديم بنيوتن الذي تصور الفضاء خلاء مطلقاً تقوم فيه الأشياء. وفي عرض هويتهد لنظرية أينشتين أصل فكرة المركب محل فكرة المادة إحلالاً تاماً[1]. ويقول هوايتهد في كتابه «العلم والعالم الحديث» أن أفضل التفسيرات هو أن الالكترون لا يتحرك حركة متصلة في محله[2]. كان هوايتهد أقرب إلى المسلمين من أينشتين في تصورهما للنسبية. فهي حية عند الأول، وأكثر تجديداً عند الثاني[3].

وكان بركلي أول من نقد نظرية المادة باعتبارها علة لا تُدرك حسياً[4]. وعند ماكس بلانك في نظريته الخاصة بمقدار الطاقة المشحونة في الذرة، يمكن تصور حركة الذرة متصلة في مجالها[5].

وجاءت نظرية أينشتين بنظرة جديدة للكون. وفتحت آفاقاً جديدة للدين والفلسفة. كما أتى المسلمون بنظرة جديدة على نظرة اليونان[6]. وقد قوضها في نظرية النسبية[7]. فالمكان موجود وجوداً نسبياً. تتغير أشكاله بالنسبة للملاحظ. ويتكرر رأي نيوتن في المكان المطلق. ونظرية أينشتين نظرية علمية خالصة. تتناول بناء الأشياء دون ماهياتها. ليس الكون عند أينشتين قائماً في فراغ لا نهائي بل هو متناه بلا حدود. لا يوجد بعده خلاء. وإذا انعدمت المادة انكمش الكون إلى نقطة. عيب نظرية أينشتين أنها تؤدي إلى بطلان الزمان[8]. واعتبار العلم الإلهي مطلقاً سلبياً هو نوع من الفراغ الجامد الذي اتسمت به الطبيعيات قبل أينشتين. يضفي على الأشياء وحدتها. وأيده رسل. فقد أدخلت النظرية النسبية الزمان في المكان.

(1) السابق، ص41 ـ 43/ 48/ 56.
(2) السابق، ص83.
(3) السابق، ص154.
(4) السابق، ص41/ 43.
(5) السابق، ص83.
(6) السابق، ص14.
(7) السابق، ص41 ـ 42/ 47 ـ 49.
(8) السابق، ص93.

ولم يعد هناك جوهر كما تصوره القدماء[1]. ونقد مثل برجسون حجج زينون على نفي الحركة بقسمتها في المكان إلى ما لا نهاية، اعتماداً على حجة كانتور في اتصال الكم الرياضي.

وقد اتهم ولدون كار Wildon Carr النظرية النسبية بأنها تؤدي بالضرورة إلى المثالية الذرية. في حين أنها تقضي فقط على الظواهر المطلقة في الطبيعة. وإذا كان العقل ثمرة التطور فإن تصور الطبيعة على نحو آلي يكون متناقضا[2].

ويعتبر نن Nunn أن الإطار الزماني المكاني لا يتوقف على عقل الملاحظة بل على نقطة اتصال جسمه بالعالم المادي وكما يقول هوسرل في «العالم لا يتحرك»[3]. وقد تصور أوزبنسكي، وهو من المفكرين الروس المعاصرين الزمان كبعد رابع على أنه حركة جسم ذي أبعاد ثلاثة في اتجاه خارج نفسه في كتابه Tertium Organum. ولا يختلف عن أبعاد المكان عند إقليدس ولكنه اتجاه جديد في المكان[4].

وفند برجسون تصور زينون الإيلي للحركة في المكان. وجعله ينقسم إلى ما لا نهاية في حين أن الحركة في الزمان لا تنقسم. والزمان عند برجسون هو الديمومة[5]. ويثبت رونجيه Rongier في كتابه «الفلسفة والفيزياء» أن بالعالم طفرات مفاجئة على عكس ما تصور القدماء، وليس على مقياس محسوب. بها حالات متمايزة، ولحظات متميزة مثل حياة الشعور[6].

وتكشف النتائج التي توصل إليها نيوتن ودارون في ميدان التاريخ الطبيعي عن آلية تفسر الطبيعة تفسيراً كلياً وشاملاً بما في ذلك حياة الشعور[7]. والزمان عند نيوتن شيئ في نفسه ومن طبيعته الذاتية. يتدفق بالتساوي. وهو قريب من تصور

(1) السابق، ص43/ 45 ـ 49.
(2) السابق، ص47/ 55.
(3) السابق، ص48.
(4) السابق، ص49 ـ 50.
(5) السابق، ص44/ 49.
(6) السابق، ص88.
(7) السابق، ص51.

الأشاعرة في أن الزمان مجموع أناث[1].وقد تغيرت نظريات العلم من نيوتن إلى هيزنبرج القائل بمبدأ عدم التحدد إلى مذهب يجعل الإلهيات العقلية ممكنة كما هو الحال لدى أنصار الدين الطبيعي[2].

وينكر ماكتاجرت Mctaggart حقيقة الزمان لأن كل حادث يقع في الماضي أو الحاضر أو المستقبل. وقد يكون الحدث حاضراً بالنسبة لمعاصريه، وماضياً بالنسبة لنا. وقد يكون مستقبلاً بالنسبة لمن يتوقعه. وقد وافقه برود Broad على ذلك[3]. والزمان حقيقي عند أوغسطين[4].

ويستشهد إقبال بكتاب «المكان والزمان والجاذبية» لإدنجتون لإثبات الخلق في الزمان والمكان من ناحية، ووجود ذات لازمانية ولا مكانية من ناحية أخرى[5]. وهو ما قاله أيضاً هوبسون Hopson، خضوع العالم لقوانين الجاذبية والميكانيكا والهندسة. وقد تساءل إدنجتون عن كيفية معرفة الوجه الآخر للذوات الطبيعية الجزئية، خاصة وأننا نشعر به[6].

وقد رأى صمويل الكسندر في كتابه «الزمان والمكان والألوهية» أن الله موجود بالقوة لا بالفعل، وأنه في سبيل الخروج إلى القوة. وهو تطبيق للزمان الذري على الذات الإلهية[7]. هناك مكان وزمان مطلقان. وكلاهما تعبير عن الألوهية. ولو أن العراقي تعمق في مفهوم الزمان لأدرك أنه هو الأهم. فالزمان عقل المكان كما يقول الكسندر. والعراقي يتصور علاقة الإله بالكون مثل علاقة الروح بالبدن. ولولا تعصب العراقي لأرسطو لوصل إلى مفهوم الزمان في العلم الحديث[8].

(1) السابق، ص87.
(2) السابق، ص210.
(3) السابق، ص69 ـ 70.
(4) السابق، ص70.
(5) السابق، ص79 ـ 80.
(6) السابق، ص214.
(7) السابق، ص89.
(8) السابق، ص158 ـ 159.

الباب السابع

الدولة الأمة

الفصل الأول

نظام الدولة

1 ـ موضوع السياسة

لم يؤلف إقبال في السياسة مباشرة كما فعل في «تطور الميتافيزيقا في فارس» و«تجديد التفكير الديني في الإسلام»، لكنه له بعض الكتابات والرسائل في السياسة. معظمها خطب ألقيت في بعض المؤتمرات واللجان السياسية تم تجميعها في عملين بالإضافة إلى رسائل إلى محمد علي جناح[1]. السياسة تطبيق للفلسفة عامة، وللشعر خاصة، فهي جزء من الآداب. لذلك خسرت إيطاليا مازيني منظر الوحدة الإيطالية التي حققها جاريبالدي. كان تخصص مازيني الفعلي الأدب وليس السياسة. ومكسب إيطاليا ليس كثيراً بالمقارنة إلى خسارتها بانشغاله بالسياسة عن الأدب[2]. أما السياسة وحدها فلها معني سلبي عند إقبال. فهي أدوار في لعبة التيجان أي السلطة، بين الشاه والجندي[3]. السياسة بمعنى النظام هي العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

---

(1) A - Thought & Reflections of Iqbal, edited with notes by Sayed Abdul Vahid, SH. Muhammad Ashraf, Kashmiri Bazaar, Lahore, Pakistan, May, 1964.

B - Letter's and writings of Iqbal edited and compiled by B. A. Dar, Iqbal Academy, Karachi, November, 1967.

C - Letter's of Iqbal to Jinnah, Allama Iqbal's views on the political future of Muslim India, SH. Mohammad Ashraf, Kashmiri Bazaar, Lahore, Reprinted, 1968.

Shamloo في Speeches and Statements of Iqbal وقد جمع كثيراً منها شاملو.

(2) ST. Ref., p. 57.

(3) تقضي السياسة أن نحدد أولا أدوارنا في لعبة التيجان =

والحكم في هذا العصر ويسميه إقبال الحكومة رضى بين الحاكم والمحكوم. فلا المحكوم غاضب ولا الحاكم غاضب. والأمة ثابتة في مكانها خارج حلبة السعي. شغلت عقلها بما لا يفيد مثل مسألة الذات والصفات. دستورها مغلق لمجتمعات الأديرة. ليس فيه من رموز الحياة شيئ. هي أمة ارتضت الراحة وارتضى الشباب فيها السكون[1].

وتعني «حكمة» العدل مثل حكمة «الكليم». وهي سياسة الأنبياء. وتعني حكمة فرعون الضد أي سياسة الطغاة. وهي سياسة الاستعمار، وتدميره لحياة الإنسان، والقضاء على حريته. فإذا كانت حكمة الأنبياء هي العدل فإن حكمة الطغاة هي حكمة المكر والخداع. تحيل الإنسان إلى حيوان عن طريق الجسد، وتسلب الروح كرامة الحياة. هي حرية مارقة تعيش في الدنيا بغير دين. والنفس فيها شاردة في أوهامها، لا تعرف الشرف أو اليقين. ووسائل التهذيب في النظام سلاسل الأسرى وأغلال العبيد. وينقاد الغلام للسيد، ولا يعرف ما يعني، وماذا يريد؟[2].

السياسة تقنين لأشكال الحكومة. يقول السكندر بوب Alexander Pope «اترك

= لا الشاه أنت بها ولا أنا بيدق ... هذا اختيار اللاعب الشيطان
إن البيادق إن أعاقت نفسها ... دلت على شاه بلا سلطان
جناح جبريل، ص542 ـ 543.

(1) يرضى المريدون قول حق ... ليسوا عن الحق بالعتاة
والشيخ قول الفقير يقلي ... وليس للحق بالمواتي
قد قعدت أمة وباءت ... في حلبة السعي بالخزاة
إن شغلت عقلها ببحث ... فلسفة الذات والصفات
دستور ذا الدير ليس فيه ... للخمر والشرب من ثبات
لكنما راحته نصيب ... لأمة حرة السمات
الشهد عند الشباب فيها ... المر من مورد الحياة
ضرب الكليم، ص54.

(2) قدّمت حكمة النبي للعيان ... والمكر والخداع حكمة الطغاة
تبقي على الإنسان جسم الحيوان ... وتسلب الروح كرامة الحياة
حكمتها حرية مارقة ... تعيش في الدنيا بها من غير دين
والنفس في أوهامها شاردة ... لم تعرف الشوق إلى عين اليقين
وسائل التهذيب من هذا النظام ... سلاسل الأسرى وأغلال العبيد
كما يرى السيد ينقاد الغلام ... فلا يرى ولا يعي ولا يريد
يا أمم الشرق، ص352.

المجانين يحاربون من أجل أشكال الحكومة». ولا يوافق إقبال على رأي هذا الفيلسوف السياسي. الحكومة، بصرف النظر عن شكلها، هي إحدى القوى المحددة لشخصية الأمة. وفقدان السلطة السياسية مدمر لشخصية الأمة. ومنذ الانهيار السياسي للمسلمين في الهند وقع لهم انهيار أخلاقي سريع. ومن بين المجتمعات الإسلامية في العالم، هم أضعفهم في الشخصية[1].

والفلسفة لا تصمد أمام السياسة. فمهما كان الفيلسوف حكيماً يقول بالحكم العدل فإن السياسي هو الذي يحول العدل إلى ظلم، والحق إلى باطل. الفلسفة نظرية، والسياسة عملية. والعمل يجب النظر. الفلسفة أخلاقية، والسياسة لا أخلاقية. وهو الدرس المستفاد من الغرب منذ «الأمير» لميكيافيللي[2].

والحياة السياسية الحقة لا تبدأ بالمطالبة بالحقوق ولكن بالقيام بالواجبات. وقد قامت سياسة الغرب على الحقوق دون الواجبات. وفيه تم «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان»، وليس «الإعلان العالمي لواجبات الإنسان ومسؤولياته». وتقوم الحياة السياسية لدينا على الواجبات دون الحقوق. تفرض الدولة على المواطنين واجباتهم دون أن تعطيهم حقوقهم. وعلى هذا النحو أيضاً يتم تصور تطبيق الشريعة الإسلامية كحدود وليس كحقوق، كعقوبات وليس كإشباع للحاجات الأساسية[3].

---

(1) SR. Ref., pp. 14 - 5.

(2)
لا تـقـيـسـوا فـلـسـفـيـا بـارعـا ... بـسـيـاسـي وبـالـعـدل احـكـمـوا
ذاك عـيـن جـهـرت فـي شـمـسـهـا ... وجـمـود عـيـن ذا لا تـرحـم
ذاك فـي الـحـق دلـيـل واهـن ... ذا لـدى الـبـاطـل قـول مـحـكـم

رسالة الشرق، ص330.

(3) وقد تم منذ عشر سنوات صياغة «الإعلان العالمي لمسؤوليات الإنسان Universal Declaration of human Responsibilities!» صاغته لجنة كونها هلمولت شميث مستشار جمهورية ألمانيا الاتحادية السابق برئاسة هانز كنج Hans King اللاهوتي السويسري وعضوية حوالي العشرين وكنت أحدهم. ووافقت عليه الجمعية العامة للأمم المتحدة. وأصبحت لجنة «لجنة الفعل المتبادل». Inter - action Council. وقد أتت اللجنة وزارت مصر. وقابلت الرئيس منذ عدة سنوات. وطلبت اللجنة حضوري ولكن وزارة الخارجية لم توجه لي الدعوة.

2 ـ الدين والدولة

وفي قصيدة «شقائق النعمان في الغرب» يرفض إقبال أساطير الغرب: العلمانية والمادية والعقلانية. العلمانية ضد الدين. والمادية ضد الروحانية. والعقلانية ضد الإيمانية. هي مثل شقائق النعمان (التوليب) حمراء كالنار ولكن لا تحرق. وهي كالدم ولكن دون حيويته. لذلك يضعها البستان على هامشه. وبالرغم مما توحي به هذه القيم الجديدة من فضاءات إلا أنها قفص ضيق. هي سفر تائه، وتيه مسافر. والحقيقة لدى موسى في سيناء. أخرج الدر من الأوصال والأوحال. كابد وسعى وجاهد[1]. وأي أسى عندما لا يتحول الدين إلى دولة أو الدولة إلى دين؟ دين بلا دولة دين ضعيف. ودولة بلا دين دولة خائرة ليس بكليهما شجاعة علي وقوة بصيرته[2].

والعلمانية أحد أسباب الضياع. كيف يستطيع المسلم أن يطوف في الحانات يسقى وهو مخنوق بعلمانيته؟ ألم تتكون الشجرة الباسقة في السماء إلا في الطين؟ فلا تجديد بلا تراث، ولا معاصرة دون أصالة[3].

ويستعمل إقبال اللفظين على التبادل، المشرق والشرق، والمغرب والغرب. ففي الشرق قامت دعوات علمانية مثل دعوات مصطفى كمال ورضا بلهوي، تنحرف بروح الشرق. وروح الشرق تبحث الآن عن بدن آخر تظهر فيه. والدعوة

---

(1) هي رُغم ما تبدي رحابة صدرها   قفص يضيق بمثله أمثالي
سافرتِ تائهة وتهتُ مسافرا   فتعالي نقتسم الهموم تعالي
وعلام أيتها الشقيقة سيرنا   وإلام هذا الكد في الترحال؟
موسى غريب عن نوى ودياتنا   وشتات بالك في الجبال وبالي
سيناء أنت ونار واديها أنا   وأنا تجليها وأنت جبالي
من ذلك الغواص أخرج درنا   من بين أوصال ومن أوحال؟
جناح جبريل، ص509.

(2) أسفا لدين ليس يكسب دولة   ولدولة وقفت كخيبر وجهه
من أين للاثنين كرة حيدر   يلقي سخافتها ويصلح فقهه؟
السابق، ص455.

(3) النخلة الشماء أختك كونت   مما تبقى من بقايا طينتك
أتطوف في الحانات تسقى كأسها   وتطوف مخنوقا بعلمانيتك
السابق، ص442.

إلى الذاتية دعوة لليقظة والحرية التي مازال البعض يتربص بها، ويريد القضاء عليها[1]. وكتب قصيدة إلى مصطفى كمال في يونيو 1922. عبر فيها عن إعجابه بعزمه وإقدامه ثم انقلب عليه بعدما بدأ تقليد أوربا. فجديده قديم أوربا[2].

3 ـ الملكية والجمهورية

ويسمي إقبال النظام الملكي أيضاً حكم الفرد أو القيصرية كما يسميه إبليس على لسان إقبال الملوكية. وحكم الفرد شر للناس جميعا. هو حكم الطغاة والمستبدين[3]. ولا يذكر إقبال شيئاً عن الملكية الدستورية وهي الملكية المقيدة أو الملكية الليبرالية التي طالما دافع عنها المصلحون قبل الأفغاني كنظام للعالم الإسلامي أفضل من الخلافة والنظام الملكي. وهو النظام الذي حكم مصر في النصف الأول من القرن العشرين. هو النظام القيصري القديم الجديد. لقد عادت القيصرية من الإمبراطورية الرومانية إلى القيصرية الجديدة[4]. ولا يذكر إقبال أيضاً التشريعات الرومانية ومجالس الشيوخ التي كانت تحد من سلطة الإمبراطور.

ويحيل إقبال إلى الملكية في بريطانيا دون أن يذكر أيضاً الدستور البريطاني،

---

(1)	جيب الشقائق من شدوي غدا فرقا	ونسمة الصبح روضا تطلب الآنا
	ما مصطفى أو رضا جلى حقيقتها	فالروح في الشرق جسما تطلب الآنا
	وحق ذاتي عقاب غير أن لها	ذا العصر جذعا وحبلا يطلب الآنا
	ضرب الكليم، ص103.	
(2)	أمة كانت ومن حكمتها	نحن آثار على مر العصور
	قد عرفنا سر تقدير مضى	فمضينا نقتفي سر الدهور
	شررا كنا، أجدنا نظرا	فإذا شمس على الكون تسير
	شيخنا أطفأ في أحشائه	نار عشق فخنعنا في فتور
	صرصر البيداء في فطرتنا	أذبلت ريح الصبا فينا الزهور
	وعلى الأفلاك دوّي صوتنا	فأسمعنه اليوم في نوح الأسير
	رُبّ صيد قد أخذنا وثبة	دون أشراك كما انقضت صقور
	وغدونا يوقع الصيد بنا	ولنا قوس وسهم في الجفير
	كلما أمكن طرف فاركضن	كم أمات العزم تدبير الأمور
	رسالة الشرق، ص302.	
(3)	وحكم الفرد شر للأنام	فمن من شره غير المضام
	أرمغان حجاز، ص441.	
(4)	السابق، ص513.	

وأن ملك بريطانيا يملك ولا يحكم. ويبين كيف تعاملت بريطانيا مع الملوك الذين نصبتهم في العالم الإسلامي كي يكونوا تابعين لها وإلا عزلتهم وعينت غيرهم. لقد عزلت بريطانيا ملك الهند الطيب. فالملك في بريطانيا صنم من تراب. يحطمه العباد متى يشاءون. ويستطيع الساحر البريطاني نحت صنم آخر[1].

والملكية حكم الشيطان. يقول إبليس إنه عرض على الإفرنج حكم الملوكية. وحطم سحر المسجد والمعبد والكنيسة. وعلم الجهلاء درس القدر. وأعطى للغنى جنون الرأسمالية. وأثنى المستشار الأول على هذا النظام الذي علم الشعب طعم العبودية والخضوع والمذلة على جبينه. صلاتهم بلا قيام. وخالون من الأماني. صار الصوفي والملاّ عبداً تاماً للملكية. كان هذا النظام مناسباً لطبع الشرق. وعلم الكلام مثل الغناء الصوفي. ولو بقيت مناسك الحج والطواف إلا أن سيف السلم أصبح كمالا. وتحريم الجهاد دليل على اليأس[2]. فليتحرر من عمل الدنيا حتى يتحرر من امتحان كل نفس[3].

والعبودية نتيجة للنظام الملكي الذي يقترن الإقطاع به. فالإقطاعي هو السيد. والفلاح هو العبد. والعبودية هي الموت. ولسوء الحظ، لا يفهم العبيد مكر السادة. ونظامها السياسي الملكية. غوغاء الصور حلال فيها. لذة الحشر حرام. فكيف يبحث عن مقام الذاتية في العبودية[4]. والنصيحة الواضحة للأمم المستعبدة أن فضاء الفلك بلا حدود لو ضاقت الأرض بها[5].

وأصبحت الخلافة خاصة في العصر التركي نوعاً من حكم الفرد والنظام الملكي. الخلافة بنور النبوة تاهت وضاعت عن المسلمين وتحولت إلى ملك طبقاً للحديث الشهير «الخلافة ثلاثون سنة تتحول بعدها إلى ملك عضود». ظن المسلمون أنهم أسمى مقاماً، ولكنهم خدعوا أنفسهم. فقد تنازعوا في الملك. ونسوا الفقر الذي كان يرى الملك حراما[6].

---

(1) أرمغان حجاز، ص523.

(2) السابق، ص511.

(3) السابق، ص531.

(4) السابق، ص535.

(5) السابق، ص542.

(6) بنور للنبي القلب أضرم   أنار بشرقه ما كان أظلم =

والسلطان أول المتسولين على الخراج الذي يجمعه من الناس. وهو أول السارقين لأنه يجمعه لملذاته. فقد صاح في الحانة يوماً سكير ظريف. إنما السلطان شحاذ وقح. لا يجرؤ أحد أن يقترب من تاجه أو أن يلبس حريراً أو ذهباً. كأسه أحمر من دماء الناس. كل ما في قصره منهوب بقرار إثر قرار. يسرق في نور الصباح وليس في دياجي الظلام. يأخذ من الفلاحة طعام دجاجة باسم الخراج[1].

ويدخل العباد إلى الدير لأنهم ذو احتياج. يذكرون الله حين يتأملون من الأصنام. فالدين منفعة. ثم يكتشفون أن الصلاة لا تفيدهم، ولا عبادة الأصنام. فحظهم النواح والعويل. والعمارات تطاول الأفلاك، ولكنها خراب ظاهر. والعلم والحكمة، والسياسة والتجارة. من إبداع الملكية. ومع ذلك، هناك بقعة من الأرض حرة من عبودية التاجر الأوربي[2].

ويبدو أن النظام الجمهوري أفضل من النظام الملكي. إلا أنه يقوم على الأغلبية والأقلية، على العد والإحصاء، وليس على وزن الناس جماعة[3]. ومع

= ولكن الخلافة وسط تيه فهذا المؤمنين الملك علَّم
ونشهد أننا نسمو مقاما وهذا الملك قد كان الحراما
خداع كله، بل كل مكر وترعى عهد ربي والذماما
لفقر عظيم قوم كنت عبدا لديه الملك في دين حرام
أرمغان حجاز، ص472.

(1) صاح في الحانة سكير ظريف إنما السلطان شحاذ جلف
أيكم يخرج عن بزته طمعا في ذلك التاج الصلف؟
أيكم يصبح عريان لكي يرتدي في القصر ثوبا من ذهب؟
كأسه حمراء في لون الشقيق وعليها من دم الناس حبب
كل ما في قصره جمّعه بقرار مجحف إثر قرار
ليس من يسرق في جنح الدجي مثل من يسرق في وضح النهار
كم بذاك الحقل من فلاحة شحذوا منها طعاما للدجاج؟
بلغوهم أنني قلت لكم إنما الشحاذ من سن الخراج
جناح جبريل، ص504.
السابق، ص523 ـ 524.

(2) بدا السر في قولة من أريب وما كان من قبله يُعلن
نظام الجماهير حكم به تُعد العباد ولا توزن
ضرب الكليم، ص107.

(3) علة الشرق ذلة واقتداء ونظام الجمهور في الغرب داء =

ذلك، إذا كانت علة الشرق الذلة والاقتداء فإن داء الغرب نظام الجمهور[1]. وينقد إقبال النظام الجمهوري بأنه نظام عددي لا يقوم على شحذ الهمة. فالنمل عدد، وسليمان ذو همة. وألف رأس حمار لا تساوي عقل إنسان[2]. ويتساءل المستشار الثاني عن الحكم الجمهوري خيراً أم شراً. ولا يرى غضاضة في بقاء الملكية. فما الجمهورية إلا لباس لها. فالسلطة هي السلطة. عينها على ثروات الغير. النظام الجمهوري الغربي له وجه مضيء، ولكنه من الداخل أحلك من جنكيز[3].

4 ـ الديموقراطية وحق الشعب

يفضل إقبال النظام الديموقراطي الذي يقوم على الاعتراف بحق الشعوب في تقرير المصير. تميل الديموقراطية إلى تقوية روح الشريعة. وهذا شيئ في حد ذاته خيّر. ثم تميل للأسف إلى أن تزيح الرؤية الأخلاقية الخالصة، وتوحد بين اللاشرعي والخاطئ في المعنى[4]. الديموقراطية ليست فقط في السياسة بل أيضاً في العلم. إذ تؤثر الأفكار وتتأثر بغيرها. فنمو روح الفردية في السياسة لها أثرها على الفكر العلمي الحديث. الفكر الحديث ينظر إلى العالم باعتباره ديموقراطية الذرات الحية[5].

نشأت الديموقراطية في أوربا مغطاة بظلال من الثورة الاشتراكية، والخوف الفوضوي من الانتعاش الاقتصادي للمجتمعات الأوربية. ونيتشه يستنكف من قاعدة القطيع هذه. وبعد أن يأس من الدهماء فإنه يجعل المسؤول عن الثقافة في العالم تنمية أرستقراطية «السوبرمان». والسؤال هو: هل الدهماء لا أمل فيها على الإطلاق؟ أما الديموقراطية الإسلامية فلم تنم من زيادة الفرص الاقتصادية بل هي

= مرض القلب والبصيرة فاش ما بشرق ولا بغرب شفاء
السابق، ص113.

(1) تريد معنى العُلى من ساقطى همم وأين للنمل إقدام السليماني؟
فاتبع حكيما ودع جمهورهم، أترى بألف رأس حمار عقل إنسان؟
رسالة الشرق، ص300.

(2) أرمغان حجاز، ص511.

(3) Th. & Ref., pp. 77 - 8.

(4) ST. Ref., p. 59.

(5) Th. & Ref., pp. 83 - 4.

مبدأ روحي قائم على أن كل إنسان مركز لقوة كامنة يمكن تنمية إمكانياتها بتربية شخصية نوعية. ومن الدهماء خرج رجال من أنبل الشخصيات المملوءة بالحياة والقوة. أليست الديموقراطية الإسلامية الأولى تفنيداً تجريبياً لآراء نيتشه؟[1].

الخطر على الديموقراطية هي أن الأقلية هي التي تقرر مصير العالم. ويشهد تاريخ أوربا بذلك. ويرجع ذلك لأسباب نفسية. لماذا تكون الأقلية عاملاً نشيطاً في تاريخ البشرية؟ الشخصية هي القوة الخفية التي تحدد مصير الأمم. والشخصية القوية لا تظهر في مجتمع الأغلبية. هي قوة كلما عمت ضعفت[2]. وولاة الأمر في شعب هم الذين يقدرون مصالحه، وليس من أجل استغلال الفلاح وحرمانه مما يزرع[3].

لذلك انتهت الديموقراطية إلى الرأسمالية في الغرب. إن الطموحات الإمبراطورية لمختلف البلاد الأوربية تبين أن الغربيين مرهقون بالديموقراطية. ورد الفعل ضد الديموقراطية في فرنسا وإنجلترا ظاهر للعيان. ومن أجل فهم هذه الظاهرة لا يقتصر جهد الباحث في العلوم السياسية على تقفي الأسباب التاريخية التي أدت إلى رد الفعل، بل يتوغل أكثر في الأسباب النفسية له[4].

تعني الديموقراطية حكم الشعب بنفسه. وهي تحقق الروح للشعب. وخفقان الروح خلقها[5]. وإثبات الذات إثبات الشعب[6]. تناصر الشعوب بعضها بعضاً في

---

(1) Th. & Ref., p. 79, ST. Ref., p. 54.

(2) ولاة الأمر من ربي لشعب — زحاما يملكون لكل أمر
ولكن لا يحب الله شعبا — به الفلاح يزرع كي يُلبّي
أرمغان حجاز، ص460.

(3) St. Ref., pp. 121 - 2.

(4) لهذا الشعب إني قد خفقت — ولحني النار في روحي خلقت
وجيز القول خير القول قالوا — خفقت، خُلقت، لكني استرحت
أرمغان حجاز، ص451.

(5) وذات أنت تنكرها لشعب — ونحن الشعب، قول منك حق
السابق، ص469.

(6) الشعوب بين صفو الإخاء — إخوة، في حربها أو في المراء
جاويد نامه، ص304.

السراء أو الضراء[1]. ومع ذلك قد يسرق شعب شعباً ويأكل طعامه. ويغني بلد على حساب بلد آخر يفقر[2].

تقع الشعوب في الأسر. والحكم الأجنبي النزيه مستحيل. ومع ذلك قد يبدو ضروريا. وثمن ذلك يكون أحياناً الخبز اليومي. فقد تدرب المكسيكيون بفضل الأسبان حتى تعلموا كيف يأخذون مصيرهم بأيديهم[3].

سرقة الثروة هو ابن الطبيعة البكر. إذ لا تحب الطبيعة تراكم ثروات كبيرة في يد حفنة قليلة من الناس. وكذلك إذا ما نجح رب أسرة في جمع ثروة فإنها تتبعثر في الأجيال التالية. في حالة الطبيعة، تتوقف دورة رأس المال. فما هو صحيح للأفراد يصح أيضاً للشعوب. فإذا ما جمع شعب ثروة عن طريق الصناعة أو أي طريق آخر، قد تقف عجلة الصناعة في حين أن العمل يعتمد على دورة رأس المال. تظهر الشعوب السارقة وتصرّف الثروة المختزنة. وهناك ممثلون لهذه الشعوب، عوامل لا شعورية للطبيعة لتعدم الصناعة في العالم. وهذا ينطبق على العملات الأوربية في القرنين السابع عشر والثامن عشر[4].

تولد الشعوب في قلوب الشعراء. وتزدهر وتموت في أيدي السياسيين[5]. فالدول صور في أذهان الشعراء. تتحول إلى واقع. فتسري عليها قوانين الحياة، النهوض والسقوط، القيام والانحلال، بفعل السياسيين. وقد تكون للخطيئة قيمة تربوية في حد ذاتها، ولكن الشعب الفاضل دائماً شعب غبي إذا ما استكان[6].

---

(1) كل إنسان أخاه يأكل ليعيش الشعب شعبا يقتل
تتلظى الروح من هذا البلد ويئن القلب أضناه الكمد
السابق، ص289.

(2) ST. Ref., p. 52.

(3) Ibid., pp. 74 - 5.

(4) Th. & Ref., p. 77, ST. Ref., p. 125.

(5) ST. Ref., p. 109.

(6) قال: يا أستاذ قل لي هل لهذا الشعب حَرقُك
أنت للإسلام شمس في ضمير الكون شرقك
قال رومي: كل حَب يرغبُ العصفور نقره
لا تكن بزعم ورد تقصف الأطفال ظهره
كن على حبك فخا يمنع الحائم حوله
جناح جبريل، ص527.

ويسأل إقبال هل يمكن عمل شيئ لهذا الشعب؟ شمس الرومي تشرق في ضمير الكون. ويجيب الرومي بأن كل حب يرعب العصفور نقره. فعلى الإنسان أن يحمي برعم ورده من أن ينزعه الأطفال، وأن يحمي حبه بفخ ينصبه يمنع من يحوم حوله، وأن يستر البرعم، ويجعل من نفسه قصباً حوله لحمايته(1).

كفاح الشعب هو طريق التحرر من الاستعمار. ويشيد مجداً ثابت الأركان. يُظن به الجنون حين يتمرد على الطغيان. شعب الله يكون دائماً ظافراً في الأرض. والجنون هو حب الأوطان. وتلك شيمة المؤمن المقدام. وإذا ارتضى بالذل كفر بالله وبكرامة الأوطان. الاستعمار يؤدي إلى الردى في الدنيا. والأحرار يحيون بعد استشهادهم. يرفعون أسهمهم نحو العلا، ويقيمون راياتهم فوق قمم الجبال التي تذوب تحت أقدامهم. ثورة المجد طي الثياب كالنار يقذفها البركان. لا يعيشون أذلاء محرومين في الدنيا. عطرهم مستتر وظاهر بصرف النظر عن ألوان الربا(2).

---

(1)
الشعب يبني عزه بكفاحه — ليشيد مجدا ثابت الأركان
ولقد يُظن به الجنون إذا بدا — يوما تمرده على الطغيان
ما فوق أرض الله شعب ظافر — ببلوغ آمال ونيل أماني
إلا إذا عقل الجنون وإنما — يحلو جنون الحب للأوطان
المؤمن المقدام يمضي قاهرا — بالعز والإقدام دون تواني
وإذا ارتضى للذل أمسى كافرا — بالله أو بكرامة الأوطان
من كان يدري فرق ما ينتابه — في دهره من عزة وهوان
وبأن الاستعمار أسرع بالردى — للناس في الدنيا من الحدثان
وبأنّ للاحرار بعد فنائهم — عمرا على الأيام ليس بفاني
وهناك يرفع سهمه نحو العلا — ويقيم رايته على كيوان
شم الجبال تذوب في خطواتها — حتى تفوق الماء في الجريان
كم ثورة للمجد طي ثيابه — كالنار تقذف ثورة البركان
لا يترك الدنيا تعيش وشعبه — فيها قتيل الذل والحرمان
العطر مستتر ويسري ظاهرا — كن أنت مثل العطر في البستان
لا تخدعنك في الربى ألوانها — كن خاليا فيها من الألوان

يا أمم الشرق، ص342.

(2)
فرح لأن الرأسمال ينال منه جنون طوره — ولأنه كالساحر المفضوح بعد أداء دوره
لم يبق إلا الروح تلك وذلك الشعب العراء — نزلت على سيناء صعقتها فلملمها حراء

جناح جبريل، ص512.

5 ـ الرأسمالية والاشتراكية

وبالتوازي مع الملكية والجمهورية كنظام سياسي، هناك الرأسمالية والاشتراكية التي يسميها إقبال الشيوعية. فالملكية مرتبطة بالرأسمالية كارتباط الجمهورية بالاشتراكية، حكم الفرد أو القيصرية أو الملكية لأنه يعتمد على الصفوة بتبني الرأسمالية، في حين أن الجمهورية تتبنى الاشتراكية لأنها يعتمد على حق الشعب. ومع ذلك فلكل من النظامين عيوب.

يعم الفرح لأن الرأسمالية في تطورها وصلت إلى حد الجنون، وفُضحت بعد أداء دورها. ظهرت روح الشعوب بالرغم من أجسادها العارية. ونزلت عليها صعقة سيناء فأنقذها غار حراء[1]. في الرأسمالية أضحى صاحب المال سليل الخليل. وبلا جبريل أصبح كالرسول. يلبس الحق بالباطل، ويؤمن بالقلب بعقل كافر. ولا وفاء لدولة الدنيا لأنها هاربة كالغزال[2].

ويتعجب إقبال كيف أن جيرانه ندماء للأمير، وهو فوق حصيره حاسر الرأس فقير. ويجيب الرومي بأنه عليه أن يكون خادماً، حراً قلبه دون حدود، وألا يكون مجلسه من السلطان مثل بعض القرود. وأن يكون الإنسان خادماً لقلب كبير، عالم أو شاعر، خير من الطواف مع الندمان حول كعبة الأمير[3].

ولا تنفع اقتصاديات الإحسان على التخفيف من التفاوت بين الأغنياء والفقراء في النظام الرأسمالي. ليساعد المحسن غير المحسن وليس الفقير لأن ما يعطى

---

(1) صاحب المال سليل للخليل — وبلا جبريل أضحى كالرسول
مبطل، في الزيغ حقا يضمر — مؤمن القلب بعقل كافر
الجسوم بالثراء سُمّنت — والصدور من قلوب جُردت
جاويد نامه، ص196 ـ 197.

(2) قال جيراني جميعا — ندماء للأمير
وأنا فوق حصيري — حاسر الرأس فقير
قال: كن خادم حر — قلبه دون حدود
لا تكن في مجلس السلطان من بعض القرود
إن تكن عبدا لإنسان له قلب كبير
هو خير من طواف بين ندماء الأمير
جناح جبريل، ص252 ـ 526.

(3) St. Ref., p. 4.

للفقير يعطى ضمنياً لمن لا يعطونه أي شيئ. لذلك يبقي غير المحسن في حالة الشح والكريم يدفع له. هذه هي اقتصاديات الإحسان[1].

أما الشيوعية فإنها تطلب الروح ببطن الجائع. والروح متميزة عن الجسد. تتساوى البطون في الكفر. ومن صميم القلب ينبع الإخاء[2]. ذلك اليهودي كارل ماركس هو الكليم بغير تجل، والمسيح بغير صليب. ليس رسولاً ولكنه معه كتاب. كافر يخترق الستائر. صار كيوم حساب في الشرق والغرب. لا يوجد في الطبيعة فساد أكثر منه. فقد حطم العبيد خيام السادة. لا يدري ماركس طبائع الأمور بالرغم من فضحه سياسة الغرب. فقد أظهر هذا اليهودي المثير للفتن روح مزدك. وقد أصبح كل فتان مجنوناً بسببه[3]. وينقد إقبال الشيوعية في روسيا ويتهمها بالإلحاد بالطريقة التقليدية. وهو إلحاد مضاد لما أقامه القساوسة من أوثان سياسية واجتماعية ودينية[4].

والحقيقة أن الرأسمالية والشيوعية بالرغم من الاختلاف في النظام الاقتصادي والسياسي والاجتماعي إلا أنهما يشتركان في نفس الرؤية للعالم، النظرة المادية الصريحة في الشيوعية والمقنعة بغلاف من الروحية في الرأسمالية. وهو الفرق بين الصدق في القول والنفاق. وإذا كان نقد إقبال للرأسمالية صحيحاً فإن نقده للشيوعية طبقاً للفهم الشعبي لها بأنها إلحاد وكفر ومادية وشيوع هو فهم الأفغاني من قبل في «الرد على الدهريين».

---

(1) إن أهل الغرب أفلاكا أضاعوا — طلبوا الروح ببطن حين جاعوا
ما استمد الروح حسنا من جسد — وعلى الجسم الشيوعي اعتمد
قوله في كفره هذا المبين — ليس إلا في مساواة البطون
في صميم القلب ذياك الإخاء — ما احتوى أصلا له طين دماء

(2) أرمغان حجاز، ص512 ـ 514.

(3) إن سير القضاء جد عجيب — أي سر حوى ضمير الزمان
ليس يألو الصليب سرا قبيل — كان يرجو النجاة بالصلبان
أمر الوحي ملحدي الروس «هدوا — ما أقام القسوس من أوثان»
ضرب الكليم، ص102.

(4) من حديث المصطفي نلت النصيبا — كان دين الحق في الدنيا غريبا
امنح القرآن من فكر مزيدا — وكما شئت افتتح عصرا جديدا
عن كتاب الله من زاح الستارا — فيه أهل الشرق والغرب الحيارى
هؤلاء الروس شيئا أبدعوا — أوجدوا الخبز ودينا ضيعوا
جاويد نامه، ص212.

وعلى لسان الأفغاني يبين إقبال أن الهدي هو هدي الإسلام، وأنه هو الدين الحق الذي يفتح أفقاً جديدة للشرق والغرب، ويبدد حيرتهما[1]. ويوجه نداء إلى الروس يهديهم إلى الإسلام كما فعل الإمام الخميني مع خروشسيف أخيرا. ويعني بالروس الشيوعيين الذي أوجدوا الخبز وضيعوا الدين. لقد حطم الإسلام القيصر وكسرى. واعتلى عرشيهما وحكم. وأخذ السلطان مظهر الملك. هدم الإسلام الكسروية والقصروية. وأنار مصباح الضمير. ومنع تشييد أصنام جديدة يطوف حولها الناس. أرادت الدنيا أن تحول الشعب شيخاً منه تستفيد. والشرق قبلة، شعلة توقد تنير العصر الجديد[2]. القرآن يهلك الظالمين، ويخلص المستعبدين[3].

قدم دين الغرب وأصبح ديراً عتيقاً. وتوحد مع الحكم. ليس أمام الغرب إلا ترك «لا» والاتجاه نحو «إلا» أي الانتقال من النفي إلى الإثبات. لا يقوم نظام العالم إلا على أساس الحكم. يُغلق التاريخ. وتُقلب صفحة جديدة. تقتبس النور من أم الكتاب[4]. الغرب نفسه في حاجة إلى الإسلام. المهم أن يكون سريع الفهم متجرداً عن الهوى[5].

---

(1) قيصرا أفنى وكسرى حطما / واعتلى عرشا له كي يحكما
دوحة السلطان طالت واستوت / صورة للملك في الدين انطوت
نحن في الماضي هدمنا الكسروية / أنت قوضت بناء القيصرية
كي تنير اليوم مصباح الضمير / عبرة منا اتخذ عبر العصور
ولتثبتْ قدميك في المصاف / حول أصنام حذار من طواف
هذه الدنيا العجوز قد أرادت / شعبها شيخا ومن شيخ أفادت
ثم ولّ الوجه نحو المشرق / كيف تنسى يوم ماضي مغرق
شعلة أخرى بروح توقد / ولك العصر الجديد توجد
جاويد نامه، ص213.

(2) ما هو القرآن؟ هلك الظالمينا / والخلاص كان للمستعبدينا
السابق، ص215.

(3) إن دين الغرب قد أمسى رميما / لا تشاهد ذلك الدير القديما
وتللتْ الحاكمين اليوم تلاً / اتركن «لا» ولتيمّم نحو «إلا»
إن «لا» ضمن كلام كان نفيا / أنت بالإثبات خذ دوما لتحيا
وإذا شئت نظام العالم / فليكن فوق الأساس المحكم
ومن التاريخ تمحو كل باب / فاقبس الأنوار من أم الكتاب
السابق، ص214.

(4) ولغرب فيه أقدار وشرق / كن سريع الفهم أسرع مثل برق

(5) السابق، ص215.

ويقوم الإسلام على مفاهيم العدالة والمساواة والتضامن الاجتماعي. العدالة كنز لا يُقدر بثمن، ولكن يجب الحفاظ عليها ضد سارق الرحمة[1]. وهو الصراع القديم بين أهل العدل، المعتزلة، وأهل الرحمة، الأشاعرة. والمساواة مطلب إنساني عام. إن قوة فكرة تعتمد على قوة الشخصية التي تتجسدها. ومحمد وبوذا ويسوع المسيح تجسيدات عظيمة لفكرة المساواة. والإسلام هو القوة الوحيدة في العالم الذي مازال يعمل في اتجاه المساواة[2]. ويقوم التضامن الاجتماعي الإسلامي على مبدأ ديني. فإذا ما انفك يضيع وجود الأمة، وتلقى مصير اليهود. فما هي وسائل تقوية التضامن الاجتماعي؟ ما هي الوديعة الدينية الرئيسية لدي الجماعة؟ إنها المرأة، المرأة المسلمة التي تتعلم تعلماً دينياً رصيناً لأنها صانعة الجماعة. لا يوجد نظام مطلق للتعليم. فالتعليم مثل أشياء أخرى تحدده حاجات الجماعة. التعليم الديني كاف للفتاة المسلمة. إذ يستبعد كل الموضوعات التي تقضي على المرأة وإسلامها من تعليمها. وما زال مربو الأمة يهيمون على وجوههم في الظلام. لم يستطيعوا بعد وضع برنامج دراسي لفتيات الأمة. ربما فقدوا اتزانهم أمام الانبهار بمثل الغرب ليميزوا الفرق بين الاتجاه الإسلامي الذي يبني الوطنية على فكرة مجردة مثل الدين، والتغريب دم الحياة والذي يقيم قصوره للوطنية على شيئ مادي مثل الوطن[3].

ويسأل إقبال الفلاح عن سر الحياة وهو الذي خلق المحراث الذي يعلوه الغبار منذ آلاف السنين. لقد خمدت ناره في الطين الذي علا النعال. فأين انعكاس الله في حاله؟ أليس من الأجدى القول في الأذان حي على الفلاّح وليس حي على الفلاَح. الفلاحون هم الذين يطعمون الناس فكيف يكونون وضعهم في الطين؟ ولا يستطيع المعتدون أن يبلغوا منبع الخضر أي عالم الروح[4].

---

(1) St, Ref., p. 28.

(2) Ibid., p. 87.

(3) St. Ref., pp. 29 - 31.

(4)
أيـهـا الـفـلاح مـا سـر الـحـيـاة؟ — مـا الـذي يـكـتـمـه هـذا الـمـدار؟
أنـت فـيـهـا مـنـذ آلاف الـسـنـيـن — خـلـف مـحـراث يـغـطـيـك الـغـبـار
خـمـدتْ نـارك فـي الـطـيـن الـذي — عـلـقـتْ أكـوامـه فـي نـعـلـكـا
قـل لـمـن أذَّن فـي هـذا الـصـبـاح — أرنـي الـلـه الـذي فـي فـعـلـكـا

=

6 ـ العنصرية والاستعمار

والنظم السياسية الملكية والجمهورية، والنظم الاقتصادية، الرأسمالية والشيوعية، انتهت إلى العنصرية والاستعمار. وهما تبعة الرجل الأبيض. قال أحد البريطانيين يوماً إنه يكره اليهود لأنهم يعتقدون أنهم شعب الله المختار. وهو اعتقاد يؤدي إلى العداء لباقي الشعوب. ولم يعرف أن تعبير تبعة الرجل الأبيض تتضمن نفس الاعتقاد اليهودي ولكن في صورة أخري[1].

وفي رسالة السنة الجديدة، يعبر إقبال عن أهمية التقدم المعرفي والتطورات العلمية. ومع ذلك هناك طغيان الاستعمار تحت غطاء الديموقراطية والوطنية والشيوعية والفاشية. تحت هذه الأقنعة تم النيل من حرية الإنسان وكرامته وكأننا في أعتى صور الظلام. وتحول القادة السياسيون إلى شياطين ومصاصي دماء وتسلط وقهر. وانقلبوا من التمسك بالإنسانية وتحرر الإنسان من صنوف القهر ورفع المستوى الأخلاقي والثقافي للإنسان إلى الرغبة في السيطرة والتملك الإمبراطوري. سفكوا دماء الملايين. وأذلوا ملايين أخري، وحولوهم إلى عبيد لاستنزافهم واستعبادهم لمصالحهم. وبعد استعباد الشعوب الضعيفة وإخضاعها سلبوها من ممتلكاتها ودياناتها وعاداتها وثقافاتها وآدابها. ثم بثوا الفرقة بينها إلى درجة سفك الدماء. هذا هو ما حدث بالضبط في الحبشة وفلسطين وأسبانيا والصين حيث يسود البؤس في كل مكان، وذبح الآلاف من البشر بلا رحمة. وقضت إنجازات العلم المدمرة على آلاف من الآثار الحضارية للشعوب. ومن لم يقض على الآخرين بالسيف قضى عليهم بالاستنزاف الاقتصادي. كل يبحث عن جلده. ولا أحد يهتم بأمن الآخرين. ووقف مفكروا العالم متفرجين على تدمير الحضارة البشرية في حين أن كرامة الإنسان في احترامه لكرامة البشرية. ويظل هذا العالم ميدان صراع لحيوانات متوحشة حتى تظهر القوى التربوية في العالم لحث الإنسان على احترام

= لم يقل للناس حيَّ للفلاّح ... إنما حيَّ على الفلاح قال
هو يدعوهم إلى مأدبة ... أنت أرسلت لها كل السلال
كيف ترضي أن يكونوا هكذا ... وهم مثلك من حمأة طين
إن نبع الخضر لا يبلغه ... وجل من ظلمات المعتدين

جناح جبريل، ص537.

(1) St. Ref., p. 70.

البشرية. وها هي أسبانيا، العرق الواحد، والجنسية الواحدة، واللغة الواحدة، والدين الواحد، يقتل أبناؤها بعضهم بعضاً. ويحطمون ثقافاتهم وحضاراتهم بسبب اختلاف أيديولوجياتهم. فالوحدة الوطنية ليست دائمة. إنما الأخوة هي الأبقى. وهي أسمى من العرق والوطن واللون واللغة. طالما أن ما يسمى بالديموقراطية والوطنية والاستعمار لم يتم التخلص منه فإن الإنسانية لن تكون كياناً واحداً. أسرة الإله تدافع عن المبادئ والمثل العليا للحرية والمساواة والأخوة. الرجاء إذن لإنسانية قوتها في الحفاظ على الجنس البشري(1).

الحروب في الشرق والغرب نوعان: حرب لاسترداد حقوق الشعوب وهي حروب التحرر، وحرب للعدوان على الآخرين وهي حروب الطغاة(2). قام المسلمون بالفتوحات وهي حروب تحرير أو يتم الفتح صلحاً، ولكن حروب الغرب هي حروب استعمارية كما تم استعمار فارس والهند(3). ثم شارك المسلمون في تحرير الهند من الاستعمار البريطاني. ومع بعض عقلاء البراهمة أجبروا الغرب على احترامهم(4).

وفي تصريح يشرح فيه إقبال موقف الوفود الإسلامية في مؤتمرات المائدة المستديرة، يعبر فيه عن سعادته لمقابلة نهرو خاصة بعد قبول غاندي كل المطالب الإسلامية بشرط تأييد المسلمين له في صراعه السياسي من أجل الحرية. وقد رفضت الرجعية قبول هذا الشرط، وقبلته الاتجاهات الجماعية. ومع ذلك طلب غاندي من المسلمين عدم التعامل مع المنبوذين أو قبول طلباتهم وهو تمثيلهم النسبي في المجالس النيابية وهو ما رفضه إقبال نظراً للمساواة الطبيعية بين البشر.

(1) New year's Message, Broadcast from the Lahore Station of the All - India Radio on the 1st January, 1938, Th. & Ref., pp. 373 - 5.

(2) أصل هذا الملك في شرق وغرب ... كان إرضاء لشعب أو لحرب
جاويد نامه، ص292.

(3) بالقتال يفتح البلدان فتحا ... وهي تمس ملكه إن شاء صلحا
فارس والهند مما يشترى ... لا ينال الملك من هذا الورى
السابق، ص293.

(4) من أفاد الهند تحطيم القيود ... أيكون الصيد يوما كالصيود
عقلاء ينسبون للبراهيم ... عندهم قد أخجلت حُمر البراهيم
من أولي العرفان أصحاب النظر ... أي ثمر بي رآهم لم يحر

ويدافع إقبال عن اتهام نهرو لبعض المسلمين أنهم معادون للوطنية. فإذا كانت الوطنية تقوم على العرق مثل القومية فإن إقبال ضدها. أما إذا كانت دفاعاً عن الاستقلال الوطني والمعاداة للاستعمار فإن إقبال معها. فالوطنية لا تستطيع أن توحد بين الأقوام. وما تحتاجه الهند ذات الأعراق والطوائف المتعددة هو الروح الجماعية[1]. ويتصور نهرو أن المسلمين يخافون من الديموقراطية مع أنها هي الحل الأمثل للوطن المتعدد الثقافات. يخشون من قهر الأغلبية وأصحاب السلطة. كما يرفض المسلمون أن تعني الديموقراطية حكم الغرب للبلاد عن طريق الوكلاء المحليين. يحتاج المسلمون إلى طرف ثالث يحمي الأقلية من قهر الأغلبية. ودون ذلك لا يوجد إلا بديلان: إما أن تصبح الأغلبية الهندية عميلاً للاستعمار البريطاني في الشرق أو تقسيم البلاد على أساس طائفي أو عرقي أو تاريخي.

وفي تصريح لشرح موقف المؤتمر من جائزة الجماعة، يبين إقبال أن المؤتمر بالرغم من تمثيله لكل الهند لا يمكن قبول الجائزة أو رفضها، ولكن بتعليقاته على الجائزة يمكن فهم رفض ضمني لها. فالجائزة من رئيس الوزراء البريطاني بناء على طلب من يرفضونها الآن. وينصح إقبال المسلمون بقبولها حتى ولو لم تحقق كل ما يطلبون[2].

وطبقاً لنشأة وتطور المثل العليا بين الشعوب وما تثيره من حماس وما تولده من قوة، تُوجه كل طاقات الشعب نحو مركز مشترك. الهند المعاصرة ظاهرة فريدة. سلوكها أقرب إلى علم النفس منه إلى السياسة. يبدو أن المثل الأعلى للحرية السياسية، وهي تجربة جديدة بالنسبة إليها تملّك روحها كلها موجهة كل طاقاتها من قنواتها الطبيعية إلى هذه القناة الجديدة للنشاط السياسي. وعندما تستكمل هذه التجربة ستشعر بالخسارة وستتحول إلى شخص آخر جديد بمعنى أنه لن تجد نفسها تحت سلطة الأسلاف الذين كان خيالهم بالنسبة لها مصدر عزاء دائم

(1) الروح الجماعية Communalism.

Statement explaining the attitude of Muslim Delegates to the Round Table conferences issued on the 6th December, 1933, Th. & Ref., pp. 363 - 7.

(2) Statement, explaining the Congress attitude towards the Communal Award, issued on the 19th June, 1934. Th. & Ref., p. 368.

والآخرون مصدر إحباط ذهني. الشعوب أمهات المثل العليا التي تتخصب وتلد شعوباً جديدة عبر الزمان[1].

وعبقرية أورانجزب السياسية كان لها ما يبررها. كان أمل حياته أن يوحد أقاليم بلاده في إمبراطورية واحدة. ولكي يحقق هذه الوحدة الإمبراطورية أخطأ في الخضوع لشجاعته الفائقة. لم تكن له الخبرة السياسية اللازمة. ودون علم بعامل الزمان في التطور السياسي لإمبراطوريته المأمولة بدأ صراعاً لا ينتهي على أمل توحيد الوحدات السياسية العاصية في الهند في حياته. فشل في أسلمة الهند، ليس بالمعنى الديني ولكن بالمعنى الثقافي كما فشل الإسكندر في «تغريق» آسيا. في حين أتى البريطاني مسلحاً بعديد من التجارب السياسية للشعوب القديمة وبصبر ومثابرة السلحفاة، نجح فيما لم ينجح فيه العبقري أورانجزب. إذ لا تعني الغلبة بالضرورة الوحدة. وقد علم تاريخ الأسر المسلمة الحاكمة من قبل أورانجزب أن قوة الإسلام في الهند لا تعتمد كما علم السلف الكبير أكبر، كثيراً على حسن نية الشعب في هذه الأرض بقدر ما تعتمد على قوة العنصر الحاكم. وبالرغم من نظراته السياسية العميقة، لم يستطع أن يقوم بما قام به الأسلاف. كل منهم اعتمد على ظروفه الخاصة. ومع ذلك يظل أورانجزب هو مؤسس الوطنية الإسلامية في الهند. وربما نشأت الوطنية الهندية بفضل تشجيع بريطانيا ولورداتها ورؤساء وزرائها. يكره البريطانيون أورانجزب لأنه أراد توحيد الهند واستقلالها وليس تبعيتها لبريطانيا[2].

ومع ذلك يرد إبليس على مستشاريه أن الأرض والسماء جميعاً بقبضته. فقد أثار دماء الأقوام في أوربا. وقضى على قيمة أئمة السياسة وشيوخ الكنيسة. صيحة واحدة قد تذهلهم وتذهب بعقولهم. جاهل يعتبر العمل بيتا من زجاج. فليحطم كؤوس وأباريق المدنية. والجيوب التي مزقتها يد الفطرة من المحال ترقيعها بإبرة مزدك القديم أو الجديد، كارل ماركس. كيف يستطيع الاشتراكيون المخبولون منفوشو الشعر إصلاح ما فسد؟ إنما الخطر يأتي من هذه الأمة التي مازالت في رمادها شرارة الأمل. فيها أناس يتوضّؤون بدموع الأسحار. إنها أمة الإسلام[3].

(1) St. Ref., pp. 33 - 4.

(2) St. Ref., pp. 44 - 8.

(3) أرمغان حجاز، ص515 - 516.

الفصل الثاني

حال الأمة

1 ـ الأمة الإسلامية

هذه الأمة لا تحمل القرآن. ولكنها اعتبرت الرأسمالية دين العبد المؤمن. وأكمام مشايخ الحرم خالية من اليد البيضاء، يد موسى، وغير قادرة على فعل المعجزات. والخوف من مطالب العصر يجعلها لا تطبق شرع النبي مع أنه هو الحافظ لكرامة المرأة، وامتحان المرأ، وخلق الرجال. النظام الإسلامي يقضي على كل أنواع العبودية. يطهر الثورة. ويجعل الأتقياء أمناء على المال والثروة. أعظم ثورة في الفكر والعمل الحاكمية، أن الأرض لك وليست للملوك. إذا اختفى هذا النظام يُحرم المؤمن من اليقين. ويبقى في شرك الإلهيات، منهمكاً في تأويلات الكتاب.

فكيف لا يضيء الليل الحالك هذا الورع التقي، هذا الإنسان الذي حطمت تهليلاته كل قيود الجهات الست؟ هل مات المسيح أم مازال حياً باقياً؟ هل انفصلت الصفات عن الذات؟ هل مات المهدي الذي يحمل صفات المسيح أو انتهى المصلح؟ هل غرقت الأمة في جدل الصفات قديمة أم حادثة؟ وأيها الفرقة الناجية؟ هل بنت الأمة أصناماً جديدة بعد تحطيمها الأصنام القديمة؟ هل بقي بلا عمل حتى ينهزم على بساط الحياة، ويبقى عبداً حتى يوم القيامة، ويترك الدنيا للآخرين؟ هل استبدل بالرسالة التصوف الذي يعمي على عيونه منظر الحياة؟

يخشى إبليس من يقظة الأمة. فدينها احتساب الكائنات. ومن ثم يكون دوره إسكار المسلم وجعله يتمي بالذكر والتفكر في الأسحار وتوجيهه نحو الخانقات[1].

ونصيحة بلوشي عجوز لابنه يقيم الصحراء، الاعتزاز بالنفس في دنيا الكد والكفاح. وهو خير من الدروشة عارية الرأس، وتحويل الزجاج إلى صخر. تقدير الأمم بيد الأفراد. ولو ضاع الدين من يد الأمة الحرة لحشر المسلم. المعركة معركة الروح والجسد معا. فقد هيجت المدنية وحوشها. وتعتمد على ثبات المسلم. وإبليس يعتمد على آلات أوربا. تكفي فراسة المؤمن لتقدير الأمم. الإخلاص في العمل شيمة الأسلاف. ولا عجب في أن يتحول الملوك إلى فقراء. إن شرط الأصل في حواره مع الصورة ألا يختفي عن نظره، ويفقد ذاته. والموت الأبدي للأمم المستعبدة. والظالم ميت في الدنيا. ولا ينجي العقل من الأصنام بعد أن صار العارف والعالم والعامة جميعاً عبيداً لها. القلب هو طريق الخلاص[2].

يوجز إقبال في وصف «حال الأمة» نظراً لأنه عبر عنه من قبل في «الشكوى والجواب» و«الأنين والحنين». وهو دائم التذكير به. فالشاعر والفيلسوف كلاهما يبدآن من الواقع. يعبر عنه الشاعر بالخيال والصورة، والفيلسوف بالعقل والمنطق.

2 ـ النظام السياسي الإسلامي

الإسلام مثل أعلى أخلاقي وسياسي[3]. ويمكن دراسة ذلك من خلال وجهات نظر ثلاث: المعلم والشارع والطالب النقدي. ويفضل إقبال الطالب النقدي. يريد التعبير عن الوحي بلغة العلم الطبيعي والإنساني. وهي لغة العصر الحديث. ويبدو أن هذا المنهج هو المنهج التاريخي الذي تابعه من الاستشراق التقليدي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين. إذ يضع الإسلام في إطار تاريخ الأديان المقارن مع البوذية والمسيحية والزرادشتية. ففي مشكلة الشر مثلاً لا تقول البوذية بوجود الألم في الطبيعة والإنسان لأنه كفرد شر. وفي المسيحية توجه الخطيئة في الطبيعة وأثرها قاتل ومصيري في الإنسان. وفي الزرادشتية يوجد صراع

(1) أرمغان حجاز، ص516 - 518.

(2) أرمغان حجاز، ص518 - 520.

(3) Th. & Ref., p. 29 - 55.

في الطبيعة. والإنسان خليط من قوى متصارعة. وهو حر في أن يختار قوى الخير التي ستنتصر في النهاية. وفي البوذية ليس الألم عاملاً جوهرياً في بناء العالم. والتشاؤم نتيجة البيئة الاجتماعية المعادية. وهي نظرة قريبة من الإسلام الذي يضع الخير والشر في الإنسان، ويعطيه العقل للتمييز، والحرية للاختيار. الإسلام قوة وتقدم اجتماعي. والإنسان خال من الألم والخطيئة أو الصراع. وهنا يقترب الإسلام من جان جاك روسو، مؤسس الفكر السياسي الحديث. فروسو هو العدو الأول للتسلط في السياسة كما كان لوثر العدو الأول للتسلط في الدين. وقد أكد الإسلام على قيمة الفرد والشخصية الإنسانية، متواصلاً مع البوذية والمسيحية. والفردية مع الجماعية تنتج المساواة بين البشر. فالبشر مجموعة من الأحرار المتساويين. وهناك من عملوا ذلك بالفعل مثل: كرومويل، فولتير، الأمير عبد القادر الجزائري. تلك قوة الإسلام التي جعلته ينتشر كهداية وليس بالسيف في جنوب شرق آسيا وفي أفريقيا. الإسلام دين سلام وإصلاح في الأرض، وليس دين عدوان وفساد. لذلك كان أنسب نظام للأمة هو النظام الديموقراطي. الخليفة ليس معصوماً ويخضع لنفس القانون. وهو مختار من الناس. ويُخلع إذا ما خرق القانون. الديموقراطية مَثَل الإسلام الأعلى. والفردية الجماعية مَثَل أعلى آخر[1]. ومن ثم يقوم الدستور الإسلامي على مبدأين: الأول، الحاكمية لشريعة الله والسيادة لها. والإمام ليس معيناً من الله بل مبايعاً من الناس. والثاني، المساواة المطلقة بين أعضاء الجماعة. فلا توجد أرستقراطية. ولا يعترف بنظام الطبقات أو العشائر أو الأسر[2]. الفكر السياسي في الإسلام لا يعرف الوراثة كنظام سياسي. والنظام الإسلامي يقوم على مساواة المسلمين جميعاً أمام القانون، وعدم الفصل بين الدين والدولة[3].

ويصف إقبال تطور النظام السياسي الإسلامي على عدة مراحل: الأولى الملكية الانتخابية، فالشعب ينتخب الخليفة ويبايعه. وصفات الخليفة البدنية والنفسية والذهنية تجعله كامل الأوصاف. وقد يخلف الأب الابن كما حدث في الدولة الأموية. المسجد هو المؤسسة السياسية الأولى. وقد صاغ الماوردي مفهوم

---

(1) الفردية الجماعية Corporate Individuality.

(2) وهو ما عرف في الهند باسم Cast - System.

(3) Th. & Ref., pp. 56 - 75.

العقد بين الحاكم والمحكوم. ويساعد الخليفة الوزير بصرف النظر عن دينه، وحكام الأقاليم الذين يعينون الوزراء وقاضي القضاة ورجال الدولة، وقواد الجيش، وقاضي القضاة ورئيس مجلس القضاء الأعلى. ثم وضع الخوارج أسس الحكم الجمهوري. على ثلاثة مبادئ: بيعة الإمام، حكم المسلمين أنفسهم بأنفسهم في حالة غياب الإمام، عيش الناس بلا إمام. وكان هناك سببان للنشاط السياسي في الإسلام. الأول، عدم اتفاق فكرة البيعة مع الفرس والمغول. والثاني حياة الفتح عند المسلمين الأوائل.

وفي تخطيط لمحاضرة عن «المجتمع الإسلامي» يضع إقبال النقاط الثلاث الآتية[1]:

أ ـ **البنية العامة للمجتمع الإسلامي**: وتقوم على مفهوم خاص للوطنية التي لا تقوم على اللغة أو البلد أو المصلحة الاقتصادية التي تكوّن عناصر الوطنية. بل هي اشتراك جماعة في تصور واحد للعالم، والمشاركة في نفس الموروث الثقافي. ولا تخاف الأوطان من العقلانية ولكنها بالنسبة للجماعة الإسلامية هي عدو خطير لأنها تقضي على المبادئ التي تقوم عليها الجماعة والتي تجعل وجودها مشروعاً. فالعقلانية تحليل. ومن ثم تهدد بتفكك الوحدة الاجتماعية التي تقوم على الوحدة الدينية. صحيح يمكن للجماعة أن تتعامل مع العقلانية على أرضيتها الخاصة. والعقيدة التي توحد الأمة لها أساس وجودي، وليس أساساً عقلياً. ومن ثم فلا فائدة من تحويل الدين إلى نسق عقلي تأملي لأن موضوع الدين ليس الفكر بل الحياة. غايته بناء نظام اجتماعي لنمو الحياة تدريجيا. الدين في حد ذاته ميتافيزيقيا. ولا يقوم على سمو جماعة على أخرى مثل «ألمانيا فوق الجميع». الجماعة الإسلامية تقوم على فكرة وليس على عرق أو لون.

ب ـ **تجانس الثقافة الإسلامية**: وتنبع من وحدة الإيمان الديني ووحدة مراحل الوحي ووحدة الجنس البشري. فالحضارة الإسلامية نتاج تفاعل عديد من الشعوب الآرية والسامية، جامعة بين الرقة والصلابة، نعومة الأم ورجولة الأب. وغزو المسلمين الفرس أعطتهم ما أعطت اليونان بغزوها الزمان.

(1) The Muslim Community, Th. & Ref., pp. 376 - 81.

جـ ـ التواصل في الشخصية الإسلامية: فحياة الشعوب تتطور طبقاً لقانون محدد. في المجتمع البدائي يتم الصراع من أجل البقاء اعتماداً على قوى الإنسان العضلية أكثر من العقلية. ويكون الإنسان الشجاع البطل هو النموذج. فإذا ما قضى الصراع تتحول الحياة العضلية إلى طابع الحياة المشتركة، والتمتع بالحياة والحرية والكرم والصحبة الخيرة والتمتع بمباهج الحياة[1]. ثم يظهر الطابع الثالث بالسيطرة على الذات كمثل أعلى وتصور جاد للحياة. وهو طابع المجتمع الإسلامي في الهند. يمثل طيمور النوع الأول، وجيهانجير الثاني، وألامجير الثالث.

لم يهتم إقبال فقط بالفكر السياسي بل شارك في الممارسة السياسية لحل قضية الاستعمار في الهند، وحل مشكلة الصراع بين المسلمين والهندوس. ففي الخطاب الرئاسي الذي ألقاه إقبال في «الجلسة السنوية في الجامعة الإسلامية لكل الهند» يعلن فيه أن الإسلام نظرة أخلاقية ينبع منها نظام سياسي ورؤية حضارية[2]. لا يوجد به كنيسة تعطي لمارتن لوثر الحق في الثورة عليها ضد نظامها الأخلاقي وتسلطها السياسي[3]. لوثر رمز ضد التسلط الديني، روسّو ضد التسلط السياسي. في حين أنه في الإسلام، الله والعالم، الروح والمادة، الروحي والزمني، (وليس الكنيسة والدولة لأن الإسلام ليس به كنيسة) وحدة عضوية واحدة. لا يحتاج الإسلام إلى لوثر لأن مبادئ البروتستانتية فيه مثل الصلة المباشرة بين الإنسان والله، وحرية الاعتقاد. وقد اختارت اللجنة رئيسها. وهو يتفاءل بالإسلام كقوة تحرير للإنسان من حدوده الجغرافية. ويرى أهمية الدين في حياة الفرد والدولة، وأن الإسلام نفسه مصير. فالإسلام ليس مسألة شخصية كالمسيحية بل مسألة فردية وجماعية. أحياناً تختفي الأنانية تحت غطاء الوطنية. وهي رؤية ضيقة محدودة بالطبقة أو القبيلة. وقد أكد نهرو أهمية الروح الجماعية[4]. وهي ضرورية لبناء الهند ككل متجانس. يكوّن المسلمون في ولاية البنجاب 56٪. وهم في الجيش بنسبة

(1) طابع الحياة المشتركة Convivial Type.

(2) وقد ألقي الخطاب في اللاأباد في 29/12/1930. Th. & Ref., pp. 161 - 94.

(3) من الفلاسفة والمفكرين والمصلحين والسياسيين مارتن لوثر هو الأكثر ذكراً في الخطاب ثم نهرو ثم السلطان أكبر ثم رينان وجنّاح. لوثر (5)، أكبر، نهرو (3)، رينان (2)، فنسك (1). وفي تقرير سيمون عن وضع المسلمين في الهند (6)، وشاستري (2)، وبعض الساسة الإنجليز.

(4) الروح الجماعية Communalism.

54٪. وقد طالب المسلمون بدولة إسلامية مستقلة في الهند في شمال غرب الهند. وليس في ذلك أي خشية للهنود من وجود دول دينية فيها من دولة وطنية أو قومية مستقلة. والإسلام يتجاوز الأوطان والقوميات. والبريطانيون وراء التقسيم لإضعاف الهند طبقاً لقاعدة «فرّق تسد» باسم الفيدرالية. والخوف من العلاقة الحميمة بين الهند الهندية والاستعمار البريطاني على حساب المسلمين وإعطاء الهندوس ولايات أكثر من المسلمين، وخلق ولاية نزاع بين الاثنين كما حدث في كشمير، وكذلك إثارة مشكلة الدفاع عن الهند، مهمة من؟ يُخشى من التحام مسلمي الهند مع المسلمين خارجها، وبالتالي تقوية المسلمين على حساب الهندوس، والاستقلال بالبلاد لحساب المسلمين. إن مشكلة الهند ما بين الوطنيات وليس الوطني[1]. والإسلام قادر على أن يحفظ للهند تعدديته. فطعام غير المسلمين حل للمسلمين. والزواج في الإسلام مباح بين المسلمين وغير المسلمين. ووجود ما يقرب من سبعين مليوناً من المسلمين (وهم الآن أزيد من مائة مليون) في الهند يعتبر إضافة لها، وليس خصماً منها. وإن بعث فرد مثل بعث أمة.

والإمامة اليوم تحولت إلى سلطة، والقيادة إلى تسلط، والريادة إلى قهر، والمثل الأعلى إلى مصلحة شخصية. أئمة العصر يبعثون على السأم. موتى يدفعون إلى الموت. متخلفون يجعلونك تبحث عن الكمال بعيداً عنهم. سيوف للمنايا تشحذ على مسن الفقر. مفتونون بأنفسهم حولوا شعوبهم إلى سبايا[2].

ويدعو إقبال إلى التوقف عن انتظار المهدي، تجسيد القوة، بل إلى إيجاده[3].

---

(1) ما بين الوطنيات Inter - national.

(2) أتسألني الإمامة ما مداها؟ حباك الله مثلي بالخفايا
إمام العصر حقا من تراه فتسأم ما تشاهد في البرايا
بمرآة الممات يريك وجه الحبيب فتحتوي عيش الدنايا
ويشعرك التخلف عن كمال فينفح فيك مشبوب السجايا
يمر عليك من فقر مسنا فيطبع منك سيفا للمنايا
فتون الملة البيضا إمام كأن المسلمين به سبايا
ضرب الكليم، ص33.

(3) St. Ref., p. 94.

3 ـ النظام الاقتصادي الإسلامي

يتناول إقبال بعض المسائل الاقتصادية خاصة الميزانية نظراً لأنه كان من قادة المسلمين ورئيساً للجنة «كشمير لكل الهند». وقد تناول هذه المسائل الاقتصادية في خطابات أمام المجلس التشريعي للبنجاب. ويبدو إقبال أشبه بوزير للمالية وليس الشاعر أو الفيلسوف. ويذكر أرقاماً وتوصيات(1).

وفي خطبة أخرى عن اقتراح طلب تخفيض منحة الحكومة للتعليم، يدافع إقبال عن أهمية التعليم وكيف أنه يمس كل الهند، هنودا ومسلمين وسيخاً، رأسماليين وعمالاً. وطلب تخفيض ميزانية التعليم هو ما تريده بريطانيا كحكومة أجنبية لا يهمها تعليم المواطنين حتى لا يثوروا ضدها. فالتعليم خطوة نحو الاستقلال. ولا فرق بين الحكومة الأجنبية والكنيسة الكاثوليكية الرومانية كسلطة للقهر. كما يدافع إقبال عن التعليم الإجباري. فالتعليم كالماء والهواء بلغتنا، حق للمواطنين جميعاً، وليس ميزة للبعض على حساب البعض الآخر(2).

كما تناول إقبال مسائل الحكم والإدارة والوظائف العامة. ففي خطاب له يقترح تأجيل النظر في الاضطرابات المحلية بشأن المساواة في التعيين في الوظائف الحكومية. فالبعض له النصيب الأوفى منها، بينما يُحرم البعض الآخر تماما. والإدارة تذكر اسم الله باللسان، وعينها على ممتلكات الناس. ويجعل البعض الصحافة مسؤولة عن ذلك. والبعض الآخر يجعل التصويت في الانتخابات هو المسؤول. وهناك دعوات كثيرة من أجل وحدة الجماعة الإقليمية ونزع روح الحقد بين الطوائف(3).

وفي خطاب آخر خاص بشغل الوظائف عن طريق المنافسة الحرة، يرى إقبال أنها مثالية بريئة غير واقعية. فالمنافسة الحرة يصعب تطبيقها في الهند لتأصل

(1) Budget Speech, in the Panjab Legislative Council, 1927 - 8 (5th March 1927) Th. Ref., pp. 310 - 2.

(2) Speech on the cut motion on Government's demand for grant under education delivered on the 10 th March, 1927, Ibid., pp. 313 - 5.

(3) Speech, on the adjournment motion regarding communal riots delivered on the 18 th July, 1927 Th. & Ref., pp. 316 - 8.

الفوارق العرقية والطائفية. والدليل على ذلك ما يحدث في امتحانات الجامعة *ومسابقات الوظائف التي تتحدد بالفرق الطائفية والعرقية للمتقدمين والممتحنين*. والوطنية أيضاً مثالية نظراً لعدم تأصيلها في الهند في مواجهة الطائفة والعرق. لا يكفي إذن مبدأ المنافسة أو المسابقة إن لم يُقرن بالاختيار أو التعيين لحفظ نسب الطوائف والأعراق في الوظائف العامة بما في ذلك طائفة المنبوذين(1). الوطنية والإنسانية دعوتان مثاليتان في ظروف المجتمع الهندي الحالي(2).

ويتناول إقبال موضوع الضرائب على الأراضي الزراعية ويتساءل عن حق الدولة في ملكية الأرض أم أنها ملكية الأفراد؟(3). والحقيقة أن الهند لم تعرف ملكية الدولة للأرض نظراً لاتساع الرقعة، ووجود حكومات الولايات، وملايين الفلاحين المعدمين. وفرض نظام ضريبي على دخول الأراضي الزراعية قد يكون مجحفاً بالنسبة لصغار الملاك، بالإضافة إلى تهرب كبار الملاك. يقوم أي نظام ضريبي على أساس العدل طبقاً للدخل الفردي، ونظام الضريبة التصاعدي. ويمكن للدولة أن تلجأ إلى نظم أخرى لزيادة دخلها غير فرض الضرائب مثل تخفيض المصروفات على الإدارة، تخفيض الضرائب على محدودي الدخل وزيادتها على مرتفعي الدخل، تقليل حجم المصاريف على خطط التنمية التي لم تحقق أي عائد. المهم ألا يتحمل المستهلك العبأ الأكبر. وقد قامت الثورة في روسيا بسبب اضطهاد الفلاحين من أصحاب الأراضي. يكفي الفلاح دخله كي يقيم أوده هو وعائلته.

وفي خطاب أمام المجلس التشريعي للبنجاب عن الميزانية، ينقد إقبال بيان وزير المالية المفعم بالتفاؤل الكاذب كما هو الحال في الخطابات الرسمية. والحقيقة أنه لأول مرة لم تساهم حكومة الهند في زيادة الميزانية إلا زيادة ضئيلة

(1) المنبوذين The Untouchable.

(2) Speech, on resolution regarding filling of posts by open competitive examination delivered on 19 th July, 1927, Ibid., pp. 319 - 23.

(3) Speech, on the resolution regarding application of the principles of assessment of income - tax to the assessment of land revenue delivered on the 23 rd February, 1928, Th. & Ref., pp. 326 - 32.

عن طريق رفع الدمغات والطوابع. كما حدثت زيادة في الري وفي عدد الفلاحين المسجونين. وترجع زيادة الري إلى زيادة الأمطار. أما زيادة الفلاحين المسجونين لأن مدة عقوبة سرقة أقل المواشي سنتين. كما صرف القليل على التعليم وعلى الخدمات العامة مثل بناء الطرق والمباني العامة. وأصبح المجتمع الهندي قسمان: دائن ومدين. وينصح إقبال بجعل الضرائب لا مركزية حتى تستفيد بها الأقاليم. كما ينصح بتخفيض الرواتب العالية، وشراء المعدات والآلات من أرخص الأسواق[1].

وفي خطاب آخر يعطي إقبال تفصيلات أكثر بالأرقام في مناقشة بيان وزير المالية. ويبين العجز في الميزانية ومشكلة البطالة ونقص الصادرات. ويقترح بدائل ثلاثة: إما الإبقاء على النظام الحالي وما يتضمنه من عجز وجوع الملايين والديون أو البطالة أو التخلص من النظام الحالي كلية حيث المصروفات أكثر من الإيرادات. ويمكن الاعتماد على صناعة النسيج والأحذية لزيادة الدخل. وهذا يحتم زيادة الدعم للتعليم[2].

ويجمع إقبال بين الموضوعات الاقتصادية القديمة والمشاكل المالية الحالية. فلا يعطي الخراج إلا لأولي الأمر[3]. وهو تصور قديم للاقتصاد يعادل الضرائب حالياً والمصادر المالية للدولة. ومع ذلك لا يعتبر إقبال صاحب نظرية في السياسة أو في الاقتصاد. هو شاعر أولاً وفيلسوف ثانيا.

4 ـ الوطنية والقومية والعالمية

ويتعرض إقبال لأسس الأمة: الوطنية والقومية والعالمية. وهي بلغة عصرنا: الوطن والعروبة والإسلام. وهي الدوائر الثلاث التي يوجد فيها المسلم المعاصر والتي تشترك في مركز واحد ثم تتسع الدوائر من الصغرى وهو الوطن إلى المتوسطة وهي القومية إلى الكبرى وهي العالمية.

(1) Budget Speech, in the Punjab Legislative Council, 1929 - 30 (4 th March, 1929) Th. & Ref., pp. 333 - 6.

(2) Budget Speech, in the Punjab Legislative Council, 1930 - 1 (7 th March, 1930) Ibid., pp. 337 - 41.

(3) وأقول لك يا عالي المقام لسوي اثنين الخراج كالحرام
لأولي الأمر ومنكم شأنهم في الكتاب قوله برهانهم
جاويد نامه، ص292.

أ ـ **الوطنية**: هي من وضع الغرب ومكره ولورداته أي مفكريه لربط الروح بالتراب، وتفتيت الأمة إلى مصر والشام والعراق واليمن، وفارس وتركيا والحبشة. الدين هو بعث القلب الطاهر من الأرض. هو التوحيد بلا حدود. صحيح أن الإنسان من ماء وطين أي الوطن ولكنه أيضاً روح أي الدين. والإنسان يثور على ظلام الأرض ولا يرضى إلا بالصقور[1].

نشأت الوطنية في الغرب. وتحول الغربيون من الدين إلى السياسة، ومن الأخوة الإنسانية إلى القومية. وتركوا دين عيسى. وعجز الأساقفة عن الدفاع عنه. ووضع الدهري مباده بدلاً من دين عيسى. أخذ الغرب الشيطان بدلاً من الله وزعيمهم في ذلك ضد هذا الفلورنسي صاحب «الأمير» ميكيافيللي الذي عبد الوثن، القوة والإمارة والدولة. جعل الغاية تبرر الوسيلة. واستعمله الحكام للتسلط على رقاب الناس. أضاع الحق والعدل والفطرة إلى الباطل والظلم والإمارة. حول الملك إلى إله، والدين إلى صنم، والقبيح إلى حسن، والضرر إلى نفع، والحيلة إلى غاية[2]. نشأت الوطنية في الغرب بديلاً عن الدين. وانتهى دين عيسى.

(1) مكر لورد الغرب كم أعيا الفطن — فطن القوم بمعنى للوطن
ما هو الدين؟ القيام من ثرى — ذاته القلب الطهور كي يرى
«الله هو» من قالها قولا يجود — لم تعد تحويه هاتيك الحدود
يا حكيم الروح تسمو عن جهات — ضاق حر بقيود مثقلات
من ظلام الأرض حر قد يثور — ما كفأر فعلت تلك الصقور
قبضة الطين تسميها الوطن — دعك من مصر وفرس واليمن
بين أوطان وقوم نسبة — إنهم في الأرض منها نبتة

جاويد نامه، ص195 - 196.

من يخطب على المنبر قائلا بأن الملة قائمة على الوطن
كم هو جاهل بمقام محمد العربي
عليك أن تصل بنفسك إلى النبي فإن الدين كله
فإن لم تصل إليه فكل هذا يعد من أعمال أبي لهب

أرمغان حجاز، ص544 - 545.

(2) منصب الدين حواه الساسة — فنمت في الغرب هذي الآفة
دين عيسى بطلت قصته — وخبت في دوره شعلته
عجز الأسقف عن تقديره — حادت الأزلام عن تدبيره
قوم عيسى حقروا بيعته — أبطلوا في سوقهم سكته
مزّق الدهري ثوب المذهب — ومن الشيطان قد وافي نبي
ذا الفلورنسي عبد الوثن — كحله أودى بنور الأعين

واستسلم القساوسة للساسة. ومزق الدهري كيان الأمة.

ويشكو الأفغاني من الأحوال الحاضرة. فقد انتصرت الأمة سابقا. وقامت بفتوحاتها. واليوم عمتها أفكار الوطنية والقومية والشيوعية. وضاع منها روح الدين[1].

ظهر الإسلام كاحتجاج ضد عبادة الأصنام. والوطنية ما هي إلا شكل رقيق من أشكال الوثنية، تأليه موضوع مادي كما يتضح ذلك من الأغاني الوطنية للشعوب. ولا يسمح الإسلام بأي صورة من الصور. وما قضي الإسلام عليه لا يمكن أن يعاد كأساس لجماعة سياسية. ولقد ازدهر الرسول، ومات خارج موطنه. وقد يكون لذلك دلالة صوفية[2].

الوطن ليس أساساً للأمة[3]. فالأوطان والأقوام تقطع الأرحام والأخوة والبشر[4]. الوطن في ذهن إقبال هو الدولة القومية في الغرب، وليس الوطن بمعنى

= خط للأملاك سفرا منكرا / وبذور الحرب فينا بذرا
مزق الحق بحد القلم / فطرة تؤثر عيش الظلم
آزر العصر، بدا تزويره / خطة بدعا جلا تفكيره
جعل الملك إلاها دينه / كل قبح ناله تحسينه
جعل النفع عيار الذمم / حينما خر لهذا الصنم
صارت الحيلة فنا محكما / ونما الباطل مما علّما
خطة للوهن فينا حبكا / في طريق الدهر ألقى حسكا
أرمد الناس بهذي الحكمة / إذ دعا التزوير بالمصلحة

الأسرار والرموز، ص106 - 107.

(1) أمة قد دوّخت كل الأمم / فيها فكر الدين والأوطان عم
وتموت الروح من ضعف اليقين / بأسها من قوة الدين المبين

جاويد نامه، ص195.

(2) St. Ref., pp. 26 - 7.

(3) أترى الأوطان أصل الأمم / تعبد الأرض بها كالصنم؟
إنما الأنساب فخر السفهاء / حكمها في الجسم، والجسم هباء

الأسرار والرموز، ص88.

(4) قطعوا الأرحام بين الإخوة / صيروا الأوطان أسّ الأمة
قدسوا الأوطان إعجابا بها / قسموا الإنسان أسرابا بها
أنكر الإنسان وجه الإخوة / وانتهت قصة الإنسانية
ذهب الإنسان روحا وانقضى / بقيت أقوامه وهو مضى

السابق، ص105 - 106، المقدمة، ص50.

الولاء للأوطان والحنين إليها كما ذرف الرسول الدمع وهو يغادر مكة أثناء الهجرة منها. هو الوطن الذي نشأت بسببه حركات الاستقلال الوطني. ولا يوجد تعارض بين الوطن وهو محل الولادة، والقومية أي اللغة التي تتحدث الأقوام بها، والأخوة الإسلامية التي تجمع الشعوب والقبائل. لذلك وحدت الحركة السلفية المعاصرة عند الأفغاني علال الفاسي وحسن البنا بين الوطنية والعروبة والإسلام في ثلاث دوائر متداخلة، صغرى ووسطى وكبرى، وكما عبر عن ذلك القادة الوطنيون المحدثون مثل عبد الناصر في «فلسفة الثورة».

الأمة الإسلامية مؤسسة على التوحيد فلا تحدها الأمكنة. التوحيد لا موطن له. وإشعاعه لا حدود له. الأمة لا ترتبط بالهند أو الروم. الإسلام هو أرض المسلمين. والوطن مكان للسكن وليس للاعتقاد. الإنسان في الزمان وليس في المكان. الأرض في الدنيا والمسلم في الدين. القلب لا تحده أرض. ويهجر المسلم الدار، من أرض إلى أرض كما هاجر الرسول والصحابة والأئمة[1]. الأرض للمسلم مسجد، كل الأرض وليس رقعة منها تحاط بسياج. تلك قوة الإسلام والأخوة الإسلامية التي يهابها الأعداء. إذا اعتدوا على جزء من الأمة هبت الأمة كلها شرقاً وغرباً، متجاوزة حدود الدولة الوطنية[2]. فلماذا التمسك بالقطرة واليم محيط؟ ولماذا الاقتصار على الزهرة والروض فسيح؟ ولماذا الرضا بشعاع

(1) قلبنا الخفاق يأبى موطنا ريحه العاصف تأبى مسكنا
ليس من هند وروم قلبنا ما سوى الإسلام فيه أرضنا
من على الأفلاك فيه رفعة لم ترقه لبلاد نسبة
كان في الدنيا وفيها ما سكن ذلك المشرق في ليل الزمن
لست أدري ما حماه والوطن أنا دار أنه فينا سكن
قد رأى في أرضنا دنيا لنا وهو في الدنيا كضيف بيننا
الأسرار والرموز، ص102 - 103.

(2) لا تحد الأرضُ قلب المسلم لا يُرى في تيه أنّي وكم
ليس للمسلم في الأرض عطن حائر في قلبه كل وطن
حصّل القلب ففي وسعته ضل هذا الكون في فسحته
أمة ملء الدُنى قد أسسا جعل التوحيد فيها أسُسا
صارت الأرض لدينا مسجدا إذ أشاع الفضلُ فينا وهدى
ذلك المحمود في الذكر الحكيم ذلك المحفوظ بالله الرحيم
تفزع الأعداء من هيبته في ارتعاد من سنا طلعته
السابق، ص104.

الشمس والشمس في القلب؟ والحدث ليس له مكان في البحر بل يسبح في كل البحار. التوحيد تحرر من كل الجهات. وينتشر في كل الجهات. وشذى الورد لا يحدده حدود. فلماذا ترك التوحيد، والوقوع في خدعة العصر الجديد؟[1].

والأمة المحمدية ليست لها حدود زمانية أو مكانية. الزمن يتغير من موسم إلى موسم. أما الزمان فباق في دوراته الفصلية. الشرق والغرب مستمران إلى الأبد. الدهر ثابت، والأمم تترى عليه. يغادر الصديق وتبقى الصداقة. وينقضي الأفراد وتبقى الأمة. ينشأ الفرد من الطين القليل وتولد الأمة في قلوب العظماء. عمر الفرد عقود من الزمان. وعمر الأمة دهور من السنين. حياة الفرد روح في البدن. وحياة الأمة في تاريخها. موت الفرد بنهاية حياته، وموت الأمة باختفاء مقصدها وغايتها[2]. يموت الأفراد كما تموت الأمم. وأمة الإسلام لا تموت لأنها باقية منذ

---

(1) فلماذا أرض أهليه هجْر؟ ... أتراه خشية الأعداء فر؟
حجب القصاص معنى القصة ... غلطوا في فهم معنى الهجرة
هجرة شرع حياة المسلم ... هجرة سر ثبات المسلم
إنها التسيار نحو الوُسعة ... ولأجل اليم ترك القطرة
أهجر الزهرة أجلَ الروضة ... إن هذا الخسر ربح الكثرة
شرف الشمس مسير مطلق ... فيه من فوق البرايا شفق
لا تكن نهرا من السحب يمد ... وكن البحر، عبابا لا يحد
اقصدن تسخير كل العالم ... لترى سلطان أهل العالم
لا يقيدك مقام في الورى ... وكن الحوت يسيح الأبحرا
كل من حُرر من ذل الجهات ... فلك يُزهر من كل الجهات
ترك الورد شذاه فسرى ... في فسيح المرج عطرا نشرا
يا أسيرا قد ثوى في روضة ... عندليبا هائما في وردة
سيِّرن نفسك حرا كالصبا ... ثم عانق كل أزهار الربى
احذرن من خدعة العصر الجديد ... التباس النهج حاذر يا رشيد
الأسرار والرموز، ص104 - 105.

(2) ثابت في الدهر تقدير الأمم ... من مسير الغد سيار القَدَم
يسفر الخِل وتبقى الصحبة ... يرحل الفرد وتبقى الأمة
ينشأ الفرد من الطين القليل ... تولد الأمة من قلب جليل
نفس الأمة يحصى بالمئين ... ويعيش الفرد عشرات سنين
وحياة الفرد روح في بدن ... وحياة الشعب في حفظ السنن
موت فرد نضب ورد للحياة ... موت قوم ترك قصد للحياه
السابق، ص107 - 108.

عهد الذر الأول. لديها الذكر. وهو محفوظ لديها لآخر الزمان. إذا انطفأ المصباح، فالنور باق[1].

تذهب الأمم وتأتي غيرها. والأمة الإسلامية تنهض وتسقط، تصحو وتنام، تستيقظ وتغفل، ولكنها باقية في التاريخ. أمم اليونان والرومان والفرس والمصريين أي حضاراتهم قامت واندثرت. وقامت حضارة الإسلام وبعثت، طالما أن التوحيد في قلبها، والآذان في سمعها، وعشق الكون في وجدانها، ولا إله في كيانها[2].

الأمة الإسلامية أمة واحدة تربطها رابطة الأخوة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ ، وليست القومية الهندية أو الفارسية أو حتى العربية بالمعنى القومي الأوربي وليس بالمعنى الإسلامي حيث العروبة هي اللسان. المسلم ذات فردة. الأمة ذات مشتركة. وهي ليست مجرد إحصاء كمي لعدد المسلمين بل الروح الذي يسري فيها[3]. وكل الشعوب تتهم المسلمين بالتعصب. والحقيقة أنّ ما يُسمى بالتعصب له ما يبرره. وباستعارة صورة من علم الحياة يشبه التعصب مبدأ التفرد الذي يحافظ على

---

(1) كمماات الفرد تفنى الأمم — ولها يوما قضاء يُحتم
أمة الإسلام تأبى أجلا — أصلها الميثاق في قالوا بلى
لا تخاف الموت هذي الأمة — نحن نزلنا لديها حجة
دام ذكرٌ ما أقام الذاكر — بدوام الذكر دام الذاكر
ذلك المصباح أنى يُطفأ — قال ربي عالما أن يطفئوا
أمة الحق إلى الحق تنيب — أمة يعشقها أهل القلوب

الأسرار والرموز، ص108 - 109، المقدمة، ص50.

(2) ذهب الروم وفُض الموكب — شرقها أقوى وأقوى المغرب
كأس ساسان من الغم دم — حان يونان خراب مظلم
وعنت مصر لدهر عرم — وثوت أعظمها في الهرم
وأذان الحق فينا خلدا — أمة الإسلام تبقى أبدا
إن للكون من العشق حياة — وبه أجزاؤه شدت قواه
أحييت العشق قلوب تسعر — شبها من، لا إله، الشرر

السابق، ص110.

(3) إلى عصبات العرب ما أنا منتم — ولا أنا هندي ولا أنا أعجمي
فقد علمتني الذات تحليق نافر — يمر على الدارين غير محوَّم
بعينك أني كافر غير مسلم — وأنت بعيني كافر غير مسلم
فدينك تعداد لأنفاس محجم — وديني إحراق لأنفاس مقدم
تبدلت فالتبديل في الشرع حكمة — فليس يطيق الظبي شرعة ضيغم

ضرب الكليم، المدخل، ص ع/ 52/.

المجموعة. فكل أشكال الحياة أنواع من التعصب حفاظاً على الحياة الجماعية. لا يتحرك الإنجليزي إذا ما نقد دينه. ويتعصب إذا ما فقت حضارته أو وطنه أو سلوك شعبه في أي نشاط. والسبب في ذلك أن قوميته لا تستند إلى الدين بل إلى الجغرافيا. لذلك يثور ويتعصب إذا نقد وطنه. أما بالنسبة للمسلمين فالقومية فكرة دون أي أساس مادي. هو تصور للعالم. فإذا ما أثارهم أحد تعصبوا لتصورهم للعالم أي لثقافتهم كما يثور الإنجليزي إذا تم النيل من حضارته. التعصب وطنية للدين. والوطنية تعصب للوطن[1].

الدين للوطن إرضاء للواحد الديان وليس للأجنبي، قلوباً وجيوباً وعقولاً[2]. فكرة الوطنية ولا شك عامل صحي لنمو الجماعات ولكن قد يُغالى فيها. والمغالاة فيها تقيل العناصر الإنسانية العامة في الفن والأدب[3].

وإذا كان إقبال يرفض الوطنية كأيديولوجية سياسية محدودة الأفق مثل القومية والرأسمالية والشيوعية إلا أنه يرفض خيانة الوطن. ويخصص سياحته في فلك زحل في «جاويد نامه» إلى الأرواح الخبيثة التي غدرت بالوطن، ولم تقبلها حتى جهنم[4]. للأحرار إمامهم. وكل حر يبوؤه المقام. ثم يظهر الخائن في البنغال والدكن، عار على الدين والوطن. يزهق أرواح الأحرار ويشي بهم. يبعث اليأس من نيل المراد. ويشيع في البلاد والفساد[5]. خلع الخائن جسمه ولبس جسماً آخر. تقرب إلى الكنائس وألف الأديرة. حول دينه إلى متجر، وليس رداء عنتر وحيدر (علي بن أبي طالب). كل ذلك لنيل أغراض الدنيا. مع أن القدماء ما سجدوا لمغانم الدنيا. يبدو حزيناً على الدين وهو في الباطن من الملحدين. ولا يضيره قتل

---

(1) St. Ref., pp. 23 - 5.

(2) فالدين إرضاء الدخيل وليس — مرضاة الإله الواحد الديان
فقلوبهم وجيوبهم وعقولهم — للأجنبي تقرب وتفان
يا أمم الشرق، ص343.

(3) St. Ref., p. 95.

(4) جاويد نامه، ص273 - 278.

(5) إن شيطانين فيه يسكنان — أزهق الروح لقوم قاتلان
ذاك في البنغال هذا في الدكن — وهما للدين عار والوطن
أبغضا في اليأس من نيل المراد — الفساد قد أشاعا في البلاد
جاويد نامه، ص273 - 274.

المسلم. ويبث سم الثعبان في الحي كما يبث الفرق والشقاق في القوم. وينشر الفساد في البلاد[1].

وفي خطاب آخر عبر إقبال عن تخوفه من التيار المادي الملحد الذي يسود العالم. أما الوطنية فهي فضيلة طبيعية لها رصيدها في الحياة الأخلاقية للإنسان[2]. وقد قام غاندي مثل نهرو وإقبال من أجل مساواة جميع الهنود أمام القانون، وإقامة فيدرالية في الهند تحفظ لجميع الطوائف حقوقها. نشأ غاندي في منطقة الجوجرات حول بومباي حيث تقطنها أغلبية مسلمة. وقد اتفق الجميع على مبادئ ثلاثة: حق الشباب في الانتخاب، عدم وجود تمثيل خاص للطوائف خاصة المنبوذين، المطالبة بالاستقلال التام[3].

ب ـ القومية: ويسأل إقبال عن الصراع الحالي بين الدين والقومية وإلى أين ينتهي؟ ويجيب الرومي أن الأشياء الزائفة لا قيمة لها أثناء الليل. ودليل الذهب الصحيح أنه يشرق بالنهار[4].

---

(1) إن قيد الجسم عنه قد خلع — وبجسم آخر عشا وضع
تارة كان ألوفا للكنائس — وهو من في الدير أحيانا يجانس
دينه ما كان غير المتجر — عنتر يبدو كمثل حيدر
إنه عن كل هذا لا يحيد — طالما كان لدنيانا وجود
وقديما لسوى هذا سجد — وطنا في عصرنا ما قد عبد
وعلى الدين لنا يبدو حزينا — وهو في الباطن مثل الملحدينا
جعفر الأمة هذي من قتل — مسلما والقتل كان ما فعل
باسم، ما شاق يوما خله — يبسم الثعبان لكن ما له
الشقاق بثه في قومه — واللئيم شعبه من لؤمه
الفساد في بلاد حين يظهر — صادق أصل له أو كان جعفر
جعفر من روحه ربي أغثنا — من مثيل جعفر ربي أجرنا

السابق، ص276 - 277.

(2) ألقي الخطاب في لاهور في 21/ 3/ 1932، Th. & Ref., pp. 195 - 219.

(3) Ibid., pp. 195 - 206.

(4) قال: إن الدين والقومية اليوم صراع — أتت هل تدري بماذا ينتهي هذا النزاع؟
قال: ما في الليل للزائف والمحض عيار — ودليل الذهب الخالص إشراق النهار

جناح جبريل، ص524 - 525.

ويتأرجح إقبال بين طريق أوروبا وطريق الرومي، ولكنه يختار في النهاية طريق الرومي. فالاعتصام بحبل الحسن في الليل أفضل من الضياع في وضح النهار. والبصيرة أفضل من البصر. لقد احتار العصر كله في هذه الثنائية الجديدة، الأنا أم الآخر؟ الإسلام أم أوربا؟ ولكن الأنا أفضل. هو طريق حرية الأحرار. ولو كان مظلماً فإن شرر الرومي ينيره[1].

ويضرب المثل بالأمة الألمانية للقومية في اقتصاد الطبيعة. لكل أمة وظيفة حددت لها. ووظيفة الأمة الألمانية تنظيم المعرفة الإنسانية. وقد بدأ الألمان مشروعاً تجارياً آخر يعطيهم إمبراطورية، ولكنهم سيعانون من فقدان المثل الأعلى الأول إلى روح التجارة الثاني[2]. يوجد المثل الأعلى الروحي للأمة الألمانية في «فاوست» لجوته وليس في الكتب التي ألفها صياد الجليل. والألمان على وعي بذلك[3]. فالقومية الألمانية تنزع نحو الإنسانية.

جـ ـ العالمية: ويشكو إقبال إلى عصبة الأمم الظلم الواقع على الشعوب، وإجبار الفلاح على بيع أرضه بسعر مذل. ومع ذلك، يتشكك في إمكانية القيام بمسؤولياتها[4]. أنشأها الرئيس ولسون، وأعجب بها برجسون أشد الإعجاب كمنظمة دولية تعبر عن السلام، ولكن مصيرها إلى الزوال. موتها محتوم. وتستطيع أن تعيش «عجوز أوروبا» على رقي إبليس أياماً أخر[5]. ويسميها إقبال أحياناً «جمعية الأمم». لقد حاول بؤساء الأرض وضع سنن لتفادي الحروب، إلا أن

(1) أنـا لـقـافـلـة الـرومـي مـتـبـع — وهـل لـقـافـلـة الـرومـي مـن أثـر؟
هـب عـصرنا مـثـنويا آخر فـلـقـد — جـارت رسـالـة أوربّه عـلـى الـبـشـر
طـريـق حـريـة الأحـرار مـظـلـمـة — تـضيئـهـا شعـلـة الـرومـي بـالـشـرر
السابق، ص534.

(2) St. Ref., p. 32.

(3) Ibid., p. 66.

(4) إن مـررت بـجـنـيـف يـا صـبـا — بـلّـغـي الـعـصـبـة عـنـي مـا نـقـل
بـيـع فـلاح وتـلـك الأرض بـيـعـت — وأنـاس، ولـهـم سـعـر مـذل
جاويد نامه، ص291.

(5) مـسـكـيـنـة مـنـذ زمـان تـحـتـضـر — لاقـاه مِـقْـولـي بـسـيـئ الـخـبـر
ومـوتـهـا مـحـتّـم لـكـنـمـا — يـدعو القسوس أن يزول ذا الخطر
عـجـوز أوربـا يـجـوز عـيـشـهـا — عـلـى رُقـي إبـلـيـس أيـامـا أخـر
ضرب الكليم، ص111.

نباشي القبور أسسوا شركة لتقسيمها[1]. مازال النظام الدولي في حاجة إلى منظمة أو هيئة تقوم على العدل، وعدم المحاباة للقوي على الضعيف، وللغني على الفقير. تخدم مصالح البشرية جميعها، وليس مصالح الغرب وحده، وسيطرة الدول الكبرى عليه. وهو ما يُشاهد هذه الأيام بالمطالبة بإصلاح منظمة الأمم المتحدة.

5 ـ القاديانية والبابية

تأخذ القاديانية وتسمى أيضاً الأحمدية حيزاً كبيراً من فكر إقبال الديني والسياسي مدافعاً عنها ضد اضطهاد الأغلبية الإسلامية لها في الهند وخارجها بالرغم من صوفيتها. وهو الناقد للتصوف، وتأييد الاستعمار البريطاني لها، وهو المناهض للاستعمار. كان نهرو أصدق حدساً من إقبال في التنبيه على مخاطرها على الإسلام والوطن. ففي مقال له عن «القديانية والمسلمون السلفيون» (الأرثوذكس) يبين أهمية الخلاف بين الفريقين[2]. ويأخذ إقبال موقف التلميذ في مادتي تاريخ العالم والدين المقارن مع أن الأمر لا يتعلق فقط بالعلم بل أيضاً بالسياسة. ويعتبر إقبال أن الهند طالما أعطت ديانات لجماعات متعددة. ويعتمد على فكرة الغائية. وهي من أهم الأفكار في الحضارة الإنسانية خاصة الحضارة السحرية كما سماها اشبنجلر مثل الزرادشتية واليهودية والمسيحية اليهودية والكلدانية والصابئة. وقد ظهرت في الإسلام المعاصر حركتان البهائية والقاديانية. الأولى إسلامية صرفة، والثانية تمثلت عناصر خارجية معادية للإسلام. وهي حركة مشابهة لحركة «الصدوقين» Zaddiks في اليهودية. وأشهر زعمائها بعل شيم توف. تؤمن بالمهدية. رفض إقبال إخضاعها بالقوة. ودفع عن نفسه هذا الاتهام. ويطالب الهند والمسلمين بالتسامح معهم باعتبارهم يمثلون ديناً مثل باقي الأديان.

وفي «رد على أسئلة باندت جواهر لال نهور»، يعيد إقبال الدفاع عن القاديانية (الأحمدية) والبهائية في إيران[3]. ويتهم إقبال الحركة الوطنية الهندية

---

(1) بـؤسـاء الأرض رامـوا سـنـنـا لـتـزول الـحـرب فـي هـذه الـعـصـور
وسـمـعـنـا أن نـبـاشـي الـقـبـور شـركـة شـادوا لـتـقـسـيـم الـقـبـور
رسالة الشرق، ص329.

(2) Qadianis and Orthodox Muslims, Th. Ref., pp. 247 - 56.

(3) Reply to Questions raised by Pandlit Jawahar Lal Nehru, Th. & Ref., pp. 257 - 90.

بزعامة نهرو بأن مثاليتها السياسية قتلت إحساسها بالواقع، وأنها أصبحت متعصبة ضد حق تقرير المصير لسكان شمال غرب الهند، وأنها هي المسؤولة عن اضطهاد الهويات الثقافية في البلاد والتي من تفاعلها تستطيع الهند أن تصبح ثرية ذات ثقافة صلبة. كما أن القاديانية بدأت تخاف يقظة الحركة الوطنية الهندية لوضع أسس جديدة للأمة غير الأمة التي وضعها الرسول. ويحذر إقبال الهند من قوى التفكك والانحلال تحت دعوى الإصلاح. ويقارن بين طرد اسبينوزا من الرابطة اليهودية وطرد الأحمدية من الرابطة الإسلامية. وشتان ما بين طرد الفكر الحر من جماعة متفلسفة وطرد جماعة خارجة على الأمة عقائدياً وسياسياً. ليست القضية في الحالتين نقد وحدة الوجود بل هي القضية السياسية: رفض اسبينوزا العهد أو الميثاق الأبدي وشعب الله المختار في العقائد اليهودية، وتأسيس فرقة صوفية روحية لا سياسية تقوم على استمرار النبوة. ويطالب إقبال بالتعامل مع الفرقتين الجديدتين البهائية والقاديانية بروح التسامح ونأخذ منهما موقف الفلاسفة وعدم تقديمهما إلى محاكم التفتيش! ويرفض استشهاد نهرو بالكاردينال نيومان، وقبول حكمه على الإسلام. ويعتذر عن الفرقتين بأن المسلمين لم يقدروا جيداً مفهوم الغائية مع أنها دليل على وجود الله. ويعني به تحقق النبوة في الولاية، مع أنه سبق أن شرح معنى خاتم النبوة في «تجديد التفكير الدين في الإسلام». وجعل له فصلاً خاصاً عن «مبدأ الحركة في الإسلام». ويعني به الاجتهاد وليس الولاية. وأحياناً يطلق على الغائية اسم «بروز» وهو ما سماه محمود طه «الرسالة الثانية». ويحاول الاعتذار بالتصوف خاصة بابن عربي في «الفتوحات». وقد ظهرت هذه الحركات كلها في آسيا لسيادة التصوف الهندي. بل إنه يحتج ببطولة السلطان تيبو في مقاومة الاستعمار البريطاني، وكأن التصوف والإشراق أحد وسائل مقاومته وليس تثبيته. ويعتذر بموقف روسيا الشامخ مع البابية لأن التصوف ليس خطراً على الاحتلال الروسي للجمهوريات الإسلامية. بل إنه يعتذر للفرقتين شعوبيا. فالأحمدية «خليط غريب من التصوف السامي والآري» مع إحياء روحي لا يكتفي بتطهير الحياة الداخلة للفرد وفقط طبقاً لمبادئ للتصوف الإسلامي القديم بل بإشباع توقع الجماهير للمهدي المنتظر وذلك بالتبعية المطلقة له. بل يذهب إقبال بعيداً عندما يرى الأحمدية هي التي مهدت لظهور سعد زغلول ومصطفى كامل ورضا شاه، كما مهدوا من قبل للسيد أحمد خان والسيد جمال الدين الأفغاني. ويعيب على

نهرو إعجابه بأتاتورك. ويجعل المادية في مقابل الروحية ويبين خطر المادية على الدين. لقد ظهرت البهائية في إيران والقاديانية في الهند وكلاهما اتجاه اسماعيلي بالرغم من اعتراض نهرو عليهما ومدى تمثيلهما للإسلام الصحيح.

وكتب إقبال ملحقاً لمجلة أخرى لنفس الغرض: الدفاع عن استمرار الوحي الشفاهي في القديانية واعتبارها من الحركات التجديدية[1]. وجريدة «النور» من مجلاتها، واسمها دال عليها. يستعمل إقبال ابن خلدون لتبرير تواصل التاريخ. ويحيل إلى السيوطي والبخاري ومسلم فيما يتعلق بالمهدي المنتظر. بل يستعمل الفلسفة الغربية كالعادة. ويستشهد بامرسون الرومانسي عن إمكانية الإلهام. ويحيل إلى «تجديد التفكير الديني في الإسلام» وإلى كتاب كان ينوي كتابته وهو «مقدمة لدراسة القرآن». بل إنه يعتمد على تصنيف اشبنجلر الإسلام على أنه دين السحر. ومن ثم تدخل فيه القديانية والبهائية بسهولة باعتبارهما نزعتين اشراقيتين.

ظل إقبال يدافع عن القاديانية في الهند والبهائية في إيران ليس فقط في دراسات مطولة بل أيضاً في رسائل إلى الصحف والمجلات[2]. ويبين أنها لم تخرج على العقيدة الإسلامية، مع أن الموضوع ليس إيماناً بل سياسة. ولا يرى غضاضة في اعتبار بهاء الله نفسه نبياً بعد محمد. لذلك يُروج له الغرب. ومعبده الرئيسي في حيفا، في فلسطين المحتلة التي أصبحت حالياً إسرائيل. ويرى إقبال أن التجديد في الإسلام ضروري. والأحمدية والقاديانية مذهبان تجديديان! وبالرغم من تفرقة القاديانية بين الدين والمجتمع أو الدين والسياسة إلا أنها حريصة على البقاء داخل الإسلام السياسي.

وأرسل إقبال رسالة إلى نهرو رداً على رسالته بشأن الموقف السياسي للأحمدية. بيّن فيها إقبال الأساس الديني للأحمدية في الوحي! ولم يشأ أن يعطي الأسباب التاريخية لنشأتها. وقد فرح مسلمو البنجاب بخطاب نهرو الذي يتشكك فيه في نوايا الأحمدية السياسية على عكس موقف إقبال المتعاطف معها. ويعتذر إقبال أنه غير متخصص في علم العقائد (بالرغم من كتابته «تجديد التفكير الديني

(1) Rejoinder to "The Light", Th. & Ref., pp. 295 - 300.

(2) A letter to the statesman, Th. & Ref., pp. 291 - 4.

في الإسلام»)، ولكنه يريد أن يضع نفسه على نفس مستوى الأحمدية. كانت النية صادقة. ولأول مرة وبصراحة تامة يصرح إقبال لنهرو بأن الأحمدية خونة للإسلام وللهند. ويسأل في خطابه لنهرو عن اقتراحه إنشاء اتحاد للحرية المدنية[1].

والعجيب تعاطف إقبال مع البابية (المرزا على محمد الباب الشيرازي المولود عام 1820) والبهائية التي أسسها بهاء الله أحد حوارييه، والدفاع عن الفرقتين ضد اضطهاد المسلمين لهم على عكس كشف نهرو لهما بأنهما لا يمثلان الإسلام، وبأنهما من أنصار الاستعمار البريطاني. ويخصص آخر فقرة في الخاتمة لها ويصفها بأنها حركة عالمية مسرفة في نزوعها الإنساني دون اهتمام بالوطن. ولا زالت تسيطر على الفكر الإيراني الحديث. ويؤثر طابعها الصوفي ونزوعها العملي تأثيراً غير مباشر على التغيرات السياسية في إيران[2].

6 ـ كشمير وفلسطين

وبالرغم من حركات التحرر الوطني من الاستعمار إلا أن كشمير مازالت محتلة. تسري النار في أرضها لتغطي على الريح فيختلط اللون الأحمر بشدة الريح[3]. يطول في البحر صراع الموج حتى ولو ظل المسلمون على الشاطئ في اجتماع. يضرب الكشميري الأحجار في عرض الطريق كي يزيل الجبل العتيق. ترضع الأمم ألف فتى، وتعلمه المقاومة من أجل كشمير. لم يجد أمامه إلا العنف. فالمسلم لا يعيش على الشط بل يغوص في قلب البحر. لا يقف أمام الجبال كمانع بل يحطم الصخر[4]. هو الذي وهب الحياة للشرق. فربما هبط آدم فيها من الجنة

(1) Letter to Pandit Jawahar Lal Nehru dated 21 st June, 1936, Th. & Ref., pp. 306 - 7.

(2) تطور الفكر الفلسفي، ص134 - 135/ 142.

(3) أرضنا كشمير منها أصلهم ... وبها لا بسواها نجمهم
إن حسبت الأرض تخلو من شرر ... قلبك افتح وأطل فيه النظر
أصل تلك النار أين؟ ليت شعري ... ونسيم للربيع وهو يسري
في الجبال عندنا خفق لريح ... وبها تختال في لون وريح
جاويد نامه، ص293 - 294.

(4) طال في البحر بنا عنف الصراع ... لو حوانا البر يوما في اجتماع
وابننا أي ذلك النهر القديم ... منه في الوادي وفي السفح الهزيم

=

لأنها تشبهها. وقد تعوض سعادة الأرض عن سعادة السماء. صوته جرس للقوافل حتى لا تتخلى عن كشمير. لم يدب اليأس في قلوب الكشميريين. مازال في قلبه حجر وليس ثلجا. لقد بُعث الشعب الكشميري من القبور، يتأوه من الظلم. وليس أمامه إلا المقاومة وإضرام النار. فكم من الشعوب أحرقها الطغاة؟ الاستعمار في كشمير أدهى من حبات تدمره الأنفاس. والشعوب كما تبني تدمر. وجرح القلب وإهانة الكرامة يؤدي إلى الموت. تلك مهمة الشعر، إنشاد الألحان للتحريك والتأثير والتجديد[1]. ويدعو إقبال الكشميري لتحرير وطنه. هو زهر الصحارى الذي يضرم النار في قلوب الناس[2].

كشمير هي إيران الصغير. هو اليوم بلد خاضع وفقير. وحين يخاف رجل الحق السلطان والأمير تخرج الآهات المحرقة من صدر الأفلاك. الفلاح العجوز على سفح الجبل حزين. ينعى قسوة الأيام. فقد اختفى المجاهدون، العقول النيرة

= يضرب الأحجار في عرض الطريق — كي يزيل شأفة الطود العتيق
من فتى في كل أرض قد غلب — أرضعته ألف أم ثم شب
إنه بالعنف أبدى المحشرا — لم يجد عند سوانا المصدرا
ما الصواب عيشنا في حد ساحل — في الطريق حط ما صخرا يماثل؟
إن إلف الشط موت للأبد — يا مديح السبح في مُج الزبد
الحياة السير في غور ونجد — يسعد الموجة جزر بعد مد
أنت في وجه الحياة من قرأت — ذلك الشرق الحياة من وهبت

جاويد نامه، ص294.

(1) إن منك الصوت أجراس القوافل — ولكشمير أراك غير آمل
في الصدور لم يمت يأس فؤادا — تحت ثلج لم يصر جمر رمادا
قف تمهل لترى من غير صور — كيف قام الشعب من جوف القبور
وتأوه يا فتى لا تبتئس — أخضرا أحرق وأحرق ما يبس
كم بلاد تحت أفلاك السماء — أحرقتها نار قلب الأشقياء
إن هذا الملك أو هي من حباب — وهو بالأنفاس محتوم الخراب
إنما الشعر المصير قدَّرا — والشعوب قد بنى أو دمرا
أنت إن جرحت هاتيك القلوبا — لم تجد في هذه الدنيا ضريبا
جدد التحريك والتأثير جدد — ردد الألحان في الجنات ردد

السابق، ص294 - 295.

(2) أنت يا زهر الصحارى، قل أحققت احترافا — في قلوب للأناسي، هذه النار اضرمن
كنت في قلب لهيبا، ولهيبا في دماء — وإذا لم تقتنع بالقول ذا الكون اشطرن

السابق، ص296.

والأيادي العاملة. فليتمهل الإله في يوم الجزاء حتى تثور الشعوب المغلوبة، ويتطهر ضمير الإنسان، ويشع مصباح الأمل. فما الذي ذهب بالنشوة والنشاط من العيون الكشميرية السوداء؟[1].

وقد أعطى إقبال بعض التصريحات حول كشمير عندما استقال كرئيس للجنة «كشمير كل الهند»، نظراً لغياب أي دستور لها، وإعطاء الرئيس سلطة مطلقة. وهو حل مؤقت، بالإضافة إلى عدم اعتراض الأحمدية باللجنة وإثارتها بعض الشكوك حول مستقبلها على نقيض موقف مجموع مسلمي الهند[2]. وأعطى تصريحاً آخر بمناسبة رفضه تنصيبه رئيساً لجمعية «طريق كشمير» نظراً لأنه مازال رئيس لجنة «كشمير كل الهند». وقد روج القاديانيون للصحافة قبوله لهذا المنصب الجديد. وبالرغم من دخولهم في الهيئة السياسية الإسلامية إلا أنهم يريدون بث الفرقة فيها، وعدم اعترافهم بالمسلمين غير القاديانيين في كشمير. والخشية أن تقوم الجمعية الجديدة التي دعا إليها القاديانيون على أسس طائفية[3].

وفي تصريح حول الاضطرابات في كشمير يبين إقبال للكشميريين أن بريطانيا هو العدو الرئيسي وليس الهندوس، وأن هدف بريطانيا هو «فرق تسد»، وضرب المسلمين بالهندوس، والهندوس بالمسلمين. ويدعو إلى الوحدة بينهم وإلا عملت القوى المضادة ضد مصالحهم. كما يدعو إلى وحدة المسلمين. يكفيهم حزب سياسي واحد يمثلهم بدلاً من أحزاب متفرقة[4]. وفي تصريح حول الإصلاحات الإدارية في كشمير، يبين إقبال ضرورة بناء الثقة بين الحكومة والشعب. فقد صيغت الإصلاحات الإدارية له. ومشاركته فيها جزء منها. فالحكومة ليست غريبة عليه، بل تنبع منه[5].

---

(1) أرمغان حجاز، ص535 - 537.

(2) Statement, on his resignation of the office of President of All - India Kashmir Committee issued on the 20 th June, 1933, Th. & Ref., pp. 300 - 3.

(3) Statement, on his rejection of the offer of Presidentship of Tehrik - i - Kashmir issued on the 2 nd October, 1933, Ibid., pp. 304 - 5.

(4) Statement, on the disturbances in Kashmir, issued on the 7 th of June 1933, Th. & Ref., pp. 356 - 7.

(5) Satement, on the administration refrom in Kashmir, Issued on the 3 rd August, 1933, Ibid., p. 358.

ويخصص إقبال جزءاً من خطابه الرئاسي الذي ألقاه في المجلس السنوي للمؤتمر الإسلامي لكل الهند لقضية كشمير[1]. ويبين تاريخها الإسلامي، وكيف أنها إحدى الولايات الإسلامية ذات الأغلبية المسلمة. ومؤامرات الغرب لفصل كشمير عن التجمعات الإسلامية، وضمها إلى الولايات الهندية. ويقترح إقبال لحل المشكلة توضيحها في ذهن بعض القيادات الإسلامية، وجمع المال وتكوين رصيد وطني لمساعدة كشمير، وتكوين جماعات من الشبان للتوعية بالمشكلة، وتكوين معاهد مشتركة للرجال والنساء لدراسة القضية، وتكوين جماعة من العلماء والقانونيين من الداخل والخارج على حد سواء.

ويحمل إقبال هموم الأمة ليس فقط في الهند بل أيضاً في أفغانستان. ولم يرها وهي محتلة الآن بعد الغزو الأمريكي. وينادي نادرشاه ملك الأفغان كي يعود لإنقاذ أمة الأفغان من آلامها وجراحها[2]. وفي «وصية خوش حال خان» يعيد إقبال مناجاته للأفغان. ويطالبهم بشد أزر بعضهم بعضا. يتمتعون بفتيان صيادين، يرمون بشباكهم في السماء لصيد النجوم كرياضة الشجعان. فهم ليسوا أقل من المغول شجاعة. ويطالب ملك الأفغان أن يدفن فوق الجبال. لا تصفعه ريح ولا تمر عليه خيل. يكفي الحجر أن يكون خامداً تحت أكوام الرماد. ولو مرت فوقه ريح كان ذلك حديث الناس. ويضيء قبر تيمورلنك. وتحدث روحه بأن باب الله مازال مفتوحاً وإن سدته الأيام. فأحفاد طوران قادرون على استعادة مجد القدماء[3].

(1) ألقي في لاهور في 21/ 3/ 1932، Th. & Ref., pp. 206 - 19.

(2) وعـســى نـادر يـأتـي لـيـرى هـذي الـحـقـائـق
عـلـه يـغـسـل بـالـدمـع جـراحـات الـشـقـائـق

جناح جبريل، ص538.

(3) يـا أمـة الأفغـان شـدوا بـعـضـكـم بـعـضـا وكـونـوا سـادة الأفـغـان
ما شاهَدَتْ عيناي أجمل منظرا كـجـمـال صـيـاديـكـم الـفـتـيـان
يرمون في بحر السماء شباكهم صيد النجوم رياضة الشجعان
ليسوا أقل من المغول شجاعة لـيـسـوا بـأدنـى مـنـهـم فـي شـان
أنا خوش حال أحب قبرا إن أمت فـوق الـجـبـال مـمـرد الـبـنـيـان
لا ريح تصفعه بنقع خامل مـرت عـلـيـه خـيـول مـغـلـسـتـان
ما تبقي غير جمر هامد يـتـخـفـى تـحـت أكـوام الـرمـاد
أي ريح فوقه لو عصفت جـعـلـت مـنـه حـديـثـا لـلـعـبـاد
وإذا مرقد تيمورلنك قد بـدد الـلـيـل بـسـيـف مـن ضـيـاء
قال لي: يا أيها الباكي أنا روح تيمورلنك فاسمع ما أقول
=

تحتل أفغانستان مكاناً بارزاً في فكر إقبال بعد كشمير. إذ إن لها حدوداً مفتوحة مع كل الجمهوريات الإسلامية في أواسط آسيا. هي قلب آسيا كما أن مصر هي قلب الوطن العربي. ففي تصريح حول مشروع الجامعة الأفغانية يبين إقبال أن أفغانستان المتعلمة صديقة للهند. والتعليم عامل موحد بين الشعبين. هناك وعي يتبلور لدي الشعب في حاجة إلى مزيد من الاستنارة بالاعتماد على التجربة الهندية. لم ينتج التعليم العلماني الخالص نتائج جيدة خاصة في البلدان الإسلامية. لا يوجد نظام مطلق للتعليم. بل هو مرتبط بحاجة كل بلد(1). وفي تصريح آخر حول ظروف أفغانستان، أنها بلد آمن على الأرواح والممتلكات في وقت تشهد فيه البلاد موجة من العصيان. يؤدي الوزراء واجباتهم خير أداء. لا فرق بين رجال الدين والشباب والعمال في أداء الواجب. وتقوم أفغانستان الآن بتجديد نظم التعلم العام بحيث تتماشى مع البلدان المجاورة. فقد خصص قصر لمبنى الجامعة. ويتطور التعليم العالي في الطب والهندسة. وتربط الطرق بروسيا من أجل ربط وسط آسيا بوسط أوربا. وتدل النهضة الحالية لأفغانستان على بداية نهضة شاملة(2). مستقبل أفغانستان أن حكم التاريخ هو أن الدول المتاخمة لدول أخريي لم تستطع أن تكون وحدات سياسية كبرى. هكذا كان الأمر مع سوريا، دولة تخوم بين الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية. لذلك من الصعب التنبؤ بمستقبل أفغانستان(3).

وكما اهتم إقبال باستقلال كشمير وأفغانستان كذلك اهتم باستقلال تركستان تحت الاحتلال الصيني. ففي تصريح له حول العصيان في تركستان الصينية يبين كيف أن تركستان واقعة تحت الاحتلال الصيني والروسي. نشأ الغضب في تركستان الصينية بسبب تعيين قضاة صينيين في المقاطعة نظراً لأن 99٪ من سكانها مسلمون.

= إن بـــاب الـــلـــه مـــفـــتـــوح وإن ســـدت الأيـــام أبـــواب الـــتـــتـــر
أنـــت مـــن أبـــنـــاء طـــوران وإن فـــرقـــت أبـــنـــاء طـــوران الـــبـــشـــر

جناح جبريل، ص540.

(1) Statement, on the proposed Afghan University, published on the 19 th October, 1933, Th. & Ref., pp. 359 - 6.

(2) Statement, on the conditions in Afghanistan, issued on the 6 th November, 1933, Ibid., pp. 361 - 2.

(3) ST. Ref., p. 36.

سبب العصيان إذن ليس التعصب الديني بل كان سبباً اجتماعياً اقتصادياً. ربما ما زال العالم يفكر بطريقة العرق. وهو أخطر ما يهدد البشرية. خاصة في آسيا. وقد استطاع الإسلام أن يقضي على هذه النزعات العرقية بانتشاره في ربوع آسيا، وتجنب ما حدث في أوربا من سيادة النزعات العرقية. ويقترح إقبال استقلال المسلمين في تركستان. وموقف الصين من تركستان هو نفس موقف الهند من كشمير(1).

وكما قسمت بريطانيا الهند بين هندوس ومسلمين كذلك قسمت فلسطين بين عرب ويهود. وأقامت الحكم العنصري في جنوب أفريقيا في نفس العام 1948. وفي تصريح عن التقرير الذي يوصي بتقسيم فلسطين، يعبر إقبال عن إحساسه بظلم العرب. صحيح أن بريطانيا وعدت العرب بالعدل. وترك البرلمان البريطاني موضوع التقسيم مفتوحا. ويرجو إقبال أن ينطبق قرار البرلمان ليس فقط على فلسطين بل على كل أرجاء العالم الإسلامي. يقصد كشمير وربما جنوب أفريقيا. المشكلة إسلامية حقا. ففي ضوء تاريخ إسرائيل لم تعد فلسطين يهودية قبل دخول عمر إليها منذ وقت طويل أكثر من 1300 عام. وقد تشتتوا بإرادتهم في كل أنحاء المعمورة كما بين ذلك الأستاذ هوكنجز Hockings. ودونت كتبهم المقدسة خارج فلسطين. ولم تكن فلسطين أبداً مشكلة مسيحية. بل إن بعض النقاد يشككون في وجود بطرس الراهب بالرغم من محاولات الصليبيين جعل فلسطين مشكلة مسيحية. وقد انتهت هذه المحاولات بانتصار صلاح الدين. فلسطين إذن مشكلة إسلامية خالصة.

وقد كشف التقرير الملكي عن خفايا السياسة البريطانية. وكان الوعد بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين مجرد آلية. والحقيقة أن بريطانيا أرادت وطناً قومياً لها وسط أراضي المسلمين. ولم يحل ذلك المشكلة البريطانية في المتوسط بل بدأت المشاكل للاستعمار البريطاني. وبيع الأراضي المقدسة بما في ذلك مسجد عمر بالإضافة إلى الأحكام العرفية مع اللجوء إلى كرمهم يدل على إفلاس سياسي أكثر من تحقيق خطة سياسية. فإعطاء اليهود أراضي غنية، والعرب أراضي

(1) Statement, on the rebellion in Chineese Turkestan, Published on the 16 th May, 1933, Th. & Ref., pp. 352 - 5.

صحراوية يتنافى مع العدل والحكمة. هي قسمة ضيزى باسم بريطانيا العظمى التي وعدت العرب بالحرية والوحدة.

هذا درس من فلسطين لكل الشعوب الأسيوية يؤدي إلى الوحدة الفورية بين العرب والأتراك ضد سياسة عزل تركيا عن باقي أرجاء العالم الإسلامي بحجة ابتعاد تركيا عن الإسلام، وهي فرية كبيرة. ومن يجهل الشريعة الإسلامية يصبح ضحيتها. لن ينس العرب التجربة التركية وامتحان الأتراك. وليتذكر العرب دائماً أنهم لن يستعيدوا فلسطين اعتماداً على ملوكهم بل على ضميرهم الخاص. والقرار خاص بهم بعد فهم دقيق للوضع وبمبادرة خاصة بهم. إن اللحظة الحاضرة هي أيضاً لحظة اختبار لباقي الدول الإسلامية في آسيا. فبعد إلغاء الخلافة ظهرت أول مشكلة دولية خطيرة ذات أبعاد دينية وسياسية تواجهها القوى التاريخية. بل إن المشكلة الفلسطينية قد تهدد وجودها كأعضاء في المؤسسة الإنجليزية الفرنسية التي تسمى «عصبة الأمم» واستكشاف الوسائل العملية لتكوين جامعة الشعوب الشرقية[1].

لم يحمل إقبال هموم الأمة الإسلامية في كشمير وأفغانستان وتركستان وفلسطين بل أيضاً في فارس وتركيا. لم يكن الهدف تاريخياً خالصاً بل كان أيضاً الربط بالعصر الحاضر خاصة في فارس، ومنح الشاه دستوراً للفرس، وظهور تركيا الفتاة كقوة أساسية في النضال السياسي[2].

7 ـ الاستشراق

مازال الاستشراق يطل برأسه في دراسات إقبال الإنجليزية عندما يتكلم عن المحمديين ويقصد المسلمين، والمحمدية ويعني الإسلام أسوة بالمستشرقين الذين يشتقون اسم الدين من اسم مؤسسه مثل الكونفوشوسية من كونفوشيوس، والبوذية من بوذا، والزرادشتية من زرادشت، وليس من الفعل الأول في الدين مثل «الإسلام» من «سلم»[3].

---

(1) Statement, on the Report recommendation partition of Palestine, Punjab Muslim League, 27 th July, 1937, Th. & Ref., pp. 369 - 72.

(2) Th. & Ref., p. 75.

(3) Th. & Ref., pp. 39 - 41/43, 50 - 52/54.

ويستعمل إقبال في دراساته النظرية في الفلسفة السياسية المنهج التاريخي السائد في عصره والذي كان سائداً في الغرب في القرن التاسع عشر وتحجر ووقع في النزعة التاريخية[1]. فإذا ما درس التفكير السياسي في الإسلام فإنه يبدأ بما كان سائداً في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام حتى ظهور الإسلام. ثم تتابع المراحل التاريخية طبقاً للمراحل المعروفة من الدولة الأموية والدولة العباسية إلى العصر الحاضر[2].

ويستشهد بأقوال المستشرقين مثل توماس أرنولد Th. Arnold، واعترافه بانتشار الإسلام سلماً أكثر منه حرباً خاصة في جنوب شرق آسيا وأفريقيا[3]. كما يستشهد بفون كريمر Von Kremer بعد معرفة العرب بنظام الوراثة في الحكم[4]. ويستشهد بدوزي Dozy وحكمه على الفرس بأنهم لا يعرفون البيعة، وأنهم مستعدون لتأليه الإمام[5]. ويستشهد بفنسك Wensinck على أن الإسلام عليه أن يواجه الصعوبات التي واجهتها المسيحية بالنسبة لعلاقة الدين والسياسة[6]. ويستشهد بقول رينان إن الإنسان ليس عبداً لعرقه أو لدينه أو بمجرى أنهاره أو باتجاه جباله المحيطة به. بل إن الإنسان بعقله الراجح وقلبه الدافئ يخلق وعياً أخلاقياً يسمي الأمة[7]. ويعتمد على قوله إن الإسلام قد يفقد يوماً ما توجهه الأخلاقي والعقلي لجزء كبير من العالم[8]. ويستشهد بقول هرجونيي Hurgrounje على تطور الشريعة وكيف كفر كل اتجاه الآخر كدليل على ما يفعله المسلمون الآن ضد القاديانية والبهائية. مع أنه لم يحدث تكفير بين المذاهب الفقهية بل بين الفرق الكلامية[9]. ويعتمد على بعض علماء الاجتماع والأجناس ومؤرخي الأديان.

(1) النزعة التاريخية .Historicism

(2) Political Thought in Islam, Th. & Ref., pp. 56 - 75.

(3) Th. & Ref., p. 47.

(4) Ibid., p. 56.

(5) Ibid., p. 75.

(6) Ibid., p. 165.

(7) Ibid., p. 167 - 8.

(8) Ibid., p. 377.

(9) Ibid., p. 265.

الخاتمة

بعض الملاحظات النقدية

1 ـ جوهرية الذات: الذاتية هي محور فلسفة إقبال[1]. لذلك كان «الذات» و«الذات المشتركة» الباب الأول «الذاتية» بفصليه أكبر الأبواب. هو الخيط الناظم لحبات العقد كلها. كل الموضوعات الأخرى في أبوابها وفصولها تجليات للذاتية. وهي رد فعل على أوضاع المسلمين في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين. كانت أفغانستان تابعة للإنجليز. يدفعون لأميرها منحة سنوية في مقابل فرض وصياتهم على البلاد. وتركستان خاضعة لروسيا. وإيران متخلفة تحكمها التقاليد القديمة. اتجهت إلى مجالس العزاء وإقامة المراثي دون العمل والكفاح والجهاد. وهو ما نبّه عليه الخميني بعد ذلك في «جهاد النفس»[2]. وفرضت روسيا سيطرتها على شمال إيران بموجب معاهدة 1907 في مقابل فرض إنجلترا سيطرتها على جنوبه. وتركيا التي وصلت إلى أبواب فينا مدحورة حتى وصلت جيوش البلغار إلى القسطنطينية ومن قبلها روسيا. والعلماء يقبعون وراء المحافظة القديمة. واحتل الإنجليز مصر في 1882. وامتدوا إلى السودان، ونبش قبر المهدي. وكانت فرنسا قد سيطرت على الجزائر منذ 1830. ثم احتلت تونس والمغرب وسوريا ولبنان. واحتلت إيطاليا ليبيا. واحتلت إنجلترا العراق والأردن والخليج واليمن. حاول جمال الدين الأفغاني إيقاظ المسلمين قبل إقبال، وتصدر الإسلام في مواجهة الاستعمار في الخارج، والقهر والتخلف في الداخل. وكان حال مسلمي الهند أسوأ من حال المسلمين العرب. فقد احتلت إنجلترا الهند. ونشرت الأفكار المميتة في

(1) سمير عبد الحميد إبراهيم، مقدمة الأسرار والرموز، ص2 - 9.

(2) الإمام الخميني: جهاد النفس أي الجهاد الأكبر، القاهرة، 1980.

روح المسلمين بعد أن ضيقوا علمهم في الرزق، واستولوا على أراضيهم. وأشعلوا نار الفتنة بين المسلمين والهندوس بعد تأسيس حزب المؤتمر. كان لدى المسلمين مدرستان، عليكره لتخريج موظفين للإمارة المدنية، وديوباند لتخريج علماء محافظين. أما الأمراء فقد انشغلوا باللهو عن مصالح الأمة. وقرض الشعراء الشعر التقليدي الميت. وتأسس عام 1906 حزب الرابطة الإسلامية أو الجامعة الإسلامية. لم يكن الهدف إذكاء روح الحرية عند المسلمين بل مطالبة الإنجليز ببعض الحقوق ضد السيطرة الهندوسية مع الوفاء لبريطانيا. ثم تغير الموقف عام 1911 بعد إلغاء تقسيم البنغال عام 1912. وفي هذه الظروف كتب إقبال مثنوي «أسرار النفس».

ومع ذلك يمكن القول بأن إقبال دفع مفهوم «جوهرية الذات» وكأنها ماهية مسبقة ثابتة دائما. هو الله نفسه. فالذات Khudi من نفس الاشتقاق لله Khuda. الذات جوهر غير متعين، وعي خالص، لا فرق بين الذات الإلهية والذات الإنسانية[1].

2 ـ الثنائيات التقليدية: هناك ثنائيات تقليدية شائعة مثل ثنائية العلم والدين كما هو الحال عند برجسون، برودة العلم وحيوية الدين، عجز العلم عن الاقتراب من عالم الروح، وقدرة الدين على النفاذ إليه[2]. إن لم يكتمل العلم بالدين فإنه لا يصبح علماً. وخطورة ذلك هو أخذ نتائج العلم وتوفيق عقائد الدين ونصوصها عليها وكما هو الحال في التفسير العلمي للقرآن على مدى قرن من الزمان[3]. وثنائية العقل والوحي أو العقل والقلب أو العقل والعشق وإعطاء الطرف الثاني الأولوية على الطرف الأول هي الثنائية التقليدية بين علوم النظر وعلوم الذوق، بين الحكمة والتصوف بالرغم من تقدم الحكمة نحو الإشراق، والتصوف نحو الفلسفة

(1) من العقيدة إلى الثورة، جـ2، التوحيد.

(2)
العـلـم يـخـلـق إبـراهـيـم مـوتـتـه ... إذا تـراه نـديـم الـقـلـب والـنـظـر
هـذي الـحـيـاة وهـذا الكـون ما بُدلا ... مـا مـحـدث وقـديـم قـول ذي بـصـر
ما يُحسن المرجُ تربيب الزهور إذا ... لـم يشترك نسمات الطّل في الزهر
العلّم إن لم يُضف نجوى الكليم إلى ... رأي الحكيم فما في العلم من قدر

ضرب الكليم، ص16.

(3) منذ طنطاوي جوهري في أوائل القرن العشرين حتى زغلول النجار في القرن الواحد والعشرين.

الإلهية. والتقابل بين الكفر والإيمان تقابل تقليدي من علم أصول الدين. أقرب إلى موقف الخوارج حيث لا واسطة بينهما لدى الفاسق أو المنافق. وقد يكون عمل الكافر أفضل من نفاق المؤمن. فالمحك هو العمل لا النظر.

3 ـ **التصوف السلبي**: وإقبال ضد التصوف ومع التصوف، ضد تصوف الفناء ومع تصوف البقاء، ضد تصوف العبادات ومع تصوف المعاملات، ضد تصوف الآخرة ومع تصوف الدنيا. فإذا تخلى العرب والعجم عن الرسالة يبقى الصوفية الأقدر على حملها(1). كل مصطلحاته من الصوفية، المقامات والأحوال والعشق والمحبة والقلب والنفس والوجود والفناء والبقاء والرضا. . .إلخ. هذا الموقف المشتبه من التصوف هو الذي جعل إقبال يقبل بعض عناصر التصوف السلبي مثل الفقر بالرغم من محاولة تحويله إلى مقام إيجابي في «الفقر الغيور». وبالرغم من نقد إقبال لبعض المقامات والأحوال السلبية مثل الرضا والتوكل إلا أنه يقبل بعض الجوانب السلبية التي ليس عليها دليل مثل الخضر والمعجزات، حقيقة لا رواية، والحقيقة المحمدية التي يؤلّه فيها محمد كما ألّه النصاري المسيح. وبالرغم من نقده القضاء والقدر والتوكل إلا أنه ضد الأخذ بالأسباب اعتماداً على التوكل، خطوة إلى الأمام وخطوتان إلى الخلف. وبالرغم من نقد إقبال لفقير الهند على باب المساجد للتسول إلا أنه يدافع عن الفقر في أمة بها بون شاسع بين الأغنياء والفقراء.

ويقترب إقبال من «الحقيقة المحمدية» عند الصوفية في مناجاته له وتسميته الإسلام باسمه ونداء روحه «أي روح محمد»(2). وهو تأليه محمد وإخراجه خارج الزمان والمكان، ومشاركته لله في بعض صفات مثل الخلق والسرمدية. في حين أن القرآن يجعل محمد مجرد إنسان يوحى إليه. هو ابن امرأة تأكل القديد، ويمشي في الأسواق. هو كائن إنساني يولد ويموت، يأكل ويشرب، يصوم ويفطر، يناجي ربه ويأتي النساء. هو رسول الله وخاتم النبيين، أداة لإيصال الوحي من الله إلى الناس كما أوصله جبريل من الله إلى الرسول. وقد حذر

(1) Persian Psalms. P. 69.

(2) فبيّن لنا الأسرار روح محمد حفيظ لآي، ياله، أين يذهب؟

ضرب الكليم، ص32.

الرسول من إطرائه كما أطرت النصاري عيسى بن مريم. وعندما أنكر عمر أن الرسول قد مات ذكّره أبو بكر بآية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾. وتختلط الشكوى بالمديح النبوي بالطريقة التقليدية عند العامة أو بتصور الحقيقة المحمدية عند الصوفية، لا فرق بين محمد الإنساني ومحمد الإلهي، بين محمد الشخصي ومحمد الكوني، بين محمد الرسول ومحمد المعشوق. يخاطب الشاعر المصطفى، ويحادثه بضمير المخاطب المفرد، وجهاً لوجه دون واقع يجمع بينهما. الحقيقة المحمدية خلط بين الرسول والرسالة وتفخيم دور الرسول على دور الرسالة، وتحويل الوسيلة، وهو الرسول، إلى غاية وهي الرسالة. مع أن الرسول مجرد بشر، مثل باقي البشر ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ .

والعجيب أن تنتهي رموز نفي الذات بشكوى الشاعر إلى من أرسل رحمة للعالمين. وهو شكل أدبي مثل الدعاء. كلاهما مناقضان لفلسفة العمل. فالشكوى مذلة، والدعاء ضعف. وأساليب الشكر والشكوى لا تتفق مع فلسفة الذاتية، وأقرب إلى مواجيد الصوفية. فالشكر من العبد الجهول الذي وصل إلى سر الغيب، وأعطى هيام قلب قرّب البعيد، والشكوى من أنه موجود بأرض العبيد التي تطيب نفوسها بالرق. فالشكر مقام من مقامات الصوفية يتنافى مع أداء الواجب كما هو في المثل العامي «لا شكر على واجب». والرق ليس موضوعاً للشكوى بل للتغير الاجتماعي والسياسي[1].

ويبدو أن العشق والحياة والشوق والطاقة هي تعبيرات شعرية لموضوع تقليدي محافظ هو الإيمان أو القلب. يدعو إقبال الله أن يجعل عشقه قرين العمل. العشق هو العلم الأسمى وهو جوهر الدين. كما يدعو أن يهبه الله اليقين بدلاً من الشك الذي أمضى فيه سنين كما دعا الخيام والغزالي من قبل. كما يدعو الله أن

(1)
لك الحمد إني عبد جهول ... ولكن وُصلْت بسر الغيوب
منحتُ القلوبَ هُياما جديدا ... أثرتُ البعيد به والقريب
ومن حر شدوي يُرى في الخريف ... طروبا بصحبته العندليب
ولكن خلقت بأرض بها ... نفوس العبيد برق تطيب

ضرب الكليم، ص14.

يميته في الحجاز مهبط الوحي، ومسكن المصطفى أرض الإيمان، وليس أرض الأصنام، أرض المقام. فنعم هذا الوطن[1].

4 ـ **الانبهار بالقديم**: وبالرغم من نقد إقبال للتراث القديم، الكلامي والفلسفي والصوفي والفقهي إلا أنه من أكبر المدافعين عن الأصالة والقديم ضد الجديد. ويدافع عن التقليد في زمن الانحطاط، فيزداد الانحطاط. ولا يُقام تجديد إلا بالاجتهاد وإعمال العقل. ويدعو إلى التقليد في زمن الانحطاط، والتخلي عن الاجتهاد. وهو مبدأ الحركة في الإسلام. ولا يقابل الانحطاط إلا التقدم، وشرط التقدم إعمال العقل. ولا شأن للقياس، أحد أشكال الاجتهاد، بالمنطق الأرسطي الذي عرفه الشافعي واضع علم الأصول. فقد عاش الشافعي في القرن الثاني (ت 204هـ) وعصر الترجمة لم يكن قد انتهى بعد أو عند أبي حنيفة وبإرجاع النظر عنده إلى منطق أرسطو وقد توفي 150هـ[2]. ينبهر إقبال بالقديم وهو غير عالم به على نحو دقيق وباستعمال منهج الأثر والتأثر الأثير عند المستشرقين.

ويرفض الحسن والقبح العقليين عند المعتزلة. الأشياء حسنة وقبيحة لأن الله

---

(1) أسألن الله رب العرش لي ... يجعلن عشقي قرينَ العمل
رب قد أنعمت بالروح الحزين ... ونصيبا شئت من علم ودين
فاجعلن في الفعل حظي أوفرا ... واجعلن قطر ربيعي دررا
في إسار الشك أمضيت سنين ... وهو في رأسي مقيم لا يبين
أحرقن نلت من علم اليقين ... ومن الحكمة في الريب رهين
لم يلحُ في ليل عمري نور حق ... لم يُنره ليلي شعاع من شفق
يا من القلب سواه أغفلا ... إئذنن أذكر هذا الأملا
سيرتي ما ضار فيها العمل ... كيف مثلي مثل هذا يأمل
يا رحيما بك للناس مفاز ... كل ما أبغيه موتي في الحجاز
هجْرُ غير الله شأن المسلم ... كيف لي عيش ببيت الصنم
حسرة المسلم أن صُمّ الممات ... أن يكون الدير مثوى للرفات
وبل يومي، وهنيئا لغدي ... إن أقُم في ذا الحمى من لحدي
حبذا أرض ثراها موطنا ... حبذا ثُوب تراه مسكنا
دار حبي ومليكي والسكن ... أيها العشاق! ذا نعم الوطن
أيها الدهر انظرن هذا السلام ... قد رأيت البدأ فانظر ما الختام

الأسرار والرموز، ص149 - 154.

(2) حنين بن اسحق (ت264هـ)، اسحق بن حنين (ت 299هـ)، ثابت بن قرة (ت 288هـ)، قسطا بن لوقا (ت 300هـ)، أبو بشر متى بن يونس (ت 328هـ)، يحيى بن عدي (ت 364هـ).

أمر بها أو نهى عنها، وليست في ذاتها. ويتهم العقلانية الغربية بالتفتيت والتفكيك باسم التحليل مع أن السبر والتقسيم أي رصد العلل وتحليلها هو أحد مناهج «التعليل» في علم الأصول.

والرسول قادر على إجراء المعجزات. ونموذجها عصى موسي التي تفجر الماء من الصخر، والإسراء والمعراج لمحمد. فالمعجزة تدل على القدرة والسيطرة على قوانين الطبيعة.

ويقول إقبال بالحاكمية وبأن الإنسان خليفة الله في الأرض، نفس دعوى المودودي المعاصر له. فالحاكمية لله لا للأيديولوجية ولا للقومية ولا للوطنية. والأخوة الإسلامية تجب الأيديولوجيات والقوميات والنزعات الوطنية. مع أن الله لا يحكم. وليس له ما يمثله على الأرض. الإمامة عقد وبيعة واختيار بإجماع الأصوليين، لا تعيين ولا وراثة.

والشريعة الإسلامية عند إقبال إلهية كما هو الحال عند السلفيين المحافظين مع أنها شريعة «وضعية» كما قرر الشاطبي في «الموافقات». لها ركائزها في «أحكام الوضع» الخمسة: السبب، والشرط، والمانع، والعزيمة والرخصة، والصحة والبطلان. فكل فعل له سبب. وتتوفر له شروط. وتزول عنه الموانع، يتم بالحد الأعلى أو بالحد الأدنى. ويتحقق بالنية وليس لمجرد استيفاء الشكل. لا يعني «الحد» فقط المعنى الحرفي وهو «التجاوز» بل يعني أيضاً جرس الإنذار حين الخروج على حكم العقل وقانون الطبيعة وإلا تحولت الحدود إلى خرق لقوانين العقل والطبيعة على حد سواء. والشريعة اليهودية ألواح نزلت من السماء، وليست قوانين أخلاقية هبطت على قلب موسى كما فسر إسبينوزا.

ويدافع إقبال عن الأحمدية القاديانية والبابية بدعوى حرية الفكر والرأي، وهو الذي يدافع عن التقليد وقت الانحطاط. يبدو أن إقبال خضع للحملات الغربية دفاعاً عن هذه الادعاءات المذهبية المعاصرة التي تخرج من فرق الشيعة عامة والإسماعيلية خاصة. وتنحو بالإسلام نحواً صوفيا عالمياً يتجاوز حدود الأوطان كادعاءات الماسونية. وإقبال ضد التصوف. ومثلها البهائية. ويقوم مؤسسوها على ادعاء النبوة أو الولاية أو الإلهام الخاص. يؤيدها الغرب لأنها تسقط ركن الجهاد في الإسلام بدعوة المحبة العامة لكل البشر بما في ذلك المستعمرين والصهاينة.

لذلك كان مركز البهائية الرئيسي في حيفا. وتضغط الدوائر الغربية لجعل البهائية ديناً رسمياً معترفاً به في البطاقات القومية في حين أن الحركات الإصلاحية كلها تتجاوز الفرقة المذهبية العقائدية والفقهية لتوحيد الأمة والعود إلى الإسلام الأول.

وبالرغم من الذاتية ودعوة إقبال للعمل والنشاط ضد التصوف والكسل، إلا أنه ما زال يؤمن بالمهدي، المخلص، الرسول الجديد القادر على إنقاذ الأمة. وإقبال الشاعر قبل المهدي. كلاهما يوقظ الأمة من سباتها. وهو ما لاحظه ابن خلدون أيضاً في أن العرب لا يفلحون إلا بصبغة نبوة أو ولاية. وهو ما يتنافى مع قدرة الشعوب على الحركة، والجماعة على الفعل لصالح انتظار البطل الذي قد لا يأتي. وقد يكون الخلاص في الحاضر دون انتظار المستقبل، بالفعل الجماعي وليس بالفعل الفردي.

ويعظم إقبال الحجاز والعرب ومكة والكعبة. يبجل العرب لأنهم حملة الرسالة، والحجاز لأنها مهدها، ومكة لأنها كعبة المسلمين[1]. في حين أن التوحيد لديه غير مرتبط بزمان أو مكان. وقد حملت شعوب أخرى رسالة الإسلام في آسيا وأفريقيا. والعروبة ليست عرقاً أو مكاناً أو مدناً أو شعوباً بل لغة. فكل من تكلم العربية فهو عربي. وبيت الله الحرام هو أول بيت وضع للناس بمكة. يدل على التوحيد، والتوجه نحو قبلة واحدة، واجتماع الأمة كلها في مكان واحد وزمان واحد لدراسة حال الأمة وإعلان البراءة من أعدائها.

5 ـ **رفض الغرب**: وبالرغم من أن إقبال من كبار المصلحين إلا أن موقفه من الغرب أقرب إلى الرفض منه إلى القبول. صحيح أنه يرفض الحداثة على المنوال الغربي إلا أن المحافظين يعتمدون على هذا الموقف المعادي للغرب للدفاع عن الذات القديم. يمكن نقد الغرب في إطاره النظري، ورد مذاهبه الفكرية والاجتماعية والسياسية إلى الظروف التي نشأت فيها. ويمكن تحويل الغرب من كونه مصدراً للعلم كي يصبح موضوعاً للعلم وتأسيس علم «الاستغراب». وإذا كان الغرب قد أصبح مصدراً للثقافة الإسلامية المعاصرة منذ أكثر من ثلاثة قرون وتفاعل مع الثقافة الإسلامية القديمة وإنتاج فكر إسلامي حديث فإنه لا يمكن

---

(1) Persian Palms, p. 64.

رفضه أو استبعاده وإلا سار الإنسان ضد منطق التاريخ. ويرفض إقبال كل مظاهر الحداثة في الغرب باعتبارها ضد الدين ومعادية له. والحداثة تجربة تنموية أصيلة في نظرية المعرفة والسلوك وأقرب إلى الاتجاه الإسلامي في الاعتماد على العقل والسيطرة على قوانين الطبيعة.

وفي نفس الوقت يمدح إقبال المصلحين الأتراك لأنهم جمعوا بين الوافد والموروث، بين الغرب والشرق في رؤية جديدة كما فعل أصحاب «التنظيمات» دون الوقوع في نموذج أتاتورك، القطيعة مع الموروث وتقليد الوافد.

وقد استلهم الشاعر الوطني التركي العظيم ضيا آراءه من أوجست كومت بالنسبة للعلمانية والحداثة. وقد لاحظ هوبز أن من يكرر أفكاره ويتعود عليها فإنه لن يكون قادراً على الإبداع فيما بعد. ومن ثم وجب التفاعل مع الأفكار المغايرة، واستلهام ثقافات أخرى لتطوير الثقافة الذاتية. والأمة الإسلامية اليوم تمر بنفس الفترة التي مرت بها أوربا أثناء الاصلاح الديني عند مارتن لوثر. وقد كانت حركة سياسية في جوهرها لإحلال الأخلاق القومية محل الأخلاق المسيحية الشاملة. ثم تحولت القومية والوطنية فيما بعد إلى نزعات عنصرية[1]. ويستشهد بأوجست كومت على الجماعة الإسلامية بلا حدود عرقية أو جغرافية أو لغوية بقوله إن الدين يضم كل أبعاد الوجود الإنساني. وتاريخه جزء من تأريخه.

وتنتسب الاشتراكية الملحدة الحديثة لهيجل. أخذت نفس حرارة الدين وحميته[2]. وهي مادية صريحة تفسر الظواهر الدينية تفسيراً مادياً. ويعتبر بعض علماء الفزيولوجيا كبار المتدينين مثل جورج فوكس G. Fox من مرضى الأعصاب وأن الرسول كان «متهوسا». في حين أخرج يونج ظواهر التدين من علم النفس التحليلي إلا أنه لم يلتزم بمذهبه. واعتبرها تعبيراً عن البنية النفسية الشعورية واللاشعورية.

وبالرغم من عداء إقبال للغرب إلا أنه لقي الدكتاتور الإيطالي موسوليني الذي أراد إحياء الأمجاد الرومانية الاستعمارية القديمة تحت ذريعة نهضة الأمة وإحياء

(1) تجديد، ص182 - 188.

(2) السابق، ص216 - 217.

عظمتها. وهناك فرق بين الأمة التي تقوم على أواصر الأخوة مثل الأمة الإسلامية والأمة التي تقوم على نقاء العنصر مثل الفاشية والنازية والصهيونية.

ويصدر إقبال أحكاماً على الفلسفة الغربية تتسم بعدم الدقة والرفض المبدئي باسم الإسلام أو الإيمان واتهام المذاهب الغربية بالكفر والإلحاد والمادية. فالعلم الغربي كفر أو يؤدي إلى الكفر لأنه يفسر الظواهر بعللها المادية فحسب. في حين أن تحليل العلل أساس القياس في علم أصول الفقه. والعلمانية ضد الدين لأنها تفصل بين الدين والدولة في حين أنها فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية، الكنيسة عن الدولة وليس الدين عن الحياة. ومقاصد الشريعة ابتداء وهي الضروريات الخمس، الحفاظ على الحياة والعقل والقيمة والعرض أي الكرامة والمال أي الثروة الوطنية تتجاوز الفصل الزائف بين الدين والعلمانية. فحقوق الإنسان وحقوق الشعوب تتجاوز هذا الفصل التعسفي.

6 ـ **الاستشراق**: ربما خضع إقبال لآثار التيارات العنصرية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر عند رينان وجوتييه وتفرقتهما بين العقلية السامية والعقلية الآرية. وكرد فعل على تمجيد المستشرقين الآرية ونقد السامية يحدث عند إقبال رد الفعل المضاد بتفضيل السامية على الآرية[1]. طبيعة الجنس الآري تقوم على الفلسفة في حين تقوم طبيعة الجنس السامي أي العربي على العمل. يعبر الفكر الآري عن وحدة الوجود في حين يعبر الفكر السامي عن التوحيد. لذلك مال الفكر الآري في الهند وإيران إلى القول بوحدة الوجود وأن الذات مجرد زيف. والدول الأوربية تقول بالذات منذ ديكارت وهي آرية. ويقول بعض الصوفية المسلمين بوحدة الوجود وهم ساميون. وتظهر الشعوبية أحياناً في تفسير وحدة الحضارة الإسلامية بأنها تخصيب متبادل بين الأفكار السامية والأفكار الآرية. تجمع بين رقة ونعومة الأم الآرية ورجولة الأب السامي[2]. والفلسفة الإيرانية هي الأب قبل الإسلام ثم أخذت شكلاً جديداً بعده.

7 ـ **الاشتباه في فكر إقبال**: وبالرغم من الجوانب التقدمية في فكر إقبال

(1) سمير عبد الحميد: الأسرار والرموز، المقدمة، ص13.

(2) Muslim community, Th. Ref., p. 379.

خاصة في شعره مثل الذاتية والفعل والحرية إلا أن بعض الجوانب التقليدية مازالت فيه. لذلك انقسم أنصاره إلى فريقين. الأول، يدفع بالاتجاهات الاصلاحية التقدمية إلى الأمام. والثاني، يجر إقبال إلى الاتجاهات التقليدية للمحافظة. فالإيمان هو الحل، وذكر الله المستمر هي نقطة البداية، والتصوف هو الطريق للمحافظة على الشخصية، والإسلام هو أفضل الديانات، والشريعة أسمى الشرائع. ولا فرق بين الشعر والخطابة. والوعظ والإرشاد. يعرف إقبال الحقيقة مسبقاً ويحاول الاستدلال على صحتها بالبرهان أو التعبير عنها شعراً بالصورة الفنية المستقاة من الطبيعة الحية من النبات والحيوان والطير. والإنسان هو المؤمن وليس المواطن أو القومي. والمؤمن وحده هو العالمي نظراً لعالمية الإيمان والأخوة الإسلامية. ووضع المرأة في المنزل لتربية الأولاد وليس المرأة العاملة. ويرفض إقبال التسوية في الدية بين المسلم وغير المسلم كما هو الحال في المدارس التقليدية في الفقه في مقابل مدارس أخرى قديمة وحديثة تسوي في القصاص بين القاتل والمقتول بصرف النظر عن الدين (المسلم وغير المسلم) أو الجنس (الذكر والأنثى) أو الوضع الاجتماعي (الحر والعبد). وفي الفنون ينقد إقبال فن السينما ويعتبرها تمويه الصورة واستبدال الحقيقة بها. والتصوير الفني في القرآن والشعر هو أيضاً استعمال للصورة عن طريق التخييل من أجل التأثير في الناس. ويمدح إقبال الملك فاروق بمناسبة توليه العرش عام 1936. ويقرض له الشعر كما يفعل الشعراء الأقدمون في مدح السلاطين. وقد أنعمت ملكة بريطانيا عليه بلقب «سير». فأصبح «سير محمد إقبال».

المصادر والمراجع

1 ـ دواوين الشعر

- الديوان الأول. **صلصلة الجرس، (بانكا درا)**. إعداد سيد عبد الماجد الغوري، جـ1، مؤسسة محمد إقبال الإسلامية (الهند)، دار ابن كثير، دمشق، بيروت (د.ت).

- الديوان الثاني. **الأسرار والرموز. أسرار إثبات الذات ورموز نفي الذات، أسرار خودى ورموز خودى**. نقله إلى العربية شعرا الدكتور عبد الوهاب عزام (د.ت).

- الديوان الثالث. **رسالة الشرق، (بيام مشرق)**. نقله إلى العربية الدكتور عبد الوهاب عزام (د.ت).

- الديوان الرابع. **زبور العجم**. نقله إلى العربية شعرا الدكتور حسين مجيب المصرى (د.ت).

- الديوان الخامس. **جناح جبريل. (بال جبريل)** نقله من الأردوية إلى الفرنسية نثرا السيد ميرزا سعيد ظفر شاغتي والسيدة سوزان بوساك ثم نقله من الفرنسية إلى العربية نثرا الأستاذ عبد المعين الملُوحي. ثم صاغه بالعربية شعرا الأستاذ زهير ظاظا.

- الديوان السادس. **ضرب الكليم**. إعداد سيد عبد الماجد الغوري. نقله إلى العربية شعرا الدكتور عبد الوهاب عزام.

- الديوان السابع. **رسالة الخلود (جاويدنامة)**. نقله إلى العربية شعرا الدكتور حسين مجيب المصري. وله ترجمة أخرى نثرا من الدكتور محمد السعيد جمال الدين (د.ت).

- الديوان الثامن. **والآن... ماذا نصنع؟ يا أمم الشرق**. نقله إلى العربية الأستاذ أحمد الغازي، وصاغه بالعربية شعرا الشيخ صاوي شعلان المصري.

- **ديوان هدية الحجاز. (أرمغان حجاز)** نقله إلى الفارسية شعرا الدكتور حسين مجيب المصري. وله ترجمة وتحليل للديوان مع دراسة عن عصره وفكره وأدبه تأليف الأستاذ سمير عبد الحميد إبراهيم، المكتبة العلمية ومطبعتها اليك رود، لاهور، باكستان 1976.

- **درر من شعر إقبال، شاعر الإسلام وفيلسوفه**. نقله إلى العربية نظما الآنسة أميرة نور الدين داود، مطبعة المعارف، بغداد 1951م.

- Persian Psalms. Zabari-I-'Ajam, parts I, II, translated into English verse from the Persian by Arthur J. Arberry, Muhammad Ashraf, Kashmiri Bazar, Lahore, 1948.
- The Renaissance of Islam. Iqbal's Tulu-e-Islam, rendered into English by Abdur-Rahman Tariq and Aziz Ahmed Sheikh, Pan-Islamic publications, National House, Lahore, 1966.
- The Guide. Iqbal's Khizr-e-Raah, rendered into English by Tariq and Aziz, Pan-Islamic publications, National House, Lahore, 1965.
- The New Rose Garden of Mystery and the Book of slaves. versified english translation of Iqbal's Gulshan-i-Raz-i-Jadid and Bandagi Namah by Hadi Hussain, Introduction by S.A. Vahid, Sh. Muhammad Ashraf, Kashmiri Bazar, Lahore, 1969.
- The Secrets of The Self, translated from the original Persian with introduction and notes by Reynold A. Nicholson, Litt. D., Ll. D., Sh. Muhammad Ashraf, Kashmiri Bazar, Lahore, 1969.
- Complaint and Answer. Translation by A.J. Arberry, Sh. Muhammad Ashraf, Kashmiri Bazar, Lahore, 1971.
- A Message from The East. A selective verse rendering of Iqbal's Payam-i-Mashriq by M. Hadi Hussain, Iqbal Academy, Pakistan, Karachi, 1971.

2 ـ المؤلفات النثرية

- **تجديد التفكير الديني فى الإسلام.** ترجمة عباس محمود. راجع مقدمته والفصل الأول منه المرحوم عبد العزيز المراغي. وراجع بقية الكتاب الدكتور مهدي علام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة .1952 ط 2، 1968.
- **تطور الفكر الفلسفي فى إيران، إسهام فى تاريخ الفلسفة الإسلامية.** ترجمة أ.د. حسن محمد الشافعي، أ.د. محمد السعيد جمال الدين، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة 1409هـ ـ 1989م. العنوان الأصلي للكتاب Development of Metaphysics in Persia.

- *Thought & Reflections of Iqbal, edited with notes by Sayed Abdul Vahid*, SH. Muhammad Ashraf, Kashmiri Bazaar, Lahore, Pakistan, May, 1964.
- *Letters and Writings of Iqbal edited and compiled by B. A. Dar*, Iqbal Academy, Karachi, November, 1967.
- *Letters of Iqbal to Jinnaln, Allama Iqbal's views on the political future of Muslim India*, SH. Mohammad Ashraf, Kashmiri Bazaar, Lahore, Reprinted, 1968.

المحتويات

الباب الثاني
جـــدل الذات

الباب الرابع
السقوط والنهوض

الباب الخامس
الذات المضادة

الباب السادس
التراث والتجديد

الباب السابع
الدولة الأمة

يتبع الأعمال العلميّة، بالعربية:

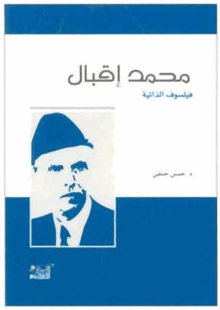
- حوار المشرق والمغرب، (بالاشتراك)، القاهرة، 1990.
- مُقدِّمة في علم الاستغراب، القاهرة، 1991.
- هموم الفكر والوطن، (جزءان)، الإسكندرية، 1997.
- جمال الدين الأفغاني، 1998.
- الدين والثقافة والسياسة في الوطن العربي، 1998.
- حوار الأجيال، 1998.
- من النقل إلى الإبداع، (تسعة أجزاء)، 2000 - 2002.
- فشته: فيلسوف المقاومة، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003. ط2، الجمعية الفلسفية المصرية، القاهرة، 2003.
- من النص إلى الواقع: محاولة لإعادة بناء علم أصول الفقه، (جزءان)، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2004.
- من مانهاتن إلى بغداد، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004.
- من الفناء إلى البقاء، (جزءان)، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2009.

الأعمال العلميّة، بالإنكليزية:

- الحوار الدينى والثورة، القاهرة، 1977.
- الإسلام في العصر الحديث، (جزءان)، القاهرة، 1995.

الأعمال العلميّة، بالفرنسية:

- مناهج التأويل، باريس-القاهرة، 1965.
- تأويل الظاهريات، باريس-القاهرة، 1966.
- ظاهريات التأويل، باريس-القاهرة، 1966.



محمد إقبال

فيلسوف الذاتية

لأول مرة يصدر كتاب شامل عن الفيلسوف مُحمّد إقبال اعتماداً على شِعره ونثره من أجل مشاركة القارئ في تذوّق الشعر. وبالرغم من انقضاء ما يقرب من سبعين عاماً على وفاته إلاّ أن موقفه بالنسبة للأوضاع الحاليّة للأمة الإسلامية مازال دالاًّ ومعاصراً.

يعرض فلسفته في الذاتية: الذات الفرد، والذات المشتركة أي الأمة.

وجدل الذات: إثباتها (التأويل) ضدّ نفيها.

والشكوى والأنين: الشكوى والجواب، والأنين والحنين.

والسقوط والنهوض: أسباب السقوط وعوامل النهوض.

والذات المضادة: الغرب والتغريب، والغرب والشرق.

والتراث والتجديد: التراث الفلسفي القديم، وتجديد التفكير الديني.

وأخيراً الدولة والأمة: نظام الدولة، وحال الأمة.

موضوع الكتاب **فلسفة**

ISBN 9959-29-415-9
9 789959 294159

موقعنا على الإنترنت
www.oeabooks.com